تُحْفَةُ الزَّائِرِ

في مَآثِرِ الأَمِيرِ عَبْدِ القَادِرِ

تأليف

مُحَمَّد بن عَبْد القَادِر الجَزَائِرِي

رحمه الله

فهرس المحتويات

المقدمة

جغرافية أقسام المغرب لقد تقرر عند علماء من هذا لفن أن حـدود قارة أفريقية غرباً البحر المحيط الغربي وشرقاً بحـر الهنـد وبـرزخ بـاب المندب والبحر الأحمر وبرزخ السويس وشمالاً البحر الأبيض وأمـا حـدود أفريقيا الشمالية مع المغرب فغرباً البحر المحيـط الغـربي وشـرقاً ارض النوبة وبلاد مصر ومن الجنوب صـحراء نيسـر وهي متصـلة من المغـرب إلى المشرق ذات مفـاوز يسـلكها تجـار المغـرب إلى السـودان الغـربي وفيها مجالات لقبائـل الملثمين وعلى سـمت هـذه المفـاوز شـرقاً ارض فازان ويلي صحراء نيسر إلى جهة الشمال منها العرق الممتد من أولهـا إلى آخرها ومن جهة المشرق منه بلاد السودان الشرقي ويحدها شـمالاً البحر الأبيض وفي الجزء من حدها الغربي إلى جهـة الجنـوب جبـل درن معترضاً في المغرب كله من غربي عند البحر المحيط إلى انتهائه شرقاً وفي القطعة الغربية التي بالقرب منه وعلى البحر المحيط ربـاط ماسـا ويتصل به بلاد سوس وعلى سمتها شرقاً لجهة الجنوب بلاد درعة ثم بلاد سجلماسا ثم قطعة من صـحراء نيسـر وفي آخرهـا مـواطن زناتـا ثم أن جبـل درن من جهـة الغـرب مطـل على بلاد المغـرب الأقصـى وهي في جوفه في الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش واغمـات وتـادلا وعلى لبحـر المحيـط منهـا مدينـة الربـاط وسـلا والعـرايش وفي الجـوف من بلاد مراكش بلاد فاس ومكنـاس وتـازة وقصـر كتامـة وقـد كـانت في عـرف أهلهـا بـالمغرب الأقصـى وقـد سـميت هـذه البلاد شـرقاً بلاد المغـرب الأوسط وتسمى الواسـطة وتعـرف الآن ببلاد الجزائـر وقاعـدتها قديمـة مدينة تلمسان وأما الآن فمدينـة الجزائـر وفي سـواحل هـذه البلاد على البحـر الـرومي مدينـة وهـران ومسـتغانم وتنس وشرشـال والشـوبك

والجزائر وفي شرق بلاد لجزائر مدينة بجاية ثم قسطنطينية في الشـرق منها وفي الجنوب منها بلد مسيله ثم بلاد الزاب وقاعدتها قديمة بكسـرة وهي تحت جبل أوراس المتصل بجبل درن الذاهب في أفريقيا الشمالية غرباً وشرقاً . وينقسم إلى قطعـتين جنوبيـة وجوفيـة فالقطعـة الجنوبيـة غربيها كله مفاوز وفي الشرق منها بلاد غدامس وفي سـمتها شـرقاً بلاد فازان أما القطعـة الجوفيـة ففي غربيهـا تبسـه وعى سـاحل البحـر بونـا وهي عنابة وفي سمت هذه البلاد شرقاً بلاد أفريقية وفي عرف مـؤرخي الإسلام فعلى الساحل مدينة تونس ثم سوسـة ثم المهديـة وفي جنـوب هذه البلاد تحت جبـل درن من جهـة الشـرق بلاد الجريـد وتـوزر وقفصـة ونفزاوه وفيما بينهما وبين السواحل مدينة القـيروان وعلى سـمت هـذه البلاد كلهـا بلاد طـرابلس على البحـر وبإزائهـا في الجنـوب جبـل دمـر ومنازل قبائل هواره متصلة بجبل درن وفي مقابله غدامس في القطعـة الجنوبيـة بلـدة صـغيرة تعـرف بسـويقة ابن مشـكور وفي جنوبهـا ارض فازان ثم رمال وقفار وبين الجبل والبحر من الجهة الغربية بلـد اجدابيـة ثم برقـة ثم منعطـف الجبـل ثم طلمسـا وهي بلـدة صـغيرة على البحـر واعلم أن المغرب في عرف قدماء الجغرافيين قطـر واحـد يحـده غربـاً البحر المحيط ويسميه المتأخرون الاقيانيوس الاتلانـتيكي وشـمالاً البحـر الـرمي ويخـرج من خليج متضـايق بين طنجـا وطريـف من بلاد الأنـدلس وجنوبا جبال هائلة حاجزه بين بلاد السودان وبلاد البربر وتعرف عند أهل البادية بالعرق وهو سياج على المغرب من جهة الجنوب مبتدئا من البحر المحيط ذاهبا إلى جهة الشرق على سمت واحـد إلى أن يعترضـه النيـل الهابط من الجنوب إلى ارض مصر وبه ينقطع وللمغرب أيضا سياج آخـر من الجبـال ممـا يلي التلـول تعـرف بـالأطلس وهى تخـوم تلـك التلـول ممتدة من لدن البحر المحيط في المغرب إلى بلاد برقة شـرقا وهنالـك ينقطع ويسمى مبدؤها من المغرب جبال درن وفي غـيره من المـواطن

تسمى بأسماء متعددة عند ساكنيها ما بين هذه الجبال المحيطة بـالتلول وبين العرق المذكور بسائط وقفار وأما من جهة الشرق فـالبحر الأحمـر إلى بلـد بلـد السـويس فيـدخل إقليم مصـر وإقليم برقـة بالحـد وعليـه فالمغرب جزيرة أحاطت بها البحار من الجهات الثلاثة وأما على اصطلاح المتأخرين الذين قسموا الأرض إلى قارات إحداها قارة أفريقية وجميعها جزيـرة وقـد تم ذلـك باتصـال البحـرين بفتح خليج السـويس وهـذا آخـر المغرب عنـده شـرقاً المعـول عليـه لهـذا الزمـان والعـرف الجـاري بين سكان أقسام المغرب الثلاثـة لا يـدخل فيـه إقليم مصـر ولا برقـة وإنمـا يختص بطرابلس وما وزاها إلى جهة المغرب أما المغـرب الأقصـى فهـو ما بين وادي ملويـة من جهـة الشـرق إلى مدينـة أسـفي حاضـرة البحـر المحيط من سوس الأقصى غربـا ويحيـط بـه البحـر المحيـط من غربيـه والرومي من شماليه والجبال المتصاعدة المتكاثفـة مثـل درن من جهـة الجنوب وجبال تازة من جهة الشـرق وقاعدتـه لهـذا العهـد مدينـة فـاس وأما المغرب الأوسـط فهـو مـا بين وادي ملويـة غربـا إلى مدينـة بجايـة شرقا وقاعدته تلمسان وأمـا المغـرب الأدنى يعـرف بأفريقيـة من بجايـا إلى طـرابلس شـرقا وكـانت قاعدتـه إلى أواسـط المـاء الخامسـة من الهجـرة مدينـة القـيروان ولمـا تغلبت العـرب على أفريقيـا أحـاط بهـا الخراب فصارت قاعدتها ودار ملكها إلى هذا العهد إلى بلدة تونس وأمـا برقة فقد انقضا أمرها ودرسـت أنصـارها وغـدت منـازلا للعـرب بعـد أن كـانت دار ملـك لواثـة وهـواره وغـيره من الـبربر وكـانت بهـا الأمصـار الواسعة مثل لبدة وزويلة وبرقة قصر حسـان وسـرت واجدابيـه وغيرهـا فعادت خالية بعد أن كانت آهلة والى الله ترجـع الأمـور . واعلم ان عـدد سكان المغرب في أقسامه الثلاثـة مجهـول لعـدم اعتنـاء ملوكـه بضـبط النفوس وقد ذكر بعض المؤرخين أن من أهل العصر أن المغرب يشتمل على عشرين مليونا من النفوس وجل سكانه بأقسامه بهذا العهد إسـلام

وقليل من الموسويين ولم يكن للمسيحيين والموسويين فيه قديما عـدد يعتبر أما الآن فقد كثر عـدد الإفـرنج في المغـرب الأوسـط بعـد اسـتيلاء الفرنسـيس عليـه في مراسـي المغـرب الأقصـى وأفريقيـا ودخلـوه الموسويين لما أخرجتهم إسـبانيا والبرتغـال من مملكتيهمـا فقصـد منهم نحـو مائـة ألـف نفس إلى المغـرب الأقصـى وخمسـين ألـف لبقيـة بلاد المغرب ولذا يوجد عددهم في المغرب الأقصـى اكـثر منـه في الأوسـط والأدنى .

ذكر حدود بلاد الجزائر ومساحتها وما اشتهر فيها من المدن والجبال والأنهار وصنوف نباتاتها وثمارها وصنائع أهلها وما يوجد فيه من الحيوانات والمعادن

اعلم أن حدود داخلية المغرب وبسيطة لم تنضبط في القديم ولم تثبت زمانا يعتد به لتوالي الفتن فيها بين ملوكه فتارة تدخل كلها تحت سلطة دولة واحدة وتارة تنقسم إلى دوائر وايالات متعددة فتتداخل مرة وتتميز أخرى ولم يزل الأمر على ذلك قبل الإسلام وبعده إلى أن استولى العلويين على المغرب الأقصى واستقرت دولتهم فيه إلى هذا العهد واستولت الدولة العلية على الأوسط والأدنى فأحدثو حين إذ حدوداً واسطلحو عليها واستمرت معتبرة ثابتة إلى الآن فأما حدود المغرب الأوسط والأدنى من جهة الغرب فمن واد عطية آخر بلاد مسيردة الحاجز بين أرضهم وارض بني خالد بطن من بني يزناسن ثم يميل إلى جهة الشرق على مناصب كيس من أطراف ارض انكاد إلى آخر جبل مديونة قبلة وجدة ويحدهما شرقا ارض برقة كما تتقدم ثم لما انفصلت مملكت الجزائر من مملكة تونس في هذين المغربين صار جبل القالة ونهر صراط بفتح الصاد وتشديد الراء تخوما للمملكتين وبهذا الاعتبار نقص من المغرب الأوسط من جهة الغرب من تخوم وجدة إلى وادي ملوية ومن بجايه إلى جبل القاله واضيف مانقص من الأدنى إلى مابقي من المغرب الأوسط فصار مملكة متقلة متميزة بحدود ثابتة معتبرة إلى هذا العهد وسميت بالجزائر التي هي قاعدتها ومركز حاكمها العام الذي بيده زمام أمورها ويحد هذه البلاد كلها من جهة الشمال بحر الروم المحيط بشطوطها من مصب وادي عجروت فيه من وراء بلاد مسيردة غربا إلى القلة شرقا عند انتهائه في البحر وفي جهة الجنوب العرق المحيط بالتلول المتقدم ذكره وفيما بينه وبين التلول قصور كثيرة ومجالات لظواعن العرب والبربر والخاضعين لأحكام الدولة الدائمين بطاعتها من قرب قصور توات غربا إلى بلاد الجريد شرقا ولم تزل هذه الحدود مقررة على هذا الوجه إلى الآن وأما مساحتها فقد

ذكر بعض المؤرخين ممن ينتحل علم الجغرافية أن وضع بلاد الجزائر محصور بين ثمان درجات وثلاثين دقيقة طولا شرقياً ودرجة واحد وثلاثين دقيقة طولاً غربياً من معدل النهار على اسطلاحهم وقال بعض مؤرخي الفرنساويين إن وضعها محصور بين ثلاثة ونصف وسبعة وثلاثين للطول وستة للعرض الشرقي وأربعة للعرض الغربي قياساً على دائرة نصف النهار في باريس ثم قال فمن ثم تكون بلاد الجزائر مشتملة على خمس درجات من الشمال إلى الجنوب وعلى عشر درجات من الشرق إلى الغرب وقال غيرهم من الإفرنج طولها من الغرب إلى الشرق ألفان وستمائة ميل وعرضها في بعض الأماكن خمسمائة وخمسون ميل وفي بعضها مائة وأربعون ميل وذكر بعضهم ان سطح أرضها مقدار تسعة وثلاثين مليونا وتسعين ألفا هكتار كل هكتار مائة متر مربع وقال آخر ثلثمائة ألف وتسعون ألف كيلو متر كل كيلو متر ألف ذراع وكل ما ذكر على سبيل التقريب وإلا فبلاد الجزائر واسعة . وأقطارها شاسعة ومن مدنها الشهيرة الجزائر وهى مدينه على ساحل البحر اختطها بلكين بضم الباء الموحدة واللام وتشديد الكاف المكسورة وسكون الياء المثناة التحتية بعدها نون ابن زيري الصنهاجي بكسر الزاي وسكون الياء المثناة التحتيه وكسر الراء بعدها ياء تحتية وكان يتردد إليها من منازله بالمسيلة ونزلها بنوه من بعده ثم اختصمت ببني مزغنان بطن من صنهاجا وبهم اشتهرت وفي القاموس جزائر بني مزغنان بلده بالغرب ثم أطلقت اسم الجزائر على سائر بلاد المغرب الأوسط ولما عقد إسماعيل المنصور العبيدي لزيري ابن مناد الصنهاجي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة على بلاد تاهرت وبلاد شلب وعين ولدة بلكين لولاية الجزائر وغيرها فاستوطنها واهتم بشأنها واجتهد في عمرانها فأخذت بالحضارة والتمدن حتى اشتهرت وطار ذكرها في الآفاق وتناغى الملوك بالاستيلاء عليها جيلاً بعد جيل إلى أن صارت قاعدة ملك البلاد وتنوسي أمر تلمسان وبنو زيان واستولى عليها الموحدون سنة ثمانين وأربعمائة وفي سنة ثمان وتسعين وخمسمائة دخلت في حوزت بني حفص ملوك أفريقيا ثم صارت لبني زيان ولم تزل وطناً لبني مزغنان خلفاً عن سلف إلى أن استولى عليها الاسبانيول سنة ستة عشر وتسعمائة واشتدت وطئته على المسلمين وكان عروج المعرف بباربروس الأول قد استفحل أمره واخذ جيجل إحدي مراسي تونس من يداهل جنيوا من ايتاليا فبعث إليهم سالم ابن تومي السنهاجي أمير بني مزغنان صريخا في كشف بلواه فلباه ودخل الجزائر من جهة البحر وانحجز الاسبانيول في حصنهم المعروف ببرج الفنار وضيق عليهم ثم اقتحم الحصن بجيوشه واستلحمهم عن آخره وتم استيلائه على الجزائر وقام فيها يختبر أحوالها ويتفرى مسالكها وظهر منه لسالم بن تومي وقومه مالم يكن في حسابهم فلحقهم الندم واظلم الجو بيهم وبين عروج فقبض على سالم وقتله وتم له الأمر وكان هذا أول قدم للدولة العلية في المغرب الأوسط وتونس وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى ولسيدي الجد ولوالدتي سيدي علي بن أبي طالب رحمة الله في وصفها لما مر عليها قاصداً الحجاز قوله . عليك الجزائر عج

نحوها ◈ وداوي بطيب شذاها العلل

وشاهد قصوراً شيدت بها ◈ وأمكنه نزهة للمقل

فكم من علوم منوعة ◈ يضع نشرها بالدروس فسل

وكم مشكلات أزال الغطا ◈ فحول بهم سار ضرب المثل

وكم فاضل قد حورته وكم ◈ همام يصول وفرد وصل

وكم بددوا شمل جمع كفو _ ر بيض المواضي وسمر الاسل

وجيش كمي وصخب الجيا _ د وحزم وعزم يقد القلل

أضاقوا البلاد بجلب العدا ◈ اساري وعض الفضا والجبل
وكم من حصون اعدت بها ◈ لدفع عدو طغى فانجدل
فسر قاصداً بلدة قد ثوى ◈ بها الفضل حقاً ونيل الأمل
. . . ساري وفاسل بها ◈ وتونس ذات البعا والحلل
فيا رب صنها من المزعجات ◈ ومن كل شر وضر نزل
وابق علوماً وتقوى بها ◈ لجيل فجيل إلى المنتقل
بجاه النبي الرسول إلى ◈ الخلائق حتى الهداة الأول
عليه صلاة من الله ما ◈ تألق برق وودق هطل

ومنها تلمسان وهي مدينة قديمة اختطفها بني يفرن من زناته واتخذوها دار ملكهم عند ما عمروا المغرب الأوسط واستولوا عليه ثم جاء الإسلام وهي دار ملكهم وهم الذين سموها تلمسان وهي بلغتهم مركبة من كلمتين تلم وسان ومعناهما تجمع اثنين أي البر والبحر ولم تزل على ما كانت عليه إلى أن نازلها عبد المؤمن بن علي أمير الموحدين سنة أربعين وستمائة فخر بها بعد أن قتل جيشه عامة أهلها ثم ندب الناس إلى عمرانها وإصلاح ما انثلم من أسوارها ثم جعل ولايتها لأولاده فصرفوا همتهم في أعمارها واتخذوا الصروح والقصور بها واحتفلوا في مقاصد الملك ولوازمه وكان من أشدهم اهتماماً بذلك وأوسعهم فيه نظراً أبو عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن وامتدت أيام ولايته فيها فشيد بناءها ووسع خطتها ثم وليها من بعده ابن عمه أبو الحسن ابن أبي حفص ابن عبد المؤمن ولم يزل عمرانها يتزايد وخطتها تتسع إلى أن نزلها آل زيان واتخذوها داراً لملكهم فاختطفوا بها الربوع البديعة . والقصور المشيدة الرفيعة . وغرسوا فيها الرياض المونقة . واجروا خلالها الأنهار المتدفقة . فأصبحت من اعظم أمصار المغرب الأوسط ورحلت إليها الناس من القاصية ونفقت فيها أسواق العلوم والبضائع ونشأ بها العلماء العظماء . واشتهر فيها الأفاضل الأعلام . وضاهت أمصار الدول الإسلامية . والقواعد الملكية . ومدحها الشعراء وأفاضل العلماء ويغني عن الإسهاب في وصفها ما ذكره المقري في الطيب ولله در عالمها الجليل الإمام ابن مرزوق حيث يقول فيها . بلد الجداو ما أمر نواها ◈ كلف الفؤاد بحبها وهواها

يا عاذلي كن عاذري في حبها ◈ يكفيك منها ماؤها وهواها

ومر ابن مـرزوق على مصـر في سـفره إلى الحج فسـأله بعض من اجتمع عليه من علمائها عن بلدته قال له تلمسان فقـال عجبت قـال ابن مرزوق واللـه مـا أكلتـه قـط فتعجب العـالم من علمـه وذكائـه وسـرعة

جوابه لان تلمسان مشهورة بكـثرة الزيتـون وجودتـه وهـو يـورث البلادة ومن مدنها القديمة وهران بفتح الـواو وسـكون الهـاء وراء مهملـة بعـده ألف ونون وهي على ساحل البحر اختطفها ملوك مغـراوة قبـل الإسـلام وامتد بها العمران ولم تزل على ذلك إلى أن ظهرت الشيعة وملـك عبـد اللـه الملقب بالمعـدي مدينـة تـاهرت وولي عليهـا دواس بن صـولان الكثامي فأوعز إلى البربر بحصارها فـدخلوا أهلهـا من بـني مسـكين في ذلك فاجابوهم ونازلوها وفر صاحبها من قبل بـني أميـة ملـوك الأنـدلس محمــد بن عــون إلى دواس صــاحب نــاهرت فــدخل الــبربر وهــران واستباحوها ثم أضرموها نارا وفي السنة السابعة والتسعين أعـاد بناءهـا دواس احسن ما كان وأعاد إليها محمد بن عـون وكـانت أمـراء تلمسـان لـذلك العهـد بنـوا احمـد بن محمـد بن سـلمان بن عبـد اللـه الكامـل الإدريسي رضي الله عنـه وانتـدب النـاس إلى سـكني وهـران فاتسـعت خطتهـا وامتـدت عمرانهـا وصـارت دار علم وتجـارة ونشـأ فيهـا العلمـاء والأدباء والتجار وقصدها الناس من الجهات الشاسعة وفي القرن الرابـع بني جامعها الكبير أبو بلكين ابن زيري من ملوك صنهاجة ولم تــزل على ذلـك إلى أن اسـتولى عليهـا الاسـبانيول سـنة خمسـة عشـر وتسـعمائة وانتزعوها من يد قلموس آخر بني زيان وسياتي بيان ذلط في محلــه إن شاء الله ومنها مدينة مستغانم وهي بلدة عظيمة على البحــر بينهـا وبين وهران يوم للمجـد ومنهـا لمديـة بفتح اللام وسـكون الميم وتعـرف الآن بالمدية بزيادة همـزة الوصـل وسـكون اللام اصـلها لقبيلـة من صـنهاجة للمدية اختطها ابة بلكين ابن زيـري في القـرن الرابـع من الهجـرة وهي مدينة عظيمـة مشـهورة ومنهـا بجايـة وهي لبـني حمـاد أصـحاب القلعـة المعروفــة بهم في جبــل كتامــة وهم من صــنهاجة اختطهــا الناصــر بن علناس بن حماد سـنة إحـدى وسـتين واربعمائـة وسـماها الناصـرية ولم تشتهر بين الناس الا باسم بجايه وبعد ان اتم عمارتها واحتفل في لوازم

الملك فيها انتقل إليها من القلعة دار ملك اسلافه وسكنها ونقـل النـاس إليها وبنى بها قصور اللؤلؤة ذكر المؤرخـون انـه كـان من اعجب قصـور الـدنيا وفي أيامـه اسـتفحل ملـك بـني حمـاد وشـفوفه على ملـك بـني بادريس إخوانهم بالمهدية فبني المباني الوسمية وشيد المدائن العظيمة ثم تـوفي سـنة ثلاث وسـتين وأربعمائـة وكـانت ولايتـه في سـنة أربـع وخمسين وأربعمائة وتعرف قلعتهم لهذا العهد بقلعـة بـني عبـاس ومنهـا قسطينة بضم القاف وفتح السين وسكون النون وكسر الطاء بعـده يـاء ساكنة ونون مفتوحة وآخرها تاء التأنيث اصلها لقبائل كتامة .وقـد دخلهـا الفينيقيون ملوك الشام من كولونيه لمـا خرجـوا إلى أفريقيـة من صـور سنة ثمانمائة وست وثمـانين قبـل المسـيح السـلام واسـمها في القـديم سبرتا وكانت عاصمة ادربال النوميدي سنة أربعمائة وثمان وعشرين بعد المسيح عليه السلام واستولى عليهـا وعلى تلـك النـوا في الونـديال من أسـبانيا ولم يـزل ملكهم فيهـا إلى أن اسـتولى عليهـا المسـلمون ومنهـا شرشال وهي على ساحل البحر بناها جوبـا الرومـاني وسـماها سـيزاره قيصرية وكانت عاصمته وبني بها القصور الجميلة وآثارها تـدل على إنهـا كانت مدينة عظيمة الشأن ومنها مليانه اختطها أبـو بلكين بن زيـري في القرن الرابع من الهجرة وكـانت لملـوك مغـراوه من بطـون زناتـه وبنـو منديل منهم من الطبقة الثانية هم الـذين اختطـوا قريـة مازونـه وكـانت مراسي تلـك الناحيـة اعـني شرشـال وبرشـك وتنس تابعـة لهم بعـد ان كـانت لملـوك صـنهاجه وكـانت دار ملكهم مدينـة أشـير في سـفح جبـل تيطـري المشـهور وهي قاعـدة بلاد شـلب اختطهـا زيـري بن منـاد من الطبقـة الأولى من الـبربر في حـدود الأربعين وثلاثمائـة بـأمر المنصـور إسماعيل العبيدي واتسعت بعد ذلك خطتها وتتـابع عمرانهـا ورحـل إليهـا العلماء والتجار من القاصية ثم خربت ودرسـت ولم يبـق لهـذا العهـد الا طلول ديارها ورسوم آثارهـا والبقـاء للـه تعـالى ومنهـا تـاهرت وهي في

سـفح جبـل كـزول على وادي مينـا اختطهـا عبـد الـرحمن بن رسـتم الفارسي الاباضي سنة أربع وأربعين ومائة واصـله من ولـد رسـتم أمـير الفرس بالقادسـية وكـان من مسـلمة الفتح قـدم مـع طلائـع المسـلمين ودان بدين الخارجية والاباضية منهم ثم لما بلـغ المنصـور العباسـي خـبر فتنة البربر واضطراب الخوارج منهم بأفريقية والمغرب سرح محمـد بن الأشعث الخزاعي في العساكر إلى أفريقيـة فقـدمها سـنة أربـع وأربعين ومائة واثخن في الوارج وقتل رئيسهم ابا الخطاب وطار الخـبر إلى عبـد الـرحمن بن رسـتم بمكـان إمارتـه في القـيروان فاحتمـل أهلـه ولحـق باباضية المغرب الأوسط ونزل على لمايه من بطون البربر البـتر لحلـف قديم بينه وبينهم فبايعوه على الخلافة وشرعوا في بناء تاهرت فاسسـها عبد الرحمن المذكور وتمدنت واتسـعت خطتهـا إلى ان هلـك وولي ابنـه عبد الوهاب من بعـده ولم يـزل الملـك في بـني رسـتم بتـاهرت إلى أن استولى عبد الله الشـيعي على أفريقيـة والمغـرب سـنة سـت وسـبعين ومائتين فغلبهم عليها وتتابعت عليها ولاة الشـيعة فمن بعـدهم ولم تـزل اهلة معمورة بقبيلة لمايـة إلى ان غلبهم عليهـا ابن اللمتـوني المـرابطي وخربها في آخـر سـنة عشـرين وسـتمائة وعفـا رسـمها وانقـرض أهلهـا وبقيت فــرق منهم متشــتتين في القبائــل ومنهم جربــة وســميت بهم الجزيرة المشهورة تجاه ساحل قابس من أعمال تونس ولم يزالوا علي الخارجية لهذا العهد ولم تزل تاهرت على خرابها إلى ان بني الفرنسيس محلها أو قريبا منها بلدة سماها تيارت ومنها معسـكر اصـلها لبـني زيـان ملوك تلمسان اتخذوها لإقامـة عسـكرهم في تخـوم بلادهم لوقايتهـا من اجلاب بني توجين ومغـراوه أعـداؤهم خلفـا عن سـلف وكـان بناؤهـا من اخصـاص إلى ان اسـتولت الدولـة العليـة على مدينـة الجزائـر وتقـدمت حكامهـا في داخليـة البلاد غربـاً وشـرقاً حـتى وصـلوا إلى هـذه البلـدة الاخصاصية وأعجبهم محلهم شرعوا في بنائها بالحجارة ووسـعوا خطتهـا

وتألقوا في تشييد دورهـا على نحـو دور الجزائـر وأطلقـوا عليهـا اسـمها القديم الذي كانت تعرف به قبلهم وجعلوها مركزاً لحـاكم تلـك النـواحي وكانوا يواصلون الغارات منها على سائر الجهـات ويفتحـون البلاد إلى ان وصلوا إلى بسيط انكاد قرب مدينة وجـده ووضـعوا الحـدود هنـاك بينهم وبين ملوك المغرب الأقصى كما تقدم وأعظمهم اهتماماً بعمـران مدينـة معسكر الباي محمد بن عثمان الكردي الأيوبي وكانت ولايته على ايالتهـا عام ثلاث وتسعين ومائة ألف فبني فيها من المساجد والحمامات والآثار العظيمـة وأجـرى إليهـا الميـاه وأدارا عليهـا السـور المشـهور بالإتقـان والأحكام وقد خرب هـذا السـور الفرانسـيس وفي أيـام البـاي المـذكور اشتهرت هذه المدينة وارتحل إليها التجار والعلماء ونشـأ بهـا طائفـة من الأفاضل ومن اشهر علمائها من أسلافنا الجد الرابع سيدي احمد المختار وابن ابنه الجد الثاني سيدي السيد مصطفى ومن علمائها السـيد محمـد بن عبد الله الجلالي والسيد طـاهر بن حـوا الكبـير وولـده السـيد محمـد والعلامة الشيخ المشرقي وغيرهم .وقد اتخذ سيدي الوالد هـذه المدينـة أولاً دار إمارته ثم انتقل إلى مليانه ثم اختط تاكدمت واصلها قريـة لبـني توجين قريبة من تاهرت قد خربت فبني فيها دورا ومعامل للمســكوكات والســلاح وحشــد النــاس إلى عمرانهــا ولم يلتفت إلى تشــييد القصــور وتوسيع المنازل والـدور لصـرفه الهمـة إلى المدافعـة عن وطنـه ومـاتـه وتقوم الزائغين من رعيته واصـطناع الأبطـال واصـطفاء الرجـال واتخـاذ معامل السلاح ولوازم القراع والكفاح لا لـذة لـه الا في التخـام الكتـائب اقتحام الملاحم بالقواضب ومنهـا بونـه على سـاحل البحـر وتعـرف لهـذا العهد بعناية لكثرة شـجر العنـاب فيهـا وهي مدينـة صـغيرة ممـا اختطـه البربر من المدن وكانت قديماً من أعمال أفريقية وفي أيـام خـير الـدين بارب روس ضمت أعمال الجزائر ولم تـزل تابعـة لقسـنطينة من ابتـداء دخول الدولة العلية إلى هذا العهد ومنها بسكره وتعرف ببسكرة النخيـل

فيها وتبسه والمسيلة بناها المهدي بن تـومرت وسـماها بالمحمديـة ولم تزل معمورة إلى الآن غير إنها عارية عن أحوال الحضارة والتمدن وكلها داخلـة في حكم قسـنطينة وقـد احـدث الفرانسـيس في داخليـة البلاد وأطرافها وسواحلها مدناً وقرى كثيرة وأمـا جبالهـا ففي الخـط الجنـوبي منها مما يلي الصحراء سلسلة وتعرف لهذا العهـد بـالأطلس وهي آخـذة في طول البلاد من المغرب إلى المشرق وابتداؤها من آخـر بلاد سـوس الأقصى عند البحر المحيـط فانقسـمت بهـا البلاد إلى منطقـتين شـمالية وتسـمى التـل وجنوبيـة تسـمى الصـحراء وزاد بعض الجغرافـيين ثالثـة سماها المنطقة البحرية يعني السواحل وعلى خطها جبال كثيرة متكاثفة لما اقتضاه التكوين من ممانعة البحار بها وفي وسط التـل جبـال كثـيرة يطول ذكرها اشهرها جبل بني سنوس غربي تلمسان لجهة الجنوب منها وجبلا زيدون وتاسالة في وطن بني عامر وجبل تنيرد ممـا يلي الصـحراء وجبل اكبر شرقي وهران وجبل كرسوط غربي غريس وجبل أو سـيلاس فوق مدينة افكـان شـمالي غـريس وهي خـراب الآن وجبـل المنـاور في شرقية ونسمط ولأسلافنا فيه مزارع كثيرة وفي الجهة القبليـة من البلاد جبل كزول وجبل وانشريس وجبال الجهة الشـرقية منهـا جبـل العطـاف وجبـل مليانـه وجبـل تيطـري وجبـال زواوه وأعلاه جبـل جرجـره وهـذه الجبال تتصل عند انتهائها شرقاً وتصير سلسلة فتمر مشرقة على سـيف البحر في سواحلها اسـاكل دلس وبيجـل والقـل وجبـل ويشـاوه شـرقي سكيكده وتعرف عند الإفرنج بقليبل ثم جبـل اودغ وهـو شـائح يطـل من جهة الغرب على عنابه وجبل بـني صـالح وفي الجنـوب من هـذه لجبـال منبتة تحتوي على أحراش من الأشـجار مختلفـة الأنـواع والأجنـاس وأمـا أنهارها فكثـيرة لا يـأتي عليهـا الحصـر ومن اشـهرها وأكبرهـا في الجهـة الغربية نهر تافتا يمر في شمال بلاد الغسـل وفيمـا بين تـراره وولهاصـه ويصب في البحر الرومي في ساحلهم ونهر المقطع ونهر سـيك في بلاد

الغرابة ويصب قرب قرية بطيوه ونهر مكره وعليه مدينـة بلعبـاس الـتي أحدثها الفرنسيس ونهر وادي الحمام وعليه بلدتنا الـتي اختطهـا أسـلافنا ولم تزل معمورة إلى ان أضرمها الفرنسيس نارا وخـرب رسـومها وفي الجهة الشرقية من البلاد السيبوس ينتهي إلى البحر الرومي قرب عنابـه ونهر بوجيمه ونهر بني ملكي ومصبها في البحر أيضاً قرب سكيكده ونهر بوبرك ونهر الهرش ونهر تطرغـان ونهـر شـلف وهـو نهـر كبـير يمـر في معظم ارض المغرب الأوسط منبعه من بلاد بني راتشد في جنوبي وادي مزاب من الصحراء ويدخل إلى الممتل ثم يمر مغرباً ويجتمع فيـه أوديـة كثيرة كوادي مينه ووادي ارهيو ووادي يلـل بتشـديد اللام إلى ان ينصـب في البحر بين كلمه ومسنغانم واما بحيراتها فاشهرها بحيرة الحــوت في ولاية وهران ينعقد ماؤها ملحاً واغلبه يستهلك بتلك الولايـة منهـا واشـهر بحيرات الصحراء بحيرة زاعق في ارض أولاد نائل وبحيرة شوط وبحيرة شكا وأما أشجارها وأنواع فواكهها وحبوبها ونباتاتها فكثيرة جداً وبالجملة فبلاد الجزائـر كريمـة البقعـة طيبـة التربـة بخصـبة الجبـال والبسـائط منبجسـة العيـون والأنهـار متصـلة مـادة الخـيرات وفيهـا أنـواع الفواكـه البرتقـال والتفـاح واللـوز والجـوز والمـز والعنب والمشـمش والانجـاص والليمون بأنواعه والزنبوع وهـو الفركسـين والاتـرج والفسـتق والزيتـون والعناب والخرنوب والبلوط الحلو المعروف بابي فروه والصـنوبر الـبري إلا انــه صــغير اســود يعــرف في بلاد المغــرب بــازنين بتفخيم الــزاي وتشديدها والمزاح وهـو المشـمله والتـوت المعـروف بالشـامي وقصـب السكر واللنج وحب الملوك وهو الكرز ويخرج في جبل هواره المعـروف بجبل بني شقران التين الشقراني وقل ان يوجد له نظير يجلب منه كثير إلى أقطار المغرب ونوع منه يسمى الباكور ينضج في آخر الربيـع وفيهـا شجر البطم وهو شجر ضخم كبير وصمغه كحصى اللبان رائحــةً وطعمــاً وفيها الشجر الـذي يسـتعمل منـه الفلين وشـجر الـزرو ومصـمغه يشـبه

المصطكى لوناً وطعماً وريحاً وينزل المن من السماء على شجر البلوط فيجمعه الناس بعد انجماده ويصبغون به فيخرج منه اللون الأحمر الثابت الـذي لا تفوقـه حمـرة ولا يـؤثر في غـيره من أدوات الصـبغ ويسـمونه القرمـز ويعـرف في بلاد المشـرق بالـدودة يجلب إليهـا التجـار من بلاد المغرب والأندلس وفي صحرائها أنواع أثمار النخل فمنهـا الحـر الـذي لا يوجد الثمرة نظيره إلا في بلاد الجريد من بلاد تونس وذلك لقوة حلاوتــه وحسن لونه وضخامته ومنها ما يقال لـه تينهـود ولعزتـه لا يجلب إلا لبلاد فاس وبلاد المغرب الأوسط اخبرني والدي انه لم ير مثله في الحجاز ولا في العراق ولم يذق لذة فاكهة تشبهه طعمـاً ونكهـة منـذ فـارق الـوطن ومن زروعها الحنطة والشعير والحمص والعـدس والفـول والأرز والـذرة والدخن وأنواع البقول والنباتات ذات الخواص لكثير من الأمــراض وعلى الإجمال محاستها لا تستوفي بعبارة . فما راء كمن سمعا .

وأما معادنه فالذهب والفضة والألماس والحديد والنحاس والرصاص والزرنيخ والخيلدون وهو نوع من العقيق الجيد وبح البلور هذا ما اكتشفه أصـحاب الصـنائع والاسـتخراجات من الإفـرنج وأمـا صـنائعها فـأجود مـا يتنافس فيه أهلهـا ويفتخـرون بـه صـناعة السـلاح بأنواعـه على الشـكل القديم ولهم اعتناء كبـير باسـتخراج جـوهر الحديـد والفـولاذ ومن نفيس مصــنوعاتهم نسـيج أقمشــة الحريــر ومنســوجات الصــوف كــالبرانس والأكسية وغيرها من أنواع الملبوسات والبسط والسـجادات وغيرهـا من المفروشات ويساعدهم على ذلك نعومة الصـوف ولطاقتـه ولهم براعـة في طرز المناطق والسروج المذهبة والمفضضة على وجه لا يهتدي إليه غيرهم وكذلك في صناعة الخزف الملون بأنواعهـا الأدهـان وفي صـناعة السفن الصغيرة التي يستعملونها لتجـارة والصـيد والغـزو وأخشـابها من أحراش بلادهم ودباغة الجلد وقد برع أهل المسيلة من أعمال الزاب في إتقان صـنعه الدباغـة على وجـه اتعب غـيرهم تقليـده في حسـن نعومـة

الجلد وجودة إتقانه بالجمالية فمصنوعات بلاد الجزائر ومنسوجاتها بلغت في الحسن والأحكام ما يبهر الرائي ويستحسنه السـامع وناهيـك بهـا إن تجارتها منحصرة في نتائج أرضيها وصنائعها فلا يحتـاج إلى جلب البضـائع من الخارج إلا ما قل وربما يستغني عنه وفيها من جياد الخيـل مـا يـروق منظراً ويبهر خصالا ولكثيرة من أهل البادية معرفة تامة بشياتها وعيوبهـا وأمراضها وعلاجاتها ويوجد عندهم من هذا العلم مـا لا يوجـد عنـد احـذق البيـاطرة في الحاضـرة وفيهـا البغـال الفارهـة واغلب مشـايخ البلاد وعلمائها وأهل وظائفها الدينية يركبونها دون الخيل لسرعة مشـيها ولين ظهورها وفيها أنـواع الأنعـام والهجن المشـهورة بسـرعة السـير والقـوة وفيها من صـنوف الصـيد الغـزال والأرنب والكنينـة وهـو نـوع اصـغر من الأرنب وفي صحرائها النعام والحمار والبقـر وفيهـا من صـنوف الحيـوان المفـترس الأسـد والنمـر والفهـد والخـنزير والـذئب والضـبع وفيهـا من الطيور الجوارح وغيرهـا مـا يطـول شـرحه أهـل الصـحراء ومن قـاربهم يعنتون كثيراً باقتناص الجوارح وتعليمها واسـتعمالها ومـا اعتـدال هوائهـا وحسن مزاجها فقد ذكـر علمـاء الجغرافيـة قـديماً وحـديثاً ان هـذه البلاد معتدلة الهواء لا يزيد حرها ولا بردهـا زيـادة مضـرة وفصـولها في جميـع لسنة تأتي على قدر الاعتدال ووسطة من الحال وعلى حسـب اعتـدالها اعتدلت أمزجـة أهلهـا وقلت أمراضـهم ودآآتهم ولـذا لم يعتنـوا بتحصـيل علم الطب ولا بأهله وقصارى أمرهم فيما يعرض لهم من الأمراض انهم يتطببون بأدوية يستعملها غالبا عجائزهم من الحشائش وغيرهـا ويسـكن هذه البلاد قبائل كثيرة وشـعوب وافـرة من العـرب والـبربر ولاختلاطهم في الصهر والسكن عصر تمييزهم ويوجد بينهم في المدن وبعض القرى أتراك والولاد المماليك من بنات الوطن ويسمونهم كور اوغلان والسـبب في ذلك أن السلطان يقول لأهل كل اوجاق من العسـكر قـوللرم يعـني مماليكي فحرفها أهل الجزائر وقالوا كور اوغلان .^

ذكر ابتداء عمران المغرب وحوادث دول الأشراف والعرب والبربر فيه

اعلم أن هذا الإقليم منذ دخل في حيز العمـران مـأوى الفتن وعش الأهـوال والمحن ومنـتزى الملـوك والثـوار . ومطمح نظـر الكبـار منهم والصغار . فمـا هـدأت لأهلـه روعـة ولا طـابت لهم فيـه هجعـة . ولا خيم بسـاحته أمن ولا فارقـه الـروع والـوهن . ولا خلا منـه زمـان من قـراع الكتائب . ومفاجأة المصائب والنوائب . ومع هذا ترى مساجده ومدارسه بالعباد والعلماء عامرة . وتجالسه بالأذكـار وأنـواع العلـوم زاهـدة . ذلـك تقدير العزيز العليم وتدبير العلي العظيم .

وقـد اختلفت أقـوال المـؤرخين من الإسـلام وغـيرهم في أول من سكن المغرب وعمره من هـذا النـوع البشـري لكـني اقتصـرت على مـا نقلــه العلامــة ابن خلــدون الحضــرمي في تاريخــه وذو الــوزارتين ابن الخطيب في شــرح منظومتــه المســماة رقم الحلــل في نظم الــدول لنقدمها في مضمار هذا الفن وإحرازهما قصـب السـبق فيـه وسـلوكهما مسلك التحقيق في النقل وملخصه إن اللـه سـبحانه وتعـالى لمـا اهبـط آدم إلى الأرض عمرها به وبنسله فهو الأول للخليقة على الإطلاق وانبث بنوه في نواحي الأرض وتناسلوا فيها جيلا بعـد جيـل إلى زمن نـوح عليـه السلام وكانت ولادته سـنة اثـنين وأربعين وسـتمائة ألـف من هبـوط آدم وكان في تلك الأجيال ملوك ودول كثيرة وملل ونحل متعددة وكان فيهم أنبياء ورسل آخرهم نوح عليه السلام أرسله الله تعالى إلى قومه وكـانوا عبده أوثان فلبث فيهم ألف سـنة إلا خمسـين عامـا يـدعوهم إلى عبـادة الله كم اخبرنا الله تعالى ولما أعياه تعنتهم وتمـاديهم على الكفـر أوحى إليه انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فقال رب لا تـذر على الأرض

من الكافرين ديارا استجاب الله دعاءه لما سبق في عينه انه ليس فيهم ولا في أولادهم من يــؤمن فأرســل عليهم الطوفــان فأخــذهم وذهب بعمــران الأرض اجمــع بحيث لم ينج من بــني آدم ومن كافــة أنــواع المخلوقات إلا من كان في السفينة مع نوح عليه السلام وكان ذلـك بعـد مضـي ألفين ومئـتين واثـنين وأربعين سـنة للهبـوط باتفـاق المفسـرين والمؤرخين ثم مات المؤمنون اللذين مع نوح عليـه السـلام في السـفينة ولم يعقبوا فصار جميع أهل الأرض من نسل نوح .

قال الله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فكان عليه السـلام أبـا ثانيـا للخليقـة واتفـق المفسـرون والنسـابون على أولاد نـوح اللـذين تفـرعت منهم الأمم ثلاثة . سام . وحام . يافث .

وقــد وقــع ذكــرهم في التــوراة وروى الطــبري في ذلــك أحــاديث مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وعن ابن المسـيب ووهب بن منبه . مثل ذلك واتفقوا على النسامة أبو العرب والفرس والروم وحامًــا أبــو القبــط والــبربر والســودان . ويافثــا أبــو الــترك والصــقاليه ويــأجوج ومأجوج .

ولما افترق بنو نوح عليه السلام صـار لولـد حـام الجنـوب ممـا يلي مصر على النيل . وصار لولـد سـام الحجـاز والعـراق إلى حـدود الهنـد . وصار لولد يفث نواحي بحر الخزو إلى الصين .

وكان شعور هؤلاء الثلاثة عن تبابـل الألسـنة اثـنين وسـبعين شـعبا . واتفقـوا على أن أول عمـران المغـرب كـان بالجيـل المعـروف بـالبربر إخوان السودان والقبط فهم الذين عمروهم من البشر واستوطنوه .

قال الطـبري وزعم هشـام بن الكلـبي أن الغـل من الكنعـانيين من أولاد عيصوا بني إسحاق عليه السلام .

وبعد يوشع عليه السلام احتملهم افـريقش بن قيس بن صـيفي من سواحل الشام في غزاته إلى المغرب وتـركهم بأفريقيـة . فمنهم الـبربر وترك معهم سنهاجه وكتامه من قبائل حمـير وقيـل انهم وجـدهم فيهـا . وانهم لما سـمع رطـانتهم سـماهم الـبربر . وفي التوريـة من ذريـة حـام إحدى عشرة ولدا منهم صيدون . ولهم ناحية صيدا .

وكـانوا بالشـام وانتقلـوا لمـا غلبهم يشـوع إلى أفريقيـا والمغـرب وأقاموا بهما .

وقد مر آنفا أن أولاد حام صار لهم الجنوب ولم تزل السـودان منهم في أقطار الجنوب من مبدأ بحر الهند شرقا إلى أقصى المغرب إلى هذا العهـد . وإخـوانهم القبـط في مصـر وجهاتهـا إلى الآن . وهـؤلاء الـبربر يجاورونهم ويقـابلون السـودان في أريـاف المغـرب وتلـولهم من حـدود مصر مما يلي برقة إلى أقصى المغرب حيث البحر المحيط فلا يبعدانهم كـانوا مـع السـودان والقبـط قي مـواطنهم الأولى تم افـترقوا فتوغـل السودان في الجنوب وانحدر البربر إلى برقة ونواحيها ثم توغلوا في بلاد المغرب إلى أقصاه وبقي القبـط في منـازلهم القديمـة من مصـر وبهـذا تشهد القرائن والمواطن وذكر ابن سعيد في أخبـار القبـط أن شـداد بن بداد بن هداد بن شداد بن عـاد حـارب القبـط وغلب على أسـافل مصـر حيث الإسكندرية وبنى بها مدينـة مـذكورة في التـوراة يقـال لهـا أرن ثم هلك في حروبهم وجمع القبط إخـوانهم من الـبربر والسـودان واخرجـوا العرب من ملك مصـر ولمـا اسـتولى افـريقش على المغـرب بـنى فيـه مدينة فسـميت أفريقيـة ثم غلب هـذا الاسـم على ذلـك القطـر بحـدوده المعروفة قديما وحديثا . ذكر

البربر وشـعائرهم اعلم أن النسـابين قـد اختلفـوا في نسـب الـبربر وأطالوا البحث فيه والذي ذهب إليه المحققون كـابن حـزم وابن خلـدون

وغيرهما انهم من بني كنعان بن حام بن نوح عليه السـلام واتفقـوا على أن شعوبهم وبطونهم يجمعهم أصلان عظيمـان وهمـا بـرنس ومـادغيس ويلقب بالأبتر فيقال لشعوبه البتر كما يقال لشعوب برنس البرنس وهما على الأصح أخـوان لأب وهـو بربـر بن تملا بن مـازيغ بن كنعـان بن حـام وشعور البرانس يجمعهم سـبعة أصـول وهي ازداجـه ومصـمودة وأوربـه وغجيسه وكتامة وصنهاجة وريغة يجمع شعهوب البتر أربعـة فصـول وهم اداسة ونفوسه وضريسه ولواو الأكـبر والكنـان على هـذه الشـعوب ومـا تناسل منها من الأمم طويل الذيل قد أفردهم علماء هـذا الفن بالتـأليف وجميع مـا ذكـروه غايـة مـا وصـل إليـه علمهم واطلاعهم . وإحصـاء أمم البربر وأجيالهم غير ممكن لتطاول الأحقاب وتداول الأزمنة ولم تزل بلاد المغـرب من أقصـى السـوس إلى الإسـكندرية ومـا بين بحـر الـروم والسودان عامرة بهم من قرون لا يعلمها إلا الله تعـالى . واعلم أن دين البربر في قـديم المجوسـية وفي بعض الأحيـان يـدينون بـدين من تغلب عليهم كالرومان واليونان وغيرهما وقـد صـبحهم الإسـلام وهـو على دين الصرانية وبعضهم في أفريقية على دين اليهودية عند استفحال ملك بني إسـرائيل وقـربهم منهم وأمـا شـعائرهم فـالأكثر منهم آخـذون بشـعائر العرب يسكنون الخيام ويتنازلون وحللا وداوئر متفرقة ويظعنون لانتجـاع المـرعى ويتخـذون الخيـل للركـوب والنتـاج ويعتنـون بالأنعـام للكسـب يقومون عليها ويغتانون من ألبانها ويتخـذون ألبسـتهم وأثـاثهم وخيـامهم من أصـوافها وأوبارهـا وشـعورها ومنهم من يبتغي الـرزق من الاكتنـاس والنهب والاختطاف من السابلة ومنهم أهل مدائن وقرى وأمصار شأنهم الفلاحة واغتراس الجنات المتنوعة والتجـارة والحـرف النافعـة إلى غـير ذلك من الأمور الـتي يتوقـف عليهـا العمـران إلا بهـا واكـثر لباسـهم من الصـوف بأنواعــه وفي الغـالب يكشـفون رؤوسـهم ويحلقونهـا ولغتهم أعجمية متميزة بنوعها عن سائر رطانة العجم ثم اختصت شـعوب زناتـه

وبطونها برطانه إخوانهم كما اختصـوا بالعمـائم ومن شـاهد آثـارهم ومـا شـيدوه من الحصـن والمعاقـل والأمصـار وطـالع أخبـارهم وحـروبهم وسيرهم على انهم قـوم لا يرامـون بـذل ولا ينـالهم من اسـتطال عليهم بسوء وقد اعتنى الفحول من العلماء والمؤرخين بـذكر سـيرهم وتـدوين أخبـارهم فملأوا كتبهم بنقـل مـا كـانوا عليـه من الأخلاق الحميـدة كعـز الجوار وحماية النزيل ورعاية الذمة والوفاء بالعهد وصدق القول والصـبر على المكاره والثبات في الشدائد وجودة الملكـة والإغضـاء عن العيـوب والتجافي عن الانتقام ورحمة المساكين وتوقير أهـل العلم وحمـل الكـل وكسب المعدوم وقرى الضيف والإعانة على النـوائب وعلـو الهم وإبـاءة الضـيم والشـقاق مـع الـدول ومقارعـة الخطـوب والتغلب على الملـك وغيرها من الخلال الـتي أكسـبتهم الثنـاء من الخلـق وبعـد الصـيت ومن مشـاهيرهم بعـد تمسـكهم بالإسـلام من الطبقـة الأولى بلكين باليـاء الموحدة التحتية ابن زيـري الصـنهاجي عامـل أفريقيـة للعبيـديين وحمـد خزر وعروبه بن يوسف الكتامي القائم بدعوة عبد الله الشيعي ويوسـف بن تاشفين اللمتوني وعبد المؤمن ابن علي أمير الموحدين ومن الطبقة الثانيـة يعقـوب بن عبـد الحـق المريـني ويغمراسـن سـلطان بـني زيـان ومحمد بن عبد القوي صاحب تاهرت ووزمار أمير بني تـوجين وثـابت بن منديل أمير مغزاوه وزمار بن إبراهيم زعيم بني راشـد فهـؤلاء كـانوا من أرسخهم في الخلال الحميدة قدما وأطولهم فيها يدا وأكثرهم لهـا جميعـا وسنذكر طرفا من أخبارهم على وجه الإيجاز إن شـاء اللـه تعـالى .اعلم أن قبائل البربر بأفريقية والمغرب كانت قبل الإسلام تحت سلطة الروم وعلى دين النصرانية ولم تزل على ذلك إلى أن فتحت مصـر في خلافـة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسـار عمـرو بن العـاص رضي الله عنه منها إلى برقة سنة اثنتين وعشـرين فصـالحه أهلهـا على الجزية ثم سار منها إلى طـرابلس فحاصـرها وفتحهـا عنـوة وولى عليهـا

وعلى برقة أحكاماً من قبله ورجع إلى مصر وفي خلافة عثمان رضي الله عنه عزل عمرو بن العاص وتولى عبد الله بن سعيد بن أبي سرح لبعامري عليها فأمره عثمان رضي الله عنه بالتوجه إلى أفريقية فزحف إليها سنة تسع وعشرين فجمع لهم جرجير ملك أفريقية وبلاد المغرب من بأمصارها من الروم وبضواحيها وقراها من البربر وملوكهم وكان ملكه ما بين طرابلس وطنجه ودار ملكه سيبطله ولقي بهم المسلمين فوقعت الهزيمة في جيشه وشد عليه عبد الله ابن الزبير رضي الله عنه فقتله واتبعهم المسلمون يقتلون ويسبون إلى أن وصلوا إلى سيبطله ففتحوها ثم خربوها ولم تزل خرابا وهي في تخوم تونس مما يلي ارض الجزائر معروفة لهذا العهد ونقل الله المسلمين أموال جرجير وجموعه وبناتهم واختصت ابنة جرجير بقاتله عبد الله ابن الزبير وكان هو الرسول بخبر الفتح إلى الخليفة ثم انساح المسلمون في البسائط والضواحي بالغارات ووقع بينهم وبين البربر حروب انتصر المسلمون في جميعها واسروا من ملوكهم وزمار بن صقلاب جد بني خزر وهو يومئذ أمير مغراوه وسائر زناته ورفعوه إلى عثمان رضي الله عنه فاسلم على يده ومن عليه وأطلقه وعقد له على قومه وقيل إنما وصله وافدا ثم لاذ الروم بالسلم وشرطوا لابن أبي سرح ثلاثمائة قنطار من الذهب على ان يرحل عنهم ففعل ورجع المسلمون إلى المشرق وشغلوا بما كان من الفتن الإسلامية ولما آل الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان بعث ابن خديج الشكوني من مصر لافتتاح أفريقية سنة خمس وأربعين فسار إليها وكان في جيشه عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم وعبد الملك بن مروان فلما وصل إلى أفريقية أرسل عبد الملك بن مروان إلى جلولا ففتحها وأرسل جيشا في البحر في مائتي مركب إلى جزيرة صقلية ففتحوها وغنموا وأرسل رويفع بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه إلى جربه ففتحها وأرسل ملك

الــروم أثنــاء ذلــك من القســطنطينية عســاكره لمــدافعتهم فتلقتهم المسـلمون وردوهم على أعقـابهم ثم قفـل ابن خـديج راجعـا إلى مصـر وتولى بعده عقبـة بن نـافع رضـي اللـه عنـه سـنة سـبع وأربعين فاختـط القــيروان وافــترق أمــر الــروم فصــاروا إلى الحصــون وبقي الــبربر بضــواحيهم وفي ســنة إحــدى وخمســين اســتعمل معاويــة علي مصــر وأفريقيـة مسـلمة بن مخلـد فعـزل عقبـة عن أفريقيـة وولى مـولاه ابـا المهاجر دينارا وفي أيامـه فتحت جزيـرة شـريك على يـد حنش بن عبـد الله الصاغاني وكانت رئاسة الـبربر يومئـذ في اوربـه لكسـيلة بن لمـزم رئيس البرانس ومرادفـه سـكرديد ابن رومي من اوربـه وكانـا على دين النصرانية فاسلما لأول دخول الإسـلام إلى المغـرب ثم ارتـد قبـل ولايـة أبي المهاجر واجتمع إليهما البرانس وزحف إليهم أبو المهاجر حـتى نـزل عيون تلمسان فهزمهم وظفر بكسيله فاسـلم واسـتبقاه عنـده واحسـن إليه ثم جاء عقبة بن نافع في الولايـة الثانيـة أيـام يزيـد بن معاويـة سـنة اثنين وستين فنكب كسيله واعتقله وتقدم إليه أبو المهاجر في اصطناعه فلم يقبـل وزحـف إلى المغـرب وعلى مقدمتـه زهـير بن قيس البلـوى فدوخة واستفتح حصـون الـروم وبقيـة الملـوك الـبربر بـالزاب وتـاهرت مجموعهم ففضهم جميعـاً بعـد جمـع ودخـل المغـرب الأقصـى وإطاعتـه غماره ثم نـازل المصـادمة في جبـل درن فقـوى أمـرهم فنهضـت إليهم جموع زناته وكانوا خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوه فاعتز بهم عقبة وقوى أمره عليهم فاثخن فيهم وحملهم على الطاعـة والإسـلام ثم أجـاز إلى الســوس الأقصــى لقتــال من بهــا من صــنهاجة وكــانوا على دين المجوسية فاثخن فيهم وقفل ظافرا وكوسيلة أثناء ذلـك في اعتقالـه ثم شــرح فيــه العســاكر إلى القــيروان وبقي في شــرذمة منهم وتراســل كسبيلة وقومه فاجتمعوا إليه وانتهزوا الفرصة في عقبة رضي اللـه عنـه فقتلوه ومن معه وكانوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة رضـي اللـه عنهم

واستشهد في مصرع واحد جم غفير من التابعين فيهم أبو المهـاجر وقـد ابلى عقبة رضي الله عنه في ذلك اليوم بلاء حسنا .واشتهر قبره وعليـة مسـجد معـروف باسـمه واسـر من الصـحابة يومئـذ محمـد بن أوس الأنصاري ويزيد بن خلـف العبسـي ونفـر معهم ففـداهم صـاحب قفصـة وكان زهير بن قيس قد رجع من المغرب إلى القيروان فلما بلغـه الخـبر خرج هاربا وارتحل المسلمون معـه ونزلـوا برقـه وأقـام بهـا ينتظـر أمـر الخليفة نقارن ذلك اضـطراب الخلاف بحـروب ابن الزبـير والضـحاك بن قيس مـع الروانـيين واضـطرم المغـرب نـارا وفشـت الـرد في الـبربر واجتمعت كلمة البربر والروم على كسيله فنزل القيروان وأعطى الأمان لمن بقي بها من العـرب وعظم سـلطانه على الـبربر ومعهم من الـروم فملكهم خمس سنين ولما استقل عبد الملـك ابن مـروان بـأمر الخلافـة بعث إلى زهير بن قيس بالمدد وولاه حـرب الـبرابره والأخـذ بثـار عقبـة رضي الله عنـه فزحـف في آلاف من العـرب سـنة سـبع وسـتين وجمـع كسـيله سـائر الـبربر ولقيـه في نـواحي القـيروان فاشـتد القتـال بينهم وانهـزم الـبربر وقتـل كسـيله واتبـع جيشـه المسـلمون إلى نهـر ملويـة وتلاشى أمر البربر وفنيت فرسانهم واضـمحل حـال الـروم وضـعفوا عن إغـاثتهم واضـطرمت أفريقيـة والمغـرب نـارا وامتلأت قلـوب الـبربر من زهير رعبا فلجئـوا إلى الحصـون ثم قفـل زهـير إلى المشـرق فاعترضـه أسـطول صـاحب قسـطنطينية في سـواحل برقـة فقاتـل الـروم حـتى استشهد هناك وبعث عبد الملك بن مروان إلى حسان بن النعمان عامله على مصر ان يخرج إلى أفريقيـة وبعث إليـه بالمـدد فزحـف إليهـا سـنة تسع وسبعين ودخل أفريقية واسترجع قرطاجنه من يد الروم والبربر ثم خربهـا فـذهب من بقي بهـا من الـروم والإفـرنج إلى صـقلية والأنـدلس والذي انشأ قرطاجنه ديدون ابن البشار من نسل عيصو بن إسحاق عليه السـلام ثم صـار ملـك أفريقيـة إلى ملغـار انيبـال من ملـوكهم فهـاجت

الحرب بين الرومانيين وأهل الأندلس ثم ولي بقرطاجنة فأجاز البحر إلى بلاد الفرنجة وهم الجلالقة وزحف إليه قواد رومـة فـوالى عليهم الهـزائم وبعث أخاه أسد ربال إلى فملكها وخالفـه قـواد الرومـانيين إلى أفريقيـة فملكوها وقتلوا غثول خليفة انيبال فيها وخرج قواد آخرون من رومة إلى الأندلس فملكوها وقتلـو اسـدربال وفـر أخـوه انيبـال وتبعـه قـواد رومـه الذين أجازوا إلى أفريقية فحاصروه بقرطاجنه حتى صار الصلح بينهم ثم ظاهر بعد ذلك انيبال صاحب أفريقية ملوك السريانيين على حرب رومه وبعد ان تخلص أهل رومة من ذلك رجعوا إلى الأندلس ثم أجـازوا البحـر إلى قرطاجنة ففتحوهـا وقتلـوا ملكهم انيبـال وذلـك لتسـعمائة سـنة من بنائها وسبعمائة من بناء رومة ثم بعد ذلـك اجتمـع قـواد رومـه على بنـاء قرطاجنة وتجديدها لاثنتين وعشرين سنة من خرابها فعمرت واتصل بهـا لأهل رومه ملك واللذان اختطا مدينة رومه روملش وراملش وذلك لعهد أربعة آلاف وخمسمائة سنة من مبدأ الخليفـة ثم توجـه حسـان بجيوشـه إلى الكاهنة دهياربت مارية ملكـة الـبربر بمعقلهـا من جبـل أوراس وقـد انضم إليها بنو يفرن ومن كان بأفريقيـة من زناتـه وسـائر البـتر فلقيتهم بالسهل أمـام جبلهـا فـانهزم المسـلمون واسـر خالـد بن يزيـد القيسـي واتبعت آثـاره حسـان وجيوشـه بجموعهـا حـتى أخـرجتهم من أفريقيـة وانتهى حسان إلى أعمال طـرابلس فأقـام بهـا وبـني قصـوره ولم تـزل أطلالها موجودة لهذا العهد مشهورة به ثم رجعت الكاهنة إلى مكانها من أوراس واستفحل ملكها في أفريقية واستمرت ملكة على الـبربر خمس سنين ثم بعث عبد الملك إلى حسان بالمدد وأمـره الجـوع إلى أفريقيـة فزحف إليها سنة أربع وثمانين وكانت الكاهنة عتت واشتد ظلمها وأمرت بتخريب جميع المدن والضياع وقطع الأشجار بعد أن كان الـراكب يسـير من طرابلس إلى طنجة في عمارة متصلة وظل ممدود فشق ذلك على الـبربر وحصـلت الوحشـية بينهم وبين ملكتهم فلمـا وصـل حسـان إلى

أفريقية زحفت إليه بجموعهم فخذلوها واختل نظامهم وشد معها قومهـا جراؤه من البتر ففض جيوشهم وقتل الكاهنة ثم أن البربر استأمنوا إليـه فـأمنهم على الإسـلام والطاعـة فأجـابوا واسـلموا عقـد للأكـبر من أولاد الكاهنة على قومه جـراؤه وانصـرف حسـان إلى القـيروان ثم في سـنة ثمان وثمانين في خلافة الوليد بن عبد الملك قدم موسى بن نصير واليـا على أفريقية فـدوخ المغـرب واثخن في الـبربر حـتى أدت إليـه الطاعـة وولى على طنجه مولاه طارق بن زياد وانزل معه سـبعة وعشـرين ألفـا من مسـلمي العـرب الأولين واثـني عشـر ألفـا من الـبربر وأمـرهم أن يعلموا البربر القران وأمور الدين وسرت كلمة الإسلام في جميـع أحيـاء البربر وبطونهم ومن بقي منهم اسلم على يد إسماعيل بن عبد اللــه بن أبي المهاجر سنة إحدى ومائة ونقل ابن خلـدون عن أبي محمـد بن زيـد الإمام المشهوران البربر ارتدوا اثني عشر مرة من طرابلس إلى طنجـة .ولم يستقر سلامهم حتى أجاز موسى بن نصير إلى الأندلس وأجاز معـه كثـيرين من رجـالات الـبربر برسـم الجهـاد ووقـع فتح الأنـدلس فحينئـذ استقر الإسلام في المغرب وأذعن البربر لحكمـة ورسـخت فيهم بكلمـة الإسلام وتناسلوا الردة واستوثقت الأمور لموسى بن نصير في المغـرب والأندلس وبلغ فيها ما لم يبلغه غيره وحصل في يده من المغنم والسبي ما لم يحصل في يد سواه من الملوك قال الصفدي في تاريخه لم يسمع بمثل سبايا موسى بن نصـير وغنائمـه فانـه استصـحب عنـد قدومـه إلى الوليد بن عبد الملك ثمانيـة وسـبعين تاجـا مكللا بالـدر واليـاقوت وكلهـا تيجان ملوك الأندلس من اليونان ومائة وثلاثين عجلـة مشـحونة بالـذهب والفضة واللؤلؤ ومن أبنـاء الملـوك وغـيرهم من الأسـرى مـا يقـرب من ثمانين ألف أسير ومن الرقيق ثلاثون ألف شخص واستخلف ولديـه عبـد اللـه على أفريقيـة والمغـرب وعبـد العزيـز على الأنـدلس وفي خلافـة سليمان بن عبد الملك عزل عبد اللـه بن موسـى بن نصـير عن أفريقيـة

والمغرب وتولى محمد بن يزيد مولى قريش وذلك سـنة سـت وتسـعين وفي خلافة عمر بن عبد العزيز عزل عبد الله وتولى مكانه إسماعيل بن عبد الله ابن أبي المهاجر سنة سبع وتسعين ثم نبضت عـروق الخارجيـة في رؤوس كثير من البربر وسـارت إليهم من سـواد العـراق فـدانوا لهـا وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها فيهم من الاباضية والصـفرية وفشـت هذه البدعة في المغرب فوقع الاختلال في كل جهة منه وفي خلافة يزيد بن عبد الملك تولى يزيد بن أبي مسلم فقتله الخوارج لشـهر من ولايتـه فتـولى بعـده بشـر بن صـفوان الكلـبي فقـدمها سـنة ثلاث مائـة وغـزى جزيرة صقلية سنة تسع ومائة ومات في مرجعه عنها وتـولى عبيـدة ابن عبد الرحمن القيسي سنة عشر ومائة وعـزل في خلافـة هشـام وتـولى مكانه عبيد الله بن الحجاب مـولى ابن سـلول سـنة أربـع عشـرة ومائـة وبني جامعا بتونس ويعرف لهـذا العهـد بجـامع الزيتونـة واتخـذ فيهـا دار الصناعة لإنشاء المراكب البحريـة ووطيء بمعسـكره بلاد سـوس واثخن في البربر فجمعوا أمرهم وانتقضوا عليه وثار ميسرة المظفـري بطنجـة على عمرو بن عبد الله المرادي وكـان واليـا عليهـا لابن الحجـاب فقتلـه وبايع لعبد الأعلى بن جريح الأفقي الرومي الأصل ثم خلعه وبـايع لنفسـه ثم سـاءت سـيرته فنقم عليـه الـبربر مـا جـاء بـه وقتلـوه وقـدموا على أنفسـهم خالـد بن حميـد الزنـاتي فقـام بـأمرهم جمـع كلمتهم وزحـف بمجموعة العرب وسرح إليهم عبد اله بن الحجاب العساكر في مقدمتـه ومعهم خالد بن حبيب الفهري فالتقوا بوادي شلف فانهزم العـرب وقتـل خالد بن حبيب ومن معه وتسمى هذه الواقعة بواقعة الأشراف لـثرة من حضرها من وجـوه قـريش والأنصـار وانتقضـت البلاد ومـرج أمـر النـاس وانتهى الخبر إلى هشام بن عبد الملـك نعـول ابن الحجـاب وولى كلثـوم بن عياض القشيري سنة ثلاث وعشرون ومائة فخرج إلى أفريقيـة حـتى بلغ وادي طنجة فزحف إليه خالد بن حميد الزنـاتي بمن معـه من الـبربر

ولقـوا كلثـوم بن عيـاض بعـد أن هزمـوا مقدمتـه وعليهـا بلخ بن بشـير القشيري فاشتد القتـال بينهم وقتـل كلثـوم وانهـزم جيشـه وتحـيز أهـل الشـام إلى سـبتة مـع بلخ بن بشـير ومضـى أهـل مصـر وأفريقيـة إلى القيروان وطار الخبر إلى هشام بن عبد الملك نبعث حنظلـة بن سـفيان الكلبي فقدم القيروان سنة أربع وعشرين ومائة وهواره يومئذ خـارجون عن طاعة الدولة ومنهم عكاشة بن أيوب وعبـد الواحـد بن يزيـد فثـارت هواره ومن تبعهم من البربر فهـزمهم حنظلـة في ظـاهر القـيروان بعـد قتال شديد وقتل عبد الواحد واخذ عكاشة أسيرا وكتب حنظلة بذلك إلى هشام ولما سمعها الليث بن سعيد رضي اللـه عنـه قـال مـا غـزوة كنت احب أن اشهدها بعـد غـزوة بـدر احب إلي من هـذه الغـزوة وأجـاز عبـد الرحمن بن عقبة بن نافع لما مات أبوه إلى الأندلس يحاول ملكهـا ولمـا يئس منها رجع إلى تـونس ودعـا لنفسـه سـنة سـبع وعشـرين واسـتقل بملك أفريقية واقره مروان بن محمد عليها لما تـولى الخلافـة ولمـا آلت الخلافة إلى بني العباس بعث عبد الـرحمن بطاعتـه إلى السـفاح ثم إلى أبي جعفر المنصور من بعده ولم يزل عبـد الـرحمن واليـا على أفريقيـة إلى أن قتله اخوته سنة سبع وثلاثين لعشر سنين من إمارته وانتهى خـبر أفريقية إلى أبي جعفـر المنصـور فأرسـل محمـد بن الأشـعث الخـزاعي واليا عليها سنة أربع وأربعين ومائة فلقيه أبو الخطاب الخارجي بجموعـه بست فهزمه ابن الأشـعث وقتـل عامـة أصـحابه وافتتح طـرابلس وقـام بـأمر أفريقيـة وضـبطها ثم قفـل إلى المشـرق فوليهـا بعـده الأغلب بن سالم التميمي فخرج عليـه أبـو قـرة اليغـرتي في جمـوع الـبربر فهـرب ونقم عليه الجند وخلعوه ولحقوا بالحسن بن حرب الكندي بكابس واقبل بهم إلى القيروان فملكها ولحق الأغلب بكـابس واسـتعد لقتـال الحسـن سنة خمسين فهزمه إلى القيروان فكر عليه الحسن دونها وقتلـوا فقتـل الأغلب ثم رجعت أصـحاب الأغلب على الحسـن فقتلـوه في الموقـف

الذي قتل فيه الأغلب ولما بلـغ المنصـور قتـل الأغلب بعث إلى أفريقيـة عمر بن حفص أخا المهلب ابن أبي صفرة فقدمها سنة إحدى وخمســين ومائة فاستقام أمره ثلاث سـنين ثم ثـار الـبربر عليـه وحاصـروه بطنجـة فدانعهم وفرق كلمتهم بالمال ثم انتقضوا عليه وحاصروه بالقيروان ولما أجهده الحصار خرج مستميتا إلى قتالهم لقتل آخر سـنة أربـع وخمسـين ومائة ثم تولى مكانه ابن عمه يزيد بن أبي حاتم بعثه المنصور في ستين ألف مقاتل فهزم جموع البربر وقتل أبو حـاتم أحـد رؤسـائهم في ثلاثين ألفا من أصحابه وتتبع يزيد جموع الـبربر بالقتـل بثـار ابن عمـه عمـر بن حفص ثم دخل القيروان سنة خمس وخمسين ومائة ولم يزل واليـا على أفريقية والمغرب إلى أن تـوفي سـنة سـبعين ومائـة وكـان روح بن أبي حاتم أخو يزيد على فلسطين فاسـتقدمه الخليفـة هـارون الرشـيد وولاه على أفريقية نقدمها ثم توفي سنة أربع وسبعين ومائة وولى مكانـه ابنـه الفضل فخرج عليه عبد الله بن الجارود واقتحم عليه القـيروان واعتقلـه ووكل به وبأهله من يوصلهم إلى كابس ثم رده من الطريق وقتله فتولى بعده هرثمة بن أعين سنة سـبع وسـبعين ومائـة فـامن النـاس وسـكنهم وبنى القصر الكبير بالمنستير وبني السور على طرابلس ولما رأى كـثرة الثوار بأفريقية استعفى الرشيد من ولايته فأعناه وولى محمد بن مقاتـل الكعبي من صنائعه فقدمها سنة إحدى وثمانين ومائة وكان سيئ السيرة فخلعه الجند وقدموا مخلد بن مرة الاسدي وبعد أن قتل مخلد ثـار تمـام بن تميم التميمي على محمـد بن مقاتـل وأخرجـه من القـيروان فلحـق بطرابلس وبلغ الخبر إلى إبراهيم بن الأغلب بمكانـه من الـزاب فانتصـر لمحمد وسـار بجموعـه إلى القـيروان وهـرب تميم بين يديـه إلى تـونس وملـك أفريقيـة واسـتقدم محمـد بن مقاتـل من طـرابلس وأعـاده إلى إمارته ولما استقر الأمر لمحمد ابن مقاتل كره أهل البلاد ولايته ودخلــوا إبــــراهيم بن الأغلب في أن يطلب من الرشــــيد الولايــــة عليهم فكتب

إبراهيم إلى الرشيد بذلك نكتب له بالعهد سنة أربع وثمانين ومائة نقام بأمر الولاية وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان وانتقل إليها وتوارثها بنوه خلفا عن سلف إلى سنة ست وتسعين ومائتين ثم خرج أهل أفريقية عن طاعتهم وأقاموا بدعوة الشيعة وفر آخرهم واسمه زيادة الله قاتل أبيه إلى المشرق وفي هذه المدة كلها لم يتجاوز ملكهم أفريقية لمكان الدولة الإدريسية في المغرب وبانقراض دولة بني الأغلب من أفريقية انقطعت دعوة بني العباس منها ومن المغرب . ولنذكر دول المغرب على الترتيب ووقائعها وما آل إليه أمرها مبتدئين بدولة الأدارسة لأنها أول دولة ظهرت فيه حتى نتوصل إلى ذكر ما كان في أيام سيدي الوالد من الوقائع الهائلة والأيام المشهورة مع دولة فرنسا وما جرى بينه وبين دولة مراكش بوجه الاختصار على حسب الإمكان وبالله المستعان

ذكر دولة الأدارسة في المغرب الأقصى

لما آلت الخلافة العباسية للهادي خرج الحسين بن علي بن حسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط عليهم السلام إلى المدينة المنورة وبويع في ذي القعدة سنة تسع وستين ومائة ثم سار منها إلى مكة المكرمة وكتب الهادي إلى محمد بن سلمان بن علي العباسي حين قدم حاجا من البصرة فولاه حربه فاستعد محمد بن سلمان القتاله وانضم إليه من حضر من شيعتهم ومواليهم وخرج لقتال الحسين فالتقى الفريقان بوج موضع على ثلاثة أميال من مكة إلى جهة الطائف واقتتلوا فوقعت الهزيمة من جيش الحسين وقتل هو في جماعة من أهل البيت وافترق الباقون وكان فيهم عمه إدريس بن عبد الله الكامل فافلت مع من افلت منهم ولحق بمصر نازعا إلى المغرب وعلى بريد مصر يومئذ واضح مولى صالح بن المنصور وكان يتشيع فعلم بشان إدريس وحمله على البريد إلى المغرب ومعه راشد مولاه فنزل بوليلى بجانب جبل زرهون سنة اثنين وسبعين وبها وقتئذ إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير اوربة من قبائل البربر فأجاره وجمع البربر على إدريس وبايعوه وقاموا بأمره وخطب الناس يوم فقال أيها الناس لا تمدن الأعناق إلى غيرنا فان الذي تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا ولما استوثق له الأمر زعف إلى البرابرة الذين كانوا بالمغرب وأكثرهم على دين اليهودية والنصرانية فاسلموا على يده وخرب

حصونهم وفتح تامسنا ومدينة شالة وتادلا ثم زحف إلى تلمسان سنة ثلاث وسبعين وأمن أميرها محمد بن خزر المغراوي واقره على إمارته كما أمن سائر زناته وبنى مسجد تلمسان وكتب اسمه على منبرها ثم رجع إلى مدينة وليلى وقد طبق الآفاق ذكره واهتز له الرشيد ببغداد وأهمه شانه واطلع على ما كان من واضح مولاهم من دسيسة التشيع وأعمال الحيلة في نجاة إدريس إلى المغرب فقتلة ومن ذلك العهد وقع الفشل لبني العباس بالمغرب وقصرت قوتهم عن تسمو إليه وقد استعمل الرشيد الحيلة على قتل ادري فدس إليه الشماخ من مواليهم لتحيل على قتله فلحق به واظهر النفور من بني العباس مواليه فصدقه إدريس وقربه منه ثم انتهز الفرصة فيه في بعض خلواته فناوله سما فقتله به سنة خمس وسبعين ومائة ودفن بوليلى وفر الشماخ ولحقه راشد مولى إدريس بوادي ملوية فاختلفا بضربتين فقطع راشد يد الشماخ وأجاز الوادي فأعجزه ونما خبر إدريس إلى بني العباس ببغداد فوقع ذلك احسن موقع لما رجوه من قطع أسباب الدعوة الادريسية من المغرب وكانت أيام خلافة إدريس خمس سنين وستة اشهر وخلف جاريته كنزة حبلى فقام بأمر الملك مولاه راشد بالاتفاق وبعد ستة اشهر من موته وضعت جاريته كنزة ولدا فاجتمع البربر وعرضه راشد عليهم فراوه شبيها بابيه ففرحوا به وسموه إدريس الأصغر وكفله راشد إلى أن قتله بعض البربر بني الأغلب أمراء أفريقية سنة ست وثمانين ومائة ثم قام بكفالة إدريس من بعده أبو خالد بن يزيد بن الياس العبدي إلى أن بايعوه بجامع وليلى سنة ثمان وثمانين ومائة وهو ابن إحدى عشر سنة وقاموا بأمره وحددوا لأنفسهم رسوم الملك بتجديد طاعته وكان إدريس الأصغر اجمل الناس خلقا وخلقا قال داوود بن قاسم البربري خرجت مع إدريس الأصغر إلى قتال الخوارج من البربر فلقيهم وكانوا اكثر منا عددا فأخذني العجب يومئذ من ثبات جأشه وشدة إقدامه على العدو مع صغر سنه فجعلت أطيل النظر فيه لكلمني في ذلك فقلت إنما أطلت النظر إليك لخصال رايتها فيك منها انك تبصق بصاقا مجتمعا وأنا اطلب قليلا منه ابل به حلقي فلا أجده ومنها حركتك في سرجك فقال أما اجتماع بصقي فلاجتماع قلبي وأما ذهاب بصاقك فلذهاب قلبك وأما حركتي فلاستشرافي إلى القتال ثم قال . أليس أبونا هاشم شد أزره ◈ وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب

فقلت بلى انتم أهل لذلك .

ولما استوثق له الملك استوزر مصعب بن عيسى الازدي ونزع إليه كثير من قبائل العرب والأندلس واجتمع إليه منهم عدد كثير فاختصهم وكانوا له حاشية وبطانه بهم وقوي ملكه واختط مدينة فاس سنة اثنين وتسعين ومائة وبني فيها مساكنه وانتقل إليها من وليلى وأسس جامع الشرفا واستقام له الأمر وتوطد له الملك ثم خرج غازيا العامد سنة سبع وتسعين ومائة فافتتح بلادهم ودانوا بدعوته ثم غزى تلمسان وجدد بناء مسجدها وأقام فيها ثلاث سنين وانتظمت كلمة البرابرة وزناته

ومحو دعوة الخوارج منهم واستولى على المغربين من سـوس الأقصـى إلى وادي شلف وضايق إبراهيم بن الأغلب بأفريقية ثم اسـتراب إدريس بـالبرابرة فصـالح ابن الأغلب وسـكن من غربـة ثم عجـزت الاغالبـة عن مدافعة الاداسة ودافعوا حلفاء بني العباس فتارة باحنقار المغرب وأهلـه وتارة بالإرهاب بشان إدريس ثم رجـع إدريس من تلمسـان إلى عاصـمة ملكه فاس وعزم على الجواز إلى الأندلس فأدركـه الأجـل وتـوفي سـنة ثلاث عشر ومائتين عن ثمان وثلاثين سنة وخلف اثـني عشـر ولـدا ذكـرا أكبرهم جدنا محمد وهو ولي عهده فأشرك اخوته في ملكه بإشارة جدته كنزة فقسم المغرب بين الكبار منهم وأبقى البـاقين في كفالتـه وكفالـة جدتهم كنزة لصغرهم ولم يزل أمره جاريا على احسـن الوجـوه وأعـدلها إلى أن توفي في ربيع الأول سنة إحدى وعشرين ومـائتين بعـد أن عهـد لابنه علي وهو ابن تسع سنين فقام بـأمره الحاشـية من العـرب واوربـة وسائر البربر وبايعوه غلاما مترعرعا وقاموا بأمره وطاعته فكانت أيامــه خير أيام وتوفي في رجب سنة أربع وثلاثين ومـائتين لثلاث عشـرة سـنة من ولايته وعهد لأخيه بن محمد نقـام واشـتد سـلطانه وحسـنت سـيرته واستجدت فاس في العمران وبنيت الحمامـات والفنـادق للتجـار ورحـل إليها الناس من إليها الناس من الآفاق والقاصـية وبـني في أيامـه جـامع القـرويين اختطتـه امـرأة من القـيروان من مالهـا سـنة خمس وأربعين ومائتين وانتقلت إليه الخطبة من جامع الشرفا المعـروف بجـامع مـولاي إدريس ثم أوسع في خطة المنصور بن عامر وبنو مرين ثم تـوفي يحـيى وبويع ولده يحيى بن يحيى فساءت وكثر عبثه وثارت به العامة فأخرجوه من عدوة القروين إلى عدوة الأندلسيين فتوارى ليلتين ومات أسفا وبلغ الخبر إلى أب عمه علي بن عمر صاحب الريـف فاسـتدعاه أهـل الدولـة من العـرب والـبربر فجـاء إلى فـاس وبـايعوه واسـتولى على أعمـال المغرب فثار عليه عبـدالرزاق الخـارجي وزحـف على فـاس وغلب على

عدوة الأندلس منها وامتنعت عليه عدوة القرويين وفـر علي إلى أعمالـه من الريف فأختصر أهل فـاس يحـيى بن قاسـم بن إدريس فحضـر إليهـا جنوده وقتل عبدالرزاق وتم له الأمر واستقل به إلى أن اغتاله الربيع ابن سليمان سنة اثنين وتسعين ومائتين وقام بالأمر بعده احسن قيام يحـيى بن إدريس بن عمـر بن إدريس صـاحب الريـف فملـك جميـع أعمـال الادارسة وخطب له سـائر منـابر المغـرب وكـان أهلا بـني إدريس مكانـا وأعظمهم سـلطانا وأكـثرهم عـدلا وكرمـا ذا علم وصـلاح ولم يـزل على ذلك إلى أن عقد الشـيعة أصـحاب أفريقيـة لمصـالة بن حبـوس صـاحب تـاهرت على محاربـة ملـوك المغـرب فزحـف إلى فـاس في عسـاكر مكناسة وكنامة وبرزاليه يحيى بن إدريس بجموعـه والتقـا على مكناسـة فكانت الدائرة على يحيى ورجع إلى فاس فحاصره بهـا ثم صـالحه على مال يدفعه إليه وان يبايع لعبد الله المهدي فقبل وخلع نفسه وأنقذ بيعتـه إلى عبد الله المهدي وعقد له مصـالة على فـاس وعملهـا خاصـة وعقـد لموسى بن العافية المكناسـي على جميـع المغـرب ورجـع إلى أفريقيـة وفي سنة تسع وثلاثمائـة عـاد مصـاله إلى المغـرب فـدس إليـه ابن أبي العافية في يحيى نقبض عليه واستصفى أمواله وغر به إلى الريف وولى على فـاس ريحـان الكتـامي فثـار عليـه الحسـن بن القاسـم بن إدريس الملقب بالحجام سنة عشرة وثلاثمائة واخرج ريحان منها وملكها عـامين ثم زحف للقاء موسى بن أبي العافية وكانت بينهما حروب شـديدة قتـل فيهـا ابنـه موسـى وانجلت المعركـة على فغـدر بـه حامـد بن حمـدان االبربري الأوربي واعتقله وبعث به إلى موسى فوصل موسى إلى فـاس فملكها وطالب حمدان بإحضار الحسن ندانعه وأطلق الحسن فخرج من معتقله متنكرا وتدلى من السور فسقط ومات وفر حامد بن حمدان إلى المهدية بأفريقية وتولى ابن أبي العافية على جميـع المغـرب وأجلى من بقي من الادارسة في فاس إلى الريف واجتمعوا إلى أكبرهم ابراهيم بن

محمد بن قاسم أخي الحسن المذكور وولوه عليهم واختـط لهم الحصـن المعروف بحجرة النسر ثم اظام الجؤ بين الشـيعة وأمـيرهم موسـى بن أبي العافيــة فمــال ابن أبي العافيــة إلى المروانــيين أصـحاب الأنــدلس وخطب موسى لهم على منابر سائر أعماله وقطع خطبة العبـدين فطـار الخبر إليهم فجهزوا له جيشا تحت قيـادة مـولاهم ميسـور الفـتي وكتبـوا إلى الادارسة بالريف أن يكونوا في نصـرته حـتى إذا فرغـوا من موسـى بن أبي العافيــة يرجــع ميســور ويــترك لهم ولايــة المغــرب فكــان من الادارسة في محاربة ابن أبي العافية عحائب ثم إنجاز إلى ملوية فلعقــوا به وقتلوه بعد أن ملك المغرب ثمانية وعشـرين سـنة ورجـع بنـو إدريس إلى بلادهم ماعـدا فـاس وتمسـكوا بـدعوة الشـيعة وتـولى القاسـم بن محمد بن القاسم بن إدريس الملقب بكنون ثم توفى سـنة سـبع وثلاثين وثلاثمائة وتولى مكانه ولده احمد بن القاسم وكان عالما فقيها يميل إلى بني مروان فقطع دعـوة الشـيعة ودخـل الأنـدلس بقصـد الجهـاد فمـات هنالك سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائـة وخلفـه أخـوه الحسـن بن كنـون إلى دخول جوهر الشيعي المغرب فبايع الحسن الشيع ولما رجع جــوهر نكث ورجع لمروانيين إلى أيام بلكين قائد الشيعة وقوي أمرهم وضاق النطاق على الحســن حـتى مـات شـريدا ثم تغلب المروانــيين على بلاد الريــف وأجازوا اكثر الادارسة المترشـحين للملـك إلى الأنـدلس ثم اجتـازوا إلى الإسكندرية وبعث العزيز العبيدي صاحب مصر وأفريقيـة من اختـاره من بنب كنون لطلب ملكهم بـالمغرب فغلبهم عليـه المنصـور بن أبي عـامر وقتلهم وكان انقراض دولـة الادارسـة من المغـرب بعـد أن ملكـوه نحـو مائتي سنة ثم تمكن بنو يفرن وزناتة وخطبوا فيها للمروانيين وبقيت في أيديهم يتوارثونها إلى أن غلبهم عليها المرابطون والبقاء لله تعالى . ذكر

بنى الأغلب أمراء تونس وهم من أولاد بن سالم قدم مع محمد بن الأشعث الخزاعي حين تولى على مصر وتونس سنة أربع وأربعين ومائة فولاه على الزاب ولما رجع ابن

الأشعث إلى بغداد فبعث الخليفة أبو جعفر المنصور الأغلب بن سالم واليا على تونس فقدمها وسكن القيران ثم خرج عليه أبو مرة اليغرني في جموع البربر وقتل الأغلب في حروبه وفي أيام هارون الرشيد عهد بالولاية لإبراهيم بن الأغلب وكان الرشيد يغض بمكانه إدريس في المغرب فاحتال عليه إبراهيم حتى قتله وأشار إلى ذلك ابن الخطيب بقوله . واستوثق الملك لآل الأغلب ◈ بعد رجال من بني المهلب

فأول الأقوام إبراهيم ◈ وهو الهمام الملك العظيم
قلده هارون أمر المغرب ◈ وهو لطيف الحد ماضي الضرب
فلم يدع في أرضه رئيسا ◈ واعمل الحيلة في ادريسا

ودام إبراهيم في الولاية إلى أن توفي . فوليها بعده ابنه العباس واستعمل الجور في رعيته فأنتدب جماعة من الصالحين إلى وعظه فلم يقبل واستم على حاله فتوجهوا إلى الله بان يريحهم منه فمات لخمسة أيام مطعونا بعد ان اسود لونه وتغير جماله وحسنه فوليها أخوه زيادة الله المشهور بابن شكله وكان أميرا جليلا وفي إمارته للمأمون وإبراهيم من المهدي ومات سنة ثلاث وعشرون ومائتين فتولى مكانه أخوه عقال وسار سيؤته في الخير إلى ان مات فولى بعده أبو العباس بن محمد ابن الأغلب وكان جاهلا وولي بعد وفاته ابن أخيه احمد بن العباس وكان حسن الأخلاق متحنبا الظلم والاعتساف بنى المساجد في تونس والمأجل ببلبها وتوفى سنة تسع وأربعين ومائتين فوليها أخوه أبو محمد زيادة الله بن محمد بن الأغلب وكان عاقلا حسن السيرة وكانت ولايته ستة اشهر ثم وليها أب أخيه محمد بن احمد ابن محمد الملقب بابي الغرانيق لشغفه بصيده وكان غاية في الجود وأيامه في اليمن يضرب بها المثل توفي سنة إحدى وستين ومائتين وولى بعده أخوه أبو إسحاق إبراهيم ابن احمد وهو الذي نقل القصور إلى ركادة وكان في ابتداء أمره حسن السيرة ثم غلب عليه خلط سوداوي فتغير حاله وأسرف في القتل وقتل أصحابه وحجابه وثمانية من اخوته صبرا بين يديه وقت بناته ثم اظهر النسك مات سنة تسع وثمانين ومائتين وولى بعده ابنه أبو العباس عبد الله على عهد المعتصم بالله فرد المظالم وتنسك ولبس

الصوف وقتل بتـدبير ابنـه زيـادة اللـه وكـان في سـجنه وبـادر بقتـل من شارك في دمه واظهر التبري من ذلك وفي أيـام زيـادة اللـه ظهـر بـني عبيــد ولقيت جيوشــه جيــوش الشــيعة فلم تقم لهم قائمــة ففــر إلى المشرق وترك البلاد . ذكر

دولة الادارسة بالأندلس كان لبني محمد وبني عمر من ولد إدريس على البربر في بلاد غمارة من الريف فلما قام سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين على النهدى محمد بن هشامفي جنود البربر وزناتة كان علي بن حمود بن ميمون بن احمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس وأخوه القاسم في حملتهم واشتد أمر البربر وناتة أنصار المستعين على أهل الأندلس وحاصروا المهدي في قرطبة فخشى أهلها على أنفسهم من اقتحام البربر عليهم فقتلوا المهدي بن هشام واجتمعوا على تجديد البيعة لهشام المؤيد واستم على البرابرة على حصار قرطبة والمستعين بينهم إلى أن دخلوها عنوة سنة ثلاث وأربعمائة وفتكوا بهشام المؤيد ثم لما افترق شمل جماعة قرطبة وتغلب البربر على الأمر قام علي بن حمود وأخوه القاسم ودعوا لأنفسهم وتعصب لهم الكثير من البربر وملكوا قرطبة سنة سبع وأربعمائة وقتلوا المستعين وتم الأمر لعلي وتمكن سلطانه واتصلت دولته عامين وتلقب بالمأمون ثم قتله صقاليته في الحمام سنة ثمان وأربعمائة فولى مكانه أخوه القاسم والى ذلك يشيير إلى الخطيب في منظومته بقوله : تم سليمان إلى الملك رجع ◈ نبهه الدهر وما كان هجع

وكان شاعرا ومن أهل اللسن ◈ وقيض الله له أبا الحسن
وهو ابن حمود أتى من سبته ◈ وسبب العز له قد ثبته
صال عليه طالبا دم هشام ◈ وقل من ونى عن الثار ونام
فخذل الابن وثنى بالأب ◈ بيده مبينا للسبب
واستوثق الأمر قليلا وانتظم ◈ وانتصر الدهر به ممن ظلم
واغلظ الأحكام في بربره ◈ وغالب الناس على سيره
واغتاله الصقلب في حمامه ◈ فجرعوه الصرف من حمامه
وقام بالأمر أخوه القاسم ◈ فوضحت في ملكه المراسم

ثم بعد أربـع سـنين من سـلطنة القاسـم نازعـه ابن أخيـه يحـيى بن علي بسببه وكان أميرا على تلـك النـواحي وولى عهـد أبيـه فزحـف إلى قرطبة فملكها سنة اثنتي عشرة وأربعمائـة وتلقب بـالمعتلى وفـر عمـه المأمون إلى إشبيلية وبايع له قاضـيها ابن عبـاد واسـتجلس عض الـبربر ورجع إلى قرطبة سنة ثلاث عشـرة ولحـق المعتلى بمالقـة وتغلب على

الجزيرة الخضراء وتغلب أخوه إدريس على طنجه ولم يزل أمر المعتلى ينمو وسلطانه يعلو إلى أن قتله محمـد بن عبـد اللـه الـبرزالي الـبربري بمداخلـه ابن عبـاد ثم اسـتدعى أهـل مالقـه أخـاه إدريس بن علي من طنجـة وبـايعوه فتم أمـره واتسـعت دولتـه ومـات سـنة إحـدى وثلاثين وأربعمائـــة وبويـــع بعـــده لابن أخيـــه حســـن بن يحـــيى المعتلى ولقب المستنصر ومات مسـموما سـنة ثمـان وثلاثين وبويـع لأخيـه إدريس ابن يحـيى ولقب العـالي ثم ثـار السـودان عليـه بـدعوة ابن عمـه محمـد بن إدريس بن علي وتلقب المهدي وأقام في ملكه بمالقة وإطاعته غرناطـة وجيـان وأعمالهـا إلى أن مـات سـنة أربـع وأربعين ورجـع العـالي فبويـع بمكانه بغمارة وكان فر إليها لما يتار عيلة السـودان ثم مـات سـنة سـبع وأربعين وبويع محمد الأصـفر ابن إدريس بن علي وتلقب بالمسـتعلي ثم قام عليه بإدريس فتغلب على مالقة وسـار محمـد المسـتعلي منهـا إلى المرية تطوعا ثم اسـتدعاه أهـل مليليـة وكليعـة من وراء البحـر وبـايعوه سنة تسع وخمسين وأربعمائـة وهـو آخـر ملم الأنـدلس من الادارسـة ثم اقتسمت ملوك الطوائف جزيرة الأندلس إلى أن تغلب عليها المرابطون بعد تغلبهم على المغرب كله والبقـاء للـه وحـده . واعلم أن هـذا القطـر الأندلسي تسميه الإفرنج اندلش بالشين المعجمة وكـان يسـكنه أمم من افرنجه المغرب وأكـثرهم الجلالقـة وكـان الغـوط قـد تملكـه المئتن من السنين قبل الإسلام بعـد حـروب موصـوفة مـع السـريانيين وذلـك لعهـد إبراهيم الخليل عليه السلام وحاربوا اللاتينيين وحاصروا رومـة ثم عقـدوا معهم السلم على أن ينصرف الغوط إلى الأندلس فساروا إليها وملكوها وهـؤلاء الغـوط من الأمم العظيمـة وكـانوا يعرفـون في الـزمن القـديم باسـبيين نسـبة إلى الأرض الـتي كـانوا يعمرونهـا بالمشـرق فيمـا بين الفرس والرومان ولما اخذ الروم واليونان بالملة النصرانية وحملوا عليها من ورائهم من المغرب من أمم الفرنجة والغـوط فـدانوا بهـا وكـان دار

ملوك الغوط طليطلة وملكهم لذلك العهد يسمى لزريف وهو سمة لملوكهم وكان ملك البرابرة بجبال غمارة يسمى بليان يدين بطاعتهم وملتهم موسى بن نصير أمير المغرب إذ ذاك عامل على أفريقية من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك واستنزل بليان طاعة الإسلام وكانبليان ينقم على لزريف ملك الغوط فلعق بطارق بن زياد الليتي وهو يؤمئذ واليطنجة فانتهز طارق الفرصة واجاز البحر بإذن أميره موسى بن نصير بثلاثمائة من العرب واحتشد معهم البربر وصيرهم عسكرين على نفسه ونزل بهم جبل طارق الفتح فسمى جبل طارق والآخر على طريف بن مالك النخعي ونزل بمكان مدينة طريف فسميت به وحصل لهما الفتوحات العظيمة . ذكر

دولة العبيديين وهم الفاطميون

وأصلهم من الشيعة المعروفين بالإمامة وكان محمد بن حبيب والد عبيد الله المهدي منهم وهو من ولد إسماعيل الإمام ومنازله بالسليمية من ارض حمص في الشام وكانت شيعتهم تهددونه بالزيارة فجاء محمد بن الفضل الشيعي العدني من اليمن لزيارته فبعث معه رستم بن الحسن الحوشب لإقامة دعوته باليمن فساروا واظهروا الدعوة واستولى محمد بن الفضل الداعية على اكثر اليمن وفرق العدو في اليمامة والبحرين والسند والهند ومصر وكان أبو عبد الله المعروف بالمحتسب الشيعي من أهل صنعاء وقيل من الكوفة سمع بقدوم ابن حوشب وانه يدعو الناس إلى المهدي فسار إليه واتصل به وكان ابن حوشب أرسل دعاة إلى المغرب وأجابتهم كتامة من البربر . فلما رأى علم أبي عبد الله ودهاء وأرسله إليهم ثم جاء أبو عبد الله مكة واجتمع بجماعة منهم قدموا حجاجا فرآهم مجيبين إلى مطلوبهم فسار معهم إلى بلادهم من أفريقية سنة ثمانيين ومائتين وانثال البربر عليه من كل جهة وعظم شانه وبلغ الأمر إلى بنى الأغلب أمراء أفريقية فاستصغروه ثم مضى إلى تاهرت واته قبائل المغرب الأوسط واستمر يطاول بني الأغلب على مملكتهم إلى أن تولى زيادة الله قاتل أبيه وكان منهمكا في لذاته فضعف أمره وانتفضت عليه كافة أفريقية فهرب إلى المشرق ونهب البربر قصوره واحتل أبو عبد الله ركادة ومنها ذهب إلى القيروان فدخلها ولما رأى أبو عبد الله أمره في الزيادة وأمر بني الأغلب في النقصان بعث جماعة من كتابه إلى عبد الله بعد موت والده محمد الحبيب فوصلوا إليه وهو في السليمية واخبروه فتح الله عليهم وان الناس في انتظاره وشاع خبر عبد الله المهدي

في الشام والعراق ومصر واتصل الخبر بالخليفة المكتفي بالله العباسي فطلبه ففر إلى العراق ثم لحق بمصر ومعه ابنه وخاصته فبلغه ما احدث بها محمد الفضل من بعد ابن حوشب وانه أساء السيرة فخرج من مصر بمن معه في زي التجار وسار حتى وصل قسنطنية ثم عدل الطريق الصحراء إلى سجلماسا وبها اليسع بن مدرار فأكرمه ثم حبسه وبقي في محبسه إلى أن فرغ أب عبد الله من أمر أفريقية واستمر على سيره حتى أتى سجلماسا فخرج اليسع لقتاله فانتفض معسكره وفر هو وخاصته ومن الغد خرج أهل البلد إلى الشيعي وذهبوا معه إلى مجلس المهدي وابنه فأخرجهما وبايع للمهدي ومشى مع رؤساء القبائل بين يديه حتى انزلهم بالمخيم وبعث في طلب اليسع فأدركوه وقتلوه ثم ارتحلوا إلى أفريقية ونزلوا بركادة سنة سبع وتسعين فحضر أهل القيروان وبويع المهدي البيعة العامة واستقام أمره وقسم الأموال في رجال كتامة وأقطعهم الأعمال ودون الدواوين وجبى الأموال واستبد بأمره والى ذلك أشار ابن الخطيب بقوله . وظهر الشيعي في كتامة ◈ فاختار فيهم كونه وأعتامه

وغرهم في رايه ومذهبه ◈ ووعدهم ملك الورى بسببه
وصير الدعوة بعض قصصي ◈ إلى عبيد الله من ال الوصي
وهو الذي لقب بالمهدي ◈ أي هام حازم أبي

وآخر المهدي أبا عبد الله وأخاه أبا العباس عن مباشرة الأحكام فاظلم الجو بينهما واظهر أبو عبد الله وأخوه الطعن فيه وقالوا لهم ليس هذا هو المهدي الذي دعونا إليه فاسترابت كتامة واتفقوا على قتله ونمى الخبر إلى المهدي فتلطف في أمره وولى رؤساء كتامة على البلاد وفرق كلمتهم ثم أمر عروبة بن يوسف بقتل أبي عبد الله وأخيه فحمل على أبي عبد الله عند باب القصر فقال له لا تفعل فقال الذي أمرتنا بطاعته امرنا بقتلك ثم أجهز عليه وعلى أخيه أبي العباس وخلا الجو للمهدي فبنى المهدية وانتقل إليها من ركادة وزال بلكه مللك بنى الأغلب وملك مدرار أصاحب سجلماسا . وأيامهم فيها مائة وثلاثون سنة وزال ملك بني رستم أصاب تاهرت وأيامهم فيها مائة وستونسنة وتوفى المهدي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة بالمهدية لأربع وعشرين سنة من ولايته وولى بعده ابنه أبو القاسم محمد ويقال له نزار ولقب بالقائم بأمر الله فخرج عليه يزيد الأعور ولم يزل منشغلا بحروبه مدة إمارته وتوفي القائم محصورا في سوسة بعد أن عهد لولده إسماعيل ولقبه

المنصور سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة فكتم المنصور موت أبيه القائم حذرا أن يطلع عليه أبو زيد وهو بمكانه من حصار سوسة فلم يسم بالخليفة ولا غير السكة ولا الخطبة ولا البنود إلى أن مات أبو زيد ماسورا عنده سنة ستة وثلاثين وثلاثمائة فحينئذ اظهر موت أبيه وبويع بالخلافة وضبط الملك البلاد ثم توفى سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة لسبع سنين من خلافته وعهد إلى ابنه معد ولقب بالمعز لدين الله فاستقام أمره وعظم ملكه ولما بلغ اختلال أحوال مصر بعد موت كافور الاخشيدي جهز إليها جوهرا في جيوش البربر والعرب فهربت العساكر الاخشيدية قبل وصوله ودخل مصر في سابع عشر رمضان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وأقيمت دعوة الفاطميين فيها وخطب باسم المعز أبو محمد عبد الله الشمشاطي في الجامع العتيق في شوال وفي جمادى الأول ودخل جوهر جامع ابن طولون وأمر بزيادة حي علي خير العمل في الآذان وجهر في الصلاة بسم الله الرحمن الرحيم وبعث الهدايا والأموال إلى أفريقية صحبة الوفد من مشنجة مصر وقضائها وعلمائها وانقرضت دولة الإخشيدية من بني طنج .

ولما استقر جوهر بمصر شرع في بناء القاهرة وسير جيشا إلى الشام مع جعفر بن فلاج . فجاز إلى دمشق وافتتحها بعد قتال شديد ونهب بعضها وكف عن بعض وأقام الخطبة فيها يوم الجمعة للمعز الفاطمي في محرم سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ولما توالت البشائر على المعز بفتح مصر والشام عرم على المسير إلى مصر وبدا في مهيد المغرب وقطع شواغله تم استدعى بلكين بن زيري واستخلفه على أفريقية والمغرب وانزل القيروان وسماه يوسف وكناه أبا الفتوح ثم سار بأهله وعساكره إلى مصر فتلقته بالإسكندرية فأكرمهم وساروا معه إلى مصر فدخلها خامس شهر رمضان سنة اثنين وستبن وثلاثمائة وكانت منزله ومنزل الخلفاء من بنيه بعده إلى انقراض دولتهم بموت

العاضد أبي محمد عبد الله وكانت وفاته يوم عاشورا سنة سبع وستين وخمسمائة وعلى وزارته يوسف صلاح الدين تقلها بعد موت عمه شيركوه فتمكن صلاح الدين في مصر وحكم على القصر وكان قبل موت العاضد بأيام وهو في شدة المرض قطع خطبته وخطب لبني العباس بأمر نور الدين الشهيد محمود بن زنكي صاحب الشام وهو الذي بعث شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر باستدعاء من العاضد وكانت أيام ملك الفاطميين مائتين وثمان سنين بمصر واثنتين وخمسين بالمغرب وأفريقية وعدة خلفائهم أربعة عشر أولهم عبيد الله المهدي وآخرهم العاضد محمد بن عبد الله وبانقراض دولتهم انقرضت دولة العرب من مصر ومن المغرب وأفريقية وانتقل ملك مصر إلى يوسف صلاح الدين وأهل بيته ثم إلى جراسكة ثم إلى الدولة العلية وانتقل ملك أفريقية والمغرب إلى البربر يتداولونه طائفة بعد طائفة وجيلا بعد جيل تارة يدعون لبني أمية بالأندلس وتارة لبني العباس وأخرى لبني إدريس ثم استقلوا بالدعوة لأنفسهم فقامت دولة صنهاجة بأفريقية وأولهم أبو الفتوح بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي استخلفه العز على أفريقية والمغرب عند مسيره إلى مصر واستمرت إمارة أفريقية في ولده يتوارثونها خلفا عن سلف إلى أن أقرضت باستيلاء الإفرنج على المهدية سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفر الحسن بن يحيى بن تميم آخر أمراء أفريقية إلى بجاية فأجاره صاحبها يحيى بن العزيز من بني حماد ثم لحق بالجزائر ونزل على سبع بن العزيز أخي يحيى فاكرم نزله وجاروه إلى أن فتح الموحدون الجزائر سنة سبع وأربعين وخمسمائة بعد استيلاهم على المغرب ولأندلس فخرج الحسن من أمير الموحدين فأكرمه ولحق به وصحبه إلى أفريقية في غزوتيه الأولى والثانية فنازل المهدية فافتتحها سنة خمس وخمسين واسكنها الحسن وعين له إقطاعا في خارجها ثم استدعاه يوسف بن عبد المؤمن فب ولايته بعد أبيه عبد

المؤمن فاتحل بأهله قاصدا مـراكش فمـات بتماسـا والبقـاء للـه تعـالى وحده .^ ذكر

دولة المرابطين وهم من الطبقة الثانية من صنهاجة ويقال لهم الملثمون وقد استوطنوا القفر وراء الرمال الصحراوية منذ دهور لا يعرف أولها آثارا للانفراد والبعد عن غلبة الملوك وتناساوا في تلك البلاد وكثروا وتعددت قبائلهم . ذكر غير واحد من المؤرخين انهم كانوا لأول الإسلام سبعين قبيلا منها لمتونة ودكالة ومسوقة ولنطة ومزينة . ومواطنهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من جنوب طرابلس وبرقة إلى ريف الحبشة . واتخذوا اللثام شعار ليلا ونهارا والسبب في ذلك أن طائفة من لمتونة خرجوا غائرين على عدو لهم مخالفهم العدو إلى بيوتهم ولم يكن بها إلا المشايخ والصبيان والنساء فلما تحقق المشايخ انه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال وتلثمن ويضيقنه حتى لا يعرفن ويلبسن السلاح وتقدم المشايخ والصبيان أمامهم واستدار النساء في البيوت فلما اشرق العدو رأى جمعا عظيما فقال هؤلاء عند حرمهم يقاتلون عنهم قتال الموت والرأي أن سوق النعم ونمضي فان لحقونا قاتلناهم خارجا عن حريمهم فبينما هم في جمع النعم من المراعي إذ اقبل رجال الحي فبقى العدوا بينهم وبين النساء فاكثروا القتل من العدو وكانوا ممن قتله النساء اكثر فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونهم ومما قيل فيهم . قوم

هم درك المعالي في لثمى ◈ وان أصموا صنهاجة فهم عم
لما حووا إدراك كل فضيلة ◈ غلب الحياء عليهم فتلثموا

وكانوا على دن المجوسية ولم يزالوا مستقرين في تلك المجالات حتى كان إسلامهم في المائة الثالثة وكانت الرئاسة فيهم للمتونة ولهم ملك ضخم في تلك الصحارى وجاهدوا جيرانهم من أمم السودان وحملوهم على الإسلام فدان به أكثرهم ومن بقى منهم على المجوسية أعطى الجزية ولم تزل كلمتهم مجموعة إلى ان قتل صنهاجة أميرهم تميم بن بلنان فتفرق أمرهم وصارت رئاسة كل بطن منهم في بيت مخصوص فكانت رئاسة لمتونة في بني ورتاطق ولما أفضت رئاستهم إلى يحيى بن إبراهيم خرج في جماعة إلى الحج سنة أربعين وأربع مائة فلقوا في منصرفه الإمام أبا عمر الفاسي المالكي فطلبوا منه أن يرسل معهم من يعلمهم أمر دينهم فبعث معه الفقيه عبد الله بن يس الجزولي ولما مات الأمير يحيى افترق أمرهم وتركوا الأخذ عن عبد الله بن يس فعرض عنهم وتنسك معهم يحيى بن عمر وأخوه أبو بكر بن عمر رؤساء لمتونة وانتبذوا عن الناس في جزيرة يحيط بها بحر النيل ولحق بهم من كان في قلبه ميل إلى الإسلام ولما كمل معهم ألف رجل قال لهم عبد الله قد تعين عليّنا القيام بالحق والدعاء إليه ولن يغلب ألف من قلة فخرجوا من الجزيرة وقاتلوا من استعصا عليهم حتى أنابوا ورجعوا إلى الحق وسماهم المرابطين وأمر عليهم يحيى بن عمر فتخطوا رمال الصحراوية إلى بلاد درعة وسجلماسا فادوا لهم الزكاة الشرعية ورجعوا ثم بلغهم ما نال المسلمين من ظلم من بني وانودين أمراء سجلماسا من مغراوة فخرجوا إليهم سنة خمس وأربعين وأربعمائة في عدد كبير من الفرسان وعمدوا إلى درعة فنهض إليهم أمير مغراوه وصاحب سجلماسا ودرعة فانهزمة جيوش مغراوة واستلحم عسكره ودخلوا سجلماسا وقتلوا من كان بها من مغراوة وبعد إصلاح احوالها استعملوا عليها بعض رؤسائهم ورجعوا إلى مواطنيهم ثم مات يحيى بن عمر سنة ثمان وأربعين وأربعمائة وولى أخوه أبو بكر بن عمر فغزا

بلاد سوس ومات الفقيه عبد الله بن يس في بعض حروبهم مع برغوطة واستمر أبو بكر في جهاده حتى الستأصل شانتهم ثم بلغه ما وقع من الخلاف فخشي اختلاف الكلمة ورحل راجعا إلى قومه بعد أن استعمل على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشنين ورفع ما كان بينهم من الخلافة وشغلهم في جهاد السودان فاستولى على نحو تسعين مرحلة من بلادهم واقبل يوسف على حربه فدوخ أقطار المغرب فاختط مدينة مراكش سنة أربع وخمسين وأربعمائة ثم انتقلت عليه فاس وقبائل زناته فنهض إليهم سنة اثنان وستين ونازل فاس وافتتحها عنوة واصلح شانها وارتحل منها إلى ملوية فافتتح حصونها وحصون غمارة وتازة وبلاد غباثة وفي سنة ثلاث وسبعين نهض إلى الريف فافتتح سائر بلاده وفتح ومدينة تمسان واستلحم من كان بها من مغراوة وقتل أميرها العباس بن المتي واختط بها تاكروات وهو اسم بالمحلة بالبربرية ثم افتتح وهران وتنس ومليانة ولمدية وغيرها وانتهى إلى الجزائر ثم إلى مراكش سنة خمس وسبعين وأربعمائة وعظم أمره واستفحل ملكه ولقب أمير المسلمين وكاتبه أهل الأندلس كافة من العلماء وخاصة وملوك الطوائف مستنجزين وعده في صريخ الإسلام فأهتز للجهاد ثم أجاز البحر بعساكر المرابطين وقبائل المغرب ونزل لجزيرة الخضراء سنة تسع وسبعين وأربعمائة وجمع ملك الجلالقة أمم لقتاله ولقيه بالزلاقة من نواحي بطليوس وكان المسلمين عليه اليوم المشهور سنة إحدى وثمانين ثم رجع إلى مراكش وأجاز ثانية سنة ست وثمانين فلقية ابن عباد بجيوشه فبطش بهم ورجع إلى مراكش وأجاز ابن ابنه الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة وانضمت إليه جيوش المرابطين بالأندلس فتقوى بهم واخذ عامة الأندلس من يد ملوك الطوائف واستولى على العدوتين ولم يبقى منها إلا سرقسطة بيد صاحبها ابن هود معتصما بالإفرنج وخاطب المستنصر العباسي الخليفة ببغداد وجاء التقليد منه على ما لديه من الأقاليم وخاطبهم الإمام الغزالي يحضه على العدل والتمسك بالشريعة ثم أجاز رابعة سنة سبع وتسعين وأربعمائة وتوالت غزواته من بلاد الإفرنج إلى أن مات على رأس المائة والخامسة فقام بالأمر بعده ابنه علي وأجاز إلى الأندلس فاثخن فيها قتلا وسبيا ثم أجاز ثانية سنة ثلاث وخمسمائة ونازل طليطلة فعظم شانه وقسم شرق الأندلس على أعيانه المرابطين وعقد لابنه تاشفين على غربيه سنة ست معشرين وخمسمائة ورجع إلى مراكش لأربع عشر سنة من دولته كان ظهور الموحدين ثم مات سنة سبع وثلاثين وخمسمائة وقام بالأمر ابنه تاشفين عظم أمر الموحدين ثم اخذ أمر المرابطين الضعف وغزا عبد المؤمن بن علي في جموع الموحدين غزواته الكبرى إلى جبال المغرب فخرج تاشفين بعساكر المرابطين لمقابلته وبعث البعوث إلى الجهات فرجعوا منهزمين وتوالت الوقائع عليه فاجمع الرحلة إلى وهران وبعث ابنه وولي عهده إبراهيم إلى مراكش وزحف عبد المؤمن إلى وهران في جيوش الموحدين وضايق تاشفين في داخلها فخرج إلى الجبل المطل عليها فتردى به فرسه في بعض شعابه فمات سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ثم بويع لابنه إبراهيم بن كاشفين وخلع فبويع عمه إسحاق ابن علي ابن يوسف ثم زحف الموحدون إليها وقد ملكوا جميع بلاد المغرب الأقصى والأوسط فخرج إليهم عسك إسحاق فقتله الموحدون وفر إسحاق وخاصته إلى القصبة ثم نزلوا على حكم الموحدين فاحضر إسحاق بين يدي عبد المؤمن فقتله الموحدون وقتل خاصته ودخلوا مراكش وانقرضت دولة المرابطين بعد ان ملكوا المغرب الأقصى والأوسط وعدوة الأندلس ثمانين سنة وخطب لهم على أزيد من ألفي منبر وكانوا أهل ديانة وصيانة لم يجروا في أعمالهم

مكسا ولا خراجا ولا ما يخالف الشريعة المطهره قال ابن الخطيب : قد طلعت

بمغرب لمتونه ◈ دولتها عزيزه ميمونه
تجمع دينا وعفافا وكرم ◈ لم يدر قدر فضلها حتى انصرم
فأذعنت لحربها الطوائف ◈ وظهرت من قومها خلائف

والملك لله وحده لا شـريك لـه يحـيي ويميت وهـو على كـل شـيء قدير ذكر

دولة الموحدين كان القائم بأمر هذه الدولة محمد بن عبد الله تومرت الشهير بالمهدي فاختلف النسابون فيه فقيل انه ينتمي إلى الحسن السبط رضي الله عنه وأنكر ابن مطروح ذلك في تاريخه وقال إنما هو من هرغه من بطون المصامده من البربر ارتحل في أول الخمسمائة إلى المشرق لطلب العلم ولقي جماعه من مشاهير العلماء فاستفاد علما واسعا ثم انطلق راجعا إلى المغرب سنه خمس عشره وخمسمائة واخذ بالإنكار على الناس والزمهم إقامة الصلوات واجتناب المنكرات وكان على مذهب الأشعري في تأويل المتشابه من الآيات والأحاديث وأنكر على أهل المغرب أخذهم بمذهب السلف في إقرار المتشابه كما جاء وكفرهم بذلك وكان يقول بعصمه الإمام وينتحل من القضايا الاستقباليه ويشير إلى الحوادث الآتية وفي أيام إقامته بنواحي بجاية اتصل به عبد المؤمن الكومي التراري فاستصحبه إلى المغرب الأقصى واستمر على ما هو عليه في زعمه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودخل مراكش فكثرت اتباعه ولما اشتهر أمره استحضره أمير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين إلى مجلسه وناظره الفقهاء بين يديه نغلبهم فأخرجه من مراكش فلحق بجبال المصامدة ونزل على هرغة وبني رباطا للعبادة واجتمع عليه خلق كثير فجعل يعلمهم التوحيد بلسانهم على مذهب الأشعري ثم دعاهم إلى بيعته على التوحيد وقتال المرابطين وانه المهدي المنتظر فبايعوه على ذلك ثم كثرت جيوشه فأرسل أمير المسلمين علي بن يوسف جيشا لقتاله فهزمهم وقويت نفوس اتباعه ووفدت إليه قبائل المصامدة وغيرهم من البربر يبايعونه وعظم أمره وترددت إليه عساكر المرابطين مرات ففضهم ثم ارتحل إلى جبل تينملل واستوطنه وبني فيه دارا ومسجدا وسمي عامه أصحابه الموحدين ولم يزل أمره يعلو فلم تهزم له راية إلى سنه أربع وعشرين وخمس مائه فجهز جيشا لنضر صاحبيه الوانشريسي وعبد المؤمن وسيرهم إلى مراكش وحصروا أمير المسلمين فيها عشرين يوما ثم خرج إليهم واقتتلوا فقتل الوانشريسي وانهزم عبد المؤمن بجيشه إلى الجبل . ولما بلغ المهدي خبر هزيمة عساكره وكان مريضا أوصى أصحابه باتباع عبد المؤمن وعرفهم انه هو الذي يفتح البلاد وسماها أمير المؤمنين ولما توفي دفنه أصحابه في داخل مسجده وكتموا موته وعهده للخلافة إلى عبد المؤمن خوفا من تفريق الكلمة وأقاموا يدبرون الأمور ثلاث سنين ثم تقدم الشيخ أبو حفص الهنتاتي رئيس قبيلته إلى عبد المؤمن وقال له نقدمك كما كان الإمام يقدمك وأعلنوا ببيعته وامضوا عهد الإمام بخلافته وحملوا القبائل على طاعته فأقام عبد المؤمن في تينملل تؤلف القلوب ويأخذ بالاستعداد إلى أن استكمل أمرهم فخرج إلي تادلة ودرعة فاستولى عليهما فانتقض البربر وسائر المغرب على المرابطين لنة أربع وثلاثين غزا ولم يرجع إلى تينملل حتى استولى على المغربين الوسط والأقصى واحتل مراكش سنة إحدى

وأربعين وفي سنة ثلاث وأربعين استولى على قرطبة وقرموتة وجيان من الأندلس وفي سنة ست وأربعين فتح أفريقية بأسرها وفتح مدينة المرية ووابرة وبياسة من الأندلس وفي سنة خمسين فتح غرطانة وفي سنة أربع وخمسين رجع إلى أفريقية واجلى جميع الثوار منها ونازل المهدية وكانت بيد الفرنج فأخرجهم سنة خمس وخمسين ووصلت جيوشه إلى سرت برقة وفيما وراء طرابلس ثم رجع إلى المغرب وفي سنة سبع وخمسين خرج من مراكش إلى سلا قاصدا الجواز إلى الأندلس ومرض فيها ومات وكانت مدته ثلاث وثلاثين سنة وخمس اشهر وثلاثة عشر يوما وهو الذي جمع أهل المغرب كافة على مذهب الاشعري في الأصول وعلى مذهب الإمام مالك في الفروع قال ابن الخطيب . ونجح بالمهدي وهو الداهية ◈ فأصبحت تلك المباني واهية

لم يال فيها أن دعى لنفسه ◈ وكان في الحزم فريد جنسه
وعنده سياسة وعلم ◈ وجرأة وكرم وحلم
ووافقت دولته في الناس ◈ لدولة المسترشد العباسي

واوصى بالخلافة لولده يوسف فبويع ولقب بأمير المؤمنين فاستقام له الأمور بحسن تدبيره ومتانة دينه وأجاز إلى الأندلس مرات وكانت لــه فيهـا عـدت غـزوات واسـتظهر في جميعهـا على الإفـرنج وافتتح أنصـارا وحصونا وفي سنة ثمانين وخمس مائة أجاز إلى الأندلس إجازته الأخيرة فاعتل بجبل الفتح وسار إلى إشبيلية فوافته فيها حشود الأندلس ووصـل إلى شنترين فحاصرها وخرج النصارا إلى الحصن فوجدوه في غـير أهبـة فحملوا عليـه فـأبلى هـو ومن حضـر معـه ثم اصـابه سـهم فحملـه ابنـه يعقوب فانصرف إلى اشـبيلية فمـاتوا في الطريـق وكـانت مدتـه اثنـتين وعشرين سنه وبويع ولده يعقوب وتلقب بالمنصور ثم أجاز إلى مـراكش وباشــر الأحكــام وأقــام رايــة الجهــاد وحصــن الثبــور والجهــاد واحســن بالمرتبـات على العلمـاء وبـنى المسـاجد والمـدارس في جميـع ايـالات المغرب وأفريقية والأندلس وأنشأ فيها عدة مارسـتانات وأوقـع بـالإفرنج عدة وقعات منها وقعة الارك في نوحي بطليوس وبالجملة وقد كان اجل الملوك الموحدين أبعدهم صـيطا وأعلاهم همـة وكـانت أيامـه أيـام خـير وأمن توفي سنة خمس وتسعين ودفن بـدارهم في مـراكش وقـد كـذب من قال انه ولع وساح ومات بالبقـاع العزيـز من أعمـال دمشـق الشـام

ودفن في قرية في رأس الجبل وسميت القرية باسمه واكثر أهالي تلـك البلاد يعتقدون بذلك لذا اكثر حجاجهم يقصدون زيارته عند مرورهم على الشام وكانت مدته أربعة عشر سنة واحد عشـر شـهرا وولى بعـده ابنـه محمد ولي عهده وتلقب بالناصر لدين الله وفي أيامه قوى أمر ابن غانية الملتوني في أفريقيا وتغلب على جميع أعمالها وخطب الخليفة العباسي فاتصل خبره بالناصر فنهض من مراكش سنة إحدى وست مائة وفشتت شـمل ابن غانيـه وأقـام بأفريقيـا إلى سـنة ثلاث وسـتمائة فاسـتناب أبـا محمد ابن الشيخ أبي حفص الهنتاتي عليهـا ورجـع إلى مـراكش ثم أجـاز إلى الأندلس وكانت وقعت العقاب المشهورة التي كان فيهـا الـدبر على المسلمين ثم رجع إلى مراكش ومات سنة عشر وسـتمائة وبويـع لولـده يوسف وتلقب بالمستنصر فتغلب عليه ابن جامع وزيـر ابيـه لصـغر سـنه وفي أيامه دخل الوهن على دولة الموحدين وانثـالت الأمـور وظهـر أمـر بني مرين وكان المستنصر مولعا بالخيل والبقر فخرج في سنة عشـرين وستمائة إلى بستانه فجعل يمشي بين البقر فطعنته بقرة بقرنها فمــات وبويع عم أبيه عبد الواحد ثم كره منه في سن الشيخوخة ثم خلـع وقتـل لتسعة اشهر فبويع ابن أخيه عبد الله ولقب بالعادل ثم خلع وقتــل ونهب البربر قصره واستباحوا حريمه ثم بويع لأخيــه إدريس بن يعقــوب فتلقب بالمأمون وهو يومئذ والي على اشبيليه فزاحمه يحـيى بن الناصـر وكـان الموحدون بايعوه في مراكش يوم قتـل العـادل ثم اختلفت الكلمـة على يحيى فلحق بالجبل وأجاز المأمون إلى مراكش فدخلها ثم أشـاع النكـير على إمامهم المهـدي ووضـع العقائـد والنـداء في الصـلاة بلسـان الـبربر وتغير رسوم الدعوة أصول الدولـة وإسـقاط اسـم المهـدي من الخطبـة والسـكة وإعلان لعنـه وقتـل من خالفـه في ذلـك من الموحـدين فنكثـوا بيعته وقطعوا خطبته واستبد الأمير أبو زكريا فيها وتلقب بالأمير في أيام المأمون استولى ابن هود على الأنـدلس فـاخرج سـائر الموحـدين وأمـر

بقتلهم وانتفض على المـأمون وأخـوه أبـو موسـى ودعى لنفسـه بسـبته فخرج إليه وكان يحيى بن ناصر بالمرصاد فخالفه إلى مراكش فافتتحهـا بجيوش العرب وعاث فيها واقلع المأمون عن سبته يريد مراكش فمـات في طريقه سنة ثلاثين وبويع ولده عبد الواحد ولقب بالرشـيد وفي سـنة إحـدى وثلاثين خـرج من مـراكش إلى الجبـل وأوقـع بيحـيى بن ناصـر وجموعـه ولحـق يحـيى بجلماسـا وانكـف الرشـيد راجعـا إلى حضـرته واستأمن لـه الكثـير من الموحـدين فأمنـه ثم أسـاء الضـن فيهم فقتلهم وبذلك فسدت قلوب الرعايا عليه واخذ أكثرهم بطاعـة يحـيى وأحضـروه من الصــحراء وزحفــوا بــه من المــراكش فخــرج الرشــيد إلى جبــال المصامدة وسار منها إلى سجلماسا فملكهـا ودخـل يحـيى وجموعـه إلى مراكش وفي سنة ثلاث وثلاثين خـرج الرشـيد من سجلماسـا فـبرز إليـه يحيى بجموعه فانهزمت جموع يحيى ودخل الرشيد إلى مراكش وانتقض الخلط على يحيى فنكتوا بيعته ولحق يحيى بعـرب المعقـل بنـواحي تـازا فأجاروه ثم غدروا به وفي سنة خمس وثلاثين بايع أهل اشـبيلية الرشـيد ونكتوا بيعة ابن هود وفي سنة ست وثلاثين وصـلت إليـه بيعت ابن الاحم الثـائر بالأنـدلس على ابن هـود وفي سـنة سـبع وثلاثين اشـتدت الفتنـة بالمغرب وانتشر بنوا مرين في بسـائطه وزحـف إليهم الرشـيد فهزمـوه ثلاث مرات ثم رجع إلى مـراكش واشـتد عـدوانهم في نـواحي مكناسـة وفي سنة أربعين توفي الرشيد بمراكش غريقا في بعض صهاريج القصر وقام بالأمر بعده اخـوه أبـو الحسـن السـعيد واسـتخلص لنفسـه رؤسـاء العرب وانتقض عليه أهل سبته واشبيلية وسجلماسا وعقـد المهادنـه مـع بني مرين وفي سنة خمس وأربعين خـرج من مـراكش قاصـدا تلمسـان فتعرض بنوا مرين بمجموعة في طريقهم فـامتلأت أيـديهم من أمـوالهم وقتل عبد الله ابن السعيد فيمن قتل منهم ولحق الفل بمراكش فبـايعوا أبا حفص عمر بن إسحاق أخ المنصور وتلقب بالمرتضى وفي سنة سـبع

وأربعين استولى أبو يحيى بن عبـد الحـق وقومـه بـني مـرين على تـازة وفاس وسيأتي تفصيل أخبارهم إن شاء الله تعالى وسـار في سـبته أبـو القاسم العزفي وفي سوس علي بن يدر وتفاقم أمر بني مـرين وتلاشـا أمر الموحدين وضـعف المرتضـى عن الـدفاع وفي سـنة اثنـتين وسـتين اقبل يعقوب بن عبد الحق في جموع بني مرين فنازلوا مراكش فاتصلت الحرب بينهم وبين الموحدين أياما وقتل فيها عبد الله بن يعقوب بن عبد الحـق فبعث المرتضـى إلى أبيـه يعزيـه ويلاطفـه وارتحـل عنهم ثم فـر إدريس أبو دبوس ابن عم المرتضى ولحق بيعقوب بن عبد الحق صريخا به واشترط له المقاسمة في العمل والذخيرة فأمده بالمـال وأوعـز إلى الخلط بمظاهرته وزحف أبو دبوس إلى مراكش ووفد عليـه جماعـة من بني عمه في جيش من الموحدين والنصارى فدخلها على حين غفلة وفر لمرتضى على جبال هنتاته فبلغه انه بعثوا بيعتهم إلى أبي دبـوس فعـدل عنهم إلى ازمور وكان صـهره ابن عطـوش واليـا عليهـا من قبلـه فقبض عليه وطير الخبر إلى أبي دبوس فاسـتلمه منـه وقتلـه وفي سـنة خمس وسـتين بلـغ أبـا دبـوس خـبر انتقـاض بـني مـرين فأرسـل إلى عـدوهم يغمراسن صاحب تلمسان يستعين بع عليهم فلما اتصـل الخـبر بيعقـوب بن عبد الحق فجمع جيوشه ونهض إلى تلمسان فأوقع ببـني زيـان وقعـة تلاع التي قتل فيها يغمراسن وشـتت شـملهم ثم رجـع إلى فـاس ونهض إلى مراكش وخرج إليـه أبي دبـوس فكـر عليـه يعقـوب بمجموعـة ففـر فأدركوا وقتلوا فدخل يعقوب مراكش سنة ثمـان وسـتين وسـتمائة وفـر الموحدون إلى جبالهم بعـد ان كـانوا بـايعوا عبـد الواحـد بن أبي دبـوس ولقبوه بالمعتصم لمدة خمسة أيام وخرج في جملتهم وانقرض أمر بــني عبد المؤمن والموحدين والبقاء لله تعالى وحده . ذكر

دولة بني مرين وهم حي من زناته في أطراف المغربين ينتجعون الصحارى ويعطون الدول حق الطاعة فلما رأوا اختلال المغرب الأقصى أيام المستنصر بن الناصر

خامس الخلفاء الموحدين وعلموا ان الدولة قد تلاشت وخلة الثغور من الحامية فانتهزوا الفرصة فيه فدخلوا وتفرقوا في جهاته واوجهوا عليه بخيلهم ورجلهم واكتسحوا سائر بسائطه بالغارة والنهب فلجا الناس إلى الجبال والمعاقل واذانوا الدولة في الحرب وكان ريسهم عبد الحق بن أبي بكر حمامة ولم يزل على إمارته ومطاولة الموحدين على الملك إلى أن قتله عرب رياح من أولياء الموحدين في حرب جرت بينه وبينهم بمداخلة بني عمه أولاد عسكر سنة أربع عشرة وستمائة وقام بالأمر بعده ولده عثمان فاثخن في عرب رياح لثار أبيه وتغلب على الضواحي ومد يده لأطراف البلاد يتعرى مسالكها ويضع المغارم على أهلها حتى دخل اكثر القبائل في أمره وبايعوه وفرق فيهم العمال ثم فرض على أمصال المغرب الأقصى ومدنه ضريبة يؤدونها على راس كل سنة ليكلف الغارة عنهم ويصلح سابلتهم ولم يزل على ذلك إلى أن اغتاله عجلة سنة سبع وثلاثين وستمائة فولى أخوه محمد عبد الحق واخذ الضريبة وجباية المغارم من سائر الرعايا وبقي عبد المؤمن في ضعف وقسور إلى أن توفي الرشيد بن المأمون أمير الموحدين وولى أخوه علي الملقب بالسعيد فجمع الجيوش ونهض سنة اثنتين وأربعين وستمائة من مراكش وزحف إليه بنو مرين والتقوا بوادي ماش نقتل الأمير محمد بن عبد الحق رئيس بني مرين وانكشف قومه ولحقوا بجبال غياثة فاعتصموا بها ثم خرجوا إلى لفر وولوا عليهم أبا يحيى بن عبد الحق نقام بأمرهم ورجع إلى المغرب وقسم البلاد بينهم وانزل كل بطن منهم في ناحية وبعثوا بيعتهم إلى ابن زكريا الحفصي صاحب أفريقية ثم جنح الأمير أبو يحيى ابن عبد الحق إلى الاستبداد فاتخذ آلة الحرب واستعمل شعائر الملك وبلغ خبره إلى خليفة السعيد نرجم لها وخطب على أعيان دولته يقال هذا ابن أبي حفض اقتطع أفريقية ويغمراسن أمير بني زيان اقتطع تلمسان والمغرب الأوسط وابن هود اقتطع الجانب الغربي من الأندلس وابن الأحمر اقتطع الجانب الشرقي منه وهؤلاء بني مرين تغلبوا على ضواحي المغرب الأقصى ثم سعوا إلى تملك أمصاره فاغتاظ قومه لذلك فجهز السعيد عسكره واحتشد عرب المغرب ونهض من مراكش ولما علم أبو يحيى انه لا طاقة له على محاربته افرج عن البلاد ولحقه بني مرين واجتمعوا إليه بناظوظا من بلاد الريف ثم انتقلوا إلى جبل بني يزناسن ونزلوا بعين الصفا ولم يزل أبو يحيى على شانه في فتح البلاد إلى ان توفي بناس سنة ست وخمسين وست مائة وتصدى للقيام بالأمر بعده ابنه عمر وأهل الحل والعقد مائلة إلى عمه يعقوب بن عبد الحق وكان يومئذ في نزه فبقي الأمر في اضطراب إلى أن اجتمعت الكلمة على يعقوب فدخل فاس وملكها سنة سبع وخمسين واستجمع على الاستيلاء على مراكش ولم يزل ينازلها إلى أن تمكن من دخولها سنة ثمان وستين وستمائة واستقام له أمر المغرب الأقصى كله وهو أول من تلقب بأمير المسلمين من ملوك بني مرين ثم اشتغل بالجهاد فأجاز إلى عدوة الأندلس ولان له الظفر العظيم لما رأى ملكه قد استوثق اختط المدينة الجديدة لصيق فاس بساحة الوادي المخترق وسطها من أعلاه وشرع في تأسيسها سنة أربع وسبعين وستمائة ولما كمل تشييدها نزلها ثم أوعز لبناء قصبة مدينة مكناسا ولم يزل قائما بأمر الجهاد وإصلاح أمر رعاياه إلى ان مات سنة خمس وثمانين وستمائة وبويع ولي العهد أبو يعقوب يوسف ففرق الأموال وقبض أيدي العمال عن المظالم ورفع المكوس وصرف إغناءه إلى إصلاح السابلة واتبع سنن والده بالجهاد وقهر بني زيان وراسلته ملوك المشرق ووافدت عليه أعيانها وامتدت مملكته من سوس الأقصى إلى بجاية في حدود أفريقية من الجهة الغربية ولم يزل بعظمة سلطانه إلى أن قتله خصي من خصيانه سنة ست وسبعمائة وهو محاصر لتلمسان وبالجملة وهذه الدولة من اعظم دول المغرب وأقواها وأحسنها

سيرة ذكرها ابن الخطيب بقوله . وأورث الله بلاد المغرب ◈ للسادة الغر الكرام النجب

أولي الخيول والرماح والهمم ◈ اقوى بني الدنيا وأوفى بالدمم
وأدرب الخلق بركض الخيل ◈ وخوض أحشاء الفلا والليل
قاموا وقد بان اختلال الطاعة ◈ لمذهب السنة والجماعة
واستخلصوا المغرب بالسيوف ◈ في خبر مستظرف معروف
فشمل الأقصى به والأدنى ◈ أمرهم وقام منه المبنى

ولم يزل أمرهم منذ دخل المغرب مستقيما وحماهم منيعـا وكلمتهم متحدة إلى أن مات سلطانهم أبو سـالم إبـراهيم بن علي بن عثمـان بن عبد الحق سنة اثنـان وسـتين وسـبعمائة وتـولى تاشـفين وتغلب الـوزير عمر بن عبد الله على الأمر فتفرقت الكلمة وانـتزى الثـوار من أعيـانهم بقاسية الملك وانقسمت الدعوى بينهم في مـراكش وسجلماسـا وسـبته وانحصرت السلطة في فاس وأعمالها وفي أيـام أبي فـاس ابن العبـاس سـنة سـبع وتسـعين وسـبعمائة اخـذ الفشـل يـدب في أعضـاء الدولـة واستمروا على اخذ الناس بالين إلى ان قام الأمير السيد محمد بن علي بن عمران الادريسي على عبد الحق ابن أبي سعيد بفـاس فبايعـه أهلهـا وتم له الأمر وبانتهاء أيامه انقرضت دولة بني عبد الحق الأول بن محيـوا بن أبي بكر مؤسس دولة بني مرين ولله الأمر من قبل ومن بعد ذكر

دولة بني وطاس وهم فرقه من بني مرين

ولما اقتسم بنو مرين الأعمال كانت بلاد الريف لبني وطـاس وكـان بنو الوزير أبي زكريا يحـيى بن زيـان الوطاسـي يتشـوفون إلى الرئاسـة والخروج على بني عبد الحق ويرون أن نسبه دخيل في بني مـرين لأنهم من أعقاب يوسف بن تاشفين فلحقوا ببـني وطـاس وفـر أبـو عبـد اللـه محمد الشيخ ابن الوزير إلى الصحراء خوفا من السلطان عبـد الحـق بن

أبي سعيد حين قتل جماعـه من عشـيرته وبقي يـتردد في الصـحراء إلى أن ملك أصيل واستفحل أمره بها فكاتبته أعيان فاس ورؤساؤها يدعونـه للقدوم عليهم ويعدونـه بالنصـرة فنهض من أصـيلا إلى فـاس وحاصـرها وفر صاحبها محمد بن علي الادريسي ودخلها محمد الشيخ فبايعـه أهلهـا سـنه سـت وسـبعين وثمانمائـة وفي أيامـه تم اسـتيلاء الاسـبانيول على عدوة الأندلس وغرناطة ولحق سلطانها أبو عبد اللـه ابن الأحمـر بفـاس واستوطنها تحت كنف السلطان محمد الشـيخ فبـالغ في احترامـه وبقى فيهـا إلى ان تـوفي سـنه اربعين وتسـعمائه في حـرب الوطاسـين مـع السعديين ثم استولا البرتقال اكـثر سـواحل المغـرب وفي سـنه عشـره وتسعمائة توفي محمد الشيخ وبويع لابنه المشهور بالبرتقالي ولما تم له الأمر نهض إلى مراكش وحاصر بها أبـا العبـاس السـعدي ولمـا بلغـه ان بني عمه قد نبـذوا طاعتـه ارتـد إلى فـاس وعهـد إلى أخيـه أبي حسـون المعروف بالبادسـي فقـام عليـه ابن أخيـه أبـو العبـاس احمـد بن احمـد البرتقالي فخلع سنه اثنـتين وثلاثين وتسـعمائة وبويـع أبـو العبـاس احمـد وجرت بينه وبين السعدي قرب مراكش حـروب عظيمـة دامت أيامـا ثم تصالحا على ان للسـعديين من تـادلا إلى سـوس وللوطاسـين من تـاديلا إلى المغرب الأوسط وبعده انعقد الصـلح بينـه وبين البرتقـال وتحسـنت الأحوال ثم أن السلطان محمد الشيخ السعدي نقض ما جرى من الصلح الوطاسيين والسعديين وقام على أخيه أبي العباس الأعرج واستولا على مـراكش ونهض إلى فـاس وحاصـرها سـنه سـت وخمسـين وتسـعمائه وقبض على أبي العباس وأرسله مـع الوطاسـين مصـفدين إلى مـراكش وفـر أبـو حسـون الوطاسـي إلى الجزائـر مستصـرخا بـالأتراك على من تغلب على ملكه وملك ابائه ووعدهم بالاموال الجزيلـه ان نصـروه عليـه فأجابوه لذلك وشيعوا معه جيشا كثيفـا تحت رايـه صـالح باشـاالتركماني فانقلب بهم إلى فاس ودخلها حروب عظيمـة وفـر محمـد السـعدي إلى

مراكش ولما استقر أبو حسون دفع للأتراك ما وقع عليه الاتفاق ورجعوا إلى الجزائر وتخلف عنده منهم نفر يسير ولما وصـل محمـد الشـيخ إلى مراكش صرف عزمه للانتقـام من أبي حسـون فاسـتنفر القبائـل ونهض بها فاس فخرج إليه أبو حسون وكانت الهزيمة عليـه فـانقلب إلى فـاس وتحصن بها وحاصره محمد الشيخ إلى ان ظفر به وقتلـه واسـتولى على فاس سنة إحدى وستين وتسـعمائة وصـفا لـه الأمـر وبهلاك أبي حسـون انقرضت الدولة المرينية من ارض المغرب والملك لله الواحد القهار .^

ذكر

دولة السعديين وأصلهم من أشراف ينبع النخـل اسـتوطن أسـلافهم درعه ولما نشا فيهم أبو عبد اللـه محمـد القـائم بـأمر اللـه على عفـاف وصلاح بايعته أهل سوس حين أحاطت بهم جيوش البرتقال من كل جهة فنهض إلى تاورنت واستولى عليها ثم زحف إلى أكاد ير وقاتـل البرتقـال مدة لم ينجح بها فندب الناس لبيعة ولـده الأكـبر أبي العبـاس المعـروف بالأعرج فبايعوه سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ولمـا تم لـه الأمـر نـدب الناس إلى جهاد البرتقال وإخراجهم من ثغور المغرب فحصل لـه النصـر والظفر وإخراجهم من أحواز تلمست وأسفي وغيرها فبعد صيته وانتشر ذكره وكتبه أمـراء هنتاتـة ملـوك مـراكش للـدخول في طاعتـه فأجـابهم وانتقل إلى مراكش واستقر بهـا ثم حـدثت بينـه وبين أخيـه ووزيـره أبي عبد الله محمد الشـيخ نفـرة أدت إلى حـروب اسـتفحل بهـا أمـر محمـد الشيخ نقيض على أخيـه وأولاده وأودعهم السـجن واصـبح ملكـا بعـد أن كان وزيرا ثم استولى على فاس وغرب الوطاسيين إلى مـراكش وقتـل أبا حسون الوطاسي ولما تم له أمر المغرب الأقصـى تـاقت نفسـه إلى الاستيلاء على المغـرب الأوسـط فنهض من فـاس إلى تلمسـان ودخلهـا بعد أن حاصرها تسعة اشهر ونفي الأتراك منها واتسـعت خطـة مملكتـه ودانت له البلاد ثم كرت الأتراك عليـه وأخرجـوه من تلمسـان فعـاد إلى

فاس ثم ارتد إلى تلمسان وحاصرها أياما واقلع عنها وفي سنة خمس وستين وتسعمائة اغتيل وقتل وكان أديبا متفننا عالما بالتفسير والحديث يخالف القضاة ويرد عليهم فتاويهم فيجدون الصواب معه وكان يخص على المشاورة لاسيما في حق الملوك ويقول ينبغي للملك أن يكون طويل الأمل ولا يحسن ذلك إلا منه لان رعيته تصلح بطول أمله ومن مآثره اختطاط مرسى أكادير واجلاء البرتقال من نونتي ولما قتل كان ولده عبد الله الغالب بالله بفاس فبايعه أهلها ووافقهم عليها أهل مراكش وبادر خليفته بمراكش القائد أبو الحسن علي بقتل أبي العباس الأعرج المخلوع وأولاده ولما استوثق الأمر للغالب بالله وتمهد له ملك ابيه نهض حسن بن خير الدين باشا صاحب تلمسان في جيش كثيف إلى فاس فخرج إليه الغالب بجيوشه والتقيا بوادي اللبن من احواز فاس فانهزم حسن باشا ولما قفل الغالب بالله أمر بقتل أخيه عثمان لأمر نقمه عليه وأرسل ابن أخيه الوزير أبا عبد الله محمد بن عبد القادر لحصار مدينة شفشاون فاستولى عليها وخرج صاحبها الأمير أبو عبد الله فيمن إليه من أهله وأولاده إلى ترعه وركب البحر إلى المدينة المنورة واسنقام بها إلى أن توفي وبه انقرض أمر بني راشد أمراء شفشاون ثم جهز جيشا كثيفا عقد عليه لابنه محمد المعروف بالمسلوخ وأرسله لحصار البريجة المسماة بالمدينة الجديدة التي بناها البرتقال فحاصرها ستين يوما ولم يتيسر له فتحها وفي سنة إحدى وثمانين وتسعمائة توفي الغالب بالله بمراكش ومن مآثره بناء جامع الأشراف بمراكش والمارستان وأوقف عليهما أوقافا عظيمة ولما توفي كان ولي عهده ولده محمد المتوكل على الله بفاس فأرسلت البيعة له من مراكش واستمر أمره منتضما إلى أواخر سنه ثلاث وثمانين وتسعمائة وكان عمه عبد الملك وأخوه احمد المنصور في سجلماسا سائر أيام أبيهما ولما تولى الغالب بالله فر إلى تلمسان واستنصرا بصاحبها حسن باشا ابن

خير الدين وذهب إلى القسطنطينية وتوقع على حضرة السلطان الغازي سلم خان بان ينجدهما بجيش يسترجعان به ما كان بيد أبيهما ثم توجه عبد الملك مع عمارة الدولة العلية إلى تونس ورجع بعد فتحها إلى القسطنطينية وطلب من حضرة السلطان سليم خان ما طلبه سابقا فأجاب طلبه وكتب إلى والي الجزائر ان يعينه إلى ما يحتاج إليه فاصحبه الوالي بجيش من الأتراك ولما وصل لاحواز فاس خرج المتوكل على الله للقائه فبلغه وهو في القتال إن بعض جنده قد أصر على الغدر به فوقد النار في خزائن البارود وفر من المعركة إلى مراكش واستولى عبد الملك على فاس وطمحت نفسه إلى اتباع ابن أخيه إلى مراكش ولما عزم على المسير طلب الأتراك رجوعهم إلى بلادهم فأعطاهم ما اتفق معهم عليه من المال وزادهم من التحف والطرف الغوال وودعهم بنفسه إلى نهر سيبوا ثم نهض إلى مراكش لمنازلة ابن أخيه ولما سمع المتوكل على الله بخروج عمه إليه تهيا الإقامة والتقي الفريقان بخندق الريحان من أحواز سلا فانهزم المتوكل وفر إلى سوس ودخل عبد الملك إلى مراكش ولم يزل المتوكل على الله يحول في جبال سوس إلى ان اجتمعت عليه طائفة فجاء بها إلى مراكش فخرج عبد الملك للقائه وخالفه المتوكل في طريقه ودخل مراكش باتفاق أهلها فرجع عبد الملك وحاصره بها وكتب إلى أخيه احمد الخليفة بفاس أن يأتيه فاتاه بجيشه وفر المتوكل إلى سوس فتبعه احمد المنصور ووقعت بينهما مواقع توالت الهرائم فيها على المتوكل وفر إلى باديس ومنها إلى سبتة ثم دخل طنجة مستصرخا بحاكمها فأجابه بشرط أن تكون سائر السواحل للبرتقال وله ما وراء ذلك ثم خرج قائد البرتقال بمائة وعشرين ألف مقاتل وكان مع المتوكل ثلاثمائة من أصحابه ولم يزلوا سائرين إلى أن عبروا وادي المخازن فزحف عليهم السلطان عبد الملك بجيوش المسلمين وأمر بهدم القنطرة ليقطع عليهم خط الرجعية ولما

التقى الجيشان واشتد الحرب توفي السلطان عبد الملك عند الصدمة الأولى وكان مريضا يقاد به في محفة ولم يطلع على وفاته إلا حاجبه وقائد المحفة فصاروا يقدمون المحفة أمام الجيش ويقولون للجند أن السلطان يأمركم بالتقدم إليهم إلى ان منح الله المسلمين النصر وركبوا علي على أكتاف العدو يقتلون ويأسرون وقتل قائد البرتقال غريقا في الوادي وبحث عن المتوكل نوجد غريقا أيضا فأخرجوه وسلخ وحشي جلده تبنا وطيف به في مراكش وغيرها وهذه الوقعة ومن اعظم الوقائع دامت خمسة وأربعين ساعة وكانت سنة ست وثمانين وتسعمائة ثم بويع لأخيه أبي العباس احمد المنصور بالله المعروف بالذهبي ولما تم له الأمر كتب البشائر إلى حضرة السلطان مرادخان بما حباهم الله من النصر فوردت عليه الوفود والهدايا من حضرة السلطان مراخان ومن حاكم الجزائر وملك البرتقال والاسبانيول وعقد العهد محمد الشيخ الملقب بالمأمون ثم سار عليه ابن أخيه داود بن عبد المؤمن في جبل سكسيوه ودعا لنفسه فبعث إليه المنصور جيشا فقاتله إلى ان فر واستقر عند عرب الواديا إلى أن مات واستولى المنصور على صحراء توات والسودان وبايعه صاحب برونو وفتح مدينة كاغو وقتل سلطانها إسحاق ثم سار الناصر بن الغالب بالله ببلاد الريف فما قلق المنصور جنده وبعث إليه جيشا وافرا فهزمه الناصر واستفحل أمره فأمر المنصور ولي عهده المأمون بمنازلته فخرج إليه من فاس وكانت الدبرة على الناصر فقبض عليه واحتز رأسه وبعث به إلى مراكش ثم ثار المأمون على أبيه بفاس فنصحه والده ولما أصر ولم يقبل النصيحة خرج إليه والده من مراكش في اثني عشر ألف مقاتل قاصدا فاس ولما بلغ المأمون ذلك فر إلى فشتالة فقبض عليه وأرسل إلى المنصور فبعثه إلى مكناسة وسجن بها وفي سنة اثنتي عشر وألف توفي المنصور بالوباء في فاس ومن مآثره بناء القصر البديع بمراكش وحصن ثغر

العرايش ومعامل السكر واعتنائه بالمولـد النبـوي والأعيـاد وكـان حسـن السياسة حازما مشاورا في المهمات وكان يكاتب أولاده وعمالـه بكتابـة مخصوصة وتعـرف الآن بالشـفرة وكـان موداعـا لسـلاطين بـني عثمـان يهاديهم ويهادونه وكتب إليه حضرة السلطان مرادخان لك على العهد أن لا أمـد يـدي إليـك إلا للمصـافحة وان خـاطري لا ينـوي لـك إلا الخـير والمسامحة وبعد دفنه بايع أهل فاس ولده أبا المعالي زيدان وبـايع أهـل مراكش أخاه أبا فارس ولما بلغ زيدان ذلك خرج من فـاس لقتـال أخيـه فانتحـل لـه أخـوه مكيـدة عـادت عليـه وهي إطلاق أخيـه المـأمون من السجن وإرساله في جيش كثيف لملاقاتـه ولمـا التقى الجيشـان بجواتـة فـر عن زيـدان اكـثر جيشـه فارتـد إلى فـاس وتحصـن بهـا ولمـا وصـلها المأمون فرح به أهلها وبايعوه وفر زيدان إلى تلمسان مستصرخا بحاكم الجزائر ولما استقل المأمون بفاس جهز جيشـا لقتـال أخيـه أبي فـارس تحت راية ولده عبد الله ووقعت الهزيمـة على أبي فـارس فنجـا بنفسـه ودخل عبد الله مراكش وأباحهـا واسـتقربها وسـاءت سـيرته ولمـا قطـع زيـدان الأمـل من إمـداد حـاكم الجزائـر رجـع إلى سـوس فكاتبـه أهـل مراكش ولما حضر إليها فر عبد الله إلى أبيه في أسـوء حـال فجهـز لـه أبوه جيشـا وأرجعـه إلى مـراكش والتقى الجمعـان بـراس العين وكـانت الهزيمة علي زيدان ففر ودخل عبـد اللـه مـراكش ثم سـار أبـو حسـون محمد بن عبد المؤمن من أولاد أبي العباس الاعرج وخرج من جبل جليز قاصدا مراكش فخرج إليـه عبـد اللـه وكـانت الهزيمـة عليـه ودخلهـا أبـو حسون واستولى عليها ثم كتب أهل مراكش إلى السلطان زيدان فـنزل بجيشه خارج المدينة وخرج أبـو حسـون إلى لقائـه فكـانت الـدبرة عليـه واستولى زيدان على مراكش وأرسـل قائـد جيشـه مصـطفى باشـا إلى فاس فدخلت في طاعتـه وفـر عبـد اللـه إلى القسـطنطينية مستصـرخا ولما زيدان إلى فاس واستقام بلغه قيام بعض الثوار في ناحيـة مـراكش

فنهض إليها ثم بلغه قتل مصطفى باشا فرجع إلى فاس واستولى الاسبانيول على العرايش بدسيسة بعبد الله وقتله مع بعض أولاده ثم ثار الفقيه احمد بن عبد الله السجلماسي المعروف بابي محلى واستولى زيدان على مراكش وأرسل قائد جيشه مصطفى باشا إلى فاس فدخلت في طاعته وفر عبد الله إلى القسطنطينيه مستصرخا ولما دخل زيدان إلى فاس واستقام بها بلغة قيام بعض الثوار في ناحية مراكش فنهض إليها ثم بلغه قتل مصطفى باشا فرجع إلى فاس واستولى الاسبانيول على العرايش بدسيسة عبد الله ثم فتك أبو الليف بعبد الله وقتله مع بعض أولاده ثم ثار الفقيه احمد بن عبد الله السجلماسي المعروف بابي محلى واستولى على سجلماسا ودرعة ومراكش وكثرت جموعه ولما علم زيدان ضعفه عن مقاومته استغاث بالفقيه زكريا الحاجي صاحب جبل درن فلباه وخرج بجيوشه سنة اثنين وعشرين وألف قاصدا مراكش فبرز إليه أبو محلى ولما التحم القتال قتل أبو محلى وعلق رأسه على سور مراكش ثم ارتحل زكريا إلى بلاده مظهراً العفة عن الملك بعد أن استقر بمراكش أياما واتصلت بينه وبين زيدان المراسلات إلى أن مات زيدان بمراكش سنة سبع وثلاثين وألف وبويع لابنه عبد الملك فثار عليه أخوه الوليد وأخمدوا وقعت بينه وبينهما حروب أنتجت هزيمتهما ودخل فاس بسمة السلطان وضرب السكة باسمه ثم عدا عليه ابن عمه محمد بن الشيخ المعروف بزغوده وقتله غدرا وبويع لأخيه الوليد ولم يتجاوز سلطانه مراكش وأعمالها على ما كان لأخيه وأبيه وفي زمنه ظهر أبو عبد الله العياشي بسلى واستولى على فاس وسائر ثغور المغرب وظهر أبو حسون السمارالي المعروف بابي دميعه بسوس واستولى على درعة وسجلماسا وكان الوليد يتظاهر بالديانة ولين الجانب غير انه كان يقتل الأشراف من اخوته وبني عمه وفي سنة خمس وأربعين وألف عدا عليه بعض جنده وقتله غدرا وبويع

لأخيه محمد الشيخ وكان في سجن الوليد فسار سيرة حميدة وثار عليــه رجل من هشتوكة ولم يزل يناوشه القتال حتى حتى فرق جمعه ثم ظهر أهل زاوية الدلاء بجبال تادلا وقويت شـوكتهم ولمـا احس محمـد الشـيخ بالضعف من مقاومتهم أرسل إلى قاضيه الفقيه محمد الزوار المراكشي ان يطلب منهم اجتمــاع الكلمــة فلم يلتفتــوا إليــه فصــرف عنانــه عن مقاومتهم ومال إلى مسالمتهم وبقي بمراكش إلى أن قتل ثم بويع ابنــه العباس احمد فقام أبيه في جميع ما كان بيده وقـويت في أيامـه شـوكة أخواله وهم حي من الشبانات فوثبوا عليه وحاصروه بمراكش ولما رأت والدته ان الأمر لا يزداد إلا شدة أشارت عليه بالذهاب إلى أخواله وإزالة ما في نفوسهم ولما وصل إليهم قتلوه غيلة ودخلوا مراكش وبايعوا فيها لأميرهم عبد الكريم بن أبي بكر سنة تسع وتسعين وألف وبابي العبــاس ختمت دولة السعديين والبقاء لله وحده . ذكر

إمــارة الشــبانات من عــرب المعقــل أولهم الــرئيس عبــد الكــريم المعروف عند العامة بكروم الحاج ابن القائد أبي بكر الشـباني بويـع لـه بعد قتل أبي العباس السعدي وسار في الناس سـيرة حميـدة فـانتظمت مملكة مراكش ونواحيها ثم انقضت عليه أسفي وأعمالها فغزاهم ورجــع مغلولا إلى مراكش فسطا عليه بعض جنده وقتله وبويـع لولـده أبي بكـر واستمر بها إلى أن بويع المولى رشيد السجلماسي فاخـذ منـه مـراكش وقبض عليه وتتبع عشيرته بالقتل حتى أفناهـا واخـرج عبـد الكـريم سـنة تسع وسبعين وألف واحرقه وانقضت إمارة الشبانات والملك لله وحده . ذكر

دولة السجلماسيين أصلهم من ينبع النخـل داخـل المغـرب وجـدهم الأعلى حسن بن قاسم في القرن السابع واسـتوطن سجلماسـا وتـوفي محمـد عن حسـن وتـوفي حسـن عبـد الـرحمن وعلى تـوفي علي عن خمسة أولاد منهم علي وتوفي علي عن ثلاثـة أولاد منهم محمـد وتـوفي

محمـد عن علي الشـريف وفي سـنة خمسـين وألـف هجريـة بـايع أهـل سجلماسا محمد ابن علي الشريف المذكور في حياة والده وهو أول من بويع له منهم ولم يزل ملك المغرب الأقصى بأيدي أعقابه يثواريونـه إلى زمننا هذا والسلطان فيه سنة ألف وثلاثمائة وخمسة عشر عبـد العزيـز . ذكر

دولة بني زيان وهم بنو عبد الواد

ويجمعهم مع بني مرين اصل واحد ولم تزل الحرب بينهم قائمة على ساق منذ كانوا في القفز واستمروا على ذلك بعد دخولهم إلى تلو المغرب وكان أميرهم لأول خروجهم عن طاعة الموحدين أبا عزة زكراز بن ثابت ولما مات تولى بعده أخوه أبو يحيى يغمراسن فاستمر على ما كان عليه أخوه وقومه من الخروج عن الدولة ثم تغلب على تلمسان والمغرب الأوسط وانتزعهما من يد بني عبد المؤمن وحسن السيرة واستمال عشيرته واخلافهم عن عرب زغبه بحسن السياسة والاصطناع واتخذ آلة الملك وجند الأجناد ومحي آثار الدولة المؤمنية ولم يترك من يترك من رسومها الا الدعاة على المنبر للسلطان بمراكش وتقليد العه من يده كانت له مع ملوك الموحدين ومن يليهم من ال حفص ملوك أفريقية مواطن في التحرش به ومنازلة بلده وحروب هائلة وبالجملة نقد كان يغمراسن هذا صاحب سياسة عجيبة وقوة دهاء وهو أول ملوك بني زيان قال ابن الخطيب أول ملاك لهم يغمور ◈ ليث الشرى والبطل المشهور

تثنى عليه حومة الميدان ◈ ما لامرء بباسه يدان

لاقى الجيوش من بني مرين ◈ كالليث يحمي جانب العرين

ولما تم له ملك المغرب الأوسط أثار ما كـان بين قومـه بـني زيـان وبين بني مرين من العداوة القديمة فأضرم نار الحـرب وركب أخطارهـا واشد ما كان بينهم في أيـام السـلطان يعقـوب بن عبـد الحـق المريـني واشـهر وقائعـه وقعـة وادي تلاغ سـنة سـت وسـتين وسـتمائة ثم وقعـة يسلي قرب وجده ثم وقعة خرزوزه ثم وقعة وادي تافناو تاسولت كـانت الدبرة في جميعها على يغمراسن ونازله يعقوب في دار ملكـه تلمسـان

مـرات فـامتنع عليـه بالأسـوار ثم قتـل يغمراسـن سـنة إحـدى وثمـانين وستمائة وبويع ولده عثمـان ولي عهـده ثم تـوفي السـلطان يعقـوب بن عبـد الحـق سـنة خمس وثمـانين وقـام بـالأمر ابنـه يوسـف بن يعقـوب وطـالب عثمـان بن يغمراسـن في ابن عطـو فـأبى عثمـان أن يسـلمه فتحركت حفيظة يوسـف وعـزم على غـزوهم فارتحـل من مـراكش إلى فاس ثم نهض منها حتى نـزل تلمسـان فانحصـر عثمـان وقومـه داخلهـا ولاذوا بالأسوار فاقلع عنها وسار في نواحيها يخرب العمـران ثم عاودهـا سنة سبع وتسعين وأحاط بها ثم افرج عنها لثلاثة اشهر ومر في طريقـه بوجده وقد أخربها بنو زيان فأمر بتجديد بنائها واسـتعمل أخـاه ابـا يحـيى بن يعقوب عليها ولحق بالمغرب الأقصـى وجمـع شـانه ثم عـاود منازلـة تلمسان سنة ثمان وتسعين وأحاط بها من جميع جهاتهـا واختـط لنفسـه إلى جانب الأسوار بلدة سماها المنصورة وأقام سـنين يغاديهـا ويراوحهـا بالقتال وسرح عسكره لافتتاح المغرب فملك بلاد مغراوه ونواحي شلف وتاهرت ثم خيم بمكانه محاصـرا لتلمسـان ومـات عثمـان سـلطان بـني زيان سنة ثلاث وسبعمائة وقام بـالأمر بعـده ابنـه أبـو زيـان محمـد وبلـغ الخبر إلى يوسف ابن يعقوب فتفجع له وعجب من صرامة بني زيان من بعده ومات أبو زيان أثناء الحصار وقام بالأمر بعده أخوه أبو حمو موسى بن عثمان واستمر حصاره إياهم ثمان سنين وثلاثـة اشـهر ولحقهم فيهـا جهد شديد حـتى أكلـوا أشـلاء المـوتى وهلكت أمـوالهم واسـتفحل ملـك يوسف بن يعقوب حتى أدركه اجله على يد خصي من خصيانه وكان قتله فرجا عظيما على أبي حمو ووقع الفشل في عسكر بني مرين لمـا قتـل سـلطانهم واختلفت كلمتهم واتحلـوا عن تلمسـان راجعين إلى المغـرب الأقصـى واقبـل أبـو حمـو على لم شـعثه وكـان يقـوم بحـق ليلـة مولـد المصطفى صلى الله عليه وسلم ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم يقيم مدعاة بمشـورة من تلمسـان يحشـر لهـا الأشـراف والسـوقة فمـا

شـئت من نمـارق مصـفوفة وذر أبي مبثوثـة وبسـط موشـاة ووسـائد بالذهب مغشاة وشـمع كالأسـطوانات ومبـاخر منصـوبة كالقبـاب يخالهـا الناظر تبرا مذابا واعيان الحضرة على مـراتبهم وقـد علت الجميـع أبهـة الوقـار والإجلال تطـوف عليهم ولـدان قـد لبسـوا قبيـة الخـز الملـون وبايديهم مباخر ومرشات ينال كـل منهـا بحظـه وخزانـات بهـا السـاعات ذات تماثيل لجين محكمـات الصـنعة بأعلاهـا أيكـة تحمـل طـائرا فرخـاه تحت جناحيـه ويختلـه فيهـا أرقم خـارج من كـوة بحـذر الأيكـة صـاعدا وبصدرها أبواب بعدد ساعات الليل الزمانيه يصاقب طرفيها بابان كبيران وفوق جميعها قرب راس الخزانة قمر تام يسير على خط الاستواء سـير نظـيره في الفلـك ويسـامت أول بـاب كـل صـفر يقيهـا إلى طسـت من الصفر محوف بواسطه ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانه فـيرن وينهش الأرقم أحد الفرخين فيصفر لـه أبـوه وهنـاك يفتح بـاب السـاعة الذاهبـة وتبرز منه جارية محتزمة كـأظرف مـا أنت راء بيمناهـا ورقـة فيهـا اسـم ساعتها منظوما ويسراها موضوعة عليها فيها والمسمع قائم ينشد امداح سيد المرسلين وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ثم يـؤتى آخـر الليـل بموائد كالهالات دورا والريـاض نـورا اشـتملت من أنـواع المطـاعم على ألوان تشتهيها الأنفس وتستحسنها الأعين وتستلذ بسماع أسـمائها الآذان ويس مبصرها للقرب منهـا والتنـاول وان لم يكن جيعـان والسـلطان لم يفارق مجلسه الذي أبتدأ جلوسه فيه يرى ذلـك ويسـمعه إلى أن يصـلي صلاة الصبح هناك وعلى هذا تمضي ليلة المولد الشريف في جميـع أيـام دولته إلى أن عـدا عليـه ابنـه تاشـفين فقتلـه واسـتقام لـه الأمـر وشـيد القصور والمصانع والمتنزهات وساعده الـوقت بمسـالمة بـني مـرين ثم طمحت نفسه إلى تملك أفريقية فخرج إليها من تلمسان بجيوشه ودخل تونس فاستغاث أهلها بسلطان المغرب أبي حسن المريني فراسـله في الإقلاع عنها فلم يرجـع وتمـادى على شـانه فاستشـاط السـلطان غيظـا

وأمر بجمع الجيوش وخرج من فـاس قاصـدا تلمسـان فطـار الخـبر إلى تاشفين وهو تونس فأسرع السير إلى دار ملكه وسـار بعسـاكره إلى ان وصل إليها وأحاط بها فركب عليها المنجنيق من كل جهة وأقام محاصـرا لها ثلاث سنين واثر النجنيق فيما حـواه السـور من القبـاب والقصـور ثم دخلها عنوة وقتل تاشفين وولده بازاء القصر واستولى أبو الحســن على تلمسان بما اشتملت عليه وانتقض أمر بني زيان وعقـد لابنـه أبي عنـان على تلمسان واقبـل على فتح البلاد فـدخل أفريقيـة وأمعن في نواحيهـا وحاصره العرب في قيروان فلما بلغ ذلك ولده ارتحـل من تلمسـان إلى فاس ودعا لنفسه فاستقام له الأمر ورجع بنـو زيـان دار ملكهم تلمسـان واقرهم السلطان أبو عنان على ذلك واتخذهم سدا بينـه وبين أبيـه ولمـا تخلص السلطان أبو الحسن ولحق بالجزائر فـاهزوه القتـال وأوقعـوا بـه في نـواحي مليانـه ففـر إلى جبـال المصـامدة فتشـاغل أبـو عنـان عنهم بمداهمه من جواز أبيه وبعد أن مـات أبـوه وخلص لـه الأمـر خـرج إليهم بجيوشه فأوقعوا بهثم كانت الكرة عليهم فقتل أميرهم وتفرق عسكرهم واستولى أبو عنان على تلمسان وولى بعده ولده السعيد فاضطرب أمـر بني مرين وتراجع الزيانيون إلى وطنهم وقـام بـأمرهم أبـو حمـوا الثـاني موسـى بن يوسـف بن عبـد الـرحمن بن يحـيى بن يغمراسـن فتحـرك فتحرك إليهم أبو سالم إبراهيم بني بن علي الذي آل إليه أمر بني مـرين من فاس بجيوشه فخرجوا من تلمسان واحصروا ولم يركنوا إلى ماركن إليه أسلافهم من الانحصـار داخـل السـور فسـار أبـو سـالم إلى ان خيم بساحة تلمسان وعاث في نواحيها ثم انكفا راجعا إلى المغرب ورجع أبـو حمو بقومه إلى كرسي مماكتهم وكفاهم اللـه أمـر بـني مـرين بـاختلاف الكلمة وانتزاء الثوار على الأعمـال وفي سـنة خمس عشـرة وتسـعمائة استولى الاسبانيول على وهـران على بجايـة وذلـك في أيـام أبي محمـد عبد الله وفي سنة ست عشـرة وتسـعمائة اسـتولوا على الجزائـر وبنـوا

فيها حصنهم المشهور ببرج الفنار وقوى أمرهم على المسلمين واشـتهر أمـر بـاربروس لأول واسـمه عـروج بأسـطوله في سـواحل أفريقيـة والجزائـر واخـذ أمـر بـني زيـان يتلاشـى إلى ان انقرضـت دولتهم من المغرب الأوسط واستولت الدولة العثمانية على الضـواحي والاسـبانيول على الاساكل وسنفصـل ذلـك في أخبـار الدولـة العثمانيـة إن شـاء اللـه تعالى والى الله عاقبة الأمور . ذكر

دولة الحفصيين أمراء تونس

أول من ولها منهم أبو محمد عبد الواحد بن أبي بكر ابن الشيخ أبي حفص ابن عمر بن يحيى الهنتاني أحد أصحاب المهدي بن تومرت رئيس الموحدين وهنتاته وقد أوصل نسبه ابن نخيل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذكر ابن سابقه ابن سليمان نسابة البربر انه من ولد صنهاج بن عسال البربري وكانت ولايته على تونس من قبل محمد الناصر بن يعقوب المنصور سنة ثلاث وستمائة قال ابن الخطيب .

أول هذا البيت عبد الواحد ◈ وفضله ليس له من جاحد
قدمه الناصر فيها أمراً ◈ ثم علا وصار ملكا قاهرا
وكان حازما شديد اليقظه ◈ لا يهمل التافه الا لحظه
ونال إبكار المنى وعونه ◈ لكنه لم يستبد دونه

ومات سنة ثمان عشرة وستمائة فتولى مكانـه العلاء من بـني عبـد المـؤمن وعـادت وفاتـه إلى بـني حفص وقـويت شـوكتهم في أيـام أبي زكريا ابن محمد عبد الواحد بن أبي حفص وهو الـذي اسـقط اسـم عبـد المؤمن من الخطبة وأبقى اسم المهدي واسـتبد بملـك أفريقيـة وخطب لنفسه وتلقب بالأمير المرتضى واتسع نطاق ملكه فتغلب على تلمسـان وكافة المغرب الأوسـط وبلاد الجريـد والـزاب وانشـأ في تـونس الأبنيـة العظيمة ثم توفي في ساحة بونة سنة سبع وأربعين ويتمائة وتـولى ابنـه أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا فقـام عليـه عمـه أبـو إبـراهيم إسـحاق

وسعى في خلعه وبايع لأخيه محمد اللحياني على كره منه فجمع أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا أصحابه يوم خلعه وشد على عميه أبي إبــراهيم ومحمد اللحياني وقتلهما واستقر في ملكه وتلقب بالمستنصر بالله أمـير المؤمنين وخطب لنفسه وفي سنة ثمان وسـتين وسـتمائة رحـل الملـك افرنسيس ملك فرنسـا إلى أفريقيـة بجموعـه فعالجـه المـوت وتفـرقت جيوشه واستمرت دولة الحفصـيين مـع بـني زيـان وبـني مـرين والدولـة العلية والإفرنج تارة لها وتارة عليهـا ثم انقرضـت دولـة الحفصـيين على عهد أبي محمد الحسن المتولي سنة اثنتين وثلاثين وتسـعمائة وهـو آخـر ملوكهم وسيأتي الكلام على بعض وقائعهم مع الاسبانيول والدولة العليـة وما آل إليه أمرهم والى الله ترجع الأمور .

ذكر الدولة العلية في المغرب الأوسط وأفريقية

أول من أسـس أمـر الدولـة في الجزائـر رجـل من قريـة آجي آبـاد انتقل إلى جزيرة متلين المعروفة لهذا العهد بالمدلى واسـمه عـروج بن يعقوب ولقبـه بـاربروس الأول أي صـاحب اللحيـة الشـقراء وبـع اشـتهر وكان أبوه فاخوريـا وفي أيـام سـاكن الجنـان حضـرة السـلطان الغـازي محمد خان الثاني صار جنديا فنشا عـروج نوتيـا في مـراكب الجزيـرة ثم اتخذ لنفسه قرصانا واستكمل تبعيته واخذ يغور ثغور الإفرنج ويتوغل في سواحلهم ويرصد مـراكبهم ويرجـع بالغنـائم فشـاع ذكـره واشـتهر أمـره وفي بعض غزواتـه اخـذ أسـيراً وقتـل أخـوه اليـاس ثم تفلت من أسـره ولحق ببلاده ثم اتصل بخدمـة قائـد مـراكب الدولـة الأمـير نـور قنـدا بن سلطان الغازي بايزيد خان فاستعمله مستشارا له وكان ميمـون النقيبـة لا يؤم بلدة من بلاد العدو الا فتحهـا ولا صـادف مركبـا الا غنمـه أو أتلفـه ولما مات السلطان الغازي بايزيد خـان وتـولى ولـده السـلطان الغـازي

سـليم يـاووز خـان سـنة ثمـان عشـرة وتسـعمائة سـافر بـاربروس في قرصانه ولحق بجربة من اساكل أفريقية فحط أثقالـه فيهـا واقلـع غازيـا سواحل الإفرنج نغنم ورجع قاصدا تونس وسلطانها يومئـذ أبـو عبـد اللـه محمد بن الحسن الحفصي فاهداه باربروس جميـع مـا غنمـه في غزوتـه واستاذنه في الإقامة ببلاده فأذن له على ان يدفع له خمس مـا يقـع في يده من الغنائم فقبل ثم توجه إلى جربه فوجد أخاه خير الدين فيها لاحقا بـه فحمـل أثقالـه وقفـل إلى تـونس واسـتمر على غزواتـه فبعـد صـيته واشـتدت على الإفـرنج سـطوته وكـان الاسـبانيول مسـتوليا على بجايـة فغزاهم من تونس وغنم مركـبين فارسـلهما مـع خـير الـدين إلى تـونس ونزل بـاربروس بجيشـه إلى الـبر وزحـف بهم على المدينـة فـبرز أهلهـا لمدافعته واشتد القتال بينهم فنقهقر جيش بـاربروس وقفـل إلى تـونس فأقـام بهـا وبعث خـير الـدين في الأسـطول إلى الأنـدلس وكـان ملـك الاسبانيول قد اذن للمسـلمين بالمهـاجرة فأقـام خـير الـدين فيهـا ثلاثـة اشهر يحمل المهاجرين إلى اسا كل المغرب ثم انكفا راجعـا إلى تـونس وكـان عـروج قـد بـريء من جراحـه وأنشـأ فيهـا عـدة مـراكب حربيـة واستكمل عدتها ثم اقلع من تونس وارسى على جيجل وكان أهل جينــوا من ايتاليا قد استولوا عليها فأذاقهم نكـال الحـرب بـرا وبحـرا واسـتولى عليها ثم ان سالم بن تومي رئيس بني مزغنه أهـل مدينـة الجزائـر كتب إليه يستنجده على الاسبانيول الواضـعين يـدهم على قلعـة بـتيون خـارج المدينة فأجابه إلى ذلك وجهز جيشـا من الأتـراك والـبربر واكمـل عـدتها وقبل ان يباح جيجل ارسل إلى أخيـه خـير الـدين بتـونس بخـبره بعزمـه ويامره بجمع كافة الأتراك المقيمين في تونس ويلحقه بهم إلى الجزائــر ثم اقلع من جيجل في المراكب وسار قلصـدا الجزائـر قـال في طريقـه إلى اسكله شرشال واستولى عليها ثم جاء إلى الجزائر فتلقاه سالم بن تومي واعيان البلدة وأقام نحو العشرين يوما محاصرا قلعة بـتيون وبعـد

وصول خير الدين بجنده استولى على القلعة وتم له فتح الجزائر وبــذلك اظلم الجو بينه وبين سالم بن تومي فقبض عليه وقتله وطير خــبر الفتح إلى حضرة السلطان الغازي سليم ياووزخان وكان وقتئذ في مصر فسر في بذلك وبعث إليه بالخلعة ومنشور التوليه على الجزائر وبلادها والتجــأ أبو حمو صاحب تلمسان إلى إسبانيا فجهزوا الجنـود وزحفـوا إلى عـروج والتقى الفريقان بحسن داي اسم موضـع قـريب من الجزائـر واشـتعلت بينهما نار الدرب وكانت الدبرة على جيوش إسبانيا فانهزموا وتركـوا في ميدان القتال ثلاثة آلاف قتيلا فقوي عزم عروج ودانت لـه قبائـل متيجـه وجبال البربر القريبة من الجزائر بالطاعـة ثم سـار بجيشـه من الجزائـر قاصدا تلمسان وفي طريقه استولى على اسـكلة تنس وخيم في سـاحة تلمسان فخرج إليه أبو حمو ودارت بينهما رحى الحرب فانكسـر عسـكر تلمسان وفر أبو حمو إلى ملك إسبانيا يستغيث به واما عـروج فانـه ولى على تلمسـان ابازيـان مسـعودا أخـا أبي حمـو وأقـام ينتقـل في نـواحي المغرب الأوسط ثم ان ملك إسـبانيا انجـد أبـا حمـو بالعسـاكر والـذخائر وأمر حاكم وهران المركيز غوماس بالمسير إلى تلمسان وإخراج عــروج منها وطار الخبر إلى عروج فقتل أبا زيان وبني عمه ودخل قلعة المشور وتحصن فيها فحاصره حاكم وهران ستة وعشرين يومـا ثم تمكن عــروج من الخـروج من القلعـة بأموالـه واتباعـه فاتبعتـه الجيـوش إلى الـوادي المالح قرب نهر شكو وقع المصـاف بينـه وبينهم فقتلـوه واسـتولوا على امواله واستاصلوا جميع ماكان معه من جنده .ولما بلـغ خـبر عـروج إلى أخيه خير الدين في الجزائر انحلت عرى عزمه وأزمع على ترك الجزائـر والرجوع إلى الغـزو في القرصـان وبينمـا هـو يسـتعد لـذلك إذ ورد على الجزائر جند من الانكشـارية بعثهم السـلطان الغـازي سـليم يـاووز خـان نجدة لعروج فلما رآهم خير الدين رجع عما عزم عليه واستعد للأخذ بثار أخيه من أعدائه ولما بلغ ملك إسـبانيا انتصـار جيشـه وقتـل عـروج ومن

معـه في الاسـتيلاء على الجزائـر فجهـز أسـاطيله وشـحنها بـالجيوش والذخائر وسيرها للجزائر تحت نظر الجنرال يسوادي مونغا وعند وصوله كتب إلى خير الدين الملقب بباربروس الثاني يتهـدده ويـذكره بمـا وقـع بأخويه ويدعوه إلى تسليم البلد أو الحرب فأجابه إلى الحرب وبعـد أيـام نـزل بجيوشـه إلى الـبر وخيم بـالقرب من وادي الحـراش على مسـافة ساعة ونصف من البلـد فخـرج خـير الـدين بجنـوده وأوقـع بـه واسـتولى المسلمون على المعسكر واستلخموه وحـدث في البحـر زوبعـة شـديدة فشتتت شمل المراكب وغرق أكثرهم فاخذ خير الدين بثار أخويه وشفى نفسه من عدوه وطارت البشائر إلى الدولة العليا بهذا الانتصـار وجـاءت التهاني إلى خير الدين من لدن السلطان واعيان الدولة مع فرمان إمارة الجزائر واستفحل أمره في المغرب الأوسط واهتزت له أركان دولة بني زيان بتلمسان ودولة بني حفص في تونس فاوعز أبو عبد الله الحفصـي إلى صاحب تلمسان بالتظاهر على خير الدين وكان خير الدين لما تم لـه الاستيلاء على جبـال زواوه وصـنهاجه وسـهول متيجـه فـوض أمرهـا إلى احمد ابن القاضي الصنهاجي لشهرته وقوة عصبته وسماه خليفة الشرق فرأى صاحب تونس انه لا يتم له ما أراده الا بمداخلة ابن القاضي فاتخذ الوسائل في استمالته إليه والخروج من طاعة خـير الـدين واشـترط لـه المقاسمة في الجيش والـذخيرة على حربـه فارتـاح ابن القاضـي لـذلك وأسرها في نفسه وأقام يترصد الفرصة واقبل صاحب تلمسان بحشوده إلى الجزائر فتلقاه خير الدين بجنـوده واتصـلت الحـرب بينهمـا أيامـا ثم كانت الدبرة فيها على صاحب تلمسان فانهزمت جموعه وتـأخر صـاحب وهران عن إغاثة حليفه ثم توغلت جيوش خير الـدين في الجهـة الغربيـة وزحف إليها أبو محمد الزياني مرتين فانهزم واشتدت شوكة خـير الـدين وتلاشـى أمـر بـني زيـان وكـان أبـو محمـد اشـخص أخـاه مسـعودا إلى المغرب الأقصـى ثم بـدا لـه في رجوعـه واسـتدعاه فعـدل مسـعود عن

تلمسان ولحق بالجزائر صريخا بخير الـدين واشـترط لـه بالطاعـة ومـالا يحمله إليه كل سنة والخطبة للسلطان الغـزي سـليم ياووزخـان فأجابـه إلى ذلك وأمـده بـالجيش والـذخيرة وأوعـز إلى رؤسـاء الـبربر في تلـك الجهة بمظاهرته فزحف مسعود بعساكره إلى تلمسان فدخلها وفر أخوه إلى وهران واستقر الأمر لمسعود في تلمسان ورجـع جيش خـير الـدين إلى الجزائر ثم ان مسعودا خرج عن طاعة خـير الـدين فبعث إليـه خـير الدين يدعوه إلى الوفاء فاستنكف وأساء الخطاب فتجهز إليه خير الدين بـــرا وبحـــرا وســـار في مراكبـــه إلى مســـتغانم فـــدخلها من غـــير مقاومة .وجاءه أبو محمد من وهران نازغا إليه معتـذرا عمـا سـلف منـه في حادثة عروج وجنده فعفا عنه وأذن له الإقامة عنده ورحلت العساكر البرية إلى قلعة بني راشد وفيهـا حاميـه لمسـعود ففـرت منهـا ودخلتهـا العساكر الجزائرية ثم ان ابا محمد طلب الرجوع واشترط لخير الدين ما اشترطه مسعود فأجابـه خـير الـدين وسـيره في العسـاكر إلى تلمسـان فلقيهم مسعود بجموعه فوقعت الهزيمة في جيشه وسار أبو محمـد في اثـرهم حـتى شـارف تلمسـان ودس لأشـياعه فيهـا ففتحـوا لـه الأبـواب ودخلها وفـر مسـعود منهـا واسـتقر أبـو محمـد في دار ملكـه وكـان أبي القاضي الصنهاجي انتهز الفرصة في غيبة خير الدين ودعا النـاس لبيعتـه فقام بنصرته قومه من صنهاجة وغيرهم من البربر وزناتـة فـأطلق فيهم الأموال وخاطب صاحب تونس الحفصي في إنجاز وعده فأمده بالرجـال والأموال وقفل خير الدين إلى الجزائر وقد قوى أمر ابن القاضي فسـير الجيـوش لحربـه فانتصـر ابن القاضـي عليهـا وردهـا على أعقابهـا ثم آل الأمر إلى المصالحة ورجـع ابن القاضـي إلى مـا كـان عليـه من الطاعـة والولاية أربع اشهر ثم نقض العهد واشهر الحرب فعقد خير الـدين لقائـد جيشه قره حسن على حربه فنهض إليه من الحضـرة ووقـع الـرعب في قلوب البربر ولاذوا بالطاعـة وانفـرد ابن القاضـي في قومـه ثم خـاطب

قره حسن والتحم معه وعززهما الحفصي صاحب تونس بجيشه ودسـوا إلى أهل الجزائر في القبض على خير الدين وضـمنوا لهم جميـل النظـر فأجابوهم إلى ذلك واتصل الخبر بخير الدين فوجم لهما وقبض على الأعيان وقال من ثبتت مداخلته وثار مسعود على أخيه صاحب تلمسان فاستغاث بخير الدين فأمده في الجيش والذخيرة وانجلت الفتنة بالقبض على مسعود ولما رأى خير الدين اختلال الأحوال وكثرة الثوار داخل الجزائر وخارجها اجمع على الرحيل منها والعود إلى الغزو على ثغور الإفرنج فاستخلف مستشاره حسن اغا على الجزائر وما يليها وفوض إليه أمورها ثم سار بأهله واتباعه ومن اختاره من الجنود البحرية إلى جيجل فانزل بها أهله واقبل على الغزو فتزلزلت أقطار الإفرنج منه وتناذروا به من عواصمهم وزحف ابن القاضي إلى الجزائر بجنوده فدخلها وتمكن من الاستيلاء عليها ولحق حسن اغا بخير الدين ثم انتقض صاحب تلمسان ونبذ الطاعة وخطب لنفسه واستمر خير الدين على غراوته ثلاث سنين واتفق انه أغزى بعض قواده في القرصان إلى الثغور الإفرنجية فألجأته الرياح إلى الجزائر فمنعه ابن القاضي من دخول المرفأ فرجع إلى خير الدين وطلعه على ما كان من ابن القاضي فعظم عليه ذلك وحركه إلى العود إلى دار إمارته واستدعى أنصاره من كل ناحية وسيرهم في البروسار في مراكبه بحرا واستعد ابن القاضي لحربه واقتتلوا برا وبحرا .وفي أثناء الحصار عدا علي ابن القاضي بعض اتباعه فقتله وتقدم خير الدين إلى الجزائر فدخلها واعظم النكاية في اتباع ابن القاضي وكان قره حسن عندما استولى ابن القاضي على الجزائر عدل عنه إلى شرشال ودعا لنفسه فنهض إليه خير الدين بعد فراغه من ابن القاضي ففرق جموعه ثم قبض عليه وقتله وسكنت عواصف ابن القاضي وبقي أولاده في الجزائر على أسوء حال وله عقب فيها لهذا العهد ولما تمهدت البلاد لخير الدين أقبلت عليه الوفود من

آفاق المغرب الأوسط ونواحيـه يطلبـون العفـو فعفـا وأذعن لـه صـاحب تلمسان فعفا عنه واقره على ما كان عليـه من المشـارطة ثم سـار في المغرب الأوسط يتفرى مسالكه وشعوبه ويضع المغارم على أهله وفرق فيهم العمال من قومه وشن الغارات على طواعن زناتة والعـرب واثخن فيهم حتى أذعنوا له وكان للاسـبانيول حصـن على جزيـرة صـغيرة تجـاه الجزائر فلما فـرغ من شـواغله الداخليـة اعـتزم على تخريبـه واتفـق ان بعث ملك إسبانيا ثمانية مراكب مشحونة بالجنود والذخيرة ممدا للحامية فلما دنت من الحصن وتراءت لأهل الجزائر سار إليها قائـد البحـر وحـال بينها وبين الحصن ثم ظفر به وسـاقها بمـا فيهـا إلى المرفـأ وكـان ذلـك اليوم يوما مشهورا وبعد أيام نهض خير الدين إلى ذلك الحصن واقتحمـه بجيشـه واثخن حاميتـه قتلا واسـر واسـتولى على مهماتـه وخربـه وبـنى بأحجاره جسر بـاب الجزيـرة أحـد أبـواب الجرائـر واتصـل خـبر الحصـن والمراكب بكارلوس ملك إسبانيا فجهـز اسـاطيله وجنـوده لنظـر القائـد اندريه المشهور وامده ملك فرانسا بعشرين مركبا وطار الخبر إلى خـير الدين فتجهـز لوقتـه وسـار في البحـر مترصـدا لاندريـه في طريقـه فلم يصـادفه واسـتمر غازيـا على الثـوار فـاثخن فيهـا وخـرب حصـونا كثـيرة وامتلات مراكبه وايدي جنوده من المغانم وانقلب راجعا فبلغه أن اندريه محاصرا لاسكلة شرشال فسار إليه على هيئته فوجده اقلع عنه وبعد ان أراح بشرشال خرج منها غازيا على ثغور إسبانيا فظفر بعدة مراكب لهم ولدولـة فرنسـا وقفـل لى الجزائـر واسـتمر يغـزو بلاد الإفـرنج ويعظم النكايـة فيهـا إلى ان استحضـره السـلطان الغـازي سـليم خـان إلى دار الخلافة فاستخلف مستشاره حسن اغا على الجزائر المرة الثانية وتوجه في أربعين مركبا ومر على سواحل إيطاليا وسردينيا وجينوا فعـاث فيهـا واستمر في مروره يخـرب الحصـون ويسـتلب الأمـوال والأنفس إلى أن دخل العاصمة فـاكرم السـلطان نزلـه واكـبر شـانه وقلـده وزارة البحـر

وكان وقتئذ اندريا دوريا الجينـوي رئيسـا على عمـارة إسـبانيا وكثـيرا مـا يجول في بحر الأرخبيل فاخذ خير الـدين يترصـده وينقـذه نكـال الحـرب إلى ان أعجزه ولحق بثغور إسبانيا وخلا البحر لخير الـدين فقصـد جزائـر الموره ففتحها ورتب أمورها ثم سـار إلى أفريقيـة فأرسـى على بـنزرت واسـتولى عليهـا ثم مـد عينـه لأخـذ تـونس فسـار منهـا إلى حلـق الـواد فامتلأت قلوب أهل الحضرة رعبا منـه وفـر صـاحبها أبـو محمـد الحسـن ولحق بـالقيروان ونـدب النـاس إلى نصـرته فخـذلوه وبعث صـريخه إلى ملك إسبانيا فبادر الملك إلى نصرته وجمع قوته وصدرت أوامر البابا من روميه إلى كافة دول الإفرنج يحثهم على إعانة ملـك إسـبانيا على شـانه فأمدوه بالمراكب والجنود والمهمات ثم سار الجمـع في عمـارة إسـبانيا إلى تونس وحاصروها أياما ثم خرجوا إلى البر وزحفوا إليها فلقيهم خـير الدين بجنود في خربة الكلخ خارج البلد واقتتلوا وكان في قلعة تونس ما يزيد على خمس وعشرين ألف أسير من الإفرنج فـانتهزوا الفرصـة حين القتـال وخرجـوا من القلعـة وحملـوا على خـير الـدين من خلفـه فاختـل مصافه وانهزمت جيوشه ولحق خير الدين ببونـه ثم بـالجزائر واسـتولت جيوش الإفرنج على تونس بما فيها واستباحوها ثلاثـا وقتلـوا نحـو سـتين ألـف نفس صـبرا وشـفوا نفوسـهم من المسـلمين .وجـاء الحفصـي من القيروان راجعا إلى دار ملكـه تحت حمايـة دولـة إسـبانيا وفرضـت علي ضرائب متنوعة يؤديها إليها على رأس كل سـنة واشـترطت عليـه إباحـة السكنى للإفـرنج في تـونس والتملـك بهـا واتخـاذ الكنـائس والأديـرة ثم رجعت الجيـوش إلى أوطانهـا وتمكن أبـو محمـد الحسـن الحفصـي من أمره وأقام على ذلك إلى ان ثارت العامـة ونقمـوا عليـه وطـيروا الخـبر إلى ولده أب العباس احمد وكان واليا لأبيه على بونه فأسرع السـير إلى تونس وفر واله إلى القيروان فقبض عليه أبو الهول شيخ العرب فسمل عينيه وأشخصه إلى القـيروان فاعتقـل فيهـا إلى أن مـات واسـتقل ابنـه

احمد في الملـك ولمـا رجـع خـير الـدين إلى الجزائـر عقب انهزامـه من تونس اخذ يتأهب لغزو أسبانيا فاعد المـراكب واسـتكمل تعبيتهـا وانتقى العسـاكر وسـار غازيـا ثغـور إسـبانيا صـادف في طريقـه عـدة مـراكب للإفرنج استولى عليها واستاقها إلى الجزائر ثم غرى بلد ماهوب من بلاد إسبانيا فدمر أهلها وأضرمها نارا وأنكفأ راجعا ولم يزل يتابع غـزو الثغـور الإفرنجيــة إلى ان اســتدعاه الســلطان الغــازي ســليمان خــان الأول فاستخلف على الجزائر مستشاره حسن اغا المـرة الثالثـة وسـار بأهلـه إلى الأستانة فـاكرم السـلطان وفادتـه وقلـده وزارة البحـر فجـرى خـير الدين على عادته في غزو ثغور العدو من الأستانة والرجوع إليها بالغنائم الكثــيرة إلى ان مــات في قصــره بظاهرهــا ســنة خمس وخمســين وتسعمائة وقبره قرب مرسى بشكطاش مشهور واقر السلطان الغازي سليمان خان اغا مستشار خير الـدين على إمـارة الجزائـر وأرسـل إليـه الفرمان والخلعة وعلى قيـادة البحـر في الجزائـر حسـن بن خـير الـدين فاقتفى اثـر والـده في الشـدة والحـزم والاجلاب على الثغـور الإفرنجيـة وضايقهم حتى استخفوا أمر والده وفـر جبـل طـارق واسـتباحه واسـتاق أمواله ومراكبه ورجع إلى الجزائـر فـتزلزلت بلاد أوربـا وامتلأت القـارب منه رعبا وأيقنوا بخراب ثغورهم وجزائرهم فأرسلوا صـريخهم إلى ملـك إسبانيا كارلوس الخامس وكانت دول أوربا ترجع إليه في أزماتهـا فجهـز كارلوس نحو خمسمائة مركب وشحنها بالعسـاكر والمهمـات وسـار بهـا إلى الجزائر وعدل عن مرفاها إلى فرضة وادي الحراش وانـزل جيوشـه إلى البر وأبقى في المراكب معـه من يقـوم بهـا وعسـكرت جنـوده في القرب من محل سيدي يعقوب وكتب إلى حسن باشـا أنـا ملـك إسـبانيا الذي استولى على تونس واخرج منها خير لدين باربروس الثاني وتونس اعظم من الجزائر وخير الدين اعظم منك فأجابه حسن باشا ان إسـبانيا غرت الجزائر في مدة عروج باربروس الأول مرة وفي مـدة خـير الـدين

مرة ولم تتحصل على طائل بل انتهيت أموالهـا وفـنيت عسـاكرها وهـذه المرة الثالثة كذلك ان شـاء اللـه وفي اليـوم الثـاني من هـذه المراسـلة حدث نوء شديد برا وبحرا فلعبت الرياح بالمراكب وألقت منهـا مـا يزيـد على مائة مركب إلى البر فانقضت عليها حشود العرب والـبربر وانتبهـوا ما فيها واستأصـلوا من لم يدركـه الغـرق وانتهـز الفرصـة والي الجزائـر فخرج بجيشه وحمل على المعسكر فـانهزم الإفـرنج وتبعهم المسـلمون يقتلون ويأسرون حتى أتوا على آخرهم ولحـق كـارلوس في عـدد قليـل من مراكبــه ببلاده ورمى بتاجــه إلى الأرض واقســم ان لا يضــيعه على رأسه الا بعد استيلائه على الجزائر فلم يساعده القـدر الإلهي على ذلـك وفي أثناء هذه الفتن انتقض اكثر قبائل البربر ونبذوا الطاعـة ولمـا فـرغ حسن باشا مما دهمه من أمر إسبانيا وانتصر على جيوشـها وجـه وجهتـه إلى تدويخ البلاد وقطع شافة الثوار منها فتأهب لذلك ولم يزل يجول في الأنحـاء ويبث السـرايا في الجهـات إلى ان دان النـاس لطاعتـه واسـترد مستغانم من يد صاحب تلمسـان ووصـلت جيوشـه في الجهـة الشـرقية إلى ما وراء بسكره والزيبـان ثم رجـع إلى الجزائـر وتـوفي بهـا .وتـولى حسن بك ابن خير الدين وكان بنو وطاس بطن من بـني مـرين اسـتولوا على المغرب الأقصى بعد بني عمهم عبـد الحـق واسـتفحل أمـرهم فيـه فدعتهم نفوسهم إلى الاستيلاء على تلمسان دار ملك بني زيـان فنهضـوا إليها من فاس في جموعهم سنة ثمان وستين وتسعمائة واستولوا عليها في فترة موت حسن باشا فلما أفضـي الأمـر إلى حسـن باشـا ابن خـير الـدين اسـتفرغ لقتلهم ونهض من الجزائـر واتصـل الخـبر ببـني وطـاس فخرجـوا من تلمسـان وانقلبـوا راجعين إلى فـاس واسـتمر حسـن بشـا سائرا إلى ان دخل تلمسان فاصلح شانها وولى عليها رجلا من بني زيان اسمه حسن وقفل إلى الجزائر ثم عزل وتولى أخوه صالح باشا ابن خير الدين فارتاح الناس إلى توليته وكانت إسبانيا استولت على بجايه فابتـدر

صالح باشا إليها ونازلهـا بـرا وبحـرا ثم اقتحمهـا بجيوشـه واستأصـلها ثم سار إلى قسطنطينية فاستولى عليهـا واقتطعهـا ثم انقلب إلى تلمسـان وطرد منها الزياني مع بقايا بني عمه فتفرقوا اوزاعا في الجهات والبقاء لله وحده تعـالى وانتظم المغـرب الأوسـط كلـه لصـالح باشـا من حـدود وجده من بلاد المغرب الأقصى إلى الكاف من بلاد أفريقية وبعد ان رجع إلى الجزائر توفي وتولى أخوه حسن باشا ابن خير الدين مرة ثانية وفي أيامه خرج حاكم وهران بجنوده إلى مستغانم وكان حسن باشا في تلـك النواحي فتعرض له وانتشب الحرب بين الفريقين فـانهزم جيش إسـبانيا وقتـل حـاكمهم ثم ان الدولـة العليـا حملت أهـل الجزائـر على العمـل بقوانينها وأنها تعين عليها حاكما من قبلها وتمـده بمـا يلزمـه من الجنـود والذخائر وعـزلت حسـن باشـا ابن خـير الـدين وبعثت محمـد باشـا كـرد اوغلى ثم عزل محمد باشا وتولى علي باشا وكان أهل تونس سئموا من ملكهم أبي العبـاس احمـد الحفصـي ولحقهم الفجـر من ظلمـة فـدس وزيره أبو الطيب الخضار إلى علي باشا في النهوض إلى تـونس ووعـده بتمهيد الطـرق الموصـلة إلى الاسـتيلاء عليهـا فجهـز علي باشـا جيوشـه واحتشد قبائل العرب والبربر من القاصية ونهض من الجزائر سـنة سـبع وسبعين وتسعمائة فالتقى الجمعان بباجه ووفى الخضـار بوعـده فخـذل صـاحبه والتقى الـرعب في قلـوب عسـاكره فتفرقـوا أشـتاتا وفي أبـو العباس إلى تونس ثم خرج بأهله وأمواله ولحـق بـالقيروان وتقـدم علي باشا بجموعه إلى الحضـرة فـدخلها وقتـل ابن الخضـار وولى حيـد باشـا على تـونس وانقلب راجعـا إلى الجزائـر واسـتجاش أبـو العبـاس بملـك إسبانيا فأجابه واشـترط عليـه مقاسـمة الملـك فـامتنع أبـو العبـاس من قبول هذا الشرط فركب البحر إلى صقلية ولم يزل بهـا إلى ان مـات ثم قام أخوه محمد بن الحسن وأثار الفتنة على حيدر باشـا وبعث إلى ملـك إسـبانيا بقبـول مـا اشـترطه على أخيـه فانجـده الملـك بعسـاكره وعنـد

وصولها في المراكب إلى حلق الواد فر حيدر باشا وحاميتـه من الأتـراك ولحقوا بالقيروان وتقدم محمد بن الحسن إلى عساكر إسبانيا فدخل بها إلى تـونس وعـاثوا فيهـا وأهـانوا المسـاجد والمـدارس واتخـذوا جـامع الزيتونة إسطبلا لدوابهم وقاسمهم محمد بن الحسن البلاد والجبايه وفي سنة إحدى وثمانين وتسعمائة تولى رمضان باشا على الجزائر وفي سنة اثنتين وثمـانين وتسـعمائة جهـزت الدولـة الـوزير المشـهور سـنان باشـا فسار في جيش كثيف لإنقـاذ تـونس من يـد إسـبانيا واوعـرت إلى والي الجزائر ووالي طرابلس الغرب بمظاهرته فاستعد كل واحد منهما وسـار من ولايته وخرج حيـدر باشـا من القـيروان بحاميتـه ومن انقـاد إليـه من العرب والبربر وتكاملت الجيوش في خارج تونس وأحـاطوا بهـا من كـل جانب فدخلها المسلمون عنوة واستأصلوا عساكر إسبانيا واسروا محمـد بن الحسن ثم أشخصـه سـنان باشـا إلى الأسـتانة فاعتقـل فيهـا إلى ان مات وتم استيلاء الدولة العلية على أفريقية وانقرضت دولـة بـني حفص منها بعد ان ملكوها ثلاثمائة ونيفا وأربعين سنة والبقاء للـه تعـالى وحـده وثبتت قدم سـنان باشـا في تـونس واسـتفحل أمـره وقطـع دعـوة بـني حفص فيها واستحلم الثوار ومن عهده صارت الولاة تختلـف على تـونس من قبل السلطنة السـنية كـاختلافهم على الجزائـر .ثم وقـع الـنزاع بين حكومة الجزائر وحكومة تونس بعد استيلاء سنان باشا عليـه في الحـدود واستمر إلى ان تـولى حسـن باشـا على الجزائـر سـنة اثنـتين وعشـرين وألف فاتفق مع يوسف داى والي تونس علي تعيين نهر سراط حـدا بين الحكومتين وفي سنة ثلاث وثلاثين وألف تولى خسروا باشا على الجزائر ونازعه يوسف داي في الحدود ثم رجعا لمـا وقـع عليـه الاتفـاق أولا بين الإمارتين في الأحكام والجباية وفي سنة أربع وخمسـين وألـف انتقضـت جزيرة كريت على الدولة واستبدوا بأمرهم فأوعزت إلى محمد باشا أبي ريشة والى الجزائر بغزوها فسار إليهـا في أسـطوله وفتحهـا وقفـل إلى

الجزائر وكان الملك فرنسيس الأول عقد الصـلح مـع السـلطان الغـازي سليمان خـان سـنة اثنـتين وثلاثين وتسـعمائة هجريـة وخمس وعشـرين وخمسمائة وألف ميلادية وأباح له السـلطان حريـة مـراكب فرانسـا في البحر الأبيض تسافر فيه حيث شـاءت وأذن لـه في تعـاطي التجـارة في لجزائر وغيرها ثم ان حكومة الجزائر أخذت مراكبها تغـرو ثغـور فرانسـا وتخرب حصونها إلى ان آل أمر فرانسـا إلى الملـك اويس الرابـع عشـر فجهز نحو ستة الاف جندي في ستة عشر مركبا لنظر القائد الــدوك دي يوفور فاقلع من طولون في مراكبه سنة أربع وسبعين وألف من الهجرة مترصدا مراكب لجزائر فلم يصادف نجاحا وفي سنة ست وسـبعين وقـع الصلح ولما تولى بابـا حسـن على الجزائـر سـنة اثنـتين وتسـعين وألـف أغـزى مراكبـه إلى الثغـور الفرنسـاوية وفي سـنة أربـع وتسـعين خـرج الأميرال تورفيل من طولون في عمارة فرنسا وسار إلى الجزائـر وانـاخ عليها ثلاثة اشهر يغاديها القتال ويراوحها ثم سئم الإقامة من غـير طائـل واقلع عنها وفي سنة خمس وتسعين عاد إليها في قـوة اكـثر من الأولى ولما علم بابا حسن انـه عـاجز عن مدافعتـه مـال إلى السـلم وبعث إلى رئيس العمارة في ذلك فأجابه إليه واشترط عليه امور انف أهل الجزائر من قبولها وعارضوا حـاكمهم في إجازتهـا ثم عـدوا عليـه فقتلـوه وولـوا عليهم الحاج حسن اغا من مشاهير القواد فاشهر الحرب على المـراكب الفرنساوية ورماها بالقنابل فاستشاط تورفيل غضـبا وأرسـل على البلـد صـواعق المـدافع فعمـد أهـل الجزائـر إلى اسـارى الإفـرنج يوثقـونهم ويضعونهم في أفواه المدافع ثم يرسلونها فتتطاير أشلاؤهم مـع القنابـل في الهواء وارتكبوا في ذلك مـا لا يسـوغ شـرعا ولا مـرؤه ثم لمـا طـال الأمر على الأميرال تورفل اقلع عن الجزائـر إلى بلاده .وفي سـنة سـت وتسعين عاد إليها فدعاه أهلها إلى الصلح فبادر إلى ذلـك واعقـد الصـلح إلى ان تولى خوجه إبـراهيم باشـا فـاغرى ثغـور فرانسـا ورجـع بالغنـائم

وفي سنة مائة وألـف جمعت دولـة فرنسـا قوتهـا وأكـثرت من الحشـود الإفرنجية وبعثها لنظـر المارشـال دي سـنري فنـازل لجزائـر وألح عليهـا برمي القنابل وأقام على ذلك خمسة عشر يوما حتى دكت أطراف البلد ثم جنح خوجه إبراهيم باشـا إلى السـلم فانعقـد الصـلح وفي سـنة أربـع ومائة وألف تـولى على الجزائـر خوجـه شـعبان باشـا فنهض إلى تـونس بجيوشه فدخلها بمداخلة ابن شكر وزير محمد باي واليها وفر محمد بـاي إلى داخلية افريقية وتم الأمر لشعبان باشا ثم فوض أمر تـونس إلى ابن شكر باي وقفل إلى الجزائر وكان شـعبان المـذكور يبغض العـرب ولمـا رجع من تونس أمر جنده بقتل كافة العرب القانطين في مدينة الجزائـر فقتلوا خلقاً كثيراً وكثر تعسفه واشتدت وطأته فقبض عليه الجند وقتلوه خنقا وتولى الجيش احمد باشا ثم عزل وتـولى عمـر باشـا وكـان محمـد باي انتصر على ابن شكر باي وعاد إلى تونس ولحق ابن شكر بـالمغرب الأقصى ثم توفي محمد باي والى تونس أخـوه رمضـان بـاي فثـار عليـه مراد باي بن علي باي وتناول تونس من يده واستفحل أمره فيها واجمـع على غـزو قسـنطينة ثم الجزائـر ونهض من تـونس على طريـق الكـاف فلقيه علي خوجه باي حاكم قسنطية بالقرب منها وناجزه الحرب فكانت الدبرة على علي خوجه باي واتصل الخبر بعمر باشا فخـرج من الجزائـر وزحف إلى مراد بـاي وهـو محاصـر لقسـنطينة وانتشـب الحـرب بينهمـا فـانهزم مـراد بـاي ولحقـه عمـر باشـا إلى الحـدود ثم انكفـا راجعـا إلى الجزائر وبقي مراد باي في مرض من الأيام إلى ان ثار الشريف إبراهيم وقتله واستولى على تـونس ثم لمـا تـولى مصـطفى باشـا على الجزائـر جهز جيشـا وبعثـه لقتـال الشـريف إبـراهيم المتغلب على تـونس ونهض الشريف من الحضرة فالتقوا بالقرب من الكـاف واقتتلـوا أيامـا ثم وقـع الخلل في عسكر الشريف فانهزم وقبض على الشريف وسارت عساكر الجزائر إلى تونس فدخلوها ثم رفع إلى مصطفى باشا في رئيس ديوان

التحريرات الجزائرية الخوجه محمد بكداشي أمر نقمة عليه نعزله ونفـاه إلى قاصية البلاد فأقام بكداشي مكانه يترصد الفرص إلى ان تمكن منها فتلطف في رجوعه إلى الجزائر .ثم دخل على مصطفى باشا في منزله ليلا وقتله وتـولى مكانـه سـنة ثمـان عشـرة ومائـة وألـف ثم قبض على الاخـوين العـالمين السـيد احمـد والسـيد علال ولـدى العلامـة المؤلـف الشهير الشيخ سعيد قدوره وكان الأول منفيا للمالكية والثاني قاضيا لهم فقتلهما في محبسهما خنقا وقد انتقم الله منه بمثل فعلـه فسـلط عليـه إبراهيم اغة العرب فدخل عليه وخنقه وتولى مكانه ثم تـولى بعـده علي باشا ثم محمـد باشـا وكـانت إسـبانيا اسـتولت على وهـران سـنة خمس عشر وتسعمائة أخذتها من يد أبي كلمون آخر ملوك بني زيـان ولم تـزل حكومة الجزائر تبعث بالجيوش إليها وتنازلها برا وبحـرا فلم تـات بطائـل إلى ان تـولى محمـد بكداشـي على الجزائـر وكـان شـديد الرغبـة في استرجاعها فجهز جيشـا عظيمـا وبعثـه إليهـا وأوعـز إلى حـاكم معسـكر مصطفى باي أبي الشلاغم بمظاهرة الجيش والنظر في أمـره فنازلوهـا أول يوم من ربيع الأول سـنة تسـع عشـرة ومائـة وضـيقوا على حاميتهـا واحجروهم في داخلها وفي سادس شـوال من تلـك السـنة فتحـوا البلـد عنوة وفر أهلها إلى برج المرسى وتحصنوا فيه فلحقهم المسلمون وفي الثالث عشر المحـرم سـنة عشـرين اقتحمـوا الحصـن واستأصـلوا أهلـه واستقر أبو الشلاغم واليا عليها ولم يزل يدافع جيوش إسبانيا عنهـا مـرة بعد أخرى إلى أن تغلبوا غلبها وأخذوها من يده سنة ثلاث وأربعين ومائـة وألف وخرج منها أبو الشلاغم بأهلـه ومن كـان فيهـا من المسـلمين إلى معسكر ونواحيها وكان والي الجزائر عبدي باشا فجهز ولـده محمـدا في عدة مراكب وبعثه إلى وهران فنازلها ثم توفي عبـدي باشـا واقلـع ولـده محمد راجعا إلى الجزائر وكان حسن بن علي والي تونس ظاهر جيـوش إسبانيا على اخذ وهران وأمدهم بالذخيرة فحفظها له إبراهيم الخزنـاجي

مستشار عبدي باشا ولما أفضى أمر الجزائر إليه اخـرج يـونس ابن أخي حسـين بن علي وكـان معتقلا في الجزائـر وأمـده بـالجيش والمهمـات وأوعز إلى حاكم قسنطينة بمظاهرته فنهض يونس من الجرائـر واجتمـع بحاكم قسنطينة وانضم إليهما أبو عزيز شـيخ لحنانشـة وأبـو رنـان شـيخ عـرب البنيـان ومحمـد ابن أبي الضـياف شـيخ جبـل أوراس بجمـوعهم واتصـل الخـبر إلى حسـين بن علي فـرحت إليهم والتقى الفريقـان على نهـر سـراط وانتشـبت الحـرب فكـانت الـدبرة على حسـين بن علي فـانهزمت جيوشـه ولحـق هـو وأولاده بـالقيروان واسـتولى يـونس على الحضرة وانقلبت الجيوش راجعة إلى مراكزهـا ثم نهض يـونس بـاي إلى قتال عمه وهو بالقيروان فخـام عمـه عن اللفـاء وأقـام يـونس محاصـرا للقيروان أحد عشر شهرا ثم خرج منهـا حسـين بن علي وأولاده ولحقـوا بقسنطينة متنصلين مما وقع منهم وتوجه محمد بن حسـين بن علي إلى الجزائر وقدم الطاعة للخزنـاجي باشـا نيابـة عن والـده فنقبـل طـاعتهم ووعدهم بالعود إلى دار ملكهم ثم وصول محمد إلى الجزائر توفي والده بقسنطينة والحق محمـود وعلي باخيهـا محمـد وأقـاموا ينتظـرون إنجـاز الوعد إلى أن مات الخزنـاجي باشـا وتـولى خوجـه إبـراهيم باشـا وكـان الخزناجي عهد إليه عند موته بمساعدتهم فلمـا تمكن من أمـره سـيرهم في الجيوش الجزائرية وأمر حاكم قسنطينة بمظاهر وقبل وصـولهم إلى حـود تـونس حصـل الخلـل في العسـكر وتفـرقت الكلمـة بين حـاكم قسـنطينة واحمـد اغـا رئيس العسـكر الجزائـري فـانقلبوا راجعين إلى قسنطينة ثم توفى علي بن حسين ابن علي وأقام أخواه محمود ومحمد بقسنطينة وفي سـنة سـتين ومائـة وألـف تـوفى الخوجـه إبـراهيم باشـا وتولى محمد باشا المعروف بالأعور وفي سنة ثمان وستين ومائة وألـف عدا عليـه جنـدي فقتلـه وتـولى علي باشـا أبـو إصـبع وكـان حسـن بـاي المعـروف بـأزرق العيـنين ابن أخت علي باشـا المـذكور واليـا على

قسنطينة فاتفق رأيه مع خاله على اخذ تونس من يد يـونس بـاي وردهـا إلى أولاد عمـه حسـين بن علي ثم أن ازرق العيـنين عمـل الحيلـة على تونس باي واظهر له المودة فركن إليـه وألقى إليـه بمقاليـد أمـوره ولم يزل ينصب له المكائد إلى أن تمكن منه وقبض عليه واستصـفى أموالـه وبنى عليه حائطـا من خشـب فبقي في عذابـه إلى أن مـات ورجـع أمـر تونس إلى أولاد حسـين بن علي يتوارثونـه خلفـا عن سـلف لهـذا العهـد وفي سنة تسع وسبعين ومائة وألف توفي علي باشا وتولى محمـد باشـا المعروف بالمجاهد وكان صالحا زاهدا حسن السيرة محبا للجهاد منصور الراية شيد عدة أبراج وحصـون في الجزائـر منهـا بـرج سـردينيا والـبرج الجديد وبرج راس العين واصلح قناة الحامة وأجرى ماءهـا إلى سـقايات اتخذها على أبواب المساجد والأبـراج والحصـون وخـوابي من رخـام في شوارع البلد وأوقف أوقافا جارية وأنشأ جملة مراكب بحرية للغـزو وهـو أول من اتخـذ النجـون في الجزائـر وهـو مـركب صـغير وفي سـنة ثلاث وثمانين ومائة ألف انقض الصلح بين الدولة العليـة ودولـة روسـيا فجهـز مراكبه واكمل استعدادها لنظـر القبطـان ابن يـونس وبعثـه إجابـة لأمـر الدولة وتكرر منه هذا عندم تدعوه الدولة لإعانتها وكان قوم من اليونـان يقال لهما الزنبطوط اتخذوا قرصانا وانقطعوا فيـه في البحـر يترصـدون المراكب فلا يصادفهم مركب إلا أخذوه بما فيه وقتلوا أهله كانت الدولـة العلية تأمر حكامها في الجزائر بقطع عاديهم فجهز محمد باشا المجاهـد القبطـان الحـاج سـليمان وأرسـله إليهم فاسـتولى عليهم وسـاقهم في مراكبهم إلى الجزائر وقد قسموا بلاد المغرب الأوسط إلى أربـع ولايـات ولاية الجزائر وولاية تيطرى بكسر التاء وسـكون الطـاء المهملـة وولايـة قسنطينة بضم القاف وفتح السـين وسـكون النـون وولايـة وهـران بفتح فسكون ولكل ولاية حاكم يسمى باي أي بك إلا حـاكم الجزائـر فيسـمى باشا وهؤلاء البايات متساوون في الرتبة والعمل ويرجعـون في امـورهم

إلى والي الجزائر ولما تولى بابا علي باشا بانتخـاب أهـل الشـورى رفـع إلى حضرة السلطان احمد عريضة تنبئ بـان وجـود والـيين في الجزائـر موجب للفساد مستلزم للنزاع نقبل ذلك وأمر بان يكـون انتخـاب الـولاة وعـــزلهم إلى مجلس الشـــورى وان يكـــون التصـــديق على ذلـــك من السلطنة وقد تقدم مـا كـان للحكومـة الجزائريـة في سـالف أمرهـا من سمو المنزلة وباهر السطوة وكانت الـدول الإفرنجيـة على كثرتهـا تـدفع لها أموالا مضروبة عليها كل سنة لدفع عاديتها عن ثغـورهم ماعـدا دولـة إسبانيا فإنها كانت تتلون فتـارة تـدفع ضـريبتها وتمتنـع أخـرى والحكومـة الجزائرية تعاملها على حسب تلونها ولما تولى محمد باشا المجاهد اكـثر من غزو ثغورها حـتى الجـأ أهلهـا إلى الجلاء عنهـا والفـرار إلى الداخليـة وقد اجتمع في الجزائر منهم عشرة آلاف أسير فجمع ملك إسبانيا قوتــه واسـتجاش بقيـة الـدول وجهـز خمسـمائة مـركب مشـحونة بالعسـاكر والـذخائر وبعثهـا إلى الجزائـر سـنة تسـع وثمـانين ومائـة وألـف فـنزلت الجيوش إلى الـبر وخيمت بـوادي الحـراش وكـان محمـد باشـا المجاهـد مستعدا لمدافعتهم واستنهض حاكم قسنطينة وحاكم معسكر بجمــوعهم إلى حضرته فاجتمعت الجيوش الإسلامية وكانت مراكب إسبانيا سبقتهم إلى الجزائر فخيم صاحب قسنطينة في جهة الجنوب من معسكر العــدو وخيم صـاحب معسـكر في الجهـة الغربيـة وخـرج محمـد باشـا بجنـوده ودارت الجيوش بالمعسكر ثم هجمت عليـه دفعـة واحـدة فاشـتعلت نـار الحـــرب من كـــل جهـــة وجلس المســـلمون خلال الخيـــام واســـتلحموا المعسكر بتمامه واستولوا على ذخائره ومهماتـه ولمـا رأى من بقي في المراكب من الجيش ما وقع بإخوانهم رفعوا الرايات السود على صواري المراكب إعلانا بالحزن واقلعوا على تلك الحـال راجعين إلى بلادهم وفي سنة ثلاث وتسعين ومائة ألف توفي إبراهيم بـاي حـاكم معسـكر وتـولى مكانـه الشـهم الهمـام محمـد بـاي بن عثمـان الكـردي وفي سـنة ثمـان

وتسعين عادت عمارة إسبانيا لمنازلة الجزائر وأناخوا عليها أربعة أيام يرسلون عليها القنابل فرجعوا من غير طائل ثم نازلوها في السنة التي بعدها وانقلبوا خائبين وقد أحسوا من أنفسهم بالعجز ورأوا أن جنودهم قد فنيت وثغورهم خربت فجنحوا للسلم وضرعوا إلى محمد باشا المجاهد في كف عاديته عنهم ثم أوفدوا عليه رئيس العمارة يطلب الصلح فرده خائبا ثم أعادوه إليه على أن يشترط عليهم ما شاء فأجابهم إلى مرغوبهم وانعقد الصلح بينهم على شروط منها أن تدفع دولة إسبانيا لحكومة الجزائر مليونا ونصف مليون فرنك في كل سنة وان تصير المبادلة في الأسرى رأسا براس والذي يبقى ألف ريال شينكو عن كل راس وان وهران خارجه عما انعقد عليه الصلح وتم الأمر على هذا سنة مائتين وألف .^ ذكر

فتح مدينة وهران قد امتدت العمارة الإسلامية بمدينة وهران إلى سنة خمس عشرة وتسعمائة ثم استولت عليها دولة إسبانيا من يد أبي كلمون ثم لما تولى محمد باشا المجاهد على الجزائر كان يميل إلى محمد باي الكردي حاكم معسكر لمتانة دينه واستقامة أحواله كتب إليه في الجهاد وحرضه على منازلة وهران فكان محمد باي ينازلها ويأخذ بمخنقها واستمر على ذلك من سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف إلى سنة خمس ومائتين فجاءه الأمر في ملازمتها والإقامة عليها فشمر الباي عن ساعد الجد وجمع الإله والمهمات الحربية وجمع اوزاعا من القبائل وأنزلهم على السبل المؤدية إليها ليقطعوا مواصلة بني عامر وغيرهم من المنتصرين للاسبانيول ثم انتقى طلبه العلم من المدارس وأنزلهم في جبل المائدة المطل على البلد ليمنعوا أهلها من الاعتصام به واخذ في حفر الخنادق واللغوم وبناء الاستحكامات ولما بلغ الخبر أرسل المدد إلى حاميتها وقد استشهد سيدي الجد السيد محمد المجاهد في معركة حرب بساحتها فحمل منها لى غريس مع بعد المسافة ودفن في مقبرة أسلافه ثم وقعت زلزلة عامة في جميع المغرب الأوسط واشتدت في وهران فسقط اكثر دورها على أهلها وهلك الحاكم وعائلته وتوالت المصائب عليها فرفعوا أمرهم فبعث إلى والي الجزائر في الهدنة مدة شهر لينظر في أمره فأجابه الوالي إلى ذلك وجاء الأمر لمحمد باي بتوقيف الحرب فتأخر في معسكر وضرب الأجل لحاكم وهران ثلاثين يوما وقبل تمامها غدروا بالمسلمين ورفعوا رايات الحرب وطار الخبر إلى محمد باي فسار وأناخ على وهران وجاءه المدد من الجزائر فاعظم النكاية في الاسبانيول واحجزهم في منازلهم وزحف إلى السور ووضع المدافع والهواوين في الاستحكامات وعكف الرماة يرسلون عليها القنابل حتى اندكت اكثر أبراجها ودورها واشتد الأمر على أهلها وعجزوا عن الذب عنها ثم توفي محمد باشا المجاهد وتولى مكانه مستشاره بابا حسن فطير الخبر إلى محمد باي في مكانه من حصار وهران وبعث

إليه بالأمر المؤذن بتجديد أمر الولاية له ثم أن ملك إسبانيا لما علم ان محمود باي قوي العزيمة عظيم الرغبة في فتح وهران كتب إلى بابا حسن باشا والي الجزائر في تسليمها واشترط أن يسلمها على ما كانت عليه حين دخلتها جيوشهم وان يخربوا جميع ما احدثوه فيها من الأبراج والقلاع فأجابه الوالي إلى ذلك على أن يدفع مصاريف الحرب فقبل الملك وبعث الوالي إلى محمد باي يأمره بالإفراج عن البلد فارتحل الباي وجيوشه واخذ الاسبانيول ينتقلون منها إلى ان فرغت وخربوا ما وقع الاتفاق على تخريبه فتقدم الباي إلى ساحتها وأرسل في المدائن والضواحي للحضور في دخولها فهرع الناس إليه ودخلها واخذ في ترميم ما تثلم من سورها وأماكنها وفي اقرب مدة عمرت دورها وأسواقها ومساجدها وانتقل الباي إليها من معسكر بأهله واعيان حكومته وأرخ فتحها العلامة السيد عبد القادر بن السنوسي بن دح بقوله .

بشرى لنا قد بلغنا غاية الإرب	◈	*بفتح وهران ذات العجب والعجب*
أرخت للقوم ذاك العام مبتدرا	◈	*قالوا فما الشهر منه يا أخا العرب*
نقلت في نظم ما راموا أؤرخه	◈	*وهران طار لها الإسلام في رجب*

ثم توجه الباي إلى الجزائر لتأدية التهنئـة للباشـا بفتح هـذه المدينـة التي طالما اهتمت الحكومة بشأنها واجتهدت في فتحها فأبى اللـه إلا أن يكون على يديه وفي أيامه فاكرم الباشا نزله واكبر وفادتـه ثم قفـل من الحضرة شاكيا وبـوادي مينـة اشـتد وجعـة ومـات فحمـل ودفن بـوهران فارتج المغرب الأوسط لفقده وعم الحـزن أقطـاره وكـان يحب العلمـاء والصالحين ويعظمهم واخذ الطريقـة القادريـة عن العلامـة الجـد سـيدي السيد مصطفى ولم يزل قائما بخدمته ساعيا في مرضاته إلى أن تـوفي وتولى على وهران ابنه عثمان باي . ذكر غير ذلك

في سنة سبع ومائتين وألف تأخر أداء الضريبة المفروضة على دولة أمريكا للحكومة الجزائرية فغضـب الباشـا واخـرج قناصـلها من الجزائـر وسائر الولايات وجهز القبطان الشهير الحاج محمد في أسطوله ليترصد مراكبهم فغنم نحو العشرين مركبا واغزاه مرة أخـرى فظفـر بغيرهـا ثم أن دولة أمريكا جنحت للسلم فاجلبها الباشا على ان تـؤدي لـه مليـونين ونصف مليون من الريال الشـينكو فـادت لـه ذلـك ورجعت قناصـلها إلى الجزائر وفي سنة اثنتي عشرة توفي الباشا بابا حسن وتولى مكانــه ابن أخته مصطفى الخزنـاجي وفي سـنة ثلاث عشـرة كـانت حادثـة نـابليون

الأول في مصر وأوعزت الدولة العلية إلى مصطفى باشا بإشهار الحرب عليها ليشغلها عن مصر فاحضر الباشا قنصل فرنسا الجنرال واظهـر لـه شدة حنقه على فرنسا لسوء معاملتهـا مـع الدولـة العليـة ثم أوثقـه في الحديد وأسـلمه إلى دائـرة الأشـغال الشـاقة وفعـل ذلـك ببقيـة قناصـل فرنسا في الولايات وجهـز قائـد البحـر في الأسـطول واغـزاه إلى ثغـور فرنسا فاثخن فيهـا قتلا وأسـرا وغنم عـدة مـراكب لهم وفي سـنة سـبع عشرة عزل عثمان باي ابن محمد بـاي فـاتح وهـران عن ولايتهـا وتـولى مصطفى باي من أخصاء الباشا .

ذكر أخبار محمد ابن الشريف الثائر على ولاية وهران

اصله من الكسانة قبيلة من الـبربر بـوادي العبـد قبلـة غـريس اخـذ العلم في صـغره عن سـيدي الجـد السـيد يحـيى الـدين في مدرسـة بالقيطنـة ثم رحـل إلى المغـرب الأقصـى فاخـذ من علمـاء فـاس ولقي الشـيخ العـربي الـدرقاوي وسـلك طريقتـه وقفـل إلى وطنـه وجـاء إلى حضرة سيدي الجد زائراً وفي بعض الأيام تكلم بحضرته بما يوجب تأديبه شرعا فأدبـه سـيدي الجـد بأسـياط واسـتنابه ثم رجـع إلى وطنـه ولحـق بقبائـل حميـان وشـافع ودعـا لنفسـه سـنة سـبع عشـرة ومـائتين وألـف وادعى انه المهدي المنتظر فصدقه الناس وقاموا بنصرته فاخـذ يسـتلب الأنفس والأموال ويخرب العمران واتصل الخبر بباي وهـران فنهض إليـه بجيوشه والتقى الفريقان بغريس فانهزم الباي وتفرقت جيوشـه ولحقت بوهران واسـتولى ابن الشـريف على أثقالـه ثم سـار في جموعـه حـتى وقف بساحة وهران فأناخ عليها وطـار الخـبر إلى الجزائـر فجهـز الباشـا مستشاره علي اغا وبعثه على طريق البرتغال ابن الشريف فتعـرض لـه

البربر في نـواحي وادي شـلف وصـدوه عن المـرور في بلادهم ومنعـوه ورود الماء حتى كاد يهلك مع جوشه عطشا فلاذ بشيخ العطاف واستجار به فمشى له أن يدفعوا عـاديتهم عنـه فـأبوا عليـه إلا بمـال يؤديـه إليهم فادى لهم ما طلبوه وانقلب راجعا إلى الجزائر واستمر ابن الشريف في مكانه من حصار وهران وضيق على أهلها حتى نفـذت أقـواتهم وتمشـت له الطاعة من تلمسان إلى المدية ثم افرج عن وهران وسار ينتقــل في النواحي إلى سنة ست وعشرين ومائتين وألف فبعث الباشا من الجزائر معتمده محمد باي المعروف بالمقلس في عسـكر وقلـده ولايـة وهـران فــركب في الأســطول من شرشــال وبوصــوله إلى وهــران قبض على حاكمها مصطفى باي وأشخصـه إلى الجزائـر وكتب إلى الآفـاق بقدومـه وتلطف في جمع الكلمة فأجابه اكثر القبائل وركنوا إلى طاعتـه وأمـرهم بالمعسكر معه فهرعوا إليـه من كـل جـانب وفـرق فيهم الأمـوال ونهض من وهران بجموعه يريد ابن الشـريف وتزاحفـا في غـريس ولمـا تـولى النهـار انكشــف ابن الشـريف بجموعــه وانتصـر البـاي عليهم وفــر ابن الشريف بأهله وأولاده إلى نواحي تلمسان ثم لحـق بجبـل بـني يزناسـن من أعمال المغرب الأقصى ولازال مقيما فيـه إلى ان مـات فرجـع أهلـه وأولاده ونزلوا في حمى سيدي الجد بالقيطنة لائذين به فعفا عنهم الباي حفظا لذمته ورعايته لمقامه وأذعن الناس للحكومـة وتسـابقوا للـدخول في طاعتهـا وذهب ابن الشــريف وأطــوى بســاطه ثم خــرج البـاي من معسـكر لتمهيـد البلاد فاخـذ ضـرائبها وجـبى أموالهـا وقفـل إلى وهـران وثبتت قدمـه في ولايتـه سـمعت سـيدي الوالـد يقـول إنمـا لم ينجح ابن الشريف في أمره لكونه كان ممقوتا عند سيدي الجد فمقته الناس وبعد رجوع الباي إلى وهران توجه إليـه سـيدي الجـد ليهنئـه بانتصـاره فـاكرم نزله واعظم وفادته ولما انطلق من عنده قال الباي إلى جلسـائه نحن لا

نخشى من ابن الشريف وأمثاله وإنما نخشى من صـولة هـذا يشـير إلى سيدي الجد رحمه الله تعالى . ذكر

أخبار ابن الأحرش وفي سـنة ثمـان عشـرة ومـائتين وألـف ثـار ابن الاحرش في نواحي قسنطينة وهو من عرب المغرب الأقصـى رحـل من بلاده للحج ولما اجلب نابوليون الأول على مصر جمع ابن الاحرش جيشا من أعراب المغربين وأفريقية وانضم إلى الجنود المصرية لقتال نابليون وأبلى في تلك الحروب بلاء حسنا فاكتسب الشهرة ولمـا انقلب نـابليون إلى فرسا قتل ابن الاحـرش راجعـا إلى المغـرب واحتـل بتـونس ولقيـه صاحبها حموده باي واكرم نزله وفاوضه في القيام على حكومة الجزائـر ووعده بالمظاهرة بالمال والرجال فاستكان لها ابن الاحـرش وخـرج من تـونس إلى نـواحي قسـنطينة ودعـا لنفسـه واشـتدت شـوكته في تلـك الجهات وزحف إلى قسنطينة بجموعه فخرج إليه حاكمها بجيشه ووقعت بينهما حروب انهزم في آخرها حاكم قسنطينة وترك ذخائره فنقـوى بهـا ابن الاحـرش وعظم الخـوف عنـد البـاي ففـر إلى تـونس بأهلـه وأولاده واتصل الخبر بمصطفى باشا والي الجزائر فاحضر عثمان باي ابن محمد باي وبعثه حاكما على قسـنطينة وفـوض إليـه في مدافعـة ابن الاحـرش وبوصـوله إليهـا كتب إلى رؤسـاء القبائـل الـدائنين بطاعـة ابن الاحـرش يهددهم ويخوفهم عاقبة أمرهم واخذ يتهيا للحـرب وخيم خـارج البلـد في سـطح المنصـورة واسـتجاش بمن بقي من القبائـل متمسـكا بطـاعتهم وارتحـل نحـو ابن الاحـرش وعسـكر في سـهل وادي الزهـور فـأمر ابن الاحرش بالنهر فسد ثم أطلق على المعسكر أول الليل فما طلـع الفجـر إلا والمــاء قــد عم الســهل كلــه وهجم عليهم ابن الاحــرش بجموعــه فاستلحمهم وقتل الباي وكان البـاي لمـا خـرج من قسـنطينة استصـحب معه جميـع مـا في الخـزائن من الأمـوال والـذخائر فاسـتولى عليهـا ابن الاحرش وامتلات ايدي جيوشـه من المغـانم ثم ان باشـا الجزائـر فـوض

الأمر إلى قائد الخشنة وولاه على قسنطينة وكان هذا القائد له مصاهرة مع العرب فاستجاش بأصهاره وعبى كتائبه وبرز من قسـنطينة لمدافعـة ابن الاحرش فانهزمت جيوش ابن الاحرش وتفرقت وفـر بنفسـه ولحـق بابن الشريف في الجهـة الغربيـة وبقي في معيشـه إلى ان دس لـه من قتله من أصحابه . ذكر غير ذلك

وفي سنة ثمان عشرة ومائتين دخـل يحـيى اغـا على رئيس اليهـود في الجزائر وقتلـه في منزلـه ولمـا رأى النـاس إهمـال الحكـوم للأمـور وتغافلهـا تـداعوا في ثـاني يـوم إلى استئصـال اليهـود ونهب أمـوالهم فـاجتمعوا ودخلـوا إلى محلـة اليهـود فـاثخنوهم قتلا واكتسـحوا أمـوالهم وجمعوا أشلاءهم خارج البلد وأضرموها نارا ثم أمر الباشـا بـالقبض على كـل من ثبت حضـوره في هـذه الفعلـة فـامتلأت السـجون بهم وأمـر أن يصـلب منهم كـل يـوم عشـرة انفس فصـلبوا عن آخـرهم وفي سـنة عشرين ومائتين ثار العسكر على الباشـا ونقمـوا لـه سـوء معاملتـه لهم وقتلوه في الزقاق وتولى احمد خوجه فأطلق أيدي العسـكر في الرعايـا فكثر الفساد وكان في قلبه شـيء على عبـد اللـه بـاي حـاكم قسـنطينة فقتله واستصفى أمواله ومد يـده إلى الخزينـة فبـاع جميـع مـا فيهـا من النفائس وحمله إلى دار سكناه وبعث إلى حموده بـاي حـاكم تـونس في دفع الضريبة المفروضة على حكومة تونس لحكومـة الجزائـر فاسـتنكف ونقض العهد فجهز إليه القبطان حميد وفي الأسطول فغنم ثلاثة مراكب تونسية بما فيها ثم أغـزى جيوشـه إلى تـونس على طريـق الـبر فـاقيهم حموده باي بجموعه فاقعوا به واسـتولوا على معسـكره وفي سـنة ثلاث وعشرين تزاحف الفريقـان واقتتلـوا بنهـر سـراط فكـانت الهزيمـة على حموده باي أيضا وبعد رجوع العسكر إلى الجزائر اظلم الجـو بينهم وبين احمد باشا فثاروا عليه وقتلـوه وسـحبوه في ازقـة الجزائـر إهانـة لـه ثم تولى أبو الجوالق فأمر بنفي القبطان حميدو إلى الشام وفي سـنة أربـع

وعشرين ومائتين وألف تغلب علي باشا على أبي الجوالق وقتله خنقا وتولى مكانه وأعاد القبطان حميدو من الشام فأكرمه ورفع رتبته وفوض إليه أمر البحر ثم اغزاه إلى جبل طارق فلقى مراكب البورتغال فغنم منها مركبا واغزاه إلى صقلية فامتلأت مراكبه بالغنائم وفي سنة خمس وعشرين اغزاه إلى جربة من أعمال تونس فاستولى عليها وطار الخبر إلى حموده باي فجهز ثلاثة عشر مركبا وبعثها إلى جربة لقتال حميدو فلقيهم بالقرب من جزيرة فرقته وانتشبت الحرب بينهم فكانت الدبرة على مراكب تونس وفي سنة ست وعشرين اغزاه إلى تونس واحتل بحلق الواد وتأخر حموده باي عن اللقاء وانحجر داخل الحضرة فأقام حميدو أياما ثم اقلع راجعا إلى الجزائر وفي سنة سبع وعشرين اخذ الباشا يتأهب لمنازلة تونس وبعث إلى حكام الولايات في جميع الجيوش والنهوض بها إلى حضرته فتغافل حاكم وهران واظهر الاستبداد فوجم لها الباشا وسير عمر اغا في جيش على طريق البحر إلى وهران وكان أعيانها قد انحرفوا عن حاكمهم ونقموا عليه ما أظهره من الاستبداد وكان أعيان الدوائر والزمالة أوقعوه في هذا الأمر وزينوه له ووعدوه بمظاهرة الرعية وهو يومئذ مخيم بهبره فلما انقلب إلى وهران قام عليه الجند واعيان البلد وقبضا عليه وبوصول عمر اغا إلى وهران سلموه إليه فذبح أولاده على صدره وهو ينظر إليهم ثم سلخ وحشي جلده قطنا وأرسله إلى الجزائر نعلق على باب الجديد منها واستصفى أمواله ثم اخذ يتأهب لحرب حاكم تونس فجمع الجيوش وسار بهم وكانت جموع تيطرى وقسنطينة تنتظره بالقرب من التخوم لان الباشا فوض إليه أمر الحرب فنهض بالجموع إلى تونس ولما تجاوز حدودها اتصل به أن الأسطول الجزائري بعد أن أرسى في حلق الواد أياما انقلب راجعا من غير طائل وفي سنة ثمان وعشرين خرج القبطان حميدو غازيا على الثغور الإفرنجية فصادف في طريقة مراكب كثيرة

للدانمارك فاستولى عليها وفي هذه السـنة انعقـدت الهدنـة بين حكومـة الجزائر ودولة البورتغال على أن تؤدي دولة البورتغال للحكومة مليـونين ونصف مليـون فرنـك وان تنقـد لهـا فديـة أسـراها وفيهـا سـار القبطـان حميدو غازيـا إلى ثغـور اليونـان فـاثخن فيهـا بالقتـل والأسـر وغنم عـدة مراكب لهم وانقلب راجعا فرفع ملك اليونان أمره إلى السلطنة السـنية فبعثت إلى باشا الجزائر توبخـه على ذلـك وأمرتـه بـرد جميـع مـا أخـذه لليونان وفي سنة تسع وعشرين اتصل به اليهود لبسـوا نسـاءهم الثيـاب الخضر فقبض على أعيانهم وقتلهم واحرقهم وكان هـؤلاء الأعيـان أكلـوا أموال الناس بأنواع الحيل والدعاوي الباطلة فالزم الباشـا أقـربهم بـدفع جميع ما ثبت عليهم وفي سنة ثلاثين ومائتين اتفق عمر اغـا وكـان عـزل عن وهران مع عبد الله وكيل الخرج على قتل الباشا فـدخلوا عليـه وهـو في الحمام فذبحوه وتولى محمد الخزناجي وهو في سن التسعين وكـان محبوبا عند أهل الجزائر وفي اليوم السابع عشـر من ولايتـه دخـل عليـه عمر اغا في محله فقتله وتولى مكانه فأغزى القبطان حميـدو إلى جبـل طارق فصادف مراكبا لدولة أمريكا فصادقوه القتال وكانت الدبرة عليــه فقتل هو وجماعته وغنم الامريكانيون مراكبه ثم آل الأمـر بعـد ذلـك إلى انعقاد الصلح بين الفريقين وفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين جهز الإنكليز وهـو لانـده عمـارة مختلطـة بينهم لنظـر اللـورد اكسـمون وبعثـوه إلى الجزائر ولما وصل إليهـا كتب إلى عمـر باشـا أنـا اللـورد اكسـمون قائـد العمارة الإنكليزية الهولاندية أعلن لك إنني لا ارغب في سفك الدماء ولا أرضى بخراب البلاد ولكن اطلب معاهدة مربوطة بشـروط أولهـا إطلاق الأسـرى عمومـا من غـير اسـتثناء ثانيهـا إرجـاع مـا دفعتـه لكم سـردينيا ونابولي في السابق عن أسراهم ثالثها أبطال عادة الأسر بالكلية رابعهـا أن تكون هذه بعينها جارية بين حكومة الجزائر وباقي الدول فأجابه عمـر باشا بقوله لا جواب عندي إلا الضرب بالمدافع وفي الحـال أمـر بـإطلاق

القنابل على العمـارة وانتشـب الحـرب بين الفـريقين إلى المسـاء وفي صبيحة اليـوم الـذي يليـه شـبت النـار في المـراكب الهولانديـة ولاتصـال بعضها ببعض مع شدة الهـواء احـترقت عن أخـذها واتصـلت النـار ببعض مراكب الإنكليز وهاج البحر وتلاطمت أمواجه فاقلع اكسـمون بمـا سـلم من عمارتـه وتوغـل في البحـر ولمـا سـكن رجـع إلى الجزائـر وخـاطب الباشا بخطابه الأول فقبل شروطهم وانعقد الصلح بين الباشا واكسمون ولما شاع هذا الخبر في الجزائر ثار الجند على عمـر باشـا ونقمـوا عليـه قبول الشروط الإنكليزية فقبضوا عليـه وقتلـوه خنقـا وولـوا مكانـه علي خوجـه سـنة اثنـتين وثلاثين ومـائتين وألـف فأشـاع النكـير على أعيـان الحكومة واكثر من قتل الأتراك وجعـل بطانتـه من العـرب واخـذ النـاس بالإرهاب والسطوة واظهر الميل إلى العمل بالشريعة المطهرة والقيـام بوظائفهـا وأعلن بالمحافظـة على الصـلوات في أوقاتهـا ومن وجـد في دكانه بعد الأذان يجلد واشتدت وطأته على المتحرفين عن الشريعة حتى توفي بالطاعون ثم ولى حسين كاتب الخيل واستقر له الأمـر وفي سـنة أربع وثلاثين وقع الصلح بينه وبين صاحب تونس بأمر الدولة العلية وفيهـا عزل حاكم وهران محمد باي ابن محمـد بـاي ابن عثمـان الكـردي فـاتح وهران وتولى مكانه حسين باي ذكر

قيام السيد محمد التجيني أصـله من بنتـوجين أمـراء تـاهرت وكـان والده السيد احمد زاهدا عابدا صاحب طريـق ولـه مريـدون واتبـاع ولمـا شاع أمره في وطنه وخاف من غوائل الحكومة انتقل بأهلـه وأولاده إلى فاس في أيام سلطانها مولاي سليمان العلـوي وأقـام بهـا إلى ان تـوفي فقام بأمر الطريق بعده ابنه السيد محمد ورجع إلى بلـدهم عين ماضـي وهي في الجنوب الشـرقي من أعمـال وهـران وكـانت حكومـة الجزائـر ترهب سـطوته وتتوقـع خروجـه عن طاعتهـا وفي سـنة أربعين ومـائتين رجل من بلاده للحجاز برا واتصـل الخـبر بحسـين باشـا نبعث إلى حـاكم

قسنطينة في القبض عليه فافلت منه وبعد رجوعه إلى وطنه دعا الناس إلى طاعتـه والخـروج من دعـوة الحكومـة فوافقتـه أهـل تلـك النـواحي ونهض من بلــده إلى نــواحي معســكر فلاذ الحشــم ومن إليهم طاعتــه وخرج حسين بـاي حـاكم وهـران في جيوشـه وتزاحـف الفريقـان خـارج معسـكر من جهـة غـريس وعنـد المصـاف تقهقـر الحشـم ومن وافقهم وانفرد التجيني في ثلاثمائة مقاتل من قبيلة الأرباع فعقلوا أنفسـهم كمـا تعقل الإبل وقاتلوا حتى قتلـوا عن اخـرهم وبعث البـاي بـراس التجبيـني إلى الجزائــر فعلقت على بابهــا وأرســل ســيفه إلى الســلطان الغــازي محمود خان وفي هذه السنة عزل حاكم قسنطينة وولى احمد بن احمــد الشريف أول من تولى من العرب على ولاية في الجزائــر وأطلــق عليــه لقب باي

. ذكر ما كانت تؤديه الإفرنج لحكومة الجزائر من الهدايا والأموال

اعلم أن حكومة الجزائر وان كانت قليلة العدد فقـد كـانت لهـا اليـد الطولى في البحر الرومي وكانت بعوثها وغوازيها كثيرا مـا تسـم الثغـور الإفرنجية بالخسف والدمار ولذا لاذ اكثر ملوكهم بمسالمتها واذعنـوا لمـا تفرضه عليهم دفعا لعاديتها فكانت دولة إنكلترا تـؤدي لهـا سـتمائة لـيرة إنكليزية في كل سنة ودولة فرنسا هدايا ثمينة تؤديها عنـد تغـير قناصـلها ودولة الدانيمرك آلات ومهمات حربيـة قيمتهـا أربعـة آلاف ريـال شـينكو وهدايا نفيسة ودولة هولانـدا سـتمائة لـيرة فرنسـاوية ومملكـة سيسـيليا أربعة وعشرين الف ريال شينكو وهدايا قيمتها أربعـة الاف ريـال شـينكو ومملكة سردينيا ستة آلاف لـيرة فرنسـاوية والولايـات المتحـدة بأمريكـا آلات مهمات حربية قيمتها أربعة آلاف ريـال شـينكو وعشـرة آلاف ريـال نقدية وهدايا تحضرها قناصلها معها والبورتغال هدايا بهية واسوج ونــروج آلات حربية وذخائر بحرية تساوي قيمة وافرة ومنوفر وبــرام من ألمانيــا ستمائة ليرة إنكليزية وإسبانيا هدايا نفيسة وربما حاول بعضهم في بعض

الأحيان مقاومتها وتحـرك للانتقـام منهـا فلا يصـادف نجاحـا فيضـطر إلى مسالمتها . ذكر

تسلط الفرنسيس على مدينة الجزائر إن الفتن في أوربا منذ زمـان لم تخمد لها نار واشدها اظطراما ما كان منهـا أيـام نـابليون الأول ولمـا سـكنت بانعقـاد الصـلح بين الملـوك وكـان الفرنسـيس يغصـون بهـذه الحكومة ويتربصون بها الدوائر حـتى اتفـق لقونصـلهم مـع حسـين باشـا الخصـام الـذي أدى لإهانــة القونصـل حين عقـدوا معاهـدة تجاريـة في أصناف الحبوب مع الحكومة فتقرر لهـا في ذمتهم أمـوال طائلـة وقـارن ذلك حدوث الاضطراب في فرنسـا وقيـام الأمـة على ملكهم فتـأخر أداء تلك الأمور نحو العشرين سنة ولما خمـدت الفتنـة جـددوا المعاهـدة مـع الحكومة سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف هجرية وتسع عشر وثمانمائة وألف ميلادية ومن فصـولها أن دولـة فرنسـا تـؤدي للحكومـة الجزائريـة سبعة ملايين فرنك على يد وكيليها يعقوب كـوهين بكـري وميخائيـل أبي زناك اليهوديين والأداء يكون منجما أول سنة ست وثلاثين ومائتين وألـف هجرية وعشرين وثمانمائة وألـف ميلاديـة وكـان لتجـار فرنسـا من أهـل مرسـيليا على تجـار الجزائـر مليونـان وخمسـمائة ألـف فرنـك فرفعـوا أمرهم إلى دولتهم وطلبوا منها أن تنقـد لهم أمـوالهم من اصـل السـبعة ملايين المحكوم بها لحكومة الجزائر فادت دولة فرنسـا للحكومـة أربعـة ملايين ونصـف مليـون وأبقت مـا ادعى بـه تجارهـا في صـندوق الأمانـة وأمرت أن تجري دعوى تجارها مع غرمائهم من أهل الجزائر في مجلس التجارة في باريز فغضب الباشا لذلك وطلب أداء الأمـوال المحكـوم لـه بها كلها وان تكون مرافعـة التجـار والغرمـاء في مجلس الجزائـر وادعى ان الحق له في ذلك بموجب العهود التجارية بين الحكومة وسائر الـدول وطال النزاع واستمرت فرنسا مصرة على أمرها والباشا يطلب الجواب من قنصل فرنسا الجنرال دوفال فيحاولـه بالمواعيـد وفي أول يـوم من

شوال سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف دخل القنصل دوفال على الباشا لأداء التهنئة بعيد الفطر فشكا له الباشا عدم رد الجواب من ملك فرنسا على كتاب قدمه له فقال له ليس من العـادة أن يجـاوب الملـك من هـو دونه بدون واسطة ففهم الباشا من ذلك أن مـراد القنصـل أن الملـك لا يعتني بمجاوبة مثلـه فاشـتد غضـبه ولطم القنصـل على وجهـه بمروحـة كانت في يده فعظم ذلـك عنـد القنصـل وطـير الخـبر إلى ملكـه فجـاءه الأمر بمبارحة الجزائر فبارحها بمن معـه من الفرنسـاويين المقيمين في الجزائــر ثم أن الباشــا عــدا على من تــأخر في البلــد من ضــعفائهم فاستأصلهم وخـرب قلعـة دي لاكـار وكـل بنـاء للفرنسـيس في الجزائـر وبونه وبوصول القنصل إلى باريز جهزت دولة فرنسـا أسـاطيلها وبعثتهـا إلى الجزائـر لنظـر الأمـيرال كـوليت فنازلهـا يغاديهـا القتـال ويراوحهـا واستمر محاصرا لها نحـو ثلاث سـنين حـتى لانت قوتـه ونفـدت ذخـائره وانقرض معظم جيشه وتكسرت اكثر مراكبه وكانت خاتمـة أمـره بقتلـه ذكر بعض المؤرخين ان النفقة على هذه الحملة كانت اكثر من عشــرين مليون فرنك وأما حكومة الجزائر فلم يلحقها كبير ضرر ولما علم حسين باشا أن دولة فرنسا لا ترفـع يـدها عن الجزائـر وإنهـا تراجـع منازلتهـا لا مجالة اخذ في تثقيف البلد وتحصين حوزتها ثم انتقل بأهله وحاشيته إلى القصبة وفي سنة خمس وأربعين ومائتين وألف هجرية وتسـع وعشـرين وثمانمائة وألف ميلادية بعثت دولة فرنسا معتمدها دي لابـر إلى الجزائـر يطلب الترضية من لباشا فلم يلتفت إليه ورده وبعد إقلاعه أطلقت عليه القنابل من برج المرسى واتصل الخبر بملك فرنسا ففاوض أهـل دولتـه فوسـطوا محمـد علي باشـا خـديوي مصـر أن ينصـحه فأرسـل لـه كتابـا ينصحه ويحذره ويعلمه به بان العاقبة وخيمة فلما قرأه حسين باشا قـال للرسول بلغه سلامي وقل ل يأكل الفـول ولمـا وصـل هـذا الجـواب إلى الخديوي عرف الحكومة الفرنسوية بعدم تأثير نصيحته له فـاجمعوا على

حرب الحكومة الجزائرية ومناجرتها فجمعوا جنودهم وكانوا أربعة وثلاثين ألفا مع مائة واثني عشر مدفعا واستأجروا أربعمائة مركب وســيرتها من طولـون إلى الجزائـر لنظـر الأمـيرال دوبـري في احـدى وعشـرين ذي الحجة سنة خمس وأربعين ومائتين وألف هجرية والتاسع عشر من يونيه سنة ثلاثين وثمانمائة وألف ميلاديـة فعـدل بهـا عن مرسـى الجزائـر إلى مرسـى سـيدي فـرج القريبـة من الجزائـر وكـانت خاليـة من العمـران الاشـرذمة قليلـة من العسـكر كـانت في بـرج هنـاك فلمـا أطلت عليهم مراكب فرنسا تفرقوا وبوصول العمارة إلى مرسى أخذت الجنـود تـنزل إلى البر بمهماتها ورفعوا رايتهم عل البرج واتصـل الخـبر بباشـا الجزائـر فأرسل في المدائن والضواحي ينادي بالجهـاد وعقـد لصـهره يحـيى اغـا على قتال العدو فنهض من الجزائر في الحشود والعساكر والتحم القتال بين الفريقين فكانت الدبرة على الاغا وجموعه ثم تلاحقت الجيـوش من وهران وقسنطينة وتيطرى وزحف بهم الاغـا في السـابع والعشـرين من ذي الحجة على معسكر الفرنساويين وحملوا عليه رجل واحد واسـتمروا حــتى ادخلــوه الخيــام ووضــعوا رايــاتهم على الاســتحكامات فبهت الفرنسيس من تلك الحملـة وتراجعـوا وعـززتهم فرقـة الطوبجيـة وردوا الكـرة على الجيـوش الجزائريـة فـأخرجوهم من المعسـكر وهزمـوهم وتبعهم العدو إلى أن أدخلهم معسكرهم في اسـتاوالي ثم أخـرجهم منـه واستولى عليه بما فيه من الذخائر والمهمـات وعـرف ذلـك اليـوم بيـوم اسـتاوالى واجتمـع في الجزائـر حشـود العـرب والـبربر للنهب والسـلب بدعوى الجهاد وفي الثالث من محرم سنة سـت وأربعين ومـائتين وألـف الموافـق للخـامس والعشـرين من يونيـه سـنة ثمانمائـة وثلاثين ونهض يحــيى اغــا من الجزائــر بتلــك الحشــود وانتشــب الحــرب بينــه وبين الفرنساويين فانهزم يحـيى اغـا وحشـوده فتعقبهم العـدو إلى أن تجـاوز استحكامات أبي جارية واستولى عليها بما فيهـا من المـدافع والمهمـات

وخيمـوا عنـدها وقـوى طمعهم في الاسـتيلاء على الجزائـر وفي صـبيحة ثامن المحـرم ارتحلـوا من أبي جاريـة وضـربوا معسـكرهم في أطـراف البساتين وفي العاشر محرم أطلـوا على البلـد وسـلطوا عليهـا المـدافع وأخذوا يعقـرون الأشـجار ويعفـون الآثـار وأخـذت النـار في بـرج مـولاي حسن وكانت فيه خزينة البارود فاحترقت وتطـايرت حجـارة الـبرج على البلد فدمرت المنازل ومـات خلـق كثـير تحت الـردم وعظم الكـرب في مدينة الجزائر واستولى القلق على أهلها وتنبه حـاكمهم من غفلتـه ولمـا علم أنه قد فاته التدارك أسـتأ من لنفسـه وأهلـه وجميـع الأهـالي فأمنـه قائد الجنود الفرنساوية المارشال على شروط وقع الاتفاق عليها . ذكر

المعاهدة الواقعة بين قائد العسكر الفرنساوي بورمون وبين حسين باشا في الثـالث عشـر من المحـرم سـنة سـت وأربعين ومـائتين وألـف هجرية والخامس من يوليه سنة ثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية

أولاً كافـة القلاع المختصـة بمدينـة الجزائـر وأبـواب المدينـة تسـلم للعساكر الفرنساوية في صباح السادس من يوليه الساعة العاشرة ثانياً يتعهد القائد العمومي الفرنساوي أن يـترك للباشـا أموالـه المختصـة بـه ثالثاً أن يكون لحضرة الباشا الحرية بـأن يتوجـه مـع عائلتـه وأموالـه إلى المحل الذي يرغبه وفي مدة أقامته في مدينة الجزائر يكون هو وعائلتــه تحت حماية القائد العمومي الفرنساوي وأن الباشا وعائلته يكونون تحت حرس مخصوص رابعاً أن القائـد العمـومي يمنح هـذه الحمايـة المعطـاة لحضرة الباشا لكافة قواد العساكر الجزائرية خامساً تعطى حرية الديانة المحمديــة والمكــاتب الأهليــة ولــدياناتهم ولأملاكهم ولصــنائعهم وان لا يعارضوا في ذلك وان نسـائهم محفوظـات معتـبرات سادسـاً أن مبادلـة هذه المعاهدة تكون غداً الساعة العاشرة صباحاً وتـدخل العسـاكر قلعـة القصبة ويقيمون في قلاع المدينة والشـطوط البحريـة وفي الغـد صـباح اليوم السادس من يوليه والثالث عشر من المحـرم سـنة سـت وأربعين

ومائتين وألف في الساعة التي وقـع عليهـا الاتفـاق دخلت جنـود فرنسـا من الباب الجديـد في أعلا المدينـة وأنـزلت رايـات الدولـة العثمانيـة من القصــبة والأبــراج وارتفعت رايــات فرنســا عليهــا وتفــرقت الجنــود الفرنسـاوية في البلـد وتم اسـتيلا فرنسـا على مدينـة الجزائـر وبلغـوا أمنيتهم التي كانوا يتمنون الحصول عليها منذ سـنين عديـدة غـير مبـالين بوفاء المعاهدة ولا ملتفتين للقيـام بأعبـاء المعاقـدة وانقرضـت الحومـة الجزائرية وانتثر سلكها وكانت مدتها فيها ثلاثمائـة وخمسـاً وثلاثين عشـر يوماً ولله عاقبة الأمور وبعـد اسـتقرار العسـاكر الفرنسـاوية ي المدينـة انتقل الباشا وأرباب الحكومة إلى خارج البلد وخلفهم فيها رؤساء الجنود الفرنساوية وشاع أمر الجزائر فاهتزت له المشارق والمغارب وعد عنــد المسلمين من اظم النواب ولو كانت حكومـة الجزائـر مسـتعدة لحمايـة حوزه بلادها آخـذة بالحـذر من مباغتـة العـدو اهـا وكـانت جنودهـا كاملـة الاسـتعداد متمرنـة على الحـروب عالمـة بطرقهـا مـا وصـل عـدوها إلى مرغوبـه منهـا في اقـرب مـدة وعلى ايسـر وجـه ولكن اسـتيلاء الكـبر والعجب والتعاظم على رجالها مع ما بلغوه من البذخ والترف اداهم إلى إهمال الأمور وعدم الاكتراث بها كمـا وقـع بالأنـدلس ليقضـي اللـه أمـرا كان مفعولا .^

ذكر أخبار الفرنسيس بعد استيلائهم على الجزائر

أول ما ابتدأ به قائد الجنود الفرنساوية في الجزائر رتب مجلساً من رؤساء الجنود لضبط خزائنها من الأمـوال والجـواهر والمهمـات الحربيـة والذخائر فتحصل من ضبطهم على ما قيـل من الـذهب والفضـة وقيمـة الجواهر ثمانية وأربعون مليوناً وسـتمائة ألـف وثمـانون ألفـا وخمسـمائة وسبعة وعشرون فرنكاً ومن الصوف والحنطة والشـعير وغيرهـا مـا بلـغ

قيمة ثلاثة ملايين من الفرنك ومن المدافع والبنادق والبـارود والرصـاص والقنابل وغيرها من آلات الحـرب من ثمن الأملاك الأميريـة داخـل البلـد وخارجها ما قيمتـه خمسـون مليونـاً من الفرنـك حمـل الباشـا مـع أهلـه واتباعـــه إلى نـــابولي بطلب منـــه فأقـــام منهـــا إلى الكورنـــة ثم إلى الإسـكندرية ولمـا وصـلها احتفـل بـه محمـد علي باشـا واطلعـه على المهمات الحربية وغيرها وصنع له مأدبـة حضـرها الأعيـان وأكـابر البلـدة وفي أثناء الطعام أثنى حسين باشا على الخديوي ومـدح أعمالـه وهمتـه في إعمار مصر وترقيها فأجابه الخديوي بقوله يا حضرة الباشا أن جميـع ما رايته واستحسنته كان منشؤه من أكل الفول وكان ذلك منه تذكاراً له فيما سلف من الجواب عند قراءة الكتـاب فتمغص حسـين باشـا وتوجـه لمحله متألماً وبعد أيام قليلـة تـوفي سـنة أربـع خمسـين ومـائتين وألـف هجرية ولما كثر الهرج بين الانكشارية والجيش الجزائـري جمعهم القائـد العمومي وحمـل أكـثرهم إلى نـواحي ازمـير ورخص منهم الأغنيـاء منهم لإقامـة بـالجزائر ريثمـا يـبيعون عقـاراتهم وأمتعتهم وبعـد فـراغهم من أشغالهم حملهم إلى جهات مختلفة ودوّن وجنـد من أهـل المدينـة جنـداً بلدياً وبنى قواعد حكومتهم في الجزائر على إظهار الهيبة ومراعاة أمـور الشـريعة الإسـلامية واحـترام المسـاجد وتظيم العلمـاء وحريـة العوائـد وتلطف ما شاء في إمالة القلـوب إليهم وبـذل الأمـوال ترغيبـاً حين يلين إليهم القـويُّ وظن أن سياسـته هـذه كافيـة في الاسـتيلاء على سـائر المغرب الأوسط ولم يعلم أن دون ما أيراد خـرط القتـاد وقـد ظهـر لهم بعد حين أن في عين اليقين حروباً يشيب لها الوليد ويضعف لديها القوي الشديد إلى أن نالوا غايـة مطلـوبهم على نهايـة مرغـوبهم وذلـك القـدير العزيـز العليم . ذكـر خـروج الماريشـال بورمـون إلى البليـدة ورجوعـه مهزوماً وما جرى بعد ذلك من الحوادث

بعد أن أتم القائد العمومي أشغاله الابتدائية في الجزائر خارج منهـا ثـالث صـفر سـنة سـت وأربعين ومـائتين وألـف الموافـق للخـامس والعشرين من يوليه في طائفة من الجند إلى البليـد فتلقـاه أهلهـا وأدوا طاعتهم ودخل البلد وكان أبو مرزاك التركي حاكم تبطري قد دعاه إليها ووعده بطاعة أهـل تلـك النـواحي ولمـا شـاع الخـبر تـداعى النـاس إلى الجهاد ونادوا به في جبال متجه القريبة من البليدة فهرعوا إليها وصمدوا للمهاجمة وفي غلس اليوم الثالث من دخـول القائـد العمـومي اقتحمـوا البلد واستأصلوا اكثر الجند الفرنساوي وفر القائد فيمن افلت من الجنـد إلى الجزائر فدخلها على أسـوأ حـال وشـاع خـبر هـذه الواقعـة فأكبرهـا الناس واستخفوا أمـر الفرنسـيس وفسـدت قلـوب أهـل الجزائـر عليهم وضعف ما كان عندهم من الهيبـة لهم وانحـط قـدر القائـد بينهم وقـارن ذلك الاضطراب الواقع في الجزائر بين الجنود البرية والبحرية في دعوى التغلب على الجزائـر فكـل فريـق ادعى ذلـك واتصـل بهم أن الأمـة في فرنسـا ثـاروا على الملـك وخلعـوه وأبـدلت الدولـة الملكيـة بالدولـة الجمهورية وكان القائد من حزب الملكية فأيقن بالعزل وبعد أيـام حضـر الأمر بعزله وتعيين الجنرال كلوزيل حاكم على الجزائر وبحضـوره باشـر الأحكـام وسـافر الماريشـال بورمـون إلى مالقـة من بلاد الأنـدلس مستصحبا قلب ولده المقتول في معركـة سـيدي خلـف بـالجزائر ثم أن الجنرال كلوزيـل طمحت عينـه إلى الاسـتيلاء على أمصـار القطـر فبعث إلى حاكم وهران وحاكم قسنطينة يدعوها لطاعة دولتـه فأجابـه صـاحب وهـران إلى ذلـك واخـذ أهلهـا في الخـروج منهـا إلى تلمسـان ومعسـكر وغيرها ولم يتخلف فيها إلا الحاكم حسين باي وجنده وطير خبره بالإجابة على أن يؤمنـه الجـنرال كلوزيـل على نفسـه وأهلـه ومن معـه فأسـعفه الجنرال بذلك وسـير ولـده الأكـبر في عـدة مـراكب حربيـة إليـه فـدخل وهران واستلم زمامهـا من يـد حسـين بـاي في تاسـع رجب سـنة سـت

وأربعين ومائتين الموافق خمسة وعشرين دسمبر سنة ثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية وذلك بعد ستة اشهر من دخول الجزائر ثم لحق حسين باي ومن معه بالجزائر وعومل به حسين باشا ولما بلغ احمد باي حاكم بسكره أمر الجزائر جمع الجيوش وزحف إلى قسنطينة حاضرة الولاية فخرج إليه حاكمها محمود باي ابن جافر باي فدافعه عنها إلى ان وقع الخلل في جيشه وتفرق عنه ودخل احمد باي إلى الحاضرة وفر محمود إلى جبال البربر فاغتاله بعضهم وساق رأسه إلى احمد باي ثم وصله رسول الجنرال بكتابه يدعوه إلى طاعة فرنسا فقتله ومزق الكتاب فاستشاظ الجنرال غيظا وأرسل الكونت دي مريمون في الأسطول إلى بونة وكان عاملها من قبل احمد باي قد نفرت من ظلمه قلوب أهلها فلما اطل عليهم أسطول فرنسا اظهروا له إشارة السلم وفر العامل ومن كان معه من الحامية ولحق الجميع قسنطينة وتقدم دي مريمون إلى البلد فاستولى عليها وقبل الاستيلاء على وهران وبونة انقض أبو مزراك والي تيطري ونكث طاعة فرنسا وجاهر بالحرب فخرج إليه كلوزيل من الجزائر في الثامن عشر نوفمبر سنة ثلاثين وثمانمائة وألف وأقام أياما في البليدة ثم سار قاصدا المدية حضارة ولاية تيطرى وزحف إليه أبو مزراك في جموع العرب والبربر فالتقى الجمعان بثنية موازية واشتد القتال فانهزم أبو مزراك وجموعه واستمر كلوزيل سائرا إلى الحاضرة فدخلها في الثالث والعشرين منه وتلقاه أهلها مطيعين فولى عليهم مصطفى بن عمر وفي أثناء إقامته في المدية استامنه أبو مرزاك على نفسه فأمنه ولما حضر عنده اعتلقه وكر راجعاً به إلى الجزائر ومر في طريقة بالبليدة فوجد القبائل المجاورة لها قد دخلوها واستأصلوا الحامية الفرنساوية ونهبوا الذخيرة فاستمر سائرا على وجهه إلى الجزائر موقنا بأنه لا طاقة له على إذعان القبائل والشعوب الجزائرية وان جيوشه غير كافية في حملهم على الطاعة مع ما عليه فرنسا من

الارتباك واختلاف الكلمة بين الأحزاب الملكية والجمهورية فاستجلب دي مريمون وجنده من بونه لما علم ان و يجلب الناس إلى طاعة فرنسا إلا أمراء منهم أو من الأتراك فولى مصـطفى بن عمـر على مدينـة المديـة وبعث إلى صاحب تـونس حسـين باشـا من أولاد حسـين بن علي يطلب منـه بعض المترشـحين للولايـة من عـائلتهم فبعث إليـه من اختـاره من أقاربه فولاه على مدينة وهران في أوائل فبراير سنة إحـدى وثلاثين بعـد ان اشهد على نفسه انه فرنساوي وادي يمين الأمانة على ذلـك ثم اخـذ يدس إلى الأتراك القـانطين في مـدن الداخليـة كتلمسـان ومعسـكر أن الفرنسيين اجمعوا على ان يجعلوا في الجزائر حكومة تركية تكون تحت حمايتها وبعد تأسيس أمورها يتخلون عنها ويسلمون أمورهم إليهم وجعل توليته على وهران دليلا على صدق خـبره فركنـوا إلى قولـه وبعثـوا إليـه بطاعتهم سراً ثم فشا خبرهم وانتشر ذكـره فقطعت عليهم الأهـالي في كل جهة فاستأصلوا الكثير منهم واعتصم أتراك تلمسـان بقلعـة المشـور ثم عزل كلوزيـل عن سـخط من دولتـه ولحـق بفرنسـا وتـولى الجـنرال تريـزين وتعين الجـنرال بويـه حاكمـا على وهـران وبوصـوله إليهـا رجـع التونسي إلى أهله فعلم العرب أن إشـاعة التونسـي محض سياسـة من الفرنساويين لتفريق الاتحاد فكفوا عن الأتـراك وسـالموهم ورجـع الأمـر إلى ما كان عليـه من الاتحـاد وجمـع الكلمـة على الجهـاد وكـان ابن أبي مزراك بلغه ان كلوزيل اشـخص والـده إلى الإسـكندرية منفيـا فثـار في محله من تيطرى ودعا لناس إلى الجهاد وجمـع الجيـوش ونـازل المديـة وضيق على أهلها فطار الخبر إلى الجـنرال برتـزين فسـير جيشـا لإنقـاذ عاملهم مصطفى بن عمر فتعرض لهم ابن أبي مزراك بالقرب من البلد وناوشـهم القتـال ثم تمكنـوا من دخولهـا وانقلبـوا بعـاملهم وحـاميتهم راجعين إلى الجزائـر ولمـا احتلـوا بمضـايق جبـال موزايـه أحـاطت بهم جموع القبائل تحت راية ابن أبي مزراك والتحم الفريقان واستمر القتال

في حال سيرهم وأقامتهم إلى قرب الجزائر ووقـع الفشـل في عسـاكر فرنسا فقتل أكثرهم وانتهبت أثقـالهم ولم يصـل إلى الجزائـر إلا القليـل منهم ثم ارتـد ابن أبي مـزراك بجموعـه إلى المديـة فاسـتولى عليهـا واستمر فيها إلى أن استولى عليها سيدي الوالد رحمه الله وكـانت هـذه الواقعة نزلا للجنرال تريزين في داخليـة الجزائـر وفي تلـك الأيـام ظهـر الحاج علي بن السـعدي في جبـال زاوهـو دعـاهم إلى الجهـاد واجتمعت كلمتهم عليه وكان الجنرال برتزين بعد واقعة المدية جمع أعيان الجزائـر وارهم أن يختاروا منهم من يصلح للولاية على العرب والبربر في داخلية البلاد ويكون واسطة في ميلهم إلى طاعة فرنسـا فوقـع اختيـارهم على السيد علي مبارك لشهرته في تلك النـواحي فـولاه الجـنرال ولقبـه اغـة العرب على اصطلاح الحكومة الجزائرية فخـرج إلى قريتـه القليعـة على مسافة قريبة من الجزائر وبث رسـله في القبائـل يـدعوهم إلى الطاعـة وبينما هو كذلك إذ عصفت ريح ابن السـعدي وشـاع انحـداره من لجبـال زواوه إلى سهل متيجه فاضطرب أمر الاغا ولم يسعه إلا اتبـاع السـعدي فتوجه إليه بمن معه من القبائل واتخذها يدا عنده فاكرم نزلـه ثم زحـف ابن السـعدي بجموعـه إلى الجزائـر وخيم بـوادي الكرمـه على مسـافة ساعتين منها وعاث جيشه في أطرافهـا واضـطرب الجـنرال برتـزين ثم خرج بجنوده إليهم فأوقع بهم أولا ثم رجعت الكرة عليه فانزمت جيوشـه وارتدوا على أدبارهم واتبعهم المسلمون يقتلون وياسرون إلى أن دخلوا إلى المدينة وامتلأت أيدي الناس بالأسلاب والمهمات ورجعـوا إلى وادي الكرمة ثم زحفوا على المدينة ووصلوا إلى باب عزون أحد أبوابها فخـام الجنرال عن اللقاء فانقلبوا راجعين إلى اوطانهم تحت راية ابن السعدي ثم اخذ الجنرال تريزين يتلطف في اسـتمالة القبائـل بمـا أمكنـه واظهـر الإغضاء عما وقع منهم فجنحوا للمهادنة معـه وقـدموا الاغـا السـيد محي الـدين ابن السـيد علي مبـارك في عقـدها فـدخل الجزائـر وعقـدها مـع

الجنرال ثم رجع إلى القليعة وانفتحت أبواب الجزائر للرواد والصادر من القبائل المجاورة لها ثم عزل الجنرال تريزين سنة سبع وأربعين ومائتين وألف هجرية واثنتين وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية وتـولى الجـنرال دي روفيفو واحضر معه ستة عشر ألـف جنـدي لـردع القبائـل وحملهم على الطاعة ولما علم أن هذه السياسة لا تجديه نفعا عدل عن التعسـف إلى التلطف وأقام مدة على ذلك ثم أن فرحات شيخ بلـد بسـكره ومـا يليهـا من ايالة قسنطينة اظلم الجو بينه وبين صـاحبها الحـاج احمـد بـاي نـنزع إلى الفرنسيس وأوفـد جماعـة من أقاربـه إلى الجـنرال الـدوك دوفيفـو فتلقاهم بـالإكرام وتقبـل طاعـة شـيخهم ثم انقلبـوا إلى شـيخهم بـأنواع الهدايا الثمينة ولما وصـلوا إلى طـرف سـهل متيجـة القض عليهم جيش من قبائل الجبل فاستفوا ما معهم وارتد الوفد راجعا إلى الجزائـر فعظم ذلك عند الجنرال ويع ان وقف على من فعل ذلك في أيام الهدنـة حملـة الغضب على الانتقـام منهم فـاغزاهم قائـد جيوشـه فصـبحهم وقتـل من لحق به منهم واخذ شيخهم أسيرا إلى الجزائر وبوصوله اشهروا قتله في السوق وشاع خبر هذه الواقعة فاستكبرها الناس وحسبوها نقضا للهدنـة من حاكم الجزائر فعادوا لما كانوا عليه من شـن الغـارات على ضـواحي الجزائر والتعرض للرواد إليها والصادر وتحرك ابن السعدي بعـد سـكونه ونادى في تلك الجهات بالجهـاد وقـامت الحـروب بين جمـوع المسـلمين وجيوش فرنسا ووقعت بينهم عدة وقائع كانت الحروب فيها سجالا ولمـا اسـتمر القتـل في أهـل متيجـه دخـل الكثـير منهم في طاعـة فرنسـا وارتحلـوا إلى قـرب الجزائـر وترفـع البـاقون إلى الجبـال واخـذ النـاس حـذرهم وعملـوا أن الفرنسـيس لا يكـترثون بنقض العهـود ولا يعـبئون بالوفاء بها وهذه الحوادث كلها في ايالة الجزائر وايالـة تيطى وأمـا ايالـة وهران فلم تنقطع الحروب فيها مع حكامها منـذ دخلهـا جيش فرنسـا ثم أن اغة العرب لما رأى أن الأمر تفاقم بين حاكم الجزائـر والقبائـل أهـل

داخليتها وعلم انه لا طاقة له بتلافي ذلك ارتحل من القليعة ولحق بجبال بني مناد ولم يزل مقيما بين ظهرانيهم إلى أن ظهـر أمـر سـيدي الوالـد في ايالة وهران وتمشت له الطاعة إلى ايالة تيطرى فبادر إلى الــدخول في طاعته وأما السيد الحاج علي بن السعدي فانه لما أحس من نفســه الكبر ولحقه الضعف والضجر ترك جبال زواوه ولحـق سـيدي الوالـد في معسكر ولم يزل مشتغلا بعبادة الله تعالى إلى أن قضى نحبه وفي اثني عشر مايو سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة عرض للجنرال الدوك دي روفيفو مرض الجاه إلى الرجوع إلى فرنسا وخلفـه الجـنرال افـيزار موقتـا وفي أيامه تشـكل القلم العـربي في دوائـر أقلام الحكومـة وتعين لـه الملازم لامورسير وكان يكتب الخط العربي ثم ترقى في المناصب إلى أن صـار جـنرالاً اشـتهر في وطن الجزائـر بـابي هـراوة وفي أول ابرايـل عـزل الجنرال افيزار وتـولى لجـنرال قـرارول وتمكن من مهادنـة القبائـل في ايالة الجزائر واستولى الفرنسيس على بسائط متيجة وسهولها وتوسعوا في مسـاحتها وقـد انتهى الكلام على الحـوادث الأوليـة للفرنسـيس في الجزائر .

ذكر حوادث المغرب الأوسط بعد تسلط الفرنسيس على مدينة الجزائر

اعلم أن الجزائـر لمـا دخلت في حـوزة الـدول لعليـة وانتظمت في سلك ممالكها أيام السـلطان الغـازي يـاووز سـليم خـان على يـد عـروج باربروس الأول وأخيه خير الدين باربروس الثاني أقـامت الحكومـة فيهـا لحماية البلاد وحفظ الحقوق العبـاد وجـرى حكمهـا حكم ممـاليـك الدولـة العلية لعهد لسلطان احمد خـان الثـالث وفيـه احسـت الحكومـة بـالقوة فاستبدت في أحكامها وقد كان نفوذهـا مـع اسـتبدادها قاصـراً لا يتعـدى

المدن والقرى وأما الجبال وظـواعن العـرب في الباديـة فـان لهم إدارة تخصهم موكول أمرها إلى زعائمهم ولما كانت الحكومة غير قـادرة على تنظيمهم في سـلك الطاعـة ألقت بينهم دسـائس العـداوة والبغضـاء فتفرقت كلمتهم وضعفت شوكتهم وبهـذا كـان اسـتحواذها عليهم وهـذه السياسة من اكبر الوسائل التي تتوصـل بهـا الأمـة القليلـة الأجنبيـة إلى الاستيلاء على الأمة الكثيرة الوطنية كما قيل فرق واحكم ولمـا اسـتولى الفرنسيس على مـدينتي الجزائـر ووهـران وتمكن منهمـا تفـرق النـاس فرقا وسلكوا من الخلاف طرقـا وفسـدت السـبل ولا غـرو فـان سـكانها عرب وبربر مختلفو الطبع والمحتـد ومن شـان أهـل الباديـة إثـارة الفتن ليتهيأ لهم ما اعتادوا عليه من الغـزو لتعيشـهم فـترى كـل فريـق يترصـد فرصة الوثوب على مقابلة لاسيما وقد كانت الحكومة الجزائرية أحكمت عرى هذه الضـغائن بينهم ولمـا آل الأمـر الي مـا آل إليـه ازداد هيجـانهم وسرى داعي الانتقام في نفوس العامة وصار كل من له ثار يحاول الأخذ به فطـوى لـذلك بسـاط الأمن ووقـف دولاب التجـارة وتعطلت الزراعـة فانتهز العدو الفرصة اكثر من شدة الغـارات على لضـواحي ولمـا اشـتد الأمر وكثر القتل وعظم الكرب تداعى أهل العقـد والحـل من الأشـراف والعلماء والأعيان للنظر في من اجتمعت فيـه شـروط الإمـارة ليبـايعوه فيجمع كلمتهم ويقوم بشؤونهم وحيث أن سيدي الجد كان ممن اجتمعت فيه الشروط على الوجه الأكمل وكان اعصف القوم ريحاً وأبعدهم صـينا وأنقذهم كلمة اجتمع الناس إليه وراودوه على الإمارة فاعتذر إليهم بكبر سنه فأوفدوا جماعة من أعيانهم إلى صـاحب المغـرب الأقصـى لاتصـال بلادهم ببلاده فـاكرم وفـادتهم وعقـد لابن عمـه علي بن سـليمان على إمارة المغرب الأوسط وبعثـه معهم فلقيـه النـاس بالطاعـة وأذعنـوا لـه وسارت خيله في البلاد إلى مليانه شرقا وبث العمال وجبي الأموال فلم يحل هذا الصنيع في نظر دولـة فرنسـا لمنافاتـه لمقصـودها ولم تتغافـل

عنه وبعثت إلى سفيرها بطنجة أن يقدم على الفور من قبلهـا التنبيهـات المشددة إلى سلطان المغرب وينذره بعداوة دولته ويتهدده بـالحرب إن لم يرفع ابن عمه عن البلاد فاخذ الرعب منه كل مـا اخـذ واسـترجع ابن عمـه بعـد أن قـام بتلمسـان نحـو السـتة اشـهر وتـرك أحـوال المغـرب الأوسط على ما أنت عليه من الاضطراب وتسلط الغوغاء فاجتمع أعيانه ورفعوا شيكاتهم إلى سيدي الجد مرة ثانية وألحوا عليه في قبول بيعتهم له على الإمارة والجهاد فـأبى قبـول الإمـارة وقبـل القيـام بـأمر الجهـاد فرضى القوم بذلك لمـا فيـه من تشـاغل الغوغـاء والسـفلة عن الفسـاد وأخذت الحشـود من ذلـك اليـوم تـرد على حضـرته في القيطينـة فكـان ينهض بهم إلى وهران فينازلهـا ويأخـذ بحقهـا وجـرت بينـه وبين حاكمهـا الجنرال بويه حروب ظهـر فيهـا اقـدم سـيدي الوالـد وشـجاعته وحسـن سياسته ما قيد الأبصار عليه ورشـحه للإمـارة وجعلـه حريـاً بهـا واسـتمر سيدي الجد مواظباً على الجهاد بعزم لا يرده راد ولا يصده عنه صاد ولـه فيه وقائع كثيرة أعظمها واقعتا خنـق النطـاح وواقعـة بـرج راس العين .

ذكر واقعة خنق النطاح الأولى

في أواخر ذي الحجة سنة سبع وأربعين ومائتين والتاسع والعشرين من مايه سنة اثنتين وثلاثين جهز سيدي الجد سرية عقد عليها للسيد عبد القادر بن زيان الزياني وبعثه لاستكشاف أحوال العدو بوهران فلما قرب منها تراى له العدو معسكرا في ساحتها بالموضع المعروف بخنق النطاح فأقام يراقب حركاته وطير الخبر إلى سيدي الجد فنهض من القيطينة وخيم بوادي سيك وأرسل في الجهات ينادي بالجهاد وبعد أن تلاحق الناس به سار بهم إلى ساحة وهران وخيم بالقرب من العدو وبات المسلمون يوقدون النار على التلال المطلة على البلد وفي صبيحتها زحف كل من الفريقين إلى الآخر ودارت بينهما رحى الحرب واشتد البأس وكثرت القتلى من الفريقين وكان سيدي الوالد بين الصفوف يحرض المسلمين على الثبات ويأمرهم بالتقدم فتحمل عليه أحد فرسان العدو برمحه فمرت في خلو الإبط الأيسر فشد عليها بعضده وهوى بسيفه على الفارس فقده نصفين ولما تولى النهار وقعت الهزيمة في عسكر الفرنسيس فولوا مدبرين واتبعهم المسلمون إلى الأبواب وامتلأت الأيدي من أسلابهم وذخائرهم وفي هذا اليوم طعن فرس سيدي الوالد وكان أشقر اللون ثمان طعنات بحربات العدو ثم رماه أحدهم بالرصاص في رأسه فوقع به ولم يبال بذلك بل استقل واقفا وثبت في مركزه إلى أن قدم إليه اتباعه غيره فركبه

واستمر على القتال إلى أن انتصر المسلمون على عدوهم وقد شار لذلك سيدي الوالد في مقصورته بقوله : وأشقر تحتي كلمته رماحهم ◈ مراراً ولم يشك الجوى بل وما التوى

ونص المقصورة

توسد بمهد الأمن قد مرت النوى ◈ وزال لغوب السير من مشهد الثوى
وعر جياداً جاد بالنفس كرهها ◈ وقد أشرفت مما دعاها إلى النوى
وكم جرت طلقاً بنا في غياهب ◈ وخاضت بحار الال من شدة الجوى
وكم من مفازات يضل بها القطا ◈ قطعت بها والذئب من هولها عوى
لذا قد غدت مثل القسي ضوامراً ◈ وتلك سهام للعدي وقعها شوى
إلى ان بدت نيران إعلامنا لها ◈ وما ضوء نيران الكرام له انزوا
ولا سيما أهل السيادة مثلنا ◈ بنو الشرف المحض المصون عن الهوى
فقالت أيا ابن الراشدي لك الهنا ◈ كفى فاترك التسيار واحمد وجى النوى
ألا يا ابن خلاد تطاولت للعلى ◈ وباينت مأواك الكريم وما حوى
فمن اجل ذا قد شد في ربعنا له ◈ عقالاً وناديا لك العز قد ثوى
وحل بكهف لا يرام جنابه ◈ فمن حل فيه مثل من حل في طوى
فإنا أكاليل الهداية والعلى ◈ ومن نشر علياهم ذوي المجد قد طوى
ونحن لنا دين ودنيا تجمعنا ◈ ولا فخر إلا مالنا يرفع اللوا
مناقب مختارية قادرية ◈ تسامت وعباسية مجدها احتوى
فان شئت علما تلقني خير عالم ◈ وفي الروع اخباري غدت توهن القوى
لنا سفن بحر الحديث به جرت ◈ وخاضت فطاب الورد ممن به ارتوى
وان رمت فقه الاسجي فعج على ◈ مجالسنا تشهد لداء العنا دوا
وان شئت نحوا فانحنا تلق ماله ◈ غدا يذعن البصري زهداً بما روى
وأنا سقينا البيض في كل معرك ◈ دماء العدى والسمر اسعرت الجوى
ألم تر في خنق النطاح نطاحنا ◈ غداة التقيناكم شجاع لها لوى
وكم هامة ذاك النهار قددتها ◈ بحد حسامي والقنا طعنه شوى
وأشقر تحتي كلمته رماحهم ◈ مراراً ولم يشك الجوى بل وما التوى
بيوم قضا نحبا أخي فارتقى إلى ◈ جنان له فيها نبي الرضى اوى
فما ارتد من واقع السهام عنانه ◈ إلى ان أتاه الفوز يرغم من عوى
ومن بينهم حملته حين قد قضى ◈ وكم رمية كالنجوم من افقه هوى
ويوم قضى تحتي جواد برمية ◈ وبي أحدقوا لولا أولو البأس والقوى
وأسيافنا قد جردت من جفونها ◈ وردت إليها بعد ورد لقد روى
ولما بدا قرني بيمناه حربة ◈ وكفى بها نار بها الكبش يشتوى
فأيقن إني قابض الروح فانكفأ ◈ يولى فوافاه حسامي مذ هوى
شددت عليهم شدة هاشمية ◈ وقد وردوا ورد المنايا على الغوى

نزلت ببرج العين نزلة ضيغم ◈ فزادوا بها حزناً وعمهم الجوى
وما زلت ارميهم بكل مهند ◈ وكل جواد همه الكر لا الشوى
وذا دابنا فيه الحياة لديننا ◈ وروح جهاد بعدما غصنه ذوى
جزى الله عنا كل شهم غدت به ◈ غريس لها فضل أتانا وما انزوى
فكم أضرموا نار الوغى بالظبي معي ◈ وصالوا وجالوا والقلوب لها اشتوا
وإنا بنو الحرب العوان بها لنا ◈ سرور إذا قامت وشأنئنا عوى
لذاك عروش الملك كانت خطيبتي ◈ كفجأة موسى بالنبوة في طوى
وقد علمتني خير كفوءٍ لوصلها ◈ وكم رد عنها خاطب بالهوى هوى
فواصلتها بكرا لدي تبرجت ◈ ولي أذعنت والمعتدي بالنوى ثوى
وقد سرت فيهم عمرية ◈ واسقيت ظاميها الهداية فارتوى
وإني لأرجو أن أكون أنا الذي ◈ ينير الدياجي بالسنا بعد مالوى
بجاه ختام المرسلين محمد ◈ اجل نبي كل مكرمة حوى
عليه صلاة الله ثم سلامه ◈ وال وصحب ما سرى الركب للوى
وما قال بعد السير والجد منشد ◈ توسد بمهد الأمن قد مرت النوى

وفي اليوم الثاني قفل سيدي الجد بجيوشـه إلى وادي سـيك وأقـام أيامـا ثم ارتحـل إلى القيطينـة وإذن للنـاس في الرجـوع إلى أوطـانهم ليستعدوا لمثلها . ذكر واقعة خنق النطاح الثانية

وبعد أن استرح الناس من الواقعـة الأولى اصـدر الأمـر بـالنفير إلى وهران وعقد سيدي الجـد اللـواء لسـيدي الوالـد وتخلـف وهـو لانحـراف صحته فنهض الوالد إلى وادي سيك وتلاحقت الجمـوع بـه ثم ارتحـل إلى عين الكرمة على مسـافة قريبـة من وهـران وكـان لجـنرال بويـه جـاءه المدد من فرنسا وبلغه خـبر الوالـد فضـرب معسـكره في خـنق النطـاح وقسم جنده ثلاث فرق فرقتين للكفاح وفرقة للمحاماة وأما الوالد فانـه ارتحل من عين الكرمة وعسكر بازاء العـدو وقسـم جنـوده خمس فـرق فرقتين للقتال وفرقتين للدفاع وفرقة جعلها كمينا وراء العـدو ثم زحـف إليه فالتقى الفريقان واظلم الجو بدخان البارود وعثـير النقـع فلم تطـل المدة حتى كانت الدبرة على العدو فانكسـرت ميمنتـه ووقعت الهزيمـة في القلب فولوا مدبرين يطلبون أبـواب البلـد فلقيهم الكمين واسـتلحم أكثرهم ودخل الجنرال بويه إلى البلد وغاولا في شر ذمة قليلة من جنده

وفي هذا اليوم استشهد السيد احمد ابن عمنا السيد محمد سعيد وهو ابن خمس عشرة سنة بعد أن ظهر من إقدامه وتحامله على صنوف العدو ما أوقف العقول وأدهشها وعندما وقع عن فرسه ميتا بين الصفوف هجم الوالد في طائفة من وجوه الأبطال جعلهم ردءًا له فخرق صفوف العدو واحتمل ابن أخيه من بينهم فعجب الأعداء لهذه لحملة واعتقدوا أن القتيل أمير فجمعوا حولهم وقوتهم على أن يمنعوا عنه الهاجمين ففشلوا وكان هذا الولد الشهيد من اعز أقارب الوالد إليه لحسن هديه ونجابته واستشهد في هذه الصدمة من الأعيان نحو المائة ومن الغد قفل الوالد بجيوشه المظفرة إلى حضرة سيدي الجد فأعطاهم الدستور إلى أوطانهم . ذكر واقعة برج راس العين

ولما انهزم الجنرال بويه واستلحم اكثر جنده بعث صريخه لى حاك الجزائر فأمده بالجند والذخيرة ثم ضرب معسكره فيما بين البلد وبرج راس العين في الجهة الغربية من وهران وبلغ الخبر إلى سيدي الجد فاخذ يتأهب للحرب وبعث أوامره إلى النواحي من غرب وبربر يدعوهم إلى الجهاد ويخبرهم أن العدو عسكر خارج وهران في غاية مما أمكنه من الاستعداد فجاء الناس إلى حضرته إرسال وانتهى إليه أن العدو عامل على مباغتته فبعث العيون يراقبون حركاته ثم خرج من ضرته القيطينة إلى وادي سيك حسب عادته وارتحل منه وعقد اللواء لسيدي الوالد فاصل سيره إلى أن طل على وهران جنوده وباتوا ليلتهم تلك يوقنون النيران في جميع أنحاء البلد معلنين بالتهليل والتكبير فسقط في يد الجنرال بويه وفاته ما كان أضمره من اخذ المسلمين بغتة ومن الغد عبي الوالد كتائبه وجعل كل قبيلة على حدتها وعين عليها قائدا منها وامر الجيوش بالزحف إلى العدو فتقدموا حتى انتهوا إلى البرج فانزل المشاة إلى الخندق المحيط به الممتد إلى البلد ورتب طائفة الفرسان لحماية المشاة من مهاجمة العدو وباقي الجموع حملت على معسكر

الجنرال وانتشبت الحرب واضـطرمت نارهـا واخـذ العـدو يرسـل قنابلـه على جيوش المسلمين كالمطر فلا يزيدهم ذلـك إلا شـدة تقـدماً واشـتد القتـال وجعـل الوالـد يـتردد بين المشـاة والفرسـان وسـائر صـفوف المسلمين يحرضهم على الثبات والصبر في مجال الموت ويذكرهم بأيام الله وبينما هو كذلك إذ عدا عليـه أحـد فرسـان العـدو بسـيفه فحـاد عن سـرجه فـوقعت الضـربة على الفـرس فوقـع ميتـا لحينـه فـركب غـيره واستمر على ما كان عليه من الحريض وبلغه أن المشاة فـرغت أيـديهم من الفشك فأسرع إليهم بما يكفيهم منه يومهم ذلك ولم يبال في ذهابه وإيابه بقنابل العدو المتصلة وصواعقه المتتابعة من الـبرج والبلـد وظهـر من شجاعته في ذلك اليوم ما اشتهر في أقطار المغرب واتصـل القتـال بين الفريقين إلى الليل فبات المسلمون في مراكزهم وانسل العدو ليلا فدخل البلد وانحجر فيها وأقام سيدي الوالد محاصراً لـه شـهراً كـاملاً ثم اقلع عنه لأمور عرضت له . ذكر البيعة الأولى لسيدي الوالد

لما طال على أهل الوطن الأمد وتوالى عليهم فيما بينهم الكرب والنكد وتسلط على بلادهم العدو ومنعهم القرار والهدو فتارة كانوا يدافعون عن البلاد وآونة كان يقع بينهم الفساد والحرب والجلاد وسطا القوي على الضعف وتطاول اللئيم على الشريف اجتمع الأشراف والعلماء واعيان القبائل من العرب والبربر وقدموا على حضرة سيدي الجد وألزموه أن يقبل بيعتهم على الإمارة لنفسه أو لولده سيدي الوالد وحاجوه في ذلك بما أعجزه عن الاعتذار فأمعن النظر في هذا الأمر فرأى أن الاهتمام به واجب وتعين عليه شرعا أن يقوم به لأنه مسموع الكلمة نافذ الأمر غير انه لما كان عاجز عن القيام بأعبائه ورأى أن ولده المنوه به قد بلغ اشده وارهف حده وترشح للإمارة وتأهل لها واستكملت فيه شروطها من الهدى وعلوّ الهمة وقوة الحواس وكمال الخلق وجمال الصورة وشرف النسب وعزة القوم والقوة والفتوة والعلم والحلم والحماسة والسماحة والعزم والحزم والتحفظ والتيقظ والارتقاء إلى غير ذلك من أفراد الفواضل والفضائل ومكارم الأخلاق ومحاسنها . لولا عجائب صنع

الله ما ثبتت ◈ تلك الفضائل في لحم ولا عصب

وعلم انه لا مندوحة له عن الإجابة والقبول أما لـه أو لولـده فحينئـذ استخار الله تعالى وقدم ولده للإمارة ومدافعة أهـل الشـرك متـوكلا في

نصره وتأييده على مالك الملك فذهبت البشائر بذلك في أقطار الــوطن وعمت أنحاءه وأحياءه وقبل سيدي الوالد ما انشرح إليه صدر والـده من إمارته قائلا أنالها أنالها فكان قبوله لهـا دليلا على إقبالهـا وتلقيهـا بحـول الله وقوته اصل استقبالها قد ادخرها الله لـه في الأزل وهيـأه ثم أبــرزه للقيام بها عند حلـول الأجـل وتباشـر النـاس لـذلك لمـا رأوا من إقدامـه للزحف واقتحامه الصف بعـد الصـف وشـاهدوا فيـه من الصـفات العليـة والنعوت لسنية فاجتمع أشرافهم وعلماؤهم وأعيانهم وتـداعى صـغيرهم وكبيرهم وخيموا بـوادي فروحـة من غـريس عنـد شـجرة الـدردارة وهي شجرة عظيمة كانوا يجتمعون إليها للشورى بينهم وجاء سيدي الجــد في بنيه وأقاربه وذويه ولما تلاحق الناس الذين يعتد بحضورهم للبيعة وجلس سيدي الوالد تحت شجرة قام والده فبايعه على لسمع والطاعة ودعا له ثم لقبه ناصر الدين وقام عمه سيدي الجد لامي السـيد علي أبي طـالب بايعـه وكـذلك الاخـوة وسـائر القرابـة ثم الأشـراف والعلمـاء والأعيـان والرؤساء على حسب مراتبهم وطبقاتهم بايعوه على ما بايعه عليه والده ولا يخفى ما في وقوع هذه البيعة تحت الشجرة من الاتفاق الغريب ومـا فيه من الإشارة إلى متابعة سيدنا رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم واقتفـاء أثـره في بيعـة الرضـوان الـتي نـوه اللـه تعـالى بـذكرها وعظم قدرتها في القرآن بقوله لقد رضى الله عن المؤمــنين إذ يبايعونــك تحت الشـجرة قـال المفسـرون هي شـجرة أم غيلان وكـان صـلى اللـه عليـه وسلم في غزوة الحديبية نـازلاً تحتهـا يسـتظل بهـا فبايعـه المـؤمن على الموت كما قاله سـلمة بن الاكـوع وأول من بايعـه على ذلـك أبـو سـنان الاسـدي رضـي اللـه عنـه وبـايع النـاس على بيعـة أبي سـنان روي ذلـك الطبراني عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وهذه البيعة كانت سـنة ست من الهجرة وبعد أن انتهت البيعة لسيدي الوالـد ركب سـيدي الجـد إلى مدينة معسكر حاضرة الإمارة ولما ان دخلها وجـد السـرور والبشـر

قد عم عامة أهلها وقد طلع على أهل الصلاح فجراً صادقاً وعلى أهل البغي والفساد نجما طارقا فتهلل وجه الصالحين وأيقنوا بصلاح الحال وتكدر عيش المفسدين وأيقنوا بالوبال في الحال وفي المال ثم اقبل الأمير بعده في جموعه وكانت زهاء عشرة آلاف فارس فبرز أهل البلد احتفالاً به واستقبلوه في الموضع بخصيبيه على مسافة نصف ساعة منها مظهرين للطاعة وشعائرها فاقبل عليهم يبشره وابتسامة قبل كلامه وبعد أن تناول من طعامهم الذي كانوا اعدوا لحضرته دعا لهم وحثهم على الطاعة والتزم الجماعة ثم ركب ليدخل البلد فأطلقت المدافع وغردت الموسيقات بما يطرب المسامع ونشرت الرايات والأعلام وبرزت المخدرات من القصور تثنى على الأيام فدخلها على احسن حال وأتم منوال ونزل في دار الحكومة فجلس على كرسيه ودخل عليه أهل البلد ومن لم يشهد بيعة غريس أفواجا لأداء البيعة ثم قام فدخل داره وخير والدتي فقال أن أردت أن تبقي معي من غير التفات إلى طلب حق فلك ذلك وان أبيت إلا أن تطلبي حقك فأمرك بيدك لأني قد تحملت ما يشغلني عنك ثم خرج إلى المسجد الجامع فصلى الظهر بالناس ثم خطب عليهم خطبة مبتكرة طويلة تحتوي على وعظ ووعد ووعيد وأمر ونهي وحث على الجهاد وبعد الانصراف منه انفرد أفاضل العلماء لتحرير صك البيعة فكتبه في مجلسهم العالم الجليل السيد محمد بن عبد القادر الشهير بابن آمنة خال الأمير ونصه بحروفه :بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد الذي لا نبي من بعده الحمد لله الذي جعل نصب الإمام من مهمات الدين لتصان به النفوس والأموال وتجتمع كلمة المسلمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين واله وأصحابه أجمعين وبعد فقد قال صلى الله عليه وسلم أن الله يحمي بالسلطان ما لا يحمي بالقرآن هذا في الزمان الذي فاض فيه العدل ونضب فيه الجهل فما بالك بزماننا الذي كثر فيه

الباطل وانتشر وخفي فيه الحق ولم يظهر لـه اثـر حـتى أن أعـداء اللـه الكافرين ملكوا كثيرا من بلاد الإسلام وتشتت الكلمة واختل النظـام ولم يجد الناس لقتالهم سبيلا ولا من يكون للجهاد دليلا فلجئوا إلى الله تعالى وسألوه أن ييسر لهم من يقوم بـأمر دينهم فمـا وجـدوا من لتفـق عليـه كلمـة أهـل الحـل والعقـد سـوى السـيد محي الـدين ابن مصـطفى بن المختار لكمالـه وكـثرة مـا عنـده من الأعـوان والأنصـار فطلبـوا منـه أن يبايعوه على السمع والطاعة فاعتذر إليهم بكبر سنه وبعـد زمـان طويـل تكرر فيه طلبهم مـرات ووقـع إلحـاحهم تـارات ورأى أم النظـر في هـذا الأمر قد تعين عليه واتاه بعض علماء غريس وهو من الصالحين فقال له أن أولياء الله تعالى قد اتنقوا على نصـب ولـدك عبـد القـادر لنصـر دين الله ورأى أن ولده مستعد أهذا الأمر فحينئذ وافقهم على نصبه ونصـرته لكونه ذا حزم وعزم وشجاعة وعقل سـليم وذات سـليمة صـالحاً لتنفيـذ الأحكام فاجتمع أهل الحل والعقد وبايعوه من غير طلب منـه الإمـارة ولا متابعة للناس بل بايعوه رغماً وطلبـوا والـده باللـه تعـالى وتوسـلوا إليـه برسول الله صلى الله عليه وسلم مدة تزيد على سـنتين فـوافقهم على بيعة ولده تطييباً لخـواطرهم ورعايـةً لرفـع الظلم على الضـعيف ودفعـاً للفساد والتعنيت فحضر للبيعة جميع أهل غريس الحشم شرقي وغــربي وعباســي وخالــدي وإبــراهيمي وحســاني وعــوفي وجعفــري وبــرجي وشقراني وغيهم كبني السيد دحووبـني السـيد احمـد بن علي وازلامطـة ومغراوه وخلويـه والمشـارف وكافـة وادي أهـل وادي الحمـام واعلنـول جميعا بطاعته ونصرته والرعايـة لـه بحيث انهم يحمونـه بمـا يحمـون بـه أنفسهم وأموالهم وان ينصـروه نصـراً مـؤزراً واتفـق علمـاء الإقليم على بيعته وطاعته ولم يخالف منهم أحد وهم في أحد وهم في حان طــوعهم واختيارهم وفرحوا به اشد الفرح نظرا لما كانوا عليه من الضيق والفرح وكل من سمع به من أهل الآفـاق يـزداد فيـه رغبـة وذلـك لعلمهم بقـوة

عقله وشدة نجدته وصلاح رأيه نعلى من بايع أن يبذل جهـده في نصـرته وعفـده لقـول الصـادق الأمين الـدين النصـيحة للـه ولرسـوله ولائمـة المسـلمين ومن نكث فإنمـا ينكث على نفسـه حضـر مـذكر من العلمـاء ولأشراف السيد الاعرج والسيد محمد بن حوّا بن يخلف واخوته والسـيد محمـد بن النعـالي والسـيد عبـد الـرحمن بن حسـين الـدحاوي واخوتـه والسيد محمد بن عبـد اللـه ابن الشـيخ المشـرفي وقرابتـه وكافـة أولاد السيد احمد بن علي حاصلة جميع علماء غريس وأشرافه وحضروا لهـذه البيعة الميمونة ورضوا بها وحضرها كاتبـه محمـد بن عبـد القـادر عاملـه الله بلطفه في الباطن والظاهر في الثـالث من رجب الفـرد سـنة ثمـان وأربعين ومائتين وألف هجريـة الموافـق للسـابع والعشـرين من نوفمـبر سنة اثنتين وثمانمائة وألـف ميلاديـة ثم كتب جماعـة من أعيـان العلمـاء المشاهير على هذا الصك ما يؤذن بحضورهم للبيعة وشـهادتهم بهـا على أنفسـكم وعلى سـائر من حضـرها فكتب العلامـة سـيدي الجـد للام عم الأمير شقيق والده السـيد علي بن طـالب بن مصـطفى بن المختـار مـا نصه الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله بعد انعقاد البيعـة للإمام المعظم والأمير الجليـل المفخم ابن أخينـا السـيد عبـد القـادر بن يحيى الدين أحيا الله بهما الدين وأعلنهما على القيام بـأمور أهلـه ودمـر بهما الكفرة أولي العناد واهلـك بسـطوتهما أهـل البغي والفسـاد بايعنـاه على السمع والطاعة وامتثال الأمر ولو في ولد الواحد منا أو نفسه وقـد منـا نفسـه على أنفسـنا وحقـه على حقوقنـا وأني واصـيه بتقـوى اللـه وطاعته في السر والعلانية والوقوف عند الحـدود الشـرعية وردّ مسـائل الشرع إليه وتشميرة من ساعد الجد في قطـع شـافة الشـياطين الأنس أهل الاذاية كالمحاربين وقطاع السبل وأهل الغيلة والسرقة وغيرهم من هذا القبيل ليتم بذلك أمره ويتضح به تأييده ونصره وتشرق شمس الحق على القلـوب لتطمئن بخدمتـه وطاعتـه الأفكـار ويسـارع المؤمنـون إلى

الانقياد وإذعان لتكليفـه وأوامـره اللهم إيـه وانصـره نصـراً تعزيـه الـدين والق التقوى في قلبه وقوة اليقين بجاه سيد الأوليين والآخرين واحي به ما دثر من أحكام الخلفاء الراشدين يا مالك الدين والدنيا والآخــرة وأدام سرورنا وسرور جميع أهل محبته ومحبتنا وأتمم لنا المقصود بمـا يتقطـع به قلب الجحود آمين كتبـه علي بن مصـطفى وكتب العلامـة السـيد ابن عبد الله بن الشـيخ المشـرفي مـا نصـه الحمـد اللـه على سـيدنا محمـد وعلى اله وصحبه وسلم بعد انعقاد البيعة للعـالم النبيـه الصـدر والوجيـه الناظم الناثر أبي محمد السيد عبد القادر ابن عقد الملـة والـدين شـيخنا السيد محي الدين ابن شمس الكمالي شيخ مشايخنا وأسـلافنا أبي عبـد الله السيد مصطفى بن المختار من أهل الحـل والعقـد والإمضـاء والـردّ ممن ذكر أعلاه واطلاعنا على ما اتفق عليه السواد الأعظم وبـه فـاه لم يسعنا إلا الموافقة عليه والجنوح لما استندوا إليه فالله يلهمه رشــده ولا يمنعه رفده وان ينصر به الدين الحنيفي ويطهـر بـه من أمـور كـل خفي وان يصلح به وعلى يديه وان يجنبه رأي المفسد والسفيه وأوصيه بتقوى الله في علانيته وسره ونجواه ولقد وصينا الذين أوتوا الكتـاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله قاله بفمه ورقمـه بقلمـه كاتبـه من عجـا القلب في وجل ابن عبد الله ابن الشـيخ المشـرفي الحسـني عفـا اللـه عنـه وكتب العلامة السيد احمد بن التهامي ما نصه الحمـد اللـه لمـا فتح للمسـلمين أبوابه ويسر للخير أسبابه بإجابة الولي الصالح والقطب السـالك النـاجح شـيخ أهـل الفضـل والـدين مولانـا السـيد محي الـدين لمـا طلبـه منـه المسلمين من تقـديم ابنـه الناسـك الأنجـد العلامـة الأسـعد على الايالـة الغربية وما تضاف إليها من الايالات فاجتمع من له اتصاف بالحل والعقد على نصرة السيد المذكور ومبايعته مـذعنين متلقين تلـك البيعـة بـالفرح والسرور نعقد له البيعة جميع من له دخـول في تـدبير الأمـور من عـالم ومقري وشريف ورئيس من أي ناحية من أهل الراشدية وغيرهـا فبـذلك

تبتت له البيعة الملكيـة على الخـاص والعـام يـأمر وينهي فلا يسـقط من أمره ونهيه أدنى شيٌ فعليه بتقوى الله فيمـا تـولاه وهـو ناصـره ومعينـه على ما أولاه من جملة مبايعية الفقير كاتبه احمـد بن التهـامي الحسـني وكتب العلامة الأوحد السيد محمد بن حـوّا الحمـد للـه وصـلى اللـه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ولما فسد الزمان وضـاقت بالمساكين الأركان من كثرة النهب وقلة الأمان ولم يجدوا من يلح بأمور المسلمين من الأعيان سوى من ذكر فاتفقت كلمـة المعتـبرين من أهـل الوطن على البيعة للسيد المذكور بالأعلى وأنـا عبـد اللـه من جملـة من اتفق معهم على ذلك فنسأل الله الغني الكـريم الوهـاب أن يسـدده في جميع أفعاله وان يمهد له ويصلح به الفساد ويهـدي لطاعتـه العبـاد كتبـه محمد ابن حوآ وكتب العلامة السيد بالمختار بن عبد الـرحمن بن روكش ما نصه الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وعلى ما تضمنته رسوم العلماء في بيعة الإمام المذكور وافق الموافقـة التامة كاتبه بالمختار ابن عبد الرحمن بن روكش وبعد أن تم أمره البيعة أمر الأمير يجلس العلمـاء أن يكتبـوا رؤوسـاء القبائـل في أطـراف البلاد بأمر البيعة وما وقع عليه وان يلحوا عليهم في الحضور لأداء بيعتهم كمـا أدّاها غيرهم فكتبوا ما نصه الحمد للـه على سـيدنا محمـد وآلـه وصـحيح وسـلم أمـا بعـد فـاعلموا معاشـر العـرب والـبربر أن الإمـارة الإسـلامية والقيام بشعائر الملة المحمدية قد آل أمرها الآن إلى ناصر الدين السـيد عبـد القـادر بن يحـيى الـدين وجـرت مبايعتـه على ذلـك من العلمـاء والأشراف والأعيان في معسـكر وصـار أمـيراً لنـا وتكفلاً بإقامـة الحـدود الشرعية وهـو لا يقتفي آثـار غـيره ولا يحـذو حـذوهم ولا يخصـص لذاتـه مصاريف زائدة على الحاجة كما كان الغير يفعله ولا يكلف الرعيـة شـيئاً أم تأمر به الشريعة المطهرة ولا يصرف شيئاً إلا بوجه الحـق وقـد نشـر راية الجهاد وشمر عن ساعد الجد لنفع العباد وعمـران البلاد فمن سـمع

النداء فعليه بالسعي لتقديم الطاعة وأداء البيعة لإمام منكم فاعلموا ذلك وبادروا لامتثاله ولا تشقوا العصا ويذهب بكم الخلاف إلى مالا خير لكم فيه الدنيا وأخرى حرر في معسكر من مجلس العلماء في الثالث من رجب سنة ثمان ولربعين ومائتين ألف وعلى نحو هذا صدرت أوامر الأمير إلى سائر القبائل العربية والبربرية ونصه الحمد لله إلى قبيلة كذا خصوصاً أشرافها وعلماؤها وأعيانها وفقكم الله وسدد أموركم وبعد فان أهل معسك وغريس الشرقي والغربي ومن جاورهم وتحد بهم قد اجمعوا على مبايعتي وبايعوني على أن أكون أميراً عليهم وعاهدوني على السمع والطاعة في اليسر والعسر وعلى بذل أنفسهم وأولادهم وأموالهم في إعلاء كلمة الله وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم كما إنني قبلت هذا المنصب مع عدم مياي إليه مؤملا أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين ورعف النزاع والخصام من بينهم وتأمين السبل ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة وحماية البلاد من العدو وإجراء الحق والعدل نحو القوي والضعيف فلذلك ندعوكم للتتحدوا واتفقوا جميعاً واعلموا أن غليتي القصوى اتحاد الملة المحمدية والقيام بالشعائر المحمدية وعلى الله اتكالي في ذلك كله فأحضروه لدينا لتظهروا خضوعكم وتؤدوا بيعتكم وفقكم الله وأرشدكم حرر عن أمر ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين من معسكر في الثالث من رجب سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف وفي السابع والعشرين من نوفمبر سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية . ذكر البيعة الثانية العامة

لما شاع أمر البيعة الأولى وذاع أقبلت الوفود تترى من القاصية إلى الحضرة العلية رغبة في الطاعة وامتثالاً للأوامر السامية المطاعة فاجتمع الطم والرم من جميع الآفاق ثم انعقد مجلس عام حضره الجمهور من الأشراف والعلماء والرؤساء من كل قبيل وفريق وجرى في عقد البيعة الثانية العامة بمحل العموم من قصر الإمارة وهذا نص

ما حرره العلامة الحجة الفهامـة السـيد محمـود بن حـوا المجـاهري في ذلك اليوم وقرآه على رؤوس الأشهاد بسم الله الرحمن الـرحيم وصـلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي الطيب الكـريم وعلي آلـه وأصـحابه ذوي الفضل العظيم حمداً لمن فضل أمـة محمـد عليـه السـلام وخصـها بمزايـا لم يعطهـا أحـد من الأنـام وجعلهـا أمـة أخـرجت للنـاس يـأمرون بالمعروف وينهون عن المنكرات والأرجاس هداهم بـه إلى مهي الرشـاد وطهرهم من عبادة الأوثان والأنداد والأضـداد وجعلهم الشـهداء على من سواهم من الأنام فشرف في ذلك أمرهم ورفع قدرهم وجعل إجمـاعهم وسـبيلهم أقـوم محجـة وأوجب عليهم نصـب أمـام عـدل وفـرض عليهم اتباعه في القول والفعل ليكف الظالم وينصر المظلـوم ويجمـع شـملهم وبالخصـوص والعمـوم ويكـافح بهم عـدو الـدين لتكـون العليـا كلمـة المسلمين وصلاة وسلاماً علي من صدع بالحق ودعـا الخلـق إلى القـول بالصدق وجاهد في الله حق جهاده حتى استقام المعوج وآب عن فساده سيدنا ومولانا محمد اشرف رسول واكرم وشافع مقبول صاحب المقـام والحوض المورود وعلى آله وأصحابه أهل وداده وسـيوف جلاده . الـذين بذلوا أنفسـهم وأمـوالهم في طاعتـه ونصـرته وأوضـحوا شـريعته وبينـوا طريقته فحازوا بذلك أسنى المـراتب ونـالوا الـدرجات العلى والمناصـب فلام نجـوم الاهتـداء ومصـابيح الإقتـداء هـذا ولمـا انقرضـت الحكومـة الجزائريـة من سـائر المغـرب الأوسـط واسـتولى العـدو على مـدينتي الجزائر وهران أعادهما الله دار الإيمان وإسلام بجاه النبي عليـه السـلام وأمحت نفسـه العاتيـة على الاسـتيلاء على السـهول والجبـال والفدافـد والتلال وصار الناس في هرج ومرج وحيص وبيص لا نـاهي عن منكـر ولا من يعظ ويزجر قام من وفقهم الله للهدايـة وظهـرت عليهم العنايـة من رؤوساء القبائل وكبرائهـا وصـناديها وزعمائهـا فتفوضـوا في نصـب إمـام يبايعونه على الكتاب والسنة ويسمعون لأمره ونهيه ويتابعونـه في جميـع

أحواله وجالوا في ميدان أفكارهم فيمن هـو لـذلك أهـل من ذي الكمـال والفضل فلم يجدوا المنصب الجليا إلا ذا النسب الطاهر والكمـال البـاهر رأس الملو والدين وقامع أعداء اللـه الكـافرين أبـا المكـارم السـيد عبـد القادر ابن مولانا السيد محي الدين أيد اله به الإسلام والمسـلمين واحي به نا اندرس من معالم الدين فبايعوه على كتاب الله العظيم وسنه نبيــه الكريم ان الذين يبايعونك إنما يبايعون اله يد الله فوق ليديهم تم قـدمت على حضـرته الوفـود من سـائر الجهـات والحـود فبايعـه أولهم وآخـرهم وشريفهم ومشرفهم كبيرهم وصغيرهم بيعة تامة كاماة عامة بيعة سـمع وطاعة أفراد وجماعـة بيعـة عـز وتعظيم وتبجيـل وتكـريم يعـز اللـه بهـا الإسلام ويخذل بها الفجار اللئـام ويمنعـون عنـه السـوء بمـا يمنعـون بـه أنفسهم وأولادهم وأموالهم ويبـذلون في مرضـاته أرواحهم وأكبـادهم أن أرهم سمعوا وان نهاهم خشعوا واخضعوا يطيعونه ما ساسهم بالشـريعة الغـراء وينصـرونه في السـراء والضـراء وفي بيعتـه نـال مسـرته وألقى مضرته ولاقى مبرته ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وخسر في يومــه وأمسه الله المسئول في هداية الخلق إلى طريق الحق والرأفة والرفق ولما ازدهت هذه البيعة بكمالها وطرزت بجلاهـا وجمالهـا كمـل سـرورها وتمت بدورها بوزارة أبي المحاسن السيد العربي أقام الله به أمـر هـذه الدولة السنية وإمامة البهيـة وممن حضـر هـذه البيعـة وبـايع وسـمع لهـا وتابع من القبائل الشرقية والأحيـاء الغربيـة الـوزير المـذكور وبنـو عمـه وسائر العلماء والأعيان من معسكر وقلعة هوارة وأحوازها كبني شقران وبني غدوا وسجراره وقبائل غريس وإحيائه وغمـائره وعشـائره واعيـان القبائل الشـرقية كالعطـاف وسـنجاس وبـني القصـير ومـرابطي بحاجـة وصبيح وبني خويدم وبني العباس وعكرمة والمحـال وفليتـه والمكاحليـة وأحلافهم واعيـان مجـاهر والبرجيـه والـدوائر والزمالـة والغرابـة وكافـة قبائل اليعقوبية من الجعافرة والحساسـنة وبـني خالـد وبـني إبـراهيم ثم

القبائل القبلية كأولاد شريف وأولاد الاكرد وصدامة وخلافة وغيرهم ممن يطول ذكـرهم من قبائـل المغـرب الأوسـط وعمـائره سـهله ووعـره ثم الكل بايعوا عن أنفسهم وعن قبائلهم بالأذن العان من الخواص والعــوام وقعت هذه البيعـة العامـة في ثلاثـة عشـر رمضـان سـنة ثمـان وأربعين ومائتين وألف وفي الرابع من فبراير سـنة ثلاث وثلاثين وثمانمائـة كتّبهـا خادم الشريعة السحاء محمد الشهير بابن حوا ثم بعـد الفـراغ من كتابـة صك هذه البيعة وقراءته على العموم وجلس الأمير الوفود واقبـل عليهم ونظر بعين الرضا والقبـول وقبـل منهم مـا قـدموه لأعتابـه السـامية من عتاق الخيل والسروج المنقلة والأسلحة الفاخرة وغيرها من أنواع الهدايا النفيســة جريــاً على عوائــدهم من الملــوك قبلــه وخطب عليهم بمــا انشرحت له صدورهم وتضاعفت به سرورهم ثم خلع عليهم وفرق فبهم الأموال وبالغ في إكرام كرمـائهم واسـتمال قلـوب لؤمـائهم واظهـر لهم من أنواع اللطف ولين الجانب ما اخذ بأسماعهم وأبصـارهم ثم صـرفهم إلى أوطانهم فرحين بم آتاهم الله من فضـله . ذكـر تنظيم هيئـة الدولـة ورسوم الملك

لما تمت بيعة الأمير واسـتقام لـه الأمـر اتخـذ الآلـة ورتب الحاشـية وعين الرجـال لدولـة فاسـتوزر محمـد ابن العريـبي واسـتكتب ابن عنـه السـيد احمـد بن علي ابن طـالب والسـيد الحـاج مصـطفى بن التهـامي والسيد الحاج محمـد الخـروبي وعين لحجابتـه محمـد بن علي الرحـاوي وولى الحاج الجيلاني ابن فريحة ناظر خزينة المملكة ومحمــد ابن فاخــة ناظر الخزينة الخاصة والحاج الطاهر أو زيد ناظراً على الأوقاف والســيد الحــاج الجيلاني العلــوي مــأموراً على الأعشــار والزكـاة بأنواعهـا وعين لنظارة الأمور الخارجية الحاج الميلود بن عـراش ونظم الحاشـية وأقـام كل فرد منها في مقام يخصه ورسم له أثرا يقصه وبث العمال والقضــاة في سائر الجهات ورتب مجلساً للشورى يشتمل على أحد عشــر عضــوا

من أجلة العلماء وجعل رآسته للعلامـة قاضـي القضـاة السـيد احمـد بن الهاشمي المراحي ودون الدواوين وطفـق يـرد على النـاس مـا اختلسـه بعضهم من بعض وينصفهم مما وقع بينهم من أنواع المظـالم والتعـديات أيـام الفتنـة ويهـدم مـا كـانت الحكومـة الجزائريـة أسسـه من المغـارم والضرائب والعوائد فطار بذلك ذكره وانتشر في المغرب الأوسط أمـره واختار الأمير مدينة معسك لإقامته تأنيسا لأهل غريس وتطيبـا لنفوسـهم لأنهم كانوا دعاة هذه الإمارة وكانت منها حركته ونهضته ويهـا أولاً قـراره وبأنجادها كما أمره واينع اسه وعراره . ذكـر خـروج الأمـير لتمهيـد البلاد وما جرى بعد ذلك من الحوادث

بعـد أن فـرغ الأمـير من شـؤونه ورسـوم ملكـه نهض من ضـرته معسكر قي شوال سنة مائتين وثمانيـة وأربعين وفي فـبراير سـنة ألـف وثمانمائة واثنين وثلاثين ليختـبر الأحـوال ويتفقـد الأعمـال ويجمـع شـمل الأقوال بالأفعال ويقيم من تخلف عن البيعـة على الطاعـة ويحملـه على سلوك سبيل الجماعـة والـوطن إذ ذاك قـريب العهـد اعـد جـده واشـهر سـيف الحـق وانتضـاه من غمـده ودوخ بلاد الـبربر وزناتـه وجـال في مواطنهم وضبط الأمور وجبى الأمـوال وعنـا وعـاقب وشـافه وكـاتب ثم انتقل راجعاً على الساحل يتوخى الثغـور فـانتهى إلى مرفـأ ارزيـو وكـان قاضيها احمد بن طاهر يراجع حـاكم وهـران ويـدعوه إلى الاسـتيلاء على المرسي المذكور فقبض عليه الأمير وأشخصه إلى معسكر فاعتقلـه بهـا واقبل على شأنه من ضبط الثغور وتنقينها فرتب الحامية وقـرر ذخائرهـا ثم ارتحل إلى الحضرة . ذكر غزوة فليته وما اتصل بها من الحوادث

ان قبيلة فليته تشمل على بطون وعشـائر عديـدة من دأبهم سـلب النفـوس والأمـوال وقطـع السـابلة من عهـد الحكومـة الجزائريـة وبعـد انقراضها اشتد عدوانهم واتصل عيثهم آل الأمـر إلى الأمـير رفـع النـاس أمرهم إلى أعتابه وطلبوا منه أن يقطع شافة فسادهم فأجلبهم إلى ذلك

ونهض من الحضرة غب رجوعـه من ارزيـو ونـزل بالسـطحاء المعروفـة الآن بهبرة ومنها اغزا السير إليهم بمجموعة فصـحبهم واكتسـح أمـوالهم وشـتت شـملهم وجعلهم عـبرة لغـيرهم وبعـد الفـراغ من أمـرهم بلغـه انتفاض قبائل عكرمة وبني مديان فسار إليهم وراسلهم في الرجوع إلى الطاعة فلم يمتثلوا واظهروا الشقاق فأغار عليهم واسـتولى على جميـع موجـوداتهم واعظم النكايـة فيهم ثم اسـتلموا لـه فـأمنهم ورد عليهم أمـوالهم وولى عليهم عمـالاً وثـق بهم وقفـل راجعـاً وغب دخولـه إلى الحضرة بلغه أن حاكم وهران أغار على قرية الدية وهي في جنوب قلعة هوارة وأوقع بأهلهـا واخـذ عالمهـا السـيد قـدور الـدبي أسـيراً في أهلـه وولده فنهض من فوره وكان العـدو إلى وهـران مسـرعاً فأدركـه الأمـير في الدار البيضاء قرب البلد وحمل عليه وكان قد قدم الأسرى والأثقـال وصعفاء الجند إلى ناحية البلد واستمر يدافع عنهم إلى أن دخلوهـا وفلت الأمـير تـدارك الأمـر واستشـهد يومئـذ من أعيـان المسـلمين علي بن الحبيب الرحاوي والميلود المغراوي في آخرين وأما العـدو فكـان يحمـل قتلاه فلم يعلم عددهم وهذه أول غزوة للعـدو وعلى داخليـة بلاد وهـران فعظم ذلك المسلمين واخـذوا حـذرهم منـه وعين الأمـير قبيلـة الغرابـة لمراقبته وسد الطرق عنه ومنع مواصـلة أوغـاد النـاس لـه وبعـد أن تب العيون ممن يوثق بدينهم رجـع إلى معسـكر ثم جـرر جيشـاً من الحشـم والدوائر واغزاهم إلى وهران فعاثوا في نواحيها واثخنـوا وسـبوا وغنمـوا وفي أثناء ذلك وقع تهاوش بين قبائل البربر في نواحي نهر مينـه أفضـى بهم إلى القتال فطار الخبر إلى الأمير فعجل بالسير إليهم واصلح شأنهم وجمع كلمتهم وبالغ في عقوبة من آثار الفتنة واسـعرها وكتب على عقـد الصلح بينهم ما نصه قد أمضينا بحول الله وقوته الصلح المبرم بين فلان وبني فلان بعد ما مرنا به ومحونا اثر ما كان بينهم من بقايا حمية جاهلية والزمنا كل فريق منهم أن يقف عند حده وان يرفعـوا جميـع مـا يعـرض

أهم من دعاوى والقضـايا إلى من ولينـاه أمـرهم حسـبما حـرّر ذلـك في الأصل وأوجبنا العما بمقتضـاه ورتبنـا العقوبـة الشـديدة على من يتعـداه فمن سعى في نقضه أو تعر لإفسـاده كلـه أو بعضـه فقـد عـرض نفسـه لسخط الله تعالى وغضـبه وتلزمـه المجـازاة العنيفـة من جانبنـا العـالي بالله وعلى هذا النص أجرى الصلح بين أولاد الاكـرد وأولاد شـريف وبـني نسلم وغيرهم وارتفع النزاع بين سائر القبائل الشرقية ثم بلغـه انتقـاض ابن نوفة قائد الحضر في مدينة تلمسان فسار إليه من حينه حـتى انتهى إلى البلد وبعث إليه يعظـه ويـأمره بـالرجوع إلى الطاعـة ويعـده بـالعفو فأبى وتمادى على شأنه ثم جمع قوته وخرج لقتـال الأمـير وقـام الكـول اوغلان وهم الطائفـة الثانيـة من أهـل تلمسـان وقائـدهم ابن عـودة في داخلها مستمرين على الطاعة فلما خرج ابن نوفة وطائفتـه الحضـر من البلد للقتال انتهزوا الفرصة فيهم للعداوة القديمة بينهم فظاهروا الأمـير عليهم ووقع القتال داخل البلدة وخارجها ثم كانت الدبرة على ابن نوفـة وفرقتـه واسـتمر القتـل فيهم ونهبت أمـوالهم وعـاث الكـول اوغلان في منازلهم وفر ابن نوفة إلى ضريح الغوث سيدي ابن مدين رضى الله عنه في قرية العباد بتشديد الباء الموحدة ثم دخـل الأمـير إلى تلمسـان ومن الغد توجه إلى زيارة الغوث ووجد ابن نوفة متعلقا بأستار الضـريح لائـذاً به فأمنه وعفا عنه وتقبل فيئته واقره على قيادة طائفته ولم يزل الأمـير في تلمسـان ونواحيهـا إلى أن اصـلح خللهـا وابـرم الصـلح بين الحضـر والكول اوغلان وجمـع كلمتهم ثم رجـع إلى معسـكر وفي أثنـاء الطريـق بلغه خبر موت والده سيدي الجد رحمه اللـه في ثـالث ربيـع الأول سـنة تسـع وأربعين ومـائتين وألـف وعشـرين من يوليـه سـنة ثلاثـة وثلاثين وثمانمائة وألف وكان الفرنسيس ابتنوا حصنا على البحر في سـاحل بلاد مجاهر وشحنوه بالحامية والذخيرة وزعانف تلك الناحيـة يواصـلون أهلـه ويعـاملونهم بـالبيع والشـراء فلمـا آرب الأمـير من تلمسـان اجمـع على

النهوض إلى تلك الناحية فجمع شانه وأغزى السير أيها إلى ان قرب من الحصــن وكــان أهلــه يخرجــون كــل يــوم بماشــيتهم يطلبــون المــرعى مستعدين للدفاع فلما خرجوا تربص عليهم حتى اغلوا في الطلب ثم غار عليهم فثبتــوا ودافعــوا عن أنفســهم وهم راجعــون إلى الحصــن ولم ينج منهم إلا من دخلــه وغنم المســلمون جميــع مــا كــان معهم وكــان في المرسى عدة مراكب مشحونة بالذخائر فخاض الجيش إليها وغنمــوا مــا فيها وأقام الأمير أياما يرتب العيون على الحصن ويأمرهم بالتضييق على أهله وذعر من كان يواصلهم من أهل تلك النواحي ثم رجع إلى معســكر وطار خبر هذه الوقائع إلى حاكم الجزائر فـوجم لهـا وبعث الصـريخ إلى دولته فجهزوا الجيوش وأرسلوا معها ذخائر ومهمات كثيرة وفوضوا أمــر الحرب إليه وعزلوا الجنرال بويه حاكم وهران وولوا مكانــه الجـنرال دي ميشيل فجاءها في رابـع ذي الحجـة سـنة تسـع وأربعين ومـائتين وألـف والخامس عشر من شهر أبريل سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وألف ووجـد وهران تحت الحصار مغلقة الأبواب وجيوش المسلمين تجول في أنحائها لا يفترون من مهاجمتها فضاق صدره لذلك وطفــق يلقى الدســائس في قلوب ضعفاء أهل الإيمان كالدوائر والزمالة ويعدهم ويمـنيهم فـاثر ذلـك فيهم وفتحوا له طريق المواصلة من جهتهم ثم ان الأمير بعد رجوعه من واقعة الحصن إلى معسكر اخـذ بهـا أهبـة الحـرب واسـتكمل اسـتعدادها وارتحل يريد وهـران وكـان العـدو ابتـنى في القـرب منهـا حصـنا يعـرف بغفور فلما وصل الأمـير خـرج الجـنرال دي ميشـيل في العسـاكر وكـان القائد عليها يومئـذ الجـنرال بـوبريص وتزاحـف الفريقـان فقسـم الأمـير جيوشه إلى فرقتين فرقـة تقاتـل بـوبريص والفرقـة الثانيـة جعلهـا تحت قيادته وزحف بها على حصن غفور ولمــا قــرب منــه ترجـل وتمشـى في مقدمــة الجيش وحمــل على الحصــن مــرتين فــامتنع علــه وانقلب إلى مظـاهرة الفرقـة المعينـة لقتـال بـوبريص فقـوى عـزمهم وثبت قلـوبهم

وحمل بالجميع عليـه فهزمـه وشـتت شـمله وولت عسـاكر فرنسـا على أدبارها يطلبون البلد ولحقهم المسلمون واثخنوا فيهم قتلاً وسـرا إلى ان امتنعوا عليهم بأسوارها وبعـد انصـراف الأمـير من القتـال بلغـه أن أهـل ارزيـو ركنـوا إلى الفرنسـيس بدسـائس قاضـيهم المعتقـل في معسـكر وأقاربه وانهم احضروا شر ذمة من عسكر وهران لمحايتهم ثم دس إليه رجل منها اسمه طوبال انه يخرج كل يوم مع ضـباط العسـكر في طلب الصيد وعين له المحل الذي يبتغونه فيه فركب الأمير في الحـال وخلـف جموع الغرابة ومن يليهم على حصار وهران وبعث الأسرى إلى معسـكر وأغزى السير إلى ارزيو وكمن في القرب من الموضع الذي عينه طوبال فلما خرج الضباط واتباعهم في معية طوبال فاجأهم الأمير بخيله وحـال بينهم وبين البلد فدافعوا عن أنفسهم واتهمـوا طوبـال في أمـرهم فعـدا عليـه أحـدهم بسـيفه وقتلـه ثم اظهـروا علامـة التسـليم والقـوا السـلاح فأمنهم الأمير وجعلهم تحت الحفظ وتقدم إلى البلد ففـرت حاميتهـا إلى المراكب وأقلعت بهم إلى وهران ودخل الأمـير فقبض على من تـوجهت عليه التهمة في مواطـاة حـاكم وهـران في هـذه القضـية واصـلح شـان البلدة وثقف أطرافها وانزل فيها حامية كافية وانتقل راجعـا أي الحضـرة فانزل الضباط في دار الضيافة وأمر بإكرامهم والقيـام بشـؤونهم وعقـد للقاضي احمد بن الطـاهر البطيـوي مجلسـا خاصـا من العلمـاء فـأمعنوا النظر في أمره وقامت البينة عليه فحكم المجلس بقتله فسملت عينـاه وقطعت يداه ورجلاه ووضع في حفرة في سـاحة الصـراية إلى ان مـات بعد ثلاثة أيام .^ ذكر

استيلاء الفرنسيس على مستغانم وخـروج الأمـير إلى قتـالهم وغـير ذلك من الحوادث

لمـا رأى الفرنسـيس أن الأمـير قـد اسـتقام أمـره وقـويت شـوكته وظهـر لهم منـه مـا لم يكن في حسـابهم تقلقلت أفكـارهم واضـطربت

آرائهم فمنهم من يقـول تـرك البلاد أولى ومنهم من يقـول الثبـات فيهـا أليق بالمقـام بين الـدول ثم قـر رأي الأكـثر منهم على مداومـة الحـرب وبذل الجهد في الاستيلاء على داخليـة البلاد وكـان حـاكم الجزائـر يرفـع إلى وزارة الحرب ما يحـدث من الوقـائع في وهـران ومـا هي عليـه من الحصار وضيق المجال مع قلة الجند والذخيرة فيبعثوا إليه بالمدد فقـوي عزمهم ودعته نفسه إلى الاستيلاء على مستغانم فتوجه إليهـا في فرقـة من الجند واستولى عليها وفر اكثر أهلهـا إلى الداخليـة وطـار الخـبر إلى الأمير فوجم لهـا وفـاوض رجـال دولتـه ومن حضـره من أعيـان القبائـل وذكر لهم تكلب العدو على الوطن واراهم كيف مـد يـده إليـه واسـتولى على سـواحله وقـال يوشـك ان تغافلنـا عنـه أن يختـل أمـر المسـلمين فامتعضوا لـذلك وتـدعوا إلى الجهـاد والـذب عن الـدين والـوطن فجمـع الأمـير الجيـوش واحتشـده عـرب المغـرب الأوسـط وبرابـرة ونهض من حضرته إلى مستغانم ونازلها وكان العدو عنـد دخولـه إليهـا جمـع الأيـدي على ترميم سورها وتثقيف أطرافها وابتـنى حصـنا خارجهـا ليسـتعين بـع الـدفاع ووضـع المـدافع في السـور والحصـن وبـالغ في تحصـينها ولأول نزول الأمير عليها بعث إلى أهلهـا في الخـروج منهـا فخـرج الجم الغفـير ولحقوا بالحضرة وتلمسان وغيرهـا من مـدن الداخليـة وقراهـا ولم يبـق فيها إلا من اختار مجاورة العدو من الكول اوغلان ثم أن الأمـير لمـا رأى امتناع البلـد وتحصـينها أمـر بإحضـار المعـاول والفـوس وغيرهـا من آلـة الهـدم والعـدو لمـا رأى الجيـوش الإسـلامية ملأت أنحـاء البلـد خـام عن اللقاء وانحجر داخلهـا ورتب عسـاكره داخـل السـور يقـاتلون منـه فـأمر الأمير بالهجوم فثار الغبـار وتزلـزلت الأرض برعـود البـارود وتـوالت كـل العدو وقنابله على المسلمين فلم يثنيهم ذلـك واسـتمروا على هجـومهم والأمـير أمـامهم إلى أن انتهـوا إلى السـور واخـذوا في هدمـه بـالمعول والفوس فلم تعمـل فيـه ولمـا أعجـزهم الأمـر ولم يتمكنـوا من عـدوهم

أمرهم بـالرجوع إلى مخيمهم وحفـر نفـق في الأرض من المعسـكر إلى السور وجمع الأيـدي عليـه ثم ملئـوه بالبـارود وأضـرموه نـارا ثم أمـرهم بالهجوم على السور ولما انتهوا إليـه وجـدوه قـد انفتحت فيـه كـوة غـير كافية لما قصد به من نقب السـور أو تضعضـه فعـدلوا إلى المـركب في المرسى وسجوا في البحر إليها واضعين أسلحتهم على رؤوسهم فألحت عليهم بالقنابل وظاهرتها حامية الحصن فارتدوا عنها ولما علم الأمـير أن العدو لا يخرج من البلـد ليناجزه الحـرب ارتحـل إلى ارزيـو وأخلاهـا من الحامية الإسلامية وعرض الهجرة على أهلها وانقلب راجعـا إلى حضـرته وخرج حاكم وهـران من مسـتغانم من بعـده إلى ارزيـو واسـتولى عليهـا ووضع فيها حامية وذخيرة واستمر ذاهبا إلى وهرن وكان بين دي ميشيل وقبيلتي الدوائر والزمالة مواصلة خفية العمل الحيلة ومد يده إليهم وهم في منازلهم من سهل اغبال فاخذ منهم رجالا ونسـاء في صـورة أسـرى ثم أرسـلوه في فـك أسـراهم فاشـترط عليهم الخضـوع لدولـة فرنسـا والسكني في مسركين من ضواحي وهران فأجابوه إلى ما اشترطه ورد عليهم أسراهم وظهر ما كان كامنا في صـدورهم واتخـذوا أمـر الأسـرى عذرا فيما قصدوه ثم اتصل الخـبر بـالأمير فعظم عنـده ذلـك ورأى أن لا سبيل إلى تـدارك أمـرهم إلا بالسياسـة الفعالـة فبعث إليهم من خاصـته من يتقـون بـه ويقبلـون نصـيحته فـوعظهم وحـذرهم من مكائـد العـدو وغوائله وأوقفهم على ما القوا به أنفسهم من مكـر اللـه تعـالى وغضـبه والخروج عن الدين الإسلامي الذي قام بنصرته وتأييده آباؤهم وافنوا فيه أنفسهم وأموالهم فاثر ذلك فيهم وأذعنوا له واعتـذروا بـأنهم لم يجنحـوا إلى العدو رغبـة عن دين الإسـلام ولكن للتوصـل إلى المعيشـة والراحـة مما لحقهم من معاناة الحروب ومقاساة الخطوب إلى غير ذلك ممـا لم يجعله الرسول عذراً لهم فيما ارتكبوه واستمر يـراودهم ويعظهم إلى أن أجابوه وأدلجوا في مسركين ورجعوا إلى بلادهم وارتاح الأمير إلى فئتهم

إلى الإسلام .وبقيت وهران على ما هي عليه من الحصار وقطع الطــرق عنها واستمر الأمير يبث السرايا والغوازي في نواحي الساحل فيسمونها خسفا ودمارا ويثخنون فيمن يصادفونه من أنصار العدو وأشـياعه بالقتـل والسبي وتارة يشن الغارات بنفسه على الخوارج عليه من قبائل الــبربر وغيرهم من ظواعن العرب وزناتة ويثخن فيهم حتى يذعنوا إلى الطاعــة ثم يعطف بعد ذلك إلى السواحل ويعظم النكايـة في العـدوّ ويرصـد من يتردد إليه من أوغاد الناس الذين لا دين لهم وجعل ذلك دأبه وديدنـه إلى أن ضاق الحال على الفرنسيس في تلك النـواحي وتـأخر عنهم إسـعاف دولتهم لما كانت عليه من الارتبـاك الـداخلي فجنح الجـنرال دي ميشـيل إلى السلم وطفـق ينظـر فيمـا يوصـله إلى مطلوبـة من غـير أن يلحقـه انحطـاط في منزلتـه عنـد دولتـه فتفـق أن محـافظي الغـور في جهـة مستغانم صادفوا رجلا من منتصري البرجيه راجعا من ارزيـو ومعـه نفـر من حاميتها يحرسونها إلى أن يبلغ مأمنـه فحملـوا عليهم وقتلـوا بعضـهم واستاقوا الآخـرين إلى معسـكر فارتـاح لهـا دي ميشـيل واتخـذها ذريعـة لمخاطبة الأمير وفي السابع عشر من جمادى الأولى سنة تسـع وأربعين ومائتين وألف وفي أول سبتمبر سنة ثلاثة وثلاثين وثمانمائة وألف خاطبه بتحرير يقول فيه . إلى سمو الأمـير عبـد القـادر أني لا أتـأخر عن كـوني أخاطب سموكم بشيء يجتني عليه بواعث الإنسانية وان لم تدعني إليــه وظيفتي وهو إطلاق سبيل النفر الذين بينما هم يحرسـون رجلا عربيـا إذ خــرج عليهم كمين من جيوشــكم فأخــذوهم أســرى ولا أظن أن قــرة شهامنكم نأبى هذا وتضع أمام طلبي شروطا لأنني كنت من قبل أخــذت بعض أسرى من عرب الغرابة والزمالـة في ميـدان الحـرب ثم أطلقتهم من غير شروط وبناء عليه تأمل ان سمو الأمير إذا كـان يـرغب أن يأخـذ من الاعتبــار قــدرا عظيمــا ان لا يطيــل المراجعــات وان ينعم بــإطلاق الأسرى فأجابه الأمير أن ما وقـع من الأسـر وسـفك الـدماء ويتم الأولاد

وتـأييم النســاء وســائر مــا حصــل من المصــائب والنــوائب العموميــة والخصوصية لا مسؤولية علينا فيه وإنما المسؤولية والعهـدة على القائـد الفرنساوي نوجم الجنرال وقواد العسكر لهذا الجواب وعجبوا من شــدة الأمير وجزالة جوابه قال شرشـل الإنكلـيزي في تاريخـه عنـد ذكـر هـذه القضية ان حضرة الأمير عبد القادر أجـاب الجـنرال دي ميشـيل بتحريـر يظهر منه دقة إنكاره وحسن سياسته حيث انه جعل العهـدة على القائـد الفرنساوي حتى أن الجنرال وان يكن تأثير بذلك لجـواب فانـه قـال بعـد أن أمعن النظر فيه شتان ما بين السياسة الفرنسـوية والأفكـار العربيـة ثم أن الجنرال كتب للأمير كتابا ثانيا ونصه من الجـنرال دي ميشـيل إلى الأمير عب القادر بن يحـيى الـدين لي أمـل بـان تطلـق الحريـة للأربعـة الأسرى التعيسي الحظ المحبوسـين في قلعـة معسـكر ومـا كنت أتـردد عن السعي لـديكم فيمـا تمنعـني وظيفـتي الرسـمية عنـه حيث تـدفعني الإنسـانية إليــه ولعلي أن البشــر الراقــدين إلى الــدرجات العليــا عليهم يمتازوا بأعمال كريمة دالة على التفاوت الذي وضعه اللــه بينهم فــارجوا الإفساح عن الفرنسويين الذين وقعـوا في شـر مكيـدة وهم في الـدفاع عن بعض العــرب لتخليصــهم من انتقــام أبنــاء جنســهم ولا أظن إنكم تضعون في طريق ذلك بعض العقبات لأنكم إذا رغبتم أن تعدوا من كبـار أهـل الأرض لا تتـأخرون عن إظهـار كـرم أخلاقكم وإذا دواعي الحــرب أوقعت بين يدي بعض اتباعكم فأنا أعدكم بإرجاعهم بدون عوض ثم كرر الطلب ثالثة بما نصه إلى الأمير عبد القادر بن يحيى الدين بمـا إنـني مـا أخذت جواب كتابي الذي أرسلته إليكم منذ شهر فاحب إلي القــول بأنــه لم يصلكم من إنكم لم تلتفتوا إلى قبول مطالبي وعليه جئت لثـالث مـر اكرر طلب فك الأسرى الفرنساويين الموجودين عندكم لأنهم لم يأخـذوا في ساحة الحـرب بـل سـقطوا بـأقبح خدعـة في اقبح مكيـدة وعلى أن أذكـركم أن فرنســا هي أقــوى دولــة في الــدنيا فليس من الحكمــة أن

تدوموا على خطة المقاومة فإذا كان اليوم في إمكاني أن انتصـر عليكم قبل وصول النجدات التي استنظرها فمـاذا تكـون حـالكم إذا فـرغ صـبر فرنسا نحو العرب وأرسلت مـا تهيئـه لي فعنـدها تهجم عليهم عسـاكرنا فتفـرقكم كمـا يبعـثر الهـوى الرمـال فـإذا رغبتم أن تبقـوا في مركـزكم السامي فما عليكم إلا إجابـة دعـوتي حـتى إذا أجرينـا المعاهـدات تبـادر القبائل إلى زرع حقولهم الخصبة غانمين ما يقدمه الشعب العظيم إليهم فجابه الأمير عبد القادر بن محيي الدين إلى الجنرال دي ميشيل أم بعــد فقد وصلنا كتابكم المتضمن افضل النصائح فقدرناها قدرها وعملنـا أنكم تحثونا في كتبكم الثلاث على الإفساح عن الأسـرى وتنـدبون حظكم مـع أننا نعتني بشأنهم غاية الاعتناء والإفساح عنهم ليس له أهمية لـدينا غـير أن الحالة التي نحن بها لا تسمح لنا أن نردهم بدون فديه فإذا رغبتم في الاتفاق اقبـل تسـليم الأسـرى إليكم عنـده المعاهـدة بيننـا على أن ديننـا يمنعنا من طلب الصلح ابتـداء ويسـمح لنـا بقبولـه إذا عـرض علينـا وان الثقة التي منحتمونا إياها في تحريركم حملتنا على أن نبدأكم بالمخــابرة وان المفاوضـة الـتي تطلبونهـا يقتضـي أن تكـون مبنيـة على شـروط محتومة منا ومنكم ولا يحصل الاتفـاق إلا إذا عرفتمـوني شـروطكم ومـا تطلبونه مني أنـا أعـرفكم بمثلهـا واللـه المعين وكيـف تفـاخروني بقـوة فرنسا ولا تقدرون القوة الإسلامية مع أن القرون الماضية اعـدل شـاهد على قوة الإسلام وانتصاراتهم على أعدائهم ونحن وان كنـا ضـعفاء على زعمكم فقوتنا بالله الذي لا آله إلا هو ولا شريك له ولا ندعي بان الظفـر مكتوب لنا دائما بل نعلم أن الحرب سجال يوم لنـا ويـوم علينـا عـبر أن الموت مسر لنا وليس لنا ثقة إلا بالله وحده لا شـريك لـه لا بعـدد وعـدد وان دوي الرصاص وصهيل الخيل في الحرب لآذاننا من الصـوت الـرخيم فإذا صممتم على عقد صـلات واديـة دائمـة بيننـا وبينكم فأفيـدونا حـتى نرسل إليكم رجلين من كبار قومنا مأذونين بالمفاوضة معكم وحينئـذ تتم

أمانيكم بمعونة الله ولا تظنـوا بأننـا ناسـف إذا اضـطررنا إلى تـرك البلاد لأننـا نعلم يقينـا أن الأرض للـه تعـالى يورثهـا من يشـاء من عبـاده وقـد سلمناه وارثتها فحيث ما كنا نجد أمننا وقد ظهـر لنـا من مضـمون كتبكم إنكم تحتقـرون قـوة العـرب مـع دوام اسـتعدادهم للقتـال ومسـابقتهم للنزالفي كل زمان ومكان وإذا فتحتم التواريخ تروا مـا اجـروه في آسـيا وجهات الشام من الجراءة والثبـات والإقـدام والفتوحـات الـتي أظهرهـا الله على أيديهم وإني اعتذر لعدم جوابي على كتابكم السابق بـاني كنت مشغولا في الوقت الذي استلمته وعنـدما كتبت الجـواب كـان رسـولكم ترك معسكر وتوجه لطرفكم وهـذه المراجعـات أوقفت الجـنرال وقـواد العسكر في ميدان عملوا منه انهم يخاطبون إماما عادلا وتعلقت آمـالهم بالوصول إلى مأمولهم وقال بعضهم عند ذكر تحرير الجنرال ما ملخصـه هذا المكتوب لم يكن لتحريره محل في مجال السياسة لان الحـرب بين الأمير عبد القادر والفرنساوية ما برحت قائمة على قدم وساق وبحسب أصـول الحـرب يحـق لهـذا الأمـير أن يحاصـر المـدن والقلاع الموجـودة بأيديهم وان يرصد سائر طرقاتهم ويمنع المواصلات التجارية وغيرها وان يجري القصاص على من يتعـرض لهـا ثم قـال فـانظر إلى هـذا الجـنرال الذي يدعي الفطنة والمعرفة بالنظامات الحربية كيف كبا بـه جـواده في ميدان سطور تحريره المذكور الذي لا يمكن تحريره إلا في حال السـلم ولذلك أجابه حضرة الأمير أخيراً . بعد التحية وصلني كتابك الذي أظهرت فيـه رغبتـك في الحصـول على إطلاق الأسـرى الـذين أوقعتهم الأقـدار الربانية بين يدي وقد فهمت جميع ما تضمنته رسائلك وما اشتملت عليـه من تكرار الطلب ومن المعلون عندكم أن جميع الأسـرى الـذين أوقعـوا في أيـدي عسـكركم في ميـادين الحـرب لم أتعـرض لكم ولا لمن كـان قبلكم في إطلاقهم ولا أتعبت أفكاركم بمراسلة قـط لان حكمهم عنـدي حكم الأموات وموتهم اعتبرها حياة لهم غير أني كنت أتألم عليهم شفقة

ورحمـة وقـولكم ان هـؤلاء الأسـرى الـذين تطلبـون سـراحهم مـا كـان خروجهم لأمر يتعلق بكم بل كانوا يحمـون عربيـا من انتقـام أبنـاء وطنـه فهذا لا اعتبره وسيلة لإطلاقهم فـان المحافـظ والمحافـظ عليـه كلاهمـا أعداء لنا وانتهاز الفرصة في الانتقام منهم غاية مقصودي وسائر العـرب الـذين عنـدكم أوغـاد وارذل يجهلـون واجبـاتهم الدينيـة هـذا وأني رايتـك تفتخر بأنك أطلقت الأسرى الغرابة والزمالة من غير شروط مع انـك لـو راجعت أفكارك لوجدت أن رحمتـك إنمـا كـانت لأنـاس اسـتظلوا بظلكم واسـتبقوا بحمـاكم يملئـون أسـواقكم ذخـائر ويكونـون عيونـا لكم على المسـلمين ويخـدمونكم بكمـال الصـدق ومـع ذلـك فـان عسـكركم قـد سلبوهم كل ما يملكونه فلـو كـان هـذا المعـروف الـذي تحججتم بـه مـع هؤلاء كالحشم وبني عامر مثلا لكان يحق لكم الافتخار وكنتم تسـتحقون الشـكر وعى كـل حـال فمـتى خـرجتم من وهـران على مسـافة يـوم أو يومين يظهر للعيان من يستحق الفخر منا .

قال المؤرخ الإنكليزي لو كان هذا الجـواب الكبريـائي في غـير تلـك الأيام لأهاج في صدر الجنرال الفرنسـاوي نـيران الحماسـة وحـرك منـه سواكن الجن وربما صاح بأعلى صوته وقال ابن العربي لمبـارز والبطـل المناجز ولكن الوقت لم يساعده وكـان دي ميشـيل لمـا ارتحـل الـدوائر والزمالة من جـواره ورجعـوا إلى بلادهم حفظهـا لهم فعنـد مـا خسـرت صفقته من مخاطبة الأمير ولم يحصل منها على طائـل غـزاهم وأخـذهم على غرة وطار الخبر إلى الأمير فأغزى السـير وواصـله وقطـع مسـافة خمسـين ميلاً في ثلاث سـاعات وكـان العـدو لكـثرة مـا في يـده من المسلوبات والأسـرى رجـع إلى وهـران على مهلـه فأدركـه الأمـير قبـل وصوله إليها وحمل عليـه حملـه شـتت بهـا شـمله وأوهى بهـا قوتـه ولم يسعه إلا الفرار فاتخذه وسيلة لنجاة وترك جميـع مـا اسـتولى عليـه من المسلوبات والأسرى في أيدي المسلمين كمـا انـه تـرك قتلاه في محـل

المعركـة ولحـق فلـه بـوهران ثم أن الأمـير ردّ على الـدوائر والزمالـة مسلوباتهم وأسراهم وأمرهم بالرحيل إلى تمزوغت في نواحي تلمسـان فارتحلوا في العشرين من رجب سنة تسع وأربعين والرابـع من دسـمبر سنة ثلاثة وثلاثين وثمانمائة بعـد هـذه الواقعـة انسـد بـاب المخـابرة بين الأمير وحاكم وهران فيما كان بصدده . ذكر رجـوع الجـنرال دي ميشـيل إلى المخابرة مع الأمير وإظهار رغبته في السلم

كان الجنرال دي ميشيل معرفا عنـد دولتـه بأنـه من رجـال الحـرب وأبطـال العين والضـرب فعزلـوا الجـنرال بويـة وولـوه مكانـه وبوصـوله أضرم نار الحرب وفتح باب الشدائد والخطوب فكانت الدبرة فيهـا عليـه ودام ويلها يصابحه ويماسيه ولم يزل على ذلـك إلى أن يئس من نجاحـه في أمره وعجز عن درك ما كان يؤملـه من فـوزه فرجـع القهقـرا واخـذ يدبر فيما يخلصه من ورطته ويكون وسيلة للوصول إلى رضاء دولته فلم يرى أوفق من وضع أوزار الحـرب والتملص من شـرك الشـدة والخطب ففتح لذلك بمراسلة الأمير باباً وهيـأ لهـا أسـباباً فحيـل بينـه وبين مـراده وعاد إلى مقارعته وجلاده ثم رأى أن دون فوزه خرط القتاد فعاد إلى ما عول عليه أولاً من قرع الباب ومعاطاة الأسباب قـال المـؤرخ الإنكلـيزي لما استعظم دي ميشيل جراءة عدوه الأسد الكاسر وسـرعة حركتـه في النواحي فكأنه في كل ناحية حاضر تبين له أن تدبيراته لم تنتج له الظفر بالآمال وتأسيسات أفكاره قـد اعتراهـا التلاشـي والاضـمحلال وان سـور الحصار قد حال بينه وبين الزاد وبلاء المجاعـة مـا بـرح ي شـدة وازديـاد وعجز عن المدافعة بعد بذل الجد والاجتهاد فلم ير احسن من الصـلح أو تخلية البلاد ثم فكر في أمره وأوفد على الأمـير مردخـاي الموسـوي في طلب الصلح واصحبه برسالة يقول فيهـا . إلى سـمو الأمـير عبـد القـادر حيث لا تجدني أيها الأمير غافلاً أبدا عن كل فعل حسن فـإذا حسـن فـإذا كان سموكم تريد أن نتخـابر في أمـر المعاهـدة فأنـا مسـتعد لـذلك مـع

الأمل انه يمكن الحصول على معاهدة موافقـة يتوقـف بهـا سـفك دمـاء امتين اقتضمت الإرادة الإلهية أن لا تكونـا تحت سـلطة واحـدة حـرر في رجب سنة تسع واربعين وفي دسمبر سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائـة وألـف ميلادية .

قال بعضهم فهذا الكتاب حقق لحضـرة الأمـير عبـد القـادر مـا كـان يتصوره أن عدوه واقف موقف المستغيث ولذلك عن رد الجواب صــفحا وإنما فال للرسول وهو مردخاي انه بحسب الوقت الحاضر لا يمكنني رد الجواب وان كان الجنرال يسمح بإيضاح وتفصيل في هذا الأمر فهو أولى فلما وصل اليهـودي إلى الجـنرال وابلغـه الرسـالة الشـفاهية عن لسـان الأمير عبد القادر تلقاها بالقبول ورد مع اليهودي كتابـا آخـر يقـول فيـه . إلى سـمو الأمـير عبـد القـادر حيث لم يصـلني جـواب من سـموكم عن التحرير الذي قدمته وقع في فكري انه لم يصل إليكم لأنه ولم تهتموا به حيث إنكم لا تنعلون شيئاً أوفـق لحفـظ المقـام الـذي رفعتكم الظـروف إليه من التسليم بطلبي لأنه بواسطة المعاهدات المطلوبة الـتي نعقـدها بيننا تتمكن الأهالي أن تلتفت إلى فلاحتها وتتمتع بلذة حاصـلات أراضـيها وتذوق حلاوة السلم بدلاً عن مرارة الحرب .

ثم أنهى كتابـه بعبـارات أوضـح من الأولى وأبين في طلب الصـلح . ذكر إبرام المعاهدة وما جرى في أيامها من الحوادث الداخلية

لما اتصل مكتوب حاكم وهران بحضرة الأمير جمع رجال دولته وأعيانها واخبرهم بما وقع بينه وبين الجنرال من المخابرات في شان أسرى ارزيو أولاً ثم أمر الهدنة ثانياً واستشارهم في ذلك واستكشف ما عندهم فيه فرآهم جانحين إلى السلم راغبين في عقد الهدنة لاسيما أن العدو هو لطالب لها والراغب فيها . قال شرشل الإنكليزي ما حاصله قد تمكن هذا الأمير المظفر الحديث السن من ان يطلع رجال دولته ورؤساء رعيته على هذا المكتوب الذي هو في الحقيقة سند يشهد له بان العدو هو السابق في التماس الصلح وقد تأتي له أن يجيب إليه إذ لا داعي للتأخر عنه فلذلك حرر في جوابه بعد التحية وصلني كتابك أيها الجنرال المحترم وفهمت ما ذكرته فيه واعلم أن أفكارك مواطئة لأفكاري موافقة لها وبذلك تحققت استقامتك فكن متأكداً بأن

الشروط التي توفقنا العناية الإلهية لإجرائها بيننا نتمسك بها بصدق عظيم ولا نتجاوزها وها أنا مرسل لنحوك معتمدين وهما وزير الخارجية الميلود بن عراش والاغة خليفة بن محمود يتخابران معك في الشروط التي يمكن إجراؤها وحينئذ تجري المعاهدة وتذهب العداوة من بيننا ونستبدلها بالصداقة التي لا تحل بمقامنا وينبغي لك ان تثق بي لأنني والحمد لله لم تسبق لي خيانة في عهدي ولا نقض لعقدي . ثم قال وكانت المقابلة بين القواد الفرنساويين ومعتمدي عبد القادر خارج وهران على فرسخين منها في خمس وعشرين خلين من شهر رمضان سنة تسع وأربعين ورابع فبراير سنة أربع وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية وجرت مذاكرة طويلة في قضايا مختلفة قدمها الجنرال دي ميشيل ثم ركب وزير الخارجية راجعا إلى الحضرة ومعه نسخة الصك المشتمل على المسائل التي وقعت المذاكرة فيها غير ممضية من الجنرال ونصها .أولاً أن العداوة من هذا اليوم تبطل بين الفرنساوية والعرب ثانياً أن الفرنساوية تلتزم بتكريم ديانة الإسلام مع عوائدهم ثالثاً أن العرب تلتزم برد الأسرى الفرنساوية رابعاً أن يكون السوق حراص خامساً أن العرب تلتزم برد من يهرب من الفرنساوية إليهم سادساً من أراد السفر في الداخلية من الفرنساوية يجب ان يكون بيده رخصة مختومة من قنصل الأمير ومن قنصل الجنرال . ولما اطلع عليها الأمير وافق عليها وأمضاها بخطه ثم حرر ورقة أخرى ذكر فيها ما اشترطه وهي أولاً يكون للعرب حرية بان يبيعوا ويشتروا كلما يتعلق بالحرب ثانياً يكون متجر مراسي ارزيو تحت ولاية الأمير كما كان قبلاً بحيث لا يصير شحن شيء إلا منه وأما وهران ومستغانم فلا يرسل لها إلا البضائع اللازمة لأهلها ثالثاً يلزم الجنرال بترجيع كل من يهرب إليه من العرب مقيداً مع أن لا تكون له سلطة على المسلمين الذين يحضرون عنده برضاء رؤساءهم رابعاً لا يمنع مسلم من الرجوع إلى بيته متى أراد . وفي اليوم الخامس رجع وزير الخارجية واجتمع بالجنرال دي ميشيل داخل وهران واخبره ولم يسلمه ورقة مطالبيه إلا بعد أن أمضى ورقة الأمير التي فيها شروطه ثم أن الجنرال اختار أن يكون صك الهدنة واحداً تحرر فيه مطاليب الأمير بالخط العربي ومطاليب الجنرال بالخط الفرنساوي وكل منهما يمضي للآخر على شروطه بخطه فأجابه ابن عراش إلى ذلك ونص الصك . إن قائدي الجيش الفرنساوي المقيم في وهران الجنرال دي ميشيل والأمير عبد القادر بن محي الدين اعتمدوا واتفقا على ما يأتي ذكره من الأمور الأول منذ يوم تحريره يصير ترك الحروب والخصومات بين الفرنساويين والعرب وكل من الجنرال دي ميشيل والأمير عبد القادر يجتهد في إلقاء الألفة بين شعبين اقتضت الإرادة الإلهية أن لا يكونا تحت سلطة واحدة ولأجل ذلك تتعين وكلاء من الأمير عبد القادر في وهران ومستغانم وارزيو كي لا تقع الخصومة بين الفرنساوية والعرب كما انه يقام وكيلاً عن فرنسا ضابط فرنساوي في معسكر الثاني يصير احترام ديانة الإسلام وعوائدهم الثالث يلزم ردّ الأسرى من الفريقين الرابع يصير إعطاء الحرية الكاملة لتجارة الخامس تلتزم العرب بإرجاع كل من يفر إليهم من العسكر الفرنساويون بتسليم كل من يفر اليهم من أهل الجرائم الهاربين من القصاص إلى وكلاء الأمير في المدن الثلاث السادس من أراد من الأوربيين يسافر إلى داخلية البلاد يجب أن يكون مصحوبا بتذكرة تكون عليها علامة وكلاء الأمير ويصححها الجنرال وبذلك يحصل على الحماية في جميع الإقليم حرر في وهران في السابع عشر من شوال سنة تسع وأربعين ومائتين والثامن والعشرين من شهر فبراير سنة أربع وثلاثين وثمانمائة وألف ثم أن ابن عراش اخذ الصك وعرضه على حضرة الأمير وبعد إطاعة عليه وأمعن النظر فيه أمضاه بخطه ورجع ابن عراش إلى وهران فلما رآه الجنرال وعلم أن الأمير وافق على ما حرر في الصك وانه أمضاه

تهلل وجهه واظهر لابن عراش بشاشة زائدة لم يعهدها منه قال المؤرخ الفرنساوي لويس دينيليوت في تاريخه عند ذكر هذه لمعاهدة أن المليلود بن عراش وزير السلطان عبد القادر ومعتمدة في عقد المعاهدة مع الجنرال دي ميشيل لما وفد عليه حاملاً صكها الذي صادق عليه الأمير قابله بكمال الاحترام والاحتفال وكان أمراء الجيش الفرنساوي جالسين على حسب مراتبهم والعسكر مصطفة حولهم يسمعون ما تقرره في الصك وبعد تلاوتهم أمضاه الجنرال بخطه ثم ألتفت إلى أبن عراش وفتح معه باب المذاكرة فقال أن العرب لا تجهل قوة فرنسا واستعدادها فأجابه أبن عراش نعم أن العرب لا تنكر قوة سلطنة فرنسا واقتدارها ثمة قال الجنرال أنني كنت عازماً قبل عقد المعاهدة على أن أطلب من دولتي عشرة آلاف جندي زيادة على ما عندي وأخرج من هذه المدينة وتابع محاربتكم مدة شهر وما يدريك يا مولود أن بهذا الفعل يدخل على سلطانك الوهن ويلحقه الضعف فأجابه أبن عراش أننا لا نحاربكم محاربة نظام وترتيب ولكن محاربة هجوم وأقدام ولو فعلت ما قلت وخرجتم بهذه القوة كنا نتقهقر أمامكم متوغلين في الصحراء بأهلنا وأثقالنا وفي حال هذا التقهقر نناوشكم القتال حتى لا ترجعوا عنا ثم نصابركم حتى تضعف شوكتكم وتلين قوتكم ومتى سنحت الفرصة وتورطتم في فيافي الصحراء قلبنا الكرة عليكم وأحاطت جيوشنا بكم من كل ناحية وتكون ذخائركم نفدت وقوتكم ذهبت وعساكركم لحقها التعب وأضر بها السغب فحينئذ ماذا كنت تصنع أيها الجنرال قال فلما سمع الجنرال هذا الجواب المفصح عن جميل من أوضاع الحرب التي لم تخطر له على بال تعجب ولم يسعه إلا السكوت وتفرق المجلس وانقلب ابن عراش إلى الحضرة بعد أن أتم سفارته . وشاع أمر المعاهدة وارتفع الحصار عن وهران ومستغانم وارزيو وسلكت الطرق إليها من الداخلية وتعينت اللاء فيها من قبل الأمير فتعين مردخاي بن دران الموسوي في الجزائر ومحمد بن يخ في وهران والاغا خليفة ابن محمود في ارزيو وعين سفير فرنسا الكومندان عبد الله ويسون في معسكر واصله من مماليك الأمراء المصريين استخدمته دولة فرنسا في العساكر المشاة وأمست أفكار الجنرال دي ميشيل هاجعة على بساط الراحة لعلمه أن هذه المعاهدة صارت حداً فاصلاً بينه وبين الغوائل السابقة وطير الخبر إلى وزارة الحرب في باريز فأجابه أن الملك صادق على المعاهدة وانتقد عليه أموراً أخل بذكرها في صك العاهدة نفهم الناس أن دولة فرنسا انشرحت لعقد المعاهدة ولم تنشرح لشروطها وأيد لهم ذلك إنها أخذت في استعمال الوسائط لنقضها قال المؤرخ لويس دينليوت أن دولة فرنسا قد حاولت أن تنقض هذه المعاهدة واستعملت لذلك مكايد متنوعة ولكن فطنة الأمير ومعرفته بالسياسة عرقلت أمورهم وأفسدت سبيل نجاحها انتهي . وقصارى ما يقال أن تلك المعاهدة كانت عبارة عن متاركة لا تخلو من مخاتلة من الطرفين وذلك ان كلا من الأمير والجنرال دي ميشيل جعل لنفسه باباً في صكه يخرج منه متى شاء وعلى كل حال فان الأمير ارتاحت أفكاره من جهة الحروب الفرنساوية وانصرفت همته لتنظيم الوطن وتوسيع سلطنته في بلاد المغرب الأوسط كما قال بعض مؤرخي الإفرنج كانت هذه المعاهدة كناد قام ينادي في أندية العرب بوجوب طاعة هذا الأمير فسمع نداه وأجيب دعاه وامتد ملكه وبعد صيته ومداه كما أنها جعلت للفرنسيين نوع سلطة في الأماكن التي استولت عليها 0 ولما وصل عبد الله ويسون إلى العاصمة دخل على الأمير في القاعة الملوكية بملابسه الرسمية وقدم إليه الرقيم المعلن بتعيينه وكيلاً عنده فلما قرأه قال له الآن ادخل علينا السرور حيث إننا نظرنا شروط المعاهدة أخذت مفعولها وظهرت من القوة إلى الفعل وأمره أن يواصل التردد عليه ويرفع ما يعرض له من الحاجات إليه وغب خروجه من الحضرة الأميرية توجه لزيارة

أرباب الدولة وأعيانها في منازلهم ثم قابلوه بمثلها في منزله واظهر لهم غاية الميل والمحبة وخدعهم بلسانه العربي الفصيح ثم أن المسلمين الذين كانوا هاجروا من وهران ومستغانم تشوقت نفوسهم إلى الرجوع إليها وانتهزوا فرصة المعاهد فمنعهم الأمير وأوعزا إلى قناصلة بمنعهم وسد باب القبول في وجوههم وفي سنة أربع وثلاثين وثمانمائة وألف بعد إبرام المعاهدة وصل وفد السلطان عبد الرحمن بن هشام صاحب المغرب الأقصى لأداء التهنئة للأمير بالملك واصحبهم هدية من نفائس بلاده ومقداراً وافراً من ذخائر الحرب وأدواته فاكرم الأمير وفادتهم واعظم جانبهم وكان نفر من العساكر الفرنساوية فروا إلى المغرب الأقصى فبعثهم السلطان مع الوفد ليرى الأمير رأيه فيهم فقبلهم وأرسلهم إلى الجنرال دي ميشيل فاهتز لذلك فرحا وعلم صدق الأمير ووفاه بعهوده ووعوده ولما فرغ الأمير من هذه الأعمال صرف همته إلى تمهيد القاصية من البلاد وردع أهل البغي والفساد كالدوائر والزمالة ومن شايعهم كابن العربي ومن تبعه من قبائل شلف وابن المخفي رئيس البرجية وكان الأمير لما تقلد أمر الأمة واشتغل بالجهاد نظر فيما يلزمه من النفقات فرأى أن ما يجبى من أموال الزكاة والأعشار لا يفي بواجباته فطرح المسألة في مجلس الشورى للنظر فيها فاتفقت آرائهم على فرض ضريبة على الرعية تسمى معونة بضم العين وبنوا ذلك على أساسان شرعية مؤيدة بنقول نقيهية وأعمال سلفية فلما تم أمر المعاهدة قام أولئك الظلمة وبثوا دسائسهم في أفكار العامة بان البيعة إنما كانت على الجهاد وحمل أثقال الضريبة إنما كانت لنفقاته وحيث أن الجهاد طوى بساطه والأمير ركن إلى مسالمة العدو فلنا ان نرجع في بيعتنا ونمنع من دفع أموالنا فأثرت دسائسهم في بعض القبائل كبني عامر فامتنعوا من دفع المعونة واتصل خبرهم بالأمير فأوعز إلى مصطفى اغا بن إسماعيل رئيس الدوائر أن يركب عليهم فيردعهم ويجبي أموالهم فارتاح لها ابن إسماعيل لما تهيأ له في ذلك من اخذ ثأره منهم ثم راجع الأمير أفكاره فطن لدسائس ابن إسماعيل فكتب إليه بالكف عنهم فما يمثل وسار إليهم بجموعه فدافعوه وقهقروه ثم أوفدوه على الأمير جماعة من أعيانهم فصادفوه على المنبر يخطب على الناس في أمر المعونة فأرهم الوجوه التي بعثته على أخذها منهم ثم قال اعلموا أن الغاية الوحيدة في قبولي لتقليد هذا المنصب أن تكونوا آمنين على أنفسكم وأعراضكم وأموالكم مطمئنين في بلادكم متمتعين بوظائفكم الدينية ولا يمكن أن ابلغ مادي من ذلك إلا بمساعدتكم مالا ورجالاً وبهذا تعلمون أن المنافع الحاصلة منكم عائدة علي ولا أظن أن يخطر في بال أحدكم أن الأموال التي تؤخذ منكم ابتغيها لنفقاتي الشخصية لعلكم وتحققكم إنني غني ملي بما خلفه لي والدي وبالجملة فتحن لا نطلب منكم إلا ما تجبركم الشريعة على دفعة تجبرنا على أخذه فراجعوا أنفسكم وسدوا آذانكم مما يلقيه أهل الفساد إليكم وكونوا على كلمة واحدة وصفقة متحدة فيما ينفعكم ويصلح شؤونكم ولا يتم لكم ذلك إلا بطاعتنا قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم إلا فليبلغ الشاهد منكم الغائب فلما سمع الناس كلام الأمير انشرحت صدورهم واظهروا الإذعان لأوامره والطاعة لأحكامه وتقدم إليه وفد بني عامر في شانهم فبرؤا ساحتهم مما نسب إليهم من الخروج عن الطاعة ومنع الجباية وأوقفوه على دسائس مصطفى بن إسماعيل وأشياعه واخبروه بما هو عازم عليه من نبذ الطاعة وذكروا له ما لحقهم منه من الظلم والعسف فأسرها في نفسه واكرم الوفد وردهم إلى بلادهم وفي غرة ذي الحجة سنة تسع وأربعين والحادي عشر من أبريل سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وألف توجه قاصدا تلمسان ونواحيها فطار الخبر إلى الدوائر والزمالة فاحتشدوا واستجاشوا بعرب رياح وأهل انكاد وصمدوا لقتال الأمير ولما

قرب من منازلهم بعث إلى ابن إسماعيل وغيره من أعيانهم يدعوهم إلى الحضور عنده لينظر في حوادثهم مع بني عامر فاستنكفوا وزحفوا إليه بجموعهم ودارت بينه وبينهم حرب انكشف فيها أولا الخوارج وتركوا جميع موجوداتهم فلما اكب جيش الأمير على الغنائم والتهوا بالتعبية عطف عليهم الخوارج بجموعهم من كل ناحية فهزموهم وكان الأمير على حدة فرقة قليلة فلما رأى الهزيمة قد استولت على جيشه حمل عليهم مع كثرتهم فأصيب فرسه ووقع بين الصفوف فأردفه ابن عمه السيد المولود أبو طالب ثم ركب فرسا آخر واتصل القتال إلى الغروب وقتل من الفريقين عدد كثير وجرح ابن إسماعيل في جملة من بني عمه ثم بلغ الأمير أن الخوارج يكيدون في تلك الليلة فتغافل عن ذلك ونام مع كافة الجيش في غاية الأمن فلما كان الثلث الأخير من الليل هجم الخوارج على المعسكر فاستولوا على موجوداته وتخلص الأمير من بينهم وبع طلوع الشمس تراجع الناس إليه فانقلب بهم إلى حضرته وطار الخبر إلى حاكمها محمد بن السنية فجمع الأيدي على تجديد ما سلبه الخوارج من أدوات الملك ومهماته وهيأ الموكب الملوكي ولما قرب الأمير من الحضرة تلقاه بذلك وتلقاه العلماء والأعيان ودخل عاصمته في لهيئة التي خرج فيها واصبح في دار ملكه على ما كان عليه : ترى الناس في أبوابه ورحابه ◈ كأنهم من فرط كثرتهم نمل

ولما رأى الخوارج احادثتهم لم تحدث في أمر الأمير ضعفا ولا في أفكار رعاياه تشويشا ندموا ندامة الكسعي وأقاموا يترقبون شديد الانتقام ووقعوا من أمرهم في حيرة قد تبرأ منهم الحميم وتباعد عنهم القريب ولم يبق على مشايعتهم إلا ابن الغازي وقوم والبعض من قبيل رياح وسنلم بما وقعوا فيه من الوبال والخسران والذلة والهوان وما آل إليه أمرهم إن شاء الله تعالى . ذكر تنظيم الجند وما يتعلق به

لما علم الأمير ما بين الجنود المنتظمة والحشود المتطوعة من الفرق العظيم عزم على تنظيم جند كاف يكون دابة التمرين والتدريب ليصل بقوته ومعرفته بالأمور الحربية إلى مقاصده الجسيمة فبعد رجوعه من واقعة الجزائر عقد مجلساً عمومياً من رجال الدولة وأعوان الرعية وزعمائها وخطب عليهم خطبة أوضح فيها فوائد المعسكر النظامي وفوائده ومنافعه واخبرهم انه اعتزم على تنظيم عدد كاف منه فأجابه الجميع إلى ذلك ووافقوه عليه وطفق المنادي يقول بأعلا صوته في الأسواق ليبلغ الشاهد الغائب انه صدر أمر مولانا ناصر الدين بتجنيد

الأجناد وتنظيم المعسكر من كافة البلاد فمن أراد الدخول تحت اللواء المحمدي ويشمله عز النظام فليسارع إلى دار الإمارة معسكر ليقيد اسمه في الدفاتر الأميرية . فتلقى الناس هذا الأمر بانشراح وارتياح وتسابقوا إليه طوعا من كل جهة حتى من القاصية وصار له موقع عظيم عند العامة والخاصة واستحسنه كل عاقل ووافق عليه كل فاضل وامتلأت عند سماع الأمر قلوب الأعداء رعباً وعلموا انهم قد حملوا أنفسهم من عداوة الأمير أمراً صعباً وأمست أفكارهم في قلق وقلوبهم بنار الخوف في التهاب وحرق ولم يكل الأمير أمر الجند لغيره بل هو تولى ترتيبه وتنظيمه بنفسه وجعله ثلاث فرق . فرقة مشاة . وفرقة يركبون الخيل عرفوا بالخيالة . والفرقة الثالثة مدفعيون وولىّ وقتئذ على المشاة والخيالة من مشاهير الأبطال قدور بن بحر وعبد القادر بن عز الدين ومحمد قوشارمة ومحمد السنوسي وسالم الزنجي واحمد الغديوي وغيرهم كل واحد على ألف جندي وولى المفعيين محمد آغا المعروغ بابن كسكسه الكول اوغلي موضع لهم قوانين وضوابط جمعها بعض كتاب الجند في رسالة سماها وشاح الكاتب وزينة العسكر المحمدي الغالب ونصها . حمداً لمن اعز كلمة نبيه سيدنا محمد صلى الله وسلم وأعلاها .ومكن شريعته على أساس التقوى وبناها . وصلاةً وسلاماً على نبي الملاحم . المؤسس ترتيب الصفوف كأنهم البنيان المرصوص أو الموج التلاطم من كان يتقي به أكابر أصحابه رضى الله عنهم وأرضاهم . وجعلنا ممن اقتدى بهم ووالاهم .

وبعد وفاته لما كان يجب للجيش وضع قوانين لا يتعداها . وهيآت يتميز بها وشؤون أخرى لابد أن يرعاها .

وكان من ولاه الله امرنا واختار أميراً علينا ناصراً للدين سيدنا ومولانا عبد القادر بن يحيى الدين . أيده الله عارفاً بذلك خبيراً بتلك المسالك . وضع لعسكره المحمدي . وجنده الأحمدي . قوانين تجري

أمــورهم عليهــا . ويرجعــون في شــؤونهم إليهــا . وهيئــات تتمــيز بهــا أمراؤهم . وترتيبات يكون عليهـا اعتمـادهم . ثم أمـر نصـر اللـه بجمعهـا بحمد الله كما أمر . وعلى الوجه الـذي صـدر . سـميتها وشـاح الكـاتب . وزينة العسكر المحمدي الغالب ورتبتهـا على مقدمـة وأربعـة وعشـرون قانوناً وخاتمة أما المقدمة فنهـا تشـمل على مسـائل الأولى رتب نصـره اللـه عسـكره على ثلاثـة أصـناف . الأول الراكبـون وسـماهم الخيالـة . الثاني المشاة وسماهم العسكر المحمدي . الثالث المدفعيون وسـماهم الرماة والطوبجية وجعل على كل صـنف من هـؤلاء الثلاثـة رئيسـاً فعلى الألف خيالة اغـا وعلى الخمسـين سـيافاً وعلى العشـرين رئيس الصـف ودونه الجاويش ولكل ألف وكل مائـة كاتبـاً وعلى الكـاتب رئيسـاً سـماه باش كاتب وأما المعسكر المحمدي فانه قسـمه بلى مئـات وقسـم كـل مائة إلى ثلاثة أقسام وجعل لكل قسم خباء ورئيسـاً عليـه سـماه رئيس الخباءَ أي الخيمة وعين له نائباً يقوم مقامه وسماه خليفـة رئيس الخبـاء وجعل على كل ثلاثة أقسـام من هـؤلاء رئيسـاً سـماها سـيافاً وعين لهم كاتبا يخصكم وجعل على كل عشـرة من السـيافين فـاكثر رئيسـا سـماه آغة ورئيس المعسكر المحمدي وشأنه النظر في أحوال السـيافين فمن دونهم وأما الطوبجية فيسمى رئيسهم بـاش طـوبجي وعين لكـل مـدفع أثنى عشر جندياً يقومون بـأمره وعليهم رئيس وكـاتب .المسـألة الثانيـة كسوة العسكر المحمدي على نـوعين الجـوخ والكتـان أمـا الجـوخ فعلى ثلاث أصناف احمر قـان وهـو الأعلى وأدنى منـه الجـوخ العسـكري وهـو الأحمر الكاشف والصنف الثالث اسود فأما الصنف العال الجيد فلـرئيس العسكر ولرئيس الخيالة وأما الصنف الذي دونه فهو للسـيافين والكتـاب أصحاب الرتبة الأولى وعلم الحرب والطنبورجي وهو صاحب الطرنبيطة واما الاسود فلباس الطوبجي ورئيس الاثنى عشر مـدفعياً وكـاتبهم وأمـا رئيس الصـف ورئيس الخبـاء فكسـوتهم متنوعـة فيختص رئيس الصـف

بالغلبـة المعروفـة بالمنتـان من الجـوخ الأسـود والسـروال من الأحمـر وعكسه ورئيس الخباء فمنتيانه احمر مسرواله اسـود وأمـا الكتـان فهـو كسوة سـائر أراد العسـكر المحمـدي بخلاف الخيالـة فـان أكسـيتهم من الجوخ الأحمر الدون تنبيه أمر مولانا أن لا يغير أحد كسـوته المخصوصـة به كان آغة أو سيافاً أو رئيس صف أو رئيس خباء أو خيـالاً أو طوبجيـاً أو عسكرياً ولو بلغ م ابلغ في الغني ومن استهون بهـذا الأمـر فانـه يعـاقب العقوبة الشديدة وقد جعـل مولانـا نصـره اللـه لسـائر رؤسـاء الأصـناف المـذكورة علامـات يتمـيزون بهـا ويعـرف من المـرؤس فجعـل لـرئيس العسـكر المحمـدي وهـو الآغـة أربعـة علامـات من الـذهب اثنتـان على منكبيه أحدهما مكتوب عليها . اشهد أن لا آله إلا الله واشـهد أن محمـداً رسول الله . والأخـرى مكتـوب عليهـا الصـبر مفتـاح النصـر واثنتـان في صدره على شكل القمر فذات اليمين مكتوب عليها لا إلـه إلا اللـه وذات الشمال مكتوب عليها محمد رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم وجعـل لـرئيس الخيالـة علامـتين من الـذهب أيضـاً أحـدهما على منكبـه الأيمن مكتوب عليها الخيل معقـود بنواصـيها الخـير إلى يـوم القيامـة والأخـرى يضعها على صدره مكتوب عليها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعـل للسـيف علامـتين من الفضـة على شـكل السـيف يضـعهنا على عضديه أحدهما وهي اليمنى مكتوب عليها لا انفع من التقوى والشـجاعة وعلى الأخرى وهي اليسرى مكتوب عليها ولا اضـر من المخالفـة وعـدم الطاعـة وجعـل لسـياف الخيالـة علامـة واحـدة من الفضـة يجعلهـا على عضـده الأيسـر مكتـوب عليهـا أيهـا المقاتـل احمـل تغنم وجعـل لـرئيس الصف علامـة واحـدة يضـعها على عضـده الأيمن وهي من الفضـة أيضـاً مكتوب عليها من أطاع رئيسه وألقى مولاه نال ما يرجوه ويتمناه ولنائبه علامة من الجوخ الأحمر يضعها على ساعده الأيمن وجعل للبـاش كـاتب علامة من الفضة على شكل القمـر مكتـوب عليهـا ناصـر الـدين يضـعها

على ساعده الأيمن وجعل لـرئيس الطوبجيـة علامـة من الفضـة يضـعها على كتفه الأيمن وهي صورة مدفع مكتوب عليهـا (ومـا رميت إذ رميت ولكن الله رمى) المسألة الثالثة لما كـان يجب بأصـنافه اعـني المشـاة والخيالة والطوبجية أن يكون كل فرد منه عالما بمكائـد الحـرب متخافـاً بها مستعملاً لها عند مقابلة العدو ومن غير تكلف عين مولانا لكل صـنف من هؤلاء الأصناف معلماً عارفاً نشيطاً حافظاً لجميع مـا يجب اسـتعماله الحرب وعن نصـره اللـه للعسـكر والطوبجيـة منبهـاً سـماه الطنبـورجي يعني الطرنبيطي يجمع العسكر والطوبجية ويفرقهم بنقرات الطنبــوراي الطرنبيطــة ويــدعوهم للإقــدام وللأحجــام ولــه في تليم الحــرب صــيغ مخصوصة منها صـيغة للعسـه وصـيغة لتبـديلها وصـيغة لاجتمـاع رؤسـاء الصف وصيغة لاجتماع السيافين وصيغة للحمل على العدو وصيغة للحذر منه إلى غير ذلك وجعل نصره الله للخيالة منبهـاً وهـو النفـير المعـروف بالبوري يجمعهم ويفرقهم بأصوات مختلفة يفهمونها وعين لتعليم الحرب والتمرين عليه معلومة في أيام معلومـة يخـرج فيهـا المعسـكر والخيالـة والطوبجية كل صنف على حدة حسبما تقضي بـه عليهم قـوانين الحـرب تنبيهـات الأول يجب على رئيس العسـكر والسـيافين ورؤسـاء الصـنوف وخلفاء الجميع وسائر الجند أن يتعلموا حرب البواريـد البنـدقيات إلى ان تحصــل لهم الملكــة ويقــدروا على تعليم غــيرهم ومن لم يتعلم منهم يعـاقب الثـاني يجب على المـدفعيين ان يتعلمـوا حـرب المـدفع من دك ونيشان وحركـات المـدفع يمينـاً وشـمالاً على حسـب الحاجـة ومن تعلم ذلك وحصله يكرمه مولانا ومن لا يتعلمـه يعـاقب الثـالث وهـو أكـدها أن الاغة اعني رئيس المعسكر المحمدي وخليفته إذا قـاتلا العـدو على غـير القوانين الحربية وحصل من ذلك اختلال في صفوف العسـكر أو هزيمـة يعقبـان على حسـب اجتهـاد السـلطان المسـألة الرابعـة اخـترع مولانـا علامـات من خـالص الـذهب والفضـة على شـكل بـديع سـماه الشـيعة

المحمدية يعني النيشان ونبه على سائر الجند ان من ظهرت شجاعته أو أبـدى مزيـة وقت الحـرب بـان أنقـذ أخـاه من يـد العـدو أو سـبق غـيره بالهجوم أو الكر أو ردّ الهزيمـة على العـدو وغـير ذلـك من المزايـا الـتي توجب له العز والاحترام عند مولانا وثبت لديه ذلك فانـه يمنحـه الشـيعة ويلبسه إياه بيده الكريمة وتضرب الموسيقى لـه إعلامـاً بـذلك والشـيعة تكون على حسب المزية هذا إذا كان حاضراً بين يديـه وأمـا إذا كـان مـع أحد الخلفاء فانه يلزمه أن يثبت مزينه التي تستوجب بهـا حمـل الشـيعة عند الخليفة وهو يرفع الأمر إلى مولانا فحينئذ يأمر لـه وسـنذكر مـراتب الشيعة في آخر الخاتمةتنبيهات الأول إن مات الاغة اعني رئيس العسكر المحمدي أو السياف أو كبير الصـف في الحـرب فلا ينقطـع راتبـه وإنمـا يبقى جارياً على بنيه إلى أن يقدر أحد أولاده على حمل السـلاح فيجـزى عليه بعد ذلك راتب عسكري حتى يـترقى في الخدمـة فـيزداد في راتبـه على حسب الرتبة التي ترقى إليها الثاني إن جرح العسكري في القتــال حرجاً يمنعه من المشي ويقدر على القتال راكبـاً فأنـه يـدخل في صـنف الخيالة وان تعطل بالكلية فانه يجري عليه راتبـه من غـير شـرط إلى أن يمـوت الثـالث إذا مـرض العسـكرى مرضـاً يمنعـه من الخدمـة بشـهادة الأطباء فانه يجري عليه نصف راتبه إلى أن يموت المسألة الخامسـة إن مولانا جعل المسكوكات الجارية في البلاد صرفاً معلوماً تتعامل به رعيته وسك نصره الله نوعين من العملة أحدهما المحمديـة والأخـرى النصـفية فجعل صرف الدور أبو مدفع المعروف بابي عمود أربع ريالات وكل ريال فيه ثلاثة أربـاع جزائريـة وكـل ربـع جعـل صـرفه ثمـان محمـديات وكـل محمدية نصفتين من السـكة الديـدة المضـروبة في دار اسـكة بحيث إذا أطلق الريال لا ينصرف إلا إلى هذا الصرف وجعل الدور الجزائـري ثلاث ريالات إلا ثمان محمديات وبهذا الصـرف يعطي راتب العسـكر بأصـنافه المسالة السادسة في قيمـة الكسـوة وآلات الحـرب أمـا كسـوة الجـوخ

فالسروال قيمته ستة عشر ريالاً والغليلة وهي المنتيان قيمتها خمس ريالات والصدرية ستة عشر محمدية وأما الكسوة الكتان فالكبود قيمته أربع ريالات والسروال ثلاث ريالات وثمان محمديات والقميص ريالان الاستة محمديات والشاشية وهي الطربوش عشرون محمدية والبلغة وهي المداس على حسب سعر السوق وأما آلات الحرب فالبلاصكة ومحل الفشك ريال واحد والمحزمة ثمانية عشر محمدية والبدقية أي البارودة بتمامها عشرون ريالاً وقيمة العالية وهي السنكى ثلاث ريالات والسكين وهي السيف احد عشر ريالاً تنبيه إذا أضاع الجندي شيئاً من الكسوة وآلات الحرب في الحرب أو في حال تعلمه فلا ضمان عليه وكذلك الخيال إذا اتلف الفرس أو السرج أو آلة حرب في حال قتال أو تعلم الحرب فلا ضمان عليه ومن اتلف شيئاً مما ذكر في غير هذين الموطنين فانه يضمن ما أتلفه بالقيمة المذكورة وإذا بلي شي كالبلاصكة أو المحزمة مثلاً فانه يحدد من بيت المال المسألة السابعة إن مولانا أوجب أن يكون رؤساء الجند بأصنافه من ذوي النجدة والشجاعة والإقدام والقوة في الدين واليقين والصبر والثبات والفطنة والتنبيه للمكائد الحربية لان الرئيس في المعسكر بمنزلة القلب في الجسد إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله فلأجل ذلك لا تكون رئاسة العسكر والخيالة وأصحاب الريات إلا باختيار مولانا ونظره لمن فيه هذه الخصال الحميدة ومن ثم لا يكون العسكري سياقاً إلا بعد أن يتولى في الرتب الصغيرة وتظهر نتائجه إلا إذا كان ممن حمل الشيعة فانه يستوجب أن يتولى سياقاً من غير تدريج هذا إذا توفرت فيه الشروط واوجب نصره الله أن لا يكون أحد الخيالة رئيساً على العسكر المشاة إلا إذا كان من أهل الشيعة فانه له ذلك أن احتج إليه واختاره الأمير لمصلحة رآها فيه (المسألة السابعة) قد جعل مولانا لمونه العسكر المحمدي ميزاناص معلوماً بالرطل ونصفه وجعل وزن الرطل

ستة عشر أوقية وكل أوقية ثمانية أثمان وكل ثمن مائتي شعيرة مقصوصة الأطراف وان لا يكون الكيل وآلة الوزن إلا بختم الإمارة وعين نصره الله لكل عسكري رغيفا وزنه نياً عشرون أوقية ونضيجاً ثمانية عشر أوقية واثنى عشر أوقية من البرغل وستة ثمان من السمن فان فقد الخبز فرطل بقسماط مكانه فان فقد امعاً يعطى من البرغل بدلهما وعين للعسكر السمن في الصيف والزيت في الشتاء .^

القوانين القانون الأول

لرئيس العسكر المحمدي وهو الآغة اثنان وعشرون ريالاً راتباً شهرياً لا ينقص له في العدد شي وله في كل يوم ثلاثة أرغفة أحدهما من الخبز الأبيض الخاص والآخران من الخبز الأسمر أو خمسة أرطال بقسماط عند فقد لخبز وله ستة أرطال من البرغل في كل ليلة ونصف رطل سمناً وخمسة أرطال حطباً وله مثل ذلك في النهار أن فقد الخبز والقسماط معأ وله في كل يوم خميس واثنين شاة وله كسوة تامة من بيت المال وان بليت فإنها لتجدد له بالثمن فثمن المئتان وهو الغليلة ثمانية وعشرون ريالاً جزائرياً وثمن السروال أربع وأربعون ريالاً وثمن القميص ريال واحد . القانون الثاني

للسياف اثنا عشر ريالاً في الشهر وله في كل يوم رغيفان أحدهما ابيض والثاني من مطلق الخبز أو رطلان ونصف بقسماط إن لم يوجد الخبز وله في كل ليلة رطلان من البرغل وأوقيتان سمناً ومثل ذلك في النهار إن لم يوجد خبو ولا بقسماط وله في كل خميس واثنين من اللحم ربع شاة وكسوته تجدد بالثمن . القانون الثالث

لرئيس الصف ثمان ريالات راتباً شهرياً وله رغيفان في كل يوم أو رطلاً بقسماط وله من البرغل رطل ونصف في كل ليلة وان فقد الخبز والبقسماط يعطى في النهار مثل الليل من اللحم في كل خميس واثنين

نصف ربع شاة ولخليقته ست ريالات ونصف شهري وله في الخرج مثله وكسوتهما تجدد بالثمن . القانون الرابع

لباش كاتب العسكر اثنا عشر ريالاً في كل شهر وله رغيفان أحدهما ابيض والآخر اسمر أو رطلان من البقسماط ورطلان من البرغل وفي كل ليلة أو أوقيتان من السمن وله مثل ذلك في النهار عند فقد الخبز والبقسماط وله في كل خميس واثنين ربع شاة ورطل حطب في كل يوم وليلة ووظيفة هذا الباش كاتب كتابة أمور الجيش كالرواتب والأكسية والديون التي تترتب في ذمة الأفراد العسكر وقرائه القانون وقت الحاجة ومن وظيفته أيضاً انه يجمع ما تحته من الكتاب ويعلمهم فرائض الغسل والوضوء والتيمم والصلاة والصوم وعقائد التوحيد كما أن كل واحد من هؤلاء الكتاب يعلم المائة التي هو كاتب عليها جميع العبادات والعقائد ويؤذن للصلاة وصلى إماماً كما ان الباش كاتب يجب أن يعلم الآغة وضائف الدين ويؤمه للصلاة وقد أوجب مولانا على العسكر ورؤسائه أن يحترموا هؤلاء الكتاب ورئيسهم ومن أهان أحدهم فانه يعاقب العقوبة الشديدة . القانون الخامس

لكاتب المائة سبع ريالات في كل شهر وله في كل يوم رغيفان من مطلق الخبز أو رطلان من البقسماط وله في كل يوم خميس واثنين نصف ربع شاة من اللحم وكسوة الكتاب جميعا ان بليت تجدد بالثمن . القانون السادس

لحامل الراية المحمدية سبع ريالات في كل شهر وله رغيفان من الخبز الأسمر أو رطل بقسماط أن فقد الخبز فهو فيه مع ريس العسكر ولا يكون حامل الراية إلا من أهل النجدة والشجاعة والجرأة وينزل مع الرئيس في محله . القانون السابع

للطباخ ريالان في كل شهر وله جلود الشاه الـتي يـذبحها . القـانون الثامن

لمعلم الحرب اثنا عشر ريالاً وله رغيفان من مطلق الخـبز أو رطـل ونصف من البقسماط عوضاً عنهما إن فقد الخبز وله في كل ليلة رطـل من البرغل وأوقيـة من السـمن وربـع شـاه من اللحم ويكـون المعلم إلا واحداً عند كل رئيس ويكون نزوله مع السياف القانون التاسع

لرئيس الطنبور سبع ريالات ونصف في كل شـهر ولـه رغيفـان كـل يـوم من مطلـق الخـبز أو رطلان من البقسـماط ويـنزل مـع الـرئيس . القانون العاشر

لمطلق العسكر المحمدي اعني لكل فرد منهم ست ريالات في كل شهر وله رغيف أو رطل بقسماط ولسائر أهل الخباء أي الخيمة في كل ليلة خمس وعشرون رطلاً برغلاً ورطل ونصف رطل سـمناُ ومثلهـا زيتـاً في فصل الشـتاء وعنـد فقـد السـمن ولهم من الحطب خمسـة عشـرة رطلاً سـواء كـانوا في سـفر أو حضـر ولهم خمس وعشـرون رطلاً من البرغـل إن فقـد الخـبز أو البقسـماط والمائـة منهم لهـا في كـل يـوم خمسين واثنين وخمس شياة يقسـمونها على الأخبيـة هـذا تمـام المؤنـة وإذا نقص من المائة أو أهل الخباء فانه ينقص لهم من هذه الأشياء كلهـا بقدر ما نقص من الأشخاص . القانون الحادي عشر

لجاويش العسكر سبع ريالات شـهرياً وهـو مثـل العسـكري في كـل شي وأمره بيد آلاغة أي رئيس العسكر المحمدي تولية وعـزلا . القـانون الثاني عشر

لرئيس الخيالة تسعة عشـر ريـالاً في الشـهر ولـه رغيفـان أحـدهما ابيض والآخر اسمر وله أربعة أرطـال من البرغـل وأربـع آواق سـمناً في كل وقت اعني ليلاً ونهـاراً وأربعـة أرطـال من الحطب في الليلـة ومثـل

ذلـك كلـه من البرغـل والسـمن والحطب ان فقـد الخـبز والبقسـماط . القانون الثالث عشر

لسياف الخيالة تسع ريالات في كل شهر وستة عشـر محمديـة ولـه رغيف واحد ابيض وله نصف ربـع الشـاة من اللحم في كـل يـوم خميس واثنين . القانون الرابع عشر

لكل خيالة سبع ريالات في كل شهر ولكل واحد منهم في كـل يـوم رغيف اسـمر أو رطـل بقسـماط عوضـاً عنـه وللخمسـين خيـالاً في كـل خميس واثنين شاتان ونصف شاه ولهم في كل ليلة سبعة وثلاثون رطلاً من البرغل ومن السمن رطلان وربع لهم مثـل ذلـك في النهـار إن فقـد الخـــبز والبقســـماط ولهم من الحطب عشـــرون رطلاً وينقص لهم من اللحم والسمن بقدر ما ينقص من عددهم . القانون الخامس عشر

الباش طوبجي أربعـة عشـر ريـالاً في كـل شـهر ولـه في كـل يـوم رغيفان أحـدهما ابيض والآخـر اسـمر ورطلان من البقسـملط عنـد فقـد الخبز وله ثلاثة أرطال من البرغل في كل ليلة وثلاثـة آواق سـمناً ومثـل ذلك في النهار إن فقد الخبز والبقسماط وثلاثة أرطال حطباً ومن اللحم ربع شاة في كل يوم خميس واثنين . القانون السادس عشر

عين مولانا كما سـبق لكـل مـدفع أثـنى عشـر جنـدياً سـتة يقـاتلون وستة يرتـاحون وعليهم رئيس وهـو الثـالث عشـر سـماه رئيس المـدفع ولهذا الرئيس كل يـوم رغيفـان من الخـبز الأسـمر ولـه في كـل خميس واثنين من اللحم ثمن شاة وباقي الخرج والمراتب فكالعسكر . القــانون السابع عشر

كاتب الطوبجية مثـل كـاتب المائـة في كـل شـي . القـانون الثـامن عشر

لكل واحـد من الطوبجيـة سـتة ريـالات ونصـف في كـل شـهر ولـه رغيـف واحـد اسـمر في كـل يـوم أو رطـل بقسـماط ولهم من البرغـل واللحم والسـمن والحطب مثـل مـا للعسـكر وإذا نقصـوا ينقص لهم من الخرج بقدر ما ينقص من عددهم . القانون التاسع عشر

إن معلم الطوبجية في الأيام التي يتعلم العسـكر فيهـا الحـرب لابـد ان يكون مقابلاً بالأنفار والمدافع للعسكر والمحـاربون كمـا يفعلـون مـع العدو لأجل التدريب والتمرين . القانون الموفي عشرين

ان ربط الفشك وتذييب الرصـاص أمـا هـو على الطوبجيـة في كـل محلـه أي عرضـي لأنهم أحـق بـذلك وإذا كـثر عليهم الشـغل يسـتعينون بالعسكر . القانون الحادي والعشرون

ان العسكري البعيد الدار إذا طلب التسريح إلى أهله واخذ الرخصـة فيه فان بارودته تبقى محفوظة عند السياف وكذلك العسكري المــريض الذي يكون في المستشفى . القانون الثاني والعشرون

المؤنة إنما تجري على العسكر والخيالة والطوبجيـة ورؤسـائهم في السفر والحضر ما داموا في الخدمة فان كـانوا مسـرحين بالرخصـة في بلادهم عند أهلهم فلا شي لهم منها البتة . القانون الثالث والعشرون

لا يرخص لأحد من العسكر أو الخيالة أو الطوبجية أن يأخذ شيئاً من المؤنة إلا بحضور باش كاتب العسكر وباش كـاتب الخيالـة وبـاش كـاتب الطوبجية ومن تخلف من هؤلاء الكتاب عن الحضـور في الـوقت المعين لهم يعاقب ويشهر عقابه . القانون الرابع والعشرون

ان من اعتناء مولانا بجنده انه ابتنى لهم في كل محل يتعينـون فيــه مستشفى وهيأ فيه للمريض جميع ما يحتاج إليه من أكل وشرب وفراش وغطاء وخدمة من أفـراد العسـكر بشـرط ان يكونـوا ذوي نباهـة وآداب وطلاقة وجه واتساع خاطر حـتى لا تضـيق نفـوس المرضـى منهم وعين

في كل مستشفى طبيباً ماهراً وجميع ما يلزم من الأدوية يأخذ ثمنــه من بيت المــال والخدمــة إذا تعلمــوا صــناعة لطب والتمــريض وشــهد لهم الأطباء بالمعرفة التامة فان مرتباتهم يزاد فيها على حســب تفــوتهم في المعرفــة ومن شــانهم أن يقومــوا بتمــريض المرضــى في حــال الســفر والحضر وجميع نفقاتهم من بيت المال وجعل لرئيس الأطباء كســوة من الجوخ الجيد تامة وأثنى عشــر ريــالاً في كــل شــهر ولــه في كــل خميس واثنين من اللحم ربع شاة وله رغيفان من الخبز الأبيض في كــل يــوم أو رطلان من البقسماط وفي كل ليلة رطلان من البرغــل وأوقيتــان ســمنا أو زيتا عند فقد السمن وكذلك في النهار ان فقد الخبز والبقسماط معــا وله في كل يوم ثلاثة أرطال حطبا انتهى تقيد المســائل والقــوانين الــتي هي في الحقيقة أصول ولها فروع كثيرة مذكورة في غير هذا المختصر .

الخاتمة في أنواع الجزاء

أوجب مولانا على رئيس العسكر وهو الاغة أن يتفقد عــدد العســكر وكسوته وسلاحه وجميع آلات الحرب في كل يوم ســبت وان تخلــف عن ذلك لغير عذر ظاهر يحبس عشــرون يومــاً وأوجب عليــه أن لا يأخــذ من العسكري ولا من الســياف ولا من كبــير الصــف ولا من غــيرهم محمديــة واحدة وان لا يغش في شــي من الخدمــة وان ثبت عليــه شــي من ذلــك فان اسمه يمحى من الــديوان العســكري ويطــارد ويهــان وأوجب نصــره الله على الســياف أن يتفقــد مــا تحت يــده من العســكر كــل يــوم اثــنين وخميس فان تخلف عن ذلك لغير عــذر ظــاهر فانــه يحبس عشــرة أيــام وان وجد في سلاحه فساد لم يصــلحه فانــه يحبس خمســة أيــام وأوجب عليه أن لا يظلم أحــداً من العســكر وان لا يأخــذ منهم شــيئاً وان لا يغش في الخدمة ولا يخون فــأن فعــل شــيئاً من ذلــك وثبت عليــه فأنــه يحبس ستين يوماً ويجب عليه أن يطيــع الأوامــر الأميريــة ولا يخــالف شــيء مــا وأوجب على كــل ســياف من ســيافي المعســكر ان لا يــركب في يــوم

الحرب ولا في يوم تعليمه وإنما يكون مع المرؤس عليهم ماشـياً لـيرتب صـفوفهم للقتـال أو التعليم ويشـجعهم وهـو المتكفـل بسـلاحهم وهـو المسئول عنه بالنسبة لمن فوقه فلا بد أن يتفقده ويعده وإلا فأنه يضمن ما فقد منه وإذا مات العسـكري أو غـاب بالرخصـة وكـانت البـارودة في يده فأنه يأخذها منه ويدفعها إلى الخليفة ويأخذ منه سنداً فيهـا تبرئـة لـه من الضمان فأن غـاب ولم يأخـذ فيهـا سـنداً فأنـه يضـمنها وأوجب على رئيس الصـف أن يتفقـد مـا تحت حكمـه من العسـكر كـل يـوم صـباحاً ومساءً وذلك ان يصفهم ويقـف الكـاتب معـه والـدفتر في يـده فيسـمى أفراد العسكر واحداً واحداً وكل من ذكر اسمه يجيب فأن ذكر اسماً ولم يجيبه أحد يعلم أن المسـمى غـائب فحينئـذ ينظـر في أمـره فـان كـانت غيبته لعـذر مقبـول فلا بـاس عليـه وإلا فـأن يطلب ثم يحبس يومـاً ومن ألف الخروج للتعليم فأنه يحبس يوماً وليلة وان تخلف السياف والكـاتب أو كل منهما عن الحضور للتعليم فأنهما يحبسان سـتة أيـام وأوجب على الجندي طاعة سيافه والقيام بـأمر العسـة وأوجب على عمـوم العسـكر طاعة عموم رؤسائهم فمن عصى رئيسه في شيء فانـه يحبس خمسـة عشر يوماً ومن سمع الطنبور ليعلم الحرب ولم يجب فأنه يحبس يومين ومن سمع الطنبو يدعو إلى الخـروج إلى القتـال ولم يخـرج فأنـه يحبس شهراً ومن خرج للتليم أو القتال في غـير الكسـوة الأميريـة فانـه يحبس يوما ولياه وكذلك آلاغة والسياف ورئيس الصف ومن تـرك الوسـخ على سـلاحه أو كسـوته فأنـه يحبس ثلاثـة أيـام ومن اتلـف شـيئاً من سـلاحه وأفسده في غير يوم الحرب أو تعليمه فأنه يضمن قيمته كمـا تقـدم في المسائل ومن هرب من الخدمة العسـكرية ورجـع باختيـاره فانـه يحبس على قـدر الأيـام الـتي غـاب فيهـا ومن هـرب وقبض عليـه بـالأمير فانـه يحبس على حسب اجتهاد الأمير ومن أطلق طلقاً واحداً من بارودته ليلاً أو نهـاراً لغـير مصـلحة فانـه يحبس يومـا ًوليلـة وإذا نـام العسـكري في

العسة القائم بها فانـه يحبس ثمانيـة أيـام وإذا بـاع العسـكري شـيئاً من البارود وثبت عليه ذلك فأنـه يحبس شـهراً وان كـان العسـكري المـذنب مسافراً فأنه يضرب بالسـوط على قـدر الأيـام الـتي يحبس فيهـا قانونـاً وجميع ما يلزم رئيس العسكر المحمدي ويجري عليه يلزم رئيس الخيالة ويجري عليه وكل ما يلزم العسكري يلزم الخيال وكـل مـا يلـزم سـياف العسكر يلزم سـياف الخيالـة وان ركب الخيـال فرسـه من دون مـوجب فانه يحبس يوماً وليلو ويجري على العسكر يلزم سائر الطوبجية ويجري عليهم وما يجري على السيافين يجري على باش طوبجي وان عمل أحد رؤساء العسكر أو الخيالة أو الطوبجية مـا يسـتوجب العـزل فانـه ينحـط عن رتبته إلى رتبة عسكري ويلبس لباسه وكسوة الجوخ ترجـع إلى بيت المـال وان وجب حكم من الأحكـام السـابقة على أفـراد العسـكر فـان رؤساء الصف هم الذين يتولون نفوذ الحكم القانوني فان السياف يحكم عليه بحسب القـانون الـذي يخصـه وان فـرط رئيس العسـكر في نفـوذ الحكم القانوني فأن مولانـا أو خليفتـه يعاقبـه حسـب القـانون وان نعـل العسكري خصلة حميدة في حال الحرب فأنـه يجـوز الشـيعة المحمديـة ويسـتوجبها على الهيئـة المـذكورة في المسـائل ويجـوز حرمـة فـوق السـبلقين وإذا فعـل رئيس العسـكر مزيـة فأنـه يحمـل الشـيع اللائقـة والشيعة نيشـان صـورة يـد مفتوحـة الأصـابع ذهبـاً وفضـة وفي وسـطها مكتوب (ناصر الدين) تربط على الرأس فوق الأذن اليمنى ولناقلها في كـل شـهر خمسـة وعشـرون ريـالاً ويجب احترامـه على الجميـع وهكـذا الخيالـة ورؤسـائهم فمن عمـل بمقتضـى هـذه القـوانين وبمـا ذكـر في المسائل فقد فاز في الدنيا والآخرة ونال من الله تعالى الرضـى وزيـادة فيجب على من سمع ما ذكرناه أن يطيعه ويعمل به ويذعن لـه ويرضـى به والله ولي التوفيق والهادي إلى سواء الطريق حرر في أواخر جمـادي الأول سنة تسع وأربعين ومائتين وألف .^

صفة هيئة المعسكر وترتيبه في السفر

كانت هيئته شبه دائـرة حسـنة الانتظـام خيامهـا مخروطيـة الشـكل متناسـبة البعـد في البنـاء كـل خيمـة تضـم ثلاثـة وثلاثين نفـرا ومـدخل المعسكر من جهـة الشـرق وعليـه مـدفعان وفي المقدمـة خيمـة رئيس المـدافع ويقابلهـا خيمـة رئيس الجـراحين والأطبـاء والمستشـفى وفي نصف الدائرة خيمة الأمير وطولها خمسة عشـر مـترا وفي عـرض سـتة أمتار مزينة الباطن بأنواع الأقمشة الملونـة مفروشـة الـداخل بـالزرابي المتقنة تبنى على ثلاث عواميد ارتفاع كل واحد منها خمسة عشـر قـدما متناسـبة الوضـع بالبعـد ومجلس الأمـير فيهـا مقابلـة للمـدخل وأمامـه صندوقان صغيرا الحجم من حديد ضمن إحداهما أوراقه المهمـة وضـمن الثاني مال ما ينفقه بالإحسان والخيرات ويقابـل المـدخل بسـتارة يقـف عنـدها عبـدان دائمـا ومن وراءهـا مكـان يختلي بـه للوضـوء والصـلاة والمقابلة السرية وعلى بعد ست أمتار من الخيمة مركـز راياتـه ومربـط خيله المختصـة بـه وإذا جلس داخـل خيمتـه تقـف حولـه كتمت أسـراره وخواص المؤمورين وأركان الحرب بغاية مـا يكـون من الأدب والخضـوع ويقـف من وراءهم ثلاثـون عبـدا من أهـل الشـدة والبـأس المشـهود لـه بالشجاعة والفروسية وهم من الحرس الخصوصـي يتنـاوبون ليلا ونهـاراً وأثمانهم من بيت المال وإذا أراد إصدار أمر ما أشار لمن يريده فيقـرب ويتلقى الأمر ثم يرجع القهقري وخيام كتبة أسراره وخواص مأموري عن يمين خيمتـه وشـماله ومن وراءهم خيـام محـافظي الخزنـة ولوازمـات الجند من البسة وأسلحة وغيرها ومؤونة الجيش ومرابط الجمال والبغال على ناحية منها وفي كل جهه من المعسكر سـوق يشـتمل على قهـاوي ودكاكين تباع فيها أصناف البضـاعة والمـأكولات وإذا حضـر وقت الصـلاة أذن المؤذن يخرج الأمير فيصلي بهم إمامـا ويعـاقب كـل من تخلـف عن صلاة الجماعة بغير عـذر وكـان يجلس لفصـل الـدعاوي بعـد فراغـه من

صلاة الضحى إلى أذان الظهر ثم يخرج ويصلي إماما ويرجع لخيمته ليقيل ساعة ثم يجلس للفصل أيضا إلى أذان العصر وبع الفراغ من الصلاة تصدح الموسيقى أمام خيمته بأنغام شجية والحان اندلوسيا تحرك أوتار الأشجان ويتواجد من ألحانها كل إنسان حتى إن الخيل تكف عن الأكل ويتخيل الناظر إنها ترقص من كثرة حركة يديها ورجليها عند استماعها فإذا انتهت الموسيقى نادى الجاويش الله ينصر ناصر الدين ويطيل عمره فيجيبه الجميع بمثل ذلك وبعد أداء صلاة العشاء تضرب الموسيقى لحنا واحدا ثم يمنع الدخول والخروج من المعسكر ولا يؤذن في الدخول والخروج منه إلا بأمر الأمير وكل من يخالف هذا القانون يكون جزاؤه الإعدام . صفة رحيل المعسكر ونزوله

إذا أراد الأمير الرحيل يطلب الخزندار بعد أداء صلاة الصبح ويأمره بتهيأة الجيش للرحيل فيطلق مدفعان بينهما برهة يسيرة وهذه علامة الرحيل فحينئذ يثور جميع الجند لجمع الأمتعة وهدم الخيام وتحميل المؤنة والدخائر وتمتطي الفرسان صهوات لخيل ثم تأتي الاغوات وقواد القبائل إلى خيمة الأمير فيؤذن له بالدخول ويسألهم عن الأراضي والمراكز الموافقة للنزول ثم يأتي الخزندار فيخبره بتهيء الجيش للمسير فيخرج من خيمته ويمتطي صهوة جواده فيثب به وثبتين ثم تصدح الموسيقى بلحن الرحيل فيبتدأ الجيش بالمسير على ترتيب عجيب إلى أن يصلوا المحل لمناسب للمبيت فينزل الأمير وتنصب الرايات ويحيط به الحرس ويذهب الخزندار بتريب نزول الجيش وتعيين محل خيمة الأمير وفي اقرب وقت ترى الخيام نصبت والمضارب ضربت ونزل كل فريق في منزله ووقف الخفر في محله فعند ذلك يذهب لخزندار واحد أركان الحجاب فيخبر الأمير بإمكان دخوله لمعسكر فيركب جواده ويسير والمأمورون من وراءه والموسيقى تصدح بلحن الوصول إلى قرب الخيمة ثم تغير اللحن فيهدأ فرس الأمير ويقترب ون

الكرسـي المعـد لنزولـه وعنـد وطئـه الأرض تطلـق ثلاث مـدافع إعلامـا بنزوله .^ ذكر

خروج الأمير لتمهيد البلاد لمـا بلـغ ابن عريـبي خـبر انتصـار الـدوائر على جيـوش الأمـير اظهـر مـا كـان كامنـا في صـدره من نبـذ الطاعـة والدعوة لنفسه وحمل قبائل البربر في ناحيته على إظهار ما كان يدسـه في الخروج عن طاعة الأمـير واجتمـاع كلمتـه عليـه فأجـابوه على ذلـك واحتشدوا إليه فنهض بهم إلى نواحي القلعة واسـتجاش بالبرجيـه وكـان رئيسهم قدور ابن المخفي على مشربه فصمدوا جميعـا في القـرب من قصبة البرج فخرج إليهم الأمير بعد أن اخذ اهبتـه وعـرض جنـده المنظم وسار الهم في الثـامن من صـفر سـنة خمسـين وفي السـابع عشـر من يونيه سنة أربع وثلاثين وثمانمائة وألـف ففض جمـوعهم واثخن فيهم قتلا وسبياً ودخل لقصبة فأضرمها نارا وحطم أشجارها ثم بعث السبي وفيهم حـريم ابن المخفي وأولاده إلى الحضـرة وارتحـل إلى القلعـة وفـر ابن عريبي بجموعه إلى نواحي مينة فاتبعه الأمير وصادفهم القتـال فهـزمهم اقبح هزيمة وامتلأت أيدي جيوشهم بالغنائم ولما علم أهل تلـك النـواحي أن ابن العريبي قد تلاشى أمره ولا مناص لهم من عقـاب الأمـير أوفـدوا عليـه علمـائهم وأشـرافهم فاعتـذروا إليـه وأوقفـوهم على دسـائس ابن عريبي وأدوا إليه طاعته وطاعة من خلفه فتقبلها منهم وولى السـيد أبـا شقور خليفـة عنـه في تلـك النـواحي وولى السـيد محي الـدين بن علال على مليانة ونواحيها وفوض إليـه في جمـع كلمـة القبائـل الشـمالية إلى شرشال وتنس من الاساكل البحريـة وانقلب راجعـا إلى الجهـة الغربيـة فاحتل بسيك ثم ارتحل إلى ثنية ماخوخ وشن الغـارات على قبيلـة ربـاح في منازلهم فيما وراء تلمسان لجهة الشمال فصجهم واكتسـح أمـوالهم وحملهم على الطاعة ثم انعطف غازيا على بني خلاد من قبائـل ولهاصـة في السـاحل فـاثخن فيهم واسـتولى على موجـوداتهم وأدوا طـاعتهم

وعسكروا معه فلما بلغ الدوائر ما حـل بأشـياعهم تنـاذروا وانضـموا إلى حليفهم الشيخ ابن الغماري وقومـه وصـمدوا لقتـال الأمـير في المهـراز غربي تافناً فزحف إليهم الأمير في السادس من ربيع الأول سنة خمسي وأربعـة عشـر يوليـه سـنة أربـع وثلاثين فاصـطفوا اتجـاه الجنـد ودعتهم نفوسهم إلى الهجوم عليـه فـأذاقهم نكـال الحـرب وردهم على أعقـابهم ووقع رئيسهم ابن إسماعيل جريحا فحملوه وولـوا الأدبـار تـاركي قتلاهم في المعركة .وبعث الأمير رؤوس من هلك من أعيـانهم المشـاهير كعبـد الله بن الشيخ الغمـاري وغـيرهم من الأبطـال المعـروفين فنصـبوا على أبواب الحاضرة معسكر عبرة لغيرهم وطارت البشائر بهـذه الانتصـارات المتتابعة إلى الولايات وأعلن بهـا في المـدن والقـرى والضـواحي وفـرح الناس بذلك وانشرحت صدورهم لما يعلمونه من مرض قلـوب الخـوارج وشـدة حقـدهم على المسـلمين وظلمهم عبـاد اللـه أيـام الحكومـة الجزائرية وبعد ان فرغ الأمـير من أمـر الخـوارج وأشـياعهم ارتحـل إلى تلمسان فكان يوم دخولـه يومـا مشـهودا وتفـاوض الخـوارج في أمـرهم فأشار عليهم رئيس الدوائر مصطفى ابن إسماعيل بأن يلحقوا بالمغرب الأقصى ويدخلوا في طاعة سلطانه وأشار الشيخ ابن الغماري والمازري بالإذعان للأمير قالين هو سيدنا وابن سيدنا فان تقبل توبتنا ورفـع قـدرنا بي أقرانا فـذلك وإلا فحينئـذ ننظـر في أمنـا والحـوق بسـلطان المغـرب الأقصى غير موافق لان فينا الضعيف ومن لا قدرة له على الوصـول إلى تلك البلاد على أن غالب سكانها لا تناله الاحكان السطانية فلا نسـلم من غـوائلهم ولا يخفى إن تـوالي الحـروب وتتـابع الغـزوات علينـا أفـنى لنـا الظهر وأباد المال واخذ قوانه فال ابن إسـماعيل ان ابن محي الـدين إذا ظفر بكم لابد ان بقتلكم ويعلق أشياعكم واحـدا بعـد واحـد على أسـوار معسكر وكأني انظر إلى الحشم يتفرجون عليكم ويشـتمون بكم والـذي ينجـوا منكم يعيش ذليلا حقـيرا وأطـال عليهم في التحـذير والتنـذير فلم

يلتفتوا إليه واستأمنوا الأمير فبعثوا إليهم منشور الأمان مع كاتبه الخـاص مصطفى بن التهامي والعلامة السيد عبد الله سقاط فاطمـأنت قلـوبهم وطابت نفوسـهم وتوجهـوا مـع الرسـول إلى تلمسـان ولمـا دخلـوا على الأمير مذعنين تقبل طاعته واكرم نزلـه واقـر الشـيخ ابن الغمـاري على رئاسة قومـه وولى المـازري على قومـه الـدوائر وأمـرهم بالرحيـل إلى قـرب تلمسـان فـامتثلوا وارتحلـوا وخـالفهم ابن إسـماعيل ولحـق ببلاد ولهاصة ثم أن المازري قدم شفاعته إلى الأمير في عمـه ابن إسـماعيل فشفعه فيه وأحضره إلى أعتابه فتلقاه الأمير ولاطفـه واحسـن السـؤال عنه وعن أحواله وبعد أن خرج من عنده لقي أقاربه فسألوه عمـا جـرى فقال لهم هذا آخر العهد بيني وبين هذا الأمير فقيـل لـه في ذلـك فقـال أني رأيته لا يتأثر بمـا يرضـى ولا بمـا يغضـب فعلمت لـه انـه يضـمر لنـا السوء كيف ولقد وقع منا ما وقع مما يوجب ذلك والآن لقـد اسـتقام لـه الأمـــر ثم ذهب بـــه إلى أهلـــه وتنصـــر وقتـــل فيمن قتـــل من جيش الافرنسيس وسنأتي على بقية خبرهم أن شاء الله تعالى ولم يزل الأمير مقيما في تلمسان إلى ان اصلح شانها وشأن ايالتها وفي أثناء ذلك ظهر قصـور من قائـد طائفـة الكـول اوغلان وولى مصـطفى بـاي ابن البـاي المقلج ثم بلغه أن فرقة من الدوائر فروا من منازلهم المعينة لهم قـرب تلمسان ولحقـوا بـالحمرا نـواحي وهـران من جهـة البحـر فغـزاهم وفي طريقهم رأى بعض رعاة الجيش فسبقه إليهم وأنذرهم فبادر جماعة إلى الهـروب ودخلـوا في حصـن من الفرنسـيس وكـان قريبـا منـه وتـراخى آخرون فلحق بهم الأمير واكتسـح أمـوالهم وردهم عن وجهتهم فتفرقـوا أوزاعا في القبائـل وانتقـل الأمـير راجعـا على بلاد أولاد خالفـه من بـني عـامر ونـزل بـوادي الكيحـل فحضـر لديـه من أعيـان الـدوائر رئيسـهم المازري وبني عدة ولـد عثمـان ومن أعيـان الزمالـة رئيسـهم محمـد بن المختار ومحمد ولد قاسم وابن غفور وجماعة من الونـازرة فـأمرهم أن

يرتحلوا من منازلهم إلى معسكر وعين محلة العرقوب لسكناهم فأجابوا وارتحلوا حالاً واصل هـؤلاء الـدوائر والزمالـة أخلاط من العـرب والـبربر كانوا يلـوذون بالبـاي محمـد حـاكم معسـكر وفـاتح وهـران من يـد دولـة إسبانيا فلما حـدث الطـاعون الجـارف في المغـرب الأوسـط في أوائـل القرن الثالث عشر من الهجرة خيم الباي في ظاهر البلد وخـرج النـاس لخروجه فعين من هؤلاء الخدم جماعة للنزول في دائـرة خيامـه فسـموا دوائر وعين آخرين لحمل أثقالهم وأثقال عسكره فسـموا بالزمالـة ولمـا حصل لهاتين الفرقتين ما حصل من الاحترام والامتياز بين جميـع الرعيـة بإحراص مقاصدهم واستثنائهم من سائر المطالب الميريـة صـار النـاس من جميع الجهات يهرعون إلى الدخول في خدمتهم والانحياز إليهم وكثر عدد كل من الطائفتين وصارتا قبيلـتين عظيمـتين وكـثر نسـلهم وقـويت شوكتهم ولما انتقل الباي محمد إلى وهران بعـد أن فتحهـا انتقلـوا معـه فحازوا الوظائف الجليلة والمراتب العالية وتقدموا على من سـواهم من أعيان الوطن ورؤساءهم عند حكومة وهـران ولمـا بـدلت تلـك لحكومـة دولة الأمير أحسوا بانحفاطهم عما كانوا عليه انفوا واستنكفوا واقتحمـوا الشدائد العظيمة التي لا يعانيها غـيرهم فهلكت رجـالهم ولـنيت أمـوالهم وقل عددهم وانقطع مدده وبلغوا من الضعف غايته ومن العوز نهايتـه ثم حملتهم الأنفة على الانخراط في سلك الفرنسيس والدخول في عددهم وقـاتلوا المسـلمين دونهم وبـدلوا قـوتهم في نصـرتهم ولم يتخلـة عنهم الأمير إلا بعد أن اطلع على نفاقهم وأعراضهم ظاهراً وباطناً عن الإسلام وطالما حاول إبعادهم عن وهران فما أمكنه ذلك ولم يزل أعقـابهم ومن لم يهلك من كبارهم مع البرنسيس لهذا العهد .وأما الحشم فانهم أخلاط من القبائل كانوا خدما وحشما لبني زيان ملوك تلمسان وأما بنـوا عـامر فاصلهم من عـرب الشـام ومنـازلهم معروفـة في فلسـطين بمـرج بـني عامر ولما فـرغ الأمـير من تمهيـد الجهـة الغربيـة وإصـلاح شـؤونها ولى

عليها السيد محمد البو حميدي الولهاصي وانتقل راجعا إلى حضرته معسكر وتفرغ للنظر بأحوال الجند وتكثير عدده واستكمال عدده ولما اتصل ذلك بالجنرال دي ميشيل حاكم وهران اوعز إلى وكيله في معسكر عبد الله لمساعدة الأمير وإعطاءه الآراء لمساعدة الجند والاستقصاء في تعليمه وتدريبه وأرسل من طرفه معلمين ماهرين وأربعمائة بارودة ومقدارا وافرا من الذخائر الحربية وقال ان الأمير مستعد بالقيام بأعباء الملك غير أن ذلك لا يتم له إلا بالعساكر المنتظمة والجيوش المدربة وأما الحشود والجموع الغير منتظمة فلا تجدي نفعا ولا تستطيع جلبا ولا دفعا وعجب الناس من نصائح هذا الجنرال ومساعدته للأمير واعدوه من شعائر الإنسانية ودلائل الرغبة في دوام المواصل والمسالمة ثم ان الأمير وجه خليفته على بسكره والصحراء السيد محمد الصغير ابن عبد الرحمن ومعه السيد محمد بن كانون إلى احمد باشا باي تونس واصحبهما بسيف مرصع بالجواهر وخيول بسروج مذهبة والة شاي من الذهب وغيرها ثم رجع الوفد بغاية من الممنونية مصحوبا بالهدايا السنية فتقبلها الأمير قال بعض المؤرخين الإفرنج وبهذا الاتفاق اتجهت أحوال العرب للتقدم والنجاح ثم في أواخر شهر آب وفد الشيخ ابن الغماري رئيس قبيلة انكاد حليف الدوائر على الحضرة وابن عربي مظهر للخضوع والطاعة ومعه صهره محمد بن المداح رئيس قبيلة أولاد خويدم وقدور بن المخفي ورؤساء البرجية فأنزلهم الأمير في دار الضيافة وقدموا كلهم في وقت واحد كأنهم على ميعاد وفي ثاني يوم وصولهم أذن لهم الأمير في الدخول عليه فبش في وجوههم واحسن السؤال عنهم وبعد أيام أذن لهم في الانصراف إلى أهلهم سوى ابن عربي وصهره وشيخ انكاد ابن الغمارى فانه أمر بحبسهم حتى ينظر في أمرهم ومن الاتفاق العجيب انه حدث الوباء المعروف بالريح الأصفر تلك الأيام فمات به ابن عربي وصهره ابن المداح وبقي ابن الغماري

ففر من السجن وكان دس إلى أهله أن يأتوه بفرس ليهرب عليـه نظـراً لشيخوخته وعين لهم لوقت والموضـع الـذي يلاقيهم فيـه ففعلـوا فقبض عليهم العسـكر بالليـل وذهب ابن الغمـاري وخادمـه إلى الموضـع الـذي عينه لأهله فلم يجدهم ولحق بحرش بلـد المشـارف علي مسـافة قليلـة من الحضرة فأقام به ينتظـر أهلـه ولمـا طـال عليـه الحـال بعث خادمـه ليأتيه بما يقوته فقبض عليه وسألوه عن حاله فأجاب انه غريب سائل ثم قويت الشبهة فيه فضـيقوا عليـه فـاق بـأمر ودلهم على سـيده فقبضـوا عليه وأحضروه بين يدي الأمـير فـأمر بـه فعلـق على سـور البلـد وعلـق خادمه لجانبه ولم يزل جائلا في ميادين هذه المقاصـد متواصـل الحركـة في درء المفاسد تارة بالطعن والاثخـان وتـارة بالوعـظ والإحسـان على حسب ما يقتضيه الحال والزمان إلى ان استقامت الأمور وأمنت السـبل وارتفـع الشـقاق وارتـاحت الأفكـار بمـا يعينهم من زراعـة وتجـارة وعم الأمن الـبربري والقفـار قـال بعض المـؤرخين بلـغ أمـر بلاد الجزائـر في الأمن إلى حالـة لـو سـارن البنت البكـر الجميلـة في صـحاريها وقفارهـا حاملة نفائس الجواهر على رأسها لا تجد من يسألها فضلا عمن يتعــرض لهـا بسـوء وتعطـرت المحافـل بـذكر الأمـير عبـد القـادر ورمقتـه عيـون التعجب لما وصل إليه مع حداثة سنه من الأمــر المـدهش الـذي لم يكن مظنونا عند من يعرف أحوال بلاد الجزائر وضـغائن أهلهـا وعـدم انتظـام أمرهم ثم قال وكان لامير محافظا على إقامة الحق ناشـرا لـواء العـدل عمــوم الرعايــا يجــري القصــاص الشــرعي والسياســي على أصــحاب الجنايات بما يستحقونه لا تأخذه في ذلك لومة لائم وكان النـاس يقبلـون أحكامه ويتلقونها بانشـراح صـدر وطيب نفس وقـال غـيره بعـد ذكـر مـا جرى بين عساكر الأمير والخوارج أن همم الأمير عبد القادر لم تفتر في أثناء ذلك عن السعي بما فيه راحــة البلاد فانــه رتب سـائر مـا يلـزم من الخلفاء عنه والولاة ووطد الراحة العامة والحق يقـال أن الحصـول على

ذلك في مثل تلك الأوقـات أمـر عظيم جـدا وهـو دليـل كـاف على عظم همته فانه قطع ما يوجب سقوط إمارته وحـول أحـوال البلاد من العسـر إلى اليسر ومن الاضـطراب إلى السـكون في مـدة عشـرين شـهراً من يوم بيعته وابتداء دولته وقال ومن العجب أن تمكن إمارتـه كـان بقـوتين قوة رغبة وقوة رهبة إلا أن القوة الأولى كـانت هي المعـول عليهـا ولـذا كان الأكثر من سكان البلاد يطيعونه بخلوص ووداد وقال بلغ الأمـير عبـد القادر بالفطنة والدهاء ما لم يبلغه غيره من أمراء العرب وناهيك به من أمير جليل تلطف بالشروط التي قررها في عقد المعاهده وأظهرهـا في أسلوب عجيب حـتى أن الجـنرال دي ميشـيل لم يتوقـف في قبولـه ولم يتلعثم في الموافقة عليها بل أجراها وأمضاها في حل ثم ظهـر لـه منهـا ما تركه في حيرة من أمره وعلم أن الأمـير قـد خدعـه والحـرب خدعـة فـان ذلـك أن جميـع المعـاملات التجاريـة تكـون في مدينـة ارزيـو لا في سواها من الاساكل وإنها تكـون تحت نظـره لا مـدخل للفرنسـيس فيهـا وان جميع ما يـرد من الداخليـة لا يبـاع إلا في ارزيـو ولا يشـحن إلى بلاد أوربا إلا منها وأمـا وهـران ومسـتغانم فلا يـرد عليهـا من الداخليـة إلا مـا تقضي به حاجة أهلها فاعتمد الوكيل خليفـة ابن محمـود في ارزيـو على هذا وجعله نصب عينيه واستقصى في إجراءه وافرط حتى انه منع غـيره ان يشتري شـيئاً من واردات الداخليـة وإنمـا هـو يشـتري من الباعـة مـا يجلبونه من البلـد ويشـحنه على حسـابه إلى بلاد الإفـرنج فغضـب بـذلك تجار فرنسا ونقموا على الجنرال دي ميشيل ظناً منهم أن ذلك عن أذنـه وبرخصته فرفع أمرهم إليه فأنكر ما يكون ما يفعلـه الوكيـل منـه ثم انـه أجرى ما أرضى الطرفين وذلك انه أبقى للوكيل ما يرد عليه من واردات الأمير المختصة به من أملاكه وما سوى ذلـك جعلـه حـرا لا يختص بأحـد دون الآخــر .قــال وكــان الأمــير نبــه على وكلائــه أن لا يقبلــوا رجــوع المسلمين الذين هاجروا من وهران ومستغانم وارزيو فكانوا يمنعون كل

من رجع من أولئك المهاجرين أن يدخل إلى إحدى هذه المدن ويجبرونـه على الرجوع إلى داخلية البلاد وسـاعده م اذكـر في الشـرق الثـالث من شروط المعاهدة ثم اتصلت أخبار هذه الإجراءات من دولة فرنسـا فكـبر عليه الأمر لعدم اطلاعها على أحوال البلاد توهمت أن الأمير يراجع أمـير مكة المكرمة ويطلب منه الإمدادات فانتخبت لمراقبـة أعمالـه وحركاتـه غلاما فطنا اسمه روس ليون وسنه نحو العشـرين سـنة وهـو من عائلـة شهيرة من فرنسا وأرسلته صجبة أبيه إلى الجزائر بعد أن أعلمته بـالأمر المهم المرسل لأجله وهو تحقيـق أحـوال الأمـير ومراقبـة حركاتـه فلمـا وصل إلى الجزائر تلقف حتى وصل إلى الأمـير واسـلم على يديـه فـأمر الأمير بعض الفقهاء بن يقـرأه القـرآن وآداب الشـريعة والعقائـد الدينيـة ويعلمه اللغة والكتابـة العربيـة ولمـا تعلم احضـر إلى الأمـير فتعجب من اعتنائـه وذكائـه ثم زوجـه واسـتعمله في كتاباتـه الخصوصـية تأليفـا لـه وتشـويقا لغـيره فقـام بـأداء وظيفتـه أتم قيـام ولازم الأمـير في اغلب المواضع وخاض بعض المعـامع ودام على هـذا الشـأن مـدة من الزمـان ولمـا احكم التـدبير في أمـر الولـوج شـرع في التفكـير بإتمـام العمـل وسرعة الخروج فكتب كتابا بما أراده إلى أمير مكة المكرمـة وقـد خـط الأمير بالإمضاء بخاتمه الخصوصي ختمه وترك الأمـير منشـغلا بـالحروب مع فرنسا في بعض الوقائع فانتهز الفرصـة وآب إلى معسـكرهم راجعـا ومنه توجه إلى باريس واخبر الحكومة بما فعله وأصحبته بهديـة فوجهتـه إلى مكـة ولمـا قـام الشـريف محمـد بن عـون وسـلمه الكتـاب والهديـة واعتبره واكرم نزله بعد أيام سـلمه الجـواب مـع هديـة لائقـة بـالأمير ثم وادعـه وأمـره بالمسـير فـانقلب راجعـا وكـان مضـمون الجـواب إهدائـه السـلام والـدعاء البتوفيـق وبلـوغ المـرام فعنـد ذلـك تحققت الحكومـة الفرنسية أن لا مخابرة بينهما في أمور سياسية وقـد ألـف روس تاريخـا سماه ثلاثين سنة في الإسلام أودع فيه من أخبار الأمير ما وحسنه وزينه

ثم أمر الجنرال دي يشيل أن يبعث من طرفـه إلى دار الإمـارة معسـكر مراقبين مستعدين لإلقاء الدسائس في قلوب أعيان الرعية فجاءوا إليها في صورة متفرجين وجعل أمـرهم إلى وكيلهم عبـد اللـه فـأحس الأمـير بهذه المكيده وتنبأ لها واخـذ حـذرها ومنهـا فسـد على المراقـبين طـرق نجاحهم وقصر يد الوكيـل وأيـديهم عن الوصـول إلى مـرادهم وبالجملـة فـان آمـال الفرنسـيين الـتي كـانت تتعلـق بحصـول الراحـة لهم وإلقـاء الدسائس المؤثرة في قلوب رعايا الأمير خابت وذهبت سدا ثم ان دولـة فرنسا بعثت جماعـة من أعيـان أمراءهـا إلى الجزائـر في السـادس من ربيع الأول سنة إحدى وخمسـين والثـالث من يوليـة سـنه خمس وثلاثين وثمانمائة وألـف وجعلت إليهم النظـر في أمـورهم وعنـد وصـولهم إليهـا تذاكروا فيما أنتجت حروبهم من المنافع والمضار ثم تفاوضوا فيما يلــزم استعماله لتوطيد سلطتهم في البلاد فأنفقوا على وضع حكومة عسكرية ممتازة بسياسة مخصوصة في الجزائر وسـائر المـواطن الـتي اسـتولى عليهـا في السـاحل فصـار أمـر دولتهم بـإجراء مـا اتفقـوا عليـه وتعـيين الجنرال الكونت داروان دارلون واليـا على الجزائـر وعـزل الجـنرال دي ميشيل عن وهران وقد سمعت من الوالدة رحمـة اللـه أن سـبب عزلـه انه بلغ دولته بان مراده الدخول في الإسـلام فعزلـوه حـالا وولـوا مكانـه الجنرال قريزيل وأمر بدوام المحافظة على المعاهدة والرعايا لهـا ولمـا كان ميالا بالطبع إلى الخصـام جلابـا لأسـبابه جـرى في ظـاهره على مـا تقتضـيه أوامـر دولتـه وفي سـره على مقتضـى طبعـه واتفـق أن أهـل تيطري بعثوا بيعتهم إلى الأمير وأوفدوا علي مشيختهم فاتصل به خبرهم فـوجم لـذلك ورأى انـه قـد تهيـأ لـه الوصـول إلى مـا يريـده من نقض المعاهدة الجنرال دي ميشيل لثقل أمرها عليه ومخالفتها لمرامه وجاءته رسل ابن إسماعيل وقومه يعرضون عليـه أمـره ويعدونـه بـأداء الطاعـة عند أول فرصة فتهيأ لهم ففرح بذلك .ثم أن الأمير بعث وزيـر الخارجيـة

الميلـود بن عـراس إلى والي الجزائـر ليبلغـه التهنئـة والتبريـك بالولايـة ويريه ما عنده من أمر الوطن واصحبه مكتوبا إليه ملخصا بعد التحيـة أن معتمدي ابن عراش وجهتـه إلى حضـرتكم ليبلغكم التهنئـة والتبريـك من قبلي بالولاية على الجزائـر . ولقيـامي بالمحافظـة على أمـور المعاهـدة أوعزت إليه أن يفاوضـكم في أمـور تعين علي إجراءهـا لتوطيـد الراحـة لجميع المقاطعات الداخلية في السهول والجبـال والسـواحل الـتي على ساحل الجزائر وجوارها ووهران والمديـه وخشـيت أن يكـون ذلـك سـببا مكدرا لما بيننا من المصادفات . ومراد الأمير من هـذه أن يثبت بوسـيل خفية إمارته على جميع الأقاليم ما عدا الأربع المدن التي بيد الفرنسيس وصار ينتظر الجواب معتمدا أن أجابه برفض قبول المداخلـة مـع العـرب الذين خارج وهران ويجيبه بان لا يعنيه التعـرض لـه بمن لا يعنيـه أمـرهم عل انه يعلم من الجواب هل يمكنه أن يملك إقليم تيطرى بدون مجاوزة حدود المعاهدة أم لا فلما وصـل ابن عـراش إلى الحـاكم أكرمـه وفادتـه والآن لم الجـانب وكـان جـواب الأمـير بعـد أداء واجبـات التعظيم . قـد وصـلني مرسـومكم وبلغـني معتمـدكم مـا تعلقت بـه إرادتكم بالجهـة الشرقية وحيث أن جل مقاصد سـموكم توطيـد الراحـة العامـة كمـا هـو لمطلوب والمرغوب فيه عند دولة فرنسا ورجالها فلا تتوقفا وإني أؤمـل نجاح مقاصدكم ورفاهيـة شـعبكم وسـعادة البلاد ولـك أن تعتقـد بأنـك لا تقاوم في كل ارض تقصد الاسـتيلاء عليهـا بشـرط أن تكـون لـديك قـوة على أخـذها قـال بعض المـؤرخين أن قـرب عهـد الجـنرال بدخولـه إلى الجزائـر واليـا عليهـا وعـدم معرفتـه بـدهاء العـرب وطـرق حيلهـا وخلـو مجلسة ممن يشير عليه بالرأي ويوقفه على خفايا أحوال البلاد هو الـذي حسن له هذا الجواب مع ما أوصته به دولتـه عنـد تقليـده الولايـة بقولهـا يلزمك أن تحافظ على مسالمة الأمير عبد القـادر في سـائر الأحـوال ألا تجري أمرا ما يوجب اغبرار خاطره وإياك ان تتعاطى حركة تقضي عليك

بطلب العسكر من هنا مطلقا ثم أن الأمير لما رأى إلا شـيء يمنعـه من إجراء ما عزم عليه اعتمد على التوجه إلى تيطرى فمنعـه حـدوث الـريح الأصفر حينئذ في البلاد بعد زواله تأهب للسفر وكتب إلى حاكم الجزائـر يخبره بذلك وكان بعد رجوع ابن عراش بعث إليه بصورة الشروط الـتي أبرمها مع دي ميشـيل في المعاهـده فهالـه أمرهـا فلمـا اتصـل بـه خـبر المسير غضب وكتب في الجواب ما نصـه قـد فهمت مـا تضـمنه تحريـر سموكم والذي أنظره أن هذا العزم خال من الصواب وليكن في علمكم أن الجنرال دي ميشيل لم تكن له سـلطة ولا حكم إلا على ايلـة وهـران ولذلك لم يتعرض لم يتعلق بباقي الولايات وهما توسـعت دائـرة التأويـل فيما جى في معاهدة الثامن والعشـرين من فبربـير فلا يكـون لكم طلب إلا على ايالـة وهـران وبنـاء على ذلـك فلا نسـمح لكم أن تـدخلوا ايالـة تطـرى ولا ان تتجـاوزوا وادي شـلف شـرقا ونهـر ارهيـو إلى كوجيلـه وبالجملـة فلكم أن تحكمـوا في البلاد الـتي هي لكم بهـا الآن بحسـب شـريعة الإسـلام وبـذلك نكـون أصـحابا ولا اقـدر أن أرخ عسـاكركم أن تدخلوا إلى ولاية تيطرى لان كل ما يجري هناك يختص بي وإني مسـتمر مع ساكني الأقاليم على السلم ومعتمد على تعيين مراكز فرنسـاوية في البليدة وبوفاريك متى رأيت ذلك مناسبا لصالح فرنسا فأجابه الأمـير قـد وصلني تحريركم وتعجبت مما ذكرتمـوه فيـه ثم أقـول أن مـرمى أفكـار حضرتكم بعيد عن الإصابة لان محافظتي على السلم لا يجهلها أحد ولولا ذلك ما احتجت إلى مذاكرتكم فيما اجريه في وطني وقصارا الأمر انه لا يبعد أن يكون بعض أهـل الفسـاد ألقى في ذهن حضـرتكم مـا أوجب أن يكون جـوابكم على هـذا الأسـلوب وعلى كـل حـال إني عـدلت الآن عن النهوض إلى تيطرى إبقاء للسلم ورعاية له ثم أن أهل تيطرى لما طـال عليه الأمد تأخر عنه الأمير في إنجاز الوعد ولو أمرهم رجلا في غر مصر يقال له الحاج موسى بن حسن ويعرف بابي حمـار لإدمانـه على ركـوب

حمار له قد جاء إلى تلك الولاية واستوطن البلاد أولاد نائل منها واظهر النسك والصلاح وانتحلت تلقين أوراد الطريقة الشاذلية فاجتمعت عليه كلمة أولاد نائل وغيرهم من القبائل تلك الناحية وزحف بهم على مدينة المدية وهي حاضرة في الولاية فدافعه أهلها وأطلقوا عليه مدفعا كان عنده من أيام الحكومة الجزائرية فانكسر فجعل له كرامتا له ودانوا لطاعته وادخلوه إلى البلاد ثم انهم نظروا إلى مدفعهم فوجدوه متداعي الأجزاء من قبل أطرافه لما استعملوه تفرقت أجزاءه ولما شاع أمره واتصل خبره بالدوائر والزمالة وهم في منازلهم قرب تلمسان نبذوا طاعة الأمير نكثوا عهده وارتحلوا من منازلهم إلى قرب وهران ولحق رئيسهم ابن إسماعيل بالكول اوغلان بقصبة المشور من تلمسان فاهتز تريزيل حاكم وهران لذلك فرحاً وطار الخبر إلى الأمير فتغافل عنهم وأقام ينتظر ما يفعله حاكم الجزائر مع أبي حما المستولى على الولاية التي ارعد وابرق في أمرها ولما رأى الأمير أن الجنرال تصادم عن أبي عمار ولم يتعرض إليه احتشد الجيوش وعرض عساكرهم النظامية واصلح خللهم وضرب معسكره العام في هبرة لنظر أخيه الكبير السيد محمد سعيد لمراقبة الفرنسيس من جهة مستغانم وارزيو واوعز إلى بو حميدي والي تلمسان ان ينحدر بجموعه إلى نواحي وهران ليشغل حاكمها ويقف في وجهه ونهض هو في عساكره النظامية وحشود الجهة الشرقية اصدا تيطرى بعد أن علم الجنرال في ذلك في أواخر كانون الأول سنة أربع وثلاثين وثمانمائة وان توجهه ضروري لتوطيد الراحة لتلك الجهة وقطع الحركات بين القبائل ولما قارب بلاد العرب صبيح تعرضوا له وطلبوا جائزة الطريق جرياً على عاداتهم مع حكومة الجزائر فكبحهم واعظم النكايه فيهم فأذعنوا للطاعة ثم احتل لبلاد جندل واتصل خبره بابي حمار فجمع أعيان حشوده وخطب عليهم ووعدهم في الضفر قال لهم أية صدقه أن مدفع ابن محي الدين لا يعمل فيهم

وان باروده عند المواجهة يصـير مـاء ومثـل هـذه الترهـات .ثم كتب إلى الأمير يدعوه إلى الجهاد فإجابة أن هـذا غـير ممكن الآن لكـوني عقـدت معاهدة مع الفرنسيس وأما أنت إن كنت مسـتعدا لـذلك وعـزمت عليـه فشأنك وما تريد فلما اطلع على هذا الجواب كتب إليه يدعوه إلى بيعتــه فأجابه إنـني مبـايع من أهـل الـوطن فـان كـانت بيـدك أوامـر سـلطانية فأظهرها حتى نراها فان وجدناك صادقا نقـدم لـك الطاعـة امتثـالا لأمـر السلطنة العظمى وإلا فان الذي تراه اعظم مما تسمعه فلمـا بلغـه هـذا الجواب استشاط غيضا ونهض من المديـه في جموعـه للقتـال وتزاحـف الفريقان في بلاد وأمري وكان الأمير عندما شاع مـا لقـاه هـذا المـدعي على جموعــه من الخــزعبلات خطب على عســكره بقولــه الحمــد للــه والصلاة والسلام على سـيدنا رسـول اللـه وعلى الـه وأصـحابه أمـا بعـد فاعلموا أن الحق تعالى قلـدني هـذا الأمـر للمدافعـة والـذب عن الـدين والوطن وقد بلغكم خبر هذا الرجل فان تركته وشانه أخاف على الوطن وان تغتالــه غوائــل الفرنســيس على حين غفلــة وينشــا عن ذلــك من المفاسد ما يعسر علينا إصلاحه وأطال في هذا المعنى ثم قال هذا وإني اختبر الأمـر الـذي كـاد أن يوقـع في قلـوبكم مـا يـؤول بكم إلى تشـتيت الشمل وتبديد الجمع وذلك إني أطلق عليه مدافعي فان كان الأمــر كمــا زعم فأنا أول مطيع له بعد اختبار أحواله من جهة الشرع وان كان الأمــر بخلاف زعمه فهو دجال من دجالي هذا الـوقت ثم أمـر بـالزحف وإطلاق المدافع على أبي حمار فلمـا أطلـق القلـل على جموعـه انهزمـوا وولـوا مدبرين لا يلوي أحدهم على الآخر في تلك الجبال والأودية وفرهـو تاركـا نســائه وأولاده وســائر من كــان معــه من الــذخائر والمهمــات واثخنت العساكر في تلك القبائل الضالة عن سواء السبيل قتلا وســبيا .ثم صــدر الأمر بألف عنه بعد أن لاذوا بالطاعة وكان سببهم قـد رسـله إلى مليانـه فـرده عليهم فجـاء الطلب من أبي حمـار في رد نسـاءه وأولاده فـردوا

عليه ثم ارتحل الأمير إلى المديه فـدخلها وادي أهلهـا واجبـات الخضـوع واسترسلت عليه الوفود من جهات الولاية وقاصيتها لأداء البيعـة فبـايعوا عن أنفسـهم وعمن وراءهم وبعـد أن اصـلح شـؤونهم وثقـف أطـراف الولاية عقد عليها للسيد محمد البركاني من أعيـان أشـرافها ولمـا شـاع خبر هذا الاستيلاء واتصل بالجنرال تريزيل حاول أن يتخذه وسـيلة لنقض المعاهدة فجمع مجلسه وفاوضهم في ذلـك وقـال أن أمـير العـرب عبـد القادر تجاوز الحدود المقررة لـه فمن المتعين علينـا ان نهاجمـه في دار ملكه فاستحسنوا قوله ثم بعث بهذا النص إلى حاكم الجزائر فـأبى ذلـك ونقمه عليه واطلع مجلسه على ذلك وقال إنني لست مأمورا من الدولة بنقض المعاهـدة ولا مسـتعدا الآن لفتح بـاب الحـروب ويجب أن نتنـازل ونسعى في تجديد المعاهدة مع الأمير ما دام في المدينة الـتي اسـتولى عليها وعلى ايالتها ونضرب طفحا عن تعرضنا له لعـدم مسـاعدة الـوقت على مناجزته فوافقوه على ما قرره ثم حرروا شروط العاهـدة وبعثوهـا صحبة القبطـان سـنت ايبـوليت والموسـوي ابن دران واصـحبها الحـاكم بهـدايا فـاخرة إلى الأمـير . وصـورة الشـروط الـتي انتخبهـا الحـاكم أولا يعترف الأمير برآسة ملك فرنسا على أفريقية ثانيا تكون سـلطنة الأمـير عبد القادر محصورة في ايالة وهران المحدودة بنهـر شـلف ونهـر ارهيـو إلى كوجيله ثالثـا تعطى الرخصـة العامـة للإفـرنج في السـفر في سـائر جهات بلاده رابعا أعطـاه الحريـة التامـة لتجـارة في الـداخلي خامسـا لا يصـير تسـليم ولا اسـتلام شـيء من الأغلال والبضـائع إلا الـتي بيـد الفرنسيس سادسا يدفع الأمير عبد القادر ضريبة سنوية للدولة مع وضع رهائن للامن علي ذلك .

فلما وصل الرسولان إلى الأمير في مدينة المديـه وكـان على أهبـة الرجـوع إلى دار ملكـه رحب بهمـا واكـرم وفادتهمـا وعـرض عليهمـا أن يصـحباه إلى الحضـرة فأجابـاه إلى ذلـك ونهض إلى الميـه راجعـا

والرسولان في معيته قال بعض مؤرخي الإفرنج قد حصـل للنـاس تـأثير عظيم في ذلك واستدلوا به على عظم ملك الأمير وحسن سياسته حتى انه جعل ضباط الفرنسيس يسافرون معه ويقصدون عـرش ملكـه ولمـا كان الأمير في المديه كان في معيته خليفته السيد محي الـدين بن علال والي مليانه فلما بلغ في مسيره إلى وادي الفضة أعطـاه الإذن بالتوجـه إلى ولايته واستمر سائرا إلى معسكره العـام في هـبرة ففضـة وارتحـل ال معسكر ودلائل اللطف والوداد لتجدد لأولئك الضيوف من قبلهم وبعد أيام سلمها رقيمـا إلى حـاكم الجزائـر وضـمنه الشـروط الـتي رغب في عقد المعاهدة أن يكـون عليهـا بموجبهـا وهـذه صـورتها . يشـترط ناصـر الدين عبد القـادر بن محي الـدين أولا أن تبقى جميـع الايـالات الخاضـعة لهم تحت سلطتهم وحكمه كما أن المدن التي استولى عليها الفرنسيس تبقى على حالها في أيـديهم ثانيـا أن ولاة المديـه والمليانـه عنـد عـزلهم تبعث أسمائهم إلى الحاكم العام ليعرفهم ولتكـون المواصـلة مـع الأمـير بواسطتهم ثالثا أن المتجر يكون حرا للجميع رابعا أن الفرنسيس يكرمن العرب كما أن العرب يكرمون الفرنسيس في جميع الأمـاكن خامسـا أن الأمير له أن يشتري من الجزائر بواسطة وكيله فيها سائر ما يحتاجه من الآلات والمهمات الحربية سادسا أن الأمـير يـرد جميـع الفـارين إليـه من الفرنسيس كما أن الحاكم يرد الفارين إليه من العـرب سـابعا أن الأمـير إذا عزم على السفر إلى قسنطينة أو غيرها يخبر بذلك الحاكم العام مـع الإفادة عن سبب ذلك السفر .

فلما اتصلت هذه الشروط بالحـاكم اظهـر السـكون إليهـا وفهم من فحواها ان الأمير جانح لعقد معاهـدة جديـدة فسـافر لوقتـه إلى وهـران وبعث إليه لأول وصـوله يخـبره بقدومـه إليهـا ليكـون قريبـا منـه تيسـيرا للمخـابرة .وكتب إليهمـا نصـه بعـد التحيـة والتعظيم قـد وصـلني رقيم سموكم من يد رسول القبطان سنت ابيـوليت وفهمت مـا في أفكـاركم

ولأجل أن أتمكن من إجراء المخابرة معكم بوجه السـرعة حضـرت الآن إلى وهـران في السـابع عشـر من صـفر سـنة اثنـتين وخمسـين واليـوم الرابع من يوليه سنة ست وثلاثين وثمانمائـة وألـف فأجابـه الأمـير يهنيـه بوصوله وكان الحاكم ينتظر الجواب بغير ذلـك حيث انـه كـان يتمـنى أن يـدعوه الأمـير إلى الاجتمـاع ثم أن الجـنرال تريزيـل أنكـر على الحـاكم قدومـه إلى وهـران وقـال لا أجـد لزومـا لحضـوركم لان ذلـك يـدل على ضعف أحوالنا وأيضاً فـان دنـوكم من الأمـير يكـون كالمصـادقة لـه على سائر تصرفاته فاثر ذلك بالحـاكم وانقلب راجعـا إلى الجزائـر قـال بعض مؤرخي الإنكليز عندما تعرض لبعض شروط الأمير أن معاهدة كهذه جـاء بها القلم النحيف لتنقض حقوقا عظاما ومنحا اوجدها السيف البتـار لابـد أنها فتحا لباب الحرب وفي الحقيقة إنها كانت سياسـة الأمـير حيث علم انه يعظم أهميـة قوتـه تقـوم هـذه المعاهـدة وعلم أن تلـك القـوة تأتيـه باستقلالية تامة سواء اشترط أو اشترط عليـه ولـذلك وصـف نفسـه في تجريره إلى الحاكم بناصر الدين ثم ان الحاكم لما وصل إلى الجزائر أمر الجنرال تريزيل أن يعتني دائما باسـتجلاب صـداقة الأمـير والاتحـاد معـه فاستشاط تريزيل لذلك غيظا وأمسـى متخـيرا بين كونـه يخضـع لأوامـر الأمير ويطلب رضاه في كـل الأمـور المتعلقـة بداخليـة البلاد وبين كونـه يضـع نفسـه في حالـة يتمكن بهـا من الاسـتقلال في عملـه ثم كتب إلى الحاكم يخبره بنزوع الدوائر والزمالـة إلى الخضـوع لدولـة فرنسـا وانهم طلبوا منه ان يأذن لهم بالنزول بأرض مسركين خـارج وهـران وان يعين له فرقة من العسكر لحمايتهم وحيث ان الحاكم كان مؤملا في الحصول على المعاهـدة أجـاب الجـنرال أن يـتربص في أمـرهم وان يكـون معهم على حال تحتمل قبول طلبهم ورفضه ولما اتصل ذلك بالأمير كتب إليهم أما بعد فليكن في علمكم جميعا انه قد طال مـا نصـح نـاكم ووعضـناكم وبينا لكم ما يجب عليكم شرعا أن تفعلوه أو تتركوه فلم تقبلوا ذلك ولم

تلتفتوا إليه والآن بلغ السيل الربى فلابـد أن ترجعـوا عن غيكم وتسـلكوا جادة الإسلام التي مضى عليها آباءكم وتتركوا منازلكم التي انتم بها الآن وترجعوا إلى منازلكم الأولى لقرب تلمسـان وإلا فلا تلومـوا إلا أنفسـكم مما يحل لكم من الانتقام بحـول اللـه وقوتـه قـال بعضـهم لمـا بلـغ هـذا الكتاب أولئك القوم تحيروا في أمرهم وصـاروا بين أمـرين خطـرين أمـا الانقياد إلى الطاعة والرحيل من منـازلهم الجديـدة وقلـوبهم تـأبى وأمـا إشهار ما هم عليه من النزوع من الفرنسيس والانفصال عن المسـلمين ثم ترجح عنده إلا خير . وأرسلوا وفدهم إلى الجـنرال تريزيـل فـاطلعوه على حقيقة أمره وطلبوا إنجاز ما كان وعدهم به فأجابهم إلى مطلـوبهم وخرج مسرعا إلى مسـركين حيث مخيمهم فتلقـاهم رؤسـاءهم وقـدموا إليه طاعته وعقد عليهم شروطه وهي أولا نـترف القبائـل برئاسـة ملـك فرنسا وتلتجأ تحت حمايتهم ثانيا تخضع القبائل إلى من يوليـه عليهـا من رؤساء الإسلام ثالثـا يقـدم القبائـل في الأوقـات المعينـة المـرتب الـذي كانت تقدمه إلى بكوات الترك رابعا يكون اقتبال الفرنسـاوية جيـدا عنـد القبائل كما يكون اقتبال عند الفرنساوية خامسا تجارة الخيـل مـع سـائر المواشي وتجارة المحصولات تكون مطلقة لكل إنسان عند القبائل . أما البضائع التي تعين للوسق فلا يصير وسقها إلا من المراسي الـتي يعينهـا الحاكم العام سادسا لا تكون تجارة الأسلحة وسائر متعلقـات الحـرب إلا بواسطة مأموري الفرنساوية سابعا تلـتزم القبائـل لتقـديم نجـدتها مـتى دعاها والى وهران إلى غزوة حربيـة في إقليم أفريقيـا ويكـون للفـارس فرنكان وللماشي فرنك واحد كل يوم وكل واحد منهما يحمل في الأقـل خمس فشـكات ويعطي في الترسـخانة عشـر فشـكات وكـل من يقتـل حصـانه في الحــرب يعطى بدلــه ثامنــا أن لا تتعــدى القبائــل على من يجاورها من القبائل فان صار تعد منهـا عليهـا فعندئـذ تعلم والي وهـران لنجدتها تاسعا مـتى ذهبت العسـاكر الفرنسـاوية إلى العـرب يعطي لهم

كل ما يحتاجونه من المؤونة بالثمن العادل عاشرا الاختلاف الذي يحـدث في القبائل ان كان في قبيلة واحدة يصرفه قاضيها وان كان بين قبيلتين يصرفه قاضي وهران الحادي عشـر ينتخب رئيس من كـل قبيلـة يسـكن مع عائلته في وهران فقبلوا هذه الشروط وصادقوا عليها .

ولما رجع إلى وهران بعث إلى الحاكم يخبره بمـا أجـراه مـع أولئـك المتنصره وأرسل إليه صورة ما اشترطه عليهم فلم يحز القبول ولا وقـع موقع الاستحسان وبعث إليه الجـواب بمـا حاصـله وصـلني تحريـرك مـع صورة الشروط التي أجريتها مـع قبيلـتي الـدوائر والزمالـة وهـذا العمـل وان يكن سيعود على فرنسا بالنجاح فانه سيكون لا محالة مانعا لإمضـاء المعاهـدة المنتظـرة مـع الأمـير عبـد القـادر وقـد رجـع إلى ابن دران الموسوي إجراء ما نبتغيه من الأمير وبالجملة فـإني أرى عملـك هـذا لم يوافق طريق الصواب .

قال المؤرخ المذكور فغضبت تريزيل لهذا الخطاب وكان جوابه إلى الحـاكم قـد وصـلني تحريـركم وفهمت منـه أن وسـاوس ابن دران الموسوي كـادت تـؤثر فيكم والـذي أقولـه أن هـذا الرجـل لم تكن لديـه خبرة ولا عنده وقوف على بواطن الأمير عبـد القـادر وان الـتربص بهـذا الأمر مما يزيد ملك هذا الأمير قوة جديدة وخلاصة الأمر إنما أجريتـه مـع الدوائر والزمالة لم يكن مخالفـا لمجـالس وزارة الحـرب في بـاريز وان كانت أفكاركم تأبى فتكرموا برد ورقة الشـروط مـع تعـيين من يخلفـني في وهران فلمـا اطلـع الحـاكم على هـذا الكلام علم انـه قـد أخطـا في اجتهاده وان تريزيل اكثر اطلاعا منه على غوامض أمور العرب ومع ذلك لم ييأس من الحصول على ما رغب فيه من إجراء المعاهـدة مـع الأمـير قال وكان الأمير يجتنب كل أمر يكون سببا لنقض المعاهدة الأولى حـتى انه دائما يصدر أوامره إلى خلفائه لـذلك ثم كتب إلى الحـاكم يحتج إليـه فيما أجراه تريزيل يقول له قـد ارتكبتم مـا يـؤذن بنقض المعاهـدة الـتي

عقدناها مع الجنرال دي ميشيل وارتبط بها دولة فرنسـا واعتمـدتها ومن جملتها ان لا تقبل من يلجا إليكم من العرب كما إننا لا نقبل من يقر إلينا من الفرنسيس فجاء الجواب من الحاكم محتويا على مخادعـة ومحاولـة وصمته . أني أوضح لسموكم أن المعاهدة الـتي رغبنـا في إجراءهـا الآن معكم لا تكون مخالفة للمعاهد التي وقعت عليها الاتفاق مع الجنرال دي ميشيل سابقا نعم ان لفظة هارب المحررة في صك المعاهـدة السـابقة لم تفهم منها العموم إذ ربما يكون الهارب ليس في نيتـه الالتجـاء وإنمـا قصد بسكناه عندنا ما هو جار بين النـاس من تفضـيل ولايـة على أخـرى وهذا أضنه لا يضر ولا يكون فاتحا لأبواب الخصام الذي لاشك انـه يكـون ممقوتا عند أصحاب السلم العام هذا وإنني على كـل حـال أحافـظ على تلك المعاهدة بكمال الشـرف والاعتنـاء فأجابـه الأمـير بقولـه قـد وفقت على ما حواه كتابكم والذي أقوله لك الآن انك أيها الحاكم تعلم الشروط التي ربط يها دي ميشيل نفسه بـإذن دولتـه وعنـد وصـولك إلى الجزائـر وعـدتني بالمحافظـة عليهـا وانـك تعلم جيـداً أن الحكومـة الفرنسـوية ملزومة بان ترد إلى كل مذنب التجـأ إليهـا ولـو كـان رجلا واحـداً فكيـف بالعشـيرة والقبيلـة وعلى هـذا فـان قبائـل الـدوائر والزمالـة من جملـة رعيتي التي احكم فيها بموجب شريعتي والآن أبلغك البلاغ الأخير انك إن رفعت الحمايـة عنهم فنحن على مـا كنـا عليـه من المعاهـدة الـتي وقـع عليها الاتفاق قـديماً وإلا فـإني لا أسـتطيع مخالفـة شـريعتي في التخلي عنهم حـتى وانهم لـو اعتمـدوا على رأيكم لضـعف آرائهم وقلـة دينهم ودخلـوا مدينـة وهـران فلا ارفـع عنهم يـدي ولابـد أن ألحقهم وأطـالبهم بالرجوع عن خطئهم فان كنت ولابد معتمداً على إنفاذ ما صورته أفكارك من إدخالهم تحت حوزتك فاطلب وكيلكم من عنـدي واخـتر لنفسـك مـا يحلـو وميـادين المعـامع تقضـي بيننـا ومسـؤولية إرهـاق الـدماء وإتلاف الأموال راجعة إليك وعليك الله يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد . ذكر

انتقاض المعاهـدة لمـا وصـل الأمـر إلى هـذا الحـد وعلم الأمـير أن المعاهدة قد طوى بساطها وانقطع نياطها فاوض أهل دولته ونـدبهم إلى الجهـاد ثم دعـا رؤسـاء الجنـد واعيـان الحضـرة إلى الجـامع وطلـع على المنبر وخطب عليهم بقوله . أما بعـد فلا يخفى أن اللـه تعـالى قـال في كتابه المجيد يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلـونكم من الكفـار وليجـدوا فيكم غلظةً وقـال قـاتلوهم حـتى لا تكـون فتنـة ويكـون الـدين كلـه للـه وهؤلاء القوم قد عاهـدناهم فنكثـوا وصـدقناهم فغـدروا وصـابرناهم فلم يصبروا وان تركناهم وشأنهم فلا نلبث أن نراهم قد فتكـوا بنـا على حين غفلـة وهـاهم قـد خـدعوا الـدوائر والزمالـة وغـيرهم من ضـعفاء الـدين وحازوهم إليهم فما الذي يمنعنا من دفاعهم ومقاومتهم ونحن موعـودون بالنصر على أعدائنا فهيا أيها المسلمون إلى الجهاد وهلموا إليـه باجتهـاد وارفعوا عن عواتقكم برود الكسـل وأزيلـوا من قلـوبكم دواعي الخـوف والوجـل أمـا علمتم من مـات منكم مـات شـهيدا ومن بقي نـال الفخـار وعاش سعيدا ثم هـز سـيفه في يـده ثلاثـاً فضـج القـوم عنـدها بـالتكبير وقالوا نحن على السمع والطاعة لسيدنا ومولانا ناصر الدين ثم قام أياماً ينتظر جواب حاكم الجزائر فلما تأخر عنه جاء الأمر للوكيل بالســفر إلى وهران دعى وكلاءه من مواضع وأمر بنصب العلم خارج الحضرة ونــودي بالجهاد وصدرت الأوامـر إلى سـائر النـواحي والجهـات بالتـأهب للحـرب فارتاح المسلمون لذلك واخذوا يستعدون للقتال واهتز المغرب الأوسـط بأهله للقتال وبادر أبطاله من المتطوعة إلى دار الملك . ذكر

وقعـة المقطـع وهزيمـة الجـنرال تريزيـل وعزلـه وغـير ذلـك من الحوادث

ولما كان الجنرال تريزيل عازما على نقض المعاهدة بما أمكنه خرج من وهران في الرابع عشر من ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وأول شهر يوليه سنت ست وثلاثين وثمانمائة وألف في خمسة آلاف من المشاة وفرقة من الخيالة وأربع قطع مدافع

جبلية وعشرين مركبة زاداً عدا عن المركبات الاحتياطية يقدمهم جيش الدوائر والزمالة ونزل في تليلات علي مرحلة من وهران وكان الخليفة البو حميدي في تلك النواحي مراقباً لخ من مدة شهور فطير الخبر إلى الأمير فنهض لوقته من الحضرة في نحو التيى فارس وألف من المشاة واحتل سيك عازما على الإقامة هناك إلى أن يتلاحق الناس به فعاجله تريزيل وارتحل من تليلات زاحفاً إليه فعبأ الأمير كتائبه ورتب مصافه وحضر خليفته البو حميدي في جيشه فعينه في الميمنة وجعل خليفته بوشقور على الميسرة وثبت هو في القلب وتزاحف الجمعان في حرش مولاي إسماعيل بالقرب من سيك وابتدأ القتال مناوشة واستمر على ذلك متواصلا يومين وفي اليوم الثالث هجم عسكر الفرنسيس على المسلمين والتحمت الصفوف واشتد القتال فارتدت عساكر الفرنسيس على الأعقاب منهزمة إلى داخل الحرش بدون ترتيب ولا نظام وقتل على ما ذكره روا في تاريخه عدد كثير فيهم الكمندان اودينوا ابن المارشال دوك دي تريدو ووقوع هذا الرئيس قتيلا أمام صفوفه كان سبباً في الهزيمة الشنعاء إلى الحرش حيث أن جيوش الأمير أجهدهم العطش وطال عليهم القتال ورأوا العدوّ قد انهزم رجعوا عنهم وتفرقوا ظناً منهم انه يسمر منهزماً إلى وهران ولم يبق مع الأمير سوى عمه سيدي الجد للام السيد علي أبي طالب وهذه النادرة الاتفاقية ذكرتني ما وقع للنبي صلى عليه وسلم في غزوة حنين حين تفرقت جيوشه حتى المهاجرين والأنصار ولم يبقى معه سوى عمه العباس آخذاً اللجام بغلته صلى الله عليه وسلم التي كان راكباً عليها يومئذ ثم ان جيوش الأمير لما علموا العدو بات تلك الليلة في الحرش وان الأمير لم يزل مراقباً له صاروا يتراجعون إليه أفواجاً أفواجاً حتى اجتمعوا كلهم وتلاحقت به الجموع التي شهدت القتال بالأمس وامتلأ سهل سيك بالمسلمين وأما الجنرال تريزيل فانه رأى أن طريقه الذي جاء عليها قد سدت في وجهه انعطف راجعا إلى وهران على طريق ارزيو ولما رآه الأمير انه سلكها خف في ألف فارس انتخبهم من عساكره وأردف كل فارس منهم عسكريا من المشاة وسبق بهمالى مجاز نهر هبره المعروف بالمقطع وليس لذلك النهر مسلك غيره فأحاطت جيوش المسلمين بالجنرال وعساكره وأضرموا عليه نار الحرب في حال السير من كل جهة واستمروا على ذلك إلى أن قاربوا المقطع وكان الأمير وصل إليه فلما رأته مقدمة الجنرال ارتدت على أعقابها واضطرب العسكر الفرنساوي وخاض بعضه واختل نظامه وألجأه المسلمون إلى غياض النهر وأذاقوه نكال الحرب واثخنوا فيه بالقتل والأسر واستولى الغرق في النهر على عدد كثير منهم واستولت الأيدي على ستائر العجلات وما فيها من الذخائر والمدافع واكب المسلمون على جميع الغنائم والأسرى إلى الغروب وكان التعب اخذ منهم مأخذه وفي هذه الفرصة انسل الجنرال تريزيل ومن بقي معه من الجيش إلى ساحل البحر ومن هناك جدوا في الهرب إلى ارزيو تاركين لقتلى والجرحى وسائر ما خرجوا به من وهران في أيدي المسلمين وفي الساعة السابعة ليلاً دخلوا إلى ارزيو على أسوء حال وقد أسهب مؤرخو الإفرنج في هذه الواقعة وملخص ما انتخبه من أقوالهم انه لما علم الجنرال تريزيل وقواد العسكر ان طريقهم التي جاءوا عليها من وهران قد سدت عليهم عرجوا على طريق ارزيو فبلغهم أن الأوعار التي في تلك الجهة يتعذر المرور فيها بمركبات الذخائر ومركبات المدافع فاعتمدوا على السير فيما وراء جبال حميان ويعبرون نهر هبره ولما نظر الأمير إلى الطريق التي سلكوها علم انه إذا سبقهم إلى المقطع يتمكن من جوزه قبل أن يصلوا إليه وبذلك يمسون في قبضته وكان الأمر كذلك وقد أدرك منهم ما أراد وارتاد وقال آخر سبق الأمير إلى مجاز النهر وضبطه من نتائج التصورات السعيدة التي تكلل صاحبها بالنجاح وقد وصل الجنرال

تريزيل وجيشه إلى المقطع عند انتصاف النهار بعد أن أعياهم السير ودوختهم جيوش العرب التي كانت محيطة بهم وتجاذبهم القتال وبينما هم في حالة الدفاع نظروا الأمير قد انقض عليهم هو ومن معه كالعقبان على مستضعف الطيور فتحيرت عساكر فرنسا واستولى عليها الدهش ولم يجد الجنرال مسلكا يقودهم إليه ولا مغيثا يفرج عنهم ما هو فيه فاندفع آخر العسكر إلى الأمام وأولهم إلى الخلف واخذ الطوبجية ذات اليمين فغرقت عجلاتهم بمدافعها في تلك المخاضات المهلكة التي لا اطلاع لهم عليها من قبل وتفرقت كتائب العسكر وانقلبت من هنا إلى هناك ابتغاء الخلاص ولات حين مناص واقتحم أكثرهم مسيل النهر فأخذهم ولم يأت الغروب إلا وقد تشتت من بقي منهم وتركوا موتاهم وجرحاهم وسائر ذخائرهم في يد العرب وأسرعوا متسابقين إلى ناحية ارزيو دون انتظام لا يلوي بعضهم على بعض فوصلوها ليلاً في الساعة السابعة وأما العرب فانهم باتوا تلك الليلة في ابتهاج لا مزيد عليه وارتفعت أصواتهم وتعالت مشاعلهم وأقاموا على ذلك طول الليل ولو صعد إنسان إلى الجو لرأى منظراً عجيباً وسمع صوتاً كالرعد القاصف وتراءت له هضبة مجتمعة من رؤوس الجيوش الفرنسوية وقال غيره لما ارتحل الجنرال تريزيل من حرش مولاي إسماعيل قاصداً ارزيو حشرته جيوش العرب عند المقطع وهو المحل الذي أعده الأمير عبد القادر لدفن العساكر الفرنسوية ثم هجمت عليه جموع المسلمين يقدمها حضرة الأمير كالعقبان على الطيور الضعيفة وفي اقل زمان فتكت في العساكر فتكاً لم يعهد نظيره وكرت على باقي الجيش فتشتتت شمله ولم تكتف حتى حكمت سيوفها في أعناقهم وقد حاول العسكر الفرنسوي الذي أكثره جرحى ان يفروا فلم يهتدوا إلى الطريق ومن اقتحم النهر منهم هلك والعرب في وسطهم كالجزار استعمل مديته في أعناق غنم محبوسة وفي وقت الغروب تلاحق الباقون وفيهم الجنرال تريزيل في سهل ممتد على سيف البحر وساروا إلى ارزيو ولو اتبعهم العرب ما تركوا منهم مخبراً انتهى .اخبرني من يعتد بخبره من أحبابي قال حدثني من أثق بحديثه وأمانته من أصحابي قال ذهبت سنة سبع وأربعين ومائتين وألف إلى مدينة وهران بقصد التجارة بها وذلك عقب استيلاء الفرنسيس عليها قال وكنت يومئذ في سن الشباب حين بقل عذاري فاقمت بها مدة وكان الحاج عبد القادر بن محي الدين إذ ذاك مهادناً لكبير الفرنسيس بوهران والجزائر وقد انزل كل واحد منهما ببلد الآخر وكليه وتجاره على العادة في ذلك أيام الهدنة فلما كان ذات يوم ورد الخبر بان قبيلتي الزمالة والدوائر من ايالة الحاج عبد القادر وهم نحو ألفي خيمة قد فروا منه ونزلوا حول مدينة وهران مشجيرين بالفرنسيس وقد رفعوا رايتهم وأعلنوا بأنهم تحت حكمه ومن جملة رعيثه فبعث إليهم الفرنسيس يعلمهم بأنه قد قبلهم ولا يصيبهم مكروه فلما كان من الغد بعث الحاج عبد القادر مع كبير دولته الحاج الحبيب ولد المهر العسكري كتابا إلى الفرنسيس يقول فيه انك قد علمت أن هؤلاء القوم الذين فروا إليك هم رعيتي ومن ايالتي وعليه فلا بد ان تردهم علي وإلا فالحرب بيني وبينك فامتنع الفرنسيس من ردهم وأجاب إلى الحرب وأتقنوا أن يخرج كل منهما إلى الآخر تجار الذين في أرضه وان من بقي منهم بعد ثلاثة أيام فدمه هدر واتفقوا أيضاً على أن يكون الوكيلان آخر من يخرج وان يكون خروجهما في ساعة معلومة من الليل بحيث يلتقيان على المحدة التي بين ارض المسلمين وارض النصارى ففعلوا وخلص كل إلى مأمنه ولما انقضى الأجل تزاحفوا للقتال في يوم معلوم فكانت بينهم حرب يشيب لها الوليد ولما كان المساء سمع الناس من داخل البلد ضوضاء وجلبة عظيمة وباروداً كثيرا وإذا بالحاج عبد القادر قد هزم الفرنسيس هزيمة شنعاء حتى ألجأهم إلى سور ارزيو وازدحموا على أبوابه وركب بعضهم بعضا وجاءت خيالتهم من

خلفهم فركبوهم أيضا ومشوا عليهم ورفسوهم بخيلهم فهلك بهذا الازدحام من الفرنسيس نحو أربعة آلاف غير الذين هلكوا خارج البلد بالكوز والرصاص والتوافل والرماح واستولى المسلمون على معسكر النصارى بما فيه من مدافع وعجلات وفساطيط وأخبية وأثاث وكانت فنكة بكراً ثم قال لي وكنت في تلك المدة مساكناً لبعض كبراء عسكر الفرنسيس في دار واحدة فلما انقضت الواقعة بيوم أو يومين سألته كم تراه يكون هلك من عسكر الفرنسيس في هذه الواقعة قال اقرب لك أم ابعد قلت بل قرب قال أنا كبير من كبراء العسكر وتحت نظري ثمان عشرة مائة بقي منها في هذه الواقعة ثمانية عشر عسكريا انتهى كلام المخبر .واستشهد في ذلك اليوم العظيم من رؤساء العسكر المحمدي الاغة قدور بن بحر ومن أعيان الجيوش المتطوعة خليفة بن محمود الذي كان أيام المعاهدة وكيلا في ارزيو والسيد محمد بن الجيلاني الورغى والسيد محمد المشرفي في عدد من المسلمين ثم أن الأمير أمر بجمع الغنائم ودفن المجاهدين وارتحل إلى سيك وبعث الأسرى والغنائم إلى الحضرة وكتب إلى خلفائه في مليانه والمديه يبشرهم بما من الله به على المسلمون من عجيب الانتصار الذي خلف لعدوهم تريزيل عند دولته العار والشنار وبعد أن أقام الأمير في سيك أياما ارتحل إلى حضرته معسكر وكان عمه سيديال جد علي أبي طالب قدم إليه ثاني يوم المقطع قصيدة تهنئه يقول فيها . هنيئا لك البشرى

نصرت على العدى ◈ ودمرت جيش الكفر بالقتل والخسف
وحزت مقاماً دونه كل باسل ◈ يرى الحرب ميدان الخلاعة والقصف
بجيش عظيم قد تفرد في الوغى ◈ له سطوة عزت وجلت عن العصف
فسعدي بعز مذ حللت بشطنا ◈ تطوف بكاس الراح مخضوبة الكف
تعاطيك طوراً من لهيب ومن لظى ◈ وآونة تاتيك بالقرقف الصرف
ولما تولت خيلنا ورجالنا ◈ مددنا لهم أيدي النزال إلى السيف
بكل جواد يسبق البرق عدوه ◈ وآخر يطوي الأرض كالريح والطرف
نهار بدا كالليل اظلم حالكاً ◈ أصبنا لهم ألفي قتيل مع النصف
قلبنا لهم ظهر المجن عشية ◈ فمالوا أي حب الحياة عن الحتف
وبدد شمل المشركين بنصره ◈ أزالت غياهيب الضلالة باللطف
أمام له تبدو المعالي بقطرنا ◈ فلله ذاك الفرد قد قيس بالألف
أمير شريف في البرية مفرد ◈ وفرع لمحيي الدين أغنى عن الوصف
صرفنا به غم الزمان وكربه ◈ وغبنا عن الدهر المروع بالصرف

إلى أن قال :

وتبنى أصول الحب فيك على لوفا ◈ إذا ما بناها الكافرون على حرف
يحييك دهر أنت ظرف وداده ◈ وما كل خل طرفه لك كالظرف
وان أخا الود الذي عم فضله ◈ ليقنع من تلك الشمائل باللطف
إلا لا أرانا الله فيك إساءة ◈ فدم لعروس الملك زاهية العطف

وهنأه بعض الأدباء أيضاً بمقصورة مطلعها

هون علي الأمر يا دهر فما ◈ أنصفتني ولا قلبت المشتطا
عسى الذي اجدب روح مهجتي ◈ يخصب مني روحه أوصل عسى
أو يرتضيني حضرة المولى الذي ◈ ساوى الذي مضى وما يأتي ورا
باهت به الاقيال عند حربها ◈ لما رأت نار الحروب تصطلى

ومنها

أدرك ثاراً في العدى بحزمه ◈ كعمر الفاروق فيما قد مضى
وبرامر الملك حتى شاده ◈ برغم من عاداه من كل الملا
جاهد في الله وأمسى ضاربا ◈ بسيفه هامات عسكر العدى
قاتل أهل الكفر لا ينبغي بذا ◈ إلا رضى مولاه في يوم الجزا

ومنها

فخر لعبد القادر المولى السري ◈ يبقى ليوم الدين حيث الملتقى
ابن الملوك الصيد والقوم الأولى ◈ يروي حديث مجدهم عمن روى

ومنها

رقيت يا كهف الأنام للعلى ◈ وكل باغ سقته إلى الردى
بشرى لك الفتح الذي أوليته ◈ هنئت بالنصر وإدراك المنى

ومنها

نفسي لك الفدا وكل من على ◈ وجه بسيط الأرض ذاته فدا
محيت ظلم الشرك والكفر أيا ◈ نتيجة الدهر سليل المصطفى

ومنها

يزهو به الدهر العبوس بعدما ◈ قد كان قدما قبله على شفا
ندا حداة النصر لا يجيبه ◈ إلا أمير قد أجاب من دعا
حاز الكمال كله بين الورى ◈ علما وحلما ثم ملكا وتقى

ولما بلغ حاكم الجزائر خبر هـذه الواقعـة اصـدر أمـره إلى الجـنرال تريزيل ان يتخلى عن وهران ويسلمها إلى الجنرال دولورانج ويحضر إلى الجزائر ففعل وطار الخبر إلى دولة فرنسا فاحتدمت لذلك وكثر الشغب ونـودي في محـافلهم إن العـرب هـدموا شـرف فرنسـا فتحـركت فيهم الحمية قال بعض مؤرخيهم قال أحد الأعيان في مجلس النواب وقال أن هجــوم الفرنســيس على بلاد الجزائــر أراه من الأعمــال الناشــئة عن الطيش والهوس لان سائر الأعمال الحربية فيها لم تـأت بنجـاح والمـدن التي استولوا عليهـا لا أرى فائـدة لهم في الإقامـة فيهـا ثم قـام المسـيو تيـرس الـذي تقلـد رئاسـة الجمهوريـة الفرنسـوية سـنة ثمـان وثمـانين ومائتين وألف وسنة إحدى وسـبعين وثمانمائـة وألـف بعـد حـرب ألمانيـا فقـال أن غزوتنـا الأفريقيـة لا تحسـب من قبيـل الهـاجرة ولا من قبيـل المطالبة بقصد التملك وحالنا في تلـك الأقـاليم لا يحكم عليهـا بأنهـا من أحوال الحرب ولا من أحوال السلم وقصارى ما أقول إنهـا غـزوة باطلـة عارية عن الفائدة ولا أقول هذا طعنا في حق عساكرنا بأنهم ليسوا بأهل شجاعة وان قوادنا ليسوا بأهل معرفة ولكن أقول إن الحرب لا يكون إلا لأمرين أما للفتح وأما للتربية فان كان الأول فليس هذا سـبيله وان كـان الثاني فلم نحصل عليه ولم نصل إليه فلما سمعت رجـال المجلس هـذه الخطب تغيرت أفكارهم وكثر الضجيج وكاد أن يختـل نظـام المجلس ثم اتفقوا على أن ينقض المجلس في ذلك اليوم ثم يعقد مـرة أخـرى ومن الغـد اجتمعـوا وقـر قـرارهم على عـزل الكـونت دوروان حـاكم الجزائـر وتوليـة المارشـال كلوزيـل مكانـه وإقـرار الجـنرال دواورانج على ولايـة وهران وأمروا كلوزيل بالحمل على معسكر عاصـمة مملكـة الأمـير عبـد القادر وأما الأمير فانه علم أن يوم المقطع وان جاء بنصـر عظيم وتأييـد جسيم فانه قد فتح باب حروب يشـيب لهـا الوليـد ويتقـاعس عن دخـول ميدانها البطل الشديد فشغله هذا التصـور عن التبجح بمـا أوقعـه بعـدوه

واخذ يتأهب للحرب ويستنهض همم المسلمين وكتب أي الخليفـة ينبههم ويستلفتهم إلى سطوة الفرنسيس ويذكرهم بشدتهم وعدم تغافلهم عما وقع بعساكرهم وكان السيد محي الدين بن علال خليفته في مليانه كتب إلى قبائـل الـبربر المسـتوطنين في سـاحل ولايتـه الـدائنين بطاعـة الفرنسيس يدعوهم إلى الدخول في طاعة الأمير والتعـاون على الجهـاد ودفاع العدو عن البلاد وينبههم من غفلتهم ويقـرع أسـماعهم بمـا صـاروا إليه من لوبال والخسران في الدنيا والآخرة فقال اعلموا أيها القوم إنني رأيت انه من الواجب علي أن أرشدكم إلى ما فيه صلاحكم والقيام بأمر دينكم ولكن أخاف أن تكون آذانكم صماء عند ذكر نصائحي الناشـئة عن صفاء طويتي لكم وصدق نيتي في أمركم لاشـك أن اللـه تعـالى يغضـب عليكم لكونكم أطعتم عدوه الذي يعبد غيره أما تذكرون الآخرة وأهوالهـا أما تعلمون أن المسلمين كالبنيان يشـد بعضـهم بعضـاً أم سـمعتم قولـه تعالى وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان وأي بـر اعظم من أداء فريضة الجهاد وأي إثم يقاس بطاعة الكفار والدخول في زمرتهم والانحيـاز إليهم أمـا بلغكم قولـه تعـالى ومن يتـولهم منكم فانـه منهم وبالجملـة فـان مـا انتم عليـه ضـلال مـبين وخسـران لا يقـاس بـه خسران فبادروا رحمكم الله إلى الإقلاع عما أوجب لكم ذلك وتوبـوا إلى الله تعالى أيها المؤمنون وهلموا إلى الانضـمام إلى إخـوانكم المسـلمين وهاجروا إلى مواطنهم واتركوا منـازلكم الـتي هي الآن في خطـر عظيم ولا يمسكم خوف على أنفسكم وأموالكم وأنا الزعيم والكفيل بذلك وإذا خـالفتم أمـري ولم تقبلـوا نصـيحتي وأقمتم في خدمـة الكفـار وإعـانتهم على المسـلمين فـإنكم قـد ألقيتم بأنفسـكم وأولادكم إلى التهلكـة وعرضـتموها لمقت اللـه تعـالى ولسـيوف المسـلمين كمـا هـو مقتضـى الشـريعة المحمديـة فـافهموا كلامي وتعـالوا نتفـق ونجتمـع على كلمـة واحدة وقلب متحد بحيث إذا حرك أحدنا يده تحركت جميـع الأيـدي معـه

فافهموا وبادروا إلى ما فيه وقاية أنفسكم وحماية أموالكم وتقوية دينكم وما يبعدكم عن غضب ربكم ونظروا إلى ما فعله الفرنسيس وخلفـاؤهم من المنافقين بعلال بن الراعي من التعدي على مواشيه وكراعـه ظلمـاً وجوراً وإذا وفقكم الله أي ما دعوناكم إليه وصرتم إلينا فإننا نعوض عليه أضعاف ما أخذه العدو منه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته فوقع هذا التحرير عند أولئك القبائل الكثيرة العدد موقعا حسنا وأجابوا جميعـا إلى الـدخول في الطاعـة وهـاجروا من بلادهم وفـارقوا مسـاقط رؤوسـهم ولحقوا بالجبال القريبة من مليانه وسهولها وانخرطوا في سلك إخـوانهم المسلمين ولمـا رجـع الأمـير إلى معسـكر من واقعـة المقطـع بعث إلى خليفته المذكور أن يجمع جيوشه ويغزو على الجزائر فغزاها في خمسـة آلاف مقاتل وكان هؤلاء القـوم في مقدمـة الجيش ومـروا في طـريقهم في سـهول متيجـة واعظمـوا لنكايـة بالمسـتوطنين فيهـا وفتكـوا بهم وأثخنوهم بالقتل والأسر حتى وصلوا إلى أبواب مدينة الجزائر ثم انقلبـوا بمـا في أيـديهم من الأسـرى وضـروب الغنـائم من الأمتعـة والمواشـي وأوعز إلى خليفته البوحميدي في تلمسان أن يجمع الجيوش وينهض بهم إلى منازلة وهران فنازلهـا وضـرب الحصـار عليهـا وقطـع عنهـا مواصـلة المستنصرة قال بعض مؤرخي الإفرنج وبحسـب الأمـر فعـل البوحميـدي جميع ما أمره به الأمير وصار الفرنسيس داخل وهران في اشـد الضـيق إلا انهم احسن حالاً من أسرى الحرب وكاد الأمير أن يحقق قولـه انـه لا يسمح للطير أن يجول من غـير إذنـه فـوق المـدن الـتي اسـتولى عليهـا الفرنسيس الذين أمسوا كـالمغلول يطلب الخلاص من قيـوده يتنفسـون الصعداء وتتفتت أكبادهم غضباً وأقاموا يترقبون وصول المـدد مـع أوامـر الهجوم ليندفعوا على ذلك الأمير الذي رمـاهم بسـهام نباهتـه المدهشـة انتهى واستمر الأمير في معسكر ينتظر مايحـدث من دولـة فرنسـا وفي الثامن والعشرين من ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين والثالث عشر من

أغسطس سنة ست وثلاثين وثمانمائة وألف وصل المارشال كلوزيل والدوق دورليان ولي عهد ملك فرنسا إلى الجزائر مع مقدار وافر من العساكر فتلقيا بالإكرام واصطفت لهما الجنود عند باب البحر بالزينة الكاملة ومن الغد جلسا لقواد العسكر واعيان البلد وأطلعهم المارشال على أوامر الدولة بولايته على مدينة الجزائر وعلى حرب الأمير واخبرهم أن ابن الملك إنما حضر معه ليراقب إجراء الأوامر فضج القوم استحسانا لذلك وانشدوا الأشعار المهيجة المشهورة بغناء الجزائر لأخذ الثار فوهم المارشال لذلك واخذ يتكلم عليهم فيما يفتتح به أمره وقال أول ما نبتدأ به أن نزحف بجيوشنا على عاصمة الأمير وان ساعدنا الوقت في الاستيلاء عليها نتمكن من اخذ الثار ونشفي أنفسنا من العرب ثم نعقد مع الأمير عبد القادر صلحاً باتاً لكل نزاع فضجوا في فحافلهم وكثر تصفيقهم استحساناً لخطابه ولما رأى ارتياح القوم لما ألقاه إليهم وشاهد منهم النشاط لأخذ الثار بيوم المقطع وأخذه الطيش وتخيل انه استولى على سائر البلاد ودانت له بالطاعة والخضوع وجعل ما ارتسم في خياله محسوسا في الخارج ولم يكتف بذلك حتى رسم خريطة جعل البلاد فيها أقساما وعين على كل قسم منها عاملا وبعد مضي شهرين أمسى ما تخيله هباءً منثورا قال بعض مؤرخيهم أن أعمال هذا المارشال قضي الله عليها ان تناقض ما تخيله وتنتج له خلاف ما توهمه لأنه أرسل البعوث إلى جهات مختلفة يستفسر بها عن الأحوال فخسرت صفقتها ورجعت للجزائر مغلولة لا يلوي بعضها على بعض وأمسى المارشال في كدر لا مزيد عليه لما حصل لجيوشه من الفشل والخيبة واتخذ الناس خطابه وخريطته هزوا سخرية .^ ذكر

مسير الماريشال وولي العهد من الجزائر إلى وهران واستيلائهما على عاصمة الأمير وخرجوهما منها

وفي أول ديسمبر من السنة راكبا أسطولهما في العساكر والذخائر إلى وهران وخيما خارجهـا وفي السـابع والعشـرين منـه سـارا قاصـدين لمعسكر باثني عشر ألف عسـكري وكـان مـع الأمـير ثمانيـة آلاف خيـال وألفـان من المشـاة وأربـع قطـع من المـدافع وكـان يـترقب الفرصـة بانفصال خطوط العساكر الفرنسوية ليكون الهجوم عليهـا مناسـباً إلا أن الجنرال كان يتجنب ذلك وجيشه مضموماً إلى بعضه ووجهه تجاه ميمنته متقدماً لمهاجمة العرب فتركه الأمير يتمتع بمنازلة مقدمة العرب واندفع لمعارضة الطريق التي تؤدي إلى معسكر وميمنته كانت محميـة بحـرش وميسرته مقيمة على تل اقر عليه الطوبجية وكان ترتيبه هذا ممـا يجلب الإكرام لجنرال أوروبي فانه كان يتمكن للقائد المقتـدر أن يأخـذ مركـزاً حربيـاً مناسـبا فاصـلا للـنزاع لان الحـاذق بفن الحـرب يجعـل الـوقت والفسحة خاضعين لمآربه على أن الأمر قدر له بان يختبر وقتئـذ وبتركـه مبـادئ فن الحـرب الأوروبي في وقت الـنزال وإخلاء المركـز من تحت إرادته كانت وسائطه دون المطالب التي تقتضيها حذاقته كذا قـال بعض مؤرخي الإفرنج ثم أن الأمير لما رأى العدو لا يثني عزمه شـيء زال عن وجهه وانسحب إلى قصر عائلته بالبستان المسـمى بكاشـرو ولم يخطـر بباله أن يدافع عن حضرته معسـكر لان قوتـه لم تكن قـوة حصـر وكـان يقـول لي كـل محصـور مـأخوذ وطـير الخـبر إلى حـاكم الحضـرة يـأمره بالجلاء عنها قبل وصول العدو إليها فخرج الناس سراعاً بمـا خـف عليهم من الأثـاث والمتـاع ولم يتخلـف فيهـا إلا اليهـود واسـتمر العـدو سـائراً والعـرب يناوشـونه القتـال من اطـراة وكـان الحشـم لمـا نـزل العـدو بالبطحـاء المعروفـة بهـبرة شـقوا العصـا وتطـايرو إلى بلادهم وجعلـوا طـريقهم على الحضـرة فـانتهزوا دار الملـك واسـتولت ايـديهم على الخـزائن وفشـا النهب في البلـد وفي السـادس من كـانون الأول دخلهـا كلوزيل فوجدها خالية من الأهل والمتاع فاقام فيها يـومين وجـاءه الأمـر

بغتــة بــالروع فــانقلب راجعــاً إلى وهــران وتخلــف فيهــا أوغــاد القبائــل المتنصرة من الدوائر والزمالة وأضـرموا لنـار في اكـثر دورهـا الشـهيرة وكان اليوم ماطراً فلم تعمل النار فيها وباؤا بها شقاء لآخر الدهر ثم جاء الأمير فدخل الحضرة وتراجع أهلها من الجهات وبعـد أيـام قليلـة عـادت اهلة عامرة الاسواق واقبلت الجيوش ترد عليها أفواجا متأسفين نــادمين على ما سلف منهم من التقصير في دفاع العدو وجاء الحشــم واعتــذروا الأمير واحضروا جميع ما انتهبوه من الأمتعـة والـذخائر ووعـدوه بالثبـات وحلفوا له الايمان على ذلك وتضرعوا في العفو والصـفح عنهم فأجـابهم ان مرادي ان تريحوني من الحمل الذي وضعتموه على عاتقي وقــدرتني الصوالح الدينية وحدها ان اقوم به إلى هذه الساعة فلينتخب القوم خلفاً عني وأني ذاهب مع عائلتي إلى مراكش فتراموا على أقدامــه صــارخين أنت أميرنـا وسـيدنا وإذا تركتنـا فمـا لنـا لا ان نـذل لعـدونا فقبـل الأمـير توبتهم وصفح عنهم واقبل علي رؤساء الجيش النظامي الذين ثبتوا معــه ولم يفـارقوه وهم احلاس حـرب وفتيـان كريهـة فاحسـن السـؤال عنهم وشـكر شـجاعتهم في حـروبهم قبـل هـذه الواقعـة واسـتدر أرزاقهم ثم وفدت عليه أعيان القبائل وأمراؤها من القصـية فخطب عليهم وعـرقهم بعزمه على استمرار الجهاد والذب عن البلاد فاخلصـوا الـدعاء وصـدرت أوامره بـالنفير إلى وهـران وجعـل نهـر سـيك موعـداً لاجتمـاع الجيـوش والحشود واخذ في الاهبة وكان رجـل من الحشـم يقـال لـه معمـر عينـا للعدو على المسلمين فاعتقله وأمر بشنقه فشنق في يوم مشهود وتتبع من كان على شـاكلته من الأوغـاد فشـرد بهم من خلفهم وجعلهم عـبرة وحضر اواري اغـة الحشـم بشمسـية الملـك وكـان انتهبهـا يـوم الحادثـة فردها الأمير عليه وقال له وهو يبتسم احفظها عندك إلى أن تصير ملكـا يوما ما واقره على رئاسته على الحشم الغرابة وجعـل نجلـه بين اقـران قصاصا له وعقوبة تذكر بين الناس وعلى هذه الحال انتهت تلك الحادثــة

التي ابتدأت بما يشعر بسقوط الأمير وختمت برجوع سـطوته بعـد ثلاثـة أيام بما بهر العقول قال بعض مـؤرخي الإفـرنج ولطـف اللـه تعـالى هـو الذي قاد الشعب العـربي إلى الميـدان الـذي شـعر فيـه بخطئـه وألهمـه إظهار الطاعة فاتخـذها كفـارة عن الـذنب الـذي ارتكبـه فكـان ذلـك من اعظم الأسباب لتجديد قوة الأمير ووقوع هـواجس الخـوف والـرعب في العسـكر الفرنسـاوي وحلفائـه من قبائـل العـرب وكـان الاغـة المـازري وغيره من رؤساء الدوائر والزمالة الزمهم الأمير بسكنى الحضرة بأهلهم وارتحلوا إليها كما تقدم من حوز تلمسان وسكنوها ولما قصـدها كلوزيـل وولي العهد في هذه المرة وخرج أهلها إلى الجهات كانوا فيمن خـرج ثم ساروا ليلاً ولحقوا بإخوانهم في جـوار وهـران رغبـة في مـوافقتهم على طاعة الفرنسيس والدخول في زمرتهم وكان مصطفى بن إسماعيل عم المازري خصورا في قلعة المشور بتلمسان مع الكول اوغـل وكـانوا بعـد إذعانهم الأمير ودخولهم في طاعته انتقضوا علي ووافقوا ابن إسـماعيل على التمرد والرضي بالرد فلما بلغـه ان ابن اخيـه لمـازري ارتـد ولحـق بوهران أرسل إليه يسـتنجده في أمـره ويطلب إليـه ان يرفـع أمـره إلى كلوزيل ففعل . ذكر

خروج بوشناق التركي إلى الحضرة ورجوعه إلى مستغانم

ولما اتصل خبر الأمير بكلوزيل بعث إلى بوشناق حاكم مستغانم أن يتوجه بجيشه إلى نواحي الحضرة ليشغل الأمير عما هـو بصـدده فخـرج حتى انتهى إلى البطحاء ومعه أعيان البرجية في قومهم وطار الخبر إلى خليفتـه فانحـدر إليهم في الجيـوش الإسـلامية ونـاجزهم الحـرب واشـتد القتال بين الفريقين وأبلى المسلمون بلاء حسنا في ذلك اليـوم واتصـل إلى الليل ثم رجع كل فريق منهما إلى معسـكره وفي تلـك الليلـة عمـد المرتدون من البرجية إلى النهر هبرة وفتحوا فيه أفواهـاً فـانطلق المـاء

منها على السهل حتى عمه فلما اصبح المسلمون ورأوا انه قد حيل بينهم وبين عدوهم ارتفعوا إلى الجبل وانقلب العدو راجعا إلى مستغانم . ذكر

واقعة واصل في نواحي تلمسان ولما بلغ الأمير خبر المازري ورفقائه وما أزمع عليه الماريشال كلوزيل من الاجلاب على تلمسان تأهب لدفاعه وكانت عساكره النظامية مخيمة في سهل بني يخلف من ضواحي الحضرة فولى السيد محمد بن فريحة بن الحضر خليفة في الحضرة وما إليها ورتب له جيشا من العسكر النظامي ونهض بباقيه إلى نهر سيك حيث المعسكر العام فعرض الأجناد والحشود ثم سار غازياً على ابن عوده الزمالي في قومه فصبحهم وهم على جبل اغبال المطل على سهل ملاته المتصل بوهران فاكتسحهم وقتل ابن عوده في حومة القتال ولم ينجح من قبيلته إلا الذي فر في الشعاب واستولى المسلمون على جميع أموالهم وأهليهم وامتلات الأيدي من أثاثهم وأمتعتهم ثم بعث الأمير بسبيهم إلى الحضرة وارتحل إلى ثنية ماخوخ فسمع بنزول عرب انكاد في المنصورة خارج تلمسان نجده لابن إسماعيل والكول اوغلى فسار منها حتى انتهى إلى الحناية بالقرب منهم وخرج ابن إسماعيل والكول اوغلى لينضموا إلى أنصارهم فحيل بينهم ثم قسم الأمير جيوشه فرقتين فرقة جعلها رداءً له وفرقة تقدم بها لقتال العرب فناجزهم الحرب واتصل القتال عامة اليوم وكان الظفر للأمير في الجانبين وارتد ابن إسماعيل وقومه على أعقابهم فدخلوا القلعة وتحصنوا بها وتركوا في حومة القتال ما يزيد على مائتي قتيل ومثلهم جرحى وامتلأت الأيدي من أسلابهم ومهماتهم وأما عرب انكاد فانهزموا من أول طلق وجعلوا طريقهم على أثقالهم فحملوا منها ما قدروا عليه وابعدوا المفر فاستولى العسكر على اكثر نسائهم وأولادهم وأمتعتهم وجرح قائدهم عبد لله ابن الغماري واستشهد من الأعيان أبو

زيان مصطفى التكاري قائد الشمسية الملوكية وأبو حميد الزايري واشتهرت هذه الواقعة باسم المحل الذي وقعت فيه ثم ارتحل الأمير واحتل بوادي الصفصيف وتقدم إلى تلمسان وضرب عليها الحصار الشديد وبالغ في التضييق عليها . ذكر

مقتل الخليفة ابن فريحة وولاية السيد مصطفى ابن التهامي على الحضرة

وبعد أن أقام ابن فريحة في أعالي البطحاء أياماً ارتحل إلى البلاد البرجية وضربت له الخيام بالقرب من قرية البرج وطفق الجيش يلعبون على الخيل ويطلقون بواريدهم بالبارود على عادة أهل الوطن والخليفة ينظر إليهم وهو في خيمته فأصابته رصاصة في صدره فمات لوقته وعظم المصاب وانقلب السرور حزناً ووقعت الريبة على بعض الفرسان فمسكوا ورجعت الجيوش إلى الحضرة ونما الخبر إلى الأمير وهو محاصر لتلمسان فأرسل ابن عمته السيد مصطفى بن التهامي إلى الحضرة وقلده خلافتها وبوصوله إليها قبض على زمام الأمور ونظر في أمر المتهمين فتحققت برائتهم عنده وتبين له ان الأمر كان خطأً فأطلق سراحهم وهدأت القلوب والتفت الناس إلى أشغالهم . ذكر

خروج كلوزيل من وهران إلى تلمسان وما آل إليه أمره في تلك النواحي

زعم كلوزيل أن دخوله إلى الحضرة يؤثر في المسلمين ويحدث في الملك وهنا يحمل الأمير على مسالمة الفرنسيس فأقام في وهران ينتظر ما يصدق ظنه فلما تبين له أن الأمر على خلاف ما زعم ورأى أحوال المسلمين قد استقامت في اقرب مدة وكلمتهم أتحدث وعلم أن الأمير غير ملتفت إلى مخابرته بادر لإجراء ما كان وعد به المازري من إغاثة عمه بن إسماعيل وجماعة الكول اوغلى فسار في عساكره إلى

تلمسان في الثاني من شـوال سـنة اثـنين وخمسـين والثـاني عشـر من يناير سنة سبع وثلاثين وثمانمائة ففعل الأمير بتلمسان ما فعله بالعاصمة فـأمر بخـروج الأهـالي والجلاء عنهـا فخرجـوا وأخـف حملـه من الأثـاث والمتاع فلما وصل كلوزيل بعساكره إلى ساحة البلد قاتله الأمير واتصـل القتال بين الفـريقين من طلـوع الفجـر إلى زوال وخـرج جماعـة الكـول اوغلى وابن إسماعيل نجدة للعدو وفتحوا له أبـواب القلعـة فـدخلها بعـد عنـاء لا مزيـد عليـه في السـابع عشـر والثـاني عشـر من الشـهرين المذكورين وفي الثالث من دخوله خرج من القلعة ووقع بينه وبين الأمير قتال شديد تكافأ فيه ثم بث العدو سراياه في نواحي البلـد فعـثروا على الكثير من أهلهـا فـأجبروهم على الرجـوع إليهـا ولمـا تمكن كلوزيـل من زمـام البلـد وضـع ضـريبة باهظـة على أوليائـه مثـل الكـول اوغلى وابن اسماعيل ومن معه من قومه ليسد نفقات تلك الحملة التي ارتكبهـا من غـير إذن دولتـه فانتـدب لجمعهـا رئيس الكـول اوغلى مصـطفى ابن المقلش فالح فيهـا على قومـه حـتى أن الرجـل يـبيع ملبوسـه وفراشـه ويؤدي ما افترض عليه وان المرأة تبيع مصاغها وثيابها وتدفع عن نفسـها ما افترضوه عليها وشاع خبر هـذه الضـريبة في النـواحي ففـرت قلـوب الناس من الفرنسيس لسـوء تصـرفاتهم ثم اتصـل الخـبر بدولـة فرنسـا فنقمت ذلك على كلوزيل فخرج من تلمسان راجعـا إلى وهـران بعـد ان ترك فيها حامية وذخائر لنظر القائد كافنياك فلقيه الأمير بعساكره قـرب البلد وانتشب الحرب بين الفريقين واتصـل عشـرة أيـام وكـانت الـدبرة فيها على كلوزيل وجنوده فرجع مغلولاً إلى تلمسان وتحصـن بالقلعـة ثم جـدد عزمـه وخـرج في الثـالث من ذي القعـدة سـنة اثـنين وخمسـين والعاشر من فبراير سنة سبع وثلاثين وثمانمائة فالتقاه الأمير ثانية بعـزم لا يرده راد ولا يصده عنه صاد وألح عليه المسلمون في القتـال فـدمروا اكثر عساكره واستولوا على معظم ذخائره وقد حكي هذه الواقعة بعض

مؤرخيهم بقول خرج الماريشال كلوزيل بجنوده من تلمسان راجعا إلى وهران فصادف في طريقه أهوالاً جمة وعاين مصائب شديدة منها هزيمة عساكره وتشتيت شملها بوادي عوشبه ومنها انه ارتد عن طريقه التي جاء عليها وسلك طريق الساحل إلى مرسى رشكون فوصلها على أسوء حال ومنها أن الأمير اخذ بمخنقه فيها وأقام محاصراً له مدة شهرين كاملين لا يخلو يوم منها من القتال ثم لما أعياه الأمر وضاقت به الحيلة بعث صريخه إلى نائبه في وهران فبعث إليه بالمراكب فركبها بجيوشه وحمل ما أمكنه من ذخائر ولحق بوهران وكاد الغضب يمزق فؤاده وسولت له نفسه أمراً أوقعه في الخجل وهو ما أشاعه في الدوائر الرسمية من انه قهر الأمير وغلبه والجاه إلى الفرار إلى الصحراء فكانت جنوده تتحدث في المحافل والمجامع بما يكذب خبره وتعلن بما حل بها من الوبال وبما شاهدته من إقدام العساكر العربية وقوة جأشها وشدة باسها ورؤساؤهم يؤيدون ما يخبرون به ثم أن كلوزيل نصب الجنرال دولورانج واليا على وهران والجنرال بها رغو قائدا على الجند وتوجه إلى الجزائر وبعد ثلاثة أيام من سفره سار بها راغو في ثلاثة آلاف عسكري وثمانية مدافع إلى تلمسان ليمهد الطريق بينها وبين وهران فتمكنوا من المواصلة بين البلدين ولما وصل إلى نهر تافنا أقام متاريس على شطوط النهر واتصل الخبر بالأمير فسار إلى ندرومة حيث يمكنه رؤية حركات العدو من كل جهة في المحل الذي تتشعب منه الطريق من تافنا إلى تلمسان ووهران واستمر عدة أسابيع يقطع جبال القبائل الممتدة حول تافنا وبقي عدة ليالي من دون رقاد محرضاً وواعظاً ثم توجه بجيوشه واعترض العدو في وادي تافنا في سابع نيسان والتحم القتال بينهما نهاراً كاملا ثم ضرب الجنرال معسكره في الوادي ورتب صفوفه على هيئة قلعة ونزل الأمير بعساكره بالقرب منه وحاصره في الهيئة التي هو عليها وفي الرابع والعشرين من الشهر تهيأ

الجنرال للانتقال من مكانه فضج المسلمون من كـل جهـة وزحفـوا إليـه دفعة واحدة غير مبـالين بصلصـلة المـدافع ولا بقعقعـة البـارود وهجمـوا على المدافع فاستولوا عليها وسـار الجـنرال بجنـوده على الهيئـة الـتي كانوا عليها والعساكر الإسلامية محيطة بهم تـذيقهم نكـال الحـرب حـتى أعجـزتهم فعسـكروا على هـيئتهم الأولى . ويؤيـده قـول بعضـهم خـارج الجنرال بهاراغو من وهـران قاصـدا تلمسـان وحين حـل في وادي تافنـا التقاه الأمير بجيوشه وهجم عليه هجوما أمسى بـه محصـوراً ولمـا طـال عليه الأمد أمر جيشه بالزحف على جيوش الأمير المحيطة بـه مـؤملا ان ينال فرجاً اقله ان تتوسع علية دائرة الحصار فسوء حظـه لم يمكنـه من مراده وكانت نتائج أفكاره وبالاً عليه وعلى جيشه وقد اظهر العرب ذلك اليوم شجاعة غريبة وكان الأمير ممتطيـاً صـهوة جـواده أمـامهم يخـترق صفوف العسكر الفرنسوي غير مبال بما تقذفه أفواه بواريدهم من بـــرد الرصاص ولما شـاهدت جيـوش العـرب بسـالة أمـيرهم ازدادت حميتهم وقـوي هيجـانهم فهجمـوا بقـوة لا مزيـد عليهـا حـتى انتهـوا إلى المـدافع الفرنسـوية فلم يكن من الطوبجيـة إلا الفشـل ولم يسـعهم الا الهـروب وتسليم المدافع وحينئـذ تقهقـر الجيش وارتـدوا على أعقـابهم مـدافعين عن أنفسـهم حسـب مـا تقتضـي بـه أحـوال الحـرب فكـانت العسـاكر الفرنسوية تركض وخلفها فرسانها يحمونها ومن ورائهم الجيوش العربية تفتـك بهم ولم يرتـدوا عنهم حـتى أتلفـوا منهم عـدداً وافـراً ولمـا رأى الجـنرال ان عسـكره قـد دمـره الحـرب وطـال عليـه الأمـد أزمـع على الهجوم الأخير فتهيا وجمع قوته واصبح سائراً على طريق وهـران وسـار المسـلمون يأخذونـه من أطرافـه إلى ان لحـق بهـا في شـر ذمـة قليلـة وكانت الجيـوش الإسـلامية قـد اخـذ التعب من قوتهـا ونشـاطها فجعلـوا يتسللون إلى أوطانهم ورجع الأمير بعسكره النظامي إلى ندرومة . ذكر

ولاية الجنرال بيجو على وهران وخروجه إلى تلمسان

لما اتصل خبر الجنرال دولورانج وجيشه بدولة فرنسا امتعضت لـه وجهزت لجنرال بيجو بثلاثة آلاف لإغاثته فسار بيجو من باريز في جيوشه إلى وهــران ثم في الســادس والعشــرين من ربيــع الأول ســنة ثلاث وخمسـين وأول يوليـه سـنة سـبع وثلاثين وثمانمائـة سـار إلى تلمسـان بالذخيرة إلى جيشهم المحصور في قلعتها وكانت الجيوش الإسلامية من المتطوعة قد لحقهـا الضـجر وطـالت عليهـا المـدة في الحـروب فلحـق بأوطانها ولما اتصل خبر بيجو بـالأمير وهـو في ندرومـة سـار إليـه فيمن معه من العسكر والتقى الفريقـان علي نهـر سـكاك واهتـاج المسـلمون للجهـاد وهجمـوا على تلـك الجيـوش الكثـيرة فاسـتطرد لهم بيجـو حـتى أجـازوا النهـر ثم انعطـف عليهم فـاثخن فيهم وانكشـفوا أمامـه وكـثرت القتلى والجرحى بينهم ومحص الله المسـلمين في ذلـك اليـوم واسـتمر بيجو سائراً إلى تلمسـان وبعـد أيـام رجـع إلى وهـران وطـير الخـبر إلى دولته يبشرهم بانتصاره وبتبجح بما اتفـق لـه من النجـاح في أول حركـة كانت منه في البلاد الجزائـر ثم توجـه إلى فرنسـا وجعـل قيـادة الجيش إلى الجنرال والستاك . ذكر

حصـار الأمـير تلمسـان وبعـد واقعـة نهـر سـكاك أرسـل الأمـير في المــدائن والضــواحي ينــادي الجهــاد فــاجتمع المســلمون في الجهــات والضواحي التي عينها لهم لانتظار خلفائه فيها وسـار من ندرمـه بعـد أن أزاح العال في نواحيها فنازل تلسمان بقوته وضيق حلقـة الحصـار عليهـا وضبط خارجها فاشتد الأمر على أهلها ونفدت ذخائرهم وأجهدهم الجــوع حتى أكلوا جميع ما حضـرهم من أنـواع الحيـوان وأفضـى بهم الأمـر إلى أشنع الأحوال ذكر القائد كافيناك رئيس العسكر الفرنسوي المصــور في قلعتها انه كان يشتري الهر الواحد بأربعين فرنكا لقوته وأمـا غـيره فانـه كان لا يجد فاراً يقيم بـه أوده وكـانت مـدة إقامـة الحصـار عليهـا تسـعة اشهر وختم الأمير في هذه المدة قراءة صحيح البخاري أربع مرات وقــد

أخبرني أبن خالي السيد محمد أبـو طـالب أنـه رأى نسـخة من البخـاري في مجلد واحد عند الشيخ محمد القلي قاضي بجايه كانت الأمير مكتوباً بآخرها بخطه ختمت البخـاري بهـذه النسـخة أربـع ختمـات وأنـا محاصـر تلمسان عجل اللـه بفتحهـا الإسـلام وبسـفر كلوزيـل وبيجـو إلى فرنسـا انقشعت غيوم جيوشهم عن الداخلية ولم تصل يدهم إلى وضع الحاميات في الأماكن الـتي اختاروهـا لـذلك فيمـا بين وهـران وتلمسـان والجزائـر والمديـة ورجعـوا إلى حـدودهم وأنجـزوا في مـدنهم ونـازلتهم الجيـوش الإسـلامية فيمـا حـتى أجهـدهم الحصـار واحتـاجوا إلى الأزواد وانقطعت أخبار الداخلية عنهم لشدة الضـبط بحيث أن الجواسـيس والسـعات من المننصرة لم يجدوا سبيلاً إلى تبليغ التحارير إلى أهلها وأقاموا على ذلـك مدة ولما عميت أخبارهم عن الأمير بعث إلى السيد حمادي السقال من أهالي تلمسان يفاوضه في ذلك ويحثه على اتخاذ وسيلة يتوصل بهـا إلى مطالعة أخبار العدو فأجابه إلى مطلوبه وتقدم إلى الحاكم في أن يجعل أليه إرسال المكاتيب إلى وهران والجزائر وغيرهما ويتكفـل بتبليغهـا ورد أجوبتها فأنشرح صدر الحاكم إلى ذلك وطفق يجمـع المكـاتيب ويسـلمها إلى سعاة من العرب يمرون بها على الأمير فيطلع عليها ثم يردهـا إليهم فيذهبون بها إلى مواضعها وعند رد أجوبتها كـذلك فكـان الأمـير لا يفوتـه شيء من أخبار العدو وأحواله ومكائده وما في عزمه أن يجريه ثم أنـاب أبن عمته السيد مصطفى بن التهـامي على الشـيش وسـار في شـرذمة قليلة من الفرسان إلى المدية لما بلغه أن الكول أوغل من أهلهـا أثـاروا الفتنة فيها وكاتبوا حاكم الجزائر بطـاعتهم نقبض على أهـل الريبـة منهم وأذاقهم نكال العقاب وأصلح خلل البلد وولى عليها أخاه السيد مصطفى بن محيي الدين وأنفتل راجعاً إلى تلمسان وأنتقل أمره إلى طور التأييـد والانتصار على الأعداء وأمسى يوم سكاك وغيره من الأيام الهائلة نسبياً منسياً ويعجبني ما ذكـره أسـكندر بالمـار في تاريخـه عنـد تعرضـه ليـوم

سكاك وهو أن من العجب رجوع قوة الأمير عبد القادر إلى حالها بعد أن اعتراها الاضمحلال والتلاشي ثلاث مرات الأملى بعد استيلاء الجنود الفرنسوية على عاصمته والثانية بعد غزوة تلمسان والثالثة بعد وقعة سكاك وكل حادثة من هذه الحوادث كانت صالحة لأن تكون سبباً قوياً لسقوط قوة أعظم سلطان راسخ القدم ومع ذلك فأنها لم تؤثر في أمره ولم تحصل الأمة الفرنسوية منه على طائل فلهذا أقول لله در هذا الرجل العظيم الذي كانت سياسته العجيبة وتصرفاته الغريبة لا يفارقان ذاته طرفة عين ومن هذا تعلم أنه كان في أقرب وقت يسترجع ما يفقده من قوته وقال غيره أن تلك الوقائع تسحق عقل القوي وتضعف عزمه ولو كان كالصخر ألا أن الأمير كان لا يبالي بذلك لأنه عالم بأنه إذا أبتسم ثغر السعد فبسيفه البتار يقدر كل ساعة أن يجلب العصاة والمتمردة ليخروا عند قدميه . ذكر

مسير كلوزيل إلى قسنطينة وهزيمته ثم عزله عن الجزائر ولحوقه بفرنسا

بعد واقعة عوشبة ورشكون رجع كلوزيل إلى وهران ومنها إلى الجزائر ثم إلى فرنسا يستعتب دولته فيما أرتكبه من غزوة تلمسان بدون أذن منها فأعتبته واستنجدها فلم تنجده وجعلت أليه أوامر الحرب بما عنده من الجند في الجزائر ووهران فرجع بصفقة خاسرة وكان مهتماً بغزوة قسنطينة فسار أليها في المراكب في الثامن من شعبان سنة ثلاث وخمسين والثامن من نوفمبر سنة سبع وثلاثين وثمانمائة وأرسى في عنابة وفي الخامس عشر منه أحتل بكالمه فأقام فيها أياماً ثم عرض جنده وزحف إلى قسنطينة فتلقاه القائد علي بن عيسى واقتتلوا قتالاً شديداً وفي آخر النهار أنكشفت الجيوش الفرنسوية واتصلت الهزيمة إلى نصف الليل وأستمر كلوزيل راجعاً إلى كالمه تاركاً قتلاه ومعظم ذخائره ومهماته في أيدي المسلمين ثم سار من كالمه

إلى عنابه ومنها إلى الجزائر وأتصل خبره بدولة فرنسا فامتعضت لـه ثم عزلته ولحق بفرنسا وتولى مكانه الجنرال دوبرو سوار وقـد سـاق بعض المشاهير من المؤرخين أخبار كلوزيل فقال أما عمل كلوزيل في فرنسا في سفره الأخير فهو أنه تشبث بما رآه سبباً عظيمـاً في الحصـول على مقاصـده فطلب نجـدة جديـدة لكي يتوصـل بهـا إلى الاسـتيلاء على بلاد الجزائر وأظهر لوزير الحرب أن الأمر لا يتم ألا بجيوش كثيرة فلم يجيبـه الوزير إلى مطلوبه ولم يوافقه مجلس نـواب الأمـة وإنمـا أمـر بـالرجوع إلى الجزائـر وأجـراء مـا أعـتزم عليـه بمـا عنـده من الجنـد في الجزائـر ووهران فكان هذا الأمر موجباً لضـعف همتـه فرجـع إلى الجزائـر وجهـز تسعة آلاف جندي وسار في المراكب إلى عنابـة قاصـداً قسـنطينة وفي الخامس عشـر من شـهر نوفمـبر وصـل إلى كالمـة وهي مدينـة قديمـة رومانية خربتها العرب لأول الفتح الإسلامي ولم يبق فيها ألا آثار ورسوم فأقام هناك للاستراحة والنظر في أحوال الجيش ثم ابتنى فيها برجـاً من خشب وشحنه بالحامية والذخيرة وسار إلى قسنطينة وكـان القائـد على بن عيسى صمد لهم في العساكر فتناجز الفريقان وأخذ كلوزيـل يسـوق جنده إلى لظى الحرب وأضرم نارها وبعد هجمات ارتدت جيوش فرنسـا على أعقابهم وغلبهم العرب على حمـل القتلى والجـرحى فـتركوهم في أيديهم وأثخنوا فيهم بالقتل والأسـر وبعـد العنـاء الشـديد وصـل كلوزيـل بجيوشه إلى كالمه ومنها توجه إلى عنابه بعد أن تـرك فيهـا فرقـتين من الجند لنظر الأمير الاي دوفيفه ثم توجـه إلى الجزائـر ولمـا أتصـل الخـبر بدولته عزلته عن غضب فلحـق ببلاده ولم يـزل في كـدر إلى أن مـات .

ذكر

البعوث إلى الثغور ولما اتصل بالأمير أن كلوزيل توجه في عسـكره إلى قسنطينة انتهز الفرصة وجهز البعوث إلى السواحل فسـرح خليفتـه السيد مصطفى بن التهامي والبو حميدي إلى وهران في جمـوع قبيلـتي

الغرابة وبني عامر ومن انتمى إليهم فاكتسحوا نواحيها واشفوا مزارعهـا واستولوا على ماشـيتها وانتبهـوا الأبـراج والأكـواخ القريبـة من أسـوارها وضربوا عليها سياجا من الرماة والأنجاد وقطعوا عنها مواصلة المتنصـرة من العـرب وأمسـت محصـورة من جميـع نواحيهـا البريـة ثم سـرح إلى الجزائر خليفته السيد محمد بن علال فعاث في نواحيها واسـتباح القـرى في ضواحيها وانتهبتها جيوشـه ثم أضـرموها نـاراً واثخنـوا في أهلهـا قتلاً وأسراً ووصلت خليه إلى أبواب الجزائر وجعل الأرصاد على من يواصـلها من منتصرة البربر واقـام في تلـك الجهـة يواصـل الغـارة على السـاحل حتى امتلأت الأيدي بالغنائم وضاق الفضاء بالماشية ثم جعل العيون على العـدو ورتب الحاميـات والمسـلحات وانقلب راجعـا إلى حاضـرة ولايتـه مليانه وطـير الخـبر إلى الأمـير بمـا أجـراه في حركاتـه وفي أثنـاء هـذه الوقائع حدث ارتباك في فرنسا بين مجالسـها وانقطعت المـيرة والمـدد منها عن مدينة الجزائر ووهران وغيرها من مدن الساحل والتحـق أهلهـا بأهل تلمسان في شدة الانحصار والجوع . ذكر

انعقاد الهدنة ولما اشتد الحصار على المدن الـتي فيهـا الفرنسـيس وطالت مدته وصاروا إلى حالة يرثى لها أدركهم حسن حظهم ونباهة ابن دران الموسوي فانتدب من وهران ولحق بالأمير وهو محاصـر لتلمسـان وفاوضه في إبـرام الهدنـة مـع حـاكم وهـران ورغبـة بمـا ينجم عنهـا من الفوائد مع راحة الجيوش الإسلامية من معانـاة الحـروب وشـدائدها وألح عليه في ذلك فأجابه بشرط ان يطلق العدو أسرى المسلمين فرجع ابن دران إلى وهران واخبر الجـنرال دوبـر سـوار قائـد الجيش بمـا كـان من الأمير فـاظهر ارتياحـه إليـه ثم قـر القـرار بين الفـريقين على ابن دران يتولى المواصلة بين الطرفين فيما يحتاج إليه كل منهما من الآخر فيبتاع سائر ما يحتاج إليه الفرنسيس في الجزائر ووهران وتلمسـان من أنـواع الحبوب والماشية لنفسه من الأمـير ثم يبيعهـا إلى الجـنرال ويأخـذ منـه

بأثمانها جميع ما يحتاج إليه الأمير من المهمات الحربية ثم يبيعها من الأمير وانعقدت الهدنة على هذا بين الفريقين ثم أطلق الجنرال الأسرى وافرج الأمير عن تلمسان وصدرت أوامره إلى خلفائه المحاصرين لوهران والجزائر بالإفراج عنهما وارتفع الحجز عن المدن المحصورة وراجت الأسواق فيها وعاد أهلها في ارغد عيش نقدوه منذ زمان طويل وبهذه الهدنة استحصل الأمير من عدوه مهمات حربية وذخائر عظيمة وبعد مدة قليلة استعملها في قهره وكبحه وبهذه الهدنة زادت قوته وتوصل إلى فك الذين كان المسلمون يتأسفون عليهم من الأسرى واستمر الأمر على ذلك مدة اخذ كل فريق فيها الراحة والدعة ورجعت له فيها قوته . ذكر

ولاية الجنرال دومرمون على الجزائر والجنرال بيجو على وهران

ثم أن فرنسا اتفق رأيها على نقض الهدنة وتجديد الحرب مع الأمير إذا لم ينجح للسلم على شروط ترضيهم فعزل المارشال كلوزيل عن الجزائر ونصب الجنرال دومرمون حاكماً عاماً عليها وعزل الجنرال دوبرو سوار عن وهران وولى مكانه الجنرال بيجو وسار كل منهما إلى موضع ولايته في العدد والعدد فواصل الجنرال دومرمون الحاكم العام إلى مدينة الجزائر بثمانين ألف عسكر مع مهماتها في أوائل المحرم سنة أربع وخمسين وأوائل إبريل سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة وألف فأرسل له الأمير ابن داران ليبارك له في مأموريته ويخبره بأنه أزمع علي ضرب نقود ويطلب منه ان تجري المعاملة بها في المحلات الحالة بها الفرنسوية فأجابه انه لابد له من الاستئذان من حكومته وبعد مدة سأله عن ذلك فأجاب بان الحكومة لم تسمح حيث لم تحصل المخابرة عليها في معاهدة دي ميشيل وكانت آراء العامة في فرنسا وقتئذ متفقة على ترك الجزائر لأهلها ورجال الدولة كانوا يرون دوام الحرب فيها إلى لنهاية أول من تركها وكان الجنرال بيجو مخيراً من دولته بين أمرين أما

أن ينقض الهدنة المعقـودة بين الأمـير وحـاكم وهـران السـابق وأمـا أن يعقد الصلح مع الأمـير على وجـه يوافـق مقـام فرنسـا وأمـرت حاكمهـا العام أن يجري جميع الوسائل والأسباب التي يحصل بها الوهن في قــوة الأمير أو يجري صلحا متين الأركان مقبولاً عند دولة فرنسا . ذكر

انعقاد الصلح وما جرى في شانه من المخابرات والمحاورات

ولما وصل الجنرال بيجو هذه المرة كان اشد ما يكون من القوة والحماسة فعزم الأول على نقض الهدنة وإشهار الحرب مكتوبا يتهدد فيه أهل البلاد وعدل عنه إلى مكاتبة الأمير في الصلح فكتب إليه إلى سمو الأمير عبد القادر أخبركم إنني قد حضرت إلى وهران مكلفاً من طرف دولة فرنسا بأجراء أحد أمرين إما الصلح وهو الأول وإلا سلم على شروط يكون خيرها ونفعها عائدين على الأمتين العربية والفرنسوية وأما الحرب لآخر درجة تصل إليها الاستطاعة فأرجو بعد التأمل فيما ذكرناه أن تتنازلوا لرد الجواب فلما اطلع الأمير على المكتوب علم أن إقدام هذا الجنرال على الحرب يحمله ولا بد على إضرام نارها وهذا يضر بالمسلمين وان إجراء الصلح ولو إلى وقت غير مديد لابد أن يأخذ من سورة الجند الجديد ويكسر شوكته وحينئذ تميل أنفسهم إلى الراحة وتضعف قوتهم ولذا أجاب الجنرال بما أطمعه في إجراء الصلح وصورة جوابه إلى حضرة الجنرال بيجو أما بعد فقد وصلني كتابكم به علما فذكرتم أن دولة فرنسا إمرتكم بإجراء الصلح إن أمكن وإلا فاستعمال السيف مع أن دولة فرنسا تعرف إنني اشد الناس رغبة في حصول العافية وأشدهم بغضاً لسفك الدماء بدون موجب شرعي وإنها لتعلم إنني راغب في عقد الصلح وإقامة دعائمه على أساس قوي لا يتضعضع ويشهد لذلك ما خابرتها به على يد سفيرها في طنجة فان ساعدت العناية الأهلية على إجراء هذا الأمر على يدكم فهو دليل على صفاء طويتكم لعباد الله تعالى وصدق خدمتكم للدولة والشعب معاً فانظروا ما ترغبون فيه واخبروني به على الفور بواسطة رسولي إليكم حتى انظر فيه ولما وصل ابن دران الموسوي بمكتوب الأمير إلى الجنرال بيجو وفاوضه في أمر الصلح وزينه في قلبه وقلوب بطانته مالت نفوسهم إليه واتفقت كلمتهم عليه فكتب الجنرال الشروط الآتية وجعلها كالأساس للاتفاق واصحبها بمكتوب نصه إلى سمو الأمير عبد القادر أخبركم بوصول رقيمكم وجميع ما حواه من كلامكم صار معلوما عندي ولرغبتي في حصول الخير الأمتين قد حملت الرسول ورقة ذكرت فيها الشروط التي يتوقف إجراء الصلح عليها وإني إن تقبلوا احترامي لجنابكم العالي ونص الشروط التي كتبها الأول أن يعترف الأمير برئاسة فرنسا الثاني تحديد مملكته إلى نهر شلف الثالث أداء جزية الرابع أن يعطي رهنية كفالة وفعلاً موافقاً لكل معاهدة يتفق عليها في المستقبل الخامس كل من التجأ من الأمتين إلى لأخرى لا يجبر على الرجوع إلا إذا كان قاتلاً ولما اطلع الأمير على هذه الشروط صعب عليه قبولها فرد اليهودي فوراً وأمره أن ينهي للجنرال بيجو أشفاها أن الأمير يرى انه لم يزل على الحال التي كان عليها من قبل المخابرة بل يرى انه في مقام اعظم وأعلى فلا يمكنه أن يقبل هذه الشروط المجحفة بمقامه الذي اعترف به من تقدمك من حكام الجزائر ووهران

بمعاهدة الجنرال دي ميشيل لاسيما والمسلمون لا يرضون أن يكونوا تحت حكم الإفرنج فان كانت دولة فرنسا تريد إذلالهم وإخضاعهم لحكمها فدون ذلك حرب طويلة الذيل مديدة السيل ثم أن ابن دران بلغ الجنرال ما سمعه من الأمير وفاوضه في إقليم تيطرى فقال له إنما كان استيلاء الأمير عليه برضى أهله وعن طلب منهم وعلى هذا فلا تسوغ له ديانته وشرف نفسه أن يفوت قوما مسلمين سلموا إليه أرواحهم وأموالهم على انه ليس من مصلحة الفرنسيس أن يستولوا على قوم هم لهم كارهون فالأولى أن تعدل دولة فرنسا عن هذه الشرط وأمثالها ونجعل الصلح مبنياً على شروط تجارية في الاساكل التي بيدها وتعرض عما سوى ذلك ثم قرر له من عنده أن الأمير يمكن أن يسمح للفرنساويين أن يعمروا سهل متيجة ماعدا البليدة وينحهم ضواحي وهران الواقعة على الشط البحري الممتد منها إلى مستغانم بحيث لا يتعدون سيف البحر وان يتعهد لكم بالقيام بحقوق كل فرنسوي يختار الإقامة في داخل مملكته وبكونه يدفعون عنهم كل تعد من العرب وان طرأ على أموالهم شيء من ذلك فعليه ضمانه وقد آلى على نفسه انه لا يسمح بمقدار فتر من الشطوط لدولة أجنبية غير دولة فرنسا واحترس اليهودي بهذا دفعاً لما بلغ فرنسا من ان دولة إنكلترا أرسلت للأمير معتمدين ليجعلوا معه معاهدة بناء على أن يعطيهم حق التملك في مدينة وهران التي هي في يد الفرنسيس ودولة إنكلترا تتعهد بإخراج الفرنسيس منها ومن جميع القطر الجزائري فلم يقبل الأمير بذلك فلما سمع الجنرال هذا التقرير استكان له وكتب هذه الشروط أولاً يعترف الأمير برآسة فرنسا في أفريقية ثانياً أن فرنسا تحفظ لذاتها في ايالة وهران بقعة عرضها من عشرة إلى اثنتي عشر فرسخا ابتداؤها من وادي المالح وانتهاؤها نهر شلف وفي ايالة الجزائر تحفظ لذاتها مدينة الجزائر وهي تتخلى له عن ايالة تيطرى ووهران ماعدا البقعة المذكورة آنفاً ثالثاً يدفع الأمير جزية سنوية من حبوب ومواش رابعا أن يكون للتجارة حرية تامة خامسا يتكفل الأمير بكل الأموال التي تحتاج إليها فرنسا في الحال والاستقبال فلما وصلت للأمير واطلع عليها عدل عن مخاطبة بيجو وكتب إلى الحاكم العام دومرمون انه غير خفي على حضرتكم ما جرت به المخابرة بيننا وبين الجنرال بيجو حاكم وهران في عقد الصلح والعدول عن عادية الحروب التي أضرت بالأمتين وحيث إنني وجدت مطمح أنظاره بعيداً عن المطلوب عدلت عن مخابرته إلى مخابرة حضرتكم مؤملاً النجاح في ذلك ولبعد المسافة بيننا عزمت على التوجه إلى المدية حاضرة ولاية تيطرى لأكون فيها قريباً منكم وبذلك تسهل المخابرة بيننا فاهتز الحاكم لهذا الخطاب فرحا وكان جوابه إلى سمو الأمير عبد القادر سلطان العرب . أخذت مرسومكم وفهمت منه مليكم لوضع أحد فاصل لوائب الحرب غير إنني إلى الآن ما وقفت على ما جرى بين سموكم وبين الجنرال بيجو وإني اعتقد رغبتكم في صالح الجنس البشري عموماً واطلب من الإله القادر أن يمنحنا قوة على تذليل الأمور الصعبة وإجراء ما نرغب فيه جميعاً من الخير العمومي وأرجوكم أن تقبلوا احترامي ثم توجه الأمير إلى المدية وفاءً بوعده ولما اتصل بابن دران الموسوي ما جرى بين الأمير وحاكم الجزائر من المخابرة خشي أن تحصل الموافقة بينهما على يد غيره فتقدم إلى الجنرال بيجو في ذلك وعظم له الأمر وقال أن هذا مخالف لأمر الدولة فاستشاط الجنرال غيظاً وطير شكواه بالحاكم العام إلى دولتهم فحطأت الحكام فيما أجراه من قبول المخابرة مع الأمير بدون علم بيجو ونهته عن التداخل في أمر الصلح بل يترك أمره إلى بيجو وفي الوقت كتب إلى الأمير قد أخبركم بشديد رغبتي في إجراء الصلح والى الآن لم أزل على ذلك غير أن أمر الحرب والصلح منوط بالجنرال بيجو فان وجدتم وجهاً مناسباً لإجرائه معه فافعلوا واقبلوا مني مزيد الاعتبار

لمقامكم ولما اطلع الأمير على هذا التحرير اضطره الحال إلى الرجوع إلى عاصمته وبعد أن اخذ الراحة سار إلى نواحي تلمسان وأرسل إلى الجنرال بيجو هذه اللائحة جوابا عن لائحته وهي أولاً يعترف الأمير بسلطة فرنسا ثانياً كل المسلمين الذين يسكنون خارج المدن يكونون تحت حكومته ثالثا ملك فرنسا في الغرب ينحصر في البلاد التي بين البليدة والبحر ويمتد إلى حد المقطع ومن وجه مدينة الجزائر يسمح لهم أن يستولوا على البلاد التي بين تلك المدينة ونهر بني عزا رابعاً الأمير يدفع عشرين ألف كيلة حنطة ومثلها شعيراً وثلاثة آلاف راس من المواشي في هذه السنة فقط خامسا للأمير أن يشتري من فرنسا بارودا وكبريتاً وسرحاً سادساً ن الكول أوغل الذين يختارون أن يبقوا في تلمسان تحفظ أموالهم ويكونون تحت حكمنا ولهم أن ينتقلوا إلى أرضنا سابعاً أن الذين يتركون أرضنا أو ارض فرنسوية ينبغي أن يسلموا عندما يطلبون من أحد الفريقين الذي ينتمون إليه ثامناً أن تترك فرنسا للأمير رشكون وتلمسان مع قلعتهما والمدافع والبهواوين التي بهما من قديم والأمير ينقل ما فيهما من الذخائر إلى وهران تاسعاً أن تكون التجارة حرة ما بين العرب والفرنسويين عاشراً الفرنسوية تحترم عند العرب كما ان العرب تحترم عند الفرنساوية الحادي عشر الأمير يتكفل بالمزارع والأموال التي تحصلها الفرنسوية ويتمتعون بها بحرية وبعد مراسلات عديدة كتب كل منهما شروطاً توقف الجميع في قبولها ثم ن بيجوا اعتزم على تجديد الحرب وخرج بجيوشه من وهران إلى الناحية الغربية ولما احتل بتافنا بعث بالميرة والذخيرة إلى تلمسان في جيش كثيف واتصل الخبر بالأمير وهو في نواحي ندرومه فبعث في الجهات يدعو الناس إلى الجهاد ونما الخبر إلى الجنرال فوجم لها وفكر في أمره فوجد ما عنده من الظهر لا يقوم بحمل أثقاله ومهماته في حرب ربما تطول مدتها فوقع في حيرة كذا ذكر مؤرخوهم وغيرهم وقالوا أن بيجو ذهبت به أفكاره وقتئذ في كل واد فلم يجد بداً عن المهادن لا سيما وقد تواترت الأخبار عنده بنفير المسلمين إلى الجهاد في سائر الثغور فحمله ذلك على تجديد المخابرة مع الأمير في عقد الصلح وأما الأمير فانه نظر في شروط بيجو التي صعب قبولها فرأى ان يصلح خللها ويعدل بها إلى ما لا يقدح في دينه ومنصبه ثم يعرضها عليه فجمع مجلساً عاماً من العلماء واعيان الدولة واراهم كيف كثر الشغب بعمالة تيطرى في الجهة الجنوبية وان تجدد الحرب بينه وبين العدو يفوته إصلاح الخلل الواقع في تلك الأطراف الشاسعة وربما اتسع الخرق وانتهى الأمر إلى مالا خير فيه فمنهم من بادر إلى قبوله واستحسانه ورآه من الأمور الضرورية التي لابد منها ومنهم من لم يقبله ورأى أن استمرار الحرب أولى فقام سيدي الجد السيد علي أبو طالب وخطب على أهل المجلس فقال بعد حمد الله والصلاة والسلام على نبيه وآله وصحبه وقد علمتم أيها السادة انه لما تكاثرت المظالم وتواطأ العمال ومن وافقهم على ارتكاب المآثم انتقم الرب تعالى منهم وعمنا ذلك معهم قال تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة فسلط الله علينا عدو ديننا فتكالب على بلادنا واستولى على مراسينا واستبدل مساجدنا فيها بالكنائس وأخلاها من لمدارس والدارس فمرج لذلك أهل قطرنا وضاقت بهم الأرض وغربنا واستبدلوا القصور المشيدة بخيام الشعر ومضارب الوبر وتفرقوا أوزاعاً في المواطن وتباينوا في الموارد والمعاطن وتغيرت الأحوال واشتبه الممكن بالمحال وتوالى الحال والارتحال وضعف الرجاء في أن يؤب المسافر ويغود الشادر النافر إلى أن طالت القصة وعز ما ندفع به هذه الغصة ومالت شمس الاتفاق إلى الأفول وتهيأ جند التناصر والتعاضد للرواح والقفول فاظهر الله تعالى بلطفه بدر الدين ومؤيد كلمة المؤمنين ابن أخي هذا السيد عبد القادر بن محي الدين فبذل جهده في الذب عن

الدين والوطن واتى في ذلك من العجائب والغرائب ما هو به فمن فكم من حروب أضرم نارها وكم من كروب أزالها عن المسلمين وأطفأ أوارها وكم ضيق على لعدو واخذ بمخنقه وصيره محجوراً في أحرج مكان واضيقه وفي بعض الأحيان كما علمتم تكون الحرب بينهما سجالاً ويفقد كل منهما من جيوشه أبطالاً ثم لازال العدو يتكاثر ويجلب من بلاده العساكر والذخائر بالعدد الوافر حتى كاثره بجنوده وجاء بما ملا جميع أغوار الوطن ونجوده فاستمر القتل في المسلمين وتولى عليهم التمحيص في سبيل رب العالمين وقد استدعة حضرة الأمير كما لا يخفي ملوك الإسلام في أقاصي البلاد واستنصرهم للجهاد فأعاروه أذناً صماء ولم يسمعوا له نداء بل أجابه لسان الحال لا حياة لمن تنادي ولا معين على من تعادي فإذا تمادى الأمر أيها السادة على ما نحن عليه ولم ينجح الأمير إلى ما دعاه العدو إليه فلا جرم إننا نكون قد التقينا بأيدينا إلى التهلة وتسببنا فيما يضيق على كل منا مسلكه ونكون قد أعنا أهل الفساد على أنفسنا ومهدنا لهم السبيل إلى ما يؤذينا فيتابع الذعار والغوغاء غارتهم ويجره الحفاة صوارمهم وتمشي سماسرة الفتن بين رؤساء القبائل ويسعى المفسدون فيما يفسد عليكم أمركم في العاجل والأجل وبالجملة فالمنصف يقول الحق ولا يراعي بعداً ولا قرباً ولا يخاف لوما ولا تعبا وما علي إذا ما قلت معتقدي ◈ دع الجهول يظن العدل عدواناً

فإذا صحت المنية وصت ليقاصد السنية فلا حرج على حضرة الأمير فيما استشاركم فيه واستلفتكم إليه إذ هو من سياسة السلف ومن تبعهم من ملوك الخلف وهو الذي عليه فتوى الفقهاء وبه عمل العلماء والكلام في هذا السبيل كما لا يخفي مديد السيل طويل الذيل والإنصاف من اعظم تقوى الله والنصيحة واجبه في دين الله وصون دماء المسلمين فرض متعين حتى في الجهاد وقد قيل سلامة مسلم واحد خير من فتح حصن لكافر معاند وقد ورد في الحديث النبوي من أعان على قتل مسار ولو بشطر كلمة جيء به يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمه الله والمتسبب كالبشر وورد أيضاً من تشكل بغير شكله وتطور بغير طوره وحام حول حمى سفك لدماء وهتك المحارم فقد باء بغضب من الله ورسوله فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شرطه الأمن على النفس والأهل والمال مع ظن الإفادة وكونه لا يؤدي إلى منكر اعظم من هذا مع تحققه فما بالكم إذا كان لمجرد الدعوى فالنظر أيها السادة إنما هو للإمام لا لغيره وكيف تذهبون إلى ان عدم قبول الصلح أولى من قبوله مع عملكم بقلة الأنصار والأعوان وكثرة المشاغبين والمفسدين في الأقطار والأوطان وحاصل ما أقول إن ما تسعون فيه أن لم ترجعوا عنه يدعكم لأجله القريب والبعيد وينقمه عليكم الأريب والبليد ثم لاشك إنكم ترجعون بخسارة الدارين وفقد الراحتين وشماتة الأعداء علاوة على ذلك ولله الأمر من قبل ومن بعد وما قلت إلا بالذي عملت سعد فلما سمع المخالفون ما نبههم إليه رجعوا عما كانوا عليه من الخلاف واتقت كلمة الجميع على إجراء الصلح وتقريره ورأوا أن فيه مصلحة كبرى للامة فأرسل للجنرال اللائحة الآتية بواسطة السيد حمادة السقال رئيس حضرة تلمسان وهي أولاً ترك البليدة للفرنساويين ثانياً رفض كل سلطة عن المسلمين المقيمين بالأملاك الفرنساوية ثالثاً توسيع معين لحدود ملك الفرنسوية وقد ولج الأمير السيد حمادة السقال لينظر في الحدود المنوه عنها ويعطي التفصيلات المقتضية وحيث ان الجنرال بيجو أدرك جيدا أن التأخير لا يأتيه بفائدة وعليه حررت المعاهدة المعروف بمعاهدة تافنا على شرط الأول أن الأمير يعترف بسلطة دولة فرنسا على مدينتي الجزائر ووهران الثاني يبقى لفرنسا في إقليم وهران مستغانم ومزغران وأراضيهما ووهران وارزيو وأراضيهما يحد ذلك شرقاً نهر المقطع والبحيرة الذي يخرج منها جنوباً

بخط ممتد من البحيرة المذكورة فيمر على الشط الجري إلى الوادي المالح على مجرى نهر سيدي سعيد ومن هذا النهر إلى البحر بحيث يصير كل ما في ضمن هذه الدائرة من الأراضي للفرنساوية وفي إقليم الجزائر مع الساحل وارض متيجة يحد ذلك شرقاً وادي القدرة وما فوقه وجنوباً راس الجبل الأول من الأطلس الصغير إلى نهر الشفه مع البليدة وأراضيها وغرباً نهر الشفه إلى كوع مزغران ومن ثم بخط مستقيم إلى البحر فيكون ضمنه القليعة مع أراضيها بحيث يصير كل ما في داخل هذه الدائرة من الأراضي للفرنساوية الثالث على دولة فرنسا أن تعترف بإمارة الأمير عبد القادر على إقليم وهران تيطرى والقسم الذي لم يدخل في حكم فرنسا من إقليم مدينة الجزئر لجهة الشرق يحسب التحديد المعين في الشرط الثاني ولا يسوغ للأمير ان يمد يده لغير ما ذكر من ارض الجزائر الرابع ليس للأمير حكم ولا سلطة على المسلمين من أهل البلاد المملوكة لفرنسا ويباح للفرنسويين أن يسكنوا في مملكة الأمير كما انه يباح للمسلمين ان يستوطنوا في البلاد التابعة لفرنسا الخامس ان العرب الساكنة في أراضي الفرنسوية تمارس ديانتها بحرية تامة ولم أن يبنوا جوامع بحسب مرتبهم الديني تحت رئاسة علماء دينهم الإسلامي السادس على الأمير إن يدفع للعساكر الفرنسوية ثلاثين ألف كيلة من الحنطة ومثلها من الشعير بمكيال وهران وخمسة آلاف راس بقر يؤدي ذلك كله في مدينة وهران على ثلاثة قسوط الأول من أغسطس إلى الخامس عشر من أيلول سنة سبع وثلاثين وثمانمائة وألف والقسطين الآخرين يدفع بانتهاء كل شهرين قسطاً السابع يسوغ للأمير أن يشتري من فرنسا البارود والكبريت وسائر ما يحتاجه من الأسلحة الثامن أن الكول اوغل الذين يريدون ان يقيموا في تلمسان أو غيرها من المدن الإسلامية لهم أن يتمتعوا باملاكهم بكمال الحرية ويعاملون معاملة الحضر والذين يريدون منهم الانتقال إلى الأراضي الفرنسوية تكون لهم الرخصة على بيع أملاكهم أو إيجارها بكل حرية التاسع على فرنسا أن تتخلى للأمير عن اسكالة رشكون ومدينة تلمسان وقلعة المشور مع المدافع القديمة التي كانت فيها قديماً ويتعهد الأمير بنقل الذخائر الحربية والأمتعة العسكرية التي للعساكر الفرنساوية في تلمسان إلى وهران العاشر المتجر يكون حراً بين العرب والفرنساوية وللجميع أن يتمتعوا بالتبادل في كل من الأرضين الحادي عشر تكرم الفرنسوية عند العرب كما تكرم العرب عند الفرنسوية وكل ما تملكته أو تتملكه الفرنسوية من الأملاك في بلاد العرب يكفل لهم حفظه بحيث يتمتعون به بكل حرية ويلزم الأمير أن يدفع لهم الضرر الذي تحدثه النوائب فيها الثاني عشر يكون رد المجرمين من الطرفين بالتبادل الثالث عشر يتعهد الأمير بان لا يعطي أحداً من الدول الأجنبية قسماً من الشاطيء إلا برخصة من فرنسا الرابع عشر لا يسوغ بيع من محصولات أو لوازم الإقليم ولا شراء إلا في الأسواق الفرنسوية الخامس عشر لدولة فرنسا أن تعين في المدن التي في مملكة الأمير وكلاءً ينظرون في أشغال الرعايا الفرنسوية وحل المشكلات التجارية فيما بينهم وبين العرب وكذلك للأمير ان يضع وكلاء من طرفه في المدن التي تحت إدارة دولة فرنسا حرر في تافنا في السادس من ربيع الأول سنة أربع وخمسين ومائتين وأول يونيه سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة وحرر صك المعاهدة نسختين كل منهما على شطرين عربي وفرنساوي فكتب الأمير اسمه بخطه على الشطر العربي وختم عليه بخاتم الإمارة وكتب الجنرال بيجو اسمه بخطه على الشطر الفرنساوي وختمه بخاتمه الرسمي واخذ كل منهما نسخة وبعد إمضاء صك المعاهدة وتقريرها كتب الجنرال لوزير الحرب يعتذر عن عقده المعاهدة التي اقتحمها بقوله انكم معتقدون انه يؤلمني جداً أن اعمل أفكاري بعدم اتباع تعليماتكم بالنظر إلى الحدود المعينة فيها للأمير على أن

ذلك كان محالاً وتيقنوا أن الصلح الذي عملته هو احسن والأرجح أن يكون طويل المدة وافضل مما اعلمه بحصر الأمير بين نهر شلف ومراكش ثم التمس الجنرال يجو من الأمير أن يجتمع به فأجابه لذلك وعين له موضعاً يجتمعان فيه فركب الجنرال مصحوباً بست فرق من المشاة وفرقة من الخيالة وفرقة من المدفعية وفرقة من فرسان العرب وسار إلى المحل المعين وبعده سبع ساعات عن معسكر الأمير وثلاث ساعات عن معسكر الفرنسوية فوصله قبل الأمير وبعد مضي نحو خمس ساعات أقبلت فرسان من العرب يعتذرون عن تأخير الأمير بأنه أبطأ في الخروج لانحراف مزاجه وليس ببعيد أن يصل ثم أقبلت فرسان آخر يطلبون من الجنرال أن يتقدم قليلاً لملاقاة الأمير فلم يمكنه الرجوع حتى ينال مطلوبه وهو اجتماعه بالأمير وبعد أن سار نحو الساعة اشرف على جيش الأمير المشتمل على نحو خمسة عشر ألف فارس قادمين بنظام عجيب وترتيب غريب في سهل يموج بهم ومنظرهم يفتن العقول وبعدهم شاهد الأمير وقد أحاط به نحو المائتين من رؤساء العرب راكبين على سوابق تختال بهم تيهاً يتسربلون بأسلحة صقيلة وأمامهم إمامهم يفوقهم بالنظر والشهامة ممتطياً جواداً اسود تليعاً مسيره بصنعة غريبة تارة يختطف الريح بقوائمه خطفاً وأخرى يمشيه على رجليه وكانت تلك الحركات تزيده هيبةً وهو غير مبال بها وحوله ستة من السياس آخذين بركابه فتقدم إليه الجنرال مطلقاً عنان فرسه نحوه فتصافحا ثم ترجلا فجلساوأخذت الموسيقى تصدح بأنغامها المطربة فسأل كل منهما الآخر عن صحته وأخذا في الحديث فقال الجنرال إنني على هذا الشرط جعلت نفسي كفيلاً لك عند ملك فرنسا فأجابه الأمير ليس لك خاطر في ذلك فان لنا ديناً وأخلاقاً عربية تلزمنا لمحافظة على قولنا وأنا لا اغير قولي قال الجنرال فلهذا اعتمدت على ذلك وبحسبه اقدم لك محبة خصوصية أجابه الأمير قد قبلت محبتك فلتحترس الفرنساوية من كلام المفسدين فقال الجنرال أن الفرنسوية لا تنقاد لكلام أحد وليس بعض حوادث خصوصية يفعلها البعض تنزع السلام من بيننا إنما ينزعه عدم إجراء شروط المعاهدة أو وقوع خصومة كبيرة وإنما الذنوب التي يرتكبها البعض فإننا نعلم بعضنا بها ونقاصص عليها من يتجاسر على فعلها فأجابه الأمير هذا حسن جداً فليس عليك إلا أن تعلمني وأنا اجري ما يقتضي قال الجنرال إني أوصيك بالكول اوغلان الذين يبقون في تلمسان فأجابه الأمير كن مطمئناً من جهتهم فانهم يعاملون معاملة الحضر قال الجنرال وعدتني انك تضع عرب الدوائر والزمالة في بلاد هبره فأظن إنها لا تكفيهم فأجابه الأمير يوضعون في مركز لا يمكنهم من إيقاع ضرر لحفظ السلام وبعد أن سكتوا قليلاً رجع الجنرال إلى الحديث فقال وهل أمرت أيها الأمير برجوع علاقات التجارة في الجزائر والمدية فأجابه الأمير لا افعل هذا إلا بعد أن ترد لي تلمسان فقال الجنرال جداً تعلم باني لا اقدر على ردها لك إلا بعد تصديق الملك على المعاهدة فأجابه الأمير فإذا ليس لك قوة على إجراء المعاهدة فقال الجنرال نعم لي قوة على ذلك ولكن يقتضي أن يصادق الملك على ما اجريه حيث يكون ذلك كفالة له فانه إذا اصدق عليها مني فقط ثم أتى جنرال آخر فانه يقدر على إبطالها وأما إذا صدق عليها الملك يصير ملتزماً بالإجراء على موجبها فأجابه الأمير إن لم ترجع لي تلمسان كما وعدتني في المعاهدة فلا أرى احتياجاً لإجراء الصلح بل يكون ما جرى إلا من قبيل هدنة مؤقتة فقال الجنرال هذا صحيح ولكن أنت تكسب بهذه الهدنة حيث إني بمدتها لا اخرب المواسم فأجابه الأمير ذلك لا يضرنا حتى إني أعطيك الرخصة بان تخرب كل ما تقدر عليه ولا يمكنك أن تخرب إلا مقداراً زهيداً ومع ذلك يبقى عند العرب حبوب وافرة فقال الجنرال أظن أن العرب لا يفتكرون مثلك لأنني أرى انهم يرومون الصلح والبعض منهم أثني علي لكوني حافظت على

المواسم من الشفه كما وعدت بذلك حمادة الصقال فتبسم الأمير ثم سأل الجنرال عن المدة التي يمكن رجوع الجواب فيها من فرنسا فأجابه لا تكون اقل من نصف شهر فقال الأمير حيث أن الأمر كما ذكرت فلا نجدد العلاقات التجارية ولا نحدث شيئاً من مقتضيات المواصلة إلا بعد ورود الجواب من فرنسا ثم قاما من مجلسها وودع كل منهما الآخر وهذه المقابلة كانت أول مقابلة جرت بين لأمير وحاكم فرنسوي وقد اخبرني ابن رابح أحد ضباط الفرسان الذين كانوا يومئذ في حرس الأمير انه عندما وقف في مجلسه لوداع الجنراتل قرب إليه فرسه الأدهم الشهير ليركبه وبعد ان صافح الجنرال ونزع يده من يده التفت إلى الفرس وعلا عليه في اقل من لمحة وحركة وبركابه فمرق بين الخيل مروق السهم واندفع به ثلاث دفعات متوالية على وتيرة واحدة فانبهر الجنرال لذلك وتعجب من سرعة ركوب الأمير وخفة الفرس وبقي واقفاً برهة من الزمان ينظر نظر المتحير ثم ركب فرسه ومضى وبعد أن سار الأمير وجيوشه على مسافة بعيدة من موضع الاجتماع أمر الجنرال أحد ضباط عسكره أن يرجع إلى المحل ويأخذ مساحة ما بين تلك الدفعات الثلاث ووضع لها علامات فكانت مساحة ما بين كل منها تقترب من ثلاثين ذراعاً وفي الحادي والعشرين من ربيع الأول والخامس عشر من يونيه ورد الجواب من فرنسا مع ضابط بقبول المعاهدة وصحبته هدية نفيسة من الملك للأمير وهي أسلحة مجوهرة وأقمشة حرير مطرزة بالذهب وأواني صينية فاخرة مكتوب على كل صفحة منها كلمة حكمة من كلام الحكماء الأقدمين وطقم شاي جميعه من الذهب الإبريز ولما وصل الضابط بالجواب والهدية إلى الجنرال بيجو أرسل إلى الأمير يخبره بإتمام الصلح والتصديق عليه من الملك ويخبره بالهدية وطير الخبر إلى حامية مدينة تلمسان يأمر قائدها كافيناك بالخروج منها وتسليمها مع القلعة إلى نائب الأمير فخرج القائد بجيشه من باب ودخل الخليفة السيد محمد البو حميدي من باب آخر واخذ في نقل أثقال العسكر الفرنسوي منها إلى وهران على حسب ما وقع عليه الاتفاق قال بعض المؤرخين أن هذه المعاهدة كانت مستحسنة جداً عند الحكومة الفرنسوية التي اعتبرتها ككلمة حاذق والشعب الفرنسي نظر إليها كحافضة شان فالدولة افتخرت بان عبد القادر الذي كان عدواً اصبح حليفاً لها والشعب رأى فيها خطأً وهو تسليم ايالة افرنسية إلى قوة أجنبية أما عبد القادر فكانت عنده المعاهدة كحجز زاوية للبناء الذي كان يشيده بمواظبة واجتهاد وانه كان يقيم عدة سنين بواجبات مضاعفة فكان من جهة يضع في قالب التنظيم والمناسبة أسباب المنازعات التي كانت تحيط به مسكناً القلاقل ونازعا النزاع ومخمداً الفتن ومن أخرى كان يتلقى بجراءة صدمات هجمات عدو كان يفوقه جدا في كل الوسائط التي هي من فن أعلى طبقة وعندما كان يتخلص من شدة خارجية كان يفرغ كل قوته ليتغلب على الصعوبات الداخلية ثم كتب هذا الإعلان من الديوان ونشر في أنحاء المملكة ونصه لحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي من بعده فان لبشائر الإسلامية والمفاخر الإيمانية ينبغي أن تشاع وتشاد ويطل في ذكرها الإطراء والإنشاد وينادي عليها بالتهاني في كل ناد وترفع أحاديثها الصحيحة ثابتة المتون عالية الإسناد وتسير بخبرها الركبان في الأغوار والانجاد وتحلى بحليها الشفاه والآذان والأجياد ليأخذ كل مسلم حظه من سواطع مطالع مسراتها وينال كل مؤمن نصيبه من مواهب رغائب مبراتها وخصوصاً فيما يرجع إلى إعلاء الدين وظهوره ورسوخ قواعد الإسلام وفروعه وما يعود إلى الأعداء بالصغار والهوان ويلبسهم الخزي والخسران فان لذلك تأثير كبير في قلوب الذين هدى الله يدل عليه ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله والى هذا أدام الله لكم التسديد والتوفقي وهداكم إلى أقوم سبيل وطريق فقد ورد البشير بما شرح الصدر وأعلا

الإسلام لظهور القوة ورفع القدر من فتح تلمسان في تاسع شهر صفر الخير سنة أربع وخمسين ومائتين على يد من رفع راية الإسلام واعزها حضرة مولانا ناصر الدين سيدنا الحاج عبد القادر ابن محي الدين بفضل الله وسعادة صاحب هذا الميدان بعد محاصرتها شهوراً عديدة وأياماً مديدة بصلح أسفر عن العز وجه نجاحه وطلع في فلك الإسلام طالع سعده وفلاحه فأصبحت به ثغور الدين بواسم وهبت به رياح بتتابع النصر نواسم وقامت به في التهاني كالأعياد والمواسم وبشر بتوالي فواتح تلك الثغور وإحياء تلك المراسيم واعلم أن خيل النصر تنجد كل حين وتغور وتوالي الشدائد على العدو في المساء والبكور حتى ترده على أعقابه وتدخل عليه من أبواب الظهور وألقابه فيتهافت في الفرار تهافت الذباب على الشراب ويقنع من الغنيمة بالإياب وقد أعلمناكم بهذه البشرى وأطعناكم على هذه النعمة الكبرى لتأخذوا أوفر نصيب من معانيها اللطيفة وترووا أحاديث صحيحة موصولة بأسانيدها المنيفة وتعلموا أن كيد الأعداء في افتار وان أمرهم بمجرد إقباله يعقبه الإدبار فبمثل هذا تقر العيون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وما ورد البشير حتى انتشرت راية الإسلام في معاهدها وشهد الله بالوحدانية في مشاهدها وأقيمت الصلوات الخمس في مساجدها فالله الحمد على هذه المنة العظيمة والمنحة الجسيمة نسأل الله ان يتم مسرات المسلمين بفتح وهران والجزائر ويجعلها في صحائف المجاهدين من الذخائر ويخص الجميع من يد عصابه انه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وعند دخول الأمير إلى تلمسان حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله وقال : إلى الصون مدت تلمسان

يداها ◈ ولبت فهذا حسن صوت نداها

وقد رفعت عنها الإزار فلج به ◈ وبرد فؤاداً من زلال نداها

وذا روض خديها تفتق نوره ◈ فلا ترض من زاهي الرياض عداها

ويا طالما صانت نقاب جمالها ◈ عداة وهم بين الأنام عداها

وكم رائم رام الجمال الذي ترى ◈ فأراده منها لحظها ومداها

وحاول لثم أخال من ورد خدها ◈ فضنت بما يبغي وشط مداها

وكم خاطب لم يدع كفوءًا لها ولم ◈ يثم طرفاً من وشي ذيل رداها

وآخر لم يعقد عليها بعصمة ◈ وما مسها مساً إبان رضاها

ولم تسمح العذرا إليه بعطفة ◈ ولم يتمكن من جميل سناها

وشدت نطاق الصد صوناً لحسنها ◈ فلم يتمتع من لذيذ لماها

وأبدت له مكراً وصداً وجفوة ◈ وسدت عليه ما نوى بنواها

وخابت ظنون المفسدين بسعيهم ◈ ولم تنل إلا عدا هناك مناها

قد انتصت من تلمسان حبالها ◈ وبانت وآلت لا يحل عراها

سوى صاحب الإقدام في الرأي والوغى ◈ وذي الغيرة الحامي حماة حماها

ولما علمت الصدق منها بأنها ◈ أنالتني الكرسي وحزت علاها

ولم اعلمن في القطر غيري كافلاً ◈ ولا عارفاً في حقها وبهاها

فبادرت حزماً وانتصاراً بهمتي ◈ وأمهرتها حباً شفاءً دواها

فكنت لها بعلاً وكانت حليلتي ◈ وعرسي وملكي ناشراً للواها

ووشحتها ثوباً من العز رافداً ◈ فقامت بإعجاب تجر رداها

ونادت اعبد القادر المنقذ الذي ◈ أغثت أناساً من بحار هواها

لأنك أعطيت المفاتيح عنوة ◈ فزدني أيا عز الجزائر جاها

ذكر ظهور محمد بن عبد الله البغدادي في جنوب ولاية تيطرى وقيام محمد بن عوده المختاري بدعوته

قدم محمد بن عبد الله من بغداد إلى المغرب الأوسط أيـام سـيدي الجد السيد محي الـدين رحمـه اللـه وزعم انـه من ذريـة الغـوث الأكـبر والقطب الأشهر سيدي عبد القادر الجيلاني قدس الله سره فاحتفـل بـه سيدي الجد واجل مقامه وكان يحضر معه في تلـك أيـام الجهـاد متجملاً جهـاد العـدو ثم لحـق بـالمغرب الأقصـى بنسـبته فلقيـه السـلطان عبـد الـرحمن بن هشـام بالتحيـة والإكـرام وبعـد سـنتين رجـع إلى المغـرب الأوسط فوجد سيدي والد مرتبكـاً في أمـر العـدو نعـدل منـه إلى قبائـل الزنـاخرة وأولاد نائـل ومن إليهم من القبائـل في الجهـة الجنوبيـة وكـان زعيم أولاد مختار محمد بن عودة من أقـوى المشـاغبين في تلـك الجهـة فلحق به داعية له فقام بنصرته ودعا الناس إليه قال لهم هذا محمـد بن عبد الله المنتظر فاجتمع عليه خلق كبير وكانت نفس ابن وده منذ ظهـر الأمير تحدثه بالخروج عنه والدعاء إلى نفسه واخذ يسـتميل النـاس إليـه بأنواع وعطاء فلما قـوي الإنكـار على الأمـير في مصـالحة العـدو وتـرك الجهاد مع من كان الياس عليـه من اسـتقال أمـر المعونـة الـتي ضـربت عليهم للقيام بأمر الملك ولوازم الجهاد وما كان يخفيـه وجـاهر بـالخروج عن الطاعة ودعا الناس إلى البغدادي المذكور إلى أن يكون زمام الأمور بيده فانقادت إليه قبائل الزناخرة وأولاد نائل وأولاد موسى وأولاد مختـار وغيرهم في تلك الأطراف . ذكر

خروج الأمير إلى الجهة الشـرقية وهزيمـة محمـد البغـدادي ومصـير أمره

ولما فرغ الأمير من عقد المعاهدة مع بيجو واصلح خلل الجهة الغربية من بمالكته رجع إلى الحضرة ثم نهض منها في ثمانية آلاف فارس وألف من المشاة وقطع من المدافع لتمهيد النواحي الشرقية ومشارفة الأمور بنفسه فجال في نواحيها حتى انتهى إلى المدية حاضرة ولاية تيطرى فلقيه خليفته السيد محمد بن علال في وادي شلف في لربعة آلاف خيال وألف من المشاة وكان وصول الأمير إلى المدية لما قويت شوكة البغدادي فأهمه أمره ثم سار إليه في جيوش وجعل في مقدمته الخليفة السيد محمد بن علال فكان بينهما في المسير مسافة مرحلتين ثم ان الخليفة بعث إلى أعيان القبائل الدائمة بطاعة الثائر بكتاب يدعوهم فيه إلى مراجعة الطاعة ويحذرهم من سوء العاقبة ونصه . الحمد لله الواحد القهار والصلاة والسلام على نبيه ورسوله المختار وعلى آله وأصحابه وتابعيه من المهاجرين والأنصار أما بعد فالذي نخبر به قبائل الزناخرة وأولاد نائل وأولاد المختار ومن والاهم ووافقهم على الخروج عن طاعة حضرة الأمير انه لما بلغه أيده الله خبر علوكم وشقكم عصى المسلمين بخروجكم عن الطاعة ومخالفتكم لأهل السنة الجماعة وإعلانكم العدوان ومجاهرتكم بالعصيان صدر أمره العالي المطاع بالله تعالى بأعذاركم وإنذاركم وبذل النصيحة لكم فان رجعتم عن غيكم وارتكاب ما اداكم إليه جهلكم ومرض قلوبكم وضعف دينكم وجئتم إليه تائبين وعن أفعالكم الشنيعة مقلعين فذلك وإلا فانه نصره الله يقاتلكم وينتقم بسيف الله ورسوله منكم ولا يخفى إنكم بانتفاضكم عليه وخروجكم عن طاعته التي اجمع عليها ال المغرب الأوسط وبايعوه عليها صرتم ممن أتاح الله دماءكم وأموالكم فالمقتول منكم مصيره إلى النار والمقتول من العساكر المحمدية المنصورة مآله إلى الجنة فيجب عليكم أيها الناس أن تتوبوا إلى الله تعالى وترجعوا عما انتم عليه من الضلال وتعلنوا الطاعة والدخول في سلك الجماعة وتبادروا إلى أعتاب مولانا خاضعين طائعين مذعنين لأوامره فانه أيده الله يقبل توبتكم ويصفح عن زلتكم ويعرض عن جهلكم ولا ينالكم منه إلا ما تحبون فهذه نصيحتي لكم فان تلقيتموها بالقبول فذلك وإلا فإنكم ستشلهدون بقدرة الله تعالى ما يدع أطفالكم يتامى ونساءكم أيامي وأموالكم غنيمة يقتسمها المسلمون وحينئذ تندمون على ما فاتكم من الخير وتتأسفون حرر بأمر الخليفة السيد محمد بن علال نائب مولانا الأمير في ايالة مليانه فلم يزدهم هذا المكتوب إلا اعتداء وعتواً ومع ذلك فان الخليفة أقام ينتظر فئتهم أياماً ولما يئس من طاعتهم وبلغه أهم تجمعوا وصمدوا للقتال في بلاد أولاد مختار بعث إلى الأمير يخبره فوجم لذلك وسار إليهم في جيوشه وزحف إليه الخليفة بعسكره في وقت عينه له الأمير فلما ترآى لهم سوى الخليفة صفوفه والتقى الجعان والتحم العسكر بالحشود واشتد القتال واتصل ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع جاء الأمير من وراء العدو وألح في قتالهم فانكشفوا واثخن فيهم بالقتل والأسر وفر الثائر وصاحبه ابن عودة لا يلوي أحدهما إلى الآخر وتفرقت جموعهما في جهات مختلفة فأقام الأمير في موضع المعركة ثلاثة أيام لراحة الجيش وفي الرابع ارتحل يقفوا أثرهم وبث البعوث في النواحي فدمروا من أدركوه منهم واثخنوا فيهم بالقتل والأسر والتجأت القبيلة ببني عنتر إلى موضع كثير الشعراء والصخور وتحصنوا فيه فلحقهم العسكر المشاة وأحاطوا بهم وضربوا عليهم حلقة الحصار إلى أن أجهدهم الجوع والعطش فلاذوا بالطاعة ونزلوا تحت حكم الأمير فعفا عنهم وأمن روعتهم ولما ذاع خبر هذه الواقعة وما لحق بالعصاة من الوبال والنكال أذعن الناس وجاءت الوفود من القاصية إلى الأمير وهو في بلاد أولاد مختار ورجع العصاة كلهم فقدموا طاعتهم إليه واعترفوا بذنوبهم بين يديه فشملهم بالعفو ورد عليهم سيهم وأسراهم واستأمن إليه محمد بن عودة فأمنه ووفد عليه وكتب إليه الولاية على سائر القبائل

في ناحيته من عرب وبربر وسماه آغة وقرئ الظهير الأميري بذلك على أعيان القبائل الذين ترأس عليهم وبهذه السياسة الحسنة صار كل من كان عدواً بالأمس صديقاً إليهم بل خادما أميناً وبعد هذا الانتظام العظيم صلحت الأحوال في الجهات واستامت الأمور وعفيت أثار الفتن وانكشف الديجور من ساحل البحر إلى القفر وأما البغدادي فانه وقع في يد بعض العصاة فقبض عليه وأحضره إلى أعتاب الأمير وجعله ذريعة لتوبته فتقبلها منه واشخص الثائر إلى المغرب الأقصى ولم يزل الأمير يتنقل في تلك النواحي الجنوبية والجهات الشرقية إلى ان اجتث المفاسد من اصلها واخضع قبائل الصحراء ودوخها وولى عليها العنال أهل الجباية ثم انتقل راجعاً إلى المدية حاضرة الولاية . فوفدت عليه وفود الأغواط وقدموا طاعتهم فتقبلهم واكرم وفادتهم وأفاض عليهم من إحسانه ما ستعبدهم ثم انهم اخبره بأحوال بلادهم وأوقفوه على ما عليه عشائرهم وبطونهم من الطاعة له وطلبوا منه ان يولي عليهم من يسوسهم ويضبط بلادهم فأجابهم إلى ماطلبوه وولى عليهم السيد الحاج عيسى اللغواطي المشهور فيهم بالسؤود والرئاسة الموروثتين عن أسلافه وأقامه نائباً عنه في تلك النواحي الشاسعة وكتب له في ذلك ما نصه هذا ظهير شريف يتضمن الترغيب في جمع كلمة الرعية والترهيب من السعي في تفريق الجماعة والدعاء إلى التمسك بأوامرنا المطاعة أصدرناه للمكرم المحترم السيد الحاج العربي اللغواطي وذلك انه لما تقرر لدينا فضله وعدله رأينا انه أحق من نقلده الأمر الأكيد ونرمي به الغرض البعيد ونستفسر به أحوال الرعية حتى انه لا يغيب عنا شيء من أوالها ولا يخفى علينا ما يتجشمها من طارق أهوالها وينهي إلينا جميع ما يحدث فيها إنهاء يتكفل بجلائها ودقائقها وجعلناه نائباً عنا وخليفة لنا في قبائل الاغواط الغرابة والشراقة ومن إليهم من القبائل الصحراوية في الجهات الجنوبية فيجمع سائر وجوهها وأعيانها ويخبرهم بأمرنا هذا ويتلوا عليهم ما قلدناه به ويقرر لديهم وجوب طاعة ولزوم اتباعه والإذعان لأوامره ونواهيه وقد عينا له من العسكر النظامي ما يتوصل به إلى تقرير الأحكام وجباية الأموال وقهر الظالم والأخذ بيد المظلوم هذا مع ما نعتمد عليه من انقياد رعيتنا الأحكام الشرعية والأوامر المرعية ولذلك لم نبالغ بالاستكثار من العسكر لخدمة خليفتنا المذكور فكونوا أيها الناس لأمره السالك فيه على جادة الحق والعدل سامعين لكلمته مطيعين واعلموا أن من نكث فإنما ينكث على نفسه ولله ولي المتقين حرر عن إذن مولانا ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين في سنة أربع وخمسين ومائتين وثمان وثمانمائة وبعد تحرير هذا الظهير وتسجيله تناوله السيد الحاج العربي وسار مع الوفود إلى بلادهم فرحين بما نالهم من الأمير من الإكرام وقضاء المطالب ونيل الرغائب ثم رجع الأمير إلى المدية فاستقبلته الأهالي على بعد أميال منها حتى غص الطريق بألوف من الذين تقاطروا من كل نواحي المدية ليمتعوا أعينهم بمشاهدة ذاته وكانوا يصرخون نايعش مولانا عبد القادر وصدحت عند دخوله الموسيقى بأنغامها المطربة ورشقوا ممره بباقات الزهور ولم يزل سائراً إلى أن دخل الجامع الكبير فصلى فيه وخطب ووعظ تم توجه إلى محل الإمارة فتوارد عليه الوجوه والعلماء مقدمين له التهاني فكان يستقبلهم بالبشاشة ولمؤانسة ثم وفد عليه الوفود من قسنطينة والقبائل المقيمين بالحدود الجنوبية في ايالتها يستنجدونه ولكن محافظته على معاهدة تافنا منعته عن ذلك وكان رضى الله عنه بعد فراغه من الاشتغال بالأمور المدنية يشتغل بالأمور الدينية أما في نفسه وأما لعموم فكام مدة وجوده بالمدية يدرس درساً عاماً في التوحيد وكان يوم ختم أم البراهين للسنوسي يوماً مشهوداً حضره العلماء من القطر الجزائري وقدموا له المدائح ومن جملة من

امتدحه العلامة السيد قدور بن رويله فقال : غيوث السماء سحت بروض ◈ أم نسيم الصبا زكت بربوع

أم شموس الضحى تجلت لسعد ◈ أم بدا البدر في سعود الطلوع

وثغور الأقاحي بالزهو تبدو ◈ باسمات عن البريق اللموع

وخدود الورود تحسبها وج _ نة عذراء ذات خدر منيع

وعيون من نرجس شاخصات ◈ لم تذق في الرياض طعم الهجوع

وحمام الآراك في الدوح يشدو ◈ ببديع التسجيع والترجيع

وذيول المنى تجر وتاج ال ◈ ثغر يزهو ببهجة الترصيع

ام سحاب العلوم في الدرس لامي ◈ بفهوم من الغمام الهموع

أم فيوضات بحر لفظ كلام ◈ زاخر في أصوله والفروع

أم عقود من البراهين تبدو ◈ بقياس يزهو بحسن صنيع

أم لآلي فوائد ملحقات ◈ بمعان من البيان البديع

قد اقرت لها اسود غريس ◈ ولها أذعنت جميع الجموع

حيث شمس الهدى لعيني تجلت ◈ فاستنار الفؤاد بين الضلوع

من سماء الإمام قطب المعالي ◈ صاحب الوقت والمقام الرفيع

سيدي عبد القادر من له قد ◈ خضع المرهبون أي خضوع

ابن محي الدين الحسني جداً ◈ ومن الأصل كان طيب الفروع

فهو للدرس أن تصدى إمام ◈ وهمام أن جال فوق سريع

جد حتى إطاعة كل شي ◈ ياله من فتى مطاع مطيع

يا حمى العلم باطناً ظاهرياً ◈ من به ردع الفيلسوف الطبيعي

دم لتوحيد الله أقوى معز ◈ أوقع الشرك في أذل وقوع

وصلاتي مع السلام على جد ◈ كم الهادي الرسول الشفيع

وعلى آله وأصحابه ما ◈ فاح مسك الختام بعد الشروع

غزوة وادي الزيتون خرج الأمير بقواده ورؤساءه من المدينة قاصداً فرقة من معسكره نازلة في سهل قريب من البلدة ولما وصل إلى المعسكر أمر بعدم خروج أحد منه وبالاجتماع عليه فأصطف الجميع حوله كهيئة نصف دائرة فقال لهم طالما قابلت اعوجاج قبائل وادي الزيتون بالاستقامة وعاملتهم على ما فيهم من الإساءة بالمعاملة الحسنة فلم يزدهم ذلك إلا علواً واستكباراً مع علمهم بانا قد بذلنا نفيس الأنفس والمال للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله واخترنا ركوب

الأخطار للذب عن الـدين ولـوطن ودافعنـا الأعـداء بالمـال والبـدن وقـد خالفوا فحالوا أعداءنا في الدين ومنعوا دفع الزكـاة والعشـر المفروضـة عليهم شرعاً لـبيت مـال المسـلمين وإني قـد بلت الجهـد في إرشـادهم وأرسلت الأشراف والعلماء لنصحهم فما ارتدعوا من غيهم وقد أفل يوم الرحمة عنهم ودنا يـوم النقمـة منهم فـاحملوا عليهم حملتكم المعروفـة واهجموا عليهم بشجاعتكم المواصوفة التي ألقت الرعب في قلوب كـل الأعـادي ولا تخشـوا رصـاص رمـاتهم فـان اللـه هـو الـرامي ولا يهـولكم اعتصامهم كالنسور في صياصي الجبال فالصـياد المـاهر يتسـلق الجبـال لبلوغ الآمال فتوكلوا على اللـه ان اللـه معنـا وهنيئـاً لمن يمـوت شـهيداً ومن آب ظافراً عـاد واللـه سـعيداً واسـتمدوا من اللـه المعونـة والنصـر والصـلاة والسـلام على سـيدنا محمـد وعلى آلـه وصـحبه الطهـر فنـادى الجميع اللهم صل على سيدنا محمـد وانصـر ناصـر الـدين ثم أمـر بتهيـؤ الجيش للمسير ولما وصلوا لوادي الزيتون أمـر بـترتيب الجيش للهجـوم وقسـمه أربعـة أقسـام قسـم الميمنـة وقسـم للميسـرة وقسـم لجمـع المجاريح وتعقيب المنهزمين وأبقى الباقي في معيته على رابية مشـرفة على سـاحة القتـال ثم صـدحت الموسـيقى بالحـان الحماسـة والهجـوم وشرعت الجنود بالزحف حتى قطعوا الوادي وابتدأ بالصعود إلى معتصـم العصاة فقابلتهم العصاة باطلاق البنادق من وراء صـخور الجبـال وقتلـوا عدداً من الجند فتوقف الباقي عن التقدم والقواد تشـجعهم وتحثهم على الإقدام والثبات وتعدهم بالنصر وأمر الأمير بالحمل عليهم من كل جـانب فحملـوا عليهم حملـة رجـل واحـد وعلا القتـام وضـجت الأصـوات من الفـريقين وصـعد الجنـد إلى أعلى الـروابي وأضـرم النـيران في القـرى وثارت العصـاة تـدافع عن المـال والعيـال مدافعـة الأسـود عن الأشـبال والتحمت الرجال بالرجال وبطل الرمي بالبنـادق وعمـل السـيف اتصـال بالعناق والمفارق ولم يزل السيف يحمل والأبطال تقتل وتجنـدل إلى أن

دب بالأعداء الفشل وسلموا أنفسهم الأسر فأمر القائد عنـد ذلـك بوثـق الرجـال والنسـاء والأطفـال في محـل ووضـع الحـرس الكـافي عليهم واستولى الجيش على الأموال والأمتعة ثم رجع الأمـير إلى خيمتـه وأمـر بجمع العلماء لترتيب الجزاء على رؤساء الأسـرى فحكم عليهم بالإعـدام واحضر بين يديه ثمانية عشر رجلاً منهم فقال لهم قـد امرنـا اللـه بقتـال من فارق الجماعة وخالف الشريعة المطهـرة وشـق عصـا الطاعـة وقـد أظفرنا الله بكم وجعلكم في أيدينا فماذا ترون فأجابـه أحـدهم أن قطـع أعناقنا أولى من تقديم الطاعة لـك عنـدنا واللـه يحكم بيننـا وبينكم يـوم القيامة وهو اعدل الحاكمين فوبخه الجاويش على ذلك وأمره بالسـكوت فرفع الأمير رأسه وشار إلى الجلاد بضرب عنقه ثم الثـاني والثـالث إلى أن وصلت النوبة إلى شيخ هرم فقدم وهو يرتعـد خوفـاً وجزعـاً فهجمت أطفاله على الأمير ووقفوا يتباكون وبينهم طفلة صـغيرة السـن خـاطبت الأمير بقولها بحق الله ووالديك وأولادك أن تعفو عن والـدي فلمـا سـمع الأمير كلامها غلبت رحمتـه على غضـبه وظهـر اثـر العفـو والشـفقة في وجهـه وأمـر بـالعفو عن والـدها وعن البـاقين واقتبـل على البنت وقبـل وجبهتها لأنها كانت سـبب عفـوه عنهم ثم أعلن العفـو عمن حـالفهم ورد أموالهم عليهم فلما سمعت رؤساء القبائل المحالفين لهم بذلك أسرعت للمثـول بين يديـه وأدوا الطاعـة والأمـوال المفروضـة عليهم من زكـاة وعشـر فعنـد ذلـك اقـر كـل رئيس على قبيلتـه وامـر برحيـل المعسـكر ورجوعه إلى المدية . ذكر

خروج الجنرال دومريمون إلى قسنطينة ومقتله واسـتيلاء عسـاكره عليها

لما فرغ الأمير بيجو من أمر المعاهدة مع الأمـير بعث بالجنـد الـذي كان عنده في وهران إلى الجزائر وبعد أيام اخذ الحاكم العـام اسـتعداده ثم سار في المـراكب المشـحونة بالعسـاكر والـذخائر قاصـداً قسـنطينة

ونزل في بونه ومنها خرج إلى كلله ولازال يتقدم إلى ان استولى على مضيق عمار وكانت حاميته إذ ذاك من معسكر احمد باي صاحب قسنطينة فلما تصل بها خبر الفرنسيس تفرقت من غير قتال وأقام الحاكم الفرنساوي في المضيق المذكور ينتظر لحوق الذخائر والمهمات به وقسم عساكره أربعة فرق وزحفت هذه الجنود في أول يوم من أكتوبر واتصل الخبر بأحمد باي فخرج في نقاوة جيشه إلى خارج البلد وقام نائبه علي بن عيسى في باقي الجيش داخلها واستمرت الجيوش الفرنسوية سائرة إلى أن وصلت قرب البلد فناجزها المسلمون الحرب واستم القتال بين الفريقين ستة أيام بلياليها ثم وقعت فترة من الجيوش الإسلامية فتقدمت الجيوش الفرنسوية انتهازاً للفرصة واستولت على الخندق فتوقف الحاكم الفرنساوي عن القتال وكتب إلى الباي وعلي بن عيسى واعيان البلد يدعوهم إلى التسليم ونص ما كتبه من القائد العام ورؤساء الجيوش الفرنسوية إلى احمد باي وعلي بن عيسى وسائر العساكر والأهالي المحصورين داخل البلد نعرفكم أن العناية الإلهية منحتنا انتصاراً مجيداً ويد القدرة الربانية كالمتنا بإكليل النصر فبها جيشنا الجسور وأبطالنا الشجعان قد استولوا بعزمهم وقوة سلاحهم على خنادق بلادكم ولم يبق بيننا وبينكم إلا أحد أمرين أما أعمال السيف وأما التسليم للنجاة من الموت لا جرم أن عدم التسليم يعود عليكم بالدمار والخراب ونحن لا رغبة لنا في سفك دمائكم فالتسليم اسلم لكم واحسن بكم واحسن بكم لأنكم امسيتم في مركز خطير جداً والخلاص منه بدون ضرر كبير يلحقكم مستحيل كيف وبواريد فرنسا قد أحاطت بكم من كل جهة وصرتم في وسطها مثل السمك في الشبكة فأجابوه بما نصه من الأمة المحافظة على شرفها وبلدها إلى العسكر الفرنسوي المعتدي على حقوق غيره قد وصلتنا رسالتكم وفهمنا ما ذكرتموه فيها نعم أن مركزنا أمسى في خطر عظيم ولكن

استيلاؤكم على قسـنطينة المحميـة بالأبطـال العربيـة اللـذين لا يهـابون الموت موقوف على قتل آخر واحد منهم واعلموا أن الموت عنـدنا تحت أسـوار بلـدتنا احسـن من حياتنـا تحت سـلطة فرنسـا فلمـا اتصـل هـذا الجواب بالحاكم الفرنسـاوي قـال لأهـل مجلسـه من القـواد مـا ذكـروه هؤلاء هو كذلك فانهم أبطال شجعان أصحاب قلوب قوية وما رغبوا فيــه سيعود على جنودنا بالعز والفخر ثم أمر باستئناف الحـرب واخـذ الجيش في طم الخندق وتوجه الحاكم الفرنسوي وفي معيتـه الـدوك دي بتمـور إلى محل العمل فبينما هم ينظرون إلى عمـال الجنـدلت عليهم كلـه من مدافع البلد فأصابت الحاكم الفرنسـوي في صـدره فألقتـه قـتيلاً وتقـدم الجنرال بريكو ليحمله فأصابته رصاصـة في جبهتهـه فألحقتـه برفيقـه ثم اتفق رأي القواد على تعين الجنرال كاله قائداً عاماً فأمر بإطلاق المدافع على البلد فأرسلت عليها كالمطر ثم هجم القائم مقام لامور سير فرقته على البلد واتصلت النار باللغم الذي كان بالمسلمون أعدوه للعدو فدمر عدداً كثيراً من الفرقة الهاجمة وجرح قائدها لامورسير جرحاً أعجزه عن القيـام ثم هجم كـومب بفرقتـه مـدداً للفرقـة الأولى الـتي هلـك أكثرهـا واشـتد القتـال بين الفـريقين وأبلى المسـلمون بلاءً حسـناً فكـان منظـر القتلى مرعبـاً وانين الجـرحى محزنـاً واسـتمات الفريقـان وثبـات أهـل قسنطينة في ذلك اليوم أوجب المزيد الاسـتغراب لكـل من شـاهد تلـك الحرب الهائلة وبعد للجنود الفرنسوية لأنهم اقتحموا شدة البلاء وتعلقــوا بأسـوار البلـد وتمكنـوا من نشـر رايـاتهم عليهـا غـير أن الخسـارة الـتي تكبدوها لا يعادلها شيئ فقد قتل من القواد المشهورين عـدد كثـير منهم القائد العام الجنرال دومريمون والجنرال بريكو والكمندار كومب والقائد فمنـه دمبريـني وغـيرهم من ألـوف من الجنـد ومعظم الوبـال كـان في النهار الأخير ويؤيد هذا مـا ذكـره بالمـار ووافقـه روا في تاريخهمـا ولمـا دخلت جنود فرنسا إلى البلد تفرقت العرب وفر احمـد بـاي صـاحبها في

لمـه من خواصـه ولحـق بـالزاب ثم اخـذ مدينـة بسـكره من يـد حاكمهـا فرحات بن سعيد الزواوي ورجع الجنرال كاله إلى الجزائـر بعـد أن أقـام القبطان بتريل حاكماً على قسنطينة وثبتت قـدم الفرنسـيس في مدينـة قسنطينة وانقطعت منها دعوة الدولـة العليـة ولله عاقبـة الأمـور ثم آل أمر احمد باي إلى الدخول في يـد الفرنسـيس وكـانت وفاتـه في مدينـة الجزائر . ذكر

اسـتيلاء الأمـير على بلاد الزيبـان ومصـطيف ومـا إليهـا من البلاد الجنوبية والشرقية

ولما تم استيلاء الفرنسيس على قسنطينة وفـر صـاحب احمـد بـاي إلى الزيبان حشد الحشـود وزحـف بهم على بسـكرة حاضـرة تلـك البلاد فدخلها وفر صاحبها فرحات ابن سعيد ولحق بالجزائر مستنجدا بحاكمهـا الفرنسوي فلم ينجده وتغافل عنه وكان الأمير وقتئـذ في المديـة فجـاءه وشكى أمره إليه ودعاه إلى الاسـتيلاء على بسـكره ومـا إليهـا من البلاد فأجابـه إلى ذلـك وجهـز الخليفـة السـيد محمـد البركـاني في الجيـوش المنظمة والمتطوعـة وسـار بهم مـع فرحـات إلى مدينـة بسـكره وكـان خبرهم اتصل بأحمـد بـاي ففـر منهـا ولحـق بـالتخوم ممـا بلى الصـحراء واستولى الخليفة على بسكره ووفدت عليـه أعيـان العـرب والـبربر من نفزاوه والزواوده وغيرهم وقدموا طـاعتهم وطاعـة من وراءهم وأرسـل الخليفة بالخبر إلى الأمير فسـر بـذلك وأمـره بتمهيـد تلـك النـواحي إلى أطراف الصحراء ثم بالانقلاب إلى صطيف وما إليهـا من بلاد مجانـه إلى جبال زناته ففعل ثم انفتل راجعاً إلى المديـة ظـافراً فـانعم الأمـير على فرحات بن سعيد بايالة بسـكره ومـا إليهـا فاسـتلم زمـام أمورهـا ورتب العمـال في أعمالهـا ولمـا فشـت الـدعوة في سـائر النـواحي الشـرقية والجنوبية بـادر من تقـاعس من القبائـل عن أداء الطاعـة فـادى طاعتـه واتسع نطاق المملكة مسـيرة طـولاً وعرضـاً للمجـد واسـتقامت الأمـور

وترتبت الحاميات والمسلحات في الثغـور والتخـوم وأمنت السـبل حـتى أن المرأة كانت تسير من أول المملكة إلى آخرها لا تسئل من أين والى أين . ذكر

خروج التجينى في حصن عين ماضي من بلاد الاغواط ومسير الأمير إليه

تقدم أن وفود بني الاغواط الشراقه قدموا طاعتهم إلى الأمير فتقبلها وولى عليهم وعلى من يليهم من القبائل السيد الحاج العربي وردهم إلى بلادهم فأذعن الناس للخليفة وقبلوا ولايته ومشت كلمته في تلك النواحي ولم يشذ عنه إلا السيد محمد الصغير التجيني ومن وافقه من الاغواط الغرابة فانهم امتنعوا من أداء الطاعة وجاهدوا بالعصيان فبعث الخليفة بخبره إلى الأمير فوجم لذلك وخشي ان يسري هذا الحال في الناس ويرجع الأمر إلى ما كان عليه من الارتباك فبادر إلى قمع هؤلاء الثائرين وتنكيلهم ليكونوا عبرة لغيرهم وسار في الثامن عشر من ربيع الأول سنة أربع وخمسين ومائتين واثني عشر يونيه سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة في ستة آلاف من الخيالة وثلاثة آلاف من المشاة وثلاث قطع من المدافع وستة هواوين وبعد عشرة أيام من مسيره سيراً عنيفاً في قفار رملية شارف الحصن فرأى من حصانته بالخندق والسور ومن كثرة المقاتلة ما استعظمه ثم تقدم إليه وفرق الجند على جهاته ومعهم النقابون للسور ومن ورائهم الرماة فمنع أهل الحصن ساحته وحاربوا من المكامن التي اتخذها تحت السور ومن شرفاته فتأخر الجيش عنهم وجعلوا يناوشونهم الحرب من بعيد واخذوا في قطع الغياض الملتفة الأشجار حول الحصن وحطم البساتين وأقيمت البطاريات في تلك الفسحات وصار الشروع بإطلاق النار وكلما فتحت ثغرة لأجل الهجوم تسد من داخل وتكرر ذلك مراراً ثم أمر الأمير بحفر النفوق فحفر نفق من المعسكر إلى داخل الحصن ولما وصل العاملون فيه إلى داخل السور أحس بهم الرئيس فنقب جيشه على العملة ووقعت بينهم مقاتله داخل النفق وأبطلوا للعملة عملهم ولما طال الحصار على أهل الحصن مدة تقرب من ستة اشهر وأجهدهم الجوع وأضناهم الخوف اجتمعوا إلى رئيسهم واروه ما آل أمرهم إليه من الجهد والنفاد الأقوات وما يحتاجون إليه في الدفاع وتكلموا معه بما اضطره إلى التسليم وفي التاسع عشر من نوفمبر بعث التجيتي إلى السيد الحاج مصطفى بن التهامي خليفة الأمير يستأمن على نفسه وأهله وسائر أهل الحصن ومن حضره من الحشود وطلب مهلة أربعين يوماً يتأهب فيها للانتقال والجلاء عن الحصن فعرض الخليفة ذلك على الأمير فأجابه على شروط أولها أن يدفع التجيني مصارفات الحصار الثاني أن يكون مجبوراً على إخلاء المدينة في برهة أربعين يوماً الثالث أن يكون له حق بأخذ جميع أمواله المنقولة بلا استثناء الرابع لأهل المدينة حق بمرافقة التجيني بأموالهم وأسلحتهم الخامس أن يرفع الأمير الحصار عنهم ويرجع ثمانية أميال عن المدينة حتى تخلى السادس أن يكون ابن التجيني عند الأمير رهينة إلى إتمام المعاهدة فقبل التجيني الشروط المذكورة وأمضى عليها وأرسل ابنه معها فأمنه الأمير وأمهله وبعد انقضاء المدة خرج بأهله وحشوده ولم يتخلف في الحصن إلا

المستضعفون فأمر الأمير بتخريب الحصن فالصق سوره وسائر دوره وأبراجه بالأرض وغور ماءه وأرسلت له قبيلتان من قبائل الاغواط المجاورين للحصن الزكاة والعشور وأصرت بقية القبائل على عدم دفع ما كان عليه من الزكاة والعشر ولحق التجيني بالاغواط الغرابة وساكنهم في حللهم في خيام الشعر فأعلن الأمير بذلك إلى خلفائه ووكلائه في الجزائر ووهران بما نصه الحمد لله وحده وصل الله على من لا نبي من بعده وبعد فان الله تعالى منذ ولانا أمر المسلمين والنظر في مصالحهم لم نزل نجتهد ونسعى في تأليف قلوبهم على الاتحاد والخضوع لشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لقوله عز وجل ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وقد توجهنا هذه المرة إلى بلاد الاغواط لجمع كلمتهم وإصلاح فسادهم فاظهر عامة أهلها غاية الطاعة والانقياد إلا ما كان من التجيني ومن انتمى إليه فانهم تجاهروا بالشقاق وتظاهروا بالتصدي عن الوفاق فأمرناهم بالرجوع إلى الحق وحذناهم من شق عصا المسلمين غير مرة وناشدناهم الله في صون دمائهم وإعراضهم فلم يرجعوا عن غيهم بل صمموا على قتالنا واستعدوا لمحاربتنا فخفنا إن أهملنا أمرهم من سريان هذا الفساد إلى غيرهم فيفوت المقصود الذي هو جمع الأمة على كلمة واحدة وطريقة متحدة فأخذنا في حصار حصنهم والتضييق عليهم ولما استشرفوا على الردى وكادت أن تعمل فيهم المدى طلبوا منا الأمان مع انهم خدعونا مرات عديدة فمنحناهم الصلح الجميل صوناً لدمائهم وحفظاً لأعراضهم لقوله تعالى فاعفوا واصفحوا وأمناهم على أن يخرجوا من الحصن ويتوجهوا حيث شاؤا فخرجوا كلهم منه إلا المستضعفين منهم وذهب التجيني وحريمه وأولاده إلى الاغواط الغرابة وأبقى ابنه الكبير رهناً عندنا فالحمد لله الذي أيدنا بنصره على من عصى أمره وناواه فانه لا رب غيره ولا معبود سواه واصل التجيني من أشراف المغرب انتقل والده السيد احمد في أواخر المائتين بعد الألف من فاس إلى بني تويجن أصحاب تاهرت وتاكدمت من البربر إخوان بني زيبان ملوك تلمسان وبني مرين ملوك المغرب الأقصى ولما طال مقامه بين اظهر بني تويجن نسب إليهم فقيل له التجيني وكان حصن عين ماضي موضع سكناه وكان عالماً زاهداً مشتهراً بالصلاح وقصده الناس للتبرك به وكان يقول لم يوجد من عصر الصحابة رضي الله عنهم إلى عصري عالم مثالي وله تأليف سماه الكناش ذكر فيه آداباً صوفية وحقائق إلهية وثار ولده محمد الأكبر على الحكومة وزحف بجموعه على مدينة معسكر ودخلها فخرج إليه حاكم وهران وقتله وقد تقدم تفصيل الواقعة وهذا الحصن اختطفه ماضي بن يقرب من إقبال العرب في المائة الخامسة لأول استيلاء العرب على الغرب الأوسط أيام العبيدين ويحتوي على ثلاثمائة دار وتدخل له العين المسماة بالحصن في قناة وبه صهاريج لجمع ماء المطر تسد عوز أهله وله من المتانة والحصانة ما يبهر العقول وحوله من النخيل والأشجار المتنوعة ما هو زينة للناظرين .وهناء بعض أدباء أهالي مليانه الأمير بفتح هذا الحصن الذي عجز عن فتحه من قبله بقوله : أي نسمة الأسحار طبت بصولة ◈ وطابت بك الأكوان طراً بسرعة

وآب سرور الدهر مذ طاب نشرها ◈ ونادى منادي النصر من كل وجهة
وأقبلت البشري وعم سرورها ◈ ونالت به الأيام احسن سطوة
بطلعة عبد القادر السيد الذي ◈ له الشرف السامي بأشرف نسبة
هو البدر وافى في سماء كماله ◈ بمحو ظلام حل قدماً ببلدة
فعن عين ماضي قد أزاح غشاوة ◈ فضاءت وعادت خير عين بصيرة
فويل لمن عادى ابن اكرم مرسل ◈ وويل لمن يدعون أصحاب ذمة

هنيئاً لنا أهل لمحبة إننا ◈ بذا البدر نلنا اليوم اكمل منية
بسعي أمير دمر الطاغين مذ ◈ جرى عدله في كل مصر وقرية
فنطلب من رب السماء بقاءه ◈ لنطرب أياماً بأحسن دولة
عليه سلام الله ما هبت الصبا ◈ وما أشرقت شمس العلا كل لحظة

ولما فرغ الأمير من أمر التجيني رجع إلى معسكر لأخذ الراحة وبعد أن أقام بها بضع أسابيع ألف جيشاً من خمسة آلاف فارس وأمر أن يأخذ كل واحد منهم على فرسه ما يكفيه من الزاد والشعير وان يجتمعوا في سهل غريس فاجتمعوا فيه ولم يعلم أحد بمراد الأمير بذلك في وقت اشتداد البرد وكثرة الشتاء وقبل غروب الشمس قبل عليهم ممتطياً ظهر الجواد لابساً لامة الحرب والجلاد فتوجه بهم نحو الشمال الغربي ولما اعتكر الظلام أمر بإيقاد أربعة مصابيح أمام الجيش فجعلت في أسنة الرماح فكانت أشعتها تنبعث إلى وراء الجيش ثم ترك الجادة وانعطف فجاءة إلى جهة الشمال الشرقي فعلم الجيش إذ ذاك أن سيره السابق مجرد تورية وتمويه ولم يزالوا يجدون السير إلى نصف الليل ثم نزلوا على حافة جدول فأكلوا وأطعموا خيولهم وبعد مضي ثلاث ساعات عادوا للسير العنيف لي نصف النهار ثم نزلوا فأطعموا الخيل وأكلوا ثم عادوا لما كانوا عليه من السير السريع واستمروا على هذا الحال أربعة أيام وأربع ليال وفي صباح يوم الخميس انكشفت لهم منازل الاغواط الذين أصروا على عدم الطاعة وامتنعوا عن أداء العشر والزكاة وكانت خيامهم تنوف عن عشرة آلاف خيمة وكان أهلها من نكبات الدهر آمنين وفي لذة النوم مستغرقين لم توقظهم إلا الصيحات العالية والضربات المتوالية ولما انتبهوا رأوا ما هالهم من الفرسان المنقضين عليهم انقضاض العقبان على الغربان وكثر من النساء العويل والنحيب واندهش عقل البطل النجيب وركض البعض لأسلحتهم والآخرون لخيولهم فلم يتمكنوا من الاجتماع حتى صمت الأسماع بصوت الأمير صونوا الحريم وأما الرجال فأذيقوهم كاس الوبال ثم أحيط بهم

من كل جهة واستاقوهم كقطعان الغنم ولما احضروا مشايخهم بين يدي الأمير وقعوا على رجليه وتذللوا بين يديه وأعطوه المواثيق والعهود على الطاعة وحسن السلوك فـرحمهم وتقبـل طـاعتهم ورد عليهم جميـع مـا اخذ منهم وفي الحال دفعوا له أربعة آلاف جمـل وثلاثين ألـف رأس غنم عما تبقى عندهم من زكاة خمس سنين وكانوا بعد ذلك من اشـد القـوم تمسكا بالأمير وأكملهم طاعة له .^ ذكر

المقاطعـات والعمـال وغـيرهم من ذوي المناصـب العليـة وتـرتيب الأحكام وشروعها

لما تمت بيعة الاير واستقام له الأمر واتخذ الآلة ورتب الحاشية وعين رجال الدولة قسم ما دخل في طاعته إلى مقاطعتين مقاطعة تلمسان وولى عليها السيد محمد البو حميدي الولهاصي ومقاطعة حضرته معسكر وولى عليها السيد محمد بن فريحة المهاجي ولما قتل ولى عليها السيد الحاج مصطفى بن احمد التهامي وكان رئيس ديوان الإنشاء ولما امتدت طاعته إلى ما وراء وادي شلف جعل مليانة مقاطعة ثالثة وولى عليها السيد محي الدين بن علال القليعي ولما مات ولى عليها السيد محمد بن علال من أقاربه ولكل من هذه المقاطعات الثلاثة مرسى تخصها فتلمسان مرفا رشكون ولمعسكر مرفا ارزيو ولمليانه مرفا شرشال ثم دانت له بلاد تيطرى فجعلها مقاطعة أربعة وجعل حاضرتها مدينة المدية وولى عليها اخاه السيد مصطفى بن محي الدين ثم عزله وولى عليها السيد محمد البركاني ثم تزايدت الفتوحات في الجهات الشرقية والجنوبية فاتسعت المملكة وأخذت في الشرق إلى ما وراء بلاد مجانة قرب قسنطينة وفي الجنوب إلى القفر فيما وراء وادي سوف حيث مجالات التوارك من بقايا الملثمين وفي الشمال إلى ما وراء جبال زواوه فجعل مقاطعة مجانة مقاطعة خامسة وحاضرتها صطيف ومقاطعة الزيبان مقاطعة سادسة وحاضرتها بسكره ومقاطعة الجبال مقاطعة سابعة وحاضرتها برج حمزه فولى على مقاطعة مجانة محمد بن عبد السلام المقراني ثم السيد محمد بن عمر العيسوي وعلى مقاطعة بسكره والصحراء الشرقية فرحات بن سعيد ثم السيد الحسن بن عزوز ثم السيد محمد الصغير ابن عبد الرحمن بن احمد بن الحاج وعلى مقاطعة برج حمزه السيد احمد بن سالم الدبيسي وجعل الصحراء الغربية مقاطعة ثامنة وولى عليها السيد قدور بن عبد الباقي وقسم المقاطعات إلى دوائر ووضع في كل منها اغا وهذه الدوائر تشتمل على قبائل وكل قبيلة تحتوي على بطون وعشائر فجعل على كل قبيلة قائداً وعلى كل بطن وعشيرة شيخاً فكانت الأوامر الأميرية تصدر إلى العمال المعروفين بالخلفاء ومن طرفهم إلى الاغوات ومنهم إلى القواد ومنهم إلى المشايخ والقضايا التي تحدث في الدوائر يرفعها المشايخ إلى القواد وهم يرفعونها إلى الاغوات ونهم ترفع إلى الخلفاء ثم تعرض على الحضرة الأميرية أينما كان هذا في القضايا المهمة وأما غيرها فان الخلفاء يفصلونها بدون ان يرعونها إلى الحضرة

الأميرية وفي وقت الحرب تكون هؤلاء الرؤساء رؤساء عسكرية فيجمع كل منهم جماعة من عشيرته ويحضر بهم إلى القتال ولما كان غاية قصد الأمير ربط البلاد بالإدارة الشرعية لم يستخدم في جميع أعماله إلا من اشتهر بمعرفة الأحكام وعرف بالعفاف والإقدام وابعد غالب العمال أرباب التقدم والنفوذ في أيام الحكومة الجزائرية واستخدم في إدارة الأمور الملكية من كان ذا حزم وعزم وقوة شكيمة من ذوي البيوت المشهورين بالعلم والفضل وحسن السياسة ومع ذلك كان يحلفهم على صحيح البخاري بان لا يعدلوا على الحق وان يكونوا صادقين في الخدمة مع الأمير والرعية وكان مناديه في غالب الأوقات ينادي في الأسواق أن من له شكوى على خليفة أو آغا أو قائد أو شيخ فليرفعها إلى الديوان الأميري من غير واسطة فان الأمير ينصفه من ظالمه وان ظلم أحد ولم يرفع ظلامته إلى الأمير فلا يلومن إلا نفسه وتعيين العمال بمراسيم خصوصية تتحرر بقلم كاتب لديوان الخاص ويختم باعلا سطر منها بخاتم الإمارة وهو خاتم كبير الحجم نقشه في الدائرة . ومن تكن برسول الله نصرته ◈ أن تلقه الأسد في آجامها تجم

وفي جوانبه الله محمد أبو بكر عمر عثمان علي وفي وسط الدائرة الواثق بالقوى المتين ناصر الـدين عبـد القـادر بن محي الـدين والتـاريخ سنة 1248 ويصير نصب العامل داخـل الـديوان الأمـيري وعنـد تسـليمه مرسوم التقليد يعطي خاتماً عليه اسمه ولقبه ويخلع عليـه بـرنس جـوخ على حسب الرتبـة الـتي تولاهـا ويحلـف على صـحيح البخـاري الشـريف بحسن السيرة والعدل ومع ذلك لا يغفل الأمير عن ملاحظتهم والســؤال عن مسراهم مع الرعية وبعد موت المتـولي أو عزلـه يرجـع الخـاتم إلى دار الإمارة وعلى حسب جسامة المقاطعة أو الخطة تكون أفراد الحكام في الشرف والشهرة وقد أسندت نظارة الأمـور الداخليـة لأبي المكـارم السيد محمـد بن السـيد العريـبي ونظـارة الأمـور الخارجيـة لأبي محمـد الحاج المولود بن عراش ونظارة الماليـة لأبي عبـد اللـه الحـاج الجيلاني بن فريحة ونظارة الأوقاف لأبي عبد الرحمنالحاج طاهر أبو زيـد ونظـارة الأعشار وصنوف الزكاة لأبي محمد السـيد الجيلاني بن الهاديـة والجبـاة يخرجـون في السـنة مـرتين مـرة في الربيـع لجبايـة الزكـاة ومـرة في الصيف لجباية الأعشار ونظارة دار ضرب السكة والأسلحة وعاملها ومـا يتعلق بذلك من أدوات الحـرب لأبي البركـات السـيد محمـد بن الجيلاني

من السادة الأقارب وكتابة الـديوان الأمـيري لابن عمـه السـيد احمـد بن علي أبي طالب والسيد مصـطفى بن احمـد التهـامي ثم نقـل الأول إلى قيادة فليته والثاني إلى خلافة الحضرة وعين بعدها للكناية السيد محمـد بن الخـروبي ثم نقـل إلى صـطيف والسـيد محمـد بن عبـد الـرحمن المرسـلي والسـيد مصـطفى بن العـوني واتصـلت خـدمتهما في كتابـة الديوان إلى ان ماتا آخر أيام الإمـارة وأسـندت نظـارة الخزينـة الخاصـة لأبي سعيد محمد بن فاخه والحجابة إلى محمد بن الحـاج علي الرحـاوي والملبوس الاميري لنظر الحاج النجـادي الرحـاوي وتعين عبـد القـادر بن أبي معـزه للفراشـة والبـدالي بن شـافعية للسـقاية وعبـد الـرحمن بن مقيطيف للسلاح وعبد الله بن يوسف لحمل الشمسية أو اللواء وهو من حريـر أعلاه وأسـفله اخضـر ووسـطه ابيض مرسـوم عليـه بالـذهب المزركش في صورة دائرة تامة نصر من الله وفتح قـريب ناصـر الـدين عبد القـادر بن محي الـدين وفي وسـطها صـورة يـد مبسـوطة مطـرزة بالذهب ولنظارة الاصطبل محي الدين بن عبد الله ولرئاسـة الموسـيقى أبو مدين ابن ابي دغن وغير ذلك من الترتيبات الاميريـة ولوازمهـا وبعـد ان فرغ منها اقبـل على الوظـائف الشـرعية فعين في كـل عمالـة وكـل دائرة واسعة الأنحاء قاضيا عالما بفصـل القضـايا الشـرعية على مـذهب الإمـام مالـك بن انس أمـام دار الهجـرة النبويـة فقيهـاً نزيهـاً مشـهوراً بالعفاف والقيام بأمور الدين وربط إدارة هؤلاء القضاة بمراجعة العلامـة قاضي القضاة السيد احمد بن الهاشمي المراحي رئيس مجلسه الخاص ونصب السيد بن عبّ بن الصطفى المشرفي قاضياً للعسكر وعين لكـل قاض كاتبين أكبرهما يقوم مقام المفتي في مطالعة الفتاوي التي تجرى الأحكام على مقتضاها ورتب في سـائر المـدن والقـرى علمـاء لتـدريس فنون العلم وعين لهم مرتبات على حسـب طبقـاتهم وأمـر بطلب العلم وباحترام أهله واستثنائهم من جميع المطالب الميريـة فـإذا حضـر عنـده

طالب علم يمتحنه في الفن الذي يتعاطاه فان وجده ناتجـاً فيـه إكرامـه وإلا اعرض عنه فكـان هـذا سـبباً قويـاُ للطلب في الاجتهـاد وحصـل من ذلك نجاح عظيم وانتشر لعلم في جميع لمقاطعـات واقبـل النـاس على تعليم أولادهم الأمور الابتدائية فكثر النفـع وعمت الفائـدة وكـانت الكتب حينئذ قليلة في البلاد فاجتهد في جمعها من كل جهة وأمر العسـكر بكـل من وجـد كتابـاً يحضـره لـه ثم شـدد في حفـظ الكتب الموجـودة بأيـدي الطلبة وعزم على ترتيب مكتبة في تاكدمت فصار يجمـع الكتب اللازمـة ولما احتـاج إلى إخلاء المـدن جعلهـا في الزمالـة فتلفت كلهـا في وقعـة طاكيين لما هجم ملـك فرنسـا الـدوك رومـال على الزمالـة واجتهـد في تهذيب الأخلاق وبإصلاح الآداب العمومية بحيث لو أراد الله بإطالة المـدة لعـادت العـرب إلى طريـق أسـلافهم المؤسسـة على منطـوق القـرآن الكريم لأنه منع بشدة وصـرامة شـرب الخمـر ولعب القمـار لاسـيما من العسـكر ومنـع اسـتعمال الـدخان لكونـه إسـرافاً من دون فائـدة سـيما الفقراء ومنع الرجال من استعمال الذهب والفضة إلا في الأسلحة وعلى الخيـول وأمـر بالصـلوات الخمس أن تكـون في الجوامـع ومن وجـد في دكانه وقت الصلاة يجلد وعين مـأمورين لـذلك ومنـع النسـاء من دخـول الجوامع وأمر بوابي الجوامع بأن تكون عندهم مغرة وكلما جـاءت امـرأة يسمونها بها فبهذه الواسطة انقطعت النساء عن دخـول الجوامـع خوفـاً على اغطيتهن واحــدث امــوراً محســنات للامــارة والمملكــة لم تكن موجودة في أيام من سلفه من ملوك المغـرب فاتخـذ في كـل مقاطعـة دار شورى للمفاوضة في الدعاوي المهمة التي تحـدث بين الرعايـا وفي مصـالح المملكـة وجعـل انتخـاب أعضـاء هـذه المجـالس إلى الخلفـاء والقضايا التي ترى فيها يكون فصـلها على الوجـه الشـرعي فيكتب فيهـا صكوك يضع صحاب الشورى فيها أسماءهم بخطوط أيديهم ورئاسة كـل منها تناط بالقضاة فإذا حضـرها الخلفـاء فالرئاسـة لهم وعلى كـل حـال

فهم المأمورون بتنفيذ صكوكها وأمر هذه المجـالس مربوطـة بـالمجلس العالي الأميري المؤلف من أحـد عشـر عالمـاً وهم نـواب المملكـة ومن تعين فيه لأول الدولة السيد احمد بن التهـامي والسـيد عبـد القـادر ابن روكش والسيد عبد اللـه صـقاط المشـرفي والسـيد طـاهر المحفـوظي والسيد محمد المحفوظي والسيد احمد بن الطاهر ابن الشيخ المشرفي والسـيد محمـد بن المختـار الـورغي والسـيد المكي الخرنـوبي والسـيد المختار بن المكي والسيد الحـاج عبـد القـادر بن روكش الأكـبر والسـيد إبراهيم بن القاضي ورئاسة هذا المجلس الثانية لقاضـي القضـاة السـيد احمد بن الهاشمي المراسي وعنـد حـدوث نازلـة مهمـة يحضـره الأمـير وتكـون الرآسـة لـه والوجـه الشـرعي الـذي بتوجيـه يجـري الحكم في النوازل موقوف على اتحـاد آراء الأعضـاء ولهـذا المجلس سـجل كبـاقي المجالس تحرر فيه مفردات ما يراد من الحـوادث وبهـذا الـترتيب كـانت الأحكام جارية على جادة الاستقامة ونفقات هـذه المجـالس تصـرف من بيت المال كباقي الوظائف والخطط الملكية وأما أهل الوظـائف الدينيـة ومـا يتعلـق بهـا فتصـرف مرتبـاتهم وتعينـاتهم من خزينـة الأوقـاف ومن الأمور التي أحدثها الأمير وجاز بهـا الفضـل على من تقدمـه من الملـوك في المغرب إنشاء المارستانات لمرضـى العسـاكر في كـل المقاطعـات وعين في كل مارستان أربعـة أطبـاء يرجـع أمـرهم إلى طـبيب حضـرته العلية وهو أبو عبد الله الزروالي وكان مـاهراً في علم الطب وشـهد لـه أهل الخبرة بذلك وكـان عالمـاً بخـواص الأعشـاب على اختلاف صـنوفها وكـان يخـرج الرصـاص من داخـل العضـو المصـاب بوضـع عشـب على مدخله فيخرج بعد بضع ساعات من موضعه بسهولة دون ألم وابتنـا داراً للمسافرين والوفود في الحضرة وأقام ناظراً عليها من أمناء دولته ينزل الناس فيها على حسب طبقاته وتقدم له المآكل والمشارب على حسب مقامهم . ذكر

احتفال الأمير للمولد النبوي والعيدين كان يحتفل للمولد النبوي أيام إمارته احتفالاً عظيماً فيخرج يوم المولـد الشـريف هـو وخاصـته وأمـراء جيشه إلى ارض فيحاء متسعة ثم تصنع العسكر فيها شبه محاربـة بحيث تقف العسكر المشاة المنظمة كهيئة قلعة مربعـة الأركـان ويضـعون مـا يحتاجون إليه من البارود والذخائر وسط تلـك القلعـة ويجعلـون في كـل ركن من أركانها مدفعين ثم تأتي فرقة من الخيالة فتحيـط بتلـك القلعـة لتخرج إليها شرذمة من القلعة لتبردها عنها فتبعد عن القلعة نحـو عشـر دقائق وتطلـق البـارود على الخيـول المقابلـة لهـا فتهجم الخيـول عليهـا وتطلق النيران حتى تقترب منها فترجع تلـك الشـرذمة إلى وراء وهي لا تفتر عن إطلاق لنار حتى تدخل القلعة وتقـف في مكانهـا الـذي خـرجت منه ثم تطلق عساكر القلعة النيران المتتابعة على تلـك الخيـول وتطلـق مدفعاً أو مدفعين من الركن الـذي يليهـا فـترجع الخيالـة عنهـا ثم تخـرج شرذمة أخرى من الجهـة الثانيـة إلى مـا يليهـا من الخيالـة فتهجم عليهـا فرقة من الخيالة المقابلة لها بجميع قوتها حتى تردهـا إلى مكانهـا الـذي خرجت منه بحيث يتخيل للناظر إنها لم تخرج منه أصلا ثم تطلق النيران المتتابعة على الخيالة ويطلق المدافع عليها من الركن المقابل لها حــتى ترجع القهقري وعلى هذا المنوال تفعل أصـحاب الجهـة الثالثـة والرابعـة من الأفعـال ويسـتغرق هـذا العمـل مقـدار سـاعتين من النهـار فيشـاهد الناظر من تلك الأفعال ما تقر له الأعين وتبتهج بـه النفـوس وتقـول في حقه الألسن لا عطر بعد عروس وهكذا كان العمل في أيـام بعـد الأعيـاد بعد الفراغ من الصلاة . ذكر

ما شيده الأمير من الحصون وما انتهى إليه عـدد العسـكر النظـامي مشاة وركباناً

لما فرغ الأمير من تمهيد البلاد اقبل على تحسين أحوال المملكة وتحصينها وتثقيف ثغورها فابتنى في الخط الفاصل بين السواد والصحراء عدة حصون منها سعيدة وسبدو في الجهة الغربية وفي الجهتين الجنوبية والشرقية تاكدمت وبوغار وسباو وعريب وبو خرشفه وطازه لما أن دخل طازه ورای تشییدها في اقرب وقت حمد الله واثنى عليه وقال ارتجالاً . الله اعلم أن هذا لم يكن ◈ مني على الأمل الطويل دليلاً

كلا وان منيتي لقريبة ◈ مني واصبح في التراب جدلاً

ورضى الإله هو لمنى ليكون من ◈ بعدي انتفاع الخلق ثم طويلا

ثم أمر بكتابتها على باب الحصن وحصن تاكدمت اعظم الحصون المذكورة وأقواها وأحسنها موقعا وأوفقها لوصل تجارة الصحراء بتجارة السواد وقد اعتني به الأمير نظراً لمركزه ولما ابتنى هذا الحصن انتقل إليه بأهله وأهل دائرته وانشأ فيه دار السلاح وجلب إليها عملة من إسبانيا وفرنسا فكانوا يصنعون فيها البواريد وحرباتها والسيوف وغيرها من أدوات الحرب ومهماته وابتنى فيه داراً لضرب السكة وجعلها ثلاثة أجناس من الفضة والنحاس مستديرة الشكل فالفضة والنحاس نوعان مكتوب على أحد وجهيها ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وعلى الآخر ضرب في تاكدمت وتاريخ الضرب سنة 1255 وهذه القطعة عبارة عن فرنكين والجنس الثاني من الفضة والنحاس مكتوب على أحد وجهيه أن الدين عند الله الإسلام وعلى الوجه الآخر محل الضرب والتاريخ وهذه القطعة عبارة عن فرنك واحد والجنس الثالث من الفضة والنحاس مكتوب على وجهه الأول ربنا افرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وعلى الثاني محل الضرب والتاريخ وهذه القطعة عبارة عن نصف فرنك وتنقله في رسم هذه الآيات بحسب ما كان عليه من اختلاف الظروف والحالات وابتنى في الحضرة معسكر ومليانة والمدية معاملا لصناعة الأسلحة بأنواعها والبارود والرصاص ومع ذلك كان يشتري منها عند اللزوم من مملكة تونس ومراكش جانبا عظيما وكان تجار فرنسا يجلبون الملح والكبريت لمراسي الجزائر فيشتري منهم وفي أوقات

الهدنة يحضره من فرنسا وتارة يستخرجه من معدن لجبل وانشريس وأما الجوخ والمدافع فكان معملهما في تلمسان تحت نظارة معلم اسبانيولي .

وقد رأيت ثلاث مدافع في باريس أخذت في أيام الحرب مكتوب على كل مدفع فوق خزانته النارية عمل في تلمسان وقت إمارة ناصر الدين السيد عبد القادر بن محي الدين سنة 1255 .

وقد الزم كل من سلب في الحرب بارودا فرنسوي أن يحضرها بناظر المعامل الحربية ويأخذ ثمنها منه اثني عشر ريالا سينك ورتب صناعا لإصلاح السلاح وهم المسمون قرداحية وكانوا يرافقون الجيش سفراً وحضراً ورتب عدد من الخياطين والسروجية لإصلاح ما يلزم إصلاحه من الألبسة وسروج الخيل للعسكر والمتطوعة في أيام الحرب وبالجملة فقد بذل الجهد والمال في منافع الدولة والبلاد واستقصى أساليب ما به العمران ووضع الحاميات والمسلحات في المضايق ومواضع الخوف وحصن الثغور فعم الأمن سائر المملكة وأطفأ نار الفتن التي لم تزل منذ تقلد أمور المسلمين تتقدم تارة وتخبو أخرى واستأصل أهل الفساد وللجند المنظم لذلك اليد الطولى فانه لا يعرف الفتك في أهل الضلال ولا يراقب في طاعة مولاه ونصرته إلا ولا ذمة مع قلة عدده إذ لم يتجاوز خمسة عشر ألفا وثلاثمائة منها اثني عشر ألفا مشاة وألفان وخمسمائة خيالة ومائتان وخمسون مدفعيون تدير عشرين مدفعا للسفر وخمسمائة عبد اتخذها حرساً له تحت رئاسة سالم اغا الزنجي الفارس المشهور وكانت ألبستهم من الجوخ الأحمر الجيد وسلاحهم محلى بالذهب والفضة مرصعا بالمرجان وهذا عدد أفراد الجند الشخصية ومن حيث الشجاعة والبسالة فقد كان الواحد منهم يعد لعشرة وعلى أتم ما يرام من النظام وكان ينظم له عند اللزوم من حشود المملكة وجيوشها ما تقتضيه الحال وناهيك بجند مع قلته فتح

الأقفال ونقل الأنفال واستوثق به الأمير ملك أقـام في مقارعـة جيـوش فرنسا ومناضلة الثوار والخوارج ستة عشـر سـنة وبـذلك تشـهد الأخبـار والآثار ولكن لكل هبوب ركود وليس للأيام عقود قال شرشل في تاريخه ان هـذه الأعمـال كبـيرة جـدا بالنسـبة إلى سـن الأمـير حين المباشـرة بإجرائها مـع عـدم اطلاعـه على أحـوال العـالم كمـا ينبغي إذ ذاك لكنهـا صغيرة بالنسبة إلى ذكاء عقله الفريد ولا شك انه لو تركت فرنسا الأمير مغتنما تلك الغلطة التي أقرت بها في معاهدة تافنا لكان اظهـر منـه مـا لم يكن في حساب حيث أن العاقل يندهش متى سمع بان دولـة فرنسـا احتاجت إلى مائة ألف عسكري معدود من أول عساكر الدنيا تقاتـل بهـا الأمير وقتل منها ما يزيد على مائة ألف حتى أمكنها من هدم ما بناه في نحو الثلاث سنين على انه لولا المسـاعدات الخارجيـة والداخليـة لكـانت احتاجت إلى اكثر من ذلك والله غالب على أمره .^ ذكـر توجيـه السـيد ابن عبد الله سفاط وفداً إلى سلطان المغرب الأقصى وما أرسـله معـه من الأسئلة إلى علمائها وما أجاب به شيخ الإسلام الإمام التسولى

قد كان الأمير يعاقب من يقـع في أيـدي ضـباط الثغـور من أشـقياء المتنصـرة كالـدوائر والزمالـة والبرجيـة وغـيرهم ممن يواصـل العـدو ويتسلل إلى مدنه بما اختلسه من تلمسان من عروض وماشية بمـا دون القتل إلا من تحقق ضرره للمسلمين فكان يأمر بقتله ثم بدا له يستفتي المحققين من علمـاء مصـر وفـاس في شـأنهم وشـأن مـانعي الزكـاة والإعانة التي افترضها للقيام بأمر الجهاد وغي ذلك ممـا اضـطره الحـال إلى السؤال عنـه تأكيـدا لحجتـه ومواطيـداً لمحجتـه فـأمر بتجهـيز هديـة عظيمة ذات قدر وقيمة واختار السيد ابن عبد الله سـقاط لإيصـالها إلى سلطان المغرب الأقصى عبد الرحمن بن هشـام وأحكـام عـرى المحبـة بيننا وكتب له كتابا يذكر لـه فيـه مـا أجـراه من تنظيم العسـكر وتمرينـه وتعليمه أبواب الحرب ومكابدها وأطال في مدح ذلك وجـل قصـد الأمـير

من ذلـك الإطنـاب إيقاظـه من غفلتـه وتنبيهـه على انتهـاز الفرصـة في الاستعداد لذلك وعمله بما أرسله من الأسئلة صحبة رسوله لعلماء فاس ليجيبوه عليها بالجواب الشافي على وجه التفصيل الكافي ونص السؤال .الحمد لله وحده السـادة العلمـاء الأعلام أئمـة الهـدى ومصـابيح الظلام فقهاء الحضرة الادريسية حفظكم اللـه ورعـاكم ومن كـل سـوء حمـاكم جوابكم أبقاكم الله فيمـا عظم بـه الخطب واشـتد بـه الكـرب في وطن الجزائر الذي صار لغربان الكفر مجاذر وذلك أن عدو الدين يحـاول ملـك المسـلمين واسـترقاقهم آونـة بالسـيف وتـارة بشـبكات السياسـة ومن المسلمين من يـداخلهم وينـابعهم ويجلب إليهم المواشـي وجيـاد الخيـل وغيرهـا من أنـواع الكـراع ولا يخلـوا أمـرهم من دلالتهم على عـورات المسلمين ومن القبائل من يفعـل ذلـك فـإذا طولبـوا بتعـيين المرتكـبين منهم جعجعوا وتمالؤا على الكذب والإنكار مـع انهم يعرفـون منهم العين ولأثر فما حكم الله في أنفسهم وأمـوالهم ومـا الحكم فيمن يختلـف عن المدافعة إذا استنفر الأمـام أو نائبـه النـاس للـدفاع عن الـدين والـوطن فهل يعاقبون على ذلك وبأي شيء يكون عقابهم ولا يتـأتى بغـير قتـالهم وهل تؤخذا أموالهم وأسلابهم وما حكم الله فيمن يمتنـع عن أداء الزكـاة كلاً أو بعضاً لدعوى عدم وجود نصابه عنده مع تحقـق وجـوده في الحـال فهل يصدق في دعواه مع ضعف الدين في هذا الزمن أم يكون للاجتهـاد فيــه مجــال ومن أين يرتــزق الجيش المــدافع عن المســلمين الســاد لثغورهم عن إغارة العدو ولا بيت مـال موجـود منظم الآن والـذي يجمـع من الزكاة لا يفي بقوتهم فضلاً عن كسـوتهم وسـلاحهم وخيلهم ولـوازم مؤنتهم فهل يترك الأمر فيستبيح العدو الوطن أم يكون ما يلــزمهم على جماعة المسلمين وإذا كان فهل على العموم أم على الأغنياء فقط وهل يعد مانع المعونة باغياً أم لا وما حكم أموال البغاة وهل القول بعدم ردها يجوز العمل به أم لا أجيبوا أبقاكم الله عما ذكرنـا وعمـا ينـاسـب المقـام

والحال مـأجورين والسـلام عليكم بـدا وعـوداً حـرر في ذي الحجـة سـنة 1252 عن إذن ناصـر الـدين عبـد القـادر بن محي الـدين .وفي اليـوم التاسع من ذي الحجة سنة مائتين واثنين وخمسين توجه السـيد ابن عبـد الله بالهدية والكتابة والأسئلة ولما وصل إلى فاس أمر السلطان بإنزالـه وإكرامه ثم قدم إليه الهدية والكتاب فاخذ يسأله عن أحـوال الأمـير ومـا هو عليه مع عدوه وعن الرعية وأفعالها معه فاخبره بالحقيقة وقدم إليــه السؤال فأرسله إلى شيخ الإسـلام إذ ذاك العلامـة أبـو الحسـن علي بن عبد السلام مديدش التسولي وأمره أن يجيب عنها جوابا شافياً موضـحاً كافياً ولما تم تحرير الجواب وقـدم إلى حضـرة السـلطان عبـد الـرحمن أمر وزيره بإحضار سبع كسوات فاخرات وسبع أفراس من عتاق الخيــل بسـروجها وأربعـة مـدافع صـغار وسـتين فرسـاً وان يعطي من الخزينـة عشرة آلاف مثقال إلى الحاج الطالب وكيل الأمير بفاس ليشتري له بها من الأدوات الحربيـة مـا يـأمره بشـرائه وأمـر بتحريـر كتـاب إلى الأمـير مضمونه التحريض على استئناف الجهاد ونقض المعاهدة وان مـا أرسـله له من الخيل والمدافع إنما هو ليستفتح بهم في الجهاد وأجابه عمـا نبهـه له من تنظيم العسكر وتعليمـه بقولـه أن عسـكرنا حين يأتينـا العـدو مـا نجمعه من الجموع وعلى هذا كان أسلافنا وكتب الوزير للأمـير نحـو هـذا وزاد فيه ذكر مفردات الهدية وكذلك الحـاج الطـالب كتب للأمـير يعلمـه بـانع قبض عشـرة آلاف مثقـال من الخزينـة وانـه منتظـر أمـره بالـذي يشتريه له فيها ثم أمر السلطان بإحضار السـيد ابن عبـد اللـه سـقاط و أوصاه بان يبلغ الأمير على لسانه باسـتئناف الجهـاد ونقض المعاهـدة ثم آمر بإكرامه وإكرام من معـه وبعـد ان سـلم لـه الهديـة والكتب وجـواب السؤال وادعه وآمره بالتوجه فجد في المسير إلى أن اجتمع بالأمير في حصن طـازه فـاخبره بمـا أوصـاه بـه السـلطان عبـد الـرحمن من نقض المعاهدة واستئناف الجهاد وقـدم الهديـة والكتب والجـواب عن السـؤال

وحيث انه في غاية الإسهاب رمت اختصاره ليتأتى درجه في هذا الكتـاب فاغزلة على أحكامه المنقحة وانتشاقاً لريا أزهاره المفتحـة فـأقول قـال في خطبه رسالته الحمد لله الذي لا نشـرك بـه أحـدا ولا نجـد من دونـه ملتحداً انبلى قلوب المؤمنين ليميز الخبيث من الطيب ويعلم أيهما أقوى جلداً والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أنقـذنا من الهلاك والـردى وتكفل بالشفاعة للامة غدا ضارب هام العدا وبجاهد من حاد عن طريــق الهدى وقاتل من اتخذ مع الله ولداً وعلى اله وأصحابه الذين لم تــرعبهم الكتائب الوافرة ولو كانوا هم اقـل عـدداً ولا هـالتهم الأمم الكـافرة ولـو كانت اكثر جمعاً وأقوى عـدداً وعـدداً وبعـد نقـد ورد في هـذه الأيـام من ناحيـة أعمـال الجزائـر كتـاب من أميرهـا المجاهـد في سـبيل اللـه رب العالمين سيدي الحاج عبد القادر ابن محيي الدين أيد الله كتائبـه وجعـل عونه مظاهره وصحابه متضحتا السؤال عن مسائل شتى كما ستراه بعد وثقف عليه ولما وقف عليه مولانا الإمام كهف الإسلام وملاذ الخــاص ولا عام كافـل آمـة محمـد عليـه افضـل الصـلاة والسـلام وقـاطع طـواغيت الشرك بالسنان والحسـام أمـير المؤمـنين الآخـذ لرايـة الكتـاب والسـنة باليمين نجل الملوك العظام المنصور بالله مولانا عبد الرحمن بن هشام أيد الله أيامه بعزيز وداده ونصر مكين يتصل به إلى المولى إمداده كــف هذا العبد الفقير المعترف بالعجز والقصـير ان يجيب عن تلـك المسـائل بحسب ما يراه فأمتثل وأجاب عن ذلك بجواب يدل بحسب فحــواه على ان المجيب استفراغ ما هو عنده في سره ونجواه وكان نصره اللـه آمـر بالاختصار في الجواب وعدم التطويـل والإطنـاب ثم لمـا طولـع بـه وهـو أيده الله على ما هو أيده الله على ما هو عليه من الشغف بمحبــة العلم والتلهف على بثه وغاية الحرص على أذاعته ونشره والمبالغة في النفـير عن البدع المحدثات وقمع الملحدين المعتدين ذوي الجـرأة والمتعصـبات والذب عن الحنيفية السمحاء وحياضتها وقمـع من لحظهـا بعين الاعتـداء

والازدراء بها رأى ان الجواب المذكور في غاية الاختصار والقصـور فـأمر المجيب آمرا ثانياً بان يجعله تأليفاً ليحيط بجميع معانيه ويطلق في ذلــك عنان أتقـول بمـا يـبرئ العليـل ويشـفيه ويتوسـع في الجـواب ويتعـرض لجميع معلقاته ويسلك به صوب الصـواب فقلت ممتثلاً لآمـر المـولى ان الجواب عن هـذه المسـائل الـتي عظم موقعهـا من دين الإسـلام وتأكـد الاعتناء بها وبمعلقاتها على التمـام يتوقـف على تبحـر في الفقـه وتضـلع في قواعده وباع واسع في تحرير غوامضـه ونوازلـه وآني للقاصـر مثلي أن يجول في مجالها ويحصـل دقـائق فروعهـا وأصـولها وعلى كـل حـال فأقول آما المسألة الأولى ففيها فصول الخوض فيها القاصـر العلم مثلي خطير والكشف عن لثامهـا مـع كلالـة الـذهن صـعب عسـير ولكن للآمـر المولـوي تكلفت الجـواب عنهـا على قـدر نظـري القصـير لان المسـافر الجاد في لأسير قد ارخص له في التقصير وبالله سبحانه الاستعانة وهـو نعم المولى ونعم النصير ثم سـاق السـؤال بحروفـه وقـال في الجـواب الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله . الفصل الأول

فيمــا يعامــل بــه قبائــل هــذا الزمــان المنهمكين في المحرمــات والعصيان

قد أفتى كثير من الفقهاء المحققين بقتال القبائل المجاورين لفاس ومن نحى نحوهم لما هم عليه من التعدي على حقوق عباد الله وكتمــان أمر اللصوص و الجواسيس والذب عنهم ووافق الشيخ ميـاره على ذلـك والأمـام اللبـان والشـيخ عبـد القـادر الفاسـي وغـيرهم قـال الإمـام ابن العربي قد اتقت الآمة على أن فاعل المعصـية يقاتـل عليهـا ويحـارب ألا إذا اقطع عنها وتاب الفصل الثاني

في دليل عقوبة الجاسوس والنصاب وغيرهما ممن يستحق العقـاب وسوء العذاب

اعلم انه لا يخفى أن كل من تلبس بمعصية توعد الله عليها بالعقاب الأخروي فأن الإمام يجب عليه أن يعاقبه سواء كـان فيهـا مـع ذلـك حـق الآدمي ككتمان الجواسيس والعصبيين وحمايتهم والتعصـب لهم لمـا في ذلك من الفسـاد وإدخـال الضـرر على المسـلمين في دينهم ودنيـاهم أو كان فيها هضم لحق من حقـوق اللـه فقـط كالآكـل في نهـار رمضـان أو ترك الصلاة أو ترك الآذان أو تـرك النهي عن المنكـرات مـع القـدرة لان من رضي بفعل قوم فهو منهم وبسبب هلاك الأمم السالفة انهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . الفصل الثالث

في كون الرجل يؤاخذ بجريرة غيره

روى مسلم في صحيحه وغـيره عن عمـران بن حصـين رضـي اللـه عنه أن تثقيفا كانت حليفة لبني غفـار في الجاهليـة فأصـاب المسـلمون من بني غفار رجلاً ومعه ناقه له وآتوا به النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم فقال يا محمـد بم أخـذتني نـاقتي فقـال النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم آخذتك بجريرة حلفائك تثقيف وكانوا اسروا رجلين من المسـلمين وكـان النبي محمد صلى الله عليه وسلم يمر به وهو محبوس فيقول يـا محمـد أنني لمسلم فيقول له صلى الله عليه وسـلم لـو قلت ذلـك وأنت تملـك أمرك لأفلحت ثم قبل النبي صلى الله عليه وسلم المسـلمين بـالرجلين فدلوه من تثقيف وامسك الناقة لنفسه قال الآبي هذا الحديث اصـل في هذا الحكم وهو اخذ الحليف بجريرة حلفائه وان لم يجرم . ألا كونه حليفاً فقط وبيان ما قاله الأبي أن هذه المسألة لا تخلو من ثلاثـة اوجـه أحـدها أن يكون الغير ممن لا يأوي إلى المذنب ولا يتعصب له ولا يقدر إن يكفه عن الذنب فهذا الغير لا يؤاخذ بذنب ذلك المجـرم كتابـاً وسـنة وإجماعـاً سواء كان ذلك الغير من قرابته آم من الأباعد وهـو المشـار أليـه بقولـه تعـالى (ولا تـزر وازرة وزر أخـرى) ثانيهـا أن يكـون ذلـك الغـير ممن لا يأوي أليه المذنب ولا يحميه ولا يتعصب له ألا انه يقدر أن يكفه عن ذنبـه

ومفسدته ويقدر على الانتصاف منه فهـذا تجـوز مؤاخذتـه سـداً الذريعـة ثالثها أن يكون ذلك الغير ممن يحمي المذنب ويتعصب لـه أو يواسـيه أو يأوي أليه ويرضى بفعله فهذا يؤاخذ بجريرته وبجميع ما آخذه ولا يختلــف فيه لأنه بتعصبه له ولو بجاهه وحمايته والرضى بفعله صار معيناً لـه على ظلمه متسبباً بذلك لأتلاف أموال الناس ودمائهم . الفصل الرابع

فيما لا يجوز بيعه للنصارى ولا يحل تمكينهم من تناوله وأخذه

قال مالك في المدونة لا يباع للحربين سلاح ولا كراع ولا نحــاس ولا عروض قال ابن حبيب سواء كانوا في هدنة أو غيرها وهـو المـذهب كمـا في المعيار . الفصل الخامس

في معاقبة العاصي بالمال وما فيه من الخلاف وتضارب الأقوال

ملخص ما ذكره الأئمة الأعلام في هذه المسألة أن ما شرع به اللــه فيه حداً معلوماً كالزنى و السرقة والحرابة والقذف ونحوها فيـه بالمـال اتفاقاً لما فيه من تبديل الحدود المعنية من الشارع قال تعالى (ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكـافرون الظـالمون الفاسـقون) اللهم إلا أن تعذرت أقامتها فيعاقب بالمال ارتكاباً لأخف الضررين ودفعاً لأثقـل المفسدتين ولا أن زال العذر وما فيه التـأديب والتعزيـز بالاجتهـاد فقيـل يعاقب فبه بالمال مطلقاً وبـه قـال الشـافعي واختـاره النـووي وابن قيم الجو زي وقيل لا يعاقب به مطلقاً وهو ما لابن رشد ومن وافقه وقيـل لا يعاقب إلا مع العذر هو ظاهر كلام الشيوخ المتأخرين . الفصل السادس

في حرمة ترك الإمام ونواب الرعية على ما هم عليه ومن المفاسد وارتكاب المظالم

يجب على الإمام أن يجـري على الرعيـة الأحكـام الشـرعية ويحـرم عليـه ان يـتركهم على مـا يتعمـد ونـه نم ارتكـاب المفاسـد والمظـالم ويتغافـل عن جـرائمهم كتابـاً وسـنة وإجماعـا إذ نم المعلـوم ضـرورة ان

نصب الأئمة والولاة إنما هو لزجر من ارتكب من الرعية شيئاً مما ينهي الله ورسوله عنه وذلك فرض عين عليهم فانهم أن تركوه أفضى الأمر إلى هدم الإسلام واستوجبوا الوعيد في قوله صلى الله عليه وسلم من غش آمتي فعليه لعنة الله .

وأما المسألة الثانية ففيها فصلان

الفصل الأول

في حكم التخلف عن الاستنفار وما عليه من العقاب

من المعلوم أن الاستنفار للجهاد يتعين الإمام فمتى استنفر قوماً نقد عينهم ومتى وجب عليهم النفير وحرم عليهم التخلف فقد عصوا الله وزوله واستوجبوا العقوبة في الدنيا والآخرة قال تعالى (آلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما) الفصل الثاني

فيما ينبغي أن يفعله الإمام قبل أن يستنفر الناس وفيمن يجب استنفاره وتدريبهم للحروب واستعمال المكايد وما يستعان به على خذلان العدو وتشتيت شمله

اعلم انه ينبغي للإمام أن يأمر قبل النفير بالتوبة ورد المظالم إلى أهلها والصدقة وغير ذلك من أنواع البر كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفعل ذلك ويقول إنما تقاتلون بأعمالكم وان يستنفر وجوه الناس وأبطالها الصابرين في البأساء والضراء الذين لا يولون الأدبار وان يدربهم أمور الحرب ويمرنهم عليها ويعرضهم بالعمل على حضرته المرة بعد المرة إذ ينبغي له استعمال ذلك شرعاً في كل خمسة اشهر أو ستة على الأكثر فيجمعهم بين يديه ويطلع على أحوالهم وأفعالهم الحربية ويعدهم بالعطايا والخصوصيات متى صبروا واظهروا الجلد في الحروب إلى غير ذلك مما يزيدهم قوة ونشاطاً كما انه ينبغي له أن يستعين على العدو باستعمال المكايد إذ ربما تفعل المكيدة ما لا يفعله الجيش كما

روي أن المهلب بن صفرة لما اعترض عليـه جيشـه في حـرب الخـوارج وقالوا لا طاقة لنا على مقابلة السهام المسـمومة وذلـك لن رجلاً اسـمه ابزى من الخوارج كان يصنع لهم سهاماً مسمومة يقاتلون المسلمين بها فكتب كتابـاً لابـزى وإرسـاله مـع سـاع لـه وأمـره أن يلقيـه بين صـفوف الخوارج ونص ما كتبه انه وصلتنا هديتك وحسن موقعها عندنا وقد أنفـذنا إليك مع كتابنا هذا آلـف درهم فاقبضـها من رسـولنا ولا تقطـع مواصـلتنا ومهادتنا وما يصـلك من عنـدنا اعظم ومهمـا طلبتنـا وجـدتنا حيث شئت فذهب الرسول بالكتاب وفعـل مـا أمـر بـه ووصـل الكتـاب إلى قطـرب رئيس الخوارج وعجل على ابزى بالقتل في الـوقت من غـير ان يتحقـق خـبره وقـال مـا اصـنع بمن هـادى الملهب ثم قـال لأصـحابه لا تشـغلوا الخوارج عن المنازعة بالقتل فأنهم افترقوا الآن فلا يتجمعون أبداً فكـان الأمر كما قال . المسألة الثالثة

اعلم ان مانع الزكاة يقاتـل عليهـا إجماعـا والمتهم بتغـييب المـزكى يحلف في العين مطلقاً وفي غيرها إن سبق له من أدائهـا ويحـرص على غير الآمين وقيل مطلقـاً لفسـاد النـاس في هـذا الزمـان وعـدم الأمانـة ومحل ذلك فيما إذا ثبت له مـال إمـا بينـة أو إقـرار وإلا فلا يكفي مجـرد التهمة . المسألة الرابعة وفيها أربعة فصول

الفصل الأول

يجب على الإمـام أن يجـبر الرعيـة على الاسـتعداد لـدفاع العـدو ولإصلاح خلل البلاد قال تعالى (إن الله يـأمركم أن تـؤدوا الأمانـات إلى أهلها) فالخطاب للائمة والولاة على أحد الاحتمـالات بـأداء الأمانـات أي التكاليف التي كلفوا بها في الرعية من الحكم بالعدل وتدبير أمـرهم بمـا يعود عليهم نفعه من استعداد وغيره وقال تعالى في حق الرعية (يا أيها

الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) الفصل الثاني

في جواز صلح العدوّ وعدمه

الذي به فتوى العلماء انه يجوز فيما إذا كان العدو مطلوباً لان الجهاد فرض كفاية ولا يجوز فيما إذا كان العدو طالباً لان الجهاد وقتئذ يكون فرض عين ألا إذا دعت الضرورة إليه إبقاء على المسلمين وبلادهم فانه يجوز والضرورة لها أحكام وقد يرى الشاهد ما لا يراه الغائب . الفصل الثالث

فيما يرتزق منه الجيش أن تفرغ بيت المال ووجوب المعونة ان احتيج إليها في الحال والأبدان والمال

قال في المعيار عن آلاما ابن منظور الأصل انه يطالب المسلمون بمغارم غير واجبة شرعاً لكن إذا عجز بيت المال عن أرزاق الجند وما يحتاج إليه من اله حرب وغير ذلك من العدد فيوزع على الناس ما يحتاج إليه من ذلك ويستنبط هذا الحكم من قوله تعالى (قالوا يا ذا القرنين أن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً) الآية ثم قال أن هذا الأمر يتوقف على شروط أحدها أن يعجز بيت المال وتتعين الحاجة ثانيها ان يصرفه الإمام بالعدل فلا يجوز له أن يستأثر دون المسلمين ولا ينفقه في سرف ولا من لا يستحق أو يعطي من يستحق اكثر مما يستحق ثالثها أن يكون الغارم قادراً من غير ضرر ولا إجحاف وأما من لا شيء له أو له شي قليل فلا يفتقر فيه إلى زيادة على ما في البيت ثم قال وكذلك إذا تعينت الضرورة للمعونة بالأبدان ولم يكف المال فان الناس يجبرون على التعاون بأبدانهم بشرط القدرة وتعيين المصلحة والافتقار إلى ذلك . الفصل الرابع

في حكم من ساكن العدوّ الكفـور ورضـي بالمقـام معهم فيمـا لهم من البلاد والثغور

اعلم ان الهجرة من ارض الفساد واجبة ولا فساد اعظم في الــدين من الكفر قال ابن العربي في الأحكام بأن الهجرة وهي الخـروج من دار الحرب إلى دار السلام قد تقررت فريضتها في أيام النـبي محمـد صـلى الله عليه وسلم ولم تزل باقية إلى يوم القيامة قال وكـذلك الهجـرة من ارض الحرام و الباطل قال عليه الصلاة والسـلام يوشـك ان يكـون خـير مال المسلم غنيمات بتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر يفر بدينــه من الفتن أخرجـه البخـاري ومالـك في الموطـأ قـال بعضـهم ان قيـل إذا لم يوجد بلد إلا كذلك قلنا يختار المرء اقلها أثماً مثل أن يكون بلد فيـه كفـر وبلد فيها جور فبلد الجور خير له أو بلد فيها عدل وحرام وبلـد فيـه جـرر وحلال خير له أو بلد فيه معاص في حق الله تعالى وبلد فيـه معـاص في حق العباد فبلد فيه معاص في حق الله تعالى أولى من بلـد فيـه مظـالم العباد الخ ما ذكره قال ولا تسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الــذين استولى على بلادهم العدو الكافر إلا بثبوت العجز عنها بكـل وجـه بحيث لم يجد لها حيلة ولا سـبيلاً كـان يكـون مريضـاً جـداً أو ضـعيفاً جـداً وأمـا القادر على الهجرة بأي وجه كان فأنه غير معذور بل هو داخل في وعيـد قوله تعالى إن الذين توفـاهم الملائكـة ظـالمي أنفسـهم قـالوا فيم كنتم قــالوا كنــا مستضــعفين في الأرض قــالوا ألم تكن ارض اللــه واســعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصـيراً قـال المؤلـف فهـذه النصوص القرآنية والأحاديث النبويـة مـع الإجمـاع كلهـا كمـا في المعيـار صريحة في وجوب الهجرة وحرمة الإقامة في بلاد الكفار ولا تجـد لـذلك مخالفاً من أهل القبلة فان تعمد المسلم ترك الهجرة مـع القـدرة عليهـا فقد قال في المعيار ما نصـه اختلـف العلمـاء فيمن اسـلم وبقي في دار الحــرب فقــال مالــك دمــه محقــون ومالــه فيء فهــو لمن أخــذه وليس

بمعصوم حتى يخرج به صاحبه إلى دار السلام وقال الشافعي دمه وماله معصومان وان لم يخرج إلى دار السلام وبقول الشافعي قال أشهب وسحنون واختاره ابن العربي وبقول مالك في المال قال أبو حنيفة وبه قال اصبغ واختاره ابن رشد وهو المشهور قال وهذا الخلاف إنما ورد فيمن اسلم منهم وبقي بين أظهارهم ولم يهاجر لكن المتأخرون الحقوا به في الحكم من كان مسلماً بالأصالة وبقي ساكناً معهم وسووا بينهما في الأحكام الفقهية المتعلقة بأموالهما وأولادهما ولم يروا فيها فرقاً بين الفريقين إلى ان قال فاجتهاد المتأخرين في هذا مجرد إلحاق سكت عنه الأولون فيمن كان مسلماً بالأصالة لعدم وقوعه في زمانهم بمن اسلم وبقي في دار الكفر لاستوائهما في المعنى من كل وجه وهو عدل من النظر واحتياط في الاجتهاد . المسألة الخامسة

اعلم أن مانع المعونة بالمال والبدن باغ قطعاً لأنه منع حقاً وجب عليه يجري عليه البغاة المشار إليه في قول خليل وغيره البغاة فرقة خالفت الإمام لمنع حق إلى قوله واستعين بما لهم عليهم ويظهر غاية الظهور انه يؤخذ من مالهم ما جهز به الإمام الجيوش التي قاتلهم بها لأنهم ببغيهم تسببوا في إتلاف بيت المال فعليهم ضمان ذلك في المال الذي بأيديهم وقد قالوا أن الغريم المماطل ضامن لما تسبب في إتلافه على الخصم منى أجرة الرسول والجيش كله رسوله للبغاة في الحقيقة ولا يشك ان من تسبب في إتلاف مال وجب عليه غرمه وهو معنى قول خليل وضمن المعاند النفس والمال ولعل هذا هو المستند في عدم رد الملوك اليوم الأول أموال البغاة إليهم ذا الغلب إنها لا تفي بما جهزوا به جيوشهم التي قاتلوهم بها أو يقال مستند ذلك سد الذرية إذ لو دت إليهم أموالهم لكان ذلك سبباً لبغى غيرهم فعدم ردها إليهم فيه سد تلك الذريعة ثم قال وأيضاً فأن بغاة هذا الزمان غير متاولين وكل باغ غير متأول يضمن ما قتله من الجيش كما انه يضمن ما أتلفه منالأموال يؤخذ

ذلك من مفهوم قول خليل ولم يضمن متأول اتلف نفساً أو مالاً انتهى ما لخصناه من الأجوبة المقررة في الرسالة ثم قال مؤلفها الإمام التسولى في خاتمتها هذا ما قصدنا جمعه نسأله سبحانه وتعالى ان يمن علينا وعلى من كان السبب فيها بتوبة صادقة وان يجيرنا وجميع المسلمين من الفتن الظاهرة والباطنة وان يختم لنا ولهم بحسن الخاتمة وان يهب لنا ولهم قربً على بساط الأدب في مقام العبودية وان يدمر أعدائنا تدميراً لا تقوم لهم معه قائمة إلى يوم النشور وان يجعل تأليفنا هذا خالصاً لوجهه الكريم وينفع المتسبب والقارئ ويجعله لنا ولهم سلماً لجنات النعيم بجاه اشرف الخلق سيدنا محمد عليه افضل الصلاة وأزكى التسليم رحم الله امرئً رأى خللاً فأصلحه أو عيباً فستره فأن الإنسان محل الخطأ والنسيان والله سبحانه يتكرم على الجميع بالعفو والغفران اللهم رب كل شيء وإله كل شي وولي كل شي وقاهر كل شي وفاطر كل شي والعالم بكل شي والحاكم على كل شي والقادر على كل شي بقدرتك على كل شي اغفر لنا ولهم ولجميع المسلمين كل شي ولا تحاسبنا وإياهم بشيء ولا تسألنا وإياهم عن شي انك على ما تشاء قدير وبالإجابة جدير ولا حوله ولا قوة ألا بالله العلي العظيم ووافق الفراغ مما جمعناه ظهر يوم الأربعاء عاشر ربيع الأول النبوي الأنوار سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف وهذا صورة السؤال وجوابه من علماء فاس وأما صورة السؤال وجوابه من علاء مصر لم تصل إليه يدي لطول العهد وفي مناسبة ذكر الهجرة قال الشيخ الأكبر والأمام الأشهر سيدي مححي الدين بن العربي في الفتوحات للكية في الباب الموفي ستين وخمسمائة في الوصايا ما نصه واعلم ان المقيم بين اظهر الكفار مع تمكنه من الخروج من بين ظهر انهم لاحظ له في الإسلام فأن النبي صلى الله عليه وسلم قد تبرأ منهم ولا يتبرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسلم وقد ثبت انه صلى الله عليه قال أنا برى من مسلم

يقيم بين اظهر المشركين فما اعتبر له كلمة الإسلام وقال الله تعالى فيمن مات وهو بين اظهر المشركين أن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا آلم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ولهذا أنكرنا في هذا الزمان على الناس زيارة بيت القدس والإقامة فيه لكونه بيد الكفار إذ الولاية لهم والمسلمون معهم على أسوء حال نعوذ بالله من تحكم هؤلاء فالزائرون اليوم لبيت المقدس والمقيمون فيه من المسلمين هم من الذين قال الله فيهم ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحبون انهم يحسنون صنعاً وذلك أيام كانت في يد الصليبين ثم قال وكذلك تجب الهجرة من كل خلق مذموم شرعاً قد ذمه الحق تعالى في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .^ ذكر

ما وقع فيه الخلاف بين الأمير والمارشال من مسائل معاهدة تافنا وما آل إليه الأمر في ذلك

ولما تمَّ أمر معاهدة تافنا عين الأمير وكلاءه في وهران ومسنغانم وكتب إلى مسيو كزماني وهو ايتالياني الأصل ووكيل أمريكيا في الجزائر في القيام بأعباء الوكالة له فيها ونص كتابة الحمد لله وحده ولا معبود سواه من عبد القادر محي الدين ناصر الدين إلى مسيو كزماني كارل قارئين السلام على من اتبع الهدى وبعد فأننا منذ وقع الصلح بيننا وبين دولة فرنسا ونحن نسأل عمن يكون لنا وكيلاً في الجزائر وواسطة بيننا وبينهم في دوام الألفة المواصلة ثم بلغنا عنك انك من أعقل الناس وأعلمهم بطرق السياسة واخبرنا بعض المحبين انه لا يصلح لوكالتنا في الجزائر غيرك فانشرحت صدورنا لذلك وبناء عليه كتبنا لك هذا إعلاماً بان تكون لنا وكيلاً عند الفرنسيس وتتولى قضاء المصالح اللازمة لنا فيها وتجري أمورنا معهم على نظرك وتعرفنا بما هو الأصلح لنا معهم والذي يعرض لنا من المسائل والمصالح نعرفك به والذي يعرض لك من

ذلك تعرفنا به ومن المعلوم عنا أننا نحب الخبر والهناء و العافيــة والآمن في سائر الوطن حرر في رجب سنة ثلاث وخمسين ومائتين ولما اتصـل به مكتوب الأمير تلقاه بالقبول والتبجيـل وعـرض على المارشـال تعينـه وكيلاً للأمير في الجزائر فخشيت فرنسا ان يكون تعيينـه واسـطة لربـط علاقات ودية بين أمريكيـا والأمـير فكتب المارشـال إلى الأمـير لا يخفى سموكم ان مفهوم الشـرط الأخـير من المعاهـدة أن وكلاءكم تكـون من العرب كما نا وكلاءنا تتعين من الفرنسـيس وعلى هـذا فلا حـق لكم في تعيين مسيو كزمـاني وكيلاً لكم هنـا وكتب مضـمونه إلى مسـيو كزمـاني وكزماني عرف الأمـير بالقضـية تفصـيلاً وحيث ألفـاظ تحريـر المارشـال كانت قاسية اغتاظ الأمير و أمر أن يحرر إلى المارشال الحمد لله وحده من ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين إلى حضـرة المارشـال إلا أن وكيلنا موسيو كزماني قد بلغنا انـه لا يسـمح لـه ان يقيم بمصـالحنا وقـد كتبتم له تحريراً أرسل إلينا نسـخة منـه فقرأناهـا وهي تعلن إليـه إنكم لا تقبلونه وكيلاً عنا وانه يجب أن يقام مكانه ابن عـرب فـأولاً لا نقـدر يتمم وظيفتـه ويرضـي كلانـا في صـوالح الطـرفين وان كزمـاني رجـل حكيم وعاقل لا يتمسك إلا بما فيه النفـع للفئـتين وثانيـاً ليس لفرنسـا حـق أن تجبرنا على تعيين ضد إرادتنا وميلنا لان ذلك منوط بنا ولنـا أن نختـار مـا هو الأحسن لنـا وان كنتم ترغبـون ان تقيمـوا ابن عـرب وكيلاً لكم عنـدنا فافعلوا فأننا لا نعارضكم في ذلك فلماذا تتعرضـون لنـا بانتخابنـا فعملهم هذا يناقظ مبادئ الشرف الذي يجب أن يراعي في كل الأعمـال ويظهـر من هذا أنكم تريدون أن تـردوا الاختلال مـرة أخـرى في ايـالتي الجزائـر ووهـران حيث أن الأفـراد الـذين أرادوا أن يـأتوا ويسـتوطنوا أراضـينا لم يتعنوا عن ذلك بالقوة الجبرية فقط بل القوا في السجن كأنهم مجرمون ولما وكلنا كزماني أقام الحجة على هذه الأعمال وأمثالها فلم تتنازلوا ان تجـاوبوه فتصـرفكم هـذا يشـير إلى الاحجـاف عن الحـق ويظهـر إنكم

ترغبون أن تزرعوا الخصومات بيننا وبين دولة فرنسا فها إننا قـد انتخبنـا مسيحياً من مدينتكم وانتم ترفضونه وكنا نتأمـل ان تصـرف حضـرتكم لا يكـون كتصـرف من سـبقكم ولا تمشـوا على أثـرهم وان دولـة فرنسـا ترسل رجالاً ليحسنوا إدارة الجزائر عاملين بمـا يقتضـيه العـدل والعقـل لنتمتع بأثمار السلام واستناد حضرتكم في تحريركم على الشرط الأخـير من المعاهدة المختص بتعين الـوكلاء متبـادلاً منـا ومنكم عنـدنا وفهم أن تكـون وكلاؤُنـا من العـرب ووكلاؤكم من الفرنسـيس فهـو خلاف اصـله المصـادق عليـه بـل هـذا التفسـير اخـتراعي فـأن كنتم محـافظين على المعاهدة فأبقوا وكيلنا كزماني المعين بموافقة مجلس شورى الأمة وان كنتم استحسنتم خرق الشروط وإبطال المعاهدة فنحن مـع عـدم الميـل إلى ذلـك نجيبكم إلى مرغـوبكم ولا يخفى ان البغي وخيم ونتيجـة الشـر تعـود على البـادئ بـه وبالجملـة إنـني انتخبت كزمـاني وكيلاً عنـدكم في الجزائر فرجوعي عنه محال فلما اتصل هذا الجواب بالحاكم وتأكد عنـده ان هذا العمل اثر في خـاطر الأمـير اخـذ في تلافي الأمـر وحـرر للأمـير بالموافقة واخبره انه محافظ على بقاء المعاهـدة الجاريـة على أسـلوبها حيث لا آمـل في الحصـول على مـا هـو احسـن وأوفـق منهـا وهـذه المراجعات التي دارت بين الأمير والحـاكم بواطهـا ومـا ينشـأ عنهـا ومـا تشير إليه من دقائق السياسة لم تخف عن الأمير ولذلك جعل بمقتضـى حزمـه وتفطنـه للأمـور جواسـيس حـذاقاً تخـبره على الـدوام بحقـائق الأحـوال لاسـيما ابن دران الموسـوي وهـذه الحـال هي الـتي أوجبت التشديد وثبات وظيفة كزماني ومن ثمة شرع الأمير يخـاطب المارشـال بالاظ حرة شديدة في سائر ما عليـه الاختلاف والـنزاع كمسـألة الحـدود وأشباهها ومن غريب الاتفاق انه في سنة ست وتسـعين ومـائتين وألـف كان مدحت باشا والياً على سورية فجاءه مكتوب من كزماني وهو مقيم في ايتاليا يقول فيه أن الدولة العثمانيـة عزلتـني من وظيفـة وكيلهـا في

ايتاليا بسبب إنني قمت بخـدمتكم حينمـا كنتم في هـذا الظـرف كمـا أن دولة فرنسا لم تقبلني لما عيني الأمـير عبـد القـادر وكيلاً لـه عنـدها في الجزائر ثم قال له وهذا مكتوب الأمير الذي أرسله إلي في ذلـك الـوقت بهذا الخصوص يصلكم في طي تحريري هذا إليكم ومما وقع فيه الخلاف مسـير جيش فرنسـاوي من أرز يـوالي مسـتغام على طريـق الـبر بـأمر الجنرال بيجو حاكم وهران وجعل ذلك اختباراً لحال الأمير معهم هـل هـو متفطن لمكائدهم أم غافل عنها فأن وجده متنبهاً لها خنس وإلا فأنه يمد يده إلى مطلوبه والداعي إلى ذلك أن المارشـال نقم عليـه أمـوراً بـنيت عليهـا المعاهـدة وتعقبهـا عليـه واتبعـه في ذلـك كثـير من رجـال دولتهم فحاول ان يعالجها بمغالطة الأمير وجعـل فعلـه هـذا مقدمـة لمـا قصـده ولما اتصل بالأمير خبر الجيش غضب وعلم مكيدة بيجو فبعث إليه يقول أن مسـير جيشـكم من أرز يـوالي مسـنغانم على طريـق الـبر مخـالف للأصول التي قـامت عليهـا المعاهـدة وتقـرر عليهـا الصـلح ففعلكم هـذا محض تعدٍ على حقوقنـا وان خفي عليكم الأمـر وادعيت انـك غـير متعـد بفعلك هذا فراجع الشروط وأمعن النظر فيها فأنـك تجـد انـه لاحـق لكم في المـرور على طريـق الـبر إلى مسـتغانم وتعلم أن فهمـك لمنطـوق العبـارة في صـك المعاهـدة حائـد عن الصـواب هـذا ان قلت انـك بـنيت أمرك على ما فهمته من العبارة أو أولته فلما وقـف بيجـو على مكتـوب الأمير علم انه على غاية من الحـزم في أمـوره فلم يسـعه إلا السـكوت ولمــا اســتولوا على قســنطينة أرادوا أن يمــدوا أيــديهم إلى المســافة الطويلـة الـتي بينهـا وبين الجزائـر وقبـل أن يظهـروا هـذا الأمـر رأوا أن يجعلوا لذلك مقدمة تكون توطئة وتمهيداً له فسـير المارشـال قالـه مـع فرقة من العسكر من الجزائر إلى قسنطينة على طريق البر ولما وصل الخبر إلى الأمير كتب إلى المارشال في ذلك وشدد النكـير وأقـام عليـه الحجة فأجابه على ما ذكـره المـؤرخ أن فرنسـا قـد وهبتـك جميـع إقليم

وهران وجميع إقليم تيطرى ومن الجزائر جميع ما هو غربي نهـر الشـفه ولا حق لك في شرقيه وأما إقليم قسـنطينة فأنـه خـارج عن الجـوال ولا كلام عليه في المعاهدة لأنه كان في وقت انعقادها تحت ولاية احمد بأي فاستشاط الأمير غضباً لقول المارشال أن فرنسا قد وهبتك وعظم عليه ذلك فأجابه أما إقليم قسنطينه فهو خارج عن محـل البحث وأمـا أقـاليم الجزائر فالواجب عليكم أن تتذكروا ما جـرى بيننـا عليـه من المراجعـات الكثيرة حين المخابرة في انعقاد المعاهـدة حيث كـان مـرادي ان اجعـل حدودكم محصـورة في ضـواحي مدينـة الجزائـر ولمـا الح علي الجـنرال بيجـو في توسـعة الحـدود وامتـدادها جعلت وادي القـدرة حـداً لكم في الجهة الشرقية والى البليدة غرباً وكمة إلى عربية لانتهاء الغايـة في كـل شيء فكان الجواب عليكم ان لاتتجاوزو وادي القـدرة الـذي جعلتـه لكم من البلاد على المسافة التي بينـه وبين قسـنطينة لا تلـق لهـا بمـا جـرى بيننـا في المعاهـدة ممـا اسـتوليتم عليـه في الشـرق محصـور فيمـا بين قسنطينه وبونه وبالجملة فتجـاوزكم لحـد وادي القـدرة خـارج عن جـادة العدل بعيد عن خط الصواب لاسيما أهل تلك الناحية لم يحل في أعينهم فعلكم بل رأوه محضـاً على حقـوق المسـلمين وظلمـاً بحتـاً لهم ودولـة عظيمة شهيرة مثل دولة فرنسا لا ينبغي لهـا ذلـك وبالجملـة فتعـريجكم على تأويل الألفاظ لا يليـق بكم بـل يجب عليكم وعلينـا أن نحافـظ على النصوص الصريحة ونجري في أمورنا على موجبها فأجابـه المارشـال ان مراجعاتي لسموكم مبنية على ملاحظة كلمة فوق المذكورة في التحديد الشرقي فأرجو ان تلاحظوها . أجابـه الأمـير أن جـوابي الأول ومـا بعـده ومراجعاتي كلهـا مؤسسـة على ملاحظـة سـائر مـا ذكرنـاه في التحديـد كلمة كلمة وهو الصـواب المطـابق للغـة العـرب ومـا فهمتمـوه انتم من كلمة فوق كلمة إلى غير مطابق لما وضعتا له وعندكم من علمـاء اللغـة العربية من تحقيق لكم ما ذكرناه وهـذه المراجعـات كلهـا لم تجـد نفعـاً

واستمرت المشاكل تتزايد يوماً فيوماً ومع ذلك فأن الأمير غير مبال بهـا ولا ملتفت إليها لما اطلع عليه من ميل دولة فرنسا لـدوام السـلم ولمـا اسـتولى الأمـير على مجانـه والزيبـان وغيرهمـا من النـواحي الشـرقية والجنوبية قام المارشال وقعد وبعث إليه في ذلك فأجابه أنكم اسـتوليتم على مدينة قسنطينة والخط الممتد بينها وبين مرسـى بونـه لا غـير فـأن ادعيتم ان جميع ما كان تحت سلطة احمـد بـاي لاحـق بـذلك فهـو محـل نظر وأما ما استولينا عليه فأنـه بعيـد عن دعـواكم ولاحـق لكم فيـه إذ لا يعد من أعمال قسنطينة التابعة لحكومة احمـد بـاي ولا كـان في طاعتـه بل كانت حكام هذه البلاد من أهلها لا تعلق لهم به ولا يـد لـه عليهم منـذ انقرضت الحكومة من الجزائـر بنـاءً على ذلـك ليس لكم في البلاد الـتي استولينا عليها دعوى تسمع عند أهل العدل الذين يحافظون على حقـوق العباد ولا تطمح نفوسهم إلى الاعتداء ثم ان هـذه الأعمـال الـتي أجراهـا الأمـير دون أن يلتفت إلى أحـد فيهـا قـد فتحت لـه بابـاً عظيمـاً لتوسـيع مملكته ومـدت لـه طريقـاً متسـعاً لنفـوذ كلمتـه وبـذلك وضـع يـده على الأماكن الواقع عليها النزاع وعلى البلاد الشاسعة كالزيبان ومجانه وجبال البرير الشمالية وما إليها وسـلم للفرنسـيس اسـتيلاءهم على قسـنطينة ولم يسلم لهم دعوى تابعية البلاد التي استولى هو عليها بل قال أن هذه الأقسام خارجة عن حكومة احمد باي لكونـه يعلم أن مـا تغلبـوه عليـه لا يمكنه التعرض إليهم فيه لعـدم مسـاعدة الـوقت لـه في ذلـك ومـا كـان خارجاً عن محل تغلبهم فلا حق لهم فيه ذكر

خروج ابن علال خليفة الأمير على مليانـة لتحصـيل الإعانـة والزكـاة من الاعراش

ولما طال على الأمير أمد حصار عين ماضي كتب إلى السيد محمـد بن علال خليفته علي مليانه بأن يحصل الإعانة المفروضة على الاعراش ويستوفي زكاة خمس سنين لم يـدفعوها فخـرج الخليفـة في فرقـة من

عسكرة وما زال يصبح عند قـوم ويمسـي عنـد آخـرين ويحصـل الإعانـة منهم والزكاة وكل من تأخر عن أداء ما عليه منهما ينـاجزه القتـال حـتى انتهى إلى جبل تاشته وكان سكان هـذا الجبـل لصوصـاً طغـاة يسـرقون الأموال ويختطفون النسـاء ذوات البعـول من اخيهتن ويـذهبون بهن إلى أماكنهم الحصينة ويتزوجون بهن وكانت الحكومـة السـابقة لا تقـدر على ردعهم عن ذلك مع كثرة المتشكين من أفعـالهم البربريـة ولمـا طـالبهم الخليفة بالزكاة والإعانـة وأمـرهم بـرد مـا عنـدهم من المظـالم لأهاليهـا المجتمعين عنده لم يعتبروا أمره وأجابوه بانا خدام الاعراش وقد أرسلنا لهم الخـبر بـذلك وطـيروا الخـبر للاعـراش يسـتنفرونهم للقتـال فأقـام الخليفة ثلاثة أيام يراجعهم فلم يجده ذلـك نفعـاً وفي اليـوم الرابـع ركب في خمسين فارساً وأربعمائة من المشاة فصعدوا الجبـل وابتـدأوهم في القتال وبعد ساعة ولوا منهزمين وتركوا العيال والأمـوال فاسـتولوا على الجميع ونزلوا بهم إلى المعسـكر وبعـد ذلـك اسـتأمن كـبراؤهم فـأمنهم ولما حضروا عنده أمرهم بدفع كافة ما عليهم من الأموال فأجابوه لذلك ثم أمرهم برد المظالم لأهلها فأدوا جميع ما غصبوه ثم أمرهم بأن يـأتوه بالنساء اللاتي خطفـوهن فـأتوه بـالبعض منهن وقـالوا لم يبـق إلا اللاتي هرب بهن رجالهن وفيهن من ولدت منهم بطنـاً واثـنين وثلاثـة فلم يقبـل منهم ثم اتفقوا أن يضعوا عنده عشـرة رجـال من أعيـانهم رهنـاً إلى أن يأتوا بهن فأجلبهم لذلك وأطلق عيالهم وسـلمهم جميـع أمـوالهم بعـد أن استتابهم واخذ عليهم العهود أن لا يعودوا لمثل ذلك وارتحـل عنهم وبعـد أيام قلائل ردوا بقية النساء وافلت رجـالهم المرهونـون عنـده وقـد غـير سيدي الوالد كثيراً من أمثال هذه الأفعال والعوائد فمنها ما اعتـاده أهـل جبل مطمامطة من عدم توريث الزوجات والبنـات فأرسـل إليهم قاضـياً وعــد لا فحصــلوا لهن ارثهن ومنعــوهم عن فعــل مثــل ذلــك وعين لهم الفقهاء والقراء يعلمونهم أمور الـدين ويقـرؤون أولادهم القـرآن العظيم

وأمر عقاب كل من تـرك صـلاة الجماعـة لغـير عـذر . ذكـر توجـه نـاظر الخارجية أبي محمد الحاج المولود بن عراش إلى باريس

ولما رأى الحاكم الفرنساوي بعد إتمام المعاهدة تافنا ما عليه الأمير من شدة العزم والحزم والإقدام واخذ أمره في النمو وتهافت من جاهر بعصيانه على أداء الطاعة له أصر على الأمير بإرسال سفير من طرفه إلى عاصمة فرنسا ليقابل ملكها ويظهر له انه جاء لتوطيد الحب وتأكد السلم وذكر له من فوائد هذا الأمر ما جلب به موافقة الأمير له عليه ثم أن الأمير أرسل أخاه سيدي محمد سعيد ومعه الحاج محمد فألمه وفداً إلى سلطان المغرب الأقصى واصحبهما بهدية وكتاب ذكر له فيه أن الحاكم الفرنساوي طلب منه طلباً حثيثاً إرسال سفير من طرفه إلى عاصمة فرنسا ليقابل ملكها ويحكم معه طريق المواصلة واعلمه بان نفسه تميل إلى الخلوة والعبادة وتنفر من ثقل ما تحملته من أعباء الإمارة في زمان كثير فيه العدو وفسدت فيه الأخلاق وعرفه بما أجراه بعين ماضي واخذ زكاة نعمها عن خمس سنين ولما وصل الوفد إلى فاس تلقاهم السلطان عبد الرحمن بالمبرة والإحسان وأنزلهم في اعز مكان ثم اخذ يلاطف سيدي العم ويسأله عن أحوال الأمير فيحدثه عن أفعاله بما يستغرب ويقضي على السامع بالعجب وبعد أن قضوا بضع أيام استأذنوا ورجعوا إلى الأمير مصحوبين بكتاب من السلطان ملخصه بعد الحمد لله محل ولدنا الذي نظم به شمل الأمة وجلى بنور صدقه الشدائد المدلهمة حامي حمى الإسلام و المسلمين الأمير المجاهد السيد الحاج عبد القادر بن محيي الدين أيدك الله بنور توفيقهر ورعايته وجعلنا جميعاً من لعل قربه ورعايته أمين وسلام الله الأتم ورضوانه الأعم يتواليان على حضرتكم ظعناً ومقاماً ويرفعان لكم عند الله مقاماً ورحمة الله وبركاته مادام الفلك وحركاته وبعد فقد وافا حضرتنا الوفد الذي اشخصتموه من بابكم ووجهتموه من جنابكم صحبة أخيكم البر الرشيد السيد محمد السعيد نائباً عنكم في الزيارة لابساً من عنوان صفاء مودتكم أبهى زي واحسن بشارة فادى إلينا كتابكم الذي تفنقت عن أزهار روض اخوتكم في الله مبانيه وتنفست عن كريم عهدكم وسليم عقدكم طيب معانيه وأفصحت عن طيب سرائركم معاليه وأعربت عن حسن ظنكم خواتمه و مباديه و أفاد بطالع مسراته من خبر هناء تلك الأقطار وبلوغ المسلمين بانتظام الكلمة الأماني والأوطار أبقاك الله للأعلام رافعاً وعن حوزته مدافعاً ولا عدمت من الله معونة وتأبيداً وهدايةً وتسديداً هذا وقد وافتنا الهدية التي وجهتم صحبة الوفد الذي أشخصتم محفوقة بجميل الآثار مكسوة بحلل البر والإيثار جرياً على جميل اعتقادكم وعملاً بحسن ظنكم ووداكم فقابلنا وجه نظركم بالقبول وتلقينا حديث صلتكم بالبر للوصول كثر الله إمدادكم وأعدادكم وما اقتضته المصلحة من توجيه باشدور من قبلكم لبر فرنسا حيث طلبه طاغيتكم بحث وإزعاج جارياً من الرشد على منهاج فأنت والحمد لله من دينك على بصيرة ومن سياستك على أقوم سيرة فقد مارست أحوال العدل سلماً وحرباً واطلعت على بعض دسائسه شهوداً وغيباً فأمره كله تمويه وتدليس وشأنه كله خداع وتلبيس فكن من مكائده على بال ومن أمر غدره على بصيرة واحتيال فطالما اسر حسوا في ارتغاء واظهر تمنعاً في ابتغاء و أبدى تحبباً ووداداً واضمر غدراً وعناداً وفيما فعل بالأندلس وأهلها اعدل شاهد وبرهان وليس الخبر كالعيان فقد كانوا شرطوا عليه نبفاً وسبعين شرطاً لم يوف لهم منها بواحد وضربوا معه فيها في حديد بارد لا يغرنك ما ترى من خضوع أن بين الضلوع داء دوياً

ذلها اظهر التودد منها الخ قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) وقال سبحانه (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وأي خير يحب عدو الدين لجماعة المسلمين فالحازم اليقظ من لمسه لا يستقيم ولا يبرح عن سوء الظن به ولا يديم والله سبحانه وتعالى يجزيك من معونته على عوائده ويعيد على الكافر شؤم مكائده وما ذكرت أيدك الله من التفصي من عهدة الأمور الاجتهادية والميل إلى تعاطي المسائل العلمية لتخرجك من ارتكاب تجلى إليها سياية الخلق وربما يخفى فيها ظهور وجه الحق فاعلم أن الله سبحانه وحركاته وسكناته ذخراً له وبضاعة فإذا كانت النهضة لله والعزيمة لنصرة دين الله كملت المطالب وتوفرت الرغائب وهذا هو السر في افتتاح الإمام البخاري رحمة الله في الجامع الصحيح إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما نوى وإذا اجتهد الإنسان قدر وسعه أمده الله بتوفيق من عنده وهداه لسبيل رشده وللائمة في هذا المجال فبهديهم اقتده وكيف يسوغ لك التفصي وقد رفعت بك في ذلك القطر راية الإسلام وانتظم أمر الخاص والعام وأرغم بك انف الكفر وأحزابه ورد كيده على السلاح وسارت بخير ذلك الركبان براً وبحراً وأنا لنرجو فوق ذلك مظهراً ولولا وجودك وجدك لتفرقت أشياع تلك القبائل الإسلامية شذر شذر ولا افترست كلاب الروم أمله وعمرت عبده الصليب حزنه وسهله ولكن الله سبحانه تداركه بإقامتك وسد ثغوره بحمايتك ولن تعدم من الله عوناً ومدداً ومن صالحي المؤمنين عدة وعدداً فأنه لن يعدم القائم بالدين وحياطة الإسلام والمسلمين النصر والإعانة والتمكين من القوي المعين والشاهد قوله صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين وما فعلت من اخذ زكاة نعم ناحية عين ماضي عن خمس سنين حين ظفرت بها بعد تكرر المطالبة للسيد محمد بن احمد التجاني بسببها فقد أخذت حقاً وطهرته وأهله ولو انصف وقال حقاً فأنت المكلف بتلك الأقطار دانيها وقاصيها واليك مرجع طائعها وعاصيها ونرجو الله سبحانه أن تضاف إليها جميع بلاد أهل الشرك وتنتظم بطاعتك انتظام الجوهر في السلك وتفذ كلمتك في الحواضر والثغور وتبتسم فرحاً بك الحاميه ولتغور بحول الله وقوته وقد تفرسنا في أخيك عند ملاقاته الخير وعملنا صحة فراسة والدك رحمة الله حين تخيره للخلافة على الزاوية ورشحه لتلك الرتبة السامية فالدر من معدنه والخير من أهله بنو الصالحين الصالحون ومن يكن

لآباء صدق يلقهم حيث سيرا

ارى كل غصن ثابت في أرومة ◈ أبى مثبت العيدان ان يغيرا

ونسأل الله ان يجدد بك الآثار والأعلام ويجعلك من الأئمة المهتـدين ويصـلح بـك وعلى يـدك آمين وإذا أردت توجيـه باشـدور لطاغيـة الـروم فـاختره من أهـل الـدين المـتين يـرجح جـانب الإسـلام على المشـركين بإظهار القـوة وتوفـير الأجـداد واجتمـاع القلـوب على الجهـاد فـأن اكـثر الناس اليوم كل على مولاه إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليـل مـا هم والله يشـد أزرك ويـديم نصـرك أمين من المـولى عبـد الـرحمن ابن المـولى هشـام ابن المـولى محمـد ابن المـولى عبـد اللـه ابن المـولى

إسماعيل في أواخر ذي القعدة سنة أربع وخمسين ومائتين بعد الألف ولما قرأ الكتاب وفهم ما تضمنه معناه صمم على إرسال سفير إلى ملك فرنسا واسلخار لذلك فوقع اختياره على معتمده ناظر الأمور الخارجية ابن عراش فبعثه واصحبه بهدية تشتمل على عدد وافر من الأبقار والحمر الوحشية والنعام وأنواع من البسط والفرش الفاخرة المتخذة من الصوف الناعم نادر الوجود فسار أبو محمد في أصحابه إلى الجزائر ومنها ركبوا البحر إلى فرنسا وعند وصوله إلى باريس احتفل الملك بقدومه وبالغ في مؤانسته واحسن السؤال عن الأمير ومدح ثباته في الذب عن دينه ووطنه وشكر أجابته إلى الصلح وقبوله لما فيه من التوصل إلى ما يحتاج إليه في أموره وما يناله في مدته من الراحة له ولعساكره وأطال في ذلك قال بالمار في تاريخه أن الحاكم العام لما رأى تقدم الأمير آخذا في النمو على وجه لم يكن في الحساب ونظر أن ألفاظ المعاهدة لم تزل مبهمة بحسب فهمه وشاهد ما عليه الأمير من الحزم وثبات الجأش عرض عليه إرسال سفير من طرفه إلى عاصمة فرنسا ليقابل ملكها ويظهر له إنما جاء لتوطيد الحب وتأكيد السلم فهذا رأي الحاكم في الظاهر وأما في الباطن فمقصوده انه ربما تنتقل الأمور التي بينه وبين الأمير إلى طور آخر يحمل الأمير على رجوعه عن تعصبه لما يراه مصلحة له وأوجب عليه أن يثبت فيه ويعمل بمقتضاه في الأمور المختلف فيها وعلى كلا الوجهين فقد رأى الأمير أن رأى الحاكم حسن فأجابه إلى ما رغب فيه واختار معتمدة بن عراش لهذه السفارة فبعثه وأرسل معه هدايا غريبة وذكر مفرداتها طبق ما ذكرناه ثم قال ولما وصل المعتمد المذكور إلى الجزائر تلقاه الحاكم بالمبرة والإكرام ثم ذاكره فيما يتعلق بإيضاح مبهم العبارات المقررة في المعاهدة ورأى أن مذاكرته في ذلك قبل سفره إلى باريس أوفق وأولى فلم يفز منه بجواب شافٍ بل سلك طريق المحاولة والمزاولة ووعده بأنه بعد

رجوعه من باريس يجرى له ما يرضيه فغضب الحاكم من هـذا الروغـان وحمله غضبه على أن كتب لدولته أن إجراء أمر نهائي مع معتمـد الأمـير لا يوافقه صالح فرنسا ولا أهل الجزائر ولما وصل المعتمد إلى العاصـمة نزل في دار الضيافة بكل إكـرام رغب الاسـتراحة قابلـه وزيـر الخارجيـة وتوجها معاً لمقابلـة الملـك بكمـال الاحـترام ونـال منـه حسـن الالتفـات وسأله عن أحوال الأمير واستعلم منه حركت عساكره واظهر له ارتياحه إلى الهدية المرسلة معه وقبوله لها وقال له أني اعد الأمـير عبـد القـادر صديقاً وحيداً لي وإني أرجو نجاح عمله وبلوغ البلاد الجزائرية إلى حالتي الرفاهية والتمـدن ثم أن المعتمـد اخـذ في مـذاكرة الملـك فيمـا يتعلـق بالمعاهدة والبحث في الألفاظ التي وقع الخلاف في المعنى المراد منهـا فأجابه وزير الخارجية ان هذا الأمر ينبغي أن تكون الذاكرة مع المارشال فاله حاكم الجزائر وبعد أيام انقلب المعتمد راجعاً من باريس بهديـة من الملك إلى الأمير وهي وزوج طبنجة كل منهما مرصع باليـاقوت والزمـرد واللؤلؤ وحلق الماس وكردون من اليـاقوت والزمـرد وزرابي مخصوصـة بقضبان الذهب وأثواب منسوجة بالذهب وغير ذلك ولمـا وصـل المعتمـد إلى الجزائر قابله الحاكم وعاجله بالسؤال عما وقع له في أمر المعاهدة فأخبره بما أجابه به وزيـر الخارجيـة في حضـرة الملـك فأنشـرح صـدره واطمأن فكره ثم استأنف المذاكرة معـه في تلـك الأمـور الـتي لم تـزل شاغلة لأفكاره .وبعد مراجعات طويلة تقرر عند الحـاكم انـه يـذيل صـك المعاهدة بما يؤذن بتغير أشياء منصوص عليهـا فيـه وتبـديلها بمـا يوافـق مصالح فرنسا ونص ما حرره في ذلك التـذييل أن المارشـال فـالا حـاكم الجزائر ومعتمد الأمير عبد القادر الحـاج المولـود بن عـراش اتفقـا على توضيح الكلمات المبهمة في صك معاهدة تافنـا الـتي تقـرر فيهـا العمـل على ما يأتي الأول أن يكون الحد في جبهـة الشـرق من الجزائـر ممتـداً من مجرى نهر القدرة إلى منبعه في جبل طبيارين ومنه إلى يسـر فـوق

جسر بني هني وعليه فيكون خط التحديد الحالي فيمـا بين وطن فليسـه ووطن بني جعد وما بعد يسر إلى البيان وطريق الجزائـر إلى قسـنطينة بحيث ان يكـون بـرج حمـزة وجميـع الأرض الكائنـة في شـمال وشـرق الحدود المذكورة إلى البحر تابعاً لدولة فرنسـا وان أقي ارض بـني جعـد وونوغا جنوباً وغرباً من هذه الحدود يبقى تابعاً للأمير وفي عمالة وهـران يسوغ لدولة فرنسا أن تمر عساكرها من ارض ارزيو إلى ارض مستغانم وإذا رأت مناسـباً لهـا أن تصـلح قسـماً من الطريـق الكـائن في شـرق المقطع فلها ذلك بـدون تعـد على ارض الأمـير الثـاني أن مـا تعين على الأمير أن يدفعه للعساكر الفرنساوية من الحنطة والشعير في مدة ثلاثة اشهر والى الآن ما دفعه يلزم أن يكون تقديمه منجماً على عشرين سنة بحيث انه يقدم في أول كانون الثاني من كل سنة منهـا قسـطاً من كـل صـنف من الصـنفين المـذكورين وأن يكـون الـدفع في مدينـة وهـران . الثالث أن جميع ما يحتاج إليه الأمير من الأدوات الحربية والذخائر يطلبه من الحاكم وهو يحضره و يسلمه إلى وكيله في الجزائر بأثمانـه الأصـلية التي اشترى بها فعلى هذه الوجوه يكـون الإجـراء بـدون تغـير ولا تبـديل وباقي الشروط المذكورة في صك المعاهدة يبقى معمولاً بها ثم لما إنها الحاكم تذييله عرضه على المعتمد ودعاه للموافقـة عليـه بمـوجب كونـه وكيلاً عن الأمير فاعتذر إليه بأنه غير مـرخص لـه في مثـل ذلـك ووعـده السعي فيما يحمله الأمير على الموافقة والإجابة إلى مراد دولـة فرنسـا منه فلما يقنع الحاكم بجوابه وألح عليه أن يكتب في هامش التـذييل انـه اطلع عليه واستحسنه فتوقف ابن عراش في ذلك ثم كتب إنـني اطلعت على هذا الملحق واستحسنته ولست مسؤولاً عن مصادقت أميري عليـه وبعد أن حرر المعتمد ذلك رخص له الحـاكم في السـفر ولا جـرم أن مـا حرر في هذا التذييل يستدعي الحيرة للأمير فأن وافـق عليـه يخـرج من يده قسم عظيم من البلاد التي استولى عليها وتقررت أحكامه فيهـا وان

أبى فلابد من خرق سياج المعاهدة ونقض الصلح قال بعض مؤرخيهم وصعوبة القظيه جعلت الفرنسيس يتلافونها باستعطاف خاطر الأمير ولذلك بدا للمارشال أن يبعث مع المعتمد صهرة القائد دوسال إلى حضرة الأمير ليذاكره في القظيه مشافهة وكان الأمير وقتئذ محاصراً لحصن عين ماضي فأعتذر المعتمد بذلك واخبره ان المسافة بعيدة جداً فأجابه الحاكم ان بعد المسافة لا يصده عن قصده فاستكان المعتمد لذلك وعلم انه لامناص من خروج القائد معه فسار معاً من الجزائر قاصدين الحضرة فلما وصلوا إلى مدينة مليانه تلقاهما الخليفة السيد محمد بن علال للتجبيل والإكرام ورفض أن يعرف القائد رسماً بدون أمر من الأمير ثم أن المعتمد اسر إلى الخليفة بالأمر واطلعه على ما في سره من كونه يخلف القائد عنده وهو يغز السير إلى الأمير ليخبره بالواقع فوافقه الخليفة على ذلك وتلطف المعتمد في الخروج ليلاً وأسرع في السير إلى تأكدمت وبوصوله طير الخبر إلى الأمير وهو على حصن عين ماضي أما القائد دوسال فأنه لما اتصل به خبر سفر المعتمد دونه حمله الغضب على الرجوع إلى الجزائر فرجع واخبر المارشال بما اتفق له مع المعتمد فقام لذلك وقعد وكتب إلى دولته بالواقع واخبرها بأن الأحوال الراهنه تقضي ببطلان المعاهدة وفي هذه المدة كان الأمير مشتغلاً فيها بأمر التجيني فانتهزت الفرنساويه الفرصة وشيدوا الحصون المتينة في بونه وكالمه وميله من أعمال قسنطينة في الجهة الشرقيه منها ووضعوا فيها العساكر والذخائر واكتشفوا على آثار مدينه قديمة رومانية على البحر الغربي بونه وتسميها العرب سكيكدة والبربر روزيكاوا فابتنوا في حزبها مدينة سموها فيليفيل وبهذا المركز توصلوا إلى وضع يدهم على الجيجل والقل وغيرهما من المراسي الصغيرة فيما بينها وبين الجزائر وبعد فراغ الأمير من فتح حصن عين ماضي رجع إلى تاكدمت وبوصوله احضر معتمده ابن عراش ووبخه على استبداده فيما

كتبه على التذييل فاعتذر إليه بأنه لم يفعل ذلك إلا لاتقاء شره والخــروج من قبضــته فقبــل عــذره ثم اقبــل على تفقــد أحــوال الجيش ومهماتــه الحربية وبعث إلى خلفائه في الولايات يحثهم على النظر في أحوال من عندهم من العساكر وأمرهم بمفاوضة الأعيان والرؤساء في أمر الجهــاد والأخــذ في الاســتعداد ودس إلى وكلائــه في الجزائــر ووهــران وغيرهمــا باستقصــاء الأخبــار واســتطلاع الأحــوال والنقب على دســائس العــدو ومكائــده وبعث إلى أهــل الثغــور في التيقــظ والتنبــه إلى غوائــل العــدو والتحذير من مفاجأته ولما اتصل بحاكم الجزائر ما عليه الأمير من شــدة الالتفات إلى أموره وما هيأه الله لهم من النصر والتمكين وثبوت القــدم حركة الجسد مع ما اتفق لصهره مـع المعتمـد ابن عـراش فبـدل وسـعه في نقض المعاهدة وواصل رسائله إلى دولته في ذلـك وهي تعـيره أذنـاً صماء ثم بعث صهره القائد دوســال مـرة أخـرى إلى مليانـه وكـان معـه رسالة من الحاكم في طلب الجواب على مقتضى ما في التـذييل وعنـد وصوله إلى الحضره تلقـاه الأمـير بـالمبرة والإكـرام وبعـد اطلاعـه على رسالة الحاكم تحير في أمره ورأى انه أمســى بين أمـرين خطـيرين أمـا الموافقة والوصول إليها صعب لبعـدة عن قبـول الأمـة لـه وأمـا رفضـها يؤدي إلى نقض المعاهدة وكان ديوان الشورى وسائر الأمة يميلــون إلى الحرب ويقدمونه على إعطـاء الدنيـه بقبـول مـا في التـذييل مـال معهم وأجـابهم إلى مـا طلبـوه واستحسـنوه ثم انـه دعـا القائـد دوسـال إلى الديوان وكان حشر إليه الأعيـان والقـواد فلمـا اسـتقر بـه المجلس اخـذ الأمـير يتكلم على العمـوم فـأخبرهم بالقضـية وبتحـريض الحـاكم على الإجابة إلى مطلوبـه والموافقـة عليـه ثم قـال وهـذا الرسـول الـذي هـو بمثابة وكيل لدولة فرنسا جـالس بينكم يسـمع كلامي وكلامكم فـانظروا ما يحلوا لكم واظهروا ما فيه رغبتكم فضج الجميع لا نقبل ولا نجيب إلى ما هو مذكور في التذييل ولا نرضى بالدنيه في ديننا ولا بما يخل بشــرفنا

فالنار ولا العار فأن كـانت الدولـة الفرنسـاويه ترضـى أن تبقى على مـا انعقد إليـه الصـلح فيتافقنـا فـذلك وإلا فـالحرب وباللـه المسـتعان فأقبـل الأمير على القائد دوسال وقال له هـا أنت قـد نظـرت بعينيـك وسـمعت بأذنيك وليس الخـبر كالعيـان فـأخبر الحـاكم بمـا رأيت وسـمعت والـذي عندي هو أن تتكلم معه بما يقنعه ويحمله على إبقاء المعاهدة جاريه في سبيلها القديم فأن ذلك احسن للطرفين وأليق بالجانبين وعاقبة الحــرب كما لا يخفى وخيمة وسفك الدماء مـع إمكـان حقنهـا لا يجـوز في سـائر الشرائح المقـررة ولا يرضـى بـه ذو عقـل سـليم وعلى كـل حـال فنحن مسرورون بقدومكم علينا ونرجو أن يكون ما شاهدته وسمعته من نواب المملكة اكبر عذراً لنـا عنـد الحـاكم ثم أن القائـد دوسـال بعـد أن وقـف على حقائق الأمور انقلب راجعاً إلى الجزائر واخبر مرسله بالواقع فوجع لذلك ثم بعث إلى وزير الحرب في باريس يخبره بما جـرى ومـا شـاهده صهره من الأمير ورجاله دولتـه ومـا هم عليـه من التحمس والرغبـة في الحرب و أردف الحاكم ذلك بقوله ان تغيـير الحـال الراهنـة يحوجنـا إلى استعمال أشياء وهي أن تعلن الدولة الفرنساوية للأمير عبد القـادر بأنهـا لا تقبل الحكام الذين وضعهم في الأماكن المختلف فيها ولا تعرفهم فأنها تصدر أمرها بتهديد الأمير ووعيده فأن لم يجـد ذلـك نفعـاً تـأمر بـالهجوم عليه بكمال القوة التي يتوصل بها العسـكر الفرنسـاوي إلى هـدم قوتـه والاستيلاء على برج حمزة وما يليـه من البلاد الشـرقية وإنهـا تكتب بعـد هذا كله إلى الأمير أن هذا العمل ليس المقصود به نقض الصلح بـل هـو متمم له ومثبت لروابطه فلينظر العاقل إلى هذا التحريـر ومـا هـو عليـه من فسـاد المعـنى وهـل مـع عمـل السـيف صـلح وهـل بعـد الهجـوم والاسـتيلاء على الأراضـي المـذكورة معاهـدة ثم أن الأمـير لمـا علم أن الحاكم ساع فيما يحل به عقـدة المعاهـدة كتب إلى ملـك فرنسـا رأسـاً يخبره بالحـال ويطلعـه على سـوء تصـرف حاكمـه في الجزائـر وملخص

كتابه . من المعلوم قديماً وحديثاً أن المسـلمين من دابهم محاربـة عـدو دينهم قياماً بما أوجبته الشريعة الإسلامية عليهم بالجهاد أما لإعلاء كلمـة الله أو للدفاع والذب عن الـدين والبلاد فـإذا عاضـتهم أمـور سياسـية أو ضرورات شرعية فلهم أن يجنبوا للسلم ووضـع أوزار الحـرب ونحن لمـا رأينا الجنرال بيجو راغباً في الصلح ورأينا بلادنا تحتج إلى ما بـه عمرانهـا وفيه راحتها اجبنا الجنرال إلى مطلوبه وعقـدنا معـه الصـلح ظنـاً منـا أن دولة فرنسا تحافظ على العهد كما إننا كذلك فـإذا بعمـالكم في الجزائـر بـادروا إلى مـا بـه خيبـة الظن وعجلـوا بمـا يـؤدي إلى الضـرب والطعن فكاتبناهم في ذلك فما سمعوا ولاطفناهم في القول والفعـل فمـا قنعـوا بل جمعوا حولهم وقوتهم فيمـا يحملنـا على الإجابـة إلى مـا لا يجـوز لنـا شـــرعا أن نجيب إلى مثلـــه وهـــو التخلي عن قســـم عظيم من بلادن والتســـليم في إخواننـــا أهـــل ديننـــا وحيث انـــه غلب على الظن إنكم لا ترضون بوقوع ما يكدر صفونا ويقطع مواصـلتنا بادرنـا إلى إرسـال هـذه الرسالة الودية لتعلموا منها ما هو واقع بيننا وبين عمـالكم وتتأكـدوا إننـا راغبون في مسالمة فرنسا ومصافاتها ودوام معاملتها في المتجر وغيره من أسباب العمران ولا تظن الدولة الفرنسـاوية أن رغبتنـا فيمـا ذكرنـاه لضعف اعترى قوتنـا أو لقصـور اخـذ من حـدة شـوكتنا فأننـا بحـول اللـه تعالى وقوته لم نزل ولا نزال على ما تعهده عساكرها من عســاكرنا من كونها تعطيها في ميادين الهيجاء كيلاً بكيل وتقابلها المثل بالمثل غير إننـا لما رأينا ذلك لا يجدي نفعاً رغبنـا في المعاهـدة طلبـاً للراحـة والوصـول إلى ما فيه عمران البلاد كما أشرنا إلى ذلك آنفاً وكتبنا إلى جلالتكم هـذا إعلاماً بالحال انتهى .وقد وصل هذا التحريـر إلى الملـك إلا أن العـوارض الكثرة وقتئذ منعت من رد الجواب قال ثم بعث الأمير إلى الملك مكتوباً ثانياً ولم يتيسر جوابه وبعد مدة اتصل بـه أن وزيـري الخارجيـة والحـرب عـزلا وتعين لـوزارة الخارجيـة مسـيو تـيرس الشـهير ولـوزارة الحـرب

المارشال جراردن فتوهم أن هذا التغير يجديه نفعاً فيمـا هـو راغب فيـه فكتب إلى الملك مرة ثالثة والى الوزيرين المذكورين وملخص كتابه إلى الملك .قد كنت بعثت لجلالتكم برسالتين ذكرت فيهما ما هـو واقـع بيننـا وبين عمـالكم في الجزائـر من الوحشـة ورغبنـا في زوالهـا من لـدن جلالتكم بوجه العدل والإنصاف كما أننـا رغبنـا أن تـأمروهم بالعـدول عن طريق الظلم والاعتساف والى الآن ما وصلني جواب عن واحـدة منهمـا فظهر لنا من ذلك انهما لم يصلا إليكم لان كـرم الأخلاق يـأبى أن تكونـوا بعد اطلاعكم عليهما تغافلتم عن رد الجواب وبناءً عليـه كتبت هـذا علاوة على ما تقدم رجاءً يصل وتطلعوا عليه وانـه يجـوز القبـول وقصـارى مـا أقول أن عمالكم في الجزائر اجهدوا أنفسهم فيها بنقض الصلح المنعقـد بيننا وبينكم من غير موجب من جهتنا ابتة وأمنا حملهم إلى ذلك ما تقوله لهم أنفسهم من التعدي على حقوق عباد الله ومن اليد إلى ما ليس لهم من وجه فالبلاد التي ذكرها الحاكم في تذييلـه هي بلاد سـبقنا نحن إليهـا ووضعنا أيدينا عليها وهي في حكم الموات لاحاكم لهـا بمقتضـى الشـرع وذلك منذ انقرضت الحكومـة من الجزائـر وأعمالهـا ولم تـدخل قـط في حـوزة احمـد بـاي حـاكم قسـنطينة ولا كـانت بينـه وبين أهلهـا مواصـلة سياسية فبـأي وجـه ينازعوننـا فيهـا ونحن أحـق بهـا وأهلهـا من وجـوه لا تخفى إلى المنصـف ذي القلب السـليم وهب إنهـا كـانت من أعمـال قسنطينة التي استوليتم عليها أخذتموها من يـد احمـد بـاي كـان حاكمـاً عليها بالتغلب أيام أخوالكم إلى الجزائر وهب انـه كـان عـاملاً عليهـا من قبل حكومة الجزائر فأن تلـك الحكومـة انقرضـت وبانقراضـها انقرضـت أحكامها وحكامها فلا سلطة شرعية لاحمد بآي ما وبقاؤه فيهـا إنمـا كـان على سبيل الدعوى لنفسه والناس لم يقبلـوه أن يكـون ولي آمـرهم ولا اعتبروه رئيساً عليهم مطلقاً وتغلبه كن على نفس مدينة قسنطينة وبونة ولو وجد أهل تلك النواحي من المسلمين من يأخذ بأيديهم ويدفعه عنهم

لسارعوا إليه كما وقع ذلك حين توجهنا إلى تلك النواحي التي تلينا ومن جملتها الأراضي التي نازعتنا فيها عمالكم بغير حق وبالجملة فسلوك هؤلاء العمال من عساكري وحبسوهم بدون سبب شرعي ولا داعٍ قانوني وعلى فرض أن لهم وجهاً فيما فعلوه فكان الواجب عليهم ان يخابرونا في أمرهم ونحن نجري عليهم ما تقضي به الأحكام الشرعية أو القانونية على حسب ذنوبهم ثم انهم منعوا بيع الحديد والنحاس والرصاص في أسواقنا كما انهم منعوا تجارنا من شرائه في أسواقهم وأهانوا رسليإليهم واعرضوا عن رد أجوبة رسائلي التي وجهتها إليهم وجعلوا ضريبة على المكاتيب التي ترد من الداخلية إلى الجزائر وغيرها من المدن التابعة لهم ومع هذا كله فأنهم يكتبون إلى جلالتكم إنني عدو فرنسا اطلب حربها وأسعى في أسبابه فينبغي والحالة هذه أن تأخذوا من أعنتهم وتضربوا على أيديهم وتأمروهم بالعدل عن سوء التصرف معنا فأن كمال مروتكم مع ما شاع عنكم من مكارم الأخلاق يقضي عليكم بذلك فأن قال هؤلاء العمال إننا تأخرنا عن إجراء البعض من شروط المعاهدة قلنا إننا لم نؤخر ذلك إلا لكون الجنرال بيجو تقاعد عن إجراء ما تعهد به ظناً منه إنني غافل عن تلك المعاهدة المحرر عليها اسمه بخط يده وما علم إنني اعتبر صحة مواعيد شخص هو وكيل ملك فرنسا فأنظر ايها الملك فيما ذكرته لك واسمح برد الجواب والتعريف عن مقاصدك والله يوفقك إلى ما فيه راحة العباد وكتب إلى وزير الخارجية ما ملخصه أني أهنئ فرنسا برجوعك إلى الوزارة الخارجية واعلم أن الأثقال المهمة التي تقضي بصرف المهمة وتوجيه الفكر إلى تحسين الأحوال بيننا وبينكم تجعلني انتظر منك ما أهنئ به نفسي فأنك على ما بلغنا تحب الهدوء والسكون وتسعى فيما يحسن العلاقة بين شعبك وسائر الشعوب ولا يخفى أن الأحوال الجارية بيننا وبين عمالكم لا يصلحها ويحسنها إلا تأبيد السلم المنعقد بيننا وبينكم وتوطيده ومجانبة

الاعتداء بكل وجه وأما استعمال الحيل مـع الأعضـاء عن إجـراء شـروط المعاهدة لأجل مطامع خارجية عن جادة الحق فلا جـرم أن ذلـك يفضـي بنا وبكم اى مـا لا خـير فيـه لنـا ولكم وحيث أن الحـق تعـالى وهبـك من الأخلاق الحميدة ما أكسبك الثناء الجميل من أبناء وطنـك فينبغي لـك أن تستعمل تلك الشـيم الكريمـة كـذلك في أفريقيـة وبـذلك ينتشـر ذكـرك الحسن بين الأمتين وتعطر أنديتهما بمدحك وكمالك وتحصل لك الشهرة المطلوبة لكل عاقل ويدوم ذكرك في العالم وبالجملة فأني انتظـر منـك ما يسر السـامع وتبهج بـه المجـامع من تجديـد بيننـا وبين دولتكم .وكتب إلى موسيو جراردن ما ملخصـهلما بلغـني أن ملـك فرنسـا قلـدك وزارة الحرب انشرح صدري لذلك لعلمي انك تميل إلى المسالمة وتسعى في أسبابها ومن يكون قادراً على نظارة الحرب فلا بد أن يكـون قـادراً على تمكين الصـلح وحمايتـه من اعتـداء المعتـدين هـذا وان معاملـة عمـال الجزائر لنا وسوء تصرفهم معنا لابد أن يكون قد شـاع وذاع وتأسـف لـه كل عاقل وتكدر منه كل فاضل فأن هؤلاء العمال بعـد أن عقـدنا الصـلح مع دولة فرنسا وأسسناه على شروط قبلها كـل منـا وجـرى بهـا العمـل قاموا يتعاطون أسباب حل مـا عقـدناه وبنـوا أمـرهم على الطمـع الـذي يمقته كل منصف والظلم الذي يمجه كل عادل وحـاولوا تغيـير كثـير من الشـروط ومعنـوا في ألفاظهـا العربيـة ولا ادري هـل كـان ذلـك منهم لجهلهم باللغة العربية أم هو على سبيل التعنت ومن العجب نهم ارتكبـوا ذلك ولم يعلمـوا انـه حطيـط في حـق دولتهم العظيمـة وبالجملـة فنحن نستدعي حسن التفاتـك إلى المطـاليب الـتي اكـثروا علينـا فيهـا ونرجـو نفوذك القـوي عنـد جلاة الملـك يعضـد مقاصـدك السـليمة واللـه تعـالى يوفقكم إلى فعل الخـير وتقريـره فمن تأمـل في معـاني هـذه التحـارير ظهر له منها حسن مقاصد الأمير وشدة ميلـه إلى الصـلح كمـا أن دولـة فرنسـا كـانت تظهـر ذلـك ولكن إرادة اللـه اقتضـت وقـوع الحـرب بين

الفريقين ولما يئس حاكم الجزائر من إجابة الأمير إلى موافقته على ما حرره في تذييله وعلم ان ذلك دونه خرط القناد وانتضاء السيوف من الإغماد بعث إلى دولته صورة التذييل بملحق وذكر لها ما يحملها على اختيار الحرب وكان معارماً عندها أن الأمير لا يسلم بذلك لكنها نظرت أن مرور جيشها في تلك الأراضي يكون فيه الشرف العظيم لفرنسا ووضع اليد لا يعد نقضاً لدعائم الصلح وأصدرت الأمر إلى المارشال بهذا وعند وصوله إليه اخذ في الاستعداد وبعد استكمال تعبيته ووصول الدوك دورليان ابن الملك ورؤساء العسكر إليه وهم في معيته من الجزائر في الأربع والعشرين من رجب سنة خمس وخمسين ومئتين والسادس من أكتوبر سنة تسع وثلاثين وثمانمائة سالكين طريق البر ولما وصلوا لمضيق البنيان قسموا جيشهم إلى فرقتين فرقة توجه بها الملك إلى قسنطينة والفرقة الثانية استمر بها المارشال سائراً إلى أن دخل الجزائر قال بعض مؤرخيهم وكان دخوله إلى الجزائر دخولاً احتفالياً وقوبل بأعلا أصوات الابتهاج واستمرت الاحتفالات أربعة أيام وعملت وليمة فاخره على ممشى باب الواد وظن أن الجزائر قد انقلبت فكان أنصار وهمي رسمته المخيلة على لوحها وأنبأت عنه أشفاه وكان أهل البلاد التي يمرون فيها يعتقدون أن حاكم الجزائر قصد بمروره بابن الملك في بلادهم مجرد السياحة والتفرج لما هو مقرر عندهم من أمر المعاهدة بين الأمير ودولة فرنسا ولذلك كانوا يقدمون له جميع التسهيلات السفرية مسرورين بخليف ودود لأميرهم ولولا هذا ما تركوه يمر في بلادهم من غير قتال قال بعض مؤرخيهم ولو كان عبد القادر هناك بخمسمائة عسكري فقط لما مكنهم أن يعبروا أبواب الحديد عند وصولهم إليه ولأمكنهم أن يخرجوا منه ولما مر بوسط قبائل بني مناصر أحد قوادهم وحصل إطلاق البارود بينهم انتبه الخليفة السيد احمد ابن سالم من نومه وطير الخبر إلى الأمير فوجم لها ثم نهض من مليانه إلى

المديـه وكتب إلى المارشـال ملخصـه بينمـا كنـا معكم في حـال سـلم ومعاهـدة فلم نشـعر إلا وقـد فعلتم مـا ينـافي ذلـك وتجـاوزتم الحـدود المعلومة بين بلادنا وبلادكم بغير اذن ولا تقدم مخـابرة في ذلـك ولا علم ومررتم بـابن الملـك في عسـاكركم الكثـيرة في بلادي من الجزائـر إلى قسنطينة بدون وجهة يسـوغ لكم ذلـك ويجـوزة ولـو أخـبرتموني أن ابن الملـك يريـد زيـارة بلادنـا كنت رافقتـه بنفسـي أو عينت أحـد خلفـائي لمرافقتـه والـذي يظهـر أن القصـد من فعلكم هـذا إظهـار التعـدي على حقوقي حـتى أتـأثر لـذلك وينجـر الأمـر إلى نقـظ المعاهـدة والحـال إن فعلكم هذا هو نفسه ناقظ لمعاهدة مبطل لها وبناء عليه أعلن لكم إنـني عـزمت على اسـتئناف الحـرب وباللـه المسـتعان فـارفعوا وكلائكم من بلادي وانذروا قومكم المقيمين فيها والمسئولية عليكم وحدكم . ذكر مـا جرى بعد هذا من إشهار الحرب والمراجعات فيه وما آل إليـه الأمـر بعـد ذلك

لما يأس الأمير من إجابة الدولة الفرنساوية إلى مـا دعاهـا إليـه من ترك مطامع عمالهـا والبقـاء على مـا تقـرر بـه الصـلح ورأى أن العمـال الفرنسـاويه عامـدون إلى نقض العهـد وإضـرام نـار الـوغى اعـتزم على دفـاعهم والـذب عن دينـه ووطنـه واصـدر أوامـره إلى خلفائـه في المقاطعات بالتـأهب للحـرب والاسـتعداد لهـا وأطلعهم على مـا أظهـره الفرنسـيس من نقض المعاهـدة ثم اصـدر إعلانـاً عموميـاً ليتلى في المحافـل والمجـامع وملخصـه ليكن في علم سـائر الخلفـاء والاغـوات والقواد وكافة المسلمين اهـل بلادنـا الـدائمين بطاعـة اللـه ورسـوله ثم طاعتنا وفقهم الله للقيـام بفريضـة الجهـاد وأعـانهم بـالقوة والإمـداد أن الفرنسيس قد ظهر عدوانهم واتضح اعتدائهم فتجاوزوا الحدود المقـررة بيننا وبينهم ومـروا في بلادنـا من الجزائـر إلى قسـنطينة بـدون إذن منـا فتأهبوا أعانكم الله للحرب وهيئوا سـيوفكم للطعن وللضـرب واسـتعدوا

للدفاع عن دينكم ووطنكم واجمعوا أمركم للـذب عن مـوردكم وعطنكم وحيث إنما في بيت المـال من النقـود لا يفي بنفقـات الحـرب ولوازمهـا فقد تعين عليكم أن تفرضوا أنفسكم ومن يليكم إعانة جهاديـة وسـارعوا بالحضور إلى المدينة فأنني انتظركم فيها ووطدوا طريق الراحـة والأمن في سائر أعمالكم على الوجه الذي أكون بـه مطمئن البـال واعلمـوا أن نجاح موقوف على إخلاص النية فوجهوا قلوبكم إلى الله تعـالى واطلبـوا منهم تأييد كلمته وتشييد أركـان دينـه بكم والسـلام عليكم ، قـال بالمـار وغيره من مؤرخيه الإفرنج من اطلع على هذا الإعلان وغيرة من إعلانات الأمير علم ان ما ينسبه أصحاب الأهواء الأمير من أنه أشهر الحرب بغتة ولم يعلنـه بالوجـه المعتـاد بين الملـوك غـير مصـيب في دعـواه ومن المعلـوم عـدنا إن هـذه النسـبة الحائـدة عن طريـق الصـدق دنت من المارشال فالا وحدة وذلك انه لم يـرد الجـواب في وقتـه المطلـوب إلى الأمير عبد القادر ولا نبه على الفرنسـاويين المقيمين في سـهول متيجـه وغيرها ليأخذوا حذرهم ثم لما أصابهم بعـد ذلـك من الوبـال مـا أصـابهم أشاع هذه النسبة ليتنصل من عهده ما وقع فيه وفي الحقيقة انـه وصـله إعلان الأمير فأنه لما قـال عليـه الانتظـار لـرد الجـواب علم أن أعـراض المارشال عنه دليل على عزمـه على الحـرب فكتب إلى خلفائـه وسـائر أعيان رعيته في أمر الحرب وأمرهم بالاستعداد لها كما تقدم وعلى ذلك فلا اعتراض على الأمير مطلقاً انتهى .ولما شاع خبر الإعلان بالحرب بـه الركبـان وتحقـق حـاكم الجزائـر وحـاكم وهـران بـاقتراض وقت الـنزال ومقارعة النصـال بالنصـال تحـيروا في أمـرهم وخـافوا من رجـوع بغيهم عليهم وليس عنـدهم إذن من دولتهم في فتح بـاب الحـرب ثم أن حـاكم الجزائـر بعث ابن دران إلى الأمـير واصـحبه بكتـاب والأمـير وقت إذ في المديــه ينتظــر وصــول الجيــوش إليــه وملخص كتابــه على مــا ذكــره مؤرخوهم إنني لم أزل أحافظ على السلم وقد قدمت رسالة إلى الدولة

ومنتضر جوابها فأصبر قليلاً وإنني أرجو تسوية القضـية بيننـا بمـا يرضـي ولا يخفى أن غوائل الحرب عاقبتها وخيمة . واتفـق أن الأمـير كـان وقت وصول ابن دران إلى المدية في مجلس الشـورى فلمـا بلغـه خـبره أمـر بإحضاره وأعطى الكتاب إلى الأمير فقراه على أهـل المجلس وأمـر ابن دران أن يتكلم بمـا عنـده من الأخبـار فلمـا سـمع أهـل المجلس كلامـه وفهموا منه مرام مرسله أعلنوا له بما وقـع عليـه الاتفـاق واجتمـع عليـه الرأي من إشـهار الحـرب ودخـول ميادينـه فـراجعهم ابن دران وبين لهم سوء عاقبة ما اتفقوا عليه فقال له الأمير وان يكن الأمر كمـا قلت فأنـه اسهل عندنا من احتمال الإهانات فقـال ابن دران الـذي وقفت عليـه من الأحوال أن الفرنسـيس ليس لهم قصـد في ضـرركم ومـرور ابن الملـك في بلادكم إنمـا كـان على سـبيل التـنزه والتفـرج فعلى هـذا أقـول أن عملهم على هـذه الصـورة لا يسـتدعي الغضـب ولا يوجـد الحـرب وبعـد انفضــاض المجلس انفــرد الأمــير في قصــره فأســتأذن ابن دران في الدخول عليه فأذن له وقرر له ما اطلع عليه من أسرار المارشال وقـواد العساكر الفرنساوية وكشـف لـه الغطـاء عن أحـوال الـوقت ورغبـة في مسالمة فرنسا وقال لا يخفى أن الخصومة لا ينتج عنها إلا ضعف القـوى على أن لا أرى الحرب يوافق أحوال سموكم فقـال لـه الأمـير أني اعلم هذا ولكن إذا كنت الرعايا تطلب وآذائها اتفقت عليها فماذا أصنع لا سيما والفرنسيس عملوا ما يواجهها ومـع هـذا سـأعقد مجلس الشـورى مـرة أخرى وأفاوضهم في هذا الأمر وفي اليوم الثـاني أمـر باجتمـاع المجلس وإحضار العلماء وقواد العساكر ورؤسـاء القبائـل وبعـد أن جلس النـاس على حسـب مـراتبهم قـال لهم الأمـير بـالأمس قـد بينت لكم الأحـوال وأعربت لكم عن حركة الجيش الفرنساوي وتعدية على الحدود ومـروره في بلادنا من غير علم منا وعرفتكم غوائل الحرب ومن المعلـوم أن فتح بابها سهل ولكن الدخول في ميدانها صعب وحيث أنـني رأيت اضـطراب

رأيت اضطراب رأي بعضكم بالأمس جمعتكم اليوم فأنظروا في أمــركم وأظهروا ما تغربون فيه بعد إمعان النظـر وإني اطلب من اللـه التوفيـق لما فيه عز الإسلام وصلاح الأمة فأطرق القوم ملياً ثم قالوا بلسان واحد أن الموت أهون من العار وهدم أساس شـرفنا نقـد وافقنـا الفرنسـيس على ما طلبوه منا أولاً وثانياً في معاهدة الجـنرال دي ميشـيل ومعاهـدة الجنرال بيجو وحملنا أنفسنا ما لا تطيقه والآن لما تجاوزوا حدودا ارتضوا ما جـرى الصـلح عليهـا فلا بـد أن يكونـوا قـد قصـدوا باعتـدائهم هـذا أن يستولوا على بلادنا ويستعبدونا ودون ذلك بذل أموالنا وأرواحنا فلا عدول عن الحـرب والنصـر مطلـوب من اللـه القـادر الـذي لا نقاتـل إلا لإعلاء كلمتـه فلمـا سـمع الأمـير كلامهم قـال حيث أنكم تريـدون الحـرب ولا محيص عنها فأعلموا أنـني لا أتـأخر عن إعلانـه مـرة أخـرى وهي المـرة الأخيرة ومعاذ الله أن أتخلف عن الجهاد بل سأكون فيـه بحولـه وتعـالى وقوته أمـام صـفوفكم غـير أن ولي حقـاً عليكم وهـو أن تعطـوني عهـداّ وميثاقاً على الطاعـة وبـذل النصـيحة وأن لا تسـلكوا معي ولا في سـائر أمور الدولة والملة سبيل الخيانة والغدر وان لا تولوا الأدبار يـوم الزحـف وان لا تتخلفوا عن الجهاد والذب عن الدين والبلاد عند مـا أطلبكم لـذلك فأجـابوه إلى مـا أمـر بـه وحـالفوا لـه عن ، أخـرهم ونص يمينهم ، باللـه العظيم منزل القرآن على نبيه الكريم أنا لا نخون حضرة سـيدنا ومولانـا ناصر الدين سيدنا عبد القادر بم محي الدين ولا نسلك في طاعته سبيل الغش والخديعة ولا ظاهرا أولا باطنا لا سرا ولا جهرا وإننـا لانتـا خـر عن صفوف الجهاد بـل كلنـا يقاتـل لآخـر حياتـه وإننـا نبـذل أموالنـا وأرواحنـا لحماية ديننا ووطننا ابتغاء لمرضاة الله ورسوله وبعد أن قر القــرار على إشـهار الحـرب صـدر من المجلس الإعلان بـه على الطريقـة المعتـادة وصورته . بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمـدا وآلـه وصحبه وسلم تسليما الحمد لله الذي انزل في كتابه المبين وفضل اللـه

المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما والصلاة والسلام على نبيه القائل الجنة تحت ظلال السيوف وعلى آله واتباعه الذين قاتلوا في سبيل اللـه ألوفا بعد ألوف وصفوفا بعد صفوف أما بعد فـان الفرنسـيس المعتـدين على البلاد الإسلامية بعد ما عاهدناهم وسلمناهم نكثوا وجـالوا في بلادنـا وعـاثوا ومن نكث على نفسـه ومن المعلـوم إن التهـاون في مثـل هـذا والإغضاء عنه يزيدهم طغيانا واعتداء علينا فلذلك قد اجتمعنا في مجلس عال بحضـور سـيدنا ومولانـا المفخم ناصـر الـدين عبـد القـادر بن محي نصره الله لأجل المـذاكرة في هـذا الأمـر المهم والخطب الملم فوفقنـا الحق تعالى جل جلاله ألهمنا جادة الصواب واتفقت كلمتنا واتحدت آراؤنا على إعلان الجهاد والقيام بواجبه على اكمل استعداد وقد بايعنـا حضـرة أميرنا على الوفـاء بواجبـات الجهـاد الشـرعية وعقـدنا على الصـدق في ذلك النية وحررنا هذا الصك ليكون شاهدا علينا فيما ذكرناه فـأجيبوا أيهـا المؤمنون داعي الله وانفروا خفافا وثقالا إلى ما دعـاكم إليـه ومن تـأخر منكم إثمه على نفسه كما إن لومه فيمـا يحـل بـه من العقوبـة الأميريـة عليها .

ومن الله نستمد العناية وهو ولي الهدايـة . حـرر في اليـوم الحـادي عشر من رمضان سنة خمس وخمسين ومـائتين . والسـادس عشـر من كانون الأول سنة تسع وثلاثين وثلاثمائـة في الـديوان الأمـيري العمـومي المنعقد في مدينـة المديـة المحميـة . ثم ختم على هـذا الصـك الخلفـاء والعلماء ورؤساء القبائل وبعد تسجيله قدم لا عتاب الأمير فـأمر بتحريـر الكتاب النهائي إلى المارشال حاكم الجزائر ونصه :أما بعد فقـد وصـلني كتابكم صحبة الموسوي ابن دران أحاط علمنـا بمـا فيـه وقـد كنت كتبت إليكم من مدة خمسة عشر يوما مـا فيـه الكفايـة والآن أعـرفكم تعريفـا نهائيا إن سائر أهل الـوطن اتفقت كلمتهم واجتمـع رأيهم على اسـترجاع شرفهم بالحرب لأنهم رأوا تجـاوزكم الحـدود المعينـة في معاهـدة تافنـا

مبطلا ناقصا لساسها وأما أنا فقد اجتهدت نفسي في تغيير آرائهم وصدرهم عن قصدهم فلم يجد ذلك نفعا بل زادهم هياجا ورغبة في إشهار الحرب وجعلوا العهدة في تأخيره علي وحدي فبناء على ذلك اعلموا إنني ما خنت ولا نكثت عهدي معكم وإنما ذلك كان منكم لا مني فأذنوا لوكلائي عندكم في تعجيل الأوبة إلي وبالله المستعان .

وبعد مسير ابن دران إلى الجزائر اقبل الأمير إلى ما كان عليه من إعداد المهمات الحربية وبث الدعاة إلى الجهاد في سائر النواحي فاقبل الناس إلى الثغور وسارعوا إليها وفي أيام قلائل امتلأت بهم الأغوار والنجود وجرى ترتيب الكتائب على اكمل وجه وظهر من انقياد الرعية للأوامر الأميرية وخضوعهم لما ما شاع في الأقطار وحدا به حادي القطار قال مؤرخهم ولما استقر رأى الأمير على الحرب صدرت أوامره بالزحف إلى البلاد التابعة لدولة فرنسا من كل جهة فهرع الناس من كل فج عميق وتسابقوا نحوها من كل بلد سحيق امتثالا لأمر الأمير واغتنما لطاعته وما كان في يد الفرنسيس حينئذ من الأرض لا يتجاوز الشطوط البحرية ولما انتهت المراجعات ورأى حاكم الجزائر إن تدارك الآمر قد فات وقته وعلم انه لا محيد له عن الحرب جمع أعيان مجلس الجزائر و أطلعهم على مكتوب الأمير الذي جاء به ابن دران واظهر لهم الآسف على ما فاته من تدارك أمره مع الأمير الذي طالما دعاه إلى المسالمة والبقاء على ما انعقد عليه الصلح في معاهدة تافنا فلم يلتفت إليه ثم جمع قواعد العسكر وفاوضهم في أمر الحرب وأمرهم باختبار الجيوش وعرضها وتدريبها واخذ الأهبة للزحف إلى البلاد الإسلامية وقال لهم إن أول ما تؤمرون به أنكم تقصدون المدن الكبيرة ومتى حصل الاستيلاء على مدينة منها وجب عليكم إن تقيموا فيها ثم رتب لهم طرقا ووجوها لتبليغ الأخبار الحربية إليه وكذلك الأمير جمع رؤساء جيوشه المدربة والمتطوعة وأمرهم بالزحف إلى الأماكن التي يوجد فيها عسكر فرنسا

وأمــرهم بــالهجوم على الحصــون واســتعمال التوريــة في الســير إلى الجهــات وعين لهم من يبلــغ أخبــار كــل فرقــة إلى الأخــر ورتب بريــدا مخصوصا به يبلغه أخبار سائر الفرق .^ ذكر

بدئ الحرب أول سرية كانت باكورة الحرب سرية حجوط وذلــك إن الأمير أمر قائد هم بالغزو على ما يليــه من ارض العــدو فســار بهم ولمــا تجاوز نهر الشفة الذي كان يعتبر حدا في أيــام الصــلح شــن الغــارة على قبيلة أولاد غانم الدائنين بطاعة فرنسا فغنم سائر ما يملكونه من ماشية ومتاع وفي رجوعهم لقيهم حشد من المنتصرة نصرة لهم من أهــل تلــك الجهة فناوشوهم القتال فانكسرت المنتصرة وقتل قائد هم وانقلب قائد حجوط بالغنائم إلى بلاده وقسمها في قومه وهذه الوقعة كــانت مقارنــة لوصول وكلاء كل فريق إليه ولمــا اتصــل خبرهــا بحــاكم الجزائــر امتعض لذلك وجهز فرقة من جيشه وبعثها لقتال حجوط فاتقوها عند نهر الشفة وانتسب القتال بين الفريقين ولحــق بكــل منهمــا أضــرار تســتحق الــذكر ورجع عسكر الفرنسيس إلى الجزائر بلا طائــل وبعث الحــاكم إلى وزيــر الحــرب بــالخبر وذكــر لــه مــا ســيتبع هــذه الوقعــة من النــوائب وطلب الإسعاف بالعساكر والذخائر . ذكر غزوة متيجة

ولمــا فــرغ خلفــاء الجهــة الشــرقية من اســتعداداتهم أمــرهم الأمــير بالغزو على متيجة وما إليها كل منهم مما يليه وكان مسيرهم جميعــا في اليوم الرابع والعشــرين من رمضــان وأول يــوم من ديســمبر وكــانت مــد اشر الفرنسيس التي اختطفوها مالئة لذلك السهل الممتد شــرقا وغربــا ومسيرة أيام ولما قربوا من تلك البسائط شنوا الغارة عليها فاثخنوا في ساكنيها بالقتــل والآســر والســبي واكتســحوا أمــوالهم وحطمــوا زروعهم واحرقوا ســائر مــدا شــرهم وأبــنيتهم على كافــة مــا عنــدهم من ماشــية وأثاث وذخائر ولم ينج من القتل في جميع جهات متيجــة إلا مــا نــذر ولم تزل جيوش المسلمين تجدد الغارة إلى التوالي يوم فيوما إلى أن انتهــوا

إلى بساتين الجزائر وضـاق الفضـاء على مـا اسـتولوا عليـه من صـنوف الغنائم قيل إن هذا الهجوم كـان مهـولا لم يسـبق لـه نظـير لان عسـاكر الأمير بمجرد هجومها أفنت سائر من كان موجودا من الفرنســاويين في سهل متيجة نفذ ما كان عندهم من سلاح وذخائر ومهمات ومــا يملكونـه من أصناف الحيوان ثم صدر أمـر الخلفـاء بحـرق سـائر الأبنيـة في تلـك البسائط فأمست رمادا تذره الرياح وفر الناس أمامهم أفواجا إلى مدينة الجزائر فكان دخـولهم إليهـا من الأمـر المزعجـة فـرجفت قلـوب أهلهـا عموما حتى المارشال فأنه انتقل من قصره خارج البلد إلى داخلها وتبعه من كان ساكنا في البساتين وعم الرعب سائر القلوب ثم رجـع الخلفـاء بجيوشهم وما في أيديهم من الغنائم إلى المدية لان الأمير كان ينتظرهم فيهـا ثم توجـه الخلفـاء إلى ولايـاتهم لسـد تغـورهم والقيـام بشـؤونهم لعلمهم إن العدو لا يتغافل عن هذه الوقعة الهائلة قال المـؤرخ وبعـد أن وقع في سهل متيجـة أرسـل المارشـال فـالا يخـبر دولتـه بهـذه الغـزوة الإسلامية التي أخافت العموم والجات الجيش الفرنسـاوي إلى التحصـن بأسوار مدينة الجزائر . ذكر وقعة آبي بخير ووقعة بوفاريك

في الخامس والعشريني من شوال سـنة خمس وخمسـين ومـائتين وثاني يوم من يناير سنة أربعين وثمانمائة التقى جيش جحوط مـع جيش العدو على نهر أبي بخير من مدن بـني يـراتن من زواوه وانشـب بينهمـا قتال تكافأ فيه وخرج جيش آخر من بوفاريك حصن في ضواحي الجزائر قاصدا إلى البليدة فزحف إليه المسلمون والتقى الجمعان بـالقرب منهـا وأشتد القتال بينهما وبالعشي ألح المسـلمون على العـدو وحملـوا عليـه حملة رجل واحد فرجـع القهقـرى ثم جمـع أمـره وهجم على المسـلمين فأنكشفوا ثم قلبوا الكرة عليه وصدقوه القتال فتقهقر ثم حال الليل بين الفريقين وفي اليوم الثـاني خـرج جيش من البليـدة مـددا للعـدو فتمكن بهم من دخولها . ذكر غزوة مستغانم

وفي الثامن عشر من ذي العقدة والرابع والعشرين من ينـاير خـرج خليفة معسكر غازيـا على نـواحي مسـتغانم فعـاث فيهـا وحطم زروعهـا واثخن بالقتل والأسر ونازل مزغران وأخذ بمخنقها وقطع عنها المدد من مستغانم ثم بعد مدة جاءها المدد من وهران تقوية لحمايتهـا ولمـا طـال الأمر خرج الخليفة عنها على نـواحي وهـران فاستأصـل عـددا كثـيرا من المرتدين المقيمين في ضاحيتها وأكتسح أموالهم وأرهب العد وثم انقلب راجعا إلى حاضرة ولايتـه وطـير الخـبر إلى الأمـير بـذلك وبهـذه الوقـائع المتتابعة امتلأت قلوب الفرنسـاويين رعبـا وبعثـوا صـريخهم إلى دولتهم فأنجدتهم بعشرين ألف مقاتل وذخائر حربية وكراع للنقل وبهذا العدد تم عندهم ستون ألف جندي على ما ذكره روا في تاريخه . ذكر

خروج حاكم الجزائر إلى المدية وصده عنها وفي السابع والعشـرين من ذي العقدة من فبراير سنة ألف وثمانمائـة وأربعين خـرج المارشـال فالا بجيش كثيف من الجزائر إلى البليدة ومنها قاصدا المديـة فأعترضـه خليفـة ميبانـه بمجموعـة وناشـبه الحـرب وأشـتد القتـال بينهمـا ثم وقـع الفشـل في حشـود الـبربر فأنكشـفوا وثبت الخليفـة في الجنـد المنظم فكـأثرهم العـدو وزحـزحهم عن مصـافهم وكـثرت القتلى والجـرحى في الفريقين واتصل القتال يوما كاملا وفي الغد اصبح المارشـال راجعـا إلى الجزائر . ذكر

مسـير الفرنسـاوية إلى مرسـى شرشـال وفي الحـادي عشـر من المحرم سنة ست وخمسين والسادس من مارس سنة ثمانماية وأربعين خرج المارشال فالا من الجزائر إلى شر شال وهي أسلكة صـغيرة على مرحلتين من الجزائر يسكنها قليل من الـبربر وكـول ارغلان ولم يحتفـل الأمير بها لأنها قريبة المأخذ للعدو ولما توسط المارشـال الطريـق إليهـا اعترضته القبائل القريبة منها وأوقفوا حركته أياما عديدة مع كثرة جيشه حتى أنه هم بالرجوع عنها قال بعضهم خـرج المارشـال من الجزائـر في

جيش كثير العدد متوجها إلى شر شال وبعد صعوبات وخسائر كثيرة دخلها ورتب فيها حامية كافية . ذكر

وقعة موزايه وفي الثامن والعشرين من المحرم والثاني من ابرل وصلت النجدة إلى الجزائر من فرنسا ووصل الدوك دومال أبن ملك فرنسا ومعه شقيقه الدوك دورليان فنشط الفرنساويون في الجزائر من عقالهم وفرح المارشال فالإثم اعتزم على السير إلى المدية حاضرة تبطري فخرج في أثنى عشر ألف جندي وطار الخبر إلى الأمير وهو في المدية نعرض عساكره وسار إلى مضيق موزا يه وكان رتب الجيوش فيه كما رتبها في غيره من المعاقل والمضايق التي في طرق العدو إلى الداخلية ولما انتهى العدو إلى ثنية موزا يه في التاسع من ربيع الأول والحادي عشر من أيار أعترضه الأمير في العساكر الإسلامية وضرب على مضيقها المصاف وأضرم على العدو نار الحرب وفي آخر النهار رجع المارشال القهقرى وارتد في عساكره وبات كل فريق في موضعه الذي أدركه الليل فيه وفي بكرة اليوم الثاني تجددت الحرب واشتد القتال وكان الدوك دورليان في مقدمة المارشال فكان كثير الوبال على جيشه ثم اجتمعت صفوف العدو والتحم بعضها ببعض وحملت على المضيق حملة رجل واحد فتوسطوه وانثالت العساكر الإسلامية عليهم من كل جهة واختلطت بهم وتقاتلوا بالسيوف والحراب وصبر العدو إلى أن خرج من ذلك المعقل الشديد واتصل الحرب في هذا النهار إلى الليل وفي اليوم الثالث ارتحل وسلك طريق المدية وأحاط به المسلمون يناوشونه القتال يدافعهم بإطلاق المدافع عليهم وكلما وصل إلى مضيق أو حرش من الأحراش يخرج له كمين يمنعه من التقدم فتارة يتقهقر ويرتد أوله على آخره وتارة يقف في موضعه ويرتب جيشه في صورة قلعة يحيطها بالمدافع ويبيت أو يظل على تلك الهيئة ثم يرتحل وهكذا دابة في جميع مسيره ولما قرب من المدية

اشتد عليه الحال وتكـاملت الجيـوش والحشـود الإسـلامية وحملت عليـه وتفاقم الأمر قال بعض مؤرخيهم فكان إطلاق النار مستمرا متصلا حـتى لاح للناظرين وقتئذ كأن تلك البقعة بحر من الكبريت الملتهب نـارا ولمـا رأى الأمير قرب العدو من المدينة أمر بإخلائها فخرج أهلها بما خـف إلى الجبال القريبة منها وتخلص العدو إلى المدية فوجدها خالية تتـأجج النـار في منازلها وكان دخوله إلهيا في الخامس عشر من ربيع الأول والثـامن عشر من مابة وبعد أن رتب فيهـا حمايـة تقـرب من خمس آلاف مقاتـل ارتد راجعـا ولم يـزل في طريقـه في قتـال ودفـاع إلى أن وصـل قـرب البليـدة وأمـا حاميـة المديـة فأنهـا أمسـت يـوم خـروج المارشـال منهـا محصورة لان الخليفة السيد محمد البركاني نازلها بالجيوش وقطع جميع ما تتمتع به وكانت هذه الوقعة أيام الصيف فنال الحامية من شـدة الحـر وضيق الحصار ما مزيد عليه وآل الأمر إلى تلف الجل منهـا ذكـر روا في تاريخه ما ملخصه سار المارشـال فـالا في أثـني عشـر ألـف مقاتـل من عساكر فرنسا ومعه الدوك دومال وشقيقه الدوك دورليان اللذان حضرا من بـاريس ليشـتركوا معـه في هـذه المحاربـة وقصـدوا في مسـيرهم مضيق موازيـة ليتوصـلوا معـه إلى المديـة فأتصـل خـبرهم بـالأمير عبـد القادر فسد في وجـوههم المضـيق بالعسـاكر العربيـة ورتب كمـاين في أماكن كثيرة في طريقهم فكانوا كلمـا سـاروا مرحلـة صـادفوا مصـادقة قوية ومهاجمة لم تكن منهم على بال فتارة ويضطرون للتـأخر إلى وراء وتارة يحـوجهم الأمـر إلى التوقـف عن المسـير وهكـذا في كـل مرحلـة قطعوهـا حـتى كـادوا يفقـدون قـوتهم بالكليـة .ثم إن المارشـال وأولاد الملك أتـوا من الرجـوع على هـذه الحـال فصـبروا على مقاسـاة نـيران الحـروب العربيـة وعنـد وصـولهم إلى مضـيق مـوز ايـه صـادفوا مـابهر عقولهم من المقاومة الشديدة وكـان الأمـير وجيوشـه على رؤوس تلال محصنة بمتاريس طبيعية من الفجر الصلب ولما أخـذت عسـاكر فرنسـا

تمر في المضيق انقضت عليها جيوش الأمـير والتحمـوا بهـا وأتصـل هـذا بهـذا وصـاروا إلى المقارعـة والمصـارعة فتخلص الـدوك دورليـان من المضـيق بفرقتـه بعـد أن فقـد أكثرهـا وهـان الأمـر على من وراءه من الجيوش الفرنساوية ثم رجـع المارشـال وأولاد الملـك بجنـودهم بعـد أن تركوا لحماية المدية خمسة آلاف عسكري مـع مـا يلـزمهم من الأقـوات والمهمات وصادفوا في طريقهم أهوالا يقشعر الجلد عند ذكرها لا سـيما في مرورهم في وادي الزيتون وشـعراء تلـك الجبـال الصـعبة المسـالك وفي إثناء طريقهم أقاموا أيامـا لراحـة الجنـد ممـا قاسـوه من المشـاق الهائلة التي لا يمكن لمؤرخ أن يصفها ولو تقريبا وفي مـدة إقـامتهم في ذلك الموضع اعتزموا على السير إلى مليانـه وقتـل الـدوك دورليـان ابن الملك في إحدى هذه المعارك فشاع الفرنساويون أنـه وقـع من العربيـة فمات وقد بلغني أن تلـك المعركـة مصـورة مجسـمة في سـاحة وسـط مدينة الجزائر . ذكر

مسير الفرنساوية إلى مليانة وبعد وقائع موزايه والمدية توجه الأمير إلى مليانة لمـا كـان يتوقعـه من قصـد العـدو إليهـا ولمـا أتصـل بـه خـبر مسيرهم في طريقها أمر أهلها بالجلاء عنها كما فعل في المديـة فخـرج الناس بما تيسر حمله من أثـاث وأمتعتهم خاليـة ثم أن الأمـير والخليفـة السيد محمـد بن علال جمعـوا جيوشـهم مـع العسـكر النظـامي والتقـوا بالعدو في طريقه وإذا قوة حرارة الحرب ومرارة القتال فلم يصده ذلك عن قصده ولما قرب منها حمل عليه المسلمون حملة ما سبق له مثلهـا منهم وأتصل ذلك كاملا وفي الغد أصبح سائرا والمسلمون يلحـون عليـه في القتال ولم يصدهم عنه تتـابع الكلـل المرسـلة عليهم كمـا إن العـدو ولم يصده إلحاحهم عليه وسد الأودية والمضـايق في وجهـه حـتى وصـل إلى بساتينها فهجموا عليه واختلطوا به وثـار الغبـار وأظلم الجـو حـتى لا يكاد يتميز العدو من الصديق وأظهر المسـلمون من الشـجاعة والأقـدام

مـا أذهـل عقـول الفرنسـيس وغـيرهم عن أنفسـهم حـتى كـان بعضـهم يضــرب بعضــا وهم لا يشــعرون ولمــا كــان القــدر الإلهي مســاعدا لهم اقتحموا هذه الشدائد وتخلصوا إلى المدينة فدخلوها في التاسع من ربيع الثاني والحادي عشر من بونيه وبعد أن أقاموا فيها أياما رتبوا فيها حامية كالمديـة ورجعـوا إلى الجزائـر واكتنفتهم الجيـوش الإسـلامية وأذاقـوهم نكال الحرب واشتد بهم الأمر قال مؤرخهم وتركـوا جرحـاهم ومهمـاتهم في يــد عــدوهم ومــا وصــلوا إلى البليــدة وإلا وهم على آخــر رمــق ولا استطاعوا أن يسيرو منها إلى الجزائر إلا بعد أن جـاءهم منهـا وأمـا تلـك الألوف التي خرجوا بها فقد آتى التلف عليها ألا شرذمة قليلة تخلصوا بها إلى البليدة ورأيت في تاريخ فاليلوت الفرنساوي كتب بيجوان المارشال فالا فالا في أثناء هـذه الحـروب كتب إلى قبائـل تلـك النـواحي يـدعوهم لطاعة الدولة الفرنساوية ولم يتعرض لنص المكتوب وإنما ذكر الجــواب وملخصه من عباد الله القادر المؤمنين به وبرسـله مبيـد الكفـرة بسـيفه البـاتر الـذين يحـاربون أعـداء اللـه لإعلاء كلمتـه وتعظيم أسـمه القـاهر الخاضعين لأوامر الله وأوامر مولانـا ناصـر الـدين سـيدنا عبـد القـادر بن محي الدين أبدة الله آمين إلى حاكم مدينة الجزائر السلام على من أتبع الهدى أما بعد فقـد وصـلنا كتـابكم المشـتمل على دعوتنـا إلى طـاعتكم والنداء إليها فاخذ بنا العجب وهل في الدنيا ذو عقل سـليم ويتصـور هـذا في فكره فضلا عن كونه يلتفظ به أو يكتبه وكيف نـترك ديننـا الـذي هـو الــدين القــديم والصــراط المســتقيم ونتبــع دينكم الــذي يجب علينــا في شريعتنا إن نقاتلكم حتى نردكم عنه إلى ديننا إما علمتم إن ديننـا مبطـل لسائر الأديان وشريعتنا ناسـخة لكافـة الشـرائع ولـو انصـف علمـاؤكم لا قروا بهذا لأنه مقــرر في ســائر الكتب ألا لهيــه كــالتوراة والإنجيــل ولكن حب الدنيا مع خـوفهم على مناصـبهم عنكم غطى على قلبـوهم وحرفـوا الكلم عن مواضـعه واظهـروا أي منقلب ينقلبـون ثم اعلمـوا إننـا بحولـه

تعالى وقوته لا نزال نحاربكم وندافعكم عن ديننا وأوطاننـا إلى أن تقفـوا على سـوء عاقبـة مـا ارتكبتمـوه من عظم الـذنب وأي ذنب اعظم من تعديكم على بلادنا أولا ثم سعيكم في تغيير ديننا ثانيا أما علمتم إن سائر الأديان والنواميس الأزليـة تـأمر بالعـدل وتنهي عن الظلم والتعـدي على الحقوق كما هو منصوص عليـه في الإنجيـل الـذي أنزلـه اللـه على نبيـه ورسوله سيدنا عيسى على نبينـا وعليـه الصـلاة والسـلام فلـو كنتم على دينه كما تدعون ما قطعتم البحر إلينـا لتأخـذوا بلادنـا وتغـيروا ديننـا فمـا نسبتكم من دين الله ورسوله الثرى من الثريا وبالجملة وبالجملـة فنحن لا نترك ولا نتخلى عن طاعة مولانا وأميرنا وسيدنا عبـد القـادر ابن محي الدين والله تعالى يقضي بيننا وبينكم بما شاء فان الأرض أرضـه والملـك ملكه ونحن عبيده يفعل فينـا وفيكم مـا يشـاء ويحكم مـا يريـد حـرر في سابع عشر ربيع الأول سنة سـت وخمسـين ومـائتين وألـف من الأعيـان والأكابر والأغوات والقـواد في ولايـتي فيطـرى ومليانـه . ثم قـال وكتب لهم مرة أخرى وجعـل مـدار مـا كتبـه على أمـر الأسـرى الـذين هم في قبضته من العرب وملخص جوابهم .إلى حاكم الجزائـر السـلام على من أتبع الصراط المستقيم والدين قد وصـلنا مكتـو بـك وفهمنـا مـا اشـتمل عليه من كونك جعلت الـدعوة إلى الخضـوع لـدولتكم مبنيـة على إطلاق الأسرى منكم وعندكم أسـرى منـا فـأن شـئتم الفـدا فلا بـأس وان أبيتم ذلك فأن الأمة الإسلامية لله الحمد كثيرة العـدد وافـرة المـدد والأسـرى منهم لا يزيـدون في عـددكم ولا ينقصـون في عـددنا وأمـا إجـراء الوجـه الـذي ذكرتمـوه فـأن دونـه خـرط القتـاد وسـوق الأجنـاد بـل لا نقبـل أن نسـمعه وكيـف خطـر هـذا في أكـاركم أم كيـف تخيلتم إننـا نخضـع لكم ونـدخل في طـاعتكم لأجـل خلاص أشـخاص عـددهم من الخمسـين إلى المائة مع دعواكم قوة الفطنة والذكاء وجودة الرأي وان اغتررتم بأحوال القبائـل في نـواحي قسـنطيته من كـونهم لبـوا دعـوتكم وأسـرعوا إلى

الـدخول في طـاعتكم فمـا ذلـك إلا لضـعف دينهم ومـرض قلـوبهم بـداء النفاق واستيلاء الجهل على كبيرهم وصغيرهم أما نحن فلســنا مثلهم ولا تر فما منا بحوله تعـالى وقوتـه إلا مـا يخـرج من أفـواه البنـادق وتفعلـه السيوف عند التحام الصفوف لا سيما وقد اتفق الآن سائر أهـل الـوطن على تأييد كلمة الإسلام والذب عنها على الـدوام إلا إذا شـاء اللـه خلاف ذلـك فلا راد لقضـائه وقـولكم إنكم ابتـنيتم في جهـة بـني صـالح قلاعـا محصنة أردتم بها إيقـاع الـرعب في قلوبنـا فهـذا لا يـؤثر فينـا ولا يـوهن عزمنا وقد سبقتم لمثل هـذا في المديـة ومليانـة وشـحنتموها بالعسـاكر والذخائر ولم نهتم بشـيء من ذلـك بـل رأينـاه من سـوء التـدبير وقـبيح النظــر كــأنكم أردتم بأولئــك المســاكين ســجنهم أو قصــدتم نفيهم أو جعلتموهم وليمة للموت ولذلك إننا نرى كـل يـوم يتهيـأ منهم عـدد وافـر على مائدتها ونرى أفواجا يفرون إلينا صارخين برطـانتهم بمـا تبـا معنـاه الجوع الجوع فنرحمهم جريا على عادتنا من السـفقة على أمثـالهم ومن بقي منهم في داخل المدينتين فهو محصـور مقهـور هكـذا يكـون نصـيب عساكركم منكم ومع ذلك فأنكم تخـدعون ضـعفاء العقـول منـا بالأمـاني الكاذبة وأما وعيدكم لنا وتهديدكم بالاستيلاء على بلاد موزايه وبني صالح فإننـا لا نعـيره إذنـا سـامعة وأهـل البلاد أينمـا تواجـدوا يتيسـر لهم أمـر معاشهم فأن أرض المسلمين واسعة شاسـعة الإطـراف وفيمـا الكفايـة لهم ولغيرهم وعلى كل حـال فلا شـرف لكم في التغلب على عبـاد اللـه وإنمـا الشـرف والفخـر في عمـران بلادكم الـتي نشـأتم فيهـا خلفـا عن سلف وفي إقامة قسطاس العدل واستعمال مكارم الأخلاق وأما أفعــال كهذه فلا شرف فيها وقولكم اخبرونا عن أحوال المغـرب فلا خـبر عنـدنا إلا الحث على الاستعداد للجهاد فيكم والتواصي بالصـبر على قتـالكم ولا نعلم من أنفسنا إلا إننا نؤمن باللـه تعـالى وبرسـوله إلينـا وان لنـا أمـيرا مسلما شريفا من ذرية رسول الله صلى الله عليـه وسـلم عالمنـا عـادلا

وإننـا لا نفعـل إلا مـا أمرنـا بـه على وفـق ديننـا وشـريعتنا وإننـا لانغـتر بمواعيدكم ولا بكلام الذين خالفوا الأوامر الإلهية من أبناء ملتنـا ليعيشـوا عندكم في راحة حسبما وعدتموهم من قـوة الدولـة الفرنسـاوية فأنـا لا نعرفه وإنما المعلوم عنـدنا والمحقـق لـدينا هـو عظيم قـوة اللـه القـادر سبحانه وتعالى ذكر

أحوال الفرنساوية بعد الحروب السابقة كان المارشال فالا يظن أنه متى استولى على مـدينتي مليانـة والمديـه تنقـاد لـه القبائـل وتمتـد لـه الطاعة في تلك النواحي فبدا له من الله ما لم يحتسب ولم يحصل على طائل فيما كان يتمناه من الفخر وتخليد الذكر عند دولتـه وآل أمـره إلى العزل والتوبيخ على سوء سيرته وقبيح سياسته ومـا أرتكبـه من تطـويح عساكرها في مهاوي الهلاك فيمـا بين مـدينتي مليانـه والمديـه والجزائـر وما لحتها في تلك الأودية الوعرة والجبال الصعبة المسالك من الشـدائد التي كادت تأتي على آخرها وقد ظهر لي ان أذكر هنا مـا ذكـره فـاليوت كاتب المارشال بيجو في تاريخه نقلا عن بعض القواد الذين حضروا ذلك وعاينوه بل ذاقوا مرارته وتكبدوا مشقته واقروا به ولم تحملهم العــداوة على كتمانـه ولا دعتهم الحميـة إلى موافقـة حـاكمهم في كذبـه وبهتانـه فقال مـا ملخصـه اجتمعت في الجزائـر ببعض قـواد جنودنـا الفرنسـاوية فأخبرني بجميع ما شاهده وحضره في بلاد العـرب فقـال إنـني في مـدة الشهر الأول من إقامتي في بلاد الجزائر شاهدت سوء حال الفرنسويين وعاينت الشدائد التي كانت تحدث يوميا ورأيت ارتباك الحاكم العــام في تدبير سياسته التي بلغ فيها إلى مركز صعب لان أمره كان يقضـي عليـه في كـل وقت وأن يبعث نجـدات وذخـائر ومهمـات حربيـة إلى العسـاكر التي وضعها في المديه ومليانه وهذا لاتصل يـده إلى ذلـك في كـل وقت لان الجيش الذي عنده في الجزائـر لا يقـوم بـذلك والـذخائر والمهمـات التي أعدها لما هو بصدده نفـذت واحتضـار مثلهـا من فرنسـا متعـذر من

وجوه أعظمها أنه لا يريد كشف الغطاء للدولة عن أموره كلها خوفـا من توجيـه العتـاب إليـه على سـوء تصـرفه فلـذلك رأينـاه في حـيرة دائمـة وارتباك متصل ثم الجاه الحـال إلى إخلاء كثـير من الحصـون الـتي كـان جمـع أيـدي العسـكر على تشـييدها ومن جملتهـا حصـن فـودوك المهم والحـرس الـذين كـانوا فيـه رايتهم على حـال سـود الوجـوه من حـرارة الشمس نحفاء الأجسام من ضنك المعيشة وشدة الأمـراض ولقـد رأيت من فضل منهم عن اتلموت عند ما صدر لهم الأمر بمبارحة ذلك الحصن فرحـوا كثـيرا ثم أن الحـاكم راجـع رأيـه وعين فيـه حاميـة من العـرب الخاضعين له ولما له ولما كانت دواب النقل غـير كافيـة اضـطر الحـاكم إلى اخـذ دواب أهـل الجزائـر ومن خلفي الطاعـة من أهـل ضـاحيتها واستعملها في النقل فصب ذلـك على النـاس وتعطلت أشـغالهم كم أن الجيش لحقه الضجر الشديد من تتابع الأسفار وبـذلك تكـدر مـورد راحـة العموم وصار الجيش يجاهر قـواده بالعصـيان وعـدم الانقيـاد لا وأمـرهم فقام الحاكم لذلك وقعد وتدارك الأمـر في تسـكين روع أهـالي وتطـييب قلوب الجيش ولا طائل تحت ذلـك لان الكثـير منـه قـد مـات بـالأمراض المختلفة الـتي علقت بأجسـامهم وفشـت بين صـفوفهم وفعلت بهم مـا فعلته سيوف العرب ورصاصها حـتى ان حاميـة مليانـه يبـق منهـا سـوى اثني عشر عسكريا ثم أزمع الحاكم على المسير بنفسه لتبليـغ الـذخيرة إلى المديه فخرج في فرقتين من الجيش وكنت أحد القواد فيهـا واخـرج معه عددا كثيرا من الدواب وعجلات النقل مشحونة بالذخائر والمهمـات وخروجه كان في صورة غير منتظمة لسآمة العسـكر وسـائقي العجلات والـدواب وذلـك لكـثرة مـا تكبـدوه من المشـاق المتواليـة فكنت أراهم مظهرين الغضب والحنـق على الحـاكم ومن كـان على رأيـه من القـواد وكانوا لا يتحاشون ألفاظ السب والشتم بلغاتهم المختلفة ثم وصـلنا في مساء ذلك اليوم إلى الدويرة وهي قرية صغيرة على مرحلة من الجزائر

فيها فندق فدخلته فإذا هو مظلم وفي صباح اليوم الثاني اتحلنا وبعــد أن قطعنــا مســافة قليلــة وصــلنا إلى قريــة بوفاريــك ثم ســرنا إلى البليــدة فوصلناها عند الزوال وهي بلدة جميلة المناظر خصبة المـزارع وموقعهــا في انتهاء سهل متجـه عنـد الأطلس ماؤهـا عـذب رائـق وحولهـا حـدائق الليمون بأنواعه ومن شدة تعلق أهلها به يغرسونه داخل الـبيوت فكـانت روائح الزهر عند دخولنا إليهـا عاقبـة في أرجـاء المدينـة وضـواحيها وقـد سـمعت ممن لهم خـبرة بـأحوال تلـك البلاد أن هـذه البلـدة آتى عليهـا الخراب مرات عديدة لتوالي الزلازل عليهـا وكـان من جملـة القـواد في عسكر البليدة الجنرال شانكرني والجنرال دوفيفـير وقـد رأيت العسـكر الموجود فيها على غاية الانتظام إلا إن الرعب مع أخذ الحذر في كـل آن اثر في أجسامهم نحولـه وفي وجـوههم سـفرة وفي اليـوم الثـاني ليـوم وصولنا جهز الحاكم ثلاث فرق من حرسها وضمهم إلى فرقته التي خرج بها من الجزائر فسرنا معه قاصـدين المديـه ولمـا وصـلنا جبـال حجـوط وجدنا جموع العرب في الطريـق فانثـالوا علينـا من كـل جهـة وناوشـونا القتال فكنا في مسيرنا على حال الدفاع ولم نتمكن من إطلاق المــدافع عليهم لضـيق المســالك وكـثرة الأحــراش ولمــا انتهى مسـيرنا إلى أول مضـيق وجـدنا فيـه حاميـة من عسـكرنا معهم مـدفعان صـغيران فنزلنـا عندهم ثم أن الحاكم أمر الجنرال شانكرني أن يتقدم أمامه بفرقتــه إلى مضيق موزايه ليكشف له الأحوال هناك فسار قبلنا وســرنا خلفــه وســار الجنرال دوفيفير بفرقته في طريق أخـرى غـير طريقنـا وكـانت جيوشـنا تسير في تلك الأودية الوعرة وحشـود العـرب عن اليمين وعن الشـمال يرسلون علينا رصاصهم المتوالي مثل البرد المسترسـل ومن العـادة أن المدافع تـدحر العـدو وتفـرج كـرب العسـكر ولضـيق الطريـق لم يتمكن الموكلون بها من إطلاقهـا بـل لم يتمكن الواحـد منـا ان يخطـو قبـل أن يخطو الذي أمامه فناهيك بطريق حرج يكتنفها من الجـانبين حائـط عـال

طبيعي من الصخر وبعد بعض ساعات وصـل أول العسـكر إلى المضـيق الأعظم وهو مضيق موزاية الشهير وكان وصولهم إليه في حالـة محزنـة من شدة ما لحقهم من التعب وهناك اجتمعنـا بـالجنرال شـانكرني وأمـا الجنرال دوفيفـير فأنـه سـلك طريقـا أخـرى وكـانت طريقـه أصعب من طريقنا ولم يتخلص منها إلا بعد أن هلك أكثر فرقته لان العـرب أحـاطت بـه جمـوعهم انصـبت عليـه انصـباب الصـخر من أعلى الجبـل إلى قعـر الوادي وضايقته حـتى كـاد عسـكرة أن يلقي السـلاح ويطلب الآمـان ثم صبر ودافع وأخذه القتل من كل جانب ولولا ان العرب لحقهم التعب من تلك الأوعار التي تكبدوا سلوكها لجاؤا على آخـره وبسـبب فتـورهم عنـه انتهز الجنرال الفرصة في التخلص من ذلك المضيق العجيب بعد أن فقد من ضـباطه أربعـة وخمسـون ضـابطا ولم اقـف على عـدد مـا فقـد من العسكر وأما نحن فقد أمرنا الحاكم بالعبور في المضـيق الأعظم كيفمـا كان الحـال فـأجتمع القـواد ورتبـوا الجيش صـفوفا فلم يتمكن لهم ذلـك وجعلوه على صفين متلاصقين كتف هذا عند كتـف هـذا إذ لا يسـع الأمـر أكثر من ذلك واشتعلت نار الحرب بيننا وبين العرب وكان الحـاكم العـام انفرد في بطانته على كثيب عـال على فهم المضـيق ليعـاين منـه مـرور الجيش فكنت أرى الرصــاص يــنزل عليــه وعلينــا كــالمطر وجــرح من أصحابه ثلاثـة وكنت أرى العـرب كالأسـد الضـارية يقتحمـون علينـا تـارة بالسيوف والحراب وتارة يلقون بالصخر القريب منا ويرموننـا بالرصـاص وبهذا كـانت إصـابتهم لجيشـنا أكـثر من إصـابته لهم ثم خرجنـا من ذلـك المضيق إلى سهل الزيتون فبتنا فيه تلك الليلة على آخر نفس من شـدة ما لحقنا من الوبال ونالنا من عظيم الأهوال وفي غد ذلك النهـار ارتحلنـا على طريق المديه والعرب لم تفارقنا طرفة عين بل تسير حوالينــا على حسب سيرنا ولم تفتر عن مناوشتنا مع الصـراخ والشـتم ولم تـزل على ذلك إلى ان انتهينا إلى ساحة المديه فخرج القائد كافيناك منها ملاقيا لنا

فلما رآه الحاكم عجل إليه وعانقه وسأله عن حال الحـرس فأخـذ يصـف له مـا هم عليـه ومـا قاسـته الحاميـة من الضـنك الشـديد ومـا نالهـا من الأمراض التي أفنت كثرها وذكر له أن المدينة لم يبق من عمارتها سوى المساجد المحكمة البنيان وأنه اضطر إلى أن يتخذها مأوى لمرضى وأنه من شـدة الـبرد وعـدم وجـود الحطب أخـذنا أخشـاب سـقوف الـبيوت الفاضلة عن الحريق لسد عوز العسـكر في التدفئـة والطبخ وبالاختصـار كانت تلك الأخبار محزنـة جـدا فأقمنـا تلـك الليلـة للاسـتراحة وفي الغـد دخلنا .

وقدم لنا الحرس بقولا خضراء زرعوها في خرابات البلـد مـع جملـة وافرة من البيض والدجاج الـذي أخـذوه لأنفسـهم وقـاموا بترتيبـه وهـذه البلدة موقعها جميل فهي مبنية على تل كبير ينحني قليلا لجهـة الجنـوب وفيها آثار قلعة قديمة يقال إنها من أبنية الرومانيين ومن حيث أن جموع العرب لا تترك شيئا ينتفع بـه الفرنسـاويون في هـذه المدينـة ولا تتخلى عن حصارها ساعة واحدة كـان من الـواجب دوام إرسـال الـذخائر إليهـا وهذا لا يتأتى الأبعد أتعاب ومشقات شتى لان المقدار من الذخائر الــذي يجب أن تبعث لهذا الحرس في كل مرة لا يمكن أن يكون أقل من ألـف وخمسمائة حمل ولا بد أن يتكرر هذا العـدد أكـثر من عشـرين مـرة في كل سنة والمسـافة من الجزائـر إلى المديـه لا تنقص عن خمسـة عشـر يوما ولا يمكن السير في طريقها إلى مدة الصيف ومع ذلك فأن الأخطار متوالية فأن لم تكن من الأمطار والثبج فمن فرسان العرب وباء على ما ذكرناه فلا بـد أن يـترك الحـرس مراكـزه ويرجـع إلى الجزائـر وإلا فأنـه يبقى فيها أسيرا يـترقب الفـرج من اللـه تعـالى ومن المعلـوم أن سـائر أعمال الجيش الفرنساوي في هذه المـدة انحصـرت في الاسـتيلاء على مدينتي مليانه والمديـه والغايـة المقصـودة من وضـع الحـرس فيمـا هي اتخاذهما مركـزين عظيمين يتمكن الجيش فيهـا من محاربـة العـرب في

جميـع الجهـات الداخليـة ولا يخفى أن الوصـول إلى نتيجـة هـذه الآراء يتوقف على استعمال حزم شديد وساعد من يريد ثم أن الحاكم بعـد أن قام في المديه أربعة أيـام بالاسـتعداد للرجـوع إلى الجزائـر وسـار على طريقه وما سرنا مقدار غارة حتى ظهر لنا نحو ألـف فـارس من العـرب ساكين السـلاح فأخـذوا يطلقـون بواريـدهم علينـا وبعـد أن عبرنـا أوديـة عميقة كانت في طريقنا هجمت جيوشنا عليهم ففرقتهم وبلغنا أنه جــرح منهم عـدد كثـير كمـا وقـع ذلـك في جيشـنا ثم لم يلبثـوا أن عـادوا إلينـا ومــازالوا محيطين بنـا عن بعـد يناوشـوننا القتـال إلى ان وصـلنا غابـة الزيتون فبتنا فيها تلك الليلة وبات العرب في مواضعهم بالقرب منا وفي الغد انكشـف الظلام عن مقـدار ألـف وخمسـمائة فـارس وفرقـتين من العسكر المنظم فانضمت إليهم الجموع السابقة وجعلـوا مسـيرهم على الميمنة في طرف الجبل وبوجود هذه الجيوش الكثيرة التي كـان الأمـير عبد القادر قائدها توقف جيشنا عن المسير ولمـا نظـر بعض المفسـدين الذين كانوا معنا مسير الأمير وترتيب جيشه قال ان هذا السـير يعـد من مكائد الحرب التي كـان الأمـير يسـتعملها فطالمـا نجح بهـذا الاسـتعمال الذي قضى بتكبد الفرنساويين وألحقهم خسائر جسيمة ثم ان الأمير لمـا رأى جيوشه قربت من عساكرنا يوجه لا يهتدي إليه إلا من مهر في أمور الحرب ومكائدها أمرهم بالحملة عليه فحملت الفرقة الأول ثم الثانية ثم الثالثة ثم الحشود على التتابع واشتد القتال وأحمرت الحدق واتصل ذلك عدة ساعات ثم أنفصل كـل فريـق عن الآخـر وأنكشـف الجـو وتـبين ان العرب لحقها ضرر جسـيم ولكنـه ليس بـأكثر ممـا لحـق بجيشـنا وجـرح الجنرال شانكرني في كتفـه ولم يثبت لمقاومـة جيشـنا من تلـك الفـرق والجموع إلا الفرقـة النظاميـة الـتي كـانت تحت قيـادة الفـارس العـربي الشهير بالشجاعة وهو محمد البركاني خليفة الأمير في مقاطعة تيطـرى ثم لخمدت نيران الحرب وأخذ جيشنا في المسير وفي اليوم الثاني عــاد

الأمير إلى محاربنا ولولا ان المطر الغزير المتتابع حال بيننا لآل الأمر إلى خسارة عظيمة وربما كانت تأتي على آخر جيشنا لشدة ما لحقه في هذه المراحل المتوالية من تعب السير ومقاومته الخصم ونقص عده بالموت في تلك الحروب الهائلة مع عدم تمكنها من الإقامة والراحة لأنها تورطنا في جبال شاهقة وأودية وعرة لا نعرفها وأهلها أعداء لنا والمدد مأبوس منه ثم بعد مشقة زائدة تمكننا من عبور المضايق وسلكنا في طريق سهل إلى نتيجة واتصل سيرنا إلى الجزائر فدخلناها على هيئة يرثى لها وأما الأمير عبد القادر فأنه لما هو عليه من شدة الحزم وقوة العزم لا يخطر في أفكاره أن يقر للعدو بالتقدم أو يجعل له طريقا لذلك بل كان مستضعفا مستنفرا لأمره عاكفا على إنفاذ أوامره متيقظا لشأنه وبعد أن أخذنا الراحة في الجزائر أمر الحاكم العام بترميم سورها وإصلاح محله . ذكر عزل المارشال فالا عن الجزائر وتوليه الجنرال بيجو في مكانه

لما أتصل بالدولة الفرنساوية ما أجراه المارشال فالا في داخلية الجزائر من الحروب وأطلعت على ما عليه الأمير من الاستعداد لمقاومته جيوشها وراث أن تلك الحروب قد أفنت عساكرها من غير طائل عزلت المارشال فالا عن الجزائر فذهب إلى فرنسا منكسر القلب محمولا على كاهل اللوم والعتب قال بعضهم لما كان المارشال فالا متخلقا بأخلاق لا تناسب أحوال البلاد العربية ورأته فرنسا أنه في سائر حروبه لم ينجح نجاحا تقر به عينها بل آل أمره إلى فناء عساكرها ومهماتها عزلته وولت مكانه الجنرال بيجو المشهور في السابع من ذي القعدة وأول يناير مدة ثمانمائة وإحدى وأربعين وأمرت بتجهيز ثمانية وثمانين ألف علاوة على ما هو موجود وقتئذ في الجزائر من العساكر لقتال الأمير عبد القادر وهذا ما عدا المتطوعة من بعض الدول لأنه كان يوجد بين أسرى الفرنساويين متطوعة من ألمانيا وإسبانيا وخلافهم

وأرسلت من المهمات والذخائر ما لا يأتي عليه حصر ولما وصل الجنرال بيجو إلى الجزائر وأتصل خبره بالأمير بعث إليه بمكتوب ملخصهإلى الجنرال بيجو وسائر قواد العسكر الفرنساوي في الجزائر السلام على من اتبع الهدى واجتنب الردى أما بعد فقد بلغني إنكم جئتم من فرنسا إلى الجزائر لقتالنا بما ينوف عن ثمانين ألف جندي زيادة على عساكركم السابقة فيما فأعلموا إنني بعونه تعالى وقوته لا أخشى كثرتكم ولا أعتبر قوتكم لعلمي إنكم لا تضرونني بشيء ألا إن يضرني الله به ولا يلحقني منكم إلا ما قدمه الله علي وقضاه وإنني منذ إقامتي الله في هذا الأمر وجعلني ضدا لكم ما قاتلتكم بعسكر يكون عده ثلثا من عساكركم التي تكافحونني بها ومدة ملكي كما لا يخفى ثمان سنين ومدة ملككم يتعدى مئات من السنين وعساكركم كثيرة وآلاتكم الحربية قوية ومع هذا اليوم العظيم الذي بيني وبينكم فأني أعرض عليكم أمورا فاختاروا واحدة منها وهي أما أن تعطوني ما أحتاجه من أدوات الحرب بالشراء ثم أنظم عسكرا يكون نصف عسكركم الذي تحاربونني به وحينئذ نتحارب وأما أن تبقوا في مواضعكم التي تغلبتم عليها وأبقى أنا في بلادي التي تحت حكمي قثم لا يقرب أحدنا من الآخر مدة اثنتي عشر سنة فيبلغ عمر ملكي عشرين سنة وحينئذ اقاتلكم فأن غلبتكم فلا عار عليكم إذ يقال غلبكم رجل له قوة عشرين سنة وان غلبتم انتم فتكونوا غلبتم رجلا له قوة فيحصل لكم الفخر عند الملوك وأما اليوم فانتصاري عليكم يعد فضيحة لكم عند الدول وانتصاركم علي لا يعد فخرا حيث إنكم غلبتم رجلا عمر ملكه ثمان سنين ولا قوة عنده يقابلكم بها ومن الأمور التي أقترحها عليكم أنكم تبعثون من قبلكم من يعد عسكري ثم اخرجوا من عندكم في مقابلة كل واحد رجلين من عسكركم وأعطيكم العهد أنى لا أزيد عسكريا واحدا على ما تعدون وحينئذ الغالب يملك الوطن ومنها أن يخرج المارشال للبراز ويخرج له

واحــد من خلفــائي فــأن غلب صــاحبكم فلا أنــازعكم في طــريقكم من الجزائر إلى قسنطينة ومن أراد من المسلمين أهل تلك النـواحي البقـاء تحت حكمكم فلا نتعرض له وان أراد الخروج منها ويلحق ببلادي فأنتم لا تتعرضـوا لـه ومنهـا إن ابن الملـك يبـارزني فـان غلبتـه فـأنكم ترجعـون بعساكركم إلى بلادكم وتتركون سائر المدن التي في يدكم ألان بما فيها من الـذخائر والمهمـات وان غلبـني فـإنكم تسـتريحون مـني ويبقى لكم الوطن من غـير منـازع فـان اخـترتم واحـدة من هـذه الأمـور فلا بـد أن تحضروا تناصل الدول ليشهدوا عليكم بقبولكم ذلك وأما نحن فلا نخـالف كلمتنا وان استضعفتمونا ولم تبالوا بما قلناه اعتمـادا على قـوتكم فنحن قوتنا بالله القـادر على كـل شـيء وهـو ولينـا وناصـرنا ولمـا اتصـل هـذا المكتوب بالجنرال بيجو قرأه على قواد العسكر وأعيان مجلس الجزائــر فوجموا له ثم اتفق رأيهم على الأعراض عن رد الجواب^ ذكر

سؤالات وجهها الأمير إلى قاضـي فـاس ولمـا رأى إن بعض القبائـل في الساحل القريبة بلادهم من المـدن التابعـة للعـدو مـالوا إلى طاعتـه والـدخول تحت ظلـه وحمايتـه أرسـل إليهم من العلمـاء والإشـراف من يعظهم ويحذرهم من مقت الله تعالى وغلبه فلم يجد ذلك نفعــا فيهم ثم هـددهم وأوعـدهم وأمـرهم بـالخروج من مـواطنهم واللحـوق بـإخوانهم المسـلمين في الداخليـة فلم يقبلـوا وتمـادوا على مـا هم عليـه فـأعتزم حينئذ على غزوهم والفتك بهم ثم توقـف في شـأنهم واستشـار الفقهـاء في أمرهم وبعث إلى قاضي فـاس في ذلـك لينظـر مـا عنـده فيـه وزاد أسئلة أخرى عن أشياء متفرقة عرضت له ونص ما كتبه إليه . الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على من لا نبي بعـده من خـادم المجاهـدين والعلماء عبد القادر بن محي الدين إلى الشيخ الإمام علم الإعلام السـيد عبد الهادي العلوي الحسني قاضي القضاة بفاس المحمية السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فما حكم الله في الذين دخلوا في طاعة العدو

والكفر بديارهم وتولوه ونصره يقاتلون المسلمين معه ويأخـذون مرتبـة كأفراد جنـود ومن ظهـرت شـجاعته في قتـالهم المسـلمين يجعلـون لـه علامة في صـدرة ملكهم هـل هم مرتـدون أم لا وان قلتم بـردتهم فهـل يستتابون أم لا وما حكم نسـائهم هـل هن كرجـالهم أم لا وان قلتم إنهن مثلهم فهـل يحكم باسـتتابتهن أو يقتلن أو يسـترقفن كمـا نقـل عن ابن الماجشون أم لا وما حكم ذراريهم هل لنا سببهم أم لا وهل ما حكاه ابن بطال من الإجماع على إن المرتد لا تسبى ذريتـه منقـوص بمـا نقـل عن ابن وهب وعن جمهور الشافعية إن المرتـد كالكـافر الأصـلي أم لا وهـل يسوغ لنا العمل بما ينقل عن أصحاب مالك رضي الله عنه من الأقدمين كابن وهب وأمثاله في طبقته في هذه النوازل وأمثالهـا ممـا لم يشـهره المتأخر ون أم لا وما حكم الخوارج الاباضية المعروفين في مغربنا ببـني مزاب وهم على ما لا يخفـاكم من عـدم صـلاة الجماعـة مـع المسـلمين فهل قول ابن العـربي بكفـوفهم صـحيح يعمـل بـه أم لا وهـل مـا ذكـره شراح ابن الحاجب من إن الباغي لا يرد عليه ما له يسوغ لنـا العمـل بـه في هذه الأزمنة الفاسد أهلها أم لا . وهل ما نقله بعضـهم عن ابن رشـد من صحة دفع الزكاة لكل ما فيه مصلحة للمسلمين صحيح يعمـل بـه أم لا . وهل ما تقرر من إن العدو إذا نـزل بقـوم وعرجـوا عن دفعـه ينتقـل الوجوب والخطاب إلى من يليهم علم في جماعة المسلمين أو هو خاص بالسـلاطين من حيث انهم حـاكمون على الرعايـا وهـل وجـوب الـدفاع والإعانة خاص بالأبدان والأموال حتى إن من عجز عن الدفاع بنفسه مـع قدرته على الإعانة بما له وتـرك ذلـك يكـون عاصـيا وهـل هـذا العصـيان يكون قادحا في العدالة أم لا . وهل مجـازاة ومكافـأة المصـطفى صـلى الله عليه وسلم للشـعراء والمهـديين كـانت من بيت مـال المسـلمين أو من خمس الخمس وان كانت من بيت المال فهل لولاة المسـلمين هـذا بعد ذلك أم لا . وهل لهؤلاء السلاطين قبول الهدية أم لا . كمـا نقـل عن

عمر بن عبد العزيز وهل يردونها جملة أو يضعونها في بيوت المال وهـل قول مالك لا ينبغي للأمـير ولا لعامـل الصـدقة إذا خـرج لبعض عملـه إن ينزل عندهم أو يأكل من طعامهم خاص بعمل الشعوب والبطون أم عام حتى في ولاة الأقاليم ولفـظ لا ينبغي هـل هـو على الحرمـة أو الكراهـه أجيبوا أدام الله وجودكم جوابا يشفي المرض ويأتي على الغرض محيطا بالتفاصيل والجمل مبينـا لنـا مـا يكـون بـه العمـل مـع ملاحظتكم زماننـا ووطننا والسلام مكرر ومعـاد عليكم وعلى أهـل مجلسـكم الشـريف ولا تنسونا من صالح دعائكم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين . ذكر الأجوبة

الحمد للـه وحـده إلى نخبـة أفاضـل المجاهـدين الأمـير السـيد عبـد القـادر بن محي الـدين لا زلت منصـور الرايـة على الكفـرة المعتـدين مظفرا بالفتح وسلام اللـه بتـوالي على علي مقـامكم المـتين هـذا وإني أحد الله لكم على مـا بـه خصـكم في هـذا القطـر المغـربي من صـرف الهمـة إلا إعلاء كلمـة اللـه والنـبي ثم المرغـوب من كمـال فضـلكم أن تسهمونا من صالح دعاكم ولكم منا مثله ومن الله يرجى لجميعنا فضـــله وجواب ما أشـرت إليـه في كتابـك من المسـائل إن اللائـذين بالنصـارى المقاتلين معهم قال فيهم البر زلي في القضـاء من نوازلـه مـا نصـه إن المعتمد ابن عباد استغاث بالكفـار في حـرب المـرابطين فنصـرهم اللـه وهرب ثم نزل على حكم يوسف ابن تاشفين أمير ضهاجه فاستفتى فيها الفقاء فما فتى أكثرهم إنها ردة وقاضية مع بعضهم لم يرها ردة ولم يبح دمه فأمضى الأمير ذلك ولم يبح دمه وأخذه أسيرا ونقله إلى أغمات إلى أن مات فيها ونقله الزياني في نوازله بواسـطة الكتـاني ويؤيـده مـا في أبن جزي على قوله تعالى ومن يتولهم منكم فأنـه منهم ونصـه من كـان يعتقد معتقدهم فانه منهم من كل وجه ومن خالفهم في الاعتقاد وأحبهم فهـو منهم في المقت عنـد اللـه تعـالى واسـتحقاقه العقوبـة وقـد قـال

الغزالي في كتاب التفرقة بين الأيمان والزندقة الذي ينبغي الاحتراز عن التكفير ما وجد إليه فأن استباحة المصلين المقرين بالتوحيد خطأ والخطأ في ترك التكفير أهون من الخطأ في دم مسلم ولا سيما إذا كان فيه تأليف ورد عما هم عليه فهو متعين فعلى القول بعدم ردتهم لا إشكال في عدم سبي نسائهم وذراريهم وعلى القول بردتهم فكذلك قال خليل وان ارتد جماعة وحاربوا فكان المرتدين قال أبن عبد الصادق سار فيهم عمر سيرة المرتدين برد النساء والصبيان إلى عشائرهم كذرية من ارتد فلهم حكم الإسلام وعلى هذا جماعة العلماء والسلف إلا القليل منهم مضى على رأي أبي بكر بأنهم كالناقصين للعهد قتل الكبار وسبي النساء والصغار وجرت في أموالهم المقاسيم وذهب ربيعه وأبو القاسم وأبن الماحشون إلى فعل عمر وأقتصر عليه المصنف لأنه قول الجماعة وأما حكم الأباضية فالصحيح عدم كفرهم كما عند أبن رشد في البيان وقال في الفتح عن أبن حزم إهداء الخوارج والبغاة وأقربهم إلى قول أهل الحق الأباضية وذكر الخلاف فيهم غير واحد وتقدم إن التفكير صعب والميل إلى عدمه أهرن وفد ترجم البخاري بترجمته لقتل الخوارج وبأخرى لتركه إشارة إلى الخلاف كما قال في الفتح وأما البغاة فلا يؤخذ من مالهم غير السلاح قطعا كما قيد به شراح خليل قوله وأستعين بما لهم عليهم ثم رد وأما السلاح فعليه يحمل اللبن ومقابل ما في المتن في غاية الضعف لا يعمل به وقد قال لأبن عرفة إن العمل بالراجح هو الواجب ولا ينفذ الحكم بما سواه ونحوه للعقباني والسنوسي وأما الزكاة فلا تصرف في غير المصاريف الثمانية التي قص الله عنها إنما الصدفات للفقراء الآية قال خليل ومصرفها فقير ومسكين إلى قوله لاسور ولا مركب وما نسبة الجنان وغيره لحفيد أبن رشد من إعطائها للعلماء ولو أغنياء وكذا سائر المصالح ولا يجوز العمل به كما للشيخ الثاوي وغيره ممن حشاه من المتأخرين وأما أن عجز من حل

بهم العـدو عن دفعـه فيتعين على كـل من يقـربهم أمـيرا كـان أو غـيره الأقرب فالأقرب إن بدافعه قال خليل وتعين بنجأ العـدو وان على أمـراه وعلى من يقربهم إن عجزوا أو خوطب بنفسه وماله قال تعـالى جاهـدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله إن الله أشترى من المؤمنين أنفسـهم وأمـوالهم بـأن لهم الجنـة وأمـا مكفـآت النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم للشعراء والمهديين فمن جملة مكارمـه وهي من الفيء والخمس تـؤدي ففي تفسير أبن جزي لقوله تعالى (وأعملـوا إنمـا غنمتم من شـئ فـأن لله خمسه) والآية ما نصه الخمس إلى اجتهاد الإمـام يأخـذ منـه كفايتـه وفيه أيضا ما نصه ما يؤخـذ من الكفـار منـه مـا يخمس ومنـه مـا يكـون جمعه للأمام يأخذ منه حاجته ويصرف سائرة في مصالح المسلمين وهـو الفيء الذي لم يوجف عليه وأما الـردة فلا يكـف أربـاب الأمـوال بغيرهـا وأما الولاة فجميع ما زاد بأيـديهم على مـا يعـرف لهم من قبـل الأهم إن يضيفه إلى بيت المال ويصرفه في مصـارفها وأمـا هـدايا من تحت حكم السلطان له فلا يجوز له قبولها لأنها رشوة قال خليل في القرض وعـدم هديته إلى قوله وذي الجاه القاضي وهو مضمون قول البـاجي ونصـه إذا كان المهدي تجري عليه أحكام المهـدي إليـه فقـال سـحنون وأشـهب لا تقبل هديته مسلما كان أو كافرا ووجه ذلك إن هديته ريبة إذ ربمـا تكـون لدفع مظلمة يجب دفعها أو ترك حق لا يحل تركه ويؤيده ما أشرتم إليـه من قفول عمر بن عبد العزيز كما في البخاري في كتاب الهبة وقليه ابن الأنبيه المكررة في البخاري لما أستعمله النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم فجاء بمال كثـير وجعـل يقـول عنـد محاسـبته هـذا لكم وهـذا أهـدي ألي فغضب صلى الله عليه وسلم وعاتبه وقـال هلا قعـد في بيت أبيـه وأمـه فينظر ما يهدي له تدل على إنهـا تـرد إلى بيت المـال إن قبـل كمـا لابن بطال انتهى كتبه أجهل عباد الله رادا العلم لمـولاه عبـد الهـادي بن عبـد اللـه الحسـني وفقـه اللـه في أول يـوم من المحـرم فـاتح عـام سـتة

وخمسين ومائتين وألف ذكر ما تكلم به الجنرال بيجو في المجلس الحربي في مدينة الجزائر

لما شاع إن الأمير أستنفر سائر أهل مملكته من حدود المغرب الأقصى إلى حدود تونس إلى الجهاد وأمر بأخذ كمال الأهبة والاستعداد لمحاربة العدو ومدافعته عن البلاد وأتصل ذلك بحاكم الجزائر بيجو أمتعض له لا سيما وقد رأى إن أهل الجزائر استولى على قلوبهم الرعب وخامرها الاضطرار فعقد مجلسا حربيا وتكلم فيه بما نقله عنه بالمار المؤرخ وهو قوله إنني أيها القواد والرؤساء الأنجاد قد كنت أظن إن للأمير عبد القادر جنودا نظامية كافية لها خبرة بفنون الحرب وأساليبه واقتدارا على مقاومة الجيوش الفرنساوية والآن تحقق عندي إن الأمر على خلاف ذلك وكنت أظن إن العرب ذوو ضخامة وجسامة فتبين لي الآن أنهم ليسوا كذلك غير أنى لا أنكر قوة باسهم وشدة شوكتهم وصلابتهم في الجلاد ومقاومة الأضداد لكن هذا ما داموا في أوطانهم وما دامت أملاكهم في أيديهم التي عليها مدار معاشهم فلاح لي من الرأي الذي نتوصل به إلى تفريق كلمتهم وإخضاعهم للطاعة إن عساكرنا تتصدى أولا للاستيلاء على بسائطهم التي فيها انتجاع ماشيتهم التي يترزقون منها فأن حصل هذا فلا شك في الفوز والنجاح ثم نضع الحاميات الكافية والمسلحات الوافية في الأماكن الصعبة في الطرق التي تمر بها لنتمكن من اتباع آثار الفارين منهم المتوغلين في الداخلية ونضع جنودا وافرة في الحدود لتمنعهم من الدخول لبلاد الجزائر فإذا ضاق عليهم المجال واشتدت عليهم من جهة الفتن والأهوال فلا محالة انهم ياوذون بطاعتنا ومما ييسر علينا الوصول إلى هذا إن أكثر رؤساء عساكرنا تعلموا اللغة العربية وصاروا ماهرين فيها عارفين بعوائد العرب وأحوالهم أو نستعمل هذا فنعين قسما من الجند للمحافظة على الأماكن المهمة في سائر الجهات وقسما آخر لمنع الوارد والصادر عن

البلاد كما يمنع من فرار أهلها إلى الخارج عنها وباقي الجند نعده للهجوم والحرب وأعلموا إن استعمال المحاربة بالوعِ النظامي لأبجدينا نفعــا لان الخصم لا يعرف ذلك وإنما نقابل العرب بما يقاتلوننا به والمقصـود الأهم هو إن جيوشـنا تجعـل همتهـا في اسـتعمال مـا تتلاشـى بـه قـوة الأمـير وتزعزع أركان دولته هذا ما ظهر لي من الرأي فانظروا مـاذا تـرون أنتم فأجابوا إن ترتيب الحاميات في المراكـز الصـعبة لا نـراه صـوابا إذ ربمـا يوقعنا ذلك فيما هـو أدهى وأمـر من تركنـا إياهـا وذلـك لأننـا نخشـى أن يحوجنا الحال إلى تعيين قسم كبير من جيوشنا لحمايتها أو لتخليصها من يد العرب ويبقى في أيدينا من الجيوش ما لا يفي بالمطلوب عند شبوب نار الحـرب فـالأولى الإضـراب عن هـذا ألان فاستحسـن بيجـو رأيهم ثم اتفقت كلمتهم على إن ينهضــوا بجيوشــهم الجــرارة إلى المــدن وبعــد الاستيلاء عليها ينظرون فيما يلزم من المحافظة عليها ولمـا انتشـر هـذا الخبر حدث في المعسكر قلق وامتلأت قلـوب الجنـود رعبـا لجهلهم بمـا يؤول إليه أمرهم في داخلية البلاد وخافوا أن يقع بهم نظير مـا وقـع بمن تقدمهم من إخـوانهم فيسـتولى عليهم التلـف كمـا اسـتولى عليهم مـدة عشر سنين قال فاليوت في تاريخه كنت ذات يوم مـع الحـاكم بيجـو في محل عال فقلت له إياها المارشال انظر إلى هذا المنظر البهيج فأجابني انه منظر جميل لأهل الجرنالات أما لأمثالنا فلا ثم قال لي انظر إلى تلك الحيطان السود الشمالية من البلد فلربما يكـون هنـاك سـجن العسـاكر الفرنســاوية ومن الممكن أن يقــاد الحــاكم يعــني نفســه ذليلا في بلاد حجوط وعندها كلمة واحدة تكفي في قتله ألم تعلم يافـاليوت إن حـاكم الجزائر يحتاج إلى سياسة قوية لان الأمير عبد القادر خصم صنديد وقوم عنيد لا يخشى بطش الجيوش الفرنسـاوية ولا ينظرهـا بعين الاعتبـار ثم إن فاليوت استطرد ذكـر حكايـة عن بعض الجنـود في الجزائـر نقـل قـد وقعت على رسـالة لبعض أفـراد الجنـد الفرنسـاوي أرسـلها إلى والديـه

وأخواتـه في فرنسـا عنـدما شـاع اتفـاق المجلس الحـربي على الحـرب ونص الرسالة من مدينة الجزائر في الخامس والعشـرين من شـهر آذار سنة إحدى وأربعين وثمانمائة إلى والدي وأخواتي أخبرهم إن حيـاتي قـد صارت في خطر وذلك إننا في هذا الوقت متوجهـون من مدينـة الجزائـر إلى البلديـة ومليانــه ومن دون شــك إننــا نصــادف في طريقنــا أخطــار ومهالك ولا أدري هل أرجع سـالما أم ذلـك آخـر العهـد بالحيـاة الـدنيا ولا يخفي أن المــوت أقــرب من الســلامة ولكن يلزمنــا الصــبر وحيث إن احتمال الموت عندي أقرب فـأعلموا انـه يوجـد عنـدي ألفـا وخمسـمائة فرنك فأريد أن تعطوا عمي منها مـائتين يسـتعين بهـا على عـوزه وان لا تتركوا أولادي بدون ألبسة حسنه وما بقي من الدراهم فالوالدة تفعل بها ما تشاء وإني أخبركم إن العرب فرسان مشهورون بالشـجاعة والأقـدام وحالنا معهم في الحرب إن رصاصهم يصب علينا كـالمطر وأمـا نحن فلا نقـابلهم إلا بالكـل ليبعـدوا عنـا وان وقـع في أيـديهم جنـدي منـا فـأنهم يعرضون عليه الإسلام فأن قبل وأجاب تركـوه وإلا قتلـوه وعنـدما نسـير من محل إلى آخر نأخذ أزوادنا معنـا لأنـه لا يوجـد في طرقنـا فنـادق ولا خانـات وفراشـنا وغطاؤنـا ليس إلا الكبـوط لا غـير فهـذه حالنـا في بلاد العرب وعلى كل حال فأنا أودعكم وعيناي غريقتان في الدموع .

قال بالمار لما أعتزم بيجو على الحرب أتخذ البغال والجمال لحمــل الأثقال والذخائر والمدافع عوضا عن العجلات وعرض العســاكر فوجـدها قد اكسبها تمرينها في المدة السابقة نشاطا فحينئذ قـوي عزمـه وأشـتد حزمه وقال روا كذلك العرب قد تدربوا على الحرب وتمرنوا فزاد بــذلك نشاطهم الغريزي المفورطون عليه . ذكر

مسير الجنرال بيجو إلى مليانه وهزيمته في رجوعه منها

وفي الخـامس من ربيـع الأول سـنة سـبع وخمسـين وفي الثـامن والعشرين من أبريل سنة إحدى وأربعين نهض الجنرال بيجو من الجزائر في جيش إلى مليانـه ثم أنقلب راجعـا إلى الجزائـر على طريقـه وكـان الأمير أعد فرقة من عساكره النظامية قرب البلد وأكمن له فرقة أخرى في الغابة قريبـة من الفرقـة الأولى فلمـا خـرج العـدو من البلـد بادرتـه الفرقة الأولى بالقتال ولما حمل عليها استجرت له وأرخت العنان أمامه فلحقها إلى أن وصل إلى الغابة فخرج الكمين واشـتد القتـال وبينمـا هم كذلك أقبل الأمير بباقي الجيوش الإسلامية وهجم على العـدو من ورائـه واختلطت العسـاكر بالعسـاكر وحمى الـوطيس فـأنهزم بيجـو بجيوشـه ورجعوا إلى مليانه تاركين القتلى والجـرحى والـذخائر الـتي كـانت معهم في أيدي المسلمين قال رءوا وهـذه أول وقعـة وقعت بالمارشـال بيجـو في ولايته على الجزائر ورآسته على العساكر الفرنساويية ولأول تفوضه في أمر الحرب مع الأمير عبد القادر ثم قـال ولمـا هجم الأمـير بالقسـم الكبير من جيشه الذي كان معه على المارشال أنبهر عقله ولم يسعه إلا الفرار من الأثقال وهذه الوقعة نكلت العساكر الفرنسـاوية أشـد النكـال وأوقعتهم في ورطة الوبال وكانت خسـائرهم جسـيمة ونـوائبهم عظيمـة انتهى ثم إن بيجو رجع إلى الجزائر وقسـم جيوشـه على الثغـور المهمـة فعقد الجنرال بركوباي على الجهة الشرقية ولاة الجنرال بارتسمي على مايلي الجزائر وتوجه بالقسم الأكبر إلى مسـنغانم ومعـه الـدوك دومـال وأخوه الدوك دتيمور وضم إلى جيشه جيش وهران وبعد أقامته أياما في مستغانم نهض منها على طريق مجاهر قاصدا قلعة تاكدمت فأمر الأمـير أهلها بالجلاء عنها وحمل ما خف من الذخيرة الحربية والمؤن التي كانت فيها وأتصل سير العدو مع اتصال القتـال إلى أن وصـلها واسـتولى على سائر ما بقي فيها من سلاح وآلات المعامل ثم توجه منهـا إلى العاصـمة معسر وكان أهلها خرجوا منها إلى ضواحيها فاستولى عليهـا وأقـام فيهـا

حرسا ثم خرج إلى مستغانم وكان الأمير صمد له في الجيوش عند مضيق عقبة خذه ومضيق فرقوق فلما وصل بيجو إلى أول مضيق منها انثال عليه المسلمون من كل جهة وأحاطوا به من كل ناحية وأتقدت نار الحرب بين الفريقين واتصلت من شروق الشمس إلى مغيبها وكثر القتلى والجرحى من الجانبين وجرى في ذلك النهار ما يعجز وصفه القلم واللسان قال رءوا لما وصلت العساكر الفرنساوية إلى مضيق عقبة خده وجدت فرسان العرب وحماتها ينتظرون فيه وانتشب القتال بين الفريقين وأستمر الرمي بالرصاص والضرب بالسيوف والحراب يأخذ كل منهم حظه من النفوس من طلوع الشمس إلى غروبها وكانت خسائر الطرفين جسيمة ففقد العرب الكثير من رؤساء عسكرهم وأغواته كما إن بيجو فقد من العساكر الفرنسوية وقوادها عددا كثيرا وعندما أذن الظلام بإغماد سلاح الطرفين أخذ العرب يتفقدون قتلاهم وجرحاهم وأما بيجو فأنه أنتهز الفرصة وتسلل بجيوشه تحت ستر الظلام على حين غفلة من العرب إلى أن تخلص من المضايق كلها وجد المسير إلى إن الحق بمستغانم على أسوء حال وبالجملة أن هذه الوقعة من الوقائع المشهورة التي أستمر ذكرها في محافل فرنسا ومجامعها . ذكر

ما كتبه الأمير عبد القادر إلى المارشال بيجو قال اسكندر بالمار بعد وقعة عقبة خذه كتب الأمير عبد القادر إلى المارشال بيجو ما نصه . الحمد لله وحده من ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين إلى المارشال بيجو . أما بعد فأن كانت دولة فرنسا ليس عندها من الأرض ما يكفي رعيتها وأرسلتكم لتغصبوا أراضينا وتبذلوا في ذلك نفوسكم وأموالكم فنحن نتخلى لها عما هو في أيدينا الآن من السواحل ونبقى معها في حال جيران ينتفع بعضهم من بعض وان أبت إلا إن تستولي على جميع وطننا فنحن وسعنا في مدافعتها وحماية أرضنا منها إلى أن

يقضي الله بيننا وبينها بما شاء فـأن البلاد بلاده والعبيـد عبيـده ولا يخفي عليكم أيها الحاكم إن مهاجمتكم على بلادنا كما إنها سبب لاتلاف الكثـير من جنودكم وذخائركم فكذلك نحن وهذا شئ لا يرضـي بـه عاقـل فضـلا عن فاضـل ودولتكم تـدعى إنهـا أول دولـة في العـالم تحب الإنصـاف وتسـتعمله وتحافـظ على مـيزان العـدل وتحكم بـه ففعلهـا هـذا يكـذب دعواها مـدعاها وانتم وغـيركم من جهالـة نـراكم دائمـا تسـاعدونها على الاعتداء والاغتصاب وتبذوان أنفسكم في ذلك ابتغـاء مرضـاتها ولـو كـان عندكم أدنى نظر سديد مـا وافقتموهـا على إتلاف جنودهـا في الحـروب ومواسم الأمراض المختلفة التي لا تذر ولا تبقى فيا هل تـرى بـأي شـئ تعوضـون مـا تخسـره بلادكم من الرجـال والأمـوال والكـراع فـأن كـان يرضيها أن تحملوا لها ما تقدرون على حمله من حجـارة مدينـة معسـكر أو من تراب الأراضي التي اغتصبتموها فـافعلوا وأني أراك إليهـا الحـاكم تبذل جهدك في تعطيل مواسمنا لنقل الحبوب عندنا ظنـا منكم إن ذلـك أقوى سبب لخضوع أهل البلاد إليكم والحال إن هذا ليس بشيء عنـدهم فـأن ليسـت متعلقـة بلذائـذ الأطعمـة والأشـربة مثلكم بـل يكفيهم مـا يسدون به رمقهم وأودهم كيفما كان على أنه يوجـد عنـدهم من صـنوف الحبوب المحفوظة في الآبار المعدة لها مما يكفيهم سبع سنين آتية ومـا تأخذونه أنتم من ذلك فهو جزء من جملة أجزاء ولا أراكم في هـذا الأمـر إلا كمن ملأ قدحه من البحر معتقـدا انـه ينقصـه وبالجملـة فنحن لانـترك قتـالكم مـا دمتم في طغيـانكم تعمهـون وفي سـبيل اعتـدائكم تمشـون والحروب قد تربينا عليها وتغذينا بلبنها فنحن أهلهـا من المهـد إلى اللحـد وحروبنـا كمـا علمتم لا نرجـع فيهـا إلى قـانون يحصـرها بـل نحن فيهـا مخـيرون مطلقـون نصـرفها كيـف شـئنا وأمـا انتم فقـد بـذلتم أمـوالكم وأفنيتم قوة شـبابكم في تعلم طرقهـا القوليـه وعنـد اشـتباك الصـفوف تعاجلكم عن مراجعتهـا الرمـاح والسـيوف وممـا علم من كتب التـواريخ

القديمة إن العرب يتهجـون في معـامع القتـال كمـا يبتهج العـروس ليلـة عرسـه فلا يخطـر في بـالكم أنهم يضـجرون منهـا أو يتركونهـا من ذات أنفسهم ما دامت الأقدار الإلهيـة مسـاعدة لهم فـأن حكمت عليهم بغـير ذلك فمن المعلوم أن الأرض لله من بعده يورثها من يشاء من عباده فلا معقب لحكمه ولا راد لقضائه والسلام على من اتبع الهدى وأتقى سـبيل الردى حرر في عاشر جمادى الأولى سنة سـبع وخمسـين ومـائتين وفي آخر يونيه سنة إحدى وأربعين وثمانمائة . ذكر

مسير المارشال بيجو إلى ولاية معسكر بعد رجـوع بيجـو من وقعـة عقبـة خـدُ إلي مسـتغانم أخـذ أهبتـه وخـرج بجيوشـه إلى شـمال ولايـة معسكر وكانت قبائل أولاد خليف وصبيح وأمثالهم دانوا بطاعتـه عنـد مـا مـر في بلادهم إلى تاكـدمت ثم توجـه إلى الجهـة الجنوبيـة وانتهى في مسـيره إلى بلـدة سـعيده وهـذه البلـدة اختطفهـا الأمـير وأسـكن فيهـا مهاجري مستغانم ووهران ولما قاربها خرج أهلهـا إلى النـواحي فوجـدها خالية فخر بها ولاذ أهل تلك الجهات القريبة منها كأولاد إبـراهيم والحسـا سنة والجعافرة بالطاعة وعدل الأمير عن قتاله وسار غازيا على قبيلـتي الـدوائر والزمالـة في سـاحة وهـران فصـبحهم وأكتسـح أمـوالهم وأثخن فيهم بالقتل والأسر ولما أتصل الخبر بيجو أمتعض لـذلك وارتحـل راجعـا من الجهة الجنوبية إلى مستغانم ثم إلى وهران وفي هـذه الأيـام أرسـل حضرة الأسقف دوبيش إلى خليفة مليانه السيد محمد بن علال يسـتأذنه في الحضور عنده ليتوسط لـه في الاجتمـاع بـالأمير فأجابـه الخليفـة إن الأمير في نواحي الصحراء على مسافة أيام متعددة منا فأن كنت تكتفي بملاقاتي نيابة عن الأمير فأنا مستعد لقبول زيارتك فأجاب الأسـقف إلى ذلك وحضر عند الخليفـة فأحتفـل لملاقاتـه وبعـد أن عـزم على الرجـوع قدم إليه الخليفة فرسين من جياد خيله هدية على عادة أمراء العرب مع ضيوفهم المعتبرين قـدرا وشـهرة وكـان عنـده أسـرى الفرنسـيس نحـو

الخمسمائة أسـير فأحضـرهم بين يـدي السـقف بسـلاحهم وألبسـتهم ثم قال له حيث أنه لم يتيسر اجتماعكم بسيدنا الأمـير وكنت أنـا من جملـة أتباعه وخدمه فعلى حسب استطاعتي أجريت بعض ما يجب أجراؤه مـع أمثـالكم وهـؤلاء الأسـرى من عسـاكركم بسـلاحها وأمتعتهـا قـد سـمحنا بإطلاقها تكرمة لكم فخـذوها معكم ولـو سـاعد القـدر واجتمعتم بسـيدنا الأمير لكنتم شاهدتم من إكرامه ما تستقلون له أعمال الملـوك العظـام ففرح الأسقف بذلك فرحا لا يعـبر عنـه قلم ولا لسـان وأنقلب بالأسـرى إلى الجزائر وكان يوم دخولـه إليهـا بهم يومـا مشـهودا فـأنظر إلى هـذه المعاملة الحسنة والمعاملة التي قابلها بيجو كعادته فأنه بعد رجوعـه من غـزوة بلـدة سـعيده إلى وهـران كتب إلى رؤسـاء القبائـل عـدة رسـائل يدعوهم إلى طاعته ويتهدد هم إن أبوا ذلك عليه .وهذا نص جواب أولئك الرؤساء عن إحداها من كافة الحشم الشراقة والغرابة ومن إليهم كبـني شقران وبني غدو إلى النصراني بيجو السلام على من أتبع الهـدى وثبت عليه قد وصلنا تحريـرك وعلمنـا مـا فيـه من كونـك تـدعونا إلى الطاعـة وتخبرنا انك عازم على أن تجعل بلادنا سعيده مباركـة وأي سـعادة أحب إلينا من سعادة الجهاد وحماية البلاد وثباتنا أمام أعدائنا ولو بدون محاربة ولا طعان فأن الله تعالى جعل لنا ثوابـا عظيمـا إذا نحن أذقنـاهم مـرارة الوبال ونكلناهم شديد النكال وكبـدناهم أنـواع المشـقات والجلنـاهم إلى التفريق وإذا لم نتمكن من ذلك كله فمن بعضه فأن لم يتيسر لنا فيكفي الثبات في وجوههم وعلى قدر التعب يحصل الأجر وكونك تعـدنا كعادتـك مع غيرنا بالفخر والمجد إذا نحن أطعناك والى مطلوبـك اجبنـاك فهـذا لا نسمعه ولا نلتفت إليه بل نعده ضـربا من المحـال والـذين أطـاعوك من أهل وطننا فأنهم عندنا قوم لا دين لهم ولا خلاق لهم بـل لا يعرفـون من الإسلام إلا اسمه فلا نغتر بكلامهم فإنما قادهم إليك الطمـع فيمـا عنـدك فبـاعوا لـك دينهم بالـذهب والفضـة وامـا نحن فلا نـبيع ديننـا وإنمـا نـبيع

أنفسنا إلى الله تعالى الذي يشتريها منا بالجنـة ومن الـواجب تنظـر إلى عظمة سيدنا الأمـير كمـا ننظـر نحن فأنـه يقـاتلكم و يكبـد كم المشـاق العظيمة من غير كبير مدد ولا ذخائر مؤثلة ولا خزائن قائمة وافـرة وأمـا أنتم فلا مزيـة لكم لان دولتكم قديمـة من ألـف سـنة فجمعت الأمـوال الطائلة ودربت الجيوش الجرارة على الحروب فـأن هي غلبت الآن فـأن أميرنا حديث العهد بالملك ورعيته قد أنهكتها الحـروب الأهليـة والأجنبيـة من مدة متطاولة فأي مزية لدولتكم في تغلبها عليها والظـاهر انـك أيهـا الحاكم مسرور بكونـك أخرجتنـا من أوطاننـا وأحـرقت أغلالنـا وأرسـلت لدولتك تبتهج بذلك ولو كنت من أهل النظـر مـا ظهـر هـذا منـك نعم لـو جئتنا بجيوش تعادل جيوشنا عـددا واسـتعدادا وفعلت بنـا مـا فعلت كـان يحق لك أن تبتهج بعملك وتفتخر بـه ولكن حيث انـك جلبت إلينـا جيوشـا يزيد عددهم على عدد نفوسنا وكراعينا وشجرنا وحجرنا فلا يحق لك في سرورك لان من غلب كثرة لا مزية لـه ولا فخـر وإنمـا المزيـه لمن غلب من يكافئه عددا وعددا أو يكون أكثر منه ونحن لله الحمد مع قلـة عـددنا فقد وقفنا في صدوركم وأذقناكم نكال الحـرب ومـرارة الجلاد والضـرب مدة أحد عشر عامـا من حين اسـتيلائكم على مدينـة الجزائـر إلى يومنـا هذا ولا نزال بحوله تعالى وقوته على ذلك إلى إن تغلب أو تغلب ويهلــك كبيرنـا وصـغيرنا وعلى كـل حـال فلا تتعب نفسـك فأنـك لا تحصـل على طائل من الفخر لتذكر به عند ملوك الأرض كمـا هـو في بالـك لان ذلـك إنما يصح لك لو غلبت دولة قديمة عظيمة مؤثلة من كل شئ وأما دولــة قليلة العدد والعدد فلا مزيه لمن غلبها وممـا يتعجب منـه كـل العجب إن دولتك تفتخر بالاستيلاء على الجزائر وهل عاقل في العالم يفتخر بالظلم والاعتداء حاشا وكلا إنما أتفخر في تركها وعدم التخلـق بهمـا وجميـع مـا اتلفتموه من محصولاتنا في هذه السنة لا يضرنا لوجـود غـيره عنـدنا من مستغلاتنا المدخرة من سنين عديدة فأن نفذت فالطرق لجلب مـا نقلت

به من المغرب أو المشرق مفتوحة وكما إن مراكبكم البحرية ترد عليكم مشحونة بالمؤن والذخائر فكذلك نحن عندنا الجمال تحمل إلينا ما نحتاج إليه من القاصية ومن الواجب عليـك إن تنظـر فيمـا دخـل في يـدك من الذخائر والمؤن وما خرج منها وجدتها ناقصة فبادر إلى إرسـال مـا يسـد نقصها من حجر معسكر وتراب غريس إلى دولتك وبذلك تجعلك محبوبـا لديها كبيرا في عينها ولو أحصيت أيها الحاكم قتلاك وأسراك ثم قابلناهم بمن قتل منا وأسر لظهر لك خسرانك وتحقق عندك نقصـانك والمكفـأة في الحرب وان كانت لا تقضي بالمزيه لأحد الطرفين فأنها تقضي لنا به نظرا لكثرتكم وقلتنا وكبر دولتكم وصغر دولتنا هذا جوابنـا فأعملـه فأننـا فصـلناه تفصـيلا مفرطـا في الإسـهاب والإكثـار رجـاء أن تفهم حـرر في العشرين من ربيع الثاني سنة سبع وخمسين والحادي عشر من حزيران سنة إحدى وأربعين .ونص جواب الرسـالة الأخـرى المؤرخـة في التاسـع والعشرين من ربيع الثـاني والعشـرين من حزيـران من الحشـم وغيرهـا من القبائل المتمسكين بـدينهم الإسـلامي الوثيـق العـرى إلى النصـراني بيجو قد وصلنا مكتوبك الذي تركته في موضـع نزولـك من بسـاتين بـني يخلف واطلعنا عليه فوجدناك تطلب منا نص ما طلبتـه سـابقا غـير مـرة فتعجبنا من إلحاحك وإكثارك علينـا في الطلب مـع إننـا بـذلنا وسـعنا في إقناعك فلم تسمع و أوقفناك على ما انطوت عليه بوطننـا من التمسـك بديننا وطاعتنا لأميرنـا فلم تفهم ولـو فهمت لعـدلت عن إلحاحـك وتتـابع طلبك وعلى كل حال فهذا آخر جواب يأتيـك من طرفنـا فليكن مكتوبـك المذكور آخر مكتوب ترسـله إلينـا وكيـف نـترك ديننـا الـذي هـو أشـرف الأديان ونتخلى عن أميرنا الذي هو عندنا أعظم أمير وأشـرف من يطـاع هذا مما لا يقول به عاقل ولا يعلـق بـه أفكـاره آمـل والـذي حملـك على الإلحاح هو تصديقك لأولئك المتنصرة الـذين يسـارعون إلى الـدخول في طاعتك ولو كانوا مـا يعتـد بهم في الديانـة مـا جحـدوا نعمـة اللـه عليهم

بالإسلام وأطاعوك ودخلوا تحت رايتك وأنت عـدو دينهم ودنيـاهم والـذي أخذ بنواصيهم وقادهم إلى ذلـك إنمـا هـو حب المـال الـذي يسـرتم لهم طريق الطمع فيه ولم تعملـوا انهم كمـا أزاغهم الشـيطان وتركـوا دينهم ورفضوا طاعة أميرهم كذلك يتركون دينكم وطاعتكم لان من كـان بهـذا السـبيل لا يوثـق بـه وأنت لغـرورك بهم وثقت بحـالهم واتبعت إشـارتهم أراءهم وبالجملة فنحن في وطن واسع الأطراف ممتد القاصـية لا نـزال نتنقل فيه غربا وشرقا وانتم تتبعون آثارنـا فلا تـدركون شـاونا وغايـة مـا هنالك إن عساكركم تفنى جوعا ومرضـا وذخـائركم تنفـذ وكـل ذلـك من غير طائل فالأولى لكم أن تعمروا بلادكم التي نشأتم فيهـا ونشـأ آبـاؤكم من أجيال متطاولة وأما بلادنا فليس لكم في الاستيلاء عليها نتيجـة وهب إنكم اسـتوليتم عليهـا وأقمتم فيهـا ثلاثمائـة سـنة مثـل من ملكهـا قبلكم فأنكم لابد أن تخرجوا منها كما خرجوا وتمسـوا كـأمس الـذاهب والـدهر هكذا واهب نامب والظاهر أنه يخطر في فكـرك أنـك إذا اسـتوليت على وطننا إن فرنسا تجعلك ملكـا تـدين بطاعتـك هيهـات إنمـا أنت عسـكريا وتموت عسكريا ولم تستفد شيئا فأنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طـولا والـذين اسـتهووك وغـروك من العـرب بطـاعتهم لا يعبـأ بهم إذا حضروا ولا يئس عنهم إذا غابوا فأقوالهم ومواعيـدهم إنمـا هي كسـراب بقبعة يحسبه الضمآن مثلكم هذا حـتى إذا جـاءه شـيئا وغايـة أمـرهم إن الذي يؤملونه منكم لا يصلون إليه وإنما يموتون كفارا تحت رايتكم نسأل الله العافيـة والحمايـة من ذلـك ومن العجب إنكم تعلمـون إننـا وان كنـا خاضعين لأميرنا فأننا ما طلبنا الصلح معكم إلا قهرا وامتثالا لأمره فكيف ألان نميل إليكم ونرغب في طاعتكم ثم لا يخفي إن بلادنا تمتد غربا إلى حدود المغرب الأقصـى وشـرقا إلى حـدود أفريقيـة وشـمالا وجنوبـا من البحر إلى القفر وجميعها مع اتساع أقطارها في غاية الأمن بالنسبة إلينا فلا تظنوا انه يلحقنا ضـرر منكم أو يرهبنـا وضـع عسـكركم في معسـكر

وملیانه والمدیه فأن الضرر والخسـارة وأمثالهـا في الحقیقـة لا تعـود إلا على أولئك الجنـود الـذین لا نـراهم لا أسـرى في بلادنـا إذا لا یـأتیهم مـا یقاتلون به إلا بمشـاق وأتعـاب یتلـف فیهـا من إخـوانهم عـدد كثـیر ومن الذخائر أكثر وملخص ما نقول إننا وإیاكم عبید الله والأرض أرضـه والبلاد بلاده وهو الذي وطن فیها آباءنا فأن أبقانا فیها فله الفضل والطـول وأن أخرجنا منها في ملككم وقبضة تصرفكم فهو مختـار في فعلـه یفعـل مـا یشاء ویحكم ما یرید .

ثم إن بیجو بعد رجوعه من غریس إلى مستغانم تفقد الجنـود الـتي كانت قبله في الجزائر والتي حضرت معـه وبعـده فوجـد التلـف قـد آتى على أكثرها فكتب إلى دولته بذلك واستمدها فامدته بالعسكر والـذخیرة وأقام أربعة أشهر یأخذ في الاستعداد ویتأهب لتجدید الحروب وكـان في هـذه الفـترة یكـاتب القبائـل والعشـائر یـدعوهم إلى الطاعـة ویعـدهم ویمـنیهم تـارة ویتهـدد هم ویوعـد هم أخـرى ویبـالغ في الطـرفین ولمـا اسـتكمل أهبتـه عقـد مجلسـا في وهـران جلب إلیـه قـواد الجیـوش الفرنساویة من الجزائر وغیرهـا وفاوضـهم في تعـیین مدینـة من المـدن الداخلیة یجعلها مركـزا للعسـاكر ومخزنـا للـذخائر فوقـع اختیـارهم على مدینـة معسـكر فخـرج بسـائر الجیـوش إلیهـا واتخـذها مركـزا وبهـذه الواسـطة تیسـر لـه الحمـل على القبائـل وإدخـالهم تحت السـلطة الفرنساویة لان أهل الـوطن لمـا رأوا مـا نـزل بهم من الجائحـة الـتي لا دواء لهـا ولا سـبیل لزوالهـا تحـیروا في أمـرهم وسـئموا من الفـرار في الفیافي والقفـار وملكت ماشـیتهم وفـنى كـراعهم وعلمـوا إن الأمـیر لا قدرة عنده على حمایتهم والـذب عن الـوطن من سـائر جهاتـه لا سـیما وقد تهـافتت قبائـل الـبربر الـذین لیس عنـدهم من الـدین الإسـلامي إلا النطق باسمه على أداء طاعتهم للفرنسیس وأكبوا على التقاط ما نـثره لهم من الذهب والفضة ونالوا من إحسانهم مـا لم یكن في حسـاب ولم

يعلمـوا إن السـم في ذلـك الدسـم فبـذلوا نفوسـهم في نصـرة عـدوهم واعلاء كلمتـه وأعـانوه على المسـلمين المستمسـكين بـدينهم وطاعـة أمـيرهم وكـثروا عـده ودلـوه على عـورات المسـلمين و أرشـدوه إلى الطرق التي يتوصل بها للاسـتيلاء على الـوطن وصـاروا يكـاتبون النـاس في الجهـات ويرغبـونهم في اللحـاق بهم والـدخول في زمـرتهم لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه . ذكر

مسـير المارشـال بيجـو إلى تلمسـان وفي الخـامس عشـر من ذي الحجة سـنة سـبع وخمسـين والتاسـع والعشـرين من ينـاير سـنة اثنـتين وأربعين خرج بيجو من معسكر بجيش كـثيف إلي تلمسـان فطـار الخـبر إلى الأمـير فـأمر بإخلائهـا ونقـل سـائر المهمـات الحربيـة منهـا فأرتحـل الناس ونقلت المهمات منهـا إلا مـا عسـر حملـه كـآلات معمـل المـدافع وشبهها ودخلها العدو أخبرني من يوثق به ان بعض أهالي تلمسان الـذين بـارحوا إليهـا من الطريـق دخلوهـا ليلا وقـدموا طـاعتهم إلى الجـنرال وأخـبروه إن جيـوش الأمـير قـد سـئمت الحـرب ولانت قوتهـا وكـان في عزمه أن يتركها ولما سمع ذلك عقد النيـة على الإقامـة فيهـا والاسـتيلاء الدائم عليها وشرع في تحصينها خشية أن يسـترجعها الأمـير منـه وأقـام بها حكومة وسلم إدارتها للجـنرال بـادو من مشـاهير قـوادهم ثم أرتحـل الأمير من ضواحي تلمسان إلى ندرومه وفيها اجتمعت عليه قبائل تـراره وولهاصة ومن إليهم من قبائل الساحل في تلك الأطراف فـأغزى خليفـة السيد مصـطفى بن التهـامي على الـدوائر والزمالـة في سـاحة وهـران فــأثخن فيهم وغنم غنــائم كثــيرة ثم ســار إلى مضــيق الجــيرة من بلاد الغرابة ومنها انتقل إلى سيك وأما الأمير فأنه أستمر في نواحي تلمسان ينتظر الفرص الموافقة لحرب الجنرال ولما اتصـل خـبر الخليفـة بنـائب بيجو في معسكر أرسل من جنده لتباغت الخليفة في موضعه من سـيك فواصلت سـيرها إلى أن رأت مضـارب العسـكر ليلا فتوقـف قائـدها عن

الهجوم وبعد أن أخذ عسكرة الراحـة عـدل عن الخيـام ومـر في طريـق أخرى في حالة هدوء وسكون حتى لا يحس به العسكر الإسـلامي وكـان الحرس فطنوا بهم ولكن ظنوا انهم من إخوانهم المسلمين جاءوا نجـدة لهم فلم يتعرضوا لهم بشيء ثم اقتفوا أثرهم ولما طلـع الفجـر وعرفـوا أنهم من العدو حملوا عليهم وطيروا الخبر إلى الخليفة فركب في سـائر الجيش ولحقوا بالعدو وعظم الأمر واشتعلت نار الحرب وأتصل ذلك من طلوع الفجر إلى وقت الظهيرة فانهزم العدو واستولى المسـلمون على سائر مدافعه وذخائره وأثقاله ثم رجع الكره عليهم فأزاحهم منـه وصـمد العسكر النظامي الإسلامي وحافظوا على موقفهم ثم حملوا على العـدو حملة رجل واحد واختلطوا به هـبرا بالسـيوف وطعنـا بـالحراب واسـتمر ذلك إلى الغروب ومن الغد اصبح العسكر الفرنساوي سائرا إلى وهـران والمسـلمون أخــذ بهم التعب والإعيـاء مأخــذهما فلم يلقـوه ثم انتقـل الخليفة بعسـكره النظـامي ومن بقي معـه من الجيـوش المتطوعـة إلى الجبـل المطـل على سـيك ولمـا اسـتولى بيجـو على تلمسـان رجـع إلى الجهة الشرقية على طريق الخط الفاصـل بين بلاد الصـحراء وبلاد التـل فوصل إلى قلعة سبدو وبعـدها عن تلمسـان نحـو المرحلـة وجـرت بينـه وبين قبائل تلك النـواحي حـروب كـان الظفـر فيهـا لـه ثم لاذوا بطاعتـه ومنها إلى قلعة سعيدة على مرحلتين من معسكر وقد كـان خربهـا قبـل فقــدم الجعــافرة والحســا ســنة وأولاد إبــراهيم وأولاد خالــد ومن إليهم مقاليد الطاعة إليه فأفـاض فيهم العطـاء جلبـا لغـيرهم ومنهـا سـار إلى القيطنة فأحرقهـا وهي بلـدة عائلتنـا أختطهـا جـدنا السـيد مصـطفى بن المختار سنة ست ومائتين وألف لجهـة الشـمال من معسـكر تبعـد عنهـا بمرحلة قال القبطان دي مـورون في تاريخـه وكـانت تلـك البلـدة مبنيـة بوسط واد يانع بالأزهار تندهش منه الأبصار وكـان لا يظن أنـه يوجـد في أقص أفريقية أبنية محكمة البناء كأبنيتها وفي هذه الأيام خـرج جيش من

مدينة الجزائر قاصدا بني مناد في نواحي شرشال فـأوقع بهم ولمـا رأت قبائل تلك الجبهة ما حل بجيرانهم لاذوا بالطاعة قال مـؤرخهم روا ولمـا توجه المارشال بيجو إلى نواحي شلف ضرب خيامه على أطراف الجبال ملجأ القبائل التي كانت لم تـزل تعسـكر كـاس راحتـه وتناوشـه الحـرب وبأداء طاعتهم له حصل الأمن في سهول متيجه إلى مدينة الجزائر نوعـا ما وصـارت المواصـلة بين المديـه ومليانـه وشرشـال قليلـة الخطـر في بعض الأوقات انتهى وأما الأمير فأنه سار بجنوده إلى الجهات الصحراوية وسـائر القبائـل الـتي كـانت قـدمت طاعتهـا للعـدو لاذت بطاعـة الأمـير واعتذرت بالعجز وارتكاب أخف الضررين فعفا عنهم وانتظموا في سـلك جنوده وضرب معسـكره في معـبر الأطلس وهـو من المعاقـل القديمـة كان يغزو على العدو ومن دان بطاعتـه من العـرب والـبربر ويتـابع شـن الغارات عليهم ويذيقهم النكال ويجلب الهم الويل والوبال ويبث السراب والبعـوث إلي الجهـات فانحـازت المنتصـرة إلى ضـواحي المـدن وخلت البلاد من أهلها وانحصرت العمـارة في الصـحراء للمسـلمين والسـواحل وما قاربها للعدو قال بالمـار إن الأمـير رأى من الـواجب عليـه ديانـة أن يؤدب القبائل التي خرجت عن طاعته وانضمت تحت راية عـدوه وقصـد بذلك قطع علائق الفساد وحفظ الشعائر الدينيـة والمحامـاة عن الـوطن فصـر يتـابع الغـزو والغـارات عليهم ولكن ذلـك لم يجـد الأمـير نفعـا لان الناس توجهت قلوبهم لطاعة عدوه طلبا للراحة من مشاق الانتقـال من موضع إلى آخر ورأى بني عامر وانغسـل وتلـك النـواحي فصـده وأظهـر عداوته والمارشال بيجو وان كانت انتصاراته متتابعة فأنـه لم يتـق بـذلك لما هو معلوم من أحـوال العـرب والـبربر قـديما وعلاوة على ذلـك فـأن فرسـان الحشـم والشـراقة والغرابـة المشـهورين بالشـجاعة واقتحـام الشدائد لم يميلـوا بـل لم يفـارقوا سـيدهم وأمـيرهم الـذي بـايعوه على الموت وارتحلوا بأهليهم وأولادهم معـه وخيمـوا حيث خيم بأهلـه وأولاده

وجنوده بمعبر الأطلس ولذا ترى إن المارشال كان دائما يخشى الوقــوع في محذورات لا خلاص له منها ولم تهدأ أفكاره من اضطرا بها ولا سيما أنه رأى القبائل بعد أن بذلت طاعتها إليه راجعت طاعة سيدها لمـا رأتـه وهرعت إلى أعتابه تطلب العفو وتعتذر بعجزهـا عن دفـاع العـدو الكثـير الجنود فهذا الفعل وأمثاله أدى المارشال إلى الحكم بأن جميـع مـا يـراه من العرب من إظهـار الطاعـة والقتـال معـه إنمـا هـو من قبيـل الأمـور الخيالية التي لا أساس لثبوتها فعقد في معسكر مجلسا حربيا وقـال لهم إن الأمير كما ترون قد نـزل بجيوشـه في جبـال وانشـريس قـرب التـل وسائر بلاد شلف ونهر مينة الجنوبيـة رجعت إلى قبضـة يـده وجميـع من يحاذيها من قبائل العرب والبربر لم تخرج عن طاعته فالأولى إننـا نجمـع جيوشنا وتخرج بها دفعة واحدة من الجزائر ومستغانم ووهـران كـل إلى مليانه إلى الداخلية فأجابه أهل المجلس إن فصـل الشـتاء قـد أقبـل فلا نتمكن من مطلوبنا فقال إذا يلزمكم أن ترتبـوا الفـرق الآن وبعـد مضـي الشتاء نجري ما يقع عليه اتفاقكم فأجـابوه إلى ذلـك وقـر قـرارهم على إن سـائر الجنـود تنقسـم إلى ثلاثـة أقسـام قسـم يكـون تحت نظـر المارشـال بيجـو ويكـون مركـزه في نـواحي شـلف والثـاني تحت قيـادة الجنرال شانكرني ويكون مركـزه البليـدة والثـالث تحت قيـادة الجـنرال لامورسير ويكون مركزه معسكر وفي أواخر الشتاء خرج كل قسـم إلى موقفه المعين له وأخـذ كـل من القـواد الثلاث يشـن الغـارات المتتابعـة على مـا يليـه من القبائـل فمـا نجح واحـد منهم في عملـه لان سـائر الشعوب والقبائل تركوا أوطانهم وأرتحلوا إلى الصحراء كل إلى ما يليـه منها فأتبعتهم الجيـوش الفرنسـاوية فلم تـدرك لم أثـرا واسـتولى التعب والنصب عليهم والدبر والنقب على دوابهم ونفذت ذخائرهم ورجعوا إلى مراكـزهم من غـير طائـل وأمـا الأمـير فانـه كـان كلمـا تـوجهت فرقـة فرنساوية على جهة يخالفها إلى جهـة أخـرى فيصـيب من المنتصـرة ولا

تصـيب الفرقـة من المسـلمين شـيئا وتوغـل الجـنرال لامورسـيلر في الجنوب وشن الغارات على البسائط والجبال في نواحيها فخالفه الأمـير إلى جهة معسـكر فاكتسـح مـا في قريـة الـبروج من ألا متعـة والأمـوال واستاق ماشيتها ثم أضرب نـارا وسـار على وجهـة إلى الجهـة الشـرقية فمر بجيوشه ليلا على معسكر بيجو في شلف وشـن الغـارة على قبائـل تلك النواحي فغنم واثخن في القتل والأسر والسبي وتوجه إلى الجنـوب فتعجب الفرنسـاويون من أمـره وسـرعة سـيره وبلوغـه مـا قصـده من الخوارج في أيام قلائل متوالية وفي أثناء هذه الحوادث حدث بين دولتي فرنسـا والإنكلـيز نـزاع في قضـية تعلـق بمدينـة أرثاهيـة إحـدى مـدن الاوقيـانوس فحسـبها الأمـير فرصـة يجب اغتنامهـا فأرسـل إلى دولـة الإنكليز معتمدا من طرفه ليفاوضـها في أمـره ويلتمس منهـا أن تشـغل عنـه وجـه الفرنسـيس حـتى يتمكن من مـدافعتهم عن الـوطن فـأحس الفرنسيس بذلك وتلافوا أمره مع الإنكليز ثم إن الأمـير كتب إلى الدولـة العثمانية يستنجدها ويخبرها بما وصل إليه حال الوطن الذي هو جزء من ممالكهـا فلم تـرد لـه جوابـا وكتب إلى صـاحب مـراكش يسـند عليـه المشركة في دفاع العدو لاتصال المغربين الأقصـى والأوسـط وقـال إن أصبحت بلاد الغرب الأوسط في يد فرنسا فكيـف تـأمن على بلادك ومـا الذي يمنعها منها فتغافل عن الجواب وانتهت أيام سـنة ثمـان وخمسـين ومائتين واثنتين وأربعين وثمانمائة على ما ذكرنـاه من الوقـائع المتتابعـة ثم إن الأمير لما رأى إن العدو قد استولى على المـدن والقلاع ظهـر لـه إن يتخذ عاصمة كبـيرة رحالـة مؤلفـة من خيـام كثـيرة ومضـارب كثـيرة فباشر في ترتيبها وفي أقرب مدة ظهرت للوجود على أحسن الأسـاليب وأجمل التراتيب وسمى ما يخصه منها الزمالة وما يخص الأعيان والعامة بالدائرة ومـا يخص الجنـد بالمحلـة وأتخـذ فيهـا جملـة مضـارب لمعامـل السلاح وأخرى لوضع المهمات الحربية ومثلهـا للـذخائر وأعـد فسـطاطا

واسعا لاجتماع المجلس العام وآخر أتخـذه مسـجدا ورتب للباعـة وأهـل السوق تضرب بعيدة عن الزمالة والدائرة وما يتعلق بهما فكـانت تجـبى إليها الذخائر وسائر ما يلزم الإنسان وتقصد بالتجارة في صنوف البضائع وما تدعو الضرورة إليه من الحرف والصنائع وبالجملة فقد كانت الزمالة والدائرة ومتعلقاتها على أتم ما يكون من الانتظام والالتئام المدني وكان لها منظر جميل ترى منازلها من كونها مدينة حافلة ذات قصـور مشـيدة وأبنية جليلة وكانت تعد مركزا حربيا ومقرا مدنيا تشمل على مائتي ألف نفس وكان الأمير يبث من هـذه المدينـة الرحالـة غوازيـه وبعوثـه وفيهـا يستعد للحرب وكانت الجيوش الفرنساويه تتقيهـا وتحـذر منهـا ولم تـزل تزداد كمية واتساقا وارتباطا حتى صارت ملجأ عظيما وحصـنا أمينـا وقـد عين لحراستها وحماية حوزتها أربعة قبائل من العرب وفرقة كثيرة العدد من العسكر النظامي أضلع على هذه المدينة الرحالة وترتيبهـا علاف مـا كان عليه الأمير من الآراء المصيبة والتدابير العجيبة الـتي أنفـرد بهـا في وقته ولم يسمع فيما مضـى بملـك أتخـذ عاصـمة ملأت الجنـود والأغـوار تتردد بين الحلول والارتحال والإقامة والانتقال وحيث إن الفاعل المختـار في فعله قضى بان مصير كل شئ إلى الزوال وأنـه لا وسـيله لبقائـه ولا احتيال فلا متاعب ولا ملامة ولا تحسر ولا ندامة إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده . ذكر ما كتبه الأمـير جوابـا عن سـؤال قدمـه إليـه بعض الأعيان من خواصه

الحمد لله حمدا يوافي ويكافئ مزيده وصلى الله على سيدنا محمد وآل محمد ومن تبعه وجرى على منواله اللهم أنى أعوذ بك من معضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن ونضرع إليك يا مقلب القلوب أن تثبت قلوبنا على ديننا المحبوب أما بعد يا أخي فأني رأيتك متعطشا إلى سماع ما لأئمتنا من الكلام في هؤلاء الذين ركنوا للعدو فأحببت أن أذكر لك ما روي عنهم في ذلك ولولا أني رأيت شدة تعطشك وأوامك ما ذكرت لك شيئا مما هنالك إذ ربما تفنى في نصيحة أولئك الجهلة باقي أيامك من غير طائل ويكون تعبك في علاجهم كتعب من رام إصلاح الفاسد أو حياة الهالك . وهل يصلح العطار ما افسد الدهر .واعلم إن الراكن إلى الفار الداخل تحت ذمة أهل البوار أحد رجلين أما رجل كذب الله في ضمانه لرزقه نعوذ بالله من كفره وحمقه وقال إن

هاجرت مت جوعا وأزداد بذلك هلوعا وأعتقد إن وطنه هو رازقه لا إن الذي يرزقه هو موجودة وخالقه ولما خطر في قلوب جماعة من المؤمنين في زمانه صلى الله عليه وسلم بعد إن نزل قوله تعالى آمرا بالهجرة يا عبادي إن أرضي واسعة فإياي فأعبدون أنزل الله قوله وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم قال المفسرون في هذه الآية تحريض على الهجرة لان بعض المؤمنين فكر في الجوع والفقر اللذين يلحقانه في الهجرة وقال غربة في دار لا مال فيه ولا عقار ولا من يطعم الجار فضرب الله لهم المثل بحال الدواب التي لا تسعى في تحصيل قوت ولا تذخره وأما رجل متكالب على الدنيا أصمه وأعماه حبها يريد بها سواء كان بالإسلام أو بالكفر وكلا هذين الرجلين لا يرجى صلاحهما ولا يؤمل نجاحهما ومن يرد الله فتفته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله إن يطهر قلوبهم لبهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء إن الله لا يهدي من يضل وهذه الفتن جرت بها سنة الله التي قد خلت في عباده وحكمته الجارية في أرضه وبلاده ليتبين الصادق من المدعي زمن تحلي بحلية ليست له فضحته شواهد الامتحان ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهو لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكافرين أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا ومنكم يعني إن الله تعالى يختبر عباده ويمتحنهم حتى يتبين للناس الذي لم يتخذ وليا ولا نصيرا من دون الله ورسوله والمؤمنين من الذي يتخذ نعوذ بالله من المهالك أم حسبتم إن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ولعل هذا هو الزمان الأذى أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تأتي في آخر الزمان فتن يصبح الرجل مؤمنا ويسمى كافرا إلا من أجاره الله بالعلم وفي رواية بعلمه ولقد ظهر في أهل هذا الزمان مصداق قوله صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن من قبلكم سبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه قالوا اليهود والنصارى يا رسول الله قال فمن رواه البخاري في صحيفته لان أهل هذا الوقت كانوا يطلبون الجهاد ويمنون مجيء النصارى فلما ظهر الجهاد نكصوا على أعقابهم فهم في هذا كبني إسرائيل إذا قالوا لنبي لهم أبعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال إلا تقاتلوا قالوا ومالنا إلا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا ولأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا ألا قليلا منهم والله عليم بالظالمين فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أمرنا إلى أجل قريب ثم بعد هذا أرادوا من سلطانهم أن يجاهد وحده ويكتفل بردع العدو ويعرفه حدة فهم في هذا كبني إسرائيل أيضا إذ قالوا لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا أنا ههنا قاعدون ثم بعد هذا صاروا ردم للكافرين ومعينين لهم بالأنفس والأموال على من بقي مستمسكا بعروة الإسلام وأعظم هؤلاء ذنبا وأشدهم هلاكا أبعدهم نجاة وأكثرهم في الأمر سقوطا رجلان أحدهما رجل عرف الحق وعاند وهو أول من تسعر به النار اذ هو عالم لم ينفعه الله بعلمه وجحد الحق مع معرفته به انه حق وهذا أصل من أصول الكفر الستة ومنه كفر الموجودين في زمانه صلى الله عليه وسلم المشاهدين لمعجزاته قال تعالى فيهم أنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون وهذا أعظم الضلال والداء العضال أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فبعد الختم لا ترجى زيادة ولا نقصان في الشيء المختوم عليه والآخر رجل قرأ بعض أبواب الفقه فعلم بعض أحكام الصلاة والنكاح والبيوع فظن أنه وصل إلى غاية أستحق أن يسمى بها عالما فصار يقول في دين الله ما ليس له به علم ويفتري على الله على الله الكذب ومن أظلم ممن

افترى على الله كذبا أو كذب بآياته أنه لا يفلح الظالمون ويستدل بآيات وأحاديث وكلام الأئمة وهو مع هذا لا يحسن النطق بمبانيها فكيف له الغوص على معانيها فالحمار أحسن حالا من هذا إذ جهل الحمار بسيط وجهل هذا مركب . قال حمار الحكيم توما

لو أنصف الدهر كنت أركب ◈ لان جهلي جهل بسيط

وصاحبي جهله مركب

والجهل المركب أصل من أصول الكفر الستة فجميع هذا الصنف مع قبح ما هم عليه من الدخول تحت ذمة الكفر استحلوا ما حرم الله من ذلك والمستحل لما حرم الله كافرا وخرقوا الإجماع فأن الإجماع منعقد على وجوب الهجرة ومخالف الإجماع كافر وجعلوا ما ورد في القرآن والسنة من ذكر الهجرة ومدحها والأمر بها عبثا ومنسوخا وذلك باب لميلهم وأقوالهم الكاذبة كيف والقرآن مملوء بذكر الهجرة ومدحها وذم تاركها وقد قال عليه الصلاة والسلام لا تنقطع الهجرة حتى يغلق باب التوبة ولا يغبق باب التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها وقال عليه الصلاة والسلام أنا بريء من كل مسلم مقيم بين أظهر الكافرين رواه أصحاب الصحيح البخاري ما عدا البخاري وقال آخر وهو ممن بلغ رتبة الاجتهاد الحافظ السيوطي في حسن المحاضرة في أخبار مصر القاهرة لما ساق هذا الحديث ما تبرأ منهم صلى الله عليه وسلم إلا لكفرهم وفي الصحيح من جامعهم أو ساكنهم فهو منهم قالوا لم يا رسول الله قال إلا تترايا نارهما وقال مالك رضي الله عنه تحب الهجرة من أرض الظلم والعدوان فكيف ببلد يكفر فيه بالرحمن وتبعد من دونه الأوثان وقال تعالى قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها قال أبو السعود في الآية دليل على أنه لا عذر في ترك الهجرة إلا عدم اتساع الأرض وقد وسعها الله ولو كان هناك عذر يقبل عذر يقبل في ترك الهجرة ما كان في الآية تبكيت لتاركيها إذ ربنا يعتذرون بعذر آخر فلما ذكر الله اتساع الأرض دل على أنه لا عذر غيره وقال الوانشريسي في كتابه المعيار الواجب الفرار من دار غلب عليه الشرك والخسران إلى دار الأمن والأيمان ولذلك قوبلوا بالجواب عند الاعتذار ألم تكن أرض الله واسعة فلا عذر للمستطيع بوجه وان كان بمشقة في العمل أو الحيلة لو اكتساب الرزق في ضيق المعيشة إلا المستضعف رأسا الذي لا يجد حيلة ولا يهتدي سبيلا وعجز المسلم عن حمل أهل بيته وولده لا يبيح له التخلف عن الهجرة بل يهاجر بنفسه وقد هاجر صلى الله عليه وسلم لما تعذر عليه إخراج أهله معه وما لحقوا به إلا بعد حين وكذا إن أخاف إن هاجر يسلب ماله فأن مفارقة الوطن أو سلب المال ليس بعذر في ترك الهجرة نص على ذلك صاحب المعيار وقد ذكر أهل الأحوال إن الضرورات التي تجب المحافظة عليها خمسة الذين والنفس والعقل والنسب والمال فكل واحد من هذه يجب حفظه ما لم يعارضه حفظ ما قبله فالمال هو آخر المراتب والدين أولهما فهو مقدم على غيره وكذا تجب الهجرة على المرأة إذ لم يهاجر زوجها وقد هاجر كثير من المسلمات إلى الحبشة قبل هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة واليها بعد هجرته صلى الله عليه وسلم وفيهن أنزل الله تعالى قوله (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن) الآية) .ولم يعذر الله تعالى في المقام تحت ذمة الكافر إلا الذي لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا كالأعمى الذي لا يجد قائدا والزمن الذي لا يجد حاملا مع نيتها انهما متى وجدا ذلك هاجرا فأن تركا النية وماتا على غير سبيل المؤمنين نص على ذلك غير واحد والكتاب العزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه محذر من مخالطة الكفار وموالاتهم ومواددتهم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) إلى قوله (ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل

وقل أنما ينهاكم اله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهرا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) وقال بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما إلى قوله (فأن العزة لله جميعا) فبين الله مراده في المنافقين في الآية بقوله الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين فالذي يتخذ الكافر وليا منافق إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث القاطعة الصريحة الصحيحة التي لا تحتمل تأويلا وقد ذكر صاحب المعيار في باب الجهاد إن هؤلاء المقيمين تحت ذمة النصارى لا تصح لهم صلاة ولا صيام ولا حج ولا جهاد بوجه من الوجوه فأنظره فأنه قد طال عهدي به ومما ذكر إن الزكاة شرطها أن تدفع للإمام يعني سلطان المسلمين فإذا دفعها للنصارى ليتقووا بها على المسلمين كانت المصيبة أشد ومنها إن شهر رمضان في الغالب لا يثبت إلا برؤية عدلين ابتداء والعدالة إنما تثبت عند الإمام وقاضية وحيث أنه لا إمام ولا قاضي فيكون رمضان مشكوك الأول والآخر إلى غير ذلك من الوجوه ولا تجوز شهادة المقيمين تحت ذمة النصارى إلا من له عذر مقبول شرعا ولا تنفذ أحكام قضائهم قال بعض العلماء هم أشد من أهل الأهواء وقد ردت شهادتهم وأحكامهم وقال أبن عرفة شرط قبول خطاب القاضي صحة ولاية ممن تصح توليته بوجه الشرع اعتزازا من أهل الدجى كقضاة مسلمي بتسميه ومرسيه وقو صرة من الأندلس ومرادهم بالدجن المسلمون الداخلون تحت ذمة النصارى وأهل الجزائر يسمونهم المنافقين وسئل المازري عن أحكام تأتي من صقلية من عند قاضيها فأجاب القادح في هذا وجهان الأول من جهة القاضي من حيث العدالة فلا يباح له المقام في دار الحرب في قيد أهل الكفر والثاني من جهة الولاية إذ القاضي مولى من قبل أهل الكفر ومن كان هذا حاله فلا يعتبر حكمه في الشرع وقد بلغني عن هؤلاء الرؤساء الجهال الذين أفتوا بغير علم فضلوا وضلوا المعنيين بقوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله يأتي على الناس زمان عالمهم أنتن من جيفة حمار أنهم يندلون بقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح وهذا الحديث في صحيح البخاري وغيره .ولا حجة لهم فيه لأن النبي صلى الله عليه وسلم قاله لسائل سأله عن الهجرة من مكة إلى المدينة قد انقطعت بالفتح ونسخت كما نسخت حرمة رجوع المهاجر إلى وطنه إذا عاد دار إسلام وأما وجوب الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام فهو باق إلى طلوع الشمس من مغربها قال ابن العربي الهجرة أقسام منها الهجرة من الخوف على الدين والنفس كهجرة النبي صلى الله عليه وسلم وهجرة أصحابه المكيين فإنها كانت عليهم فريضة ولا يجزي إيمان بدونها ومنها الهجرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في داره التي استقر فيها فقد بايع صلى الله عليه وسلم من قصده على الهجرة كما بايع آخرين على الإسلام وهاتان الهجرتان انقطعتا بفتح مكة وأما الهجرة من أرض الكفر فهي باقية إلى يوم القيامة وكذا الهجرة من أرض الباطل والحرام والهجرة من أرض الفتنة وروى أشهب عن مالك لا يقيم أحد في موضع يعمل فيه بغير الحق مقال البرزالي في بعض أجوبته الإجماع على وجوب الهجرة أن وجد المسلم إليها سبيلا وكذا يستدلون بقوله تعالى ألا أن تتقوا منهم تقاة وهذه الآية منسوخة روى البخاري في صحيحه من كتاب التفسير عن بن عباس رضي الله عنهما أنه قال لا تقيَّة اليوم لاتساع البلاد الإسلامية وكذا يستدلون بقوله تعالى ألاَّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان والآية إنما وردت فيمن يظفر به الكفر من غير اختيار كالأسير إذا حملوه على معصية أو نطق بكفر يسوغ له ذلك لخوف القتل والصبر أجمل ما كونه متمكناً من الفرار ويبقى تحت حكمهم فلم يقل به مسلم وكذا يستدلون بما ذكره البيضاوي في تفسير قوله تعالى قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم فانه قال في الآية دليل على جواز النولية على يد الكافر ولا بحجة

لهم في هذا فان البيضاوي قال بعد هذا إذ علم أنه لا سبيل إلى إقامة وسياسة الحق إلا بالاستظهار به وهذا الشرط معدوم اليوم وقد قال غير واحد أن كان أسلم قبل ذلك على أنه إنما يكون ما ذكره البيضاوي على تقدير صحته فيمن كان تحت أسرهم فانه يجوز له أن يطلب منهم ذلك في التولية إذ بعض الشر أهون من بعض ويوسف عليه السلام جده الخليل عليه السلام وهو أول من سن الهجرة قال الله تعالى حاكياً عنه وقال إني مهاجر إلى ربي ومعه سارا فدخل قرية فيها جبار من الجبابرة الحديث بطوله وكذلك يستدلون بما نقل عن النووي والرافعي أن المسلم إذا كانت له عشيرة تحميه وله جاه لا تجب عليه الهجرة ولكن تستحب في حقه نقل ذلك ابن النحاس في مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق وهذا أيضاً لا دليل فيه لان كلام النووي والرافعي فيمن كان كافراً في دار الحرب ثم اسلم وكان لا يخاف الفتنة في دينه لحماية عشيرته وتوفر عصابته أو جاهه بحيث لو أراد الكفار ذلك لا يقدرون فيأمن لذلك من الفتنة وقد وقع من هذا النمط كثير في الصدر الأول كما ذكر ذلك أهل السير والإخباريون أما من كان مسلماً في دار الإسلام ودخل عليه الكفار بالقهر والغلبة فلا يتصور أن تكون له عشيرة تحميه أو جاه يأمن بهما من الفتنة في دينه مهما أرادهما الكفار منه وهل يوجد واحد من هذه الشعوب والقبائل الداخلة تحت ذمة الكفار من له عشيرة تحميه من الكفار إذا أرادوا إجراء حكم من الأحكام عليه أو يأمن الفتنة بواحد من هذين الوجهين اللذين ذكرهما الرافعي والنووي اللهم إلا أن يكون أحمق ضعيف العقل والإيمان فيأمنهم ويثق بعهودهم ومواثيقهم وإن الشارع الحكيم لا يقبل شهادتهم وأقوالهم بالإضافة إلينا وكان هذا الأحمق لم يصل إليه خبر الأندلس خصوصاً أهل قرطبة فانهم تعاقدوا مع الكافر لما غلبهم على نيف وستين شرطاً اشترطوها عليهم فلم يحل الحول عليها حتى نقضوها عروة عروة وآخر الأمر صار الكافر يأتي إلى المسلم يقول له أن جدك أو جدّ أبيك أو أباك أو جدك كان كافراً فرجع إلى الكفر الذي كان عليه جدك واترك دين الإسلام إلى غير ذلك فالنصارى لا يوفون بعهد إلا إذا كانت كلمة الإسلام هي العليا وشوكته قائمة كيف والله تعالى يقول لا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم أن استطاعوا وقل كيف وأن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاّ ولا ذمة وإلا القرابة وأولئك هم المعتدون أي المتجاوزون أي لا يقفون عند شرط ولا عهد .ومن شنيع حمق هؤلاء وضعف عقولهم ومرض إيمانهم أنهم يسمون طاعتهم للكافر مهدانة وهل يسوغ لمن له أدنى عقل وتمييز أن يتلفظ بهذا كيف وأحكام الكافر وشرائعه وتصرفاته جارية على شريفهم ووضيعهم ويؤَدون إليه المغارم ويحملون أثقاله إذا أراد الغزو على المسلمين ويقاتلونهم معه في جملة عساكره وجيوشه هذا والله الهذيان الذي لا يعقل على أن المهادنة خاصة بالإمام أو نائبه فلا يعقدها سواهما قال خليل والإمام المهادنة يعني لا لغيره فمقدم الخبر مع جره بالآم وكلاهما يفيد الحصر والاختصاص واعلم أن هذه المصيبة هي ظهور الكفار على المسلمين حتى دخلوا تحت ذمتهم لم تكن في القرن الأول ولا في الثاني ولا في الثالث ولا في الرابع وإنما حدثت في الخامس وبعده ولذا لم يوجد فيها قول ولا نص لواحد من الأمة رضي الله عنهم ولما حدثت ووقع السؤال عنها قاسها ساداتنا أهل النظر والاجتهاد المذهبي على مسألة من اسلم ولم يهاجر قال ابن رشد وهو قياس صحيح وقد اختلف الأمة فيمن اسلم ولم يهاجر وأقام تحت ذمة الكفار من غير أن تحصل منه إعانة لهم لا بالنفس ولا بالمال أما أن أعانهم بماله طوعا أو كرها بان أخذوه منهم مغرماً أو بايعهم أو شاراهم ولو في أقل شيء فقبل القاضي ابن الحاج التجيني الأندلسي من القواعد أن الإعانة بالمال تبيح المال والإعانة بالنفس تبيح النفس وقال الإمام المغيلي في كتاب له سماه مصابيح الفلاح

أن هؤلاء المؤُمنين يعني الذين طلبوا الأمان من الكفار وأمنوهم وأقاموا تحت ذمتهم ودانوا بطاعتهم تؤخذ أموالهم ويقتلون ولو كانوا يقرؤون القرآن وقال ابن القاسم واصبغ في مال المسلم المقيم في دار الحرب أنه مباح وأنه لا يد لصاحبه وإنما اليد للكافر وقد حرر في هذه المسألة الإمام ابن عباد شارح الحكم في جواب له ونصه حال المنتصرة على حسب فرقهم فان منهم من يلجأ لحصون العدو ليدافع بها عن نفسه ومنهم من يكون معينا له بنفسه وماله بمعنى أنهم يقاتلون مع العدو ويدافعون عنه ويغيرون على المسلمين وهؤلاء أشد ضرراً على المسلمين وحكمهم حكم أهل دار الحرب في قتلهم وسلب مالهم وأما أولادهم فلا يقتلون ولا يكونون فيأ وإنما أبيح قتل البالغين لكونهم ردءاً للعدو الحربي معينين لهم بأنفسهم وحكم الردء إذا لم يقاتل مع العدو حكم المقاتل فأحرى إذا قاتل قال بعض المحققين من علماء تونس في جواب عن أهل حصن كانوا ردءاً للكافرين المحاربين ما نصه وقول هرقل لو كنت أرجو أن أخلص إليه لتجشمت لقيه يعني دون خلع من ملكه وهذا التجشم هو الهجرة وكانت فرضاً على كل مسلم قبل فتح مكة فان قيل أن النجاشي لم يهاجر قبل فتح مكة وهو مؤمن فكيف سقط عنه فرض الهجرة قلنا أنه هو في مملكة أغنى عن الله ورسوله وعن جماعة المسلمين منه لو هاجر بنفسه فرداً لأن أول غنائه أنه حبس الحبشة كلهم عن مقاتلة النبي صلى الله عليه وسلم مع طوائف الكفار هذا مع أنه كان ملجأ لمن أوذي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورداءاً لجماعة المسلمين وحكم الردءِ في جميع الأحوال حكم من كان رداً له وكذلك ردؤ اللصوص والمحاربين عند مالك والكوفيين يقتل بقتلهم ويجب عليه ما يجب عليهم وأن كانوا لم يحضروا الغل ومثله في المساواة تخلف عثمان وطلحة وسعد بن زيد رضي الله عنهم عن بدر وضرب لهم النبي صلى الله عليه وسلم بسهامهم من غنيمة بدر قالوا وأجرنا يا رسول الله قال وأجركم انتبى فانظر قوله وحكم الردءِ إلى آخر كلامه ففيه الكفاية في تبين ما يجب العمل به ومنه تعلم أنه من يدخل تحت جوارهم وأمانهم من غير إعانة لهم بنفسه ولا بماله وأنه لم يكن لهم عيناً ولا ردءاً دونهم لا يباح قتله وإنما هو عاص لا يباح ما عصمه الإسلام من دمه وماله وإنما يباح سلب مال من يكون معيناً للعدوّ به على قتال المسلمين ومقاومتهم ومناهضتهم وقد أفتى العلماء بإباحة أخذ مال قوم كانوا بقرب حصن العدو وهم قادرون على منازلته بذلك المال ولم يفعلوا فجوزوا للقيام بالحق المتعين أن يأخذ الإمام القدر الزائد على كفايته ويصرفه في منازلة ذلك الحصن لا سيما إذا علم أنهم ينفعونه ويعينونه به مثل هؤلاء الذين نتكلم عنهم في أمرهم وإنما لم يبح قتل أولادهم ولا سبي نسائهم فلعدم تعلق الإثم بهم لصغر الأولاد وضعف النساء وأصالة إسلامهم بخلاف الحربي إذا أسلم وأقام بدار الحرب حتى أخذ فولده وماله فيء مطلقاً ولا يقاس المسلم بالأصالة عليه خلافاً لابن الحاج هذا هو التحقيق في هذه المسألة ومنهم من لجأ للمسلمين وصار يقاتل العدو معهم وهو مع ذلك يعين العدو خفيه ويعلمه بأحوال المسلمين ويطلعه على عوراتهم وكذلك أن أطلعهم على كتب يكتبونها فأن حكم هؤلاء حكم الزنادقة اطلع عليهم قتلوا وإلا فأمرهم إلى الله انتهى كلام ابن عباد وقال القاضي ابن الحاج الأرجح سبي ذراري هؤلاء ليعيشوا في دار الإسلام آمنين من الفتنة في الدين يعني لا ليملكوا وأما الذين يستجيشون بالكفار ويطلبون منهم الغزو على المسلمين فهم مرتدون قال البرزلي في نوازله أحفظ أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين استفتني على العدوة في المعتمد بن عباد فاتفقت فتيانهم على أن مجرد الاستجاشة على المسلمين بالكفار ردة مقصودهم بذلك ولو لم يحصل المطلوب والمعتمد ابن عباد هذا كان من ملوك الأندلس واستجاش بالطاغية على يوسف المذكور ونصر الله

المسلمين فظفر به يوسف وقال بعض شراح رسالة ابن أبي زيد القيرواني الفرار من دار الإسلام إلى دار الحرب ردة وقال الحطاب في باب الردة إدخال السرور على الكفار ردة ولا يخفي على كل مميز ما يدخل الكافرين على الكافر من السرور عند دخول من يدخل تحت ذمته قال الأجهري في حاشيته على المختصر جعل البرنيطة على الرأس ردة وهؤلاء المتعضدون بالنصارى الداخلون تحت ذمتهم يحبون نصرة الكفار على المسلمين الذين يغيرون عليهم ويفرحون بذلك كلهم رجالاً ونساءً وهذه ردة نسأل الله السلامة والمرأة إذا ارتدت قال كثير من الفقهاء تقتل كالرجل وقال أسهب تسترق ولا تقتل نقله التلمساني في حاشيته على الشفا لعياض قال القاضي أبو بكر ابن العربي ومنشأ الخلاف في ذلك أن قتل الكافر هل هو لكفره أو لحرابته فأما من قال لكفره قال تقتل المرأة وأما من قال لحرابته قال لا تقتل لأنها لا تحارب وإذا تاب أحد ممن ارتد والعياذ بالله فالمشهور أن ماله يرد عليه ونقل ابن عرفة في مختصره عن ابن شعبان أنه لا يرد عليه بل يبقى فيئاً كما كان في حال ارتداده كما أفتى به بعض العلماء ففي سبي نسائهم وذرياتهم خلاف فالذي ذهب إليه كثير من الفقهاء أنه لا سبي في نسائهم وذرياتهم والذي ذهب إليه خليل حيث قال وإن ارتد جماعة وحاربوا فكالزناديق يعني يقتل ولا تسبى امرأته ولا ولده وقال ابن وهب من المالكية وجمهور الشافعية المرتد يسبى كالكافر الأصلي وهو حكم أبي بكر الصديق رضي الله عنه في أهل الردة فانه حكم بسبيهم وأعطى علياً بن أبي طالب رضي الله عنه أم محمد ابن الحنفية وكانت سبيت يوم حرب أهلها بني حنيفة وقتل مسيلمة الكذاب ووطئها على رضي الله عنه بملك اليمن قال ابن حجر في شرح الأربعين قول ابن بطال الإجماع على أن المرتد لا يسبى منقوض بما ذهب إليه ابن وهب من المالكية وبما ذهب إليه جمهور الشافعية وخالف عمر بن الخطاب أبا بكر رضي الله عنهما فانه أطلق سراح المرتدين بعد موت أبي بكر رضي الله عنه وقد كانوا في أسره وقال بعض العلماء كما نقله الشيخ سالم لا خلاف بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في سبي المرتدين إذ الإمام مخير بين الاسترقاق والمنّ فأبو بكر رضي الله عنه اختار استرقاقهم وعمر رضي الله عنه منّ عليهم ولا تناقض في ذلك وإذا قتل الغزاة نساء هؤلاء المنتصرة الذين تحت ذمة النصارى وصبيانهم فلا حرج على قاتلهم ولا إثم وقد عقد البخاري لذلك باباً في صحيحه قال باب أهل دار الحرب يسبون وفيهم النساء والصبيان ثم ساق الحديث على أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال هم منهم وذكر في آخر الباب لا حمى إلا لله ولرسوله انتهى المقصود بحمد الله وحسن عونه في من جواب سؤال المحبين قطعاً لشبه المرتدين ونحن في الثغر مرابطون ولا كتب عندنا ولا مواد وذلك في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف من هجرة حائز الفخر والشرف صلى الله عيه وسلم وعندما تغلب العدو على الجهة الغربية من الوطن هاجر إخوان الأمير إلى المغرب الأقصى وبقي الأمير بأهله وجيوشه في الجهة الشرقية لمدافعة العدو ولما طالت المدة كتب الأمير إلى إخوانه يتشوق إليهم وذكرهم بأسمائهم فقال يا سواد العين يا روح الجسد ◈ يا ربيع القلب يا نعم السند

كنت لي قرة عين وبها ◈ راح قلبي لا بمال وولد
فرمى الدهر بعيني أسهماً ◈ مذ نأيتم لا أرى فيها أحد
أ يروق الطرف شيءٌ بعدكم ◈ لا ورب البيت في هزل وجد
مذ ترحلتم أذبتم مهجتي ◈ ودموعي فائضات من كمد
قد فنى صبري ولم يفنى الجوى ◈ ما أراه فانياً حتى الأبد

وانزوى ما كان رطباً يانعاً ◈ ووهى العظم ولم يبق الجلد
مذ تواريتم توارى فرحي ◈ ما يسر القلب في أخذ ورد
فحياتي بعدكم مذ غبتمُ ◈ من مجاز مرسل عندي يعد
طال ليلي يا أحبائي ولا ◈ يعلم الحال سوى الفرد الصمد
كم أنادي حين يبدو صبحه ◈ يا سعيدُ هل خيالي لي يرد
فتردُّ الروح للجسم ويا ◈ مصطفى هل من دواءٍ للكمد
شافني حب حسين شافني ◈ ما لحكم الله في الخلق مرد
هل يجود الدهر من بعد النوى ◈ باقتراب يحيى ميتاً لم يعد
فإذا لي تمَّ ما أملته ◈ عاد إنساني وروحي للجسد
يا ذوي القربى قريباً من أب ◈ انتم ذخري وكنزي والسند
لي كونوا مثل ما كان الأولى ◈ سلفوا لي أهل سعي لا يرد
فإذا ما أقبلت فلتبذلوا ◈ وإذا ما أدبرت فارضوا بود
وعليكم من سلام صيب ◈ طيب يترى إلى غير أمد
يشمل الأحباب أنى قد ثووا ◈ كل حب لي هو الصنو الأود

^ ذكر

دخول الأمير إلى أرض متيجة الغربية وانتصاره على القبائل المتنصرة هناك

وفي المحرم سنة ثمان وخمسين ومائتين الموافق سنة اثنين وأربعين وثمانمائة توجه الأمير وخليفتاه السيد محمد بن علال والسيد محمد البركاني في ثلاثة آلاف من العسكر المنظم وعدد كثير من المتطوعة واحتل بوادي شلف ثم تجاوز جبال مليانة إلى أرض متيجة وبث البعوث في جهاتها وشن الغارات على نواحيها وحصلت بين المسلمين والمتنصرة وقائع عظيمة ثم لاذوا بالطاعة فقبلها الأمير منهم وعفا عنهم وردَّ إليهم ما غنمه المسلمون منهم واستولى الخوف والرعب على العدو وطار الخبر إلى الجنرال شانكرني في الجزائر فخرج في جيوشه إلى سهل متيجة الشرقي ومن هناك توجه إلى ثنية الحد وواد الزيتون وقوى حاميتها بالجند والذخيرة وكان الأمير لأول دخوله أراضي متيجة الغربية أضرم سائر الأبنية الفرنساوية ناراً وقتل من الفرنسيس عدداً كثيراً وسبى نسائهم وذراريهم فامتعض لذلك

الفرنساويون وسرى الخـوف في قلـوب المتنصـرة فحملهم على التوبـة والندم وأظهر الكثير منهم خضوعه إلى الأمير ونصحوا لـه واجتهـدوا في إصلاح ما كانوا أفسدوه طلباً لرضاه وعفوه عنهم قال رُوا في تاريخه أن الأمير عبد القادر كان لا يمـلُّ من التعب ولا يكـلُّ من الحـرب ومشـقاتها وكـان يشـاهد انتصـارات فرنسـا ولا يشـاهد نفسـه مغلوبـاً لهـا وبعظيم حكمته وكمـال فطنتـه استمال قلـوب الكثـير من القبائـل رغبـة ورهبـة فانضموا إليه وصاروا في جيوشه وقال شرشل لما رأى الفرنساويون ما أجزاه الأمـير في نـواحي شرشـال من أرض متيجـة ممـا كـان سـبباً في رجوع القبائل إلى طاعته وشاهدوا انقياد الناس إليه وبذل نفوسهم دونـه في أقرب مدة بادروا بإرسال بذر الذهب والفضة رشـوة لأكـابر القبائـل كي يستميلوا بذلك قلوبهم ويردوهم إلى ما كانوا عليه من الانقيـاد إليهم وتارة يتهددونهم فلم يجدهم ذلك نفعاً ولم يصغَ لهم أحد بل عكفـوا على طاعة أميرهم وحافظوا على أموالهم وأوطانهم ولم تزل غـزوات الأمـير متتابعة وفرسانه إلى قهر الأعداء متسابقة إلى أول أيـار ثم رجـع بقوتـه إلى الجهة الغربية . ذكر ما أجراه الجنرال بيجو لمنع الأمير إلى الـدخول إلى نواحي الجزائر

ولما اتصل بالحـاكم بيجـو مـا أجـراه الأمـير في بلاد متيجـة وتحقـق وقائعه فيها مـع المتنصـرة ومـا أمعن فيـه من قتـل الفرنسـيس وسـبي نسـائهم وذراريهم وحـرق محلاتهم في تلـك الجهـات خـرج من الجزائـر بجميع الجيوش الـتي كـانت فيهـا إلى وادي شـلف وقسـم العسـاكر إلى ثلاثة أقسام قسم عقد عليه لابن الملك الدوك دومال والثاني عقد عليـه للجنرال لأمور سير والثالث أبقـاه تحت نظـره وأمـر ابن الملـك ولأمـور بالسـير إلى الأمـير أينمـا كـان ثم توجـه بمن معـه من العسـكر إلى بلاد متيجة الغربية وأجرى مـع القبائـل مـا حملهم على رجـوعهم إلى طاعتـه ولما رأى أن العساكر الموجودة في مليانة والمدية من المدن البرية في

شرشال ومستغانم من المدن البحرية غير كافية لحماية قبائـل الجنـوب من بطش الأمير أنشأ مدينـة بين نهـر مينـة ونهـر شـلف سـماها الـدوك دورليـان وكـانت قديمـة الأصـل تسـمى الأصـنام ثم شـحنها بالعسـاكر والـذخائر ووضـع حاميـة في مدينـة تـاهرت في حـدود التـل وحاميـة في مرفاتنس بين شرشال ومستغانم وأمـا الجـنرال لامـور سـير فانـه سـار بعسـاكره إلى مدينـة تاكـدمت وجـرى بينـه وبين الأمـير وقـائع وحـروب تشـيب لهـا الأطفـال وكـان الأمـير قبـل ذلـك في دائرتـه فـاخبره بعض الجواسيس أن لأمور سير قد سار قاصـداً الـدائرة فـركب الأمـير لحينـه ولقيه في تاكـدمت ولامـور سـير لم يـزل في نـواحي معسـكر حين بلـغ الأمـير سـيره إلى الـدائرة فأقـام في نـواحي السرسُّـو في نحـو ألـف وخمسـمائة فـارس ليس معهم زاد فكـانوا يقتـاتون بـالبلوط ويعلفـون خيلهم من أوراق الشجر والأغرب أن تلك المدة من أيام رمضان والناس على صيام والأغرب منه أن بعض رؤساء العسكر جاءه مستبشـراً وقـدم إليـه خروفـاً وجـده بعض أنفـار العسـكر ضـالاً عن أهلـه فقـال لـه خـذه للعسكر يقتاتون به وآثرهم على نفسه مع إنهم في الاضطرار سواء فقد تأسى بنبي الله داود عليه السـلام حين ورد على بيت لحم وكـان ظمآنـاً فقدموا إليه ماءً فقال أليس هذا دم الذين خـاطروا بأنفسـهم في سـبيل الله ولم يشرب منه وماثـل الإسـكندر حين قـلَّ المـاء على جيشـه وأتى بقليل منه فامتنع من شربه وقال كيف أشرب الماء وأصـحابي أضـر بهم الظمأ . ذكر

واقعة طاكين منذ أتخذ الأمير الزمالة ودائرتها عاصمة رحالة يأْوي إليها الرائحْ والغادي ويؤمها الصادر والوارد أخذ الفرنساويون يدبرون في نكبتها وينظرون في وجه مضرتها ولما ساعدهم الوقت توجه الجنرال لأمور سير ومن معه إلى معسكر ومنها إلى تاكدمت فلقيه الأمير ووقعت بينهما وقائع تكافئوا فيها وتوجه الدوك دومال ابن الملك بمن معه إلى النواحي الشرقية ونظره إلى الزمالة لأنهم علموا إن قوة الأمير المالية قد جعله فيها فصارت مطمح أنظارهم ومنتجع أفكارهم فخاضوا لذلك بحر الأهوال واستعملوا الوسائل والوسائط حتى استمالوا قلوب بعض القبائل المتنصرة

بالأموال الجسيمة والهدايا العظيمة وكان منن جملة من تعهد لهم بترصدها ودلالتهم على موضعها المتنصر عمر العيادي فجعل يتتبع مراحل الزمالة من موضع إلى موضع حتى احتلت في كوجيلة من نواحي الجنوب الشرقي من تاهرت فطير الخبر إلى ابن الملك وكان أقرب ما يكون إليه فانتهز ابن الملك الفرصة لأن الأمير وقتئذ مقابل للجنرال لامور سير في نواحي السرسُّو فسار من بوغار في ألفين من المشاة وخمسمائة فارس من جنود فرنسا وخمسمائة من لقبائل المتنصرة وواصل سيره ليلاً ونهاراً إلى أن احتل بكوجيلة فوجد الزمالة انتقلت إلى القرب منها بمرحلة ونزلت في الموقع المعروف بطاكين وفي نهار السادس عشر من ربيع الثاني سنة تسع وخمسين ومائتين والخامس عشر من أيار سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة صبحها فاكتسحها واستف ما فيها ولم يكن وقتئذ من حاميتها سوى خمسمائة جندي من ضعفاء العسكر وقد اغتروا بالمكيدة العظيمة التي أجراها ابن الملك بإشارة عمر العيادي المرتد وهي إلباس فرسانهم لباس الخيالة المسلمين فلما اطلعوا على الزمالة من بعيد ظن الناس أنهم طلائع الأمير فاستبشروا وخرجوا إلى لقاهم بالتهليل والتكبير فلما قربوا منهم حتى أظهرت جيوش العدو بشارتهم المعروفة فحينئذ فطن الناس للمكيدة وحاولوا أن يتداركوا أمرهم ففاتهم ما أملوه ودافعوا ساعة زمانية ثم تكاثرت عليهم جيوش العدو وانتشرت على منازل الزمالة ودائرتها يقتلون وينهبون ويفعلون الفعائل الشنيعة التي يفعلها العدو بعدوه إذا هو غلبه وملك قياده ولم يجد من يدافع عنه وتفرق الناس شذر مذر في الشعاب وشغب الجبال وبالجملة فإنها كانت من أعظم الوقائع التي لا تؤدي العبارة تفصيلها ولا يدرك اللسان تحصيلها قال بعض المؤرخين ولذلك رسمها بعض مصوري فرنسا وقد نظرت صورتها في سراي فرساي ثم أن العدو استولى على أشياء نفيسة وأموال جسيمة احتوت على صنوف وأنواع من الجواهر التي يكل عن وصفها اللسان وخزائن كلية وآلات حربية ومكتبة الأمير قيمتها خمسة آلاف ليرة وألمحة مجوهرة وحليّ مجوهر كان ملك فرنسا أهداه إليه ولوفور الأموال وكثرتها اقتسمت عساكر العدو الذهب والفضة بالبرانيط وأسر من المسلمين ثلاثة آلاف نفس كان فيهم عال الخليفة السيد محمد بن علال وكاتبيه السيد محمد الخروبي والسيد قدور بن الرويله هذا ما كان من أمر الزمالة ودائرتها وأما ما كان من أمر الأمير فانه مازال مقيماً في أحراش السرسُّو حتى أخبره من فرَّ من أهل الزمالة بما جرى عليها فأثر فيه ذلك الخبر وألحق به التأسف والكدر وفكر في تلك التقلبات الغريبة وصرف الناس واعتزل وبالصلاة والدعاء اشتغل وشاع الأمر بين جيوشه فما منهم إلا من تأوه وتحسر وقنى أن يكون في تلك الواقعة حاضراً ليشفي عليل فؤاده ويطفي أواره ثم أن قواد العسكر اجتمعوا إلى الأمير وهم باهتون حائرون لأن عيالهم وأموالهم استولى عليها العدوُّ فخرج عليهم من خيمته فازدحموا عليه وحدقت أبصارهم إليه ولم يستطع أحد منهم أن يبدأه بكلام أو يصيح بمرام ثم آنسهم وابتسم في وجوههم وقوى قلوبهم ولسان حاله ينشد وما نبالي إذا أرواحنا

سلمت ◈ بما فقدناه من مال ومن نشب

فالمال مكتسب والجاه مرتجع ◈ إذا النفوس وقاها الله من عطب

وبعد أن هدأت قلوبهم وسكن اضطرابهم قال لهم سبحان اللـه كـل شيء كنا نحبه وتعلقت أفكارنا به كان يعوق حركتنـا ويقـف في صـدورنا عن الوصول إلى مطلوبنـا والآن صـرنا أحـراراً متجـردين لا شـغل لنـا إلا

مقارعـة الأعـداء وصـارعتهم ثم التفت إلى بعض الأعيـان وكـانت شـدة الحزن أخذت منه مأخذها وقال له على أي شـيء تحـزن مـا فقدنـه من الرجــال نحن نعلم أنهم شــهداء وهم الآن في الفــردوس الأعلى وأمــا الأموال فسيخلفها علينا الكريم الوهاب على أن هـذا الخـبر لم يبلغنـا إلا بعد وقوعه بثلاثة أيـام وقـد فـات تداركـه ولـو كنـا حاضـرين لحاربنـا عن نسائنا وأولادنا وأموالنـا ودافعنـا الأعـداء عنهم وأرينـا الفرنسـيس مـا لم يكن في حسـبانهم وأمضـينا عليهم يومـاً مهـولاً ولكن لا مفـر من القـدر وحكم الله لابدَّ من نفوذه وهذا الأمر الذي وقع بنا مـدخول عليـه منتظـر الوقوع منذ دخل العدوّ بلادنا ثم كتب إلى خلفائه يخبرهم بما وقـع وقـال لهم حيث أن الله تعالى أنفذ أمره في الزمالـة ينبغي لنـا أن لا نجبن بـل نكـون من الآن فصـاعداً أشـد مـا كنـا عليـه من قـوة القلـوب وكـثرة الاستعداد للحرب ثم أخذ في النظـر فيمـا تنصـلح بـه أمـوره ويـرد قـوة جيوشه فصار يشن الغارات ويقرع الكتائب ويـنزل بمن خانـه من قبائـل العرب والبربر أنـواع البلاء والمصـائب بعـد أن ضـم إليـه خليفتـه السـيد محمد بن علال بمن معه من الجند وقد أنزل على الفرنساويين في هذه المدة ما فيه عبرة للمعتبرين وأحل بهم من الويل مـا تـركهم في حـيرة ثم جمعوا جيوشهم واكملوا استعدادهم وتهيئوا لتجديد الحروب . ذكر

مهلك مصطفى آغا ابن إسماعيل رئيس قبيلة الدوائر

لما حل بالزمالـة مـا حـل اجتمـع فلُّهـا بـالقرب من موضـع الواقعـة وتلاحق بها من كان أخـذه الفـرار إلى الجهـات فاتصـل خبرهـا بـالجنرال لامورسير وهو في نواحي تاكدمت فجهز فرقـة من جيشـه وجعـل أمـره النظر المتنصر مصطفى أغـا ابن إسـماعيل رئيس قبيلـة الـدوائر فسـار إلى الزمالة فلما بلغ الخبر إلى أهلها ارتحلـوا وسـاروا على سـمتهم إلى جهة الصحراء فلحق ابن إسـماعيل وأخرهـا وانتشـب الحـرب بينـه وبين المسلمين ولما كانت جيوشـه أكـثر وأقـوى انهـزم المسـلمون بين يـدي

الأعــداء فــاثخنوا فيهم قتلاً وأســراً ورجعــوا فلقيهم جيش الأمــير ووقــع القتال بينهم والتهبت نيران الحرب فانهزم الأعداء وولوا الأدبــار فلحقهم المسلمون يقتلون ويأسرون ويسلبون وكان فيمن قتل وشفا المسلمون منه أنفسهم الرئيس ابن إسماعيل وكان قتله سـبباً في الهزيمـة ووقـف عليه بعض المجاهدين فوجده يتخبط في دمه فأجهز عليـه وقطـع رأسـه واستمر العدوّ على هزيمته إلى أن ابعـد المفـر وأمـا المسـلمون فـأنهم رجعوا إلى الأمير بالأسرى والغنائم وأعظمها وأحبها إليه وإلى كل مسلم رأس مصطفى بن إسماعيل قائد الفتنة وموقد نارهـا وعين الفرنسـاوية ولسانهم ويدهم ولما وضع الرأس بين يدي الأمير نظر إليه واستعاذ بالله تعـالى من غضـبه وعقوبتـه وعنـدما وصـل الخـبر إلى الفرنسـيس عظم عليهم الأمر واشتد حزنهم وكدرهم على فقد أعز أصدقائهم عليهم وأكبر حلفائهم وأنصارهم وأشد أعوانهم على المسلمين . ذكر

واقعــة الجعــافرة وكــان الأمــير قــد بلغــه مــا أوقعــه ابن إسـماعيل بالزمالة قبل مهلكه فلما رجعت إليه جيوشه ارتحل قاصداً الزمالــة وهي في بلاد الأحرار في الجنـوب فأقـام فيهـا أيامـاً لتـأنيس أهلـه وأولاده ثم ارتحل بها إلى الجهة الغربية وأنزلها في أطـراف بلاد الحساسـنة واختـار من جنــده خمســمائة فــارس وســتمائة من العســكر المنظم المشــاة وشرذمة من المتطوعة وسار قاصـداً نـواحي معسـكر فطـار الخـبر إلى الأميرالاي جري في معسكر فجمع جيوشه وزحف بها إليـه وفي طريقـه لقيه الجـنرال بيـدو والأمـيرالاي تـاميور ومعهمـا الفـرق الـتي كـانت في تلمسان في الجهة الغربية ولحقت بهم الفرق التي كـانت في قسـنطينة ووهران وأخبرهم بما عزم عليه من ملاقاة الأمير ومحاربته فأجـابوه إلى ذلك وسـاروا نحـوه إلى أن أدركـوه وهـو في قلـة من الجيش وقلـة من الذخيرة فلم يجد بداً عن ملاقاتهم فاجتمع الفريقان واشتعلت نار الحرب فدافعهم الأمير بمن معه ثم كـاثروه وأحـاطوا بـه وباشـر القتـال بنفسـه

وأبلى فيه بلاءً حسناً حتى أن ثيابه صارت مثل الغربال من كثرة وقع الرصاص عليه وقتل فرسه ووقع بين الصفوف فشد عليه مائة جندي من الجنود الفرنساوية كانوا من قبل هربوا إليه من معسكرهم مع ضباطهم وحسن إسلامهم ولا زالوا يدافعون عن الأمير إلى أن استشهدوا عن آخرهم وأنتقل الأمير إلى فرس آخر ولم يزل الأمر يتفاقم إلى أن استولى العدو على المعسكر ونجا الأمير في لمة من خيله وحال الليل بينه وبين باقي جنده فظنوا أنه قتل ولحقوا بالدائرة وأشاع المرجفون انه استشهد فركبت شقيقته السيدة خديجة واستقبلت العسكر وأخذت تسليهم عن مصيبتهم وتقوي قلوبهم وتشجعهم فقال لهم أن فقد شقيقي وذهب فأن مدافعتكم عن الدين والوطن باق ذكرها إلى أخر الأمد وهؤلاء أهله وأولاده في كنف الله ثم كنفكم فحافظوا عليهم إلى أن يظهر الله ما في غيبه ثم قدمت لهم ضيافة وبينما الناس غارقون في بحر التأسف والتحسر إذ وردت البشائر بقدوم الأمير عليهم فانقلب الحزن سروراً وقال بعض المؤَرخين من الفرنسيس وكان من جملة ما عثر عليه الجيش الفرنساوي في المعركة سرج الأمير على جواده المقتول مع مهمازه . ذكر

واقعة الخليفة السيد محمد بن علال وبعد رجوع العدوّ إلى المسكر بلغه أن الزمالة نزلت في بلاد الحساسنة من الجهة الغربية وقاربت التل وكان الخليفة السيد محمد بن علال فيها فخرج تاميور من معسكر قاصداً إليها فأجفلت إلى بلاد الجعافرة والتقى الخليفة وتاميور بالقرب منها واشتد الحرب بينهما واتصل أياماً عديدة وفي اليوم الأخير منها استشهد الخليفة واختل مصافه وتمكن العدو من الاستيلاء على المعسكر وقتل من المسلمين في ذلك اليوم أربعمائة نفس وأسر ثلاثمائة وستون وكان الخليفة السيد محمد بن علال من الشجاعة والسياسة بمكان لا يدرك أحد شأوه فيه وله وقائع وحروب مع

الفرنسيس في نواحي مليانة ومتيجة وشرشـال تشـهد لـه بـذلك ناهيـك وناهيك برجل جمع الله له بين الجهاد والشهادة كما جمع له بين النســب والحسب ولما اتصل خبره بالأمير جاء إلى الزمالة وولى السيد قدور بن علال في مكـان عمـه الشـهيد واصـلح خلـل العسـكر ونظـر في أحـوال الزمالة ثم أمرها بالانتقال إلى حدود المغرب الأقصى من الجهة الجنوبية فارتحـل بهـا الموكلـون بشـأنها . وأقـام بمن معـه من الجنـد يتنقـل في المحلات ويواصل الغارة على المتنصرة وينتهز الفـرص الـتي تمكنـه من قهر العدو وشفاء النفس منه قال بعض مؤرخيهم مفصلاً ما جملناه ولمـا بلغ الأمير خبر خليفته السيد محمد بن علال صعب عليه وكبر لديـه وولى ابن أخيه خليفة في موضعه وهو السـيد قـدور بن علال ثم أخـذ بالتـدبير لأمره الخطـير حيث أن أصـحابه قـد تبـدد أمـرهم وأكـثر القبائـل ارتـدوا وصاروا له أعداء وبارزوه بالقتال وأظهروا له صـنوف العسـف والاعتـداء وغدت بلاده الواسعة الأطراف قريبة المأخـذ لأعدائـه ولا طاقـة لـه على الدفاع عنها ومع هذا كله فانه كان على عزمه المعروف وحزمه المعلوم لم يلحقه ضعف فيهما ولا نقصه شيءٌ من دواعيهمـا لا يبـالي بالمصـائب ولا يفزع من الشدائد والنوائب فجمع نحـو الخمسـة آلاف مقاتـل واقبـل يغزو بهم على القبائل ولعرب المتنصرة ويذيقهم شـديد النكـال ويسـطو على جيوش فرنسا فيوقع بهم البلاء المبين وكـان يباشـر القتـال بنفسـه ويخـوض بحـر المعـامع والشـدائد حـتى قمـع بماضـي عزمـه كـل معانـد فقويت همة عسكره لذلك وخاضوا معه لظى الحروب والمهالك . ذكر

واقعة سيدي يوسف بعد انتقال الزمالة إلى نـواحي تخـوم المغـرب الأقصى عسكر الأمير في الخط الفارق بين التـل والصـحراء في الثـامن والعشرين من شعبان سنة تسع وخمسـين ومـائتين والثـاني والعشـرين من أيلـول سـنة ثلاث وأربعين وثمانمائـة ثم جـرد من جيشـه خمسـمائة فارس ومثلها من العسـكر النظـامي وتقـدم إلى التـل فـأحس بـه بعض

جواسيس لامور سير فبادر بالمسير إليه في جيوشه من غير أن يشعر به الأمير حتى نزل بالقرب منه بنحو ستة فراسخ فجعل الأمير العيون عليه وفي إحدى الليالي نام الحرس وكان العدو سار على مهله ينسل كالسارق فما انصدع الفجر حتى وصل إلى معسكر الأمير وكان الأمير من عادته أنه يصلي الصبح ثم ينام بقصد الراحة من تعب قيام الليل فبينما هو نائم إذ سمع صراخ جيشه الفرنسيس الفرنسيس فقام وأمر العسكر بالمدافعة وحاول أن يركب فرسه فلم يسعه الحال ولم يمكنه من ذلك تفاقم الأمر واشتباك العسكر بالعسكر وبعد ساعة انكشف العدو وتمكن الأمير من الركوب وصالت فرسانه صولة الأسود وهجموا على العدو فهزموه اقبح هزيمة وغنموا منه غنائم عظيمة ورجع العدو إلى معسكر ثم ارتحل الأمير وقصد بجيوشه أرض بني عامر فوجد عندهم فرقة من عساكر الفرنسيس حرساً لهم فصمدوا له ثم تقدم إليهم وصادمهم بمن معه من الفرسان والمشاة وكان في مقدمة العدو القائد بالحميدي الزائري فهجم على الأمير فأخذ الأمير البارودة من تابعه وأقبل عليه بقوة ورماه بالرصاص فأصابه في صدره فوقع وبقيت رجله معلقة في الركاب وفرسه يجره فأخذ الأمير بزمامه حتى لحقه الأتباع فسلمه إليهم وكان هذا الرجل من صنائع الأمير ولاه قيادة قبيلة أولاد الزاير ثم خان ودان بطاعة الفرنسيس وقاد قبيلته إليهم فلما رأى بنو عمه واخوته ما حل بقائدهم فشلوا واختل مصافهم وانهزموا وانهزم لهزيمتهم عسكر الفرنسيس الذي كان معهم وغنم الأمير غنيمة عظيمة ورجع بها إلى الزمالة وكانت في بلاد حميان الغرابة تجول في أنحائها ثم اجمع أمره على أن يدخل بها أرض المغرب الأقصى فسيرها أمامه وبقي بعدها ردءاً لها فاعترضه الجنرال لامور سير بجيوشه ووقع بينهما حروب أخذ السيف فيها حظه واشتد الأمر حتى صار النساء يشجعن الرجال ويحرضن الأبطال على القتال وأظهر الأمير وجنده من الشجاعة

في ذلك اليوم والبسالة مـا يعجـز القلم عن وصـفه واللسـان عن ذكـره وسقط في يد لامور سـير ورجـع خائبـاً مقهـوراً ومـا زال الأمـير حارسـاً للزمالة يحافظ عليها حتى أدخلها إلى جبـال بـني زكـرى ثم بلاد تكفـايت قرب وجده في الجنوب الغـربي ثم توغـل بهـا إلى عيـون ملـوك ثم إلى عين زورة قرب الأطلس الأكـبر الممتـد على سـواحل البحـر المتوسـط والذي حمل الأمير على دخول بلاد المغرب الأقصـى أمـران أحـدهما أنـه طمع في أهل البلاد أن يقوموا معه في أمـر الجهـاد وينجـدوه بـالطريف والتلاد لما كان يبلغه عنهم من القيام بأمور الدين وإتباع السنة والجماعة اطمئنان من كان يميل إليه من أهـل وطنـه لوجـوده في أمن وحـرز من العدو وربما يكون ذلك وسيلة لهم في الهجرة إليه لما يعلمه من بغضهم للفرنسيس ونفورهم منهم وليأمن على الزمالة حـتى إذا أراد الغـزو إلى أرض العدو فانه يتركها في حرز حزيـر ولمـا اسـتقرت الزمالـة في عين زورة كتب الأمير إلى عبد الرحمن سلطان المغرب الأقصـى يخـبره بمـا جرى عليه من الأمور ويلمح له بطلب المعونة والنجدة وكانت من جملـة جواب السلطان عبد الرحمن إلى الأمير في كتابه . وأنا نتمـنى الحضـور بأنفسـنا في غمـار المسـلمين ومباشـرة القتـال بأيـدينا بين صـفوف المجاهدين ولكن ما نحن فيه من قمع العتاة وكف البغاة جهاد بل أفضل من جهاد النصارى حسـبما نص على ذلـك إمامنـا مالـك رحمـه اللـه ولـو كمل قتالهم وانتظم على الاستقامة حالهم لسـرنا وإيـاكم لنصـرة الـدين وقمع الكفرة المعتدين وبذلك ينال الموفق غاية أمله ونية المرء خير من عملـه والسـلام حـرر في الخـامس عشـر من ربيـع الأول سـنة سـتين ومـائتين وألـف .قـال شرشـال الإنكلـيزي لمـا حصـل للأمـير الأمن على الزمالة أخذ يحرض الناس على الجهاد ويدعوهم إلى قتال أعدائه ويحمل على القبائل المتنصرة ويهجم على الفرنساويين فيملئوا قلوبهم رعبـاً ثم بداله فزحف على القبائل الخارجة عن طاعة سلطان المغـرب الأقصـى

منذ زمان طويل فأخضعها وكتب إليـه يخـبره بمـا أجـراه ونيتـه في ذلـك استنهاض همته في إعانته على الجهاد فلم يرد له جوابـاً فعلم الأمـير أن هذه الوسائل لا تجديه نفعاً فجمع ما عنـده من الجنـد وعين منهم حاميـة للزمالة وسـار بالبـاقي إلى الصـحراء فأقـام في أرجائهـا يتنقـل شـهوراً عديدة فلما نظر الفرنسيس قلة حركات الأمير وانقطاع غزواته اعتقـدوا أن شغلهم قد تم وأن تردد الأمير في الصحراء البعيدة عن الوطن دليــل على ضعفه فهنأ المارشال بيجو نفســه وكتب لدولتـه يقـرر بعـد الوقـائع الأخيرة أن الجزائر قد غلبت وخضعت لا سيما وقد عدم الأمير جنـده من مشاة وفرسـان وقتـل خليفتـه الشـهير المـرعب فبنـاء على ذلـك أقـول بجسارة أن الحروب المخيفة قـد تنـاهت ومن المحـال أن يقتحم الأمـير أمراً ذا أهمية أو يقيم شـرذمة قليلـة من الفرسـان حربـاً قويـة حيث أن غبار خيلـه أمسـى كغبـار شـاه ضـعيفة انتهى ثم بعـد هـذه المـدة جـرت محاربة عظيمة ومقاتلة جسيمة بين السيد محمد بن السيد عقبة خليفــة الأمير في بسكرة وبين الجنرال بـالكو الـذي كـان تقلـد قيـادة الجيـوش الفرنساوية في عمالة قسنطينة واتصلت الحروب والوقائع الفائلـة بينهم أياماً وليالي بدون فتور وبعد ذلك توجـه الجـنرال بجيوشـه إلى كولـو في حدود تونس فاستولى عليها . ذكر ما كتبه الخليفة السيد أحمد بن سـالم من جبال جرجرة إلى الأمير وما أجابه به

الحمد لله وحده بعد الثناء والدعاء وأداء واجب الإعظام والافخام فإننا معاشر عبيدكم متعطشون إلى مكاتيبكم ومن المعلوم إن ما تسطره يدكم الشريفة يحيي النفوس منا والآمال وقد أشاع المرجفون ما لا نقدر على ذكره ودخل الشك على الناس في وجودكم الشريف وأشاعوا إن والدتكم تصدر المكاتبات والتحارير اللازمة باسمكم الكريم وقد بلغني أن الفرنسيس عازمون على الزحف إلى بلادنا وليس عندي ثقة أكيدة بطاعة القبائل وانقيادهم إلى كلمتي وأن كان تأخركم عنا لظن أن الخليفة السيد محمد البركاني يساعدني وينجدني فهو مع ما هو عليه من مصادمة العدو بعيد أن يساعدني ويقوم بنصري كما إنني لا قدرة عندي على مظاهرته وعلى كل حال فأنا أسألكم بالله تعالى أن تردوا الجواب عن هذا المكتوب بخط يدكم الشريفة فأجابه الأمير بخطه إني اطلعت على مكتوبكم مخبراً أن خبر موتي قد امتد في

الشرق فاعلم أن الموت لا مفر منه ولا محيد عنه إذ هو من قضاء الله الذي لا يردُّ ولا يصدّ وإني أحمد الله إذ لم تأتي ساعتي بعد ولم يزل عندي من القوة والاقتدار ما اؤمل به مهاجمة أعداء ديننا فكن في راحة ساكن البال صبوراً ومتى استقر الأمر لنا هنا نتوجه إلى نواحيكم انتهى . وفي هذه الأيام انتهز الجنرال بيجو الفرصة لتتميم أعماله في الشرق فجهز الدوك دومال ابن الملك في جيوش كثيرة وسيره إلى نواحي بسكرة فالتقى مع الخليفة السيد محمد بن عقبة وجرت بينهما حروب عنيفة متوالية انتصر فيها العدو واستولى على بسكرة ثم باتيه ووضع فيهما حامية الزمالة وسار إلى نواحي قسنطينة وكان أحمد باي صمد له في جموع من العرب من نواحي الريبان وناوشه الحرب ثم انكسر ورجع إلى محل إقامته من الصحراء ولما توالى الخطر على المسلمين حارت العقول ووقفت الأفكار ويئس كل من ملاقاة صاحبه في الحياة الدنيا حتى أن السيد قدور بن علال كان في الجهة الغربية مع الأمير فكتب إلى السيد أحمد بن سالم وهو في محله ممن جبال زواوه شرقاً أن الخطوب ألمت والمصائب انشبت أظفارها فينا فلذلك انقطع أملي من اجتماع الشمل في الدنيا إلا إن شاء الله والحق تعالى يظهر العجائب والخوارق . فأجابه أيها الأخ إن الشدائد لا تدوم والليالي حبالى لا يدري ما تلد وإنني أسأل الله تعالى أن ينصر إمامنا ويؤمننا في أوطاننا ويرد علينا ما أخذ منا وأعطاه لعدونا فكن أيها الأخ دائماً في كل حال ملتجأ إلى الله تعالى ولا تيأس فإني موقن باجتماعنا نحن الثلاثة مع ما نحن عليه الآن من مقاساة كثرة الأعداء وشدة الحروب . فأجابه إن ما ذكرته على حسب ما نشاهده من ضعف الحل وقلة المال والرجال غير مأمول أن يكون . ثم أن الأمير أخذ يتابع غزواته على البلاد ويسم أهلها بالخسف والدمار وفي أثناء ذلك حضر وفد من الخليفة ابن سالم إلى الأمير من الشرق فأكرم وفادتهم وأطلعهم على سائر أحواله وعند رجوعهم إلى أوطانهم سير معهم مكتوباً إلى الخليفة هذا نصه . أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله تعالى وشكره في الشدة وكن صبوراً على المصائب فالصبر مفتاح الفرج وكن جسوراً واجمع عساكرك وعضدهم برأيك السديد وتحمل منهم هفواتهم ودبر أمورهم حسبما يجب فإن هذه الأحوال لا تدوم وإني لأرجو أن أكون عندكم ومن هناك تظهر لنا الجادة التي نتبعها ونسلك عليها وكتب إلى جيوشه في تلك الجهات يتشوق إليهم ويمدحهم بقوله : يا أيها الريح الجنوب تحملي ◈ مني تحية مغرم وتجملي

وأقر السلام أهيل ودي واثري ◈ من طيب ما حملت ريح قرنفل
حلي خيام بني كرام وخبري ◈ إني أبيت بحرقة وتبلبل
جفني لقد ألفى السهاد لبينكم ◈ فلذا غدا طيب المنام بمعزل
كم ليلة قد بتها متحسراً ◈ كمبيت ارمد في شقا وتململ
سهران ذو حزن تطاول ليله ◈ فمتى أرى ليلي بوصلي ينجلي
ماذا يضر أحبتي لو أرسلوا ◈ طيف المنام يزورني بتمثل
كل الذي ألقاه في جنب الهوى ◈ سهل سوي بين الحبيب الأفضل
أدّ الأمانة يا جنوب وغايتي ◈ في جمع شملي يا نسيم الشمأل
وأهدي إلى من بالرياض حديثهم ◈ أذكى وأحلى من عبير قرنفل
تهدي إليَّ طرائفاً وظرائفاً ◈ ولطائفاً بتعطر وتعسل
حاولت نفسي الصبر عنهم قيل لي ◈ مه ذا محال ويك عنه تحول
كيف التصبر عنهم وهمُ وهمُ ◈ أرباب عهدي بالعقود الكمل

أيحل ريب الدهر ما عقدوا وكم	حلت عقود بالمنا المتخيل
تفديهم نفسي وتفدي أرضهم	أزكى المنازل يا لها من منزل
أفدي أناسا ليس يدعى غيرهم	حاشا العصابة والطراز الأول
يكفيهم شرفاً وفخراً باقياً	حمل اللواء الهاشمي الأطول
قد خصهم واختصهم واختارهم	رب الأنام لذا بغير تعمل
هم بالمديح أحق لكن ربما	ضاعت حقوق بالعدا والعذل
إن غيرهم بالمال شح وما سخى	جادوا ببذل النفس دون تعلل
الباذلون نفوسهم ونفيسهم	في حب مالكنا العظيم الأجلل
وكم يضحك الرحمن من فعلاتهم	يوم الكريهة نعم فعل الكمل
الصادقون الصابرون لدى الوغى	الحاملون لكل ما لم يحمل
إن غيرهم ذل اللذائذ مسرفاً	هم يبتغون قراع كتب الجحفل
وألذ شيءٍ عندهم لحم العدا	ودمائهم كزلال عذب المنهل
النازلون بكل ضنك ضيق	رغماً على الأعداء بغير تهول
لا يعرف لشكوى صغير منهم	ابدا ولا البلوى إذا ما يصطلي
ما منهم إلا شجاع قارع	أو بارع في كل شيء مجمل
كم نافسوا كم سارعوا كم سابقوا	من سابق لفضائل وتفضل
كم حاربوا كم ضاربوا كم غالبوا	أقوى العداة بكثرة وتموُّل
كم صابروا كم كابروا كم غادروا	أقوى أعاديهم كعصف موكل
كم جاهدوا كم طاردوا وتجلدوا	للنائبات بصارم وبمقول
كم قاتلوا كم طاولوا كم مالحوا	من جيش كفر شبه موج يعتل
كم ثنتوا كم بتتوا كم شتتوا	شمل الكوافر باقتحام الجحفل
كم أدلجوا كم أزعجوا كم اسرجوا	بتسارع للموت لا بتمهل
كم شردوا كم بددوا وتعودوا	تشتيت كل كتيبة بالصيقل
يوم الوغى يوم المسرة عندهم	عند الصباح له مشوا بتهلل
فدمائهمُّ وسيوفهم مسفوحة	ممسوحة بثياب كل مجندل
لا يحزنون الهالك بل عندهم	موت الشهادة غبطة المتمول
ما الموت بالبيض الرقاق نقيصة	والنقص عندهم بموت الهمل
يا رب إنك في الجهاد أقمتهم	فبكل خير عنهم فتفضل
يا رب يا رب البرايا زدهم	صبراً ونصراً دائماً بتكمل
وأفتح لهم مولاي فتحاً بيناً	واغفر وسامح يا إلهي وعجل
يا رب يا مولاي وابقهم قذى	في عين من هو كافر بالمرسل
وتجاوزن مولاي عن هفواتهم	وألطف بهم في كل أمر منزل
يا رب واشملهم بعفو دائم	كن راضياً عنهم رضا المتفضل
يا رب لا تترك وضيعاً فيهم	يا رب واشملهم بخير تشمل
متوسلا مولاي في ذا كله	متشفعاً بشفيع كل مكمل
وجهت وجهي في الأمور جميعها	بمحمد غيث الندى المسترسل

ولما نظر بيجو أعمال الأمير وتوالي غزواته على الـوطن علم بـأنهم وان تغافلوا عنه وبقي مستمراً على ما هو عليه لا بد أن ترجع إليه قوتـه الأصلية فجمع أعوانه وأمل مجلسـه وقـال لهم قـد تعين علينـا أن ننظـر إلى أحمال الأمير عبد القادر وما هو بصدده الآن اقلـق أهـل البلاد بتتـابع غزواتـه عليهم من سـائر الجهـات ولا يخفى مـا انطـوت عليـه قلـوب المغاربة المراكشيين من المحبة والتشييع له حتى إنهم يردون أن يكونوا تحت طاعته وإدارته لمـا رأوه من أتباعـه الشـريعة الإسـلامية وشـاهدوه من حسن سياسته معهم التي تـركت قـوافلهم من فـاس ومـراكش إلى الأقطار الجنوبية والشرقية في غاية الأمن والسـكون بعـد أن كـانت قـل أن تسلم والذي زادهم رغبة في طاعته ما كانوا يسعونه عنـه من حسـن سيرته مع رعاياه فانه كان لا يقـرر عليهم ضـريبة ويجعـل عليهم خراجـاً وإنما كان يأخذ من أموالهم ما أمرت به شريعتهم الإسلامية فأجابه أهــل المجلس لابــد من الاســتئذان من الدولــة فكتب إلى دولتــه فبعث إلى سلطان مراكش عبد الرحمن بن هشـام وعرفتـه بمـا يلـزم إجـراؤه في هذا الشأن فأجابها أن بلاد الريف قد خرجت من يدي ودخلت في طاعــة الأمير عبد القدر فلا يمكنني إجـراء شـيء من مطـالبكم فكـان هـذا هـو الداعي الأكبر لفتح باب الخلاف بين سلطان مراكش ودولة فرنسا وجهز بيجو جيشـاً كثيفـاً لنظـر الجـنرال لامـور سـير والجـنرال بيـدو وأمرهمـا بالنزول في تخوم مملكة مراكش في محل يعرف بمقام السـيدة مغنيـة في شمال تلمسان وهذه السيدة كانت من العابـدات دفنت هنـاك وكـان مقامها معظماً عند أهل تلك النواحي فعمـدت جيـوش فرنسـا إلى هـدم مقامها وابتذاله فوصل الخبر إلى حاكم وجده من قبل سـلطان مـراكش وشاع في المغرب الأقصى فحصل من ذلك الهيجان ووقع سلطانهم بين أمرين خطيرين أما الخوض في تيار الحروب وأما انتقـاض الرعايـا عليـه

لما حصـل لهم من الاضـطراب لإهانـة ذلـك المقـام المحـترم فبعث إلى عامله على وجده علي بن الكناوي أن يخاطب الفرنسيس في هذا الأمر ويشـير عليهم بالارتحـال من مقـام السـيدة مغنيـة فلمـا بلغهم رسـول العامـل اسـتهزءوا بـه وازدروه ولمـا وصـلت جيـوش المغـرب الأقصـى وجموعه إلى وجـده زحـف بهم ابن الكنـاوي إلى المعسـكر الفرنسـاوي والتقى الجمعان واضطرمت نار الحرب بينهما فكـانت الـدبرة فيهـا على ابن الكناوي وجموعه فانهزموا هزيمة تفرقوا منها شـذر مـذر واسـتولت عساكر الفرنسيس على جميع أثقالهم وذخائرهم وهذه اول واقعة وقعت بين سلطان مراكش وفرنسا . ذكر

خروج بيجو من الجزائر إلى جبال زواوة

لمـا بعث الجـنرال بيجـو لامـور سـير وبيـدو إلى الجهـة الغربيـة في الجيوش استكمل تعبيتـه وخـرج إلى جبـال زواوة فلقيـه الخليفـة السـيد أحمد بن سالم في جموع المسلمين بأرض فليسة وجرت بينهما حــروب شديدة ووقائع متتابعة احتاج فيها بيجو إلى النجدة فأنجدته دولتـه بالجنـد والذخائر وقوي على المسـلمين وكسـرهم واحـرق أربعين قريـة ثم دان ابن زامون أحد رؤساء القبائـل بطاعـة الفرنسـيس فلممـا رأى الخليفـة ذلك ترفع بجيوشه إلى جبال أخرى ورجع بيجو إلى الجزائر . ذكر مســير بيجو إلى الجهة الغربية وما جرى بينه وبين حاكم وجدة ابن الكناوي

بعد أن رجع بيجو من بلاد زواوة إلى الجزائر توجه في المراكب إلى وهران ثم سار إلى مقام السـيدة مغنيـة ولأول وصـوله إليـه دعـا حـاكم وجدة للمخابرة في اتفاق الكلمة فأجابه إلى ذلـك مـع عـدم اركـان كـل منهما إلى الآخـر ولمـا تقاربـا تقـدم ابن الكنـاوي في لمـة من خيلـه مـع الجيش الفرنساوي في صورة سلمية فأمر الجنرال بيجـو الجـنرال بيـدو بمقابلته فلقيـه في شـرذمة من خيالتـه وبينمـا همـا يتحادثـان إذ هجمت

فرقة من جيش ابن الكنـاوي على جنـاح الجيش الفرنسـاوي وابتـدءوهم بالقتال خوفاً من أن يؤول أمر المخابرة إلى الصلح وعنـد ذلـك وقـع بين الفـريقين حـرب شـديدة كـانت الـدبرة فيهـا على جيـوش ابن الكنـاوي فانهزموا إلى وجدة .

قال بعض مؤرخي الإفرنج وقد إنذهل بيجو من تلك الأعمـال الدالـة على الخيانــة وعــزم على الاســتيلاء على مدينــة وجــدة فكتب إلى ابن الكنـاني يستوضـحه السـبب البـاعث على مـا وقـع فأجابـه يعتـذر إليـه ويعترف بذنب جيشه ويتنصل من عهدة ما وقع فكتب إليه بيجـو أن جـل المقصود الأهم هو أمر الأمير عبد القادر وتحديد الحدود التي كانت بينكم وحكومة الأتراك الجزائرية وليس مقصودنا ما يختص بكم من البلاد وإننـا نلح عليكم أن لا تقبلوا إقامة عبد القادر في بلادكم إلى الجنـوب الغـربي هذا إذا لم تقدروا على أن تشتتوا شمل جيوشـه وتريـد منكم أيضـاً أن لا تقبلوا من ينتقل إلى بلادكم من رعاياه فإن أجبتم إلى هذه الأمـور فنحن نرتبـط معكم ونجـري الصـداقة بين أمـتين مختلفـتين وبهـا نحافـظ على شرف السلطان عبد الرحمن وأن أنتم لم تفعلوا ذلـك فنحن أعـداءٌ لكم ولا بد أن تردوا الجواب سريعاً .

قال المـؤرخ فلم تجـد هـذه المخـابرة نفعـاً ولـذلك هجم بيجـو على وجدة فدخلها بعد أن فر أهلها وتفرقوا في الجهـات قـال شرشـل ثم أن دولة فرنسـا لم تكتـف بهـذا حـتى أرسـلت مراكبهـا الحربيـة إلى طنجـة فأطلقت عليها نار مـدافعها وهـدمت قلاعهـا ونشـأ عن ذلـك هيجـان في فاس عاصـمة سـلطان مـراكش وفي الـوقت جهـز السـلطان ابنـه ولي عهده محمداً في عشرين ألف من الجند فأرسل إليه الأمـير عبـد القـادر يحذره من مقارعـة الفرنسـيس وحـربهم فلم يقنعـه ذلـك اعتمـاداً على كثرة جيوشه واستمر سائراً إلى وادي ايسلي بالقرب من وجدة فزحفت العساكر الفرنسـاوية إلى معسـكر ابن السـلطان في محلـه من ايسـلي

واشتبك الفريقان على النهـر واشـتعلت نـيران الحـرب وفي آخـر النهـار انكسر ابن السلطان وجيوشه ومنحوا أكتافهم للعدو فعمل فيهم السيف أعماله واستولى الفرنسـيس على سـائر المعسـكر بمـا فيـه من أمـوال وذخـائر ومـؤن وكـراع وعلى اثـني عشـر مـدفعاً وخيمـة ابن السـلطان وشمسيته وآب المغاربة بها شنعاء إلى آخر الدهر وهذه آخر وقائعهم مع الفرنسيس ولم ينتصروا في واحدة منها ومن غريب الاتفاق إن في هــذا النهار أطلق البرنس دبيجو نوفيل الأميرال مدافعه على الصويرة وخرب أسوارها وكانت الغلبة على جيوش المغاربة براً وبحراً في يوم واحد قال بعض المــؤرخين وبهــذه الواقعــة تلقب بيجــو دوك دي ايســلي ثم قــال وانحـط لـذلك شـأن سـلطان المغـرب الأقصـى واجمـع على المصـالحة فالتمسـها من القائـد العـام فأجابـه إلى ذلـك على هـذه الشـروط الأول سرعة ارتحال العساكر المركشية من وجدة وما إليها في الحدود الثـاني إجراءُ القصاص على الذين تعدوا الحدود الفرنساوية الثالث إخراج الأمير عبد القـادر من البلاد وإن بقي فيهـا فلا يحصـل لـه إسـعاف من حكومـة مراكش الرابع أن يصير تعيين حدود فاصلة بين حكومة فرنسـا وحكومـة مراكش فقبل سلطان مراكش هذه الشروط وتقـرر الصـلح ولمـا شـاع هذا الأمر في نواحي لمغرب الأقصى وسارت الركبان بما وقع لجيوشهم وجمـوعهم مـع الفرنسـيس كـبر عنـدهم ذلـك ونسـبوا المعـرة فيـه إلى سلطانهم وقواد الجيوش وكثر القيـل والقـال واتفـق اكـثر القبائـل على الانتقاض على السلطان وإعطاء الطاعة إلى الأمير لمـا كـانوا يسـمعون عنــه من الإقــدام والشـجاعة والقيـام بـأمور الجهـاد على مـا ينبغي من أعاظم الملـوك فكـاتبوه في ذلـك فلم يقبلـه منهم وقـال إني دخلت بلاد السلطان لا لأكون ضده أو لنأخذ منه ملكه فهذا ممـا لا يقـول بـه عاقـل قال بعضهم ومن هنا يتبين أن الأمير كان مقصوده فيما يعانيـه من قتـال الفرنسيس مقصوراً على الذب عن الدين والـوطن لا مجـرد الملـك ولـو

كان كذلك لقبل من رعايا سلطان المغرب ما ندبوه إليه ولظفـر بـه في أقرب وقت من غير كلفة وقال آخر ما كـان الأمـير في جميـع مـا تكبـده من مشاق ومعاناة الحروب إلا حباً في نصرة الدين وإنقاذ وطنـه من يـد الأعداء ولا بذل نفسه ومالـه وحولـه وقوتـه ولا صـبر على تلـك الأهـوال التي يعجز عنها أكبر سلطان في العالم إلا لإعلاء كلمة الله وإنقاذ وطنـه فتحمل لذلك من الأمور التي تقصم الظهور وتدكدك الجبال وبـاع نفسـه في رضى الله تعالى وحب وطنه بيع سماح قـال شرشـل الإنكلـيزي قـد آل أمر بعض من كان الأمير يؤمل مساعدتهم إلى أن صاروا أكبر الأعداء له وعضدوا أعداءه ونصـروهم عليـه وحـاربوه معهم وأعـانوهم في ذلـك بالمـال والرجـال فكيـف يقبـل بعـد هـذا قـول القـائلين أو يجيب دعـوة الداعين ولما أحس سلطان المغرب بما وقع من رعاياه من الاضـطراب والتذمر منه ومن رجال دولته كتب إلى الأمير يختبر ما عنده ويسبر نيتـه فيما طلب إليه ويستميله إليه وأكد عليه في زيارتـه في فـاس ظنـا منـه أنه ينخدع له أو هو ممن يجهـل مكـره وغشـه فأجابـه أن الجيش منعـوه من الإجابة إلى ما طلبـه منـه وأقبـل على بعث الغـزوات والسـرايا على الوطن ووصلت جيوشه إلى بالعباس من بلاد بني عـامر فـاهتز المغـرب الأوسط بأهله واشرأبت نفوس المرتـدين إلى التوبـة من الـردة وإرجـاع الطاعـة والخضـوع للأمـير واسـبق النـاس في هـذا بنـو عـامر واتبعهم مجـاوروهم واظهـروا للفرنسـيس العـداوة فاضـطربت حكـام الجزائـر ووهران لهذا الأمر وبذلوا وسعهم في منع الناس من الخروج من بلادهم وجعلوا عليهم العيون فارتحل الكثير من بني عامر ولحقوا بدائرة الأمـير في وادي ملوية فيما وراء جبل بني يزنا سن غرباً قال المؤرخ روا وأقام الأمير يتابع الغزوات على بلاد الجزائر من أول الشـتاء إلى أواخـر فصـل الربيـع وتـوغلت بعوثـه وغوازيـه إلى تيـارت وتاكـدمت وتلـك النـواحي فاضطرب الحكام والفرنساويين لذلك وكاتبوا سلطان مـراكش في هـذا

الأمر فأرسل إلى الأمير يأمره بالخروج من الحدود ولما وصل إليه الرسول بذلك وتحقق إن الأمير لا نية له إلا في الجهاد وتأديب رعاياه الذين تركوه واتبعوا دولة فرنسا وافق الأمير على قصده وأخبره بماله في قلوب أهل المغرب الأقصى من الميل والمحبة وحسن الاعتقاد ثم أن الأمير أرسل رسله تترى على القبائل يدعوهم إلى القيام بوظيفة الجهاد المفروضة عليهم فأجابه إلى ذلك خلق كثير وظهروا الخروج عن طاعة الفرنسيس ونادوا بطاعة سلطانهم تملصاً مما لحقهم منهم من المظالم والتكاليف الشاقة وبينما الناس على ذلك إذ ظهر محمد بن عبد الله المعروف بأبي معزه في نواحي شلف داعياً إلى نفسه مدعياً أنه محمد بن عبد الله المهدي المنتظر وطفق يدعو الناس إلى الجهاد ويحثهم عليه نحو سنة ودخل الناس في طاعته لأمور شعوذية كان يظهرها لهم ووقع بينه وبين الفرنسيس عدة حروب انتصر فيها فأيد له ذلك دعواه ثم أنهم رجعوا الكرة عليه وشتتوا شمله وفرقوا جموعه وفر ناجياً بنفسه إلى نواحي الصحراء قال بعض المؤرخين ومن أين لمثل هذا الرجل المدعي أن يحوز بعضاً من الصفات التي امتاز بها الأمير عبد القادر من حسن الإدارة وعلو الهمة وقوة الفروسية والنشاط في الحروب والحزم والعزم في إدراك الأمور لا سيما في الوقائع الشديدة الطويلة المدا التي كادت تضعف بها قوة أعظم أمة على وجه الأرض في هذا العصر . ذكر

وقعة الغزوات وفي الحادي عشر من شوال سنة ثلاث وستين ومائتين والحادي والعشرين من سبتمبر سنة سبع وأربعين وثمانمائة سار الأمير من الدائرة وكانت بوادي تافنا قاصداً إلى الغزوات وهي مرسى صغير في الحدود وأرسل في مقدمته بعض رؤساء جيشه فعلم بهم أحد المرتدين وأخبر القائمقام الفرنساوي دي مونتانيال فجمع جيوشه وقدم أمامه طليعة ثم خرج بعساكره وسار إلى الأمير فالتقى

الحرس بطليعة العدو فأوقعوا بها ثم زحفت الجيوش الإسلامية بجيوش العدو وخالطوهم فتركوهم وأذاقوهم كأس الدمار والبوار ولم يفلت منهم سوى ثمانين جندياً التجأوا إلى مزار كان قريباً منهم وأغلقوا بابه عليهم فاتبعهم المسلمون وأحاطوا بهم وقتلوا منهم نحو السبعين والباقون سلموا أنفسهم فقادوهم أسرى وفي هذه الواقعة أصيب الأمير برصاصة مسحت طرفاً من إذنه اليمنى ولما أحس بها نزل وصلى ركعتين شكراً لله تعالى على ما لحقه في سبيل الله وهذا أول جرح أصابه في الجهاد قال لي رضي الله عنه إن الذين كانوا معي أيام الجهاد يظنون إني كنت حاملاً حجباً للحفظ من رصاص العدوّ لما يرون من تأثيره في برنسي وعدم وصوله إلى جسدي مع إني لم استعمل ذلك قط وإنما كنت أحفظ نفسي بالتعاويذ الواردة في السنة فقط قال تعالى فالله خير حافظاً وقال لي أيضاً أن العسكر الفرنساوي إذا انكسر يحصل له تلاشي ويختل نظامه وترتيبه ولا يلتفت لأوامر قواده لا سيما الخيالة فإنهم إذا فروا لا يردون الكرة أبداً . ذكر

وقعة تَموشَّنتْ بعد فراغ الأمير من وقعة الغزوات توجه بجيوشه إلى بلاد بني عامر فالتقى بفرقة من الجيش الفرنساوي معها مهمات حربية قاصدة بها تلمسان فلما تراءت لها الجيوش الإسلامية رفعت علام التسليم فتقدَّم إليهم الأمير في لمة من خيله فاستأمنوا له وألقوا إليه سلاحهم بدون قتال وكانت تلك الفرقة يزيد عددها على ستمائة جندي وكانت المهمات الحربية كثيرة وافرة فانتشرت هذه الأخبار في سائر الأقطار المغربية وخفقت لها قلوب الفرنسيس والمرتدين وكتب الأمير إلى خلفائه في الجهات الشرقية يخبرهم بما اسنى الله له من الفتح والنصر ويعدهم بالمسير إلى نواحيهم وهذا نص ما كتبه إلى بعض خلفائه:
الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده من ناصر الدين عبد القادر ابن محيي الدين إلى خليفتنا حفظه الله ومكن سيوفه من

رقاب عداه أما بعد فإني أحمد الله على نصرة الدين القويم وشريعة نبيه عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة وأتم التسليم وأخبركم بما حبانا الله به من النصر المبين في جامع الغزاوت وما ذاقته الجيوش الفرنساوية من الوبال والبليات فإننا قد حصدناهم في هذه الواقعة حصداً وأذقناهم كأس الفنا والردا ولم ينجُ منهم أحد والذي نأمركم به ونؤكد عليكم فيه أن تجمعوا جيوشكم وتتفقدوا أمورهم وتندفعوا على العدو في نواحيكم وأنهاكم عن تخريب الديار فإن ذلك مما يؤذي أهلها ويكون سبباً في تأخرهم عن الطاعة ثم أبشركم بعد أن فرغنا من قضية الغزوات دخلنا بلاد بني عامر فالتقينا بنحو الستمائة جندي من جنود الفرنسيس معهم مهمات حربية ولأول ما رأونا رفعوا إشارة التسليم وتقدم قوادهم إلينا في طلب الأمان فأمناهم وسلموا لنا سلاحهم وجميع ما كان معهم واستولينا على الكل من غير قتال فكانت هذه النصرة نافلة على الانتصار العظيم في الغزوات نسأله تعالى أن يمدنا بتأييده ويصلح العباد والبلاد والسلام عليكم وعلى من حواه ناديكم ورحمة الله وبركاته ولما بلغ الفرنساويين هذه الأخبار تكدر عيشهم وأحسوا برجوع الكرة عليهم وعلموا أنهم صاروا في خطر عظيم حيث إنهم فقدوا ثمرة خمس سنين في بضع ساعات واجتمع مجلسهم في الجزائر فاتفقوا على أن يرفعوا هذه الأخبار وما آلت إليه الحال إلى دولتهم فحرروا وطلبوا النجدة والإمدادات وألحوا عليها في إرجاع المارشال بيجو إلى الجزائر في أسرع وقت ولما اتصل ذلك بدولتهم هالها الأمر وعظم عندها فعزلت المارشال فالا من الجزائر وعينت مكانه المارشال بيجو وأمرته بسرعة السفر وجهزت معه مائة ألف من العساكر وما يلزمها من الذخائر والمهمات كذا نقل شرشل الإنكليزي في تاريخه وأما الأمير فإنه جمع جيوشه ودخل إلى الساحل وجعل يتنقل فيه يميناً وشمالاً ولقبائل تراجع الطاعة وتلوذ بها وتقدم أعذارها فيقبل

ويعفو ويصفح ثم بلغ الخبر الجنرال لامور سير وهـو في الجزائـر فـركب البحر في جيش كثيف إلى وهران وتوجه إلى تلمسان فـاجتمع بكافنيـاك وخرجوا إلى الحدود المراكشية يطلبون الدائرة ليأخذوا منها الثـأر وكـان رئيس حاميـة الـدائرة بلغـه خبرهمـا فارتحـل بالـدائرة إلى الأطلس في الجهة الشمالية من الريـف ثم عـدل كافنيـاك إلى جهـة الصـحراء فأغـار على أولاد سيدي يحيى فحصل على عشيرة منهم وكانوا لما رأوا الجيش دخلـوا في غـار قـريب منهم يعـرف بغـار العقبـة البيضـاء وكـانوا نحـو الخمسـمائة نفس بين رجـال ونسـاء وأطفـال فجمـع جيش الفرنسـيس الحطب والتبن على فم الغار وأضـرموه نـاراً فـدخل الـدخان إلى داخـل الغار فاختنق به كل من كان داخله وحسب الجنرال إنـه أخـذ الثـأر بهـذا القصاص المشين بالإنسانية والمشعر بفقـد الشـفقة والرحمـة والحميـة واستمر الأمير في جهات معسكر يجـول فيهـا بجيوشـه والقبائـل تتـوارد عليه لائذة بطاعته ولما رأى حاكم معسكر أن جميع القبائـل الـتي كـانت قدمت لهم الطاعة قد تركتهم ودخلت في يد الأمير اهتز لذلك وجمع مـا عنده من العسكر وخرج يطلب الأمير فلقيه وجرت بينهما حروب شديدة واستمرت أيامـاً كثـيرة ثم انكسـر حـاكم معسـكر ورجـع إليهـا بخسـارة جسـيمة وأمسـت العسـاكر الفرنسـاوية محصـورة من جميـع الجهـات واضطرب الوطن بأهلـه واشـتد الهيجـان في نواحيـه وأدمن الأمـير على الغارات وبعث البعوث والغوازي فلا يخلو يـوم من هجـوم عسـاكره على الجهات قال بعض مؤرخي الإفرنج قد اضـطربت القبائـل والفرنسـاويون لسرعة الأمير وتعاقب ظهوره وخفائـه وحضـوره وغيبتـه مـع الأيـام لأنـه جعل دأبه سرعة الحضور في سائر المقاطعات وإهاجة روح الحصار في كـل المحلات فشـاب حضـوره السـريع جعـل الفرنسـاويين في حالـة اضطراب وخيبة ظن وبذلك ثارت المنازعات واشتدت الحركات حتى إن الأمير في اليوم الواحد يظهر في غدوته في مكان وفي عشـيته وروحتـه

يظهر في آخر بعيد المسافة عن الأول حتى إنهم سموه أبا ليلة وأبا نهـار ومن حركاته إنه سـار في سـتة آلاف من الفرسـان إلى تاكـدمت ومنهـا إلى وادي شلف فبلغه إن أولاد شعيب وهم قبيلة عظيمة كثيرة البطــون والعشـائر عازمـة على الاتحـاد مـع الفرنسـيس فعـدل في طريقـه عن التوجـه إلى وجهتـه الـتي كـان قاصـداً إليهـا وسـار إليهم ثم هجم عليهم وكانوا في خمسة آلاف فارس فأخذهم أخـذ عزيـز مقتـدر وألقى القبض على رؤسـائهم ومشـايخهم وأخـذ جميـع أمـوالهم ومواشـيهم وغنم مـا عندهم من الأثاث والأمتعة ذكر

أبي معزة الثائر وما آل إليه أمـره أصـله من أولاد خويـدم في وادي شلف ادعى إنه المهدي المنتظر وسبب هـذه الـدعوى الكاذبـة أنـه جـاء إلى قبيلة سنجاس فوجدهم مغاضبين لرئيسـهم فـزين لهم مـا أضـمروه من قتله وقوى بصائرهم وقال أن هذا كافر بالله تعالى وهو الـذي أدخـل الفرنسيس إلى بلادكم وقادكم إلى طـاعتهم فاستحسـنوا مـا دلهم عليـه وبيتـوا رئيسـهم وقتلـوه ثم جمـع كلمتهم وغـزى بهم فرقـة من جيـوش الفرنسيس كانت مخيمة في وادي الفضة قريبة من وادي شلف فانتصـر عليها وغنم ما عندها من الذخائر وأثخن فيها قتلاً وأسـراً ثم أخـبرهم إنـه المهديُّ المنتظر وإن سلاح العدو ورصاصه لا يعمل فيـه ولا في جموعـه ودعـاهم إلى بـذل الطاعـة لـه فأطـاعوه ثم إن الفرنسـيس تجمعـوا لـه وكسروه وفر بنفسه هارباً وما زال يجول في تلك الجبال ينتقل فيهـا من جبـل إلى جبـل ويـدعوا النـاس إليـه فلا يجيبـه إلا الأوغـاد منهم إلى أن غدرت قبيلة صـبيح بسـانحي قائـد الفرقـة الحاميـة بتلـك الجهـة فقتلـوه وقتلـوا أصـحابه معـه فـانتهز أبـو معـزة الفرصـة وآوى إليهم وقـرر في عقولهم إنه يقوم بأمرهم ويحمي حوزتهم من عـدوهم فهـاجت العشـائر والقبائل ونادى مناديهم بالجهاد فأرسل حاكم الجزائر القومندار موريلون في جيش كثير إلى قبيلة صبيح لينتقم منها ويأخذ بثـأر الحـاكم وأصـحابه

فزحفوا إليه مع أبي معزة فلما التقى الجمعان وانتشب القتال انهزموا وفر رئيسهم أبو معزة فلم يلوي على أحد وسكن الجبال إلى أن لحق بالأمير وأولاده .^ ذكر

أعمال الجنرال بيجو بعد رجوعه إلى الجزائر في المرة الأخيرة وما آل إليه الأمر

وبعد أن وصل بيجو إلى الجزائر وتلاحقت به العساكر من فرنسا وعددها مائة ألف جندي جمع مجلسه الحربي للمفاوضة فيما هم بصدده فقر القرار على إظهار الشدة والحزم وإن هذه الجنود مع ما كان موجوداً في الجزائر وملحقاتها من العسكر تنقسم إلى أربعة أقسام وتزحف دفعة واحدة على الداخلية كل قسم مما يليه وتعين لامور سير على القسم الأول وبيدو على الثاني ويوسف المتنصر العنابي على الثالث والقسم الرابع يرأسه بيجو بنفسه ثم خرجوا جميعاً وفي ذلك الوقت كان الأمير في جنوبي ايالة وهران فقصده لامور سير وطير الخبر إلى بيجو ويوسف يخبرهم به لأنهم تواعدوا على أن يجتمعوا عليه ويحولوا بينه وبين لصحراء قال بعض مؤرخيهم ولشدة عزمه وقوة حزمه وسرعة حركاته كان يوجد في المكان المعين ثم يفقد منه في أقرب وقت فلذا تركهم يجولون عدة أسابيع في نواحي شلف بدون طائل ثم بعد عناء وشدة اجتمع به بيجو ويوسف بجيوشهما في أبي الشطوط من بلاد أولاد شريف فوقع بينه وبينهما قتال شديد على وادي رهيو فقصدت فرقة من العدو إلى مركزه فالجأته إلى الوادي فشد على فرسه فارتمى به إلى العدوة الأخرى وكانت المسافة بين العدوتين في مجرى النهر نحو الثلاثين ذراعاً هاشمياً ولم يلحقه انزعاج ولا لحق الفرس ضرر فأعدها الناس من أعظم خرق العوائد وفي آخر القتال انتصر على العدو مع كثرته وغنم منه نحو الخمسين فرساً ثم سار إلى فليته وبيجو يتأثره ثم ارتد عنه ليأسه من اللحاق به فلقيه يوسف في كوجيلة في جيبته وكان الأمير في نحو ألفي فارس فاستجر له ليريه أنه انكسر أمامه ثم رد الكرة عليه ففرق شمل تلك الجيوش الكثيرة وبدد كتائبها وتحيز يوسف في ناحية من محل المعركة فقصده الأمير ليبارزه فهرب وكان اليوم شديد المطر والرياح فلم يتمكن منه ولولا ذلك لأخذه أسيراً أو أصماه بسيفه واعدمه الحياة ونعم الحارس الأجل وفي تلك الليلة سار الأمير من محل المعمعة غازياً على قبيلة صدامة في وادي العبد غير ملتفت إلى بيجو ولا إلى لامور سير مع قربهما من بلاد صدامة ثم غزى قبيلة الأحرار فاكتسح من لحقه منها ثم توجه إلى الجهة الشرقية فلاذت كافة قبائلها بطاعته ولم يزل يتنقل إلى أن وصل إلى جبال زواوة واحتل بجبل جرجرة وفيها التقى بخليفته السيد أحمد بن سالم وفي أثناء مسيره إلى تلك النواحي بلغه قرب العدو منه فخشي منه أن يتعرض له في طريقه فاغز السير وقطع مسافة أربعة مراحل في ليلة واحدة وكان كلما وصل إلى قوم ركبوا معه إلى قوم آخرين إلى أن وصل إلى جرجرة ولذلك سمي بأبي ليلة وبعد أن أخذ الراحة في تلك الجهة غزا بني هيدورة من القبائل الذين دانوا بطاعة الفرنسيس ومنازلهم في شرقي المدية ثم اجتمعت عليه قبائل زواوة وكانوا مستعدين للجهاد تحت رايته فانتخب منهم نحو الخمسة آلاف فارس وغزا بهم

نحو متيجة فاكتسح الأموال وفعل في تلك النواحي الفعائل وهرب الفرنساويون أمامه إلى مدينة الجزائر واستمر على فعله إلى أن وصل قرب المدية كل ذلك وجيوش الفرنسيس تطلبه في ايالة وهران وايالة مليانة وبينما هم كذلك بلغتهم أخباره وفتكاته في بلاد متيجة وأنحاء الجزائر فتعجبوا من أمره وارتاعوا من بطشه وبعد أن بلغ مراده من غزواته تلك وامتلأت أيدي جيوشه بالغنائم رجع إلى جرجرة ومنها ارتحل إلى الجهة الشمالية ونزل بأرض فليسة من قبائل زواوة بالقرب من دلس وتبتعد عن مدينة الجزائر بمرحلة وصار يشن الغارات المتتابعة على سهول متيجة وقد مضى له أكثر من سنة بعيداً عن أهله فكتبت متشوقاً إليه متعطشاً للقائه فأجابني بقوله . بني لئن دعاك الشوق يوماً ◈ وحنت للقا منا القلوب

ورمت بأن تنال منا ووصلا ◈ يصح بعيده القلب الكئيب
فإني منك أولى باشتياق ◈ وناري في لفؤاد لها لهيب
وإن أخفي اشتياقي في فؤادي ◈ فإن الشوق يكتمه الأريب

وقال يفتخر بنفسه وبجيشه

لنا في كل مكرمة مجال ◈ ومن فوق السماك لنا رجال
ركبنا للمكارم كل هول ◈ وخضنا أبحراً ولها زجال
إذا عنها توانى الغير عجزاً ◈ فنحن الراحلون لها عجال
سوانا ليس بالمقصود لما ◈ ينادي المستغيث ألا تعالوا
ولفظ الناس ليس له مسمى ◈ سوانا والمنى منا ينال
لنا الفخر العميم في كل عصر ◈ ومصر هل بهذا ما يقال
رفعنا ثوبنا عن كل لوءم ◈ فأقوالي تصدقها الفعال
ولو ندري بماء لمزن يزري ◈ لكان لنا على الظمأ احتمال
ذرى ذا المجد حقاً قد تعالى ◈ وصدقا قد تطاول لا يطال
فلا جزع ولا هلع مشين ◈ ومنا الغدر أو كذب محال
ونحلم أن جنا السفهاء حقا ◈ ومن قبل لسؤال لنا نوال
ورثنا سؤددا للعرب يبقى ◈ وما تبقى السماء ولا الجبال
فبالجد القديم علت قريش ◈ ومنا فوق ذا طابت فعال
وكان لنا دوم الدهر ذكر ◈ بذا نطق الكتاب ولا يزال
ومنا لم يزل في كل عصر ◈ رجال للرجال هم الرجال
لقد شادوا المؤسس من قديم ◈ بهم ترقى المكارم والخصال
لهم همم سمت فوق الثريَّا ◈ حماة الدين دأبهم النضال
لهم لسن العلوم لها احتجاج ◈ وبيض ما يثلمها النزال
سلوا عنا الفرائس تخبرنكم ◈ ويصدق إذا حكت منها المقال
فكم لي فيهم من يوم حرب ◈ به افتخر الزمان ولا يزال

ومما وجدته مقيداً بخط السيد قدور بن الرويلة كاتب الأمير قال ولما بلغ سيدي وسندي ومولاي الأمير عبد القادر ابن سيدنا محيي الدين نصره الله أني وصلت

المدينة المنورة كاتبني وهنأني بهذه الأبيات : أخي نلت الذي قد كنت تطلبه ◈ وفزت دوني بما ترجو وتطلبه

وساعدتك الليالي لا شقيت فدم ◈ قرير عين بوصل لست تسلبه

قد طاب في طيبة الغرا مقامكم ◈ جوار محبوبنا من كنت ترقبه

يا هل ترى مثلما فزتم أفوز وهل ◈ تعلو سعودي على نحسي فتقبله

ثم إنه نصره الله ذكر لي أبيات ابن المبارك المروزي للفضيل بن عياض كنى بهما نصره الله عن أمره لي بالقدوم إلى حضرته العلية وكان حفظه الله جرح في بعض مغازيه برصاصة أصابت طرف إذنه فلطف الباري والحمد لله على سلامته وهي . يا

عابد الحرمين لو أبصرتنا ◈ لعلمت إنك في العبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه ◈ فنحورنا بدمائنا تتخضب

أو كان يتعب خيله في باطل ◈ فخيولنا يوم الصبيحة تتعب

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ◈ رهج السنابك والغبار الأطيب

فأجبته بأبي وأمي أفتديك من الردى ◈ وبأحمد وبأخته أتقرب

واحسرتي واضيعتي واخيبتي ◈ إن لم أكن بفدائكم أتقلب

وحياتكم فلأنني بفراقكم ◈ لعلى لظى وجمارها أتقلب

هل من قطا يوماً يعير جناحه ◈ صباً غدا بفراقكم يتعذب

حتى أراني في حماكم واهباً ◈ روحي فداكم في رضاكم أرغب

ذكر واقعة نهر يسَّر وما آل إليه أمر الأمير ورجوعه إلى دائرته

ولما اتصل انتصار الأمير في تلك الأنحاء واشرأبت نفوس أهل الوطن إليه غص به حاكم الجزائر فجهز إليه الجنرال جانفيل بعسكر جرار وكان الأمير معسكراً على شاطئ نهر يسَّر من العدوة اليمنى فصبحه العدو في محله على حين غفلة فركب الأمير فرسه ودافع بمن حضره من العسكر واشتد القتال بين الفريقين واختلط هبراً بالسيوف ووخزاً بالرماح ولا زال الأمير يقاتل حتى وقع فرسه من تحته وركب فرساً آخر ثم رجع القهقري بمن بقي من جيوشه وقصد جهة نهر سباو قال بعضهم وبهذه الواقعة انتهز بيجو الفرصة فوالى مسيره إلى جرجرة واجتمع فيها بالجنرال جانتيل ثم زحفوا إلى بلاد فليسة فاستولوا عليها وتنحى الأمير مع جيوشه من مصادمتهم مرة أخرى ثم سارت الجيوش

الفرنساوية إلى نواحي الجنوب وتفرقـوا في كـل جهـة وأخـذت القبائـل يلوذون بالطاعة والانقياد إليهم ورجع الذين هاجروا من بلادهم منهم إليها ثم إن الأمير لمـا رأى اضـطراب الأحـوال مـع كـثرة جيش العـدو وعجـز المسـلمين عن المدافعـة والمهـاجرة اعـتزم على التوجـه إلى نـواحي الصحراء مراقباً سنوح الفرص ولا زال في طريقـه يشـن الغـارات ويبث البعـوث والغـوازي يمينـاً وشـمالاً على مسـتعمرات الفرنسـيس إلى أن اجتمع عنده من الغنائم مالم يدخل تحت حساب فعمد بالجميع إلى جبـل المعمـور طالبـاً بلاد أولاد نائـل وقـدم أثقالـه وعسـاكره وتـأخر في نحـو السبعين فارساً يستطلع أخبار العـدو فطـار الخـبر إلى الجـنرال يوسـف العنابي المتنصر فسار بجيشه يطوي الليل والنهـار حـتى أدركـه فـالتفت الأمـير إلى العـدو بمن معـه وصـدقوه القتـال واسـتمرت نـار الحـرب تضطرم نحو أربع ساعات واستشهد من المسلمين نحو الأربعين فارسـاً ولم يبقى مـع الأمـير إلا نحـو الثلاثين فجمعهم ورد الكـرة على العـدو فتطايروا أمامـه ثم اختفى بمن بقي معـه في بعض الأوديـة القريبـة من موضـع القتـال فطلبهم العـدو فلم يجـد لهم أثـراً قـال شرشـل فعجب الفرنساويون من بسـالته وشـجاعته وسـرعة اختفائـه حيث إنهم طلبـوه فلم يجدوه فكأنه طار في الهواء أو خـرق الأرض هـو ومن معـه ثم قـال وقد أوردت هذه القصة في باريس بين الأعيـان في المحافـل السياسـية في معرض التعجب والحيرة فشهد الجنرال يوسف للأمير بالفضـل على كل من عرفت بسالته وحماسـته من رجـال الأمم والـذي أذهـل العقـول تواريه السريع عن أعين الجميـع بعـد أن كـان بينهم قـال الجـنرال ولقـد رأيت من ثبات الأمير وشدة هجومـه مـا يحـير الأفكـار ولمـا رأى الأمـير كثرة الجيوش الفرنساوية وانتشارها في سائر نواحي البلاد ورأى القبائل الذين كانوا يمدونه بالذخيرة وسائر ما يلزم لـه ولجيوشـه تركـوا طاعتـه ولحقـوا بالفرنسـيس علم أن الـوقت غـير مسـاعد على الوصـول إلى

اجتماع الكلمة عليه والعدول عن طاعة عـدوه إلى طاعتـه سـار بجيشـه مغرباً على طريـق الصـحراء فـنزل على أولاد السـيد الشـيخ ابن الـدين البكري في بلدتهم المعروفة بالأبيض فتلقوه بالتعظيم والاحترام وأكرموا نزله ثم تقدم إليه كبيرهم وقال أيها الأمير المعظم أنا نسألك بالله تعالى أن لا تعرضنا للحرب والبلاء مع عدو ديننا ودنيانا بإقامتك عندنا في بلادنـا فإن الفرنسيس لا يخفى عنادهم وظلمهم ولـولا أنهم أشـد الخلـق عتـوّاً وظلما واعتداء ما تسلطوا علينا وأين بلادنا من بلادهم فهم في بـر ونحن في بر أخر ومع ذلك فأنهم اعتدوا علينا وقصدوا أن يملكوا بلادنا ورقابنـا فلما سمع الأمير كلامهم رق لهم وأشفق عليهم وارتحل عنهم مغرباً إلى دائرته وكانت على نهر ملوية فيما وراء جبل بني يزناسـن ولأول وصـوله أخبره بقتل الأسارى الفرنساويين المسـتولى عليهم في وقعـة الغـزوات وتموشنت فأسف لذلك وتكـدر ووبخ خليفتـه على الـدائرة السـيد الحـاج مصـطفى بن التهـامي فاعتـذر عن ذلـك بأعـذار كثـيرة أشـدها دسـائس السيد محمد البوحميدي وذلك أن الأمير قبـل واقعـة الغـزوات قـد جعـل أمر الدائرة ومـا يتعلـق بهـا إلى خليفتـه البوحميـدي فلمـا وقعت واقعـة الغزوات واعتزم على المسـير لحمـل القبائـل على الرجـوع إلى طاعتـه سلم الأسرى إلى صهره وخليفته السيد مصطفى وعهد إليه بأمر الدائرة والنيابة عنه وفوضه تفويضاً مطلقاً بإجراء ما يعود نفعه على الدائرة وأن يمنع من راد الخروج منها والدخول إلى مراكش لمـا نـالهم من المشـقة والتعب وأمـره أن يبلـغ البوحميـدي أن يلحقـه بنجـدة إلى جنـوب إقليم الجزائر ولما بلغ البوحميدي ظن ذلك من عدم ثقة الأمير بـه فأخـذ يهيج بني عامر على العودة إلى أوطانهم أو اللحوق بسلطان المغرب الأقصى ويمنعهم من تقديم الطاعة لابن التهامي فحنق التهـامي سـيما من عـدم توجهه بالنجدة للأمـير وأمـر بـأن الـذي لا يريـد أن يتوجـه للنجـدة يعطي فرسه إلى من قتلت دابته في الحرب فحصـل من ذلـك قلـق عظيم في

قبيلة بني عامر لأن العرب تعز خيولهـا أكـثر من معـزة نفوسـها فأخـذوا بالخروج من الـدائرة إلى بلاد مـراكش فخـرج في ليلـتين مقـدار مـائتي خيمة والتجئوا إلى القبائل المجاورة للدائرة وتبعهم الناس فافتكر السيد مصـطفى لعمـل واسـطة تخـوفهم من الخـروج فلم يـر بحسـب فكـره احسـن من ذبح أسـرى الفرنسـاوية الـذين سـلمهم الأمـير لـه وأوصـاه بحسـن معـاملتهم وظن أن ذلـك الأمـر يـؤخر العـرب عن الخـروج من الدائرة خيفة من الفرنساويين حيث إنهم ارتكبوا أمـراً فضـيعاً في حقهم فمنعه الخوف من غضب الأمير وعتابه له لما هو محقق عنـده من شـدة اعتنائه بأمر الأسرى وبذل الإكرام وحسن المعاملة لهم وصار يقدم رجل ويؤخر أخرى حتى ورد عليه الخبر بزحف جيوش السلطان عبد الــرحمن لإنقاذهم من يده فازداد حـيرة لوقوعـه بين أمـرين خطـيرين أمـا سـفك الدماء بين المسلمين لأجلهم وأما أن يسلمهم لهم اختيارا ويصعب عليــه الاعتذار عنـد مواجهـة الأمـر ثم قـوى عزمـه على مـا كـان مصـرًّا عليـه وقتلهم وكانوا مائة وسبعة وثمانين أسيراً وبقي أحد عشر رئيسـاً وكـانت هذه الفعلة الشنيعة افظـع شـيء وقـع من هـذا الخليفـة في جميـع تلـك الحوادث والمواقع والحق يقال إن هذا الفعل خارج عن العـدل ولـولا مـا اشتهر به الأمير من حسن المعاملة للأسرى لظن الناس أن لـه دخلاً في هذا الأمر ولذا قال بعض مـؤرخي الإفـرنج إن حسـن المعاملـة المألوفـة من الأمير رفعت هذا الظن لأنه كان ينزل أسراه منزلـة الضـيوف ويـأمر لهم بأفخر الطعام وأحسن الملبوس وكـان مـرتب كـل واحـد من خمس ريالات إلى عشرين على حسب مـراتبهم وقـد أفـرد شرشـل الإنكلـيزي الفصل السادس عشر من تاريخه بذكر ما كان يعامل به الأمـير الأسـرى الواقعين في يـده من المعاملـة الحسـنة والرحمـة والشـفقة وأيـد ذلـك بحكايـات صـدرت من الأمـير في حقهم تسـتحق أن تكتب على طـروس المواقع بماء الذهب وملخص ما ذكـره إن الاعتنـاء الموجـود عنـد الأمـير

عبد القادر لأسراه الزائد عن الحد لم يكن له مثال في أخبار الحرب ولذا على كافة المسجونين أن يخرُّوا عند قدميه نظراً لما أبداه من الرحمة والشفقة وحسن المعاملة لأن الأسارى الذين يقعون في أيدي العرب المتوحشين كانوا معرَّضين للتهديدات البربرية ولعدم فهم لفظة أسير عند القبائل المتوحشة كانوا لا يبقون على كل من قبض عليه في ساحة الحرب وكان جل مرامهم تكثير عدد الرؤوس من الأعداء افتخاراً بحملها على جوانب الخيول وطمعاً بما ينالهم على كل رأس من الجائزة حتى صار ذلك الفعل طبيعة لهم لا يمكنهم تركها فكيف وقد اضطرمت نيران غيظهم مما ألمَّ بهم من الفرنساويين بيد أن مرحمة الأمير وشفقته وبديع لحكمة والسياسةالتي أبداها بجعله كل من أتى بأسير سلماً ضعفي ما كان يأخذ على لرأس أو ثلاثة أضعافه وكل من أتى برأس أسير يجازى بالجلد على رؤوس الأشهاد وأصدر الأوامر اللازمة بهذا الشأن في سائر مملكته وهذه المعاملة الحسنة وأضرابها سرت في سائر خلفائه وعماله وأثرت في العرب والبربر تأثيراً غريباً فبلغت مرحمتهم الإنسانية على شدتهم البربرية غير أنه لم يفق أحد ما كان لوالدته من كمال الحلم والمرحمة ولطف المعاملة والشفقة على أسرى النساء فقد اعتنت بهنَّ اعتناء أنساهنَّ ما هنَّ فيه وجعلت خيمتهنَّ ملاصقة لخيمتها وعينت اثنين من إمائها خفراً عليهنَّ وفي كل صباح ترسل إليهنَّ القهوة والشاي والسكر والزبد واللحم وكافة ما تدعوهنَّ إليه حاجتهنَّ ومن شدة حرص الأمير على الاعتناء بشأنهم كتب إلى أسقف الجزائر أن يرسل إليهم كاهناً ليسليهم ويخفف مصائب الأسر عليهم ويكتب لهم ما يريدون أن يكتبوه لعيالهم ويكون ذلك الكاهن أميناً على نفسه وضيفاً مكرماً عنده ثم قال وإن كان قلب الأمير قاسياً عند لقاء الخطر لكنه يلين ويذوب شفقة عند مشاهدة حزن الأسرى وكان أشد كراهة عنده أن يرى الأسرى من النساء ويضطرب عند تصوره

وقوعهنَّ فرائس الحرب وقد جاء إليه أحد أعوانه بأربعة من النساء أسرى فحوَّل وجهه وقال متهكماً الأسد يقنص الحيوانات القوية ويقع ابن آوى على الضعيفة وأطلق مرة أربعة وتسعين أسيراً بلا فدية ولا عوض وأرسل معهم خفراً يوصلهم إلى رفقائهم فقال أحد قوادهم ينبغي لنا إخفاء هذا الأمر وكتمه عن العسكر لأنهم إن علموا به لا يتأتى لنا أن نحارب عبد القادر بالترتيب ولم يكتفِ بتحسين حالة الأسرى فقط بل كان يود المبادلة وقد طلب ذلك مراراً عديدة من الفرنساويين وأصرَّ عليه فلم يجده نفعاً ومما يؤكد عدم اطلاعه على ما وقع بهم ما ذكره زوا الفرنساوي في تاريخه من إن الضباط لباقين منهم أرسلوا إلى أهليهم في فرنسا كتباً يبرّؤُنه بها ونص كتبهم إن معاملة الأمير للأسرى لم تزل معاملة حسنة بل عديمة النظير وإن إكرامه لهم لا يقاس عليه لعزته وجميع ما جرى على رفقائنا لم يكن بإذنه ولا بعلمه بل لا يخطر في بال أن يصدر مثل هذا الأمر منه لأنه يخشى مقابلة الفرنسيس له بالمثل فيذبحون الأسرى من المسلمين الذين عندهم وهذا لا شك إنه يهيج القبائل التي لها أسرى وعلى فرض إنه أمر به صهره لما كان تأخر في إنفاذ الأمر تلك المدة الطويلة ولو قيل إنه استشاره فيه بعد وصوله إلى الدائرة فالوقت لا يقضي أن يحصل على جواب في تلك المدة لأن الدائرة كانت إذ ذاك في ملوية الأمير في بلاد زواوة وبينهما مسافة ستمائة وثمانين كيلومتراً نعم إن الأمير تغافل عن إظهار التهمة وتوجيه المسؤولية على الرؤساء الذين فعلوا تلك الفعلة الشنيعة وهم لسيد مصطفى ومن وافقه ليبري ساحتهم خوفاً عليهم من وقوع الخطر على أحدهم إن وقع في يد الفرنسيس كما هو مقتضى طباعه الكريمة انتهى . وبالجملة فإن شرف نفس الأمير وكرم أخلاقه مع ما عهد منه فيما مضى من معاملة للأسرى يحققان عدم صدور ذلك منه حتى إن المارشال بيجو أرسل قبل هذه الواقعة نيشان افتخار لبعض الأسارى

الذين عند الأمير اسمه اسكوفيه فلاول وصوله إلى سـموه أمـر بإحضـار اسكوفيه عنـده وأمـر بعض أعيـان العسـكر أن يقلـده النيشـان بيـده ثم أحسن إلى الأسير المذكور بمـا ملأ قلبـه سـروراً وكتب أسـقف الجزائـر يسأله إطلاق أسير من أقاربه وقال في كتابه ليس لي مال أفديه به بـل أقابلك بالدعاء والثناء والراحمون يرحمهم الله فأجابه الأمير إلى مطلوبه وأطلق له أسيره وكتب إليه حيث إنك زعمت إنـك مشـفق على أسـيرك فكان ينبغي لك أن تعم بإشفاقك سـائر الأسـرى فتطلب إطلاقهم وقـال فاليوت إن الأمير كان في صورة عـدوّ كـريم الأخلاق فـإن كـل من كـان أسيراً في قبضة يده من الفرنسيس قد أثنى عليـه الثنـاء الجميـل وكـان يأمر بإعفـائهم من الخدمـة يـوم الأحـد ملاحظـاً في ذلـك اعتبـار الديانـة المسيحية مع إن الفرنسيس لم يلاحظوا اعتبار يوم الأحد بل هو عنــدهم كسائر الأيام فإذا كانت هـذه أحوالـه في مبـدأ أمـره فكيـف يكـون على خلافها في منتهى أمره انتهى .

ثم إن الأمير بدا له إن يفادي بالأسرى الباقين ولمـا لم يحصـل على طائل أطلقهم وكتب إلى ملك فرنس ما نصه .الحمد لله وحده من ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين إلى جلالـة ملـك فرنسـا لـويس فيليب أحسـن اللـه مقاصـده في كـل مـا يـؤُل إلى سـعادته وجعلـه من الـذين يتبعـون سـواء السـبيل والمعـروض لجلالتكم إنـني كنت مسـتعداً لقبـول شروط الصلح وطالما تعاطيت أسباب تقريره وسـعيت ورائهـا فلم يجـد ذلك نفعاً لشدة ما انطوت عليه بواطن عمال الجزائر من الفساد والعناد وتشبثهم بما يلقيه إليهم المنافقون من العرب والبربر الذين تورطوا في مهوى غيهم الداعي إلى مكـر اللـه تعـالى بهم وغضـبه عليهم وقـد كتبت إليكم عدة مكاتيب فلم يأتني جـواب منكم فقـويت البـواعث الرديـة في الجزائـر على اسـتمرار الحـرب إلى الآن وفي أثنـاء الوقـائع بيننـا وبين عساكركم كـان يقـع في أيـدينا أسـرى كثـيرة منكم فنفـادي بهـا أسـرانا

الذين في أيديكم وفي السنة الماضية كتبت لنوابكم بمبادلة الأسرى فلم يردوا لي جواباً فراجعتهم مراراً فما أفـادت المراجعـة شـيئاً بـل سـجنوا رسلي وأهانوهم وهذا أعظم دليل عند العرب بين المتحاربين على نقض العهد من فاعله حيث إن الرسل شأنها أن تعاد إلى مرسلها بلا إهانـة ولا إيذاء وبعد ذلك شاع إن الفرنسيس عازمون على إنقاذ أسراهم جبراً من أيدي العرب ثم فشا بين الناس إن سلطان مراكش عازم على إنقـاذهم من يد خليفتنا رغماً عنه فكان هذا مع سوء سلوك نوابكم سبباً لمـا وقـع بالأسرى من غير إذن منا ولا علم لنا والآن قد أطلقنا عشـرة ضـباط مـع الـرئيس كـورلي دي كـوفري وهم يعلمـون بمـا أجرينـاه من الوسـائل والتدبيرات الحسـنة لأجـل الوصـول إلى الفديـة بمـا عنـدكم من أسـرى المسلمين ويعلمـون حسـن معاملتنـا لسـائر الأسـرى الـذين يقعـون في أيدينا ويعرفون إن عدم رد جواب نوابكم على مكاتيبنا في هذا الأمـر هـو الذي عارض حسن المقاصد فيما بيننا وبينكم وأوجب ما أوجب مما كـان من غير اختيار ولا قصد انتهى .

وبعد أن أطلق الضباط المـذكورين أرسـل معهم حرسـاً يوصـلونهم إلى مليليـة وهي مرفـأ لإسـبانيا فوصـلوا على أحسـن الأحـوال وبعـد وصولهم كتب كل واحد منهم بخطه بصورة الحال ونص ما كتبوه . حينما كنا أسرى عند الأمير عبد القادر كنا نعامل أحسن معاملة وكانت جرايتنـا اليومية الخبز الخالص واللحم الجيد والسمن والسكر والقهوة وما أشـبه ذلك ولم يحصل لنا أدنى إهانة من سائر الوجوه وعندما كـان الأمـير في الصحراء حـرر خليفتـه ألبوحميـدي إلى المارشـال في الجزائـر في أمـر الفدا فلمم يرد له جواباً وعنـدما أخـذ العـرب يقتلـون رفقاءنـا بغـير علم الأمير سألنا عن السبب فأخبرونا إنه قد عزم المراكشـيون على أخـذهم جبراً وبعد هذا كله أنعم الأمير علينا بإطلاق سـراحنا وأرسـلنا إلى مليليـة وكان هذا منه إحساناً من غير عوض حرر في السـادس من تشـرين أول

سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف كاتبه . توما . باريوت . هابوس رئيس الفرقة الثامنة من معسكر اورليـان . ميناكرينـا . ماريسـن . كـورلي دي كـوفري رئيس فرقـة الفرسـان . وإطلاق هـؤلاء الضـباط لم تحتفـل بـه فرنسا ولم تلتفت إليه وتمادت على غيها وإغرائها لسلطان مراكش على الأمير فارتاع السلطان عبد الرحمن وبعث إلى الأمير يأمره بالخروج من الحدود ويذكر له إنه لا سبيل إلى خلاصك إلا بأحد الأمرين إمـا أن تسـلم نفسك إلينا وإما أن تخرج من الحدود فإن أبيت أن تجري أحدهما طوعـاً فنحن نجريـه كرهـاً ثم دس إلى القبائـل القريبـة من الـدائرة بالتضـييق عليها وقطع الميرة عنهـا والتجـافي عن مواصـلتها بكـل مـا يعـود بـالنفع عليها فوجم الأمير لهذا الأمر وكتب إلى السلطان ما نصه . أما بعد فإني كاتبتكم أولاً والتمست منكم كف ضرر قبائلكم المجاورة لنا وتعديها على من تبعـني وسـوء معـاملتهم لهم لأنهم كلهم أولاد دين واحـد وشـريعة واحدة فلم يأتني جواب عن ذلك ولم يحصـل لهم ردع من طـرفكم ومـع هذا كله أنا صابر ومتحمل لما يجرونه كراهة سفك دماء المسلمين مـدة ستة أشهر طمعاً في رجوعهم عن البغي والطغيان إلى العدل والإحسان مع قدرتي عليهم في كل آن فإن لم تردعهم الآن عن أفعالهم وتـرجعهم عن قبيح تصرفاتهم التزم المحاماة عن حقوقي والمحافظة على شـرف أتبـاعي ولـذا بـادرت بإخبـاركم والسـلام عليكم . ثم جمـع أعيـان جيشـه ودائرته وأطلعهم على حقيقة الحال فعلمـوا أن الرجـل قـد ضـل رشـده في التخلي عمن ينصـره ويحمي حوزتـه وإنـه وافـق العـدو على إذلال المجاهدين في سـبيل اللـه والغض من شـأنهم ثم قـالوا للأمـير إننـا قـد بايعنـاك على السـمع والطاعـة والجهـاد إلى المـوت ونحن مسـتعدون للوفـاء بالعهـد من إتباعـك والكـون معـك في سـائر أحوالـك ثم اتفقت كلمتهم على الإقامة في مواضعهم والـدفاع عن حـوزتهم . وكتب الأمـير إلى علماء مصر يستفتيهم في ذلك ونصه . الحمد لله حمداً يوافي نعمـه

ويكافئُ مزيده اللهم صلي على سيدنا محمد وعلى آلـه وارض اللهم عن الصحابة أجمعين وعن الأئمة الراشـدين من خـديم المجاهـدين والعلمـاء الصالحين عبد القادر بن محيي الدين إلى سادتنا العلماء الأبرار الأفاضل الأخيار رضى الله عنكم وأرضاكم وجعل الجنة منزلكم ومثـواكم جـوابكم عما فعله بنا سلطان المغرب من المنكرات الشرعية الـتي لا تتوقـع من مطلق الناس فضـلاً عن أعيـانهم فـأمعنوا نظـركم فيهـا شـافياً وأجيبونـا جواباً كافياً خالياً عن الخلاف ليخلـوا قلب سـامعه عن الاعتسـاف وذلـك إنـه لمـا اسـتولى عـدو اللـه الفرنسـيس على لجزائـر وخلت الايالـة عن الأمير وانقطعت السبل وعطلت الأسباب وطالت شـوكة الكـافر اجتمـع ذوو الـرأي وتفاوضـوا على أن يقـدموا رجلاً من سـاداتهم يـؤمن السـبل ويكـف المظـالم ويجمـع المسـلمين للجهـاد لئلا يبقى الكـافر في راحـة فتمتد يده فاختاروا رجلاً منهم وقدموه لـذلك فتقـدم وعمـل جهـده فيمـا قدموه له فتأمنت السبل بحمد الله وتيسرت الأسباب بعونـه وجاهـد في سبيله وذلك من لدن سنة السـتة والأربعين إلى سـنة ثلاث وسـتين هـذه ولن نزال كذلك إن شاء الله فإذا بسلطان المغرب فعل بنا الأفعال التي تقوي حزب الكافر على الإسلام وتضـعفنا وتضـر بنـا الضـرر الكثـير ولم يلتفت إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلم أخـو المسـلم لا يسلمه ولا يظلمه ولا إلى قوله عليـه الصـلاة والسـلام المـؤمن لأخيـه كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضاً ولا إلى قوله عليه الصلاة والسلام المؤمنـون تتكافـاء دمـاؤُهم ويسـعى بـذمتهم أدنـاهم وهم يـد على من سواهم إلى غير ذلك من الأحاديث الشريفة فأول مـا فعـل إننـا لمـا كنـا حاصرنا الكافر في جميع ثغوره نحواً من ثلاث سنين وقطعنا عليه السبل ومـادة الـبر من الحب والحيـوان وغيرهمـا تضـييقاً عليـه وتضـعيفاً لـه خصوصاً من جهة الحيـوان لأن قـانون عسـكره إنهم إذا لم يـأكلوا اللحم يومين أو ثلاثة يفـرون عن طـاغيتهم ولا يقـاتلون ولا يلامـون حـتى بلغت

قيمة الثور عندهم مائة ريال دورو فإذا بالسـلطان المـذكور أمـدهم وهم في الضيق الشديد بألوف من البقر وغيرها الثاني إنه غصـب من عاملنـا ألفاً وخمسمائة بندقيـة إنكليزيـة الثـالث إنـه غصـب من وكيلنـا أربعمائـة كسـوة جـوخ أعـددناها للمجاهـدين الرابـع إن بعض المحـبين في اللـه ورسوله من رعيته قطع قطعة من ماله الخاص به ليعين بـه المجاهـدين فإذا بالسلطان المذكور زجره ونزعها منه وقال أنا أحق بهـا والحـال إنـه لم يجاهـد الخـامس إن بعض القبائـل من رعيتـه عزمـوا على إعانتنـا بأنفسـهم في سـبيل اللـه فمنعهم من ذلـك وأعاننـا الآخـر من رعيتـه بسيوف في سبيل الله فحبسه إلى الآن زجراً له وردعاً لغـيره السـادس إنـه لمـا وقعت لهـذا السـلطان مقاتلـة مـع الفرنسـيس أيامـاً قلائـل ثم تصالحا واشترط عليه الفرنسيس أن لا يتم الصلح بينهما إلا إذا حـل أمـر هذه العصابة المحمدية المجاهدين ويقبض رئيسهم فأما أن يحبسه طول عمره أما أن يقتله وأما أن يمكنه من يد الفرنسيس أو يجليه من الأرض فأجابه لسلطان إلى ذلك كله ثم أمرني بترك الجهاد فأبيت لأنه ليس لـه عليَّ ولاية ولا أنـا من رعيتـه ثم قطـع عن المجاهـدين الكيـل حـتى هـام جوعاً من لم يجد صبراً وأسقط من المجاهدين ركنـاً ثم أخـذ يسـعى في قبضي فحفظني الله منه ولو ظفر بي لقتلني أو لفعـل بي مـا اشـترطه عليـه الفرنسـيس ثم أمـر بعض القبائـل من رعيتـه أن يقتلونـا ويأخـذوا أموالنا وكأنـه اسـتحل ذلـك فـأبوا جـزاهم اللـه خـيراً فـإذا تصـورتم أيهـا السادات هذه الأفعال التي تنفطر منها الأكباد وتتأثر عند سـماعها العبـاد فهل يحرم عليه ذلك ويضمن ما غصب ويقتل بنا أن قتلنا حسب مـا نص عليـه المعيـار في أول بـاب الجهـاد وزبدتـه أنـه إذا نـزل الكـافر بسـاحة المسلمين وقال لهمم إن لم تعطوني فلانـاً أو مالـه أو يقتـل استأصـلكم فأنه لا يسعهم ذلك ولا يعطوه شيئاً مما طلب ولو خافوا إستيصـاله فـأن أعطى ماله ضمنه الآمر به ونقل ذلـك عن نصـوص المالكيـة والشـافعية

وكما نص على ذلك أيضاً الشيخ ميارة في شـرح لاميـة الزقـاق في آخـر باب الإمامة الكبرى ونصه قال ابن رشد إذا أمر الإمام بعض أعوانه بقتل رجلاً ظلماً ففعل فلا خلاف إنهما يقتلان معاً نقله المراق عند قول خليـل في باب الجنايات كمكره ومكره فإن فعل المأمور ذلك خوفاً على نفسه فإنه لا يعذر بذلك قال ابن رشد أيضاً الإكراه على الأفعال إن كان يتعلـق به حق لمخلوق كالقتل والغصب فلا خلاف إن الإكراه غير نافع نقله أيضاً عنـد قولـه في الطلاق لا قتلـه مسـلم وقطعـه ونقلـه الحطـاب في هـذا المحل الثاني ونصه في آخر معين الحكام ومن هدد بقتـل أو غـيره على أن يقتل رجلاً أو يقطع يده أو يأخذ ماله أو يزني بامرأة أو يبيع متاع رجل فلا يسعه ذلك وأن علم إنه إن عصى وقع به ذلك فإن فعل فعليـه القـود ويغرم ما أتلف ويحد إن زنى ويضرب إن ضرب ويأثم اه - وهل المهادنـة التي أوقعها فاسدة ومنقوضة لأن الجهاد تعين عليه قبل أن يفاجأه العدو بسبب قربنـا منـه وعجزنـا عن الجهـاد ولأن منفعتهـا عائـدة على الكفـار ووبالها على الإسلام كما هو مشـاهد حسـبما نص على ذلـك في المعيـار أيضـاً في بـاب الجهـاد في الجـواب عن سـؤال التلمسـاني وحاصـله إن الخليفة أوقع الصلح مع النصارى والمسلمون لا يـرون إلا الجهـاد فأجابـه بما حاصله أن مهادنته منقوضة وفعلـه مـردود ونقـل على ذلـك نصوصـاً وهل يحمل بيع البقر لهم في وقت حصرهم المسـلمين على حرمـة بيـع الخيـل لهم والشـعير وآلـة الحـرب أم لا وعلى أنـه لم تسـعه مخالفـة الفرنسيس فيما شرطه عليه من قتلنا وتفريـق جماعتنـا ومـا ينشـأ عنـه من ترك الجهاد بالكلية واقتحم الأمر وشق العصا وجاءنا بالجيش ليقاتلنا ويأخذ أموالنا ويفرق جمعنا فهل يجـوز لنـا أن نقاتلـه بمقتضـى مـا نقلـه الشيخ ميـار . أيضـاً في شـرحه المـذكور في البـاب ونصـه أنظـر إذا خلا الوقت من الأمـير واجمـع النـاس رأيهم على بعض كـبراء الـوقت ليمهـد سبلهم ويرد قويهم عن ضعيفهم .

فقام بذلك قدر جهده وطاقته . والظـاهر إن القيـام عليـه لا يجـوز . والمعترض له يريد شق عصا الإسلام وتفريق جماعته وفي صحيح مسلم رضي الله عنه عن زيادة بن علاقـة قـال سـمعت عرفجـة قـال سـمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنها سـتكون هنـات وهنـات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهو جميـع فـاقتلوه كائنـاً من كـان وبسـنده قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . من أتاكم وأمـركم جميع على رجل واحد يريد تفريـق جمـاعتكم فـاقتلوه اه أم لا يجـوز لنـا ذلك ونترك الجهاد ليس إلا جـوابكم تـؤجرون وتحمـدون وعليكم السـلام في البدأ والختام والحمد لله رب العالمين .فأجابه العلامة الحجة الشــيخ محمد عليش مفـتي المالكيـة بالـديار المصـرية بقولـه . الحمـد للـه رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله المهتدين . نعم يحرم على السلطان المذكور أصلح الله أحواله جميع ذلك الذي ذكرتم حرمتـه معلومة من الدين بالضرورة لا يشـك فيهـا من في قلبـه مثقـال ذرة من الإيمان . وما كان يخطر ببالنا أن يصدر من مولانا السلطان عبد الرحمن وفقه الله تعالى مثل هذه الأمور مع مثلكم فأنا لله وأنا إليه راجعون وما قدر الله سبحانه وتعـالى لابـد أن يكـون خصوصـاً وأنتم جسـر بينـه وبين عدوه وإن كنا على اطمئنان على إقليمه من استيلاء عدو الله عليــه بمــا في الأحاديث الصحيحة من بقـاء أهلـه على الحـق حـتى تقـوم القيامـة . منها ما وجد بخط الشيخ المقري ونصه من خط الفقيه المحـدث العـالم أبي القسم العبدوسي حفظه الله تعالى ما نصه وجـدت في ظهـر تقييـد الشيخ أبي الحسن الصغير على المدونة بخط من يقتدي به .

قال ذكر صاحب كتاب نقط العروس عن أبي مطرف .

قال حدثنا محمد بن الموز . عن ابن القاسـم . عن مالـك بن أنس . عن ابن شهاب . عن سعيد بن المسيب . عن أبي هريرة قال .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ستكون بالمغرب مدينة يقال لها فاس . أقوم أهل المغرب قبلة وأكثرهم صلاة . أهلها قائمون على الحق . لا يضرهم من حالفهم يدفع الله عنهم ما يكرهون إلى يوم القيامة . اه وكذا ضمانه لما غصب ضروري لا يشك فيه مسلم . وكذا استحقاقه القصاص منه بقتله مؤمناً عمداً عدواناً مباشرة أو بإكراه غيره عليه معلوم من الدين بالضرورة والنصوص التي ذكرتم صحيحة صريحة لا تقبل التأويل والمهادنة التي أوقعها فاسدة منقوضة . وما نسبتم للمعيار هو كذلك فيه وبيع البقر وسائر الحيوان والطعام والعروض وكل ما ينتفعون به في النازلة المذكورة حرام قطعاً إجماعاً ضرورة لا يشك فيه مسلم سواء في حال حصر المسلمين إياهم وفي حال عدمه إذ قتالهم فرض عين على كل من فيه قدرة عليه ولو من النساء والصبيان من أهل تلك البلاد ومن القرب منهم كأهل عمل السلطان المذكور وفقه الله تعالى فكيف يتخيل مسلم إن معاملتهم بما ينتفعون به ويتقوون به على البقاء في أرض الإسلام جائزة مع ذلك قال الحطاب وأما بيع الطعام يعني للحربيين فقال ابن يونس عن ابن حبيب يجوز في الهدنة وأما في غير الهدنة فلا قاله ابن الماجشون اه وظاهرة أن هذا فيما يذهبون به لبلادهم وأما يستعينون به على البقاء في أرض الإسلام وقتال أهله أولى بالمنع وأن اقتحم الأمر وشق العصا وأتاكم بجيشه وجب عليكم قتاله وجوباً عنياً إذ هو حينئذ كالعدو والبغاة المتغلبين الفاجئين القاصدين الأنفس والحريم لعدوانه وتجاريه على ما اجمع المسلمون على تحريمه وهو أنفسكم وحريمكم وأموالكم ومنعكم مما هو متعين عليكم بالإجماع من جهاد الكفار الفاجئين لكم والمقتول منكم في قتله كالمقتول في قتال الكفار ليس بينه وبين الجنة إلا طلوع الروح فصمموا على قتاله وأعدوا له ما استطعتم من قوة نصركم الله تعالى عليه وعلى أعداء الدين وبارك فيكم وفي كل من أعانكم من المسلمين

وخذل كل من عاداكم وخذلكم كائناً من كان وجعل كيده في نحره ونص ما في المعيار وسئل بعض فقهاء تلمسان جوابكم سيدي عمـا عمت بـه البلوى في بلادنا وعظم من أجله الخطب واتسعت فيـه المقـالات وذلـك أن الخليفة أصلح الله حاله صالح هؤلاء النصـارى الـذين أخـذوا سـواحلنا إلى أجـل معلـوم والمسـلمون يـرون أن جهـادهم من أعظم القربـات فصاروا يغـيرون على أطـراف بلادهم فيقتلـون ويضـيقون بهم هـل ذلـك طاعة أو معصية والفرض إن الخليفة لا يوافـق على ذلـك ويعـاقب عليـه أجيبونا أرشدتم ووفقتم .فأجـاب الحمـد للـه الـذي أيـد الـدين المحمـدي بالجهـاد . ووعـد السـاعي فيـه بالوصـول إلى أسـنى المـراد . والشـهيد بالحياة المحفوفة بالرزق والحسن في برزخ المـوت والإمـداد . فمـا من ميت إلا يتمنى العود إلى إلا الشهيد . لما يـرى من فضـل الشـهادة . من ذي العرش المجيد . فيطلبها لـيزداد لـه من الكرامـة مـا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بعد المعاد فأعظم به من وصـف لا تحصـى فضـائله إذ قـدمت على نوافـل الخـير العلي نوافلـه عنـد أهـل الاجتهاد وصلى الله على سـيدنا محمـد النـبي المبعـوث لجميـع الخلائـق المنعوت بجميل الخلائـق القـامع بلسـانه وسـيفه وبرهانـه أهـل الباطـل والعناد وعلى آلـه وأصـحابه الـذين وآزروه على إظهـار الخـزي عنـه من الأضداد فجلبوا ببركته لأمته المصالح وبذلوا لهم النصـائح ودفعـوا العنـاد صـلاة وسـلاما ننـال ببركتهمـا من الخـيرات والبركـات مـا يخـرج عن المعتاد .أما بعد أيها الأخ الكـريم محتـده الجميـل معتقـده . فـإن جـواب سؤالك يتوقف على تقرير مقدمة بتقريرها يتبين ما يتضح بـه المسـؤول عنه فنقول الصلح الواقع بين إمام المسلمين وأعداء الدين على ضـربين الضرب الأول حيث يكون الجهاد فرض كفاية والثاني حيث يكـون فـرض عين أما الأول فحيث يكون المسلمون طالبين على الكـافريين الحربـيين فالصلح لمصلحة يراها الإمام بحسب اجتهاده جائز عند المـالكيين ونقـل

ابن عبد البر عن سحنون أنه قال لا يبعد في المدة ونقل ابن شـاس عن أبي عمران أنه استحب أن لا تكون المـدة أكـثر من أربعـة أشـهر إلا مـع العجز وأمـا الضـرب الثـاني فمهمـا تعين الجهـاد في موضـع لم يجـز بـه الصلح كما لو كان العدو طالباً على المسلمين وقد يفاجأ موضـعهم وهـو ضعف عدد المسلمين فأقل لا شدة وعدة على المشهور عنـد المحققين فيتعين على من نـزل بهم ومن قـاربهم دفعهم في الحين ونقـل اللخمي عن الداوودي فرضية الجهاد على من بلى العدو ويسقط عمن بعـد عنـه وقرره المازري بأنه بيان لتعلـق فـرض الكفايـة لمن حضـر محـل تعلقـه قادراً عليه دون من بعد عنه لعسره فإن عصى الحاضـر تعلـق بمن يليـه وحاصل كلام المازري إن فرض الكفاية الذي هو حكم الجهاد قـد يعـرض لـه مـا يوجبـه على الأعيـان في بعض الأحيـان وفي تلقين القاضـي عبـد الوهاب قد يتعين في بعض الأوقات على من يفاجئهم العدو وفي نــوازل ابن أبي زيد عن سحنون إن نزل أمر يحتاج فيـه إلى الجميـع كـان عليهم فرضاً ولو سبى المشركون النسـاء والذريـة والأمـوال وجب اسـتنقاذهم على من قـوى عليـه مـا لم يخـافوا على أنفسـهم أو على أهليهم برؤيـة سفن أو خبر عنها فكل ما نقل في تعيين فرض الجهـاد مـانع من الصـلح لاستلزامه لإبطال فرض العين الذي هو الجهاد المطلـوب فيـه الاسـتنقاذ وفي العتبية سئل مالك أواجب على المسلمين فتداءُ من أسر منهم قال نعم أليس واجباً عليهم أن يقاتلوا حتى يستنقذوهم قال بلى قـال فكيـف لا يفـدونهم بـأموالهم وفي مثـل هـذا أعـني حيث يتعين الجهـاد حكى القاضي ابنُ رشد الاتفاق على إنه أقوى من الذهاب إلى حجـة الفريضـة لأن الجهاد إن تعين كان على الفور والحج قد قيل فيه إنه على الـتراخي ولما تقـررت هـذه المقدمـة بمـا فيهـا من النصـوص للأئمـة تعين بهـا إن الجهاد فرض عين في مسئلة لسؤال فيمتنع فيه الصلح على كل حـال لا سيما إن طالت مدته فقد عادت على العـدو أهلكـه اللـه مصـلحته وعلى

المسلمين مفسدته وإن تخيلت فيه مصلحة فهي للعدو أعظم من وجـوه مكملة فإنه يتحصن في تلك المدة ويكثر من آلات الحرب والعدة فيتعذر على المسلمين الاستنقاذ ويصعب عليهم تحصيل المـواد بعـد تيسـره لـو ساعد التوفيق ولكن المولى جل جلاله المسـئول في هدايتـه إلى سـواء الطريق فما وقع من الصلح هو مفسـدة على الإسـلام فلا يكـون لـه في نفس الأمر إبرام فالصلح المذكور يجب نقضه لأنه بمقتضى الشـرع غـير مـبرم فحكمـه غـير لازم عنـد كـل من حقـق أصـول الشـريعة قـال في التلقين ولا يجوز ترك الجهاد لهدنة إلا من عذر لا يقال الصـلح المسـئول عنـه داخـل في المسـتثنى من كلام القاضـي عبـد الوهـاب والصـلح من المسلمين لا يكون في الغـالب إلا من عـذر على إنـه حكم اجتهـادي من إمام فلا سبيل لنقضه لأنا نقول وقع ذلك عقب الداهية الدهيا وهي انتهاز العدو دمره الله الفرصة في بلاد المغرب مع توفر الإسلام والعدد والعدو ليس له فيها مدد والمسلمون لا يقصرون عن ضعف العدو فضـلا عن أن يكون عدوهم ضعفهم فأما أن يكون الصـلح لخـوف استئصـال الكـافرين بقيـة المسـلمين وأمـا للخـوف من المحـاربين والأول باطـل لمخالفتـه الفرض والثاني كذلك أيضاً لأن الخوف من المحارب بالفرض لا يتأتى مع إمكان انقسام العدو واتصال المسلمين بحصول المدد فـالواجب القتـال وإن كان العدو ذا جلد ومعه كثرة العدد فلا يـدخل الصـلح في المسـتثنى من كلام القاضي عبد الوهـاب وحكم الجهـاد ينقض إذا تـبين فيـه الخطـأ كما نقل عن سحنون وطول المدة في الصلح المذكور خطأ فيه فينتقض الصلح وذلك أيضـاً لأن الصـلح المـذكور فيـه تـرك الجهـاد المعين وتـرك الجهـاد المعين ممتنـع فالصـلح المـذكور ممتنـع وكـل ممتنـع غـير لازم والجهاد في الموضوع المذكور لم يزل متعينـاً من زمن الـوخزة إلى الآن وعن ابن القاسم أن طمع قـوم في فرصـة في عـدو قـربهم وخشـوا أن أعلموا الإمام يمنعهم فواسع خروجهم وأحب إليّ أن يسـتأذنوه قـال ابن

حـبيب سـمعت أهـل العلم يقولـون إن نهى الإمـام عن القتـال لمصـلحة حرمت مخالفته إلا أن يرحمهم العدو وقال ابن رشد طاعة الإمام لازمــة وإن كان غير عدل ما لم يأمر بمعصـية ومن المعصـية النهي عن الجهـاد المتعين على ما تقدم والله سبحانه وتعالى أعلم . ومـمـا ينبغي مـا يـذيل به ما وقـع من جـواب السـؤال بيـان حقيقـة الصـلح لغـة وشـرعاً وبيـان الممتنع منه والجائز بمال أو بغير مال وهـو المعـبر عنـه في كتب الفقـه بالمهادنة قال الجوهري هادنه صـالحه والاسـم الهدنـة وأمـا حقيقتـه في العرف الفقهي فهو عبـارة عن توافـق إمـام المسـلمين والحربـيين على ترك القتال بينهم مدة لا يكونون فيهـا تحت حكم الإسـلام فقولنـا الإمـام يخرج من سواه من المسـلمين فـإذا حصـل منـه فلا يتم ولـو كـان أمـير السرية وبقية الرسم يخرج للأمان والاستئمان وذكـر المـدة غـير مقيـدة فيه إشارة إلى أنها موكولة إلى اجتهاد الإمام ما لم تطل ويفهم ذلك من تنكيرها فأنها للنوعية وأما حكمه فلجوار أن اقتضـته مصـلحة للمسـلمين والمنع أن تضمن مفسـدة عليهم قـال ابن حـبيب عن ابن المجشـون إن رجى الإمام فتح الحصون لم ينبغ له صلح أهله عن مـال وأن على أيـاس منه فلا بأس بصلحهم على غـير شـيءٍ كصـلح الحديبيـة وأن لم يتضـمن مصلحة ولا مفسدة فهو مكروه لما فيه من توهيم الجهاد فأن نزل مضى ما لم تتبين فيه مفسدة بعد عقده فينتقض قال الشـيخ ابن أبي زيـد عن سحنون ولو هادنهم الإمام على مال ثم بان له أنهم غروا بالمسـلمين لم ينبذه حتى يرد ما أخـذ منهم وكـذلك أن بـان ذلـك لمنن بعـده ولا يحبس من المال بقـدر مـا مضـى من الأجـل قـال سـحنون وليس الإمـام نقض الصلح لغير بيان خطأه فيـه ولـو ردَّ مـا أخـذ إلا برضـا من عاقـده ونقـل الشيخ ابن أبي زيد عن ابن الموَّاز إنه قال كره علماؤُنا المهادنة على أن يعطينا أهل الحرب مالاً كل عام قال محمد وإنما هادن النبي صـلى اللـه ليه وسلم أهل مكة لقلة المسلمين حينئذ هذا ما يتعلق بالصلح على مال

يأخذه الإمام أو بغير مال وأما لو وقع بمال يعطيه المسلمون لهم فقــال المازري لا يهادن العدو بإعطائه مالاً لأنه عكس مصلحة أخذ الجزية منــه إلا لضرورة التخلص منه لخوف استيلائه على المسلمين وقد شاور النبي صلى الله عليه وسلم لما أحاطت القبائل بالمدينة سعد بن معـاذ وسـعد بن عبادة في أن يبذل المسلمون ثلث الثمار لما خاف أن يكون الأنصــار ملت القتال فقالا أن كان هذا من الله سمعنا وأطعنا وأن كـان رأيـاً فمـا أكلوا منها في الجاهليـة تمـرة إلا بشـراء فكيـف وقـد أعزنـا اللـه تعـالى بالإسلام فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم عزمهم على القتـال تـرك ذلك فيؤخذ من هذه القضية جواز إعطـاء المـال على الوجـه الموصـوف للضرورة إذ لو لم يخير لم يشـاور فيـه الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام لكنه قد شاور فيه فهو جائز وبيـان الملازمـة هـو أن المشـاورة في دفـع المــال ملزومــة لهم بدفعــة على تقــدير الموافقــة على إعطائــه ولا يهم الرسول صلى الله عليه وسلم بممتنع وأما بيان المقدمة الاستثنائية فيما ذكره أهل السير والله جل جلاله الموفق بفضله لا رب سواه . ذكر

نكبة أبي معزة ووقوعه في قبضة الفرنسيس أسيرا

تقدم إنه ظهـر في نـواحي شـلف وادعى بأنـه المهـدي المنتظـر ثم انكشف عواره وتلاشى أمـره ولحـق بـالأمير وانخـرط في سـلك قـواده وأقـام معـه في الـدائرة مـدة وفي سـنة ثلاث وسـتين ومـائتين وسـبع وأربعين وثمانمائــة انفصــل عنــه في لمــة من أصــحابه ولحــق بقبائــل الصحراء ثم أظهر دعوته في قبيلة فليتـة فقـام بهـا رئيسـهم ابن جلـول واستفحل أمره في تلك الجهة وبلـغ حـاكم الجزائـر خـبره فجهـز لقتالـه الجيوش تحت نظر الجنرال مونج والجنرال هربيلون وجـرت بينـه وبينهم في نواحي مينة حروب انكسر فيها أبـو معـزة ولحـق بـأولاد نائـل فشـن مونج الغـارة عليهم واكتسـح أمـوالهم واسـتلحم منهم جموعـاً كثـيرة ثم انضم هربيليون إلى مونج وساقوا جيوشهم إلى أبي معــزة فـأدركوه في

نواحي تاهرت وشتتوا شمله ولما ضاقت به الأرض وأحس بالعجز من نفسه استأمن القومندار سنت ارنو فلم يجبه وأخذه أسيراً إلى الجزائر ثم شخصه المارشال بيجو إلى باريز فأقام بها مدة وفرّ هارباً إلى مرسى برست فألقى عليه القبض وسجن في قلعة هام وفي أيام الإمبراطور لويس نابليون الثالث أطلق سبيله ولم يزل يتجول في بلاد فرنسا إلى أن جرت الحرب بين الدولة العلية والروسيا المشهورة بحرب القريم سافر إلى الأستانة ودخل في سلك الجيوش العثمانية المتطوعة وبعد انعقاد الصلح خرج من الأستانة ولحق بالعراق وأقام ببغداد مدة ثم انتقل إلى باطوم وفي سنة خمس وتسعين ومائتين جاء إلى دمشق وأقام عند الأمير شهوراً ثم توجه إلى بيروت ومنها إلى طرابلس الغرب ودخل أفريقية ودعا الناس إلى الجهاد ثم رجع إلى باطوم من غير طائل . ذكر تسليم الخليفة السيد أحمد بن سالم إلى الفرنسيس

لما طال الأمر على الخليفة السيد أحمد بن سالم وعجز عن مدافعة العدو ويئس من الانتصار عليه استأمن إلى الحاكم الفرنساوي في صور الغزلان وطلب منه تخلية سبيله إلى الشرق فأمنه ووعده بإجابة دولته إلى ما طلبه منه وفي الثاني عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وستين ومائتين والتاسع والعشرين من شهر فبراير سنة سبع وأربعين حضر في لمة من ذويه إلى صور الغزلان معلناً بطاعته وتسليمه فتلقاه الحاكم بما يليق بمقامه من الإكرام لما عهد عنه واشتهر به من شدة البأس وقوة الجأش وحسن السياسة وطار الخبر إلى الجزائر فاستعظم أهلها هذا الأمر أكثر من أمر أبي معزة ثم هاجر إلى دمشق الشام وتوفي بها سنة ثلاث وسبعين ومائتين وبتسليم هذا الخليفة ضعف أمر المسلمين في الجهة الشرقية وتلاشى عزمهم واشرأبت نفوس رؤساء القبائل إلى الدخول في طاعة الفرنسيس وتقدمهم في ذلك قاسم بن

قاسي الرواوي واقتدى به جم غفير من الرؤساء وانتهز المارشـال بيجـو الفرصة فخرج في الجيوش إلى الجبـال البربريـة وأوقـع بأملهـا ثم سـار في الجهـات الجنوبيـة ووصـل إلى صـطيف والزبيـان وبسـكرة ونـواحي الجفنة وأولاد نائل وجبل العمور ووقعت في تلك النواحي حروب جسيمة كـانت النصـرة فيهـا لجيوشـه وتمهـدت لـه الطاعـة في سـائر الأعمـال الشـرقية ثم كتب إلى القبائـل الغربيـة مـا ملخصـه من المارشـال بيجـو وإلى مملكة الجزائر وسائر أعمالها إلى كافة بـني يزناسـن وأهـل أنكـاد والأحلاف والمهايـة والمطالسـة وبـني بويحـيى والقلعيـة وكافـة أعـراش نواحي الغربية بين الجزائر والأيالة الغربية اعلموا أني أتكلم معكم بكلام يدل على الخير والمحبة البالغة ولولا المحبـة لم أذكـره وكنت أفعـل مـا رمته فأنصتوا لمقالتنا وتأملوهـا لأنهـا نصـيحة وإرشـاد وهي أن لكم مـدة أربع سنين وأنتم جادون في فعل الشر معنا ونحن نسـامحكم حـتى كـثر العيب ووقع منكم ما وقع كما هو محقق لديكم وبعد الوقائع كلهـا ألهمنـا الله للسـداد والرشـاد وكـان أول الشـروط الـتي وقعت بيننـا أن لا يبقى الأمير عبد القادر بين إيالتكم وأيالتنا وأن لا تقبلوه في أرضكم فلما ضاق عليه المجال في أرضنا فرَّ منـا وجـر ذيلـه ببلادكم فقبلتمـوه وأكرمتمـوه وبجلتموه وكان فعلكم هذا سبب الفسـاد الـذي وقـع بيننـا وبين المعظم الأرفـع محبنـا وصـديق دولتنـا صـاحب السياسـة والرياسـة مـولاي عبـد الرحمن بن هشـام أعـزه اللـه فـانتبهوا من غفلتكم وفرقـوا بين ضـركم ونفعكم واعلموا بأن الأمير عبد القادر كالحية الرقطـاء لمسـها لين وهي قاتلة سماً وقد ذكر بعض الأوائل أن رجلاً وجـد لفعـة في سـياق المـوت من ألم الـبر فأشـفق لحالهـا وأدخلهـا بين ثوبـه ولحمـه فلمـا أفـاقت وتحركت لسعته فمات وصار هذا مثلاً يضرب لمثلكم ونحن جعلنا الحدود وسـويناها ووضـعناها بيننـا وبينكم وبيناهـا ولم تتم أربعـة أشـهر حـتى أفسدتم الأمر وصار الأمير عبد القادر يسير بخيولكم ورجـالكم إعانـة لـه

واعراش بلادنا فرت إليكم وتحزموا معه وقد وصل لنواحينا وغزا ولم يحصل على مراده ولما وقع ذلك عزمنا على الدخول لايالتكم بجيوشنا ولم يبقَ إلا التحرك فإذا بصديقنا المعظم الأرفع مولاي عبد الرحمن كتب لسعادة سلطاننا رأي فرنسا وبعث له البشدور يقول له تربص ولا تعجل حتى ننظر أمر هؤلاء الرعية ونكفهم عن فسدهم وربما ينصتون بعد النهي وقد مضى ستة أشهر ونحن نراقب ما يصدر من الخير لكم ولنا فإذ به نسمع جعجعة ولا نرى طحناً والآن أنا طردنا الأمير عبد القادر وأفسدنا أمره ودخل أرض الفلات وقرب منكم وصار ألبوحميدي يمده بخيل ورجال منكم وممن غيركم وهو يحكم بوسطكم ويصول عليكم مع إمساكه الزكاة والعشور والمطالب المخزية ولم تكفوه عن ذلك أو تتجنبوا عنه أو تتبرؤا منه ومن حلمنا وعدم عجلتنا بقى عسكرنا كأنه في السجن منتظر لأمرنا وهذا هو العجب وقد امتلأ القلب وفاض المكيال وكل شيء له نهاية وكمال وإن هذا والله لم يقع بين الأجناس أصلاً في الماضي والمستقبل وصبرنا لم يكن عند ملك أبداً لأنا مراقبون أمر هذا الثغر وقد أردنا ابتسامه واطلعنا على جميع أحواله وفهمنا مراد أناسه ونظن أحد أمرين أولهما أن السلطان مولاي عبد الرحمن أمركم بالكف عن الفساد وخالفتم أمره فليس لنا كلام مع السلطان المذكور لكن ندخل بلادكم بالجند الموفور وأما أن يكون أمركم بهذا خفية منا فهو العدو حيث قبل عدونا وحاشاه من ذلك ولا سيما أن الملوك إذا عاهدوا أنجزوا وأعملوا إن هذا ليس خوفاً منكم إنما هو الواقع وفعلكم هذا يوافق الشريعة وربما لم يوافق جميع الأديان لخروجكم عن طاعة أميركم وهو دليل شركم بلا فائدة فابشروا بخرابكم نطلب من الله تعالى أن ينبهكم عن غفلتكم ويعرفكم بطاعة أميركم وتطردوا الأمير عبد القادر وأتباعه وننسى كل ما فات ويتبدل الغضب بالرضى والجوار أوصى عليه الرسول وفي هذا كفاية والسلام في الرابع من جمادى

الأولى سـنة ثلاث وسـتين ومـائتين . فمن نظـر كتـاب المارشـال بيجـو المرسل لهـذه القبائـل وتأملـه ثم قابلـه مـع لكتـاب المرسـل إليهم من السلطان عبد الرحمن الأتي ذكره وتأمل تأمل المنصـف فعـل كـل ممن دولتي فرانسه ومراكش وما أجرته ضد حركات الأمير علم بداهة ما كان بينهمـا ممن المخادنـة والمواطئـة سـراً وعلنـاً على إبطـال حـق الحـق وإطفاء نور الصدق وعند الله تجتمع الخصوم . ثم رجع بيجو إلى الجزائر وأمر حاكم وهران بالخروج في العسكر إلى الصحراء الغربية فجـال في جهاتها وأوقع بقبائـل حميـان وأولاد السـيد الشـيخ بن الـدين في التخـوم لجهة الجنوب وصارت السلطة الفرنساوية متمكنة في النـواحي الغربيـة والشرقية من حدود مراكش إلى تخوم تونس . ذكر

استعفاء المارشال بيجو من ولاية الجزائر وسفره إلى فرنسا

قد تقدم أنه كان جنرالاً وقائداً للعساكر الفرنساوية في وهران وهـو الذي أبرم معاهدة تافنا مع الأمير ولم يحسن الإدارة بتلك المرة بيـد أنـه تـدرب مـذ درس في مدرسـة الأمـير الحربيـة أحسـن الإدارة في المـرة الثانية وأظهر من الإقدام والشجاعة وتحمـل من الخطـوب ممـا لم بكن في حساب وكان في سن الشيخوخة فسـماه الأمـير الأسـد الهـرم قـال بعض مؤرخيهم ولذلك منحته دولته قوة لم تمنحهـا لأسـلافه لاسـيما أنهـا اعتبرت عبد القادر بعد لحوادث الأخيرة رجلاً عظيماً في كل أمر فأمرت بتلاحـق إرسـال النجـدات العسـكرية والـذخائر الحربيـة ولمـا تم الأمـر المقصود للمارشال بيجو في بلاد الجزائر وتمهـدت فيهـا الطاعـة لدولتـه قدم استعفائه طلباً لراحة نفسه مما لحقه من أتعـاب الحـروب ومعانـاة الخطوب مدة تزيد على ست سنين متواليـة لم يسـكن فيهـا روعـه ولم يهدأ في سائر أوقاتها فكره فأجابته إلى مطلوبـه فـترك لجزائـر وسـافر في الحـادي والعشـرين من جمـادى الثـاني سـنة ثلاث وسـتين ومـائتين والرابع من مائة سنة سـبع وأربعين وثمانمائـة وأقـام الجـنرال بـار وكيلا

فيهـا ثم أتصـل بـالجنرال بيـدو وفي الخـامس والعشـرين من شـوال والخامس تشرين أول جاءها الدوك دومال بن الملك حاكماً عاماً فضـبط أمورها وأقر الجنرال لامور سـير على ولايتـه في وهـران وعين الجـنرال كافيناك على الجزائر ثم خرج يتفقد الحاميـات والمسـالح وخلا لـه الجـوُّ فلم يتعرض له أحد ولله الأمر من قبل ومن بعد .^ ذكر

وقعة تافرسيت من بلاد الريف الغربي

قد تقدم أن عبد الرحمن سـلطان المغـرب الأقصـى تعـرض للأمـير بإقامته في تخوم مملكته وطلب منـه الخـروج منهـا فتغافـل الأمـير ولم يلتفت إليـه فاغتـاظ لـذلك وأرسـل إلى الشـيخ بزيـان يـأمره باسـتعمال الوسائل الفعالة في إخراج الأمير ودائرتـه من أيالـة مـراكش وكتب إلى مشايخ بني يزناسن وأهل أنكاد أن يكونـوا معـه يـداً واحـدة في إخراجـه منها وصورة ما كتبه إليهم . الحمد لله وحده

خدامنا بني يزناسن وأهل أنكاد وفقكم الله وأرشدكم وسـلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فقد بلغنا إن الأمير عبد القـادر نهض في قومه ومن انضاف إليه منن إخوانكم الذي اسـتنفرهم وخـدعهم بتمويهـه وإبطاله حتى نـزل بجـامع الغـزوات على من بهـا من النصـارى وعسـهم وأوقع فيهم وقتـل جلهم ولم ينج منهم إلا من فـر بنفسـه ومـا مـراده إلا إثارة الفساد وجلب الشر والفتنـة للمسـلمين كمـا جلبهـا لأيالـة الجزائـر وغيرها حـتى أوقعهم في الكفـر والعيـاذ باللـه وانقـادوا بسـببه لاسـتيلاء الكفار وأسلموا أنفسهم لأحكامهم وعاد عليهم شؤم فعله بالدين الذي لا يرضاه مسلم ولا حول وقوة إلا بالله العلي العظيم وقد خـدعكم بإظهـار الدين وأحوال الصـالحين ومـا في ضـميره إلا الفسـاد وإيقـاد الفتنـة بين العبـاد ومن يتبعـه على ذلـك إلا هـو من الأخسـرين أعمـالاً الـذين ضـل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ونحن لا نكره

الجهاد بشروطه ونكره ما يعود بالضرر والغلبة لجانب الإسلام ولكن هـذا المشؤُم أراد نقض ما أسسـناه من الصـلح الشـرعي وإيقـاد الفتنـة بعـد إطفائهـا سـعياً في هضـم جـانب عـزكم إفسـاد دينكم ودنيـاكم وتكـدير خاطرنا عليكم وأنتم لا تشعرون فها نحن أمرنا خالنا الأمجد الشيخ بزيان بالقيام على ساق الجد في إخراجه ودائرته من أيالتنا السعيدة طوعـاً أو كرهاً وحسم مادة فتنتهم وضلالهم فكونوا معه يداً واحدة وشـدوا عضـده في ذلك حتى يقضـي الغـرض إن شـاء اللـه تعـالى وكفـوا إخـوانكم عن متابعته ونهوضهم عن مقاطعته فإن من قاطعه ونبذ متابعتـه فقـد أحـاط نفسه ودينه ومن تبعه وشد عضده وكثر سواده فقد تعرض لسـخط اللـه ورسـوله وسـخطنا لا ينجح لـه زرع ولا ضـرع وقـد أعـذر من أنـذر اللهم أشهد وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبـون ومـا عقـدناه من الصـلح مع العدو الكافر أسسناه على قواعد الشرع العزيز وبنيناه واقتـدينا فيـه برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه صالح كفار قريش صلح الحديبيـة حين صدوه عن البيت الحـرام مـع تـدافع الصـحابة وقـوة عـزمهم وقهـر عـدوهم ولم يكن ذلـك غلبـة وإنمـا هـو تشـريع ولـو شـاء عليـه الصـلاة والسلام لأمر أن ينكب عليهم الاخشبين حتى قـال سـيدنا عمـر لرسـول الله أنعطي الدنية في ديننا ألسنا على الحق وهم على الباطل فقال بلى فقال أبو بكر الله ورسوله أعلم وقد صالحهم على أن من فر إليـه يـرده إليهم ففر إليه أبو هريرة ليلـة فـرده إليهم وفـاء بعهـده وإمضـاء لعقـده وكان هذا الصلح هـو الفتح بعينـه فنحن برسـول اللـه اقتـدينا وبشـريعته اهتدينا ونظرنا للمسلمين بما لم يضيقوا به رفقاً بهم ليتهنوا ويتمتعوا في سعة وعافية ونحن على سنة الجهاد وعقده عارفون مـا أعـد اللـه لأهلـه من أجر فكيف بأتي هذا البداع يعلم أحوال الجهاد وأحكامه ونحن أعـرف به منه وما ورد فيه وما أعد الله لأهله ولو رأينا الخير للمسلمين في غير الصلح ما ارتكبناه فلا يفيـدهم إلا ذلـك فاسـئلوا أهـل العلم ومـا ورد في

صحيح البخـاري ومسـلم في فضـل الجهـاد وأحكامـه والصـلح وأقسـامه ليعلم حـال عبـد القـادر وجهلـه بالسـنة وغيرهـا وإن من تبعـه فقـد بـاء بالضلال والردى وحاد عن شـريعة الهـدى في الثـالث من شـهر رمضـان سنة ثلاث وستين ومائتين وألف منن المـولى عبـد الـرحمن ابن المـولى هشـام . فضـاق الأمـير لـذلك ذرعـاً ولم يجـد بـداً عن أن يحمي حوزتـه وبدوخ النواحي التي هو مقيم فيها فأنـذر وأعـذر وأوعـد وحـذر ثم بطش بأهل الفساد ومهد ما قرب منـه من البلاد ومـد يـده إلى إقامـة الأحكـام الشـرعية فيهم وأخـذهم بالرهبـة وبـالغ في ذلـك حـتى لاذوا بالطاعـة وتذرعوا بالخضوع فزال بذلك عن المهاجرين مـا أهمهم وغمهم وأدركـوا من رخاء العيش وبعد الصيت مـا حـرك من سـلطان مـراكش السـواكر وأوقعه في الخـوف على ملكـه ثم بلغـه أن أهـل فـاس قاعـدة مملكتـه وغيرهم من أهـل القاصـية بعثـوا إلى الأمـير يدعونـه إلى الاسـتيلاء على بلادهم وأخذهم بنصرته فـازداد غضـباً وجهـز قائـده الشـهير بـالأحمر في عسكر كثيف لقتال الأمير وإخراجه من البلاد وكان في تلك المدة وصــل إلى حضـرة الأمـير مـولاي عبـد الـرحمن بن سـليمان سـلطان المغـرب الأقصى السابق ليكون في جملتـه فلمـا بلـغ الأمـير خـبر القائـد الأحمـر اسـتعد للـدفاع عن حمـاه وكـان وقتئـذ مخيمـا بينن أرض بـني تـوزين ومسالطة من قبائل الريف ولم يزل القائد الأحمر يطـوي المراحـل إلى أن خيم بتافرســيت على مســافة مرحلـــة من الـــدائرة ثم بعث بعض الرؤسـاء في شـرذمة من الجيش يستكشـف أحـوال الـدائرة ويسـتطلع أخبارها ولما تراءى الرئيس لها ركب بعض فرسانها إليه فلما رأى الخيل قد أقبلت عليه امتلأ قلبه رعبـاً ورجعـوا إلى معسـكرهم لا يلـوي أحـدهم على الأخـر وقبض على عـدة خيالـة منهم ثم إن الأمـير بعث إلى القائـد يدعوه إلى المسالمة ويعتذر إليه بالعجز عن الخروج بضعفاء المهـاجرين إلى الصحراء لبعد المسـافة ويظهـر لـه سـلامة صـدره ويؤكـد لـه إنـه لا

يخطر في باله ما بلغ السلطان عنه وإنه لا يريد إلا العافية وإقامة المهاجرين تحت أنظار السلطان فلم يجده ذلك نفعاً وأبى القائد إلا الخروج أو القتال فحينئذ أخذ الأمير حذره منه واستعد للمدافعة عن الأهل والأولاد ثم بداله في مراجعة القائد ثانية فبعث إليه يقسم بالله تعالى أنه ما أضمر للسلطان شراً قط ولا سعى في إفساد القلوب عليه ثم حذره من قتال المسلمين المهاجرين في أرض لا تنالها الأحكام منذ أحقاب فأبى إلا بإجراء ما جاء لأجله وأمر بتنفيذه فلما رأى الأمير أنه لا محيد له عن المدافعة والنصوص الشرعية موافقة له بادر إلى الأخذ بالاحتياط ثم اختار من فرسانه مائتي فارس وسار بهم غازياً على العدو وهو في تافرسيت فصبحه واستولى على معسكره بما فيه وهجم بعض رؤساء جيشه على القائد فقتله واحتز رأسه وجيء بحريمه وأولاده إلى الدائرة وبعد مدة عين الأمير لهمم حرساً وأرسله معهم فأوصلهم إلى فاس وقد قدر ما كان في المعسكر من المتاع والخيام والكراع والمهمات الحربية بألوف من الليرات وكان من جملة تلك الأمتعة ألبسة فاخرة جاء بها القائد ليفرقها في رؤساء القبائل إذا أعانوه على الأمير وقاموا بنصرته فسقط في يده وخاب أمله واهتز المغرب الأقصى لهذه الوقعة وخطأ الشعب سلطانه ونقموا عليه حيث بعث جيوشه لقتال المسلمين المهاجرين الذين التجأوا إلى بلاده طالبين حمايته لهم من عدوه وعدوهم . ذكر

واقعة بني عامر في نواحي فاس

لما ترك المهاجرون من بني عامر الدائرة ووقع بينهم وبين ابن التهامي خليفة الأمير عليها بدسائس الخليفة السيد محمد ألبوحميدي وارتحلوا إلى فاس مغاضبين فأكرم سلطان المغرب نزلهم وقطعهم أرضاً تشتمل على محرث عظيم وبسائط خصبة فاستوطنوها ولما رجع الأمير من الجهة الشرقية إلى الدائرة اشرأبت نفوسهم إلى الرجوع

وأقـاموا ينتظـرون سـنوح الفرصـة فلمـا تمكن الأمـير في أرض الريـف وثبتت قدمه فيها اعتزموا على الرحلة إلى سـيدهم وولي نعمتهم وكتبـوا إليه أن يراقبهم في بلاد مكناسة فأجابهم إلى ذلـك وأرتحـل بدائرتـه إلى كـرط قريبـاً من جبـل كلعيـة ثم سـار في نخبـة من فرسـانه إلى بلاد مكناسة وكان بنو عامر ارتحلوا مشـرقين ففطن بهم جـيرانهم من أهـل الوطن فطيروا لخـبر إلى سـلطانهم فسـير في أثـرهم جيشـاً كثيفـاً من الشراردة عليهم القائد إبراهيم بن أحمـد الأكحـل ولممـا نـزل بسـاحتهم أرسلوا إلى رئيسه يقولون نحن قوم خرجنا من دائرة أميرنا لأمر اقتضى ذلـك والآن أردنـا الرجـوع إلى إخواننـا وأهلينـا فلا سـبيل لكم إلى منعنـا شرعاً ولا قانونا فما كان جوابه إلا أنه أغار عليهم فدافعوه يوماً كـاملاً ثم كـاثرهم الجيش وحشـود أهـل الـوطن وأحـاطوا بهم إحاطـة السـوار بالساعد فاعتصموا بربوة وجعلـوا يقـاتلون عن حـريمهم وكـانوا رمـاة لا تسقط لهم رصاصة في الأرض فكلمـا تـوجهت إليهم طائفـة من الجيش استأصـلوها بالرصـاص وكـانوا يجمعـون موتـاهم فينصـبونهم أشـباراً يتترسون به ويقاتلون من خلفه ولما أعيي الجيش أمـرهم حملـوا عليهم حملـة واحـدة حـتى خـالطوهم في معتصـمهم وجالـدوهم بالسـيوف وطـاعنوهم بالرمـاح والتوافـل وأنقطـع البـارود فكـانوا يقتلـون بنـاتهم ونسائهم بأيديهم فراراً من السبي والعار ثم جعلوا يقتلون أنفسـهم حين تحققوا أنهم في قبضة الأسر ومن بقي منهم من النساء والأولاد أخـذهم المراكشيون وباعوهم في أسـواقهم بـأبخس ثمن وبـاؤا بهـا شـنعاء إلى آخر الـدهر لأنهم اسـتحلوا دمـاء قـوم مؤمـنين مؤمـنين بـاذلين أنفسـهم وأموالهم في سبيل الله لإعلاء كلمة الدين لم يدخلوا بلاد هـذا السـلطان حتى أذن لهم وأمنهم وأجارهم فليت شعري بمـاذا اسـتحل دمـائهم على إن الشـارع حـرم قتـل المـؤمَّن من الحربـيين فكيـف بـه إذا كـان من المؤمنين وما سمع قوله عليه الصلاة والسلام كل المسلم على المسـلم

حـرام مالـه وعرضـه ودمـه حسـب المـرء من الشـرك أن يحقـر أخـاه المسلم أما بلغه ما روى ابن المبارك عن حمزة بن عبيد ما يحل لمؤمن أن يشتد على أخيه بنظرة تؤذيه وغايـة مـا أقـول لقـد تعـدى وعنـد اللـه تجتمع الخصوم ولما اتصل الخبر بـالأمير وهـو بمخيمـه في بلاد مكناسـة رجع إلى الدائرة ووجد قبيلة كلعية أغاروا على كراع الدائرة فأخذوا منـه عدداً وافراً فأسرها بنفسـه وبعـد أن أقـام للراحـة أيامـاً ارتحـل بدائرتـه ونزل على قبيلة كلعية وبعث إليهم بـرد مـا اختطفـوه من الـدائرة فـأبوا ذلك وأصروا على بغيهم واعتدائهم فحينئذٍ سار إليهم في جموعه فـأثخن فيهم بالقتل والأسر وأذاقهم شديد النكال ورجـع إلى دائرتـه وكـان أكـثر الأسرى من أعيانهم فتعهدوا برد جميع ما أخذته قبيلتهم من الدائرة وبعد الوفاء بذلك أطلق سراحهم واشـتهرت هـذه الواقعـة فكـانت من أعظم الوسائل لردع الـذعار والغوغـاء من لقبائـل الغربيـة من منـازل الـدائرة وبعد مدة انتقل الأمير إلى زايو وهو موضع مطل على سهل تريفة فجـاء محمد بن عبد الرحمن رئيس قبيلة الحلاف وفاوضه في بعث أحد خلفائه إلى حضرة سلطان مراكش ليعتذر إليه ويستعطف قلبه فأجابه إلى ذلك وعين لهذه السفارة خليفته ألبوحميدي فسار ومعه الرئيس المذكور إلى فاس فلم يحتفـل بـه السـلطان ثم ألقى القبض عليـه وبعـد أيـام قلائـل أتلفه بسمّ أكرهـه نـاظر الحبس على شـربه فمـزق أمعائـه ولمـا أتصـل الخبر بالأمير علم ما في نية صاحب المغرب من جهته قال بعضهم وبمـا فعلـه سـلطان المغـرب بالخليفـة ألبوحميـدي يئس الأمـير من مواصـلته وإعانته على عدوه وتبين له أنه أمسى وحيداً لا نصير له غريباً لا وطن له ومع ذلك فأنه لم يلحقه جـزع ولم ينلـه ضـجر ولم يكن عنـده وقتئـذٍ من الجيش سوى ألفين مشاة وألف ومائتي فارس وهم من الأبطـال الـذين شـاركوه في اقتحـام الشـدائد وصـبروا معـه على مقاسـاة الخطـوب والمكـاره ولازمـوه في جميـع مدتـه الـتي أظهـر فيهـا ممن الشـجاعة

والإقدام ما بهر الأفكار وخلد له الـذكر الجميـل مـدى الـدهور والأعصـار وهم الذين عملوا بإشاراته وفازوا في خاتمة أمره لصالح دعواته . ذكر

آخر الوقائع في المغرب وما آل إليه أمر الأمير بعدها

لما استحكمت العداوة بين الأمير وصاحب المغرب وقوي ما عنده من الأحن والضغائن وبلغه ما لحق الأمير من الضعف وقلة العدد والعدد جهز ولديه محمداً وهو ولي عهده وأحمد في خمسين ألف مقاتل وسيرهم إليه في الثاني من المحرم سنة أربع وستين ومائتين والعاشر من دسمبر سنة سبع وأربعين وثمانمائة نزلا بجيشهما في قلعة سلوم على مسافة ثلاث ساعات منن الدائرة فرأى الأمير أن يبادرهم بالهجوم ويأخذهم بالرهبة قبل أن يزحفوا إليه فجمع جيشه وشد عزائمهم وأخبرهم بما عزم عليه من مهاجمة العدو فنشطوا لذلك وبايعوه على الثبات معه إلى الموت وأشار بمكيدة يستعينون بها على إرهاب العدو فأحظر جملين وشد على كل منهما حزمتين من الحلفاء بعد أن لاشوهما بالقطران والزفت وأمر أن يكون إيقاد النار في الحزمتين مقارناً للحمل على العدو في ليلة الرابع والثاني عشر من الشهرين المذكورين سار الأمير بجيشه قاصداً سلوان ولما قرب منها رتب جيشه للهجوم وأمر بتقدم الجملين أمام الجيش ثم أضرمت النار في الحزمتين فنفر الجملان وذهبا يجوسان خلال خيام العدو وحمل الجيش بعدها حملة رجل واحد فما راع القوم إلا مشاعل النار تجول بين الخيام وأمطار الرصاص تنزل عليهم من حيث لا يحتسبون فلم يسعهم إلا الفرار وترك الخيام بما فيها من الأمتعة والمهمات واستمر الأمير وجيشه على هجومه من غير أن يلتفت أحد منهم إلى الغنيمة حتى انتهوا إلى سرادق أولاد السلطان فوجدوا العسكر قد أحاطوا به واتخذوا الظهر والأثقال وقاية لهم من الرصاص واشتد القتال على السرادق من نصف لليل الأخير إلى أن لاح الفجر فحينئذ تأخر الأمير بجنده ونزل غير بعيد من منازل العدو وبعد أن صلى الصبح ركب راجعاً إلى الدائرة بعد أثخن فيهم وفرق جمعهم وفعل بهم الفعائل حتى أنه لم يبقى مع ولى العهد وأخيه إلا حاميتهما وقد استولى القتل على أكثرها وفي وقت الظهر ترآى للأمير جيش وكثرهم من أهل الوطن مغيرين في أثره يطلبونه فعطف عليهم في نحو المائتي فارس فكسرهم مع كثرتهم وشتت شملهم ولا زالوا منهزمين لا يلوي أحد منهم على أحد إلى أن دخلوا معسكرهم ثم انقلب راجعاً إلى الدائرة وارتحل بها من زايو مع نهر ملوية ونزل بالقرب من مصبه في البحر وأقام العدو في سلوان إلى أن تراجع من جموعه منن فر إلى الجهات القريبة منه وأما الذين أبعدوا المرَّ فاستمروا على فرارهم إلى مواطنهم وأرسل في جبل كلعية وكيدانة ومن قاربهم من قبائل البربر وعرب تريفه حاشرين فأنثالوا إليه أفواجاً أفواجاً معتذرين إليه في تخلفهم عنه حتى وقع بجموعه ما وقع من قوم غرباء لا ناصر لهم وبعد أن استكمل تعبيته ارتحل من سلوان ونزل بزايو فاتصل الخبر بالأمير فأجاز بدائرته النهر ونزل بالعدوة الشرقية منه ثم جاء العدو فنزل في منازلها الأولى في العدوة الغربية فأمر الأمير أن ترتفع الدائرة إلى ناحية عجرود وعين العسكر المشاة لمحافظتها وبقي فيمن معه من الفرسان ووقع المصاف على النهر وكان شائلاً وليس في تلك الجهة إلا مجاز واحد فلما هجم العدو غرق منهم خلق كثير بخيلهم والذين اصطفوا على ضفته الغربية اشتد القتال بينهم وبين الأمير كلٌ من ناحيته واضطرمت نار الحرب وكثرت

القتلى والجرحى من الجانبين واستمر القتال على النهر ساعات ثم تقدمت حشود البربر من أهل الوطن إلى المجاز فأجازوا منه واتبعهم العدو واختلطت الجيوش وخاض بعضهم في بعض والتحموا وكثر القتل قعصاً بالرماح وطعناً بالسيوف وكان القائد الشهير محمد بن يحيي قد استشهد في تلك المعمعة بعد أن أبلى بلاءً حسناً فاختل مصافه وأصيب شرف الأمير فوقع من تحته وركب غيره وتكاثر العدو فتزحزح الأمير عن النهر وصار القتال في السهل مناوشة ثم أصيب فرس الأمير الثاني فنزل عنه وركب ثالثاً فأصيب أيضاً وركب رابعاً ولما تولى النهار أقبلت جموع بني يزناسن وغيرهم من الوطنيين نجدة لولدي السلطان فحمل الأمير عليهم حملة صيرتهم فرقاً وملأت قلوبهم رعباً وما زال يوالي الكر عليهم إلى أن ردهم إلى النهر ثم انصرف وقد أيقن بانتشار سلكه وذهاب ملكه فلحقه العدو في الكتائب العديدة من الميمنة فانكشف جنده لقتله ونفاد ما بيدهم من البارود وأخذ الأمير بأعقابهم يدافع عنهم فكان ردأ لهم إلى أن انتهوا إلى عجرود ثم مال العدو إلى الدائرة فدافعه العسكر والمشاة بقوة وثبات إلى أن أجازت الأثقال والحريم والأولاد وادي عجرود وقد قتل من العسكر في تلك العشية نحو المائة وأسر مثلها واستمر الأمير سائراً بأهله وخاصته تلك الليلة ممانعاً لحوزته دافعاً للذل بعزته إلى أن بلغ حبل بني خالد من بني يزناسن ودخلت الدائرة وفيها بعض أخوته وأقاربه في أرض الفرنسيس وبهذا انتهت خاتمة المحن وانطفأت نار الحروب والفتن : هذا الذي سبق القضاءُ به ◈ والدهر في الإنسان ذو دول

ما قر في أيدي قوابله ◈ حتى أذيق الصاب بالعسل

وكان الجنرال لامور سير حاكم ولاية وهران لما بلغه سوق صاحب المغرب جموعه على الأمير سنار ممن وهران في نحو الخمسين ألف جندي إلى الحدود الغربية ليراقب أعمال المراكشية ويمنع الأمير من التخطي إلى الصحراء فخيم في عطية من أرض مسيردة على مسافة بضع ساعات من وادي عجرود وأقام هناك إلى أن انتهى الأمر بين الأمير والمراكشية ولما اتصل به خبر دخول الدائرة في أرضهم بعث من قواد جيشه ممن ينظر في أمرها ونصب العيون على الأمير وفرق الجيوش فيما بين بني يزناسن ومعسكره وربط عليه الطرق حتى لا يتخطى تلك البلاد إلى الصحراء وكان المطر سحاء متصلاً بالليل والنهار وعميت عنه أخبار الأمير فاضطرب لذلك وارتبك في أمره وخشي أن يفوته ما خرج لأجله وأما الأمير فأنه لما وصل إلى بني خالد نزل على أستاذهم الشيخ مختار بو دشنيش في بلده تفجيرت وكانن قبل ذلك من أصدقاء الأمير فظن فيه أنه يقوم بشأنه فإذا به رأى منه ما أنكره وبلغه عن قومه ما أنذره وحذره وتبين له أنهم داخلون في الجملة المنحرفة والفئة المتطلعة إلى الغالب جرت عادة الله في أرضه بذلك فلم يسعه حينئذٍ إلا النظر في أمره وانتهاز الفرصة في خلاصة من مكائد العدو ومكره فجمع خاصته وذويه وقال يا قوم أن الأحوال كما ترون والأخبار على ما تسمعون فما الرأي وما الحيلة فقالوا الرأي لسيدنا الذي يراه نحن معه فقال لا أرى إلا التسليم لقضاء الله تعالى والرضى به ولقد أجهدت نفسي في الذب عن الدين والبلاد . وبذلت وسعي في طلب راحة الحاضر منها والباد . وذلك من حين أهتز غصن شبابي وافتر عن شباة الهندي نابي وأقمت على ذلك ما ينيف على سبع عشرة سنة أقتحم المهالك . وأملأ بالجيوش الجرارة الفجاج والمسالك . أستحقر العدو على كثرته وأستسهل استصعابه وأتوغل غير خائف أوديته وشعابه . وأرتب له في طريقه الرصائد وأنصب له فيها المكائد والمصائد . تارة أنقض عليه انقضاض الجارح . وأخرى انصب إليه انصباب الطير إلى المسارح . وكثيراً ما كنت أبيته فأفنيه . وأصبحه فأبرد غليلي منه وأشفيه . ولازلت

في أيامي كلها أرى المنية ولا الدنية وأشمر عن أقوى ساعد وبنان . وأقضي حق الجهاد بالمهند والسنان . إلى أن فقدت المعاضد والمساعد . وفني الطارف من أموالي والتالد . ودبت إليّ من بني ديني الأفاعي . واشتملت عليّ منهم المساعي والآن بلغ السيل الربى . والحزام الضبنين . فسبحان من لا يكيده كائد . ولا يبيد ملكه

وكل شيء بائد أن يسلب القوم لعدا ◈ ملكي وتسلمني الجموع

فلقلب بين ضلوعه ◈ لم تسلم لقلب الضلوع

أجلي تأخر لمم يكن ◈ يهواه ذلي والخضوع

ما سرت قط إلى القتا _ ل وكان من أملي الرجوع

شيم الأولى أنا منهم ◈ والأصل تتبعه الفروع

فاستكان القوم لهذا الخطاب وتذكروا أيام الله فيهم وإنما يتذكر أولو الألباب ثم أخذوا يتداولون الرأي بينهم إلى أن قر القرار على أن يكون التسليم إلى الفرنسيس ثم أن الأمير عاجله الحال أن يكتب كتاباً في ذلك إلى الجنرال لامور سير رئيس الجيوش الفرنساوية فبعث رسولاً من حاشيته ليخبر الجنرال باللسان ولما وصل لرسول إلى مناصب كيس وجد الدائري الشهير بابن خوبه بالمرصاد فأطلعه على الأمر وسار معه في لمة من خيله إلى المعسكر الفرنساوي فبلغ الرسول الرسالة الشفاهية إلى الجنرال فأهتز لذلك سروراً وبادر ببعث سيفه إلى الأممير مع ورقة ختمها بختمه على بياض ليشترط الأمير ما أراد وأرسلهم صحبة ابن خوبة وفي الوقت نفسه كتب إلى مملكه إنني بهذه الدقيقة ممتطياً جوادي للذهاب لدائرة عبد القادر ولا يوجد عندي فرصة لأبعث إليكم بنسخة التحرير الذي أخذته منه أو جوابي له ويكفيني أن أقرر بأني قد اتفقت معه بأنه هو وعائلته يذهبان إلى عكا أو الإسكندرية وهذان المحلان هو الذي عينهما في شروطه وصادقت عليهما وإني ملتزم بأن أقوم بما اشترطه وقد عملت ذلك بكمال الانعقاد من أن جلالتكم والحكومة تصادقون عليه ما دام عبد القادر أعتمد على قولي وخطي وبعث البريد إلى الدوك دومال ابن الملك حاكم الجزائر فارتاح لذلك وركب ممن حينه بارجة وجاء إلى مرسى جامع الغزوات ولأول وصوله إليها بعث إلى الجنرال يخبره أنه قد وافقه على قبول ما اشترطه الأمير وأمره أن يزيده في ذلك تأكيداً ويعطيه ميثاقاً غليظاً يطمئن به قلبه والأمير وأن كان في حالة يأس إلا أنه لقوة جأشه وصبره لم يظهر اليأس والجزع وأظهر غاية التربص والتأني ولذلك ترددت الرسل بينه وبين الجنرال في ربط الميثاق وأحكام العهد ثلاثة أيام بلياليها وبعد أن تم الأمر بينهما على شروط منها أن يحملوه مع جميع عائلته إلى عكا أو الإسكندرية وأن لا يتعرضوا لمن يريد السفر معه من الضباط والعساكر وأن الذي يبقى منهم في الوطن يكون أمناً على نفسه وماله ثم سار الأمير بأهله وخاصته وأتباعه من تفجيرة قاصداً المرسى حيث أن ابن الملك والجنرال لامور سير والجنرال كافنياك ينتظرونه فيها وعندما وصل في طريقه إلى مقام المرابط سيدي إبرهيم وهو الموضع الذي كان الأمير انتصر فيه على جنود فرنسا وأوقع بهم الوقعة الشهيرة منذ سنتين قبل ذلك وجد الكولونيل مونتبان في خمسمائة فارس ينتظره فواجه الأمير بكل اعتبار واحتفال وبعد أن نزل الأمير وصلى في المقام ركعات ركب وسار في ذلك الموكب إلى أن قرب من مرسى الغزوات فاستقبله ابن الملك وفي معيته الجنرال لامور سير وغيره من القواد والأعيان في الأبهة والاحترام وبعد أن استقر بهم المجلس قال الأمير لأبن الملك هذه الساعة التي

قدر الله تعالى أن يكون فيها ما نحن فيه الآن وقد أخذت على الجنرال لامور سير عهداً وميثاقاً فلا خشى أن ينقضه ابن ملك فرنسا وعظيمها فأجابه الدوك ابن الملك بما يوافق قول الجنرال ويثبت عهده ثم قام الأمير وقدم له سيفه وقال له إني أحسب هذا شرفاً قدم لفرنسا وفخراً عظيماً حصل لها وفي غد تلك الليلة توجه ابن الملك نحو الجنود الفرنساوية المقبلة منن مخيمها إلى جامع الغزوات وعند رجوعه تلقاه الأمير على جواده الأدهم وبعد أن نزل عنه أهداه إليه مع طبانجته وساعته فقبله ثم اجتمع اجتماعاً مخصوصاً جدد فيه ابن الملك العهد للأمير وزاده وثوقاً وأهدى للأمير أيضاً طبانجته وساعته ثم سأله عمن يرافقه في غربته إلى المشرق فسمى له أهله وأولاده وخليفته السيد مصطفى ابن التهامي والسيد قدور ابن علال وغيرهما من حشمه وأتباعه في مائتي نفس قال بعض مؤرخيهم أن مما يجب الحيرة ويستحق التعجب أن عسكر الأمير عبد القادر كاد أن يصل عدده إلى ألفين من الخيالة وعشرة آلآف من المشاة وقد قاوم به جيشاً عظيماً من جيوش أكبر دولة من دول اوربا يبلغ عدده مائة ألف وستة آلاف ما بين فارس وراجل مدة ست عشرة سنة وأعجب من ذلك إنهم كانوا يدخلون في معسكرنا ويقاتلوننا من ورائنا ومن ميمنتنا وميسرتنا ويرهبون في الوقت الذي نتصور به القبض عليهم باليد والعجب كل العجب إنهم كانوا يتعبون عسكرنا بتجاوزاتهم ويظهرون بالأمنية التامة غير مبالين بما كان ولا مهتمين بما سيكون فليت شعري بماذا يجاب من سأل عن الفرق بيننا وبينهم ومن الذي يستحق المدح منا ومنهم اه قال الأديب صاحب الجامعة بعد ذكر ترجمة الأمير في مشاهير المتقدمين والمتأخرين فلا يسع المؤرخ الشرقي غير الوقوف بإزاء عظمته متفكراً وبأسباب سقوطها معتبراً لأن الصراع بينه وبين الجنود الفرنساوية كان بين مبدئين لا بين قوتين حربيتين أحدهما استقلال الممالك الشرقية والثاني أطماع أوربا الاستعمارية غير أن قوة الطمع زعزعت استقلال الشرق واستشعر أهله أنهم مطحونون برحاة فازداد يأسهم ولو قوى المبدأ الأول لقوى رجائهم وزاد بأسهم وليت شعري ما يقول المؤرخ الغربي بعد أمعن النظر في دولة أحكم أساسها منذ ألف وأربعمائة سنة فقد استولت على مستعمرات أمير عمر دولته سنة بعد أن قهر رجالها وأباد أبطالها وأشغلها خمسة عشر عاماً إلى أن أراد الله إنفاذ ما قدره وقضاه عاضدها أقرانه وساعدها عليه جيرانه فاستسلم لقضاء مولاه وسلم إليها نفسه برضاه على شروط موقع عليها من الجانبين وهذا هو سبب انهدام ملكه فليت شعري من يمدح ومن الذي يطعن فيه ويقدح وينبغي لكل شرقي وقف بقبر هذا الأمير أن يخضع لعظمته ويمرغ وجهه في تربته ويعلم أن هذا الأسد الريبال محط رحال الآمال والانضال . سقى الرحمن قبرا حل فيه ◈ أمير بالمفاخر لا يضاها

همام قد حمى الأوطان مما ◈ دهاها واقتدى بأبيه طاها
به قرت عيون الشرق فخراً ◈ وأهل الغرب ما بلغت مناها
ولكنَّ الإله قضاه ماضٍ ◈ وكيفَّ تردُّ أشياءٌ قضاها

وبتسليم سيفه انتهت سيرته السيفية وهي الجزء الأول ويليه الجـزء الثاني في سيرته العلمية ولله وليّ التوفيق .^

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر ركوب الأمير البحر ووصوله إلى طولون وما انفق له مع دولة فرنسا

انه في ثالث يوم وصوله إلى جامع الغزوات سار بأهله ومن تبعيته إلى المرسى والناس على اليمين والشمال يبكون وينتحبون ولم يزالوا على ذلك إلى أن ركب البارجة الحربية المعدة لركوبه واسمها احموده وتوجه نحو فرنسا ولسان الحال ينقد قول ابن أبي لبانة شاعر ابن عباد : تبكي السماء بمزن رائح غادي ◈ على البهاليل من أبناء عبادي

على الجبال التي هدت قواعدها ◈ وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
عريسة دخلتها النائبات على ◈ اساود لهم فيها وآساد
ولعبة كانت الآمال تخدمها ◈ فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
يا ضيف أقفر ببيت المكرمات وخذ ◈ في ضم شملك واجمع فضله الزاد
يا مومل واديهم ليسكنه ◈ خف القطين وجف الزرع بالواد
وأنت يا فارس الخيل التي جعلت ◈ تختال في عدد منها وأعداد
الق السلاح وخل المشرقي فقد ◈ أصبحت في لهوات الضيغم العادي
الوقت لم تخلف له عدة ◈ وكل شيء بميقات وميعاد
ان يغلبوا فبنو العباس قد غلبوا ◈ وقد خلت قبل حمص ارض بغداد
الا غداة النهر كونهم ◈ في المنشئات كأموات بالحاد
وان الوداع فضجت كل صارخة ◈ وصارخ من مفدات ومن فاد
والنوح يصحبها ◈ كنها ابل يحدو بها الحادي
في الماء من دمع وكم حملت ◈ تلك القطائع من قطعات أكباد

ثم أن المسلمين صاروا آسفين لتصعد زفراتهم وتنسكب عبراتهم لا سيما شيعته وأهل محبته كيف لا وقد طار من بينهم من كانوا يستمطرون خيره ويقيهم اعتداء العدو وشره ويحيطهم من كل مكروه وينيل كل واحد منهم ما يؤمله ويرجوه . كان

لم يكن بين الحجون إلى الصفا ◈ أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فابادنا ◈ صروف الليالي والجدود الغوائر

وقد تذكرت هنا ما قاله خاتمة أدباء الأندلس صالح بن شريف لكل شيء إذا ما تم نقصان ◈ فلا يعز بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول ◈ ولا يدوم على حال لها شان
لين الملوك ذوو التيجان من يمن ◈ وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ما شاده من ارم ◈ وأين ما ساسه في الفرس ساسان
وأين ما حازه قارون من ذهب ◈ وأين عاد وشداد وقحطان
أتى على الكل أمر لا مرد له ◈ حتى قضوا فكان القوم ما كانوا
وصار ما كان من ملك ومن ملك ◈ كما حكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على دارا وقاتله ◈ وأم كسرى فما آواه إيوان
كأنما الصعب لم يسهل له سبب ◈ يوماً ولا ملك الدنيا سليمان

فجائع الدهر أنواع منوعة ◈ وللزمان مسرات وأحزان
وللمصائب سلوان يهونها ◈ وما لما حل بالإسلام سلوان
دها الجزيرة خطب لا عزاء له ◈ ثوى له أحد وانهد فلان

ولما شاع تسليم الأمير عند أهل الجزائر عظم الخطب عليهم واشتغلت المنادب في المدن والقرى والبوادي وكثر النواح من النساء في ولاية وهران فاخبر الحاكم وطلب منه ذلك فأجاب الجنرال دعهم يبكون فان هذا عزنا وعزهم قد ذهب فإنني حضرت من فرنسا ضابطاً صغيراً فترقيت إلى هذه الرتبة بواسطة حروب الأمير ومثلي كثير ولولاه لما تحصلت على هذا الرتب والنياشين وفي الرابع والعشرين من محرم سنة أربع وستين وأول يناير سنة ثمانية وأربعين أرست البارجة في مرسى طولون وكان ابن الملك عين مع الأمير الكرونيل لورو وموسيو روسو ترجماناً واخبره ان البارجة تمر على هذه المرسى فبينما الأمير ينتظر إقلاعها ومسيرها إلى الشرق إذ دخل عليه حاكم طولون واخبره انه مأمور بنزوله في برج لاملاك إلى ان يأتي الأمر من باريس فحينئذ أحس الأمير بالخديعة ولم يسعه الا النزول ثم جاءه الحاكم ولاطفه وآنسه واخبره ان الإقامة هنا لأجل المخابرة مع الدولة العثمانية وصاحب مصر في شانك وبينما هو ينتظر إنجاز الوعد إذ جاءه الكرونيل دوماس معينا من قبل الملك للإقامة عنده ولأول وصوله إليه اظهر له ما جاء لأجله واخبره أن كافة فرنسا عارضت في إتمام ما وقع التعهد به من بعثكم إلى الشرق فلذلك يعتذر لكم الملك في عدم الوفاء والذي يحسن عنده أن تسكن بلاد فرنسا وتعطى أماكن مناسبة لمقامك العالي لأهل محبتك من أهل الجزائر في الحضور عندك والسكنى معك فأجابه الأمير أني لا اقبل هذا ولو فرشت لي سهول فرنسا ومسالكها بالديباج وها أنا بين أيديكم فافعلوا ما بدا لكم ولا يمكن أن اترك طلب الوفاء بالعهد ما دمت حيا ومن عجيب من يسمع أنني كنت أرى نفسي ضيفكم فجعلتموني أسيركم وأخذتم تعددون علي أمور أقمت بواجبها ذباً عن ديني وحماية لبلادي ولا زال التفاخر بها وبأمثالها قديماً وحديثاً فان القيام بها دليل على كمال الرجولية والعدول عنها برهان على ضعف الإنسانية وعلى كل حال فالعار والعيب عليكم لا علي ولو لم الق بنفسي إليكم ما وصلتم إلى التحكم في أمري والتحير في شأني والأمر لله ثم عرض عليه التوجه إلى باريس كما قصدها إبراهيم باشا خديوي مصر فقال أن إبراهيم باشا يرى باريس وغيرها من أمصار فرنسا منزهاً له يمرح فيه كيف يشاء وأما أنا فلا أرى فرنسا الآن الا سجناً لي ولمن معي فلا فرق عندي بين طولون وباريس . ثم كتب إلى ابن الملك الدول بما ارتكبته دولتهم من عدم الاعتناء بإيفاء العهد وإنجاز الوعد وان من اكبر العار غدرها بمن سام نفسه إليها على أن هذا مخالف للمروءة للدين لم يسمح بمثله في أساطير الأولين والآخرين ولو كنا نعلم ان الحال يؤول إلى ما إليه آل لم نترك القتال حتى تنقضي منا الآجال فأجابه ابن الملك بما نصه :'إلى' حضرة الأمير عبد القادر بن محيي لدين أرشده الله آمينالسلام عليك ورحمة الله وبركاته أما بعد فقد وصلني كتابك وقرأته وفهمت فحواه ومسني اهتمام لاهتمامك ومن حقك توسع بالك ولا تضيق خاطرك عن شيء لا يدوم ولو فرض انه لم يعجبك ألم تعلم ان الفرنسيس جنس قوي وسلطانه صاحب حسنة وعدل مقيم فلا تندم على رأيك حيث سلمت نفسك لديه وفوضت أمرك إليه وقد شهدت فضله وإحسانه عليك فلا بد ان تكون مطمئن القلب سلي البال كما تسلى أصحابك وكل من معك وما يكون الا الخير والسعادة ان شاء الله وها اني بعثت لك كتابين أرد علي من أخيك ودمت بخير وسلام حرر في يوم السبت أواسط صفر الخير سنة أربع وستين ومائتين وألف .'قال' بعض مؤرخي الفرنسيس ان الأمير لما تعين الكرونيل دوماس لمرافقته انس به لأنه كان أيام المعاهدة تافنا

بين الأمير وفرنسا وكيلاً عنده في عاصمته معسكر وكان الأمير يحسن السلوك مع رفقائه ويسليهم ويتلطف معهم في سائر الأمور ويخالطهم بنفسه ويؤثرهم عليها بكل ما كان يخص به من لذائذ الأطعمة ونفائس الألبسة فقيل له في ذلك فقال الحال التي نحن فيها لقضي علي بذلك وعلى هذا كان أسلافي مع من يساكنها ويصاحبهم فلا يقول أحدهم حصاني وبرنسي ومالي بل يقول حصانا وبرنسنا ومالنا ولا أريد ان أخالف أسلافي في شيء وقد دخل عليه الكرونيل دوماس في يوم شديد البرد فلم يجد عنده ناراً فسأله عن ذلك فأجابه أن ما كان عندنا من الخطب قد نفد من أمس ولا أريد أن أضيق على رفقائي بأخذ ما عندهم منه فقال الكرونيل الذي أراه انك لا تشبه رؤساء أهل ملتك الذين اجتهدوا في هدم أحوال الأمم .'لطيفة' - دخل عليه الكرونيل وهو يضحك وقال له أن أحد القسيسين السذج في ما كون طلب مني ان يقابلك لكي يعرض عليك الديانة المسيحية وقد تعهد لي بفرح شديد على إقناعك وفي اقرب وقت يدعك تعتنق المذهب الكاثوليكي فقال له الأمير يقتضي أن يكون هذا الرجل من أصحاب الخير لأنه له مقاصد صالحة فقل له انه يأتي وأنا أرشده إلى الدين القويم ويعد لي ظفراً أن اقنع رئيس ديانة مسيحية ان يتدين بديني . قال بعض المؤرخين وبالحقيقة لم يكن الكاهن المذكور اكثر خلوصاً في إيمانه من الأمير عبد القادر في إيمانه فالذي يكون نظير الأمير متعمقاً في الديانة لا يكون منهجه في حياته السياسي إلا نفس منهجه الديني وكان يفتكر دائماً في استمالة العرب إلى المبادئ الإسلامية واستدعائهم إلى فضائل أهل القرون الأولى للهجرة وإيقاظهم من الغفلة ولولا محاربة دولة فرنسا لتتم مقاصده انتهى . ثم أتى لزيارته وتفقد أحوال الكرنيل بوفرت نيابة عن الدوك دومال حاكم الجزائر واخبره ان الملك عزم على الوفاء بالشروط تماماً .وبعد أيام بلغه ان قضيته رفعت إلى مجلس الأمة لتبحث فيها فحصل بين رجاله اختلاف كبير وقال البعض ان الأمير قد خرج عن الطرق المرعية بين المتحاربين بقتله للأسرى صبراً فلا عهد له عندنا يجب علينا الوفاء به فاعرض أهل المجلس عنه وفي أول ربيع الأول سنة أربع وستين وستة أيام من فبراير سنة ثمان وأربعين تكلم وزير الخارجية في مجلس الأمة فقال لو فرضنا بأننا لا نتمكن من إرسال الأمير إلى عكا لكون الدولة العثمانية لا تعترف باستيلائنا على بلاد الجزائر فأننا نتمكن من ترساله إلى الإسكندرية فأجابه كبير الوزراء أن المخابرة جارية بيننا وبين محمد علي باشا صاحب مصر وقد طلبنا منه الكفالات اللازمة لذلك فلما اتصلت هذه الأخبار بالأمير سكن روعه وهذأ فكره ثم جاء الجواب من محمد علي باشا بعدم قبوله إقامة الأمير في القطر المصري 'وقال' ابن عمنا العلامة السيد الطيب ابن المختار مادحاً الأمير ومتحسراً . بكم السماحة والمروءة ألبست ◈ ثوب إليها يا بضعة المختار

وتشرفت وتنورت وتزخرفت ◈ أحوالكم يا نخبة الأخيار
وترونقت وتزينت بمحاسن ◈ وتملكت وتزودت بفخار
وتطهرت وتطيب بل أشرقت ◈ وتلألأت كتلألوء الأقمار
وإذا فقدتم من لنا من بعدكم ◈ ومن الخليفة بعدكم في الدار
جاوزتم في المجد حد ذوي النهى ◈ وسموتم في رفعة المقدار
ونحوتم آثار قوم قبلهم ◈ بتهجد وتلاوة الأذكار
وملكتم فزهدتم وقدركم ◈ فعفوتم يا قاهري الكفار
عوفيتم وشفيتم وكفيتم ◈ وسلمتم دوماً من الأضرار
وحرستم ومنعتم وكنفتم ◈ بقدس منكبر جبار

كم بالزمان أصبتم وآذيتم ◈ فصبرتم لتلاعب الأقدار
ولطالما أعطيتم ومنعتم ◈ وبذلتم بقرارة الاكدار
جاهدة في الله حق جهاده ◈ حتى الأمان اضا كشمس نهار
دار السلامة والمبرة والبقا ◈ لكم وللأعداء دار بوار
مذ غبتم أحبابنا ونأيتم ◈ يا جيرتي والدمع كالأنهار
واحسرتي وكئابتي وصبابتي ◈ وشكايتي للمالك القهار
وتأسفي وتكففي وتعففي ◈ وتلكفي صبراً على التعمار
جودوا بوصلكم الجميل فان لي ◈ فيه الحياة مدى الزمان الجاري

ذكر قيام الجمهور في فرنسا على الملكيين وما لحق الأمير من سوء المعاملة

وبعد برهة يسيرة قام حـزب الجمهـور طالبـاً ادالـة الملكيـة بالجمهوريـة واضطرمت نار الفتنة لذلك في سائر بلاد فرنسا ولما رأى الملـك تفـاقم الأمر خرج من باريس مختفيـاً ولحـق بلونـدره عاصـمة الإنكلـيز وانتصـر حزب الجمهورية ونشرت راياتها في سائر مدن فرنسا وأمصارها وحدث للأمير من سوء معاملة الحكومة ما أثـار حزنـه وهيج كربـه لأنهم نظـروا في أمر الأمير فخافوا أن ينصب لهم حزب الملكية مكيدة بهم فيحملونه إلى الجزائر وبذلك يمسون في ارتكاب عظيم في أمـرهم فبينمـا الأمـير ورفقاوءه ينتظرون ما يرد بهم إذ جاء الموكلون بهم وحملوهم من البرج إلى قلعة طولون والجند محيطة بهم واظهروا لهم غاية الوحشـة وسـوء المعاملة والأمـير مظهـر لتجلـد إلى رفقائـه آمـر لهم بـه ثم دخـل عليـه الكرونيل دوماس واخذ يسليه ويخفف عنـه فقـال لـه نحن لا نحتـاج إلى هذا وانظر إلى سلطانكم فانه كان ذا قوة وسلطة كم أمـر ونهى وعـزل وولى وأقام وأقعد وعاقد وعاهد وها هـو ا لآن قـد انحـط عرسـه سـقط ونحن ما بذلنا أنفسنا وأموالنا طلباً للدنيا وحرصاً عليهـا وإنمـا كـان ذلـك امتثالاً لأمر الله تعالى لنا بالجهاد لحماية الدين والوطن .

وبعد أيام أرسلت الحكومة الجديدة الكرونيل اوليفيان ليتطلع أحوال الأمير فهش له وش واظهر له السرور بقدومه عليه وقبل رجوعه إلى باريس دخل عليه وأطال الجلوس معه واظهر له أن الحكومة لا تأبى أن تطلق سراحه إلى الأماكن التي طلبها أنها تخشى من نقض عهده ورجوعه إلى الجزائر فأجابه الأمير ليس في وسعي أن أعطي ميثاقاً لحكومة قوى من الميثاق الذي أعطيته للجنرال لامورسير واكدته للدوك دومال ابن الملك والملك أيضاً ولو لم أرد التسليم والنزول عن الإمارة ما كنت اليوم هنا عندكم في حال أسير مقهور'فقال' اوليفيان كلامك أيها الأمير مقبول ولا ضرر عليك إذا أنت حلفت للحكومة بالقرآن على انك لا ترجع إلى الجزائر ولا تتدخل في مصالح فرنسا بوجه من الوجوه بنفسك ولا بواسطة فأجابه الأمير إلى ذلك وقال ان دعتني الحكومة إليه لا أتوقف في إجرائه فقال له اكتب إذا مكتوباً للحكومة يشعر بهذا فكتب ما معناه .الحمد لله الواحد الذي لا يزول ملكه مدى الأبد إلى أركان المشيخة المستولين على زمام ملك فرنسا أما بعد فقد حضر عندي رسولكم الكرونيل اوليفيان واخبرني بان الفرنسيس اتفقت كلمتهم على إبطال الملك الاستبدادي وادالته بحكومة جمهورية شورية فسرني هذا الخبر لما اعلمه من أن المراد بهذا الأمر نزع الظلم ومنع التسلط وبناءً على ذلك أرجو أن تكشفوا عني ما أنا فيه من البلاء فأنكم بنيتم أمركم على دعائم العدل والإنصاف والوفاء بالعهد والصدق في الوعد وان نقمتم على ما جرى بيني وبينكم من الحروب التي اتصلت عدة سنين فما أظن أن أحداً ممن على وجه الأرض من البشر ينكره علي أو يذمني به لأنني رجل أوجب علي ديني ان أدافع عنه وعن ارض أهله المتمسكين بعروبته الوثقى فقمت بذلك وبذلت وسعي فيه ما استطعت ولما ظهر لي انتهاء اجل قيامي بهذه العبادة التي حزت بها ولله الحمد شرف الدنيا والآخرة وتلاشت الهمم وتقاعدت العرائم ونفد ما كان

عندي من المواد والأسباب التي كان القيام بها سـلمت وقلت أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده فهو أقامني حيث شاء وأقعدني حيث شاء ثم أني طلبت من رئيس جيوشكم التي كانت تترصدني وتتوقـع وقـوعي النائب عنكم في الجهة الغربية الجنرال لامورسير عهداً وميثاقاً على أني سلمت في أمري الذي كنت قائماً به فاته بالنيابة عنكم يحملني أنـا ومن معي إلى الإسكندرية أو إلى عكا فأجاب إلى ذلك وقبله وأعطاني العهـد والميثاق على ذلك وحرره وإمضاء بخطه وختمه كمـا أني أعطيتـه عهـداً وميثاقاً على ان لا ارجع للفرنسـيس في شـيء بوجـه من الوجـوه وبعـد الوثـوق منـه ومـني جئت بـأهلي وأولادي ومن اتبعـني من خاصـتي إلى مرسى الغزوات بـالجنرال لامورسـير حـاكم الجزائـر الـدوك دومـال ابن الملـك والجـنرال كافنيـاك ثم حملونـا في البـاخرة الحربيـة من مرسـى الغزوات على ان يمروا بطولون لحمل لوازم الباخرة ثم يجـدون السـير بنا إلى المشرق غلما وصلنا إلى طولون أنزلونا إلى البلد وتصـرفوا فينـا بما شاءوا وها نحن على ذلك ننتظر الفرج من الله تعـالى فلعلـه يجريـه على دكم فتحوذون به الفخر العظيم والذكر الجميـل في العـالم بأسـره إذا فالوفاء بالعهود وإنجاز الوعود من خصـال أهـل الكمـال ونعـوت ذوي الفضـل والأفضـل وان أمـرتم بـاني اقسـم لكم بـالقرآن العظيم اني لا انقض لكم عهداً ولا اخلف وعداً ولا أتعرض لكم في شيء فلا يثقل علي بذلك بل اقسم لكم بما تريدون فيمـا تريـدون كتب هـذا عبـد القـادر بن محيي الدين في أول ربيع الأول سنة أربع وستين وستة من شهر فـبراير سنة ثمان وأربعين فاخذ اوليفيان هذا المكتوب ورجـع إلى بـاريس وبقي الأمير ينتظر الجواب بما يسره فإذا بخطابه احدث في الجمهوريـة نفـاراً وكان جوابهم أن الجمهورية لا ترى نفسها مرتبطة بعهـد مـع الأمـير عبـد القادر بل ترى انه أخذ أسيراً تتركه كما تركته الحكومـة السـالفة فاشـتد كرب الأمير لذلك فاخـذ الكرونيـل دومـاس يلاطفـه في الكلام ويـوءنس

وحشته فأجابه الأمير إذا طال الأمر على هذه الحال يمـوت أكثرنـا حزنـاً بلا ريب وأكون أنا السبب الوحيد في ذلـك إذ لم يستحسـن المجيء إلى الفرنسيس غيري والذي غرني وأوقعني في يـدهم دعـواهم انهم قـوم لا ينقضـون العهـد ولا يخلفـون الوعـد فـإذا بهم لا عهـد لهم ولا ميثـاق بـل عهـدهم مكيـدة وخديعـة ولـو علمت ان في فرنسـا محكمـة شـرعية أو سياسية تسمع دعـوى المظلـوم وتنصـفه من خصـمه ولـو كـان ملكـاً ذا سلطة لرفعت إليها قضيتي فعساها ان تأخـذ بيـدي ولقـوم بناصـري فلم يكن من الكرونيل لا إظهار الأسف والتوجع والأمر لله . ذكر

أخبار إخوة الأمير وحملهم إلى طولون وقـد كـان اخـوة الأمـير معـه في الـدائرة ولمـا أقبلت الجيـوش المراكشـية زاحفـة إليـه اسـتولى عليهم الخوف فاستأمن منهم السيد مصطفى والسيد حسين الجنرال لاورسـير فانهما وكتب لهما في ذلك ووعدهما ان يحملهمـا إلى المشـرق فـارتحلا من الدائرة ليلاً ولحقا بأرض الفرنسيس وبعد اجتماعهما بالجنرال نقلهما إلى تسالمت قرب وهران واما أخوهم الأكبر السيد محمد سعيد فانه لم يفارق الأمير إلا في ليلة عجـرود وكـان معـه ابنتـا الأمـير وهمـا زوجتـان لولديه فحالت شدة الهول تلك الليلة دون اجتماعهم وبقي السيد محمــد سعيد في قرية ابن ميره من قرى مسيرده ثم نقل إلى تلمسان والحــق بأخويه في تسالمت ثم أمر الحاكم العام ان يجمعهم بأخيهم وفي الحـال يحملون لي الجزائر ومنها إلى طولون ولما اتصـل خـبرهم بـالأمير ازداد كربه وغمه وبعد وصولهم بعض أعيان فرنسا إلى طولون واجتمع بالأمير وكان الكرونيل دوماس حاضراً فتكلم الأمير معهما في شان اخوته وقال أن حضور اخوتي إلى هنـا ليكونـوا أسـرى معي قـد زادني غمـاً لأنهم لم يحـاربوا معي جيـوش فرنسـا ولا شـاركوني في الوقـائع فلا يسـتوجبون الأسر فان وجدتم سبيلاً للكلام في شانهم مع الحكومة فافعلوا فلعل ان تترك سبيلهم وتحملهم إلى الإسكندرية فوعدوه بذلك ثم جاء الأمر بعزل

من في معية الأمير عنه سوى اخوته وخليفتيه السيد مصطفى بن احمـد التهامي والسيد قدور بن علال وبعض الاتباع وحملهم إلى سنت ماكريت وهو موضع إقامة الأسرى فجاء الموكلون بتنفيذ هذا الأمـر بشـرذمة من العسكر إلى القلعة وعزلوا نحو المائة والخمسين نفساً ثم سـاقوهم إلى الباخرة المعدة لحملهم فعظم الكرب لهذا الأمـر الفظيـع الـذي لا داعي له إلا أوهـام واهيـة قـال بعض مـوءرخيهم والبـاعث على ذلـك ان وزراء الحكومة لما أنفقت كلمتهم على نقل الأمير من قلعة طولون إلى بوهي مدينة شهيرة وفي وسطها سراية عظيمة لأحد ملوكهم في تخوم فرنسا مما يلي بلاد أسبانيا وقع في قلوبهم انه ربما يخـرج من السـراية بـالقوة لكثرة رجاله ويلحق ببلاد أسبانيا فقصدوا بمـا فعلـوه ضـعف قوتـه وقلـة عدده . ذكر

نقل الأمير إلى بو ثم إلى امبواز

ثم نقلوه بمن بقي معه إلى سراية بو فوصل بها في السابع عشر من جمادى الأولى والواحد والعشرين من أبريل وأبدل الكرونيل دوماس بالقبطان بواسوني ولم تمض ستة اشهر من وصوله إلى سراية بو حتى بلغهم ان رجالاً من الإنكليز ينتظرون سنوح الفرصة للتمكن من الفرار به إلى بلادهم وانهم في اكثر الأوقات يقابلونه من جهة المنافذ على بعد ويشير إليهم ويشيرون إليه فاضطرب رأيهم واتفق أن الأمير قعد ليلة في أحد المنافذ يقرأ القرآن فرآه الطوف ولما اصبح جعلوا عسساً مستمراً تحت المنفذ وزادوا في عدد الحرس وبعد هذا لم يهدأ روعهم إلى أن قر قرارهم على نقله إلى سراية امبواز التابعة لمقاطعة اورليان فحملوه بمن معه إلى بوردو وهي من اعظم مدنهم الواسعة على شاطئ البحر المحيط وقبل وصوله إليها استقبله اسقفها دوبيش المشهور بغاية الاحترام والإكرام لأنه كان من المحامين عن الأمير ولم ينس الإكرام الذي أكرمه به الخليفة السيد محمد بن علال حينما زاره بولايته وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً ولما سافرت إلى باريس سنة ثلاث وثمانين ومائتين ومنها إلى بوردو ونزلت بفندقها الكبير المشهور واحضر لي خادمه صباحاً فنجاناً من الشاي والحليب على حسب العادة رأيت كتابة على الفنجان والصحن ترجمها لي القبطان الذي عينته الحكومة ترجماناً معي وهي أن الأمير عبد القادر نزل بهذا الفندق سنة أربع وستين ومائتين وشرب القهوة في هذا الفنجان ثم ان رئيس الفندق طلب مني ان اكتب تحت الكتابة ان محمدا ولده الأكبر نزل في هذا الفندق سنة ثلاث وثمانين ومائتين وشرب القهوة في هذا الفنجان فشكرت له ما أبدوه من اهتمامهم بأحوال الأمير وتدوينها حتى على الفناجين . ثم سافروا إلى تانت ثم إلى تور ومنها إلى امبواز ولما دخل السراية قال له الضابط الآن قد استرحت وآمنت عليك لأنه لا تخلو عائلة من

فرنسا الا ولها ثار عليك ولذلك كلما وصلنا بلد تحاط بك العساكر خشية من بعض لهم ثار عليك ان يقتلوك . وامبواز مدينة في وسطها سراية لملوكهم الأقدمين حصينة ذاهبة في الجو مشرقة على بسائط وبطاح يشق الجلد نهر عظيم واسع الأطرف تسير فيه المراكب الشراعية فأقام فيها أربع سنين لا يروع وان لم يكن آمناً ولم يتجدد له كرب وان كان فيه باطنه كامناً ولسان حاله يقول : الدهر خلخلني مثل النساء وكم ◈ شنفت من قبل ذا آذان اكفائي

قال شرشل في تاريخه عند ذكره هذا الخبر ما معناه ان الأمير عبد القادر ما زال ذا همة غالية لم تؤثر فيه شدة المشاق التي أحاطت به من كل ناحية ولو ألمت بغيره لأذلته إذلالاً وأعدمته الصبر والتجلد تفصيلاً وإجمالاً ثم قال وكان الناس يتقاطرون إليه من جميع أنحاء فرنسا وغيرها لمشاهدة حاله في أسره فكانوا يعجبون من سمو همته وبعده عن إظهار الضجر وتسليمه لتصاريف القضاء والقدر ولا شك أن من كان مثله في القوة الفاضلة لا يبالي بالشدائد النازلة وقد قيل له في ذلك فقال : تعودت مس الضرر حتى الفته ◈ وأسلمني طول البلاء إلى الصبر

وكان كثيرون من أصحاب المناصب وذوي السياسة وقواد الحرب يسابق بعضهم بعضاً لإظهار الاحترام والإعظام لذلك الأمير الهمام وكان يصرف ساعات كثيرة في مقابلة أولئك القاصدين والذي كان يدهشهم على الأكثر تظاهره بالبشر والأفراح مع ما أحاط به من المحن والاتراح وكان السنيور دوبيش أسقف الجزائر كتب إلى الكرونيل دوماس بعد أن ترقى إلى الجنرالية يهنيه ويخبره بعزمه على زيارة الأمير فكتب إليه الجنرال المذكور يقول انك أيها الأسقف المحترم ذاهب لترى الأمير الأسير وحقاً ان سفرك هذا لا يذهب عبثاً ولا يخفى انك قد عرفت الأمير عبد القادر حينما كان السعد خديمه والعز رفيقه وكانت بلاد الجزائر كلها تعترف بسيادته وسطوته وستجده الآن من حيث عزة النفس وقوة الجأش اعظم واكثر مما كان في زمان إقباله وستجده أيضاً ليناً ودوداً بشوشاً في وجه من يزوره حزماً صابراً لا يظهر الضجر عاذراً لأعدائه متغافلاً عن إساءتهم لا ينطق في جهتهم بسوءٍ وبالجملة ستزداد علماً ومعرفة به فوق ما امتازت به حياتك . وكان هذا الأسقف أيام الحرب يكاتب الأمير ويظهر التودد إليه وكان الأمير كثيراً ما يستشيره في أمور سياسة فيجيبه بما يطابق الواقع من غير حيف ولا مكر وقد كتب إليه الأمير من بو ما نصه من عبد القادر بن محيي الدين إلى محبة الأسقف دوبيش منذ ثلاث سنين كنت أحارب الفرنساوية وليس لي أمل أن أرى نهاية حميدة لي في هذه الحروب التي ابتدئت من ستمبر سنة ثلاث وثلاثين مع أني كنت معتقداً أني لم أقم بالواجب الديني وحفظ بلادي وأخشى أن أتلقى شبه الملامة من قومي الذين وثقوا بي وحلفوا ان لا يتركوني وفي هذه المدة عرضت الفرنساوية علي مقدمات كثيرة وهي ترك السلاح مقابل شروط . وزيادة على ذلك كان قد عرض علي المارشال بيجو بالواسطة مليوناً لأترك السلاح فلم اقبل ذلك منه محافظة على عهدي وديني وقبل ذلك كتب لي خلفيتي السيد احمد بن سالم عند سفره إلى بلاد الشرق على باخرة فرنسية بعد تسليمه الإجباري وأكد لي انه كتب له من قبل الحاكم العام الذي كنت عارفاً باستقامته وشجاعته باني إذا قطعت الأمل واتبعته في عمله لأعامل بأقل رعاية منه وأجابه لطلبه نقل على بواخركم إلى بلاد بعيدة تقربها الوحدة الدينية إلينا وقد بلغوه أني إذا كرهت السفر على باخرة مسيحية يستأجرون لي باخرة إسلامية ونفقتها على اسم فرانسه على انه كان لي ثقة بعدالة الفرنسويين وأنها تفي بما وعدتني به مقابل تركي السلاح وما ينشأ عنه من السلام العام وليس لي أمل إذا أضررت على الحرب بالظفر لعلمي بنتيجته لكن حلفت ان أدافع عن ديني وأحافظ على بلادي إلى حد

تضعف دونه قوتي وأظن أني لم اعمل القدر الكافي ومع ذلك كان مركزي بالدائرة أواخر سنة 1847 خطراً وخيماً فتحرك علي حاكم مراكش واظهر ما عنده من الحنق وأظنه يتعقبني ويحاربني فصرت أتحسب من قبائل الريف المتوحشين اكثر من الفرنسويين الذين قوتهم كانت تزداد يوماً فيوماً مع ازدياد خوفي وقلقي ومع مذاكاء لم يخطر بفكري أن اعقد الصلح مع الفرنسويين لكني لما رأيت ان اعمل محافظة عليهم من التعب على أني كنت قادراً على التخلص رغماً بهمة من كان حولي من الفرسان الصناديد الأشداء على الأعداء الأمناء على الوفاء وان أضايق الفرنسويين مدة طويلة آو يا إلى قبائل الصحراء الذين لا يبخلون علي بقليل من الشعير والحليب وكان في استطاعتي ان انهزم على حصاني إلى المدن المقدسة لكني تركت ذلك حباً لراحة أهلي والجرحى وضعفاء أصحابي وكتبت إلى الجنرال لامورسير بان الحكومة الفرنساوية إذا كانت باقية على نواياها لي مما طالما حدثوني به وإنها تأذن لي إذا تركت بالذهاب إلى الشرق الذي هو مطمح أنظاري تركت لها سلاحي فأرسل لي لامورسير سيفه وخاتمه عهداً على إنجاز جمع ما طلبته منه بأسرع وقت فطلبت منه تأميناً بالكتابة والا فكان الجواب منه كالأول فعرفته ثالثة إذا لم اكن على ثقة من عهده فأني اسلم أمري إلى الله ولا يتم بيننا عقد اتفاق فبعث لي بالتامين الخطي ممضياً باسمه الفرنساوي مختوماً بخاتمه بالعربي فأمان لذلك قلبي حيث انه وكيل الحكومة الفرنساوية وان كلامها أكيد يعمل به ولو كان صادراً من اقل رجل من رجاله وحينئذ وصلت إلى معسكره وبالوقت ذاته حضر الدوك دومال إلى جامع الغزوات فاستقبلني بكل لياقة وقال لي ان ما فعله قائمقامي وتعهد لك به فأني اجريه عند اللزوم وإذا رغبت فأني أعاهدك بكلامي الملوكي ان كل ما صار الاتفاق عليه يتم فدمت له حينئذ آخر ما ركبت من الخيل أيام حروبي فسألني إلى أين قررت الذهاب ومن سيكون معك فأجبته إلى القسطنطينية أو عكا أو الإسكندرية والذي يصحبني أهلي والبعض من ضباطي وكان عدة من أراد أن يرافقني نحو المائة ولم يكن بوسعي ان أراد أملهم عند وصولنا إلى المرسى الكبيرة يرسلني إلى الإسكندرية إجابة على طلبي ووفاء بوعده فقط أن السفينة التي اركب فيها ستقف قليلاً أمام طولون فقبلت منه ذلك ولم أدرك له معنى الا أن السفر يقتضي ذلك ولما وصلنا إلى طولون أخرجونا من السفينة وأودعونا في السجن وا أسفاه كنت أظن أن نذهب إلى محل الراحة والسعادة لا إلى الحبس والشقاوة حيث أني استحصلت على العهد الوثيق والوعد الأكيد من ابن الملك الدول دومال والجنرال لامورسير وكان الغالب على ظني أن دولة فرنسا لا تخلف وعدها ولا تنقض عهدها لزعمها أنها من اعظم الدول المحافظة على العدل والاستقامة بل كنت أقول في نفسي إذا أسرني الفرنساويون في الحرب لا أنال منهم الأكل رعاية لأنهم ذوو شهامة يعرفون قدر الغالب والمغلوب فكيف إذا سلمت نفسي إليهم عن طيب خاطر وكيف يكون إذا كان التسليم على عهد ووعد أكيد ونظراً لما اتاكده من كمال حبك وعقلك أخبرتك بالوقع لتفرق بين الأخلاق العربية والأفعال الفرنساوية وتحكم بما تراه ولها زاره أسقف مدينة تور في فصل الشتاء قال أيها الأمير أخشى عليك من شدة برد اقليمنا فأجابه نعم ان اقليمكم بارد لكن حرارة اعتنائكم دفعت عنا البرد عنا . وزاره بعض القواد الفرنساويين الذين افنوا شبابهم في حروبه وعرفه بنفسه فبش في وجهه ولاطفه قائلاً قد سررت أيها الكرونيل بزيارتك وزيارة رفقائك وتذكرت الحروب التي جرت بيننا في بلادي ولن تضع أوزارها الا بمت قضى الله بهذا الانقلاب العجيب ولا شك ان اكثر أصحاب الوظائف الحربية يعترفون بشدة مقاومتي لهم ويشكرون فعلي حيث كنت سبباً لارتقائهم إلى الرتب السامية وحصولهم على النياشين العالمية ويغلب على

ظني انهم لا ينسون أيامي معهم ولما تقلد الجنرال لاورسير وزارة الحرب واتصل خبره بالأمير وهو في بو سر ذلك ظناً منه انه يوفي بعهده فكتب إليه يهنيه ويذكره بالميثاق والقيام بواجب الوفاء ومن جملة ما كتبه . إن كثيراً ممن لا إلمام بما وقع بيني وبينك يعتقدون انك غلبتني في الحرب وأجبرتني على التسليم وإلقاء السلاح فينبغي لك أن توضح لهم القضية وتوقفهم على ما جهلوه من امرنا وبذلك تجد منهم من يسعفك ويأخذ بيدك في الوفاء بعهدك الذي هو في الحقيقة عهد دولة فرنسا بل الشعب كله لكونك كنت وقتئذ رئيس جيوشهم ونائب ملكهم في كل ما تجربه وبالجملة فان وفيتم فأنكم تنالون فخراً كبيراً بين الأمم والدول وان نقضتم وأخلفتم فلا شك أنكم ترتكبون في ذلك أمراً شنيعاً يسقط به قدركم ويقبح بارتكابه ذكركم في العالم كله حرر في سابع شعبان سنة خمس وستين ومائتين والسابع والعشرين من يوليه سنة تسع وأربعين وثمانمائة فحرك هذا المكتوب من دي لامورسير سواكن الاحن فأمر بنقل الأمير من بو إلى امبواز فسار الحرس به ومن كان معه إلى مدينة بوردو ومنها حمل في البحر الاوقيانوس إلى مدينة تانت وفي أثناء الطريق أظلهم العيد فاخبر الأمير بذلك قبطان المركب في مذكرة كانت بينهما فلما كان صباح وإطلاق المدافع تطيباً لخاطر الأمير وبعد وصوله إلى امبواز جاء أمر وزير الحرب دي لامورسير للموكلين بهم ان لا يكون للأمير ولا لأحد من رفاقه علاقة مع أحد من الخارج لا لسانية ولا قلمية ان لا يجتمع الأمير بأحد من الزوار وان طلب أحدهم مواجهته فلا تأذنوا له بدون رخصة من وزارة الحرب فانظر إلى هذه الأفعال والأقوال المنافية للشرف والإنسانية وكان هذا الجنرال قد وقع عليه اللوم والتبكيت في مجلس النواب في قبوله تسليم الأمير وخطؤوه على ختم الشروط متعللين بإمكان جعله أسير حرب فقال الجنرال ان هذا اللوم الشديد قد وقع علي بجنحي للسلم في موضع يجب فيه الحرب بزعمكم وانا أتحقق اني لو ركبت الخطر بالزحف على عبد القادر ما رجعت الا بخيمته وسجادته وانه ليذهب إلى الصحراء بحيث لا يمكنني ان اصل إليه وهذا أكد عندي من ان يقع في يدي لان عبد القادر ذو قوة وصلابة في دينه مشتهر بالصدق والأمانة في وطنه شديد التمسك بمبادئه وهذا الأمر الأوحد والسبب الأعظم الداعي لاجتماع القلوب عليه وان مبدأه الفريد هو الذي اشهره في جميع الجهات ولا شك ان الظفر الذي حصل للرجل الذي حاربناه في وقائعه هو ثمرة ما قررناه ومن كان هذا شانه وسيره فلا بد وان يحدث خطراً عظيماً ان ترك بلاده واظن اني ما سلكت الا جادة الصواب ومع هذا فأرجعوه إلى - مع القوة التي كانت معه فقط وامسكوه عنوة وأنا والحاكم العام ما قبلنا تسليمه على شروطه الا اننا اخترنا راحة فرنسا وعساكرها التي اضنكها التعب وكثرة المصارف من غير طائل تحصل عليه من جهه الأمير والقبض عليه فسكتوا وانفض المجلس فأقام الأمير بامبواز وهو متمسك بعرى الصبر متجلد لنوائب الدهر قائم بواجب العبادة وكان مطران امبواز عند الاجتماع للوعظ في الكنيسة يقول لهم الا تنظرون إلى الأمير عبد القادر وجماعته في بلدتكم متمسكين بدينهم ومواظبين على صلواتهم الا تسمعون نداء قره محمد في كل أوقات صلاتهم ليلاً ونهاراً لان السراية كانت عالية على البلد وقره محمد جمهور الصوت فكان آذانه يسمع من بعيد . وداوم الأمير في تلك المدة على تدريس العلم وإفادة الطلبة من جماعته نقرأ الصغرى للسنوسي في علم الكلام ورسالة الإمام محمد بن أبي زيد القيرواني في الفقه على مذاهب الإمام مالك وغيرها من المصنفات المفيدة ثم سلك أخوه الكبير السيد محمد سعيد وأخوه السيد مصطفى وخليفته السيد مصطفى بن التهامي جادته وأفادوا الطلبة إفادته واجتمعوا لقراءة البخاري على نية تفريج كربهم وكتاب الشفاء الإمام عياض على تلك النية

واستمروا على التدريس إلى ان انتهى اجل الاكدار والأفراح وجاء البشير بطلق السراح على ما تذكره في محله إن شاء الله تعالى ثم أن بعض أمراء الفرنساوية تذكره في الحضر والبدو فبعضهم فضل الحاضرة وبعضهم فضل البادية ثم الفقوا على أن يحكموا الأمير فبينما لأنه ممن سكن الحضر والبدو فحكم لمفضل البادية وأجابه بقوله : يا عاذراً لأمري قد هام في الحضر ◈ وعاذلا لمحب البدو والقفر

لا تذمن بيوتاً خف محملها ◈ وتمدحن بيوت الطين والحجر
لو كنت تعلم ما في البدو تعذروني ◈ لكن جهلت وكم في الجهل من الضرر
أو كنت أصبحت في الصحراء مرتقياً ◈ بساط الرمل به الحصباء كالدور
أو جلت في روضة قد راق منظرها ◈ بكل لون جميل شيق عطر
تستنشقن نسيماً طاب منشقا ◈ يزيد في الروح لم يمرر على قذر
أو كنت في صبح ليل هاج هاتنه ◈ علوت في مرقب أو جلبت بالنظر
رأيت في كل وجه من بسائطها ◈ سرباً من الوحش يرعى أطيب الشجر
فيالها وقفة لم تبق من حزن ◈ في قلب مضنى ولا مضنكاً لذي ضجر
نباكر الصيد أحياناً فنبغته ◈ فالصيد منا مدى الأوقات في ذعر
فكم ظلمنا ظليماً مع نعامله ◈ وان يكن طائراً في الجو كالصقر
يوم الرحيل إذا شدت هوادجنا ◈ مرقعات بإحداق من الحور
تمشي الحداة لها من خلفها زجل ◈ أشهى من الناي والسنطير والوتر
ونحن فوق جياد الخيل نركضها ◈ شليلها زينة الاكفال
نطارد تاحش والغزلان نلحقها ◈ على البعاد وما تنجو من الضمر
نروح للحي ليلاً بعد ما نزلوا ◈ منازلا ما بها لطخ من الوضر
ترابها المسك بل أنقى وجاد بها ◈ صوب الغمائم بالآصال والبكر
نلقى الخيام قد صفت بها فغدت ◈ مثل السماء زهت بالأنجم الزهر
قال الأولى قد مضوا قولاً يصدقه ◈ نقل وعقل وما للحق من غير
الحسن بمظهر في بيتين رونقه ◈ بيت من الشعر أو بيت من الشعر
إنعامنا ان أتت عند العشي تخل ◈ أصواتها كدوي الرعد بالسحر
سفائن البر بل أنجى لراكبها ◈ سفائن البحر كم فيها من الخطر
لنا المهارى وما للريم سرعتها ◈ بها وبالخيل نلنا كل مفتخر
فحيلنا دائما للحرب مسرجية ◈ من استغاث بنا بنشره بالظفر
نحن الملوك فلا تعدل بنا أحداً ◈ وأي عيش لمن قد بات في خفر
لا نحمل الضيم ممن جار نتركه ◈ وأرضه وجميع العز في السفر
فان أساء علينا الجار عشرته ◈ نبين عنه بلا ضر ولا ضرر
تبيت نار القرى تبدو لطارقنا ◈ فيها المداوات من جوع ومن خصر
عدونا ما له ملجأ ولا وزر ◈ وعندنا عاديات السبق والظفر
شرابها من الحليب ما يخالطه ◈ ماء وليس حليب النوق كالبقر
أموال أعدائنا في كل آونة ◈ نقضي بقسمتها بالعدل والقدر
ما في البداوة من عيب تذم به ◈ الا المرؤة والإحسان بالبدر
وصحة الجسم فيها غير خافية ◈ والعيب والسآء مقصور على الحضر

من لم يمت عندنا بالطعن غاش مدى ◈ فنحن أطول خلق الله في العمر
'ثم' ان الحكومة الجمهورية أرسلت إلى حكام الجزائر ينظرون من يصلح لمؤانسه الأمير ومجالسته من علماء تلك البلاد فوقع اختيارهم على العلامة الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني فحمل إلى امبواز فلما وصلها اكرم الأمير وفادته واجزل حرمته نظراً لعلمه فانتج حسن السلوك بينهما مودة استحكمت نواحيها وشدت اواخيها واستمر الأمر بينهما على ذلك إلى أن نعق في أفقهما غراب البين وعادا ما كانا عليه أثراً بعد عين وقد وقفت لسيدي الوالد رحمه الله على رسالة اثبت فيها أحاديث ائتلافهما وما جرى بينهما من النظم أيام اجتماعهما قال قدس الله روحه الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وارض اللهم عن الصحابة أجمعين وعن الأئمة الراشدين أما بعد فهذا تقييد يشتمل على بعض ما كتبناه وكتبه إلينا أخونا في الله العالم المتفنن السيد محمد الشاذلي القسنطيني أيام صحبته لنا في فرنسا وووروده علينا للتأنيس فكان لنا خير أنيس واحسن جليس نفس من همومنا بلطائفه وطرائفه ما لا تنفسه الصبا وأجلى من أحزاننا ما لا تجليه الصهبا . فكنت به أجلى همومي واجتلى ◈ زماني طلق الوجه ملتمع الضيا
أرى قربه قربي ومغناه غنيتي ◈ وروءيته ريا ومحياه لي حيا
ولما نعق غراب البين وصار الاجتماع أثراً بعد عين أنشدت قول بغضهم وجدت مصيبات الزمان جميعها ◈ سوى فرقة الأحباب هينة الخطب
وقول الآخر وقفنا ساعة ثم افترقنا ◈ وما يغني المشوق وقوف ساعة
كان الشمل لم يك ذا اجتماع ◈ إذا ما فرق البين الجماعة
نسأل الله ان يجمعنا في الجنة جمعاً لا نخلف بعده بالفرق محنة وان يجعلنا من المتحابين فيه الذين يظلهم في ظله يوم لا ظل الا ظله وان يستعمل قلوبنا وجوارحنا فيما يحبه ويرضاه ويلطف بنا فيما قدره وامضاه وان يختم لنا بالسعادة التي جئتم بها لأوليائه ويجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائه وان يفك الأسرى ويعقب الشدة بيسرا متوسلاً في حصول ذلك كله بخير خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين له من أمته النائزين بقربه آمين فمن ذلك ما كتبه إليه حين الملاقاة لأول وصوله إلينا نزل الحبيب ومقدمة التناجي والتقريب . أهلاً وسهلاً بالحبيب القادم ◈ هذا النهار لدي خير مواسم
جاء السرور مصاحباً لقدومه ◈ وانزاح ما قد كان قبل ملازمي
لفديك بالنفس النفيسة زائراً ◈ من غير ما من ولست بنادم
طالت مسائلتي الركاب تشوقاً ◈ لجمال رؤية وجهك المتعاظم
لا غرو ان أحببتكم من قبل ما ◈ شاهدتم انتم جمال العالم
كانت على مسمعي تغار نواظري ◈ حتى رأتك وأنت أنت مكالمي
عندي الأيادي البيض حيث أريتنني ◈ ما كان قبلاً في يقين العالم
والآن صرت من اليقين بحقه ◈ وبعينه ان السرور منادي
اسمي قطب العارفين لك العلا ◈ متبوءًا منه اجل معالم
أنت في الفضل اصبح مفرداً ◈ لعلاه ما من مدعي ومزاحم
لا زلت ميمون النقية طالعاً ◈ بالسعد ذا فضل وخدن مكارم
فلما أطلعته على هذه الأبيات وجدته قد كتب قوله : سلام عليكم طال شوقي إليكم ◈ وقلبي سواكم في البرية ما احب

سلام يفوق المسك نشر عبيره ◈ يعمكم والآل يا سادة العرب
أتيتكم عبداً لقصد زيارة ◈ لعلي لوءدي ما علي لقد وجب
فمنوا على العبد الذليل بدعوه ◈ ينال بها حسن الختام مع الأرب
وكان مرادي ان ألاقيكم على ◈ بساط عزيز الملك والحرب في نشب
وما كان في ظني أرى سيدي كما ◈ رأيت ألا لله ما تصنع النوب
فصبراً لحكم الله راج ثوابه ◈ فان ثواب الله يأتي على التعب
وكتب الأخ المذكور يدعوني للمسامرة أيا سيداً فاق الكرم بمجده ◈ وخلق كريم لم يزل طيب النشر
تراه يريح الهم حسن حديثه ◈ ويبرى مكارم الفؤاد من الضر
الا سمر مكم بذا الليل عندنا ◈ فألفاظكم أشهى إلي من القطر
وان كان عذراً لتخلف منكم ◈ فحسبي من أوصافكم طيب الذكر
عليك سلام الله ما قلب عاشق ◈ لوصل حبيب راح يهوى مدى الدهر
فأجبته بقولي نعم ولكم فضل بأشرف دعوة ◈ غدوت بها يا صاح منشرح الصدر
وقد قبل لا يأبى الكرامة غير من ◈ له عرق لؤم لم يزل في الحنا يسري
لمجلسكم أعلى الكرامة عندنا ◈ ولفظكم أشهى إلينا من الدر
ورؤيتكم أجلى لهمي وانني ◈ غنيت بها عن طلعة الشمس والبدر
عليك تحيات القبول تكرماً ◈ ايا واحداً عندي يعد بذا العصر
ومن ذلك ما كتبته إليه لما مرض وعدته صباحاً ولم أره مساءً خليلي قل لي كيف أمسيت أنني ◈ تحملت حزناً منك بعيني له رضوى
لقد مرضت أرواحنا وجسومنا ◈ لشكواكم يا ليت لا كانت الشكوى
فلا تبغ أتلافى فما لي طاقة ◈ على الصبر يا روحي ولست لها أقوى
وأني لأرجو الله ينعم بالشفا ◈ عليك لنحظى بالسرور كما نهوى
'فأجابني بقوله' بخير لقد أمسيت والقلب شيق ◈ للقاكم شوق المحب لمن يهوى
احن لرؤياكم وضري مانعي ◈ وذكراكم أنساني الضر والبلوى
لئن كان جسمي في الفراش فهمتي ◈ بساحتكم يا من هو الغاية القصوى
سألت الهي ان يخفف ضرنا ◈ ويجمعنا فيكم ويكشف ذا الشكوى
ومن ذلك ما بعثت به إليه صباحاً سائلاً عن حاله في ليلته يا قرة العين قل لي كيف بت فقد ◈ والله بت وقلبي في لظى الحزن
مما عراكم عسى فيه أقاسمكم ◈ أو حمله كله لو كان يمكنني
حتى يتم لنا من وصلكم غرض ◈ قد كنت آمله من سالف الزمن
'فأجابني بقوله' يا قرة العين عنى أن سألت جوى ◈ لقد بت في ألم من شدة الوهم
أكابد الضر والأجفان ساهرة ◈ هيهات ما ذاق طرفي لذة الوسن
والآن لم اك مثل الليل يا سندي ◈ الحمد لله ربي واهب المنن
جزاكم الله عنا كل مكرمة ◈ من فضله ووقاكم سائر المحن

ومن ذلك ما كتبه لإخواني يعاتبهم في تأخرهم عن عيادته . مرضت غريباً بين قوم أعزة ◈ فكلهم عن زورتي متمنع

كأنهم في غنية عن أثوابها ◈ أو الطرق لم يعرف لها الدهر مهيع
إذا كنت مصحوب السلامة أقبلوا ◈ وان كنت في سقم فربعك بلقع
فهذي خصال البعض عند مريضهم ◈ فمن لي عند القوم بالعود يشفع
ولولا اصطباري واحترامي إليهم ◈ لكنت لهم أفعى بشعري السع
ولولا احترامي الأمير وآله ◈ لكان كلامي للجبال يزعزع

'فأجبته عنهم' فديناك لا تعجل بلومك واصطبر ◈ وحقك ان العتب للقلب اوجع
لعل لنا عذراً يدافع عتبنا ◈ وصدرك في تلك المعاذير أوسع
وان من الأعذار ما ليس ذكره ◈ يليق ومنه مهجتي تنقطع
ولست غريباً بين قوم أحبة ◈ مكانك فيهم من بني الدهر ارفع
فكم من حزين من بلائك واله ◈ يبيت على فرش الضنى يتوجع
وجمعي بكم يبقون جمع سلامة ◈ بدار بها ما للتفرق منزع
وجئت بلولا فاعلا لجوابها ◈ على انها النحو قد قيل تمنع
وان كنت لساعاً فكن غير حية ◈ وكن نحلة ترياقها السم يدفع

فأجاب معتذراً سلام يفوق المسك والند غرفه ◈ يعم حمى قوم إكرام المحافل

كرام إذا ما العبد بينهم جنى ◈ حيوه بعفو شامل ومأمل
بقدر عظيم الذنب عفوهم ◈ فاكرم بهم قوماً كرام الشمائل
على قدر نقضي عاملوني بفضلكم ◈ ايا كاملين الوصف لست بكامل
ندمت على ما كان مني ونادم ◈ عقيب وقوع الفعل ليس بفاعل
على ان عقل المرء يذهب للقضا ◈ فذو العقل ذو علم وليس بجاهل

فكتبت إليه مجيباً عن اعتذاره خليلي لا تندم على العتب للحب ◈ فان خفيف الحب انفع بالطب

فما ذاك مكروه ولا بمجرم ◈ بشرع الهوى بل ذاك فرض على الصب
سبيل الهوى بحر ووصل وفرقة ◈ وجمع وخلف في الويارة والعتب
وهذى دواع للعتاب كثيرة ◈ لذا كان طول العتب الزم للحب
وقد قيل يبقى الود ما العتب قد بقي ◈ فلله ما أحلى مقال ذوي
إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضى ◈ فأين حلاوات الرسائل والكتب
وأطيب أيام الهوى يومك الذي ◈ تروع بالتعنيف فيه وبالسب

ومن ذلك ما كتبته إليه أيام شكواه وقد خرج للتنزه ولم اشعر به يا ملولاً لا يمل ◈ كيف كان اليوم حالك

يا كثير البعد عنا ◈ كان كالغدر ارتحالك
كنت من ذا في أمان ◈ فبدا اليوم محالك

'فأجابني بقوله' لا أمل الحب ان كان يمل ◈ لست بعيداً أو قريب
ليس يرضى الحب بالغدر ولم ◈ يهو قلبي غيركم قط حبيب
حالكم والحال مني واحد ◈ وعليكم سادتي مني قريب

وقد كنا عودناه طعاما فحصل ما أوجب قطعة عنه فتكتب لي في ذلك مداعباً فرضتم
عليكم للمتيم سنة ◈ تؤدونها بعد الفراغ من الفجر
طلبتم بها خير ولا رمت فعلها ◈ وأحسنتم والحسن من شيم الحر
وبعد فترتم والفتور مخالف ◈ طباع كريم خصه الله بالأجر
رزقتم منا كم لم ترمون قطعه ◈ ونظمي له لا شك احسن في الشعر
'فأجبته بقولي' سلامٌ عليكم دائم متتابع ◈ له نفخه من دونها المسك والعطر
وبعد لعذر قد قطعنا عوائدا ◈ تعودتها يا أيها الماجد الحر
وإلا فإثبات الرغائب شرعنا ◈ نرى تركها ذنباً له يطلب الغفر
ولو أنني قاسمتكم كل ما لنا ◈ كما قاله الأنصار والفاضل الحبر
لما جئت في معشار عشر حقوقكم ◈ ولا كان ذا شيء يوءدى به شكر
ومن ذلك ما كتبته إليه استدعاء للأكل عندما يئسنا منه الصحة فانه لما مرض ترك الأكل وكنت أواكله فيما نصنع له من الطعام الذي نعده بأنفسنا كرامة وإيناساً اما آن
للخل المريض بان يبرا ◈ فان صحيح الجسم منه شكى الضرا
توالت عليه جوعة بعد جوعة ◈ أخوكم لها قد صار كالقلم المبرا
به وكل الجوع المضعف للقوى ◈ فلله ما انكأه فينا وما أجرى
إذا نمت أمسى لي ضجيعاً ملازماً ◈ وان قمت أضحى كالغريم بنا مغرا
وقد عشت أياماً بظل جنابكم ◈ فلله عيش ما ألذ وما أمرا
إلى ان دهانا يوماً بحده ◈ بعادات بين ما أحد وما افرا
ففرقنا جمعاً وكدر صفونا ◈ وجوعنا جوع فقدنا له الصبرا
فان شئت فلتبرأ لعلك مدركي ◈ والا فان الجوع قد هيأ القبرا
بهذا أشار الناصحون لعلكم ◈ ترقون أو تأتي لنا منكم البشرى
فأجابني بقوله خليلي لا تجزع انه ◈ إلى كل معتل هو الغاية الكبرى
لأنك مصدوع وان بت آكلا ◈ يثير صدعاً ذلك الا كل والصفرا
وعبدك ان يشفيه مولاه في غد ◈ سيأكل أكل الفيل فاهنأ بها بشرى
ليقضي الذي قد فات إذ كان واجباً ◈ وفي الشرع لقضى كل فائتة قسرا
ومن ذلك ما كتبه إلي أيا أهل فن الطب بالله خبروا ◈ أيوجد للصب النحيل دواء
نهكت سقاماً لم أجد لي شافيا ◈ وقلبي من غير الخليل هواء
كلفت بها وهي الفريدة والتي ◈ تجمع فيها الحسن وهي ضياء
ولا عيب فيها غير فرك دلالها ◈ وفي القلب منها التباعد داءُ
أريد وصالاً وهي لقصد ضده ◈ أيمكن للضدين ثم لقاءُ
واسأل من ربي اللقاء فانه ◈ قدير ولي في ذي الجلال رجاءُ
فأجبته سالت رجال الحب اخبر كلهم ◈ وهم أهل تجريب وأهل ذكاء
بان سقيم الحب هيهات ما له ◈ دواء إذا ما الحب اصبح ناء
عسى ولعل الله ان يبرد الأسى ◈ فان رجاء الوصل بعض دواء
ولو لم يكن للعاشقين لقرب ◈ لوقت وصال ما بقوا لمساء
وان دام هجر الحب أو زاد بينه ◈ فذلك داء لم يزل بشفاء

وفيمن مضوا في شرعة الحب والهوى ◈ له أسوة فليصبرن لبلاء

كتب هذا خادم المجاهدين عبد القادر بم محيي الدين كان الله له ولأحبته في الدنيا ويوم الدين معتذراً لمحبه ومتنصلاً من ذنبه عمداً كان أو غلطاً آتياً أو فرطاً هذا واني اعترف باني ما أعطيت لأخي المذكور حقه ولا وفيت له مستحقه إذ ليس عندي لاخوتي من الحقوق مع الأخ المذكور الا ما للإناث مع الذكور فانه لازمتني أيام نفور الحميم والقريب ولآنستي حين لا انيس لي من الجنس أو غريب وتجشم شقة دونها اكبر مشقة في مكان لا يقتحمه الأسد الهصور بل تنقطع دونه أجنحة النسور وكنا قبل وروده علينا نناغي الحائم ونسامر الفرقدين والحمائم وان كنت الحمائم إذا صدحت لا تفهمنا وتجبيبنا بالشجى فتدفعنا كما قيل : رب ورقاء هتوف في الضحى ◈ ذات شجو صدعت في فلن

ذكرت الفاً وعهداً في الحمى ◈ فبكت حزناً فهاجت حزني

فبكائي ربما ارقها ◈ وبكاها ربما ارقني

ولقد أشكو فما افهما ◈ ولقد تشكو فما تفهمني

غير أني بالجوى اعرفها ◈ وهي أيضاً بالجو تعرفني

ويرحم الله أبا فراس الحمداني أحد الأدباء الشجعان وكان أسره الروم مرتين حيث قال : أقول وقد ناحت بجنبي حمتمة ◈ أيا جارنا هل تشعرين بحالي

معاذ النوى ما ذقت طارقة النوى ◈ وى خطرت منك الهموم ببالي

أيا جارتنا ما انصف الدهر بيننا ◈ تعالي أقاسمك الهموم تعالي

تعالي لدي ضعيفة ◈ تردد في جسم يعذب بالى

أيضحك مأسور وتبكي طليقة ◈ ويسكن محزون ويندب سالي

لقد كانت أولى منك بالدمع مقلتي ◈ ولكن دمعي في الحوادث غالي

قال المحقق كان بنو حمدان ملوكاً وجوههم للصباحة وألسنتهم للفصاحة وأيديهم للسماخة وأبو فراس وأحدهم بلاغة وبراعة وفروسيه وشجاعة حتى قال الصاحب بن عباد بدا الشعر بملك وختم بملك يعني امرأ القيس وأبا فراس وقد أدركته حرفة الأدب وأصابته عين الكمال فأسرته الروم في بعض وقائعها فازدادت روميته رقة ولطافة فمنها ما قال وقد سمع حمامة قريبة منه تنوح وهي على شجرة عالية أقول وقد ناحت الأبيات وهو القائل أيضاً : أسرت وما قومي بعزل لدى الوغى ◈ ولا فرسي مهر ولا ربه غمر

واكن إذا حم القضاء على امرئ ◈ فليس له بر يقيه ولا بحر

انتهى وقد رأيت للسيد محمد الشاذلي المذكور بعض أبيات فمنها ما عزى به الأمير في موت إحدى سراريه وولدها وهو قوله خليلي ان تجزع فحق لك الجزع ◈ بسرد مصيبات لها صدرنا انصدع

خليلكم ماتت كذا النجل بعدها ◈ وسجن بأرض الكفر كل لكم قرع

مصائب جلت بعضها يذهب النهى ◈ ويفقد معه الصبر كيف بها جمع

ولكن قضاء الله يلزمهُ الرضى ◈ وحيلته صبر يدوم بلا جزع

وان جل خطب المرء فالله مفزع ◈ فما خاب ذو خطب إلى ربه فزع

أعزيكم والصبر فيكم جبلة ◈ رزقتم عظيم الأجر والفوز بالورع

وقال مدعياً الأمير حيث لم يحضر للعشاء معه لأمر أوجب التخلف عنه تعشيتم من غير رعي لحاجتي ◈ وما ذاك الا حيث لم تك لي عرس

ولو حضرت عرسي لما بت طاوياً ◈ وتصنع لي والله ما تشتهي النفس
سألت الهي ان يساوي بيننا ◈ ويجمعنا حيث المسرة والأنس

وقال وقد اكثر يوماً من أكل صفار البيض مع الأمير فاثر فيه يقظه ومنامه : أيا معشر

الغراب أصغوا لناصح ◈ شفوقٍ عليكم الأمور بحربُ
وإياكم أكل الصفار فأنه ◈ يهيج طبعاً للنفوس معذب
يحرك عضوا لا يطاق دفاعه ◈ إذا لم يكن صبر وذاك مجرب

والشيخ الشاذلي المتقدم ذكره هو العالم الفاضل الشيخ محمد بن إبراهيم ابن احمد الصوى النسب كان أجداده يسكنون طولقه من أعمال الزاب في ولاية قسنطينه فارتحل جده إلى قسنطينه وسكنها ولد سنة اثنتين وعشرين ومائتين واشتغل في تحصيل العلوم على مشايخ أفاضل اجلأ وتوفى رحمه الله في سنة أربع وتسعين ومائتين ودفن في تربة أسلافه وفي التاسع والعشرين من صفر سنة خمس وستين ومائتين والرابع والعشرين من ديسمبر سنة ثمان وأربعين وثمانمائة انعقد مجلس خصوصي للنظر في أمر الأمير وكان رئيس هذا المجلس البرنس لويس نابليون الثالث رئيس الجمهورية والمارشال بيجو وشانكرني من أعضاء المجلس فتكلموا في قضية الأمير واختلف الآراء واظهر البرنس نابليون ميله إلى صحة العهد ووجوب الوفاء به فأيده المارشال بيجو في جماعة من الأعيان وخالفه الباقون وكانوا اكثر عدداً فلم يسع الرئيس إلا السكوت ثم استحسن بعضهم ان تكتب الحكومة إلى الأمير في تغيير شروطه التي اشترطها على الجنرال لامورسير وقبلها ثم أيدها حاكم الجزائر الدوك دومال ووافق عليها والده فاستحسنوا ذلك وأمر المارشال بيجو بان يتولى هذا الأمر فكتب ما ملخصه 'إلى' الأمير عبد القادر كان مرادي التوجه إلى حضرتك لأفاوضك في أمرك الذي أنت فيه ولكن منعني اضطراب الأحوال وحيث ان كتاب قد يقوم مقام كاتبه فيما يرومه فأني أقول انك قد قاسيت أهوالاً عظيمة وبسببك احتملت بلاد الجزائر مصائب جمة ولحق فرنسا منها أوفر نصيب ومن حين ألقيت بنفسك وبمن معك إلى العساكر الفرنساوية وصرتم في قبضتها حدث في فرنسا اضطراب لم ينقل في التاريخ مثله فلا شك أن بلادنا وبلادنا استحقتا هذا القصاص لأمر ما فان الله حكم عدل ولا أحد يدرك ما يريد فالملك الذي سقط في الأيام الماضية كان وعدني وعداً وثيقاً بإطلاق سراحك وإرسالك إلى مكة ثم جاءت الحكومة التي قامت عليه وخلفته فنظرت في أمرك وجنحت إلى ما جنح إليه الملك ولكن اجبرها الصوت العمومي على ترك ذلك والآن أخبرك أخبار صاحب حقيقي لك انه ربما تمضي سنون عديدة ولا يتيسر لك التوجه إلى المواضع التي طلبتها وان سليت نفسك بالأماني الباطلة فان ذاتك تصير في اشد الكدر وبناءً على ذلك أشير عليك أن تكون على حسب الحال التي أبرزتها حوادث الدهر على وفق الإرادة الإلهية وذلك بان توطن نفسك على جعل فرنسا وطناً لك فتطلب من الحكومة أن تعطيك أملاكاً جيدة في أرضا ينتج لك منها ما تعيش به كواحد من كبرائها مع مداومتك على أداء وظائفك الدينية كما تريد وبلوغ مرادك من تربية أولادك حيث اني اعلم ان أمر المعاش لا يهمك وإنما يهمك مستقبل أولادك مع حقوق الجماعة الذين هم في معيتك بكل سرور لان حراثة الأرض ألذ شيء عندهم ويمكنهم ان يتنزهوا ويتسلوا بالصيد متى شاوءا فيكون لهم من روءية أشغالهم كل يوم فرح جديد والحق تعالى لم يخلق شيئاً اعظم تسلية للنفس من منظر الأشجار والنباتات الغريبة الكون الحسنة اللون فهذا ما أشير به بحسب حقوق الإنسانية بالخصوص عليك لما ألم بك من المصائب مع اتصافك بالصفات الحسنة التي وهبها الله لك راجياً قبول تحياتي المقدمة مع

الإكرام والاحترام في الخامس من ربيع الأول وأربعين سنة خمس وستين ومائتين والثامن والعشرين من كانون الثاني سنة تسع وثمانمائة 'فأجابه' الأمير بقوله لو جمعت فرنسا سائر أموالها ثم خيرتني بين أخذها وأكون عبداً وبين ان أكون حراً فقيراً معدماً لاخترت ان أكون حراً فقيراً فلا تراجعوني بمثل ذلك الخطاب فانه ليس عندي بعد هذا الخطاب جواب والى الله ترجع الأمور وبيده كشف هذا الديجور 'قال' بعض مورخيهم ومن عجيب أمر هذا الأمير العظيم ان هذا الخطاب المرعب الموءذن لسمامعه باليأس مما ينتظره من الفرج لم يؤثر فيه ولم يصرفه عما هو عليه يعني من الاشتغال بالعلم ومطالعة فنونه وإفادة طالبيه والإدمان على أداء الصلوات المفروضة في أوقاتها والعكوف على تليف الرسائل وتوضيح المسائل ومما ألفه في مدة إقامته بامبواز رسالة سماها 'المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد' ولما كانت هذه الرسالة عظيمة الفائدة رغبت ان اثبت ما ذكره قدس الله سره من سبب وضعها ومجمل أبوابها واذكر من الباب الثالث جملة كافية لاشتمالها على المقصود منها ليكون المطالع على يقين في الدين قال رضي الله عنه الخطبة أما بعد فاني في أيام إقامتي في امبواز عند الدولة الفرنساوية الفخيمة تكلم أحد روءساء الدين المسيحي في الإسلام وقال ان الغدر وعدم الوفاء فيه غير قبيح ولا منهي عنه فسمعه بعض من له محبة ورغبة في إظهار الحق فجاء الي وألح في الطلب على ان أضع في هذا الأمر رسالة لتضمن بيان ما في شرع الإسلام مما يكذب قوله وينبذ سخفه فاعتذرت إليه بالحال التي نحن فيها ثم عاد الطلب وشدد فيه وذلك حين أفضت رئاسة الجمهورية إلى فرع شجرة عظماء ملوكهم البرنس لويس نابليون بونابرت فأجبته معترفاً باني لا اصلح ان أكون تلميذاً لعلماء الإسلام فضلاً ان أكون من جملتهم ولما كان المقصود من هذه الرسالة بيان حكم شرع الإسلام في الغدر والوفاء وذلك مستلزم لذكر كلام المشرع وكلام الله تعالى المنزل عليه وكلام التابعين له حقيقة لزمني ضرورة لتقديم كلام في إثبات الألوهية ثم فن إثبات النبوة والرسالة لان هذه الأمور مرتب بعضها على بعض فهي كالأساس لما نذكره وقد رتبت هذه الرسالة على مقدمة وثلاثة أبواب المقدمة في الكلام على العقل في النظر في خلق الأرض وما يتولد منها والثاني في النظر في خلق السماوات وما فيها من بديع الحكم الثالث في النظر في خلق الإنسان الذي هو المقصود بالإيجاد وكل شيء خلق لأجله الباب الثاني في إثبات النبوة مع الرسالة وفيه فصلان الأول في إثبات الرسالة على الإطلاق والعموم الثاني في ثبات رسالة مشرع دين الإسلام على الخصوص الباب الثالث في موضوع الرسالة وهو بيان ما ورد في الشرع من وجوب الوفاء والأمر به وترك الغدر والنهي عنه وما يتعلق بذلك كالصدق والكذب وترتيب هذه الرسالة وضعاً هو بحسب الترتيب عقلاً لان إثبات الألوهية مرتب على وجود العقل واثبات النبوة والرسالة مرتب على إثبات الألوهية وبيان ما يحمد وما يذم من الأقوال والأفعال والصفات مرتب على إثبات النبوة والرسالة وسميتها 'بالمقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد' ثم أخذ في التقرير مسائل المقدمة والأبواب والفصول واتى في ذلك بفوائد لم يسبق إليها وفوائد لم يتقدمه أحد إلى الغوص عليها وبسط الكلام في الباب الثالث وقال فيه رضي الله عنه اعلم ان شريعة محمد عليه الصلاة والسلام مشتملة على محاسن الأخلاق ومحامد الآداب وكل ما يكون به الوفاق والائتلاف والاتفاق الخلوص بين العباد وتصلح به المعيشة الدنيوية وتعمر به البلاد سواء في ذلك أهلها أو غيرها فدين الإسلام يحتوي على كل شيء مستحسن لم ينكر منه عدو ذو عقل سليم شيئاً بل كل جاحد له وكافر به إذا سمع ما يدعو إليه صوبه واستحسنه

دون طلب برهان عليه لوضوحه .فهو دين جامع لكل ما تفرق في الأديان والشرائع السالفة كما قال المسيح عليه السلام ما جئت لا بطل التوراة ولكن جئت لأكمله فكذلك محمد عليه السلام ما جاء ليبطل التوراة والإنجيل ولكن جاء ليكملهما فالتوراة جاء بالقصاص النفس بالنفس والإنجيل جاء بالعفو 'إذا لطمك أخوك على خدك الأيسر ضع له خدك الأيمن' والقرآن جاء بالقصاص في قوله كتب عليكم القصاص في القتلى الآية وبالعفو في قوله فمن عفا واصلح فاجره على الله إلى غير ذلك مما يطول تبعه والى هذا أشار صلى الله عليه وسلم بقوله 'إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق' تعريفاً بان الأنبياء قبله بعثوا بمكارم الأخلاق وبقيت عليهم بقية فبعث بما كان معهم وبتمامها قاله الحكيم الترمذي فما من خلق حسن ولا صفة حسنة سواء يدرك العقل حسنها أولاً مما يحصل به طيب الحياة الدنيا الاجاء الشرع بمدحها والأمر بها والوعد عليها بالجنة وما من صفة ذميمة أو خصلة لئيمة مما يحصل به التنافر بين العباد الا جاء الشرع بذمها والنهي عنها والتواعد عليها بالنار وبيان ذلك في مثل الصدق والوفاء والإحسان والإيثار والاقتصاد في الأمور والاشتغال بعيب النفس عن عيوب الناس والإنصاف من نفسك وإنفاق المال لصيانة العرض والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح ذات البين وإماطة الأذى عن الناس والاستشارة والأدب والاحترام والإجلال لأفاضل الناس وإدخال السرور على الناس والإرشاد لهم بالتعليم والتربية وإفشاء السلام وإكرام الجار وإجابة السائل والإعطاء قبل السؤال واستكثار قليل الخير من الغير واحتقاره من نفسك وبذل الجاه وبذل البشاشة والبشر في وجوه الناس والتواضع والتعاون على الخير والتأني والتودد وتنزيل الناس منازلهم والصبر والتغافل عن زلل الناس وتحمل الأذى وترك الأذى وترك الكبر وتجنب العجب وترك معاداة الرجال والجدال والتكلف وتجنب مواضع التهم وتجنب الظلم إلى غير ذلك كالثبات في الأمور وجلب المصالح للعباد ودفع المفاسد عنهم والحلم والحياء وحفظ الأمانة والعهد وحماية العرض والصمت عما لا يعني والتعقل في المقال والتأمل فيه وحسن الظن وطيب المعاشرة وطلب المعيشة ورحمة الضعفاء والصغار والرضا بالدون من المجالس والرقة وخدمة الضيف والأصحاب والفقراء والرفق في المعيشة والرأفة والزهد في الدنيا والسخاء والسماحة والصفح عن المذنب والصدقة وصلة الرحم وطهارة الباطن والعفة والعدل والعفو وعلو الهمة والقيام بحق الحق تعالى والخلق وقبول الحق وقول الحق وقضاء حوائج الناس وكظم الغيظ والمداراة والمخاطبة بلين الكلام والمعاشرة بالمعروف ومعرفة الحق لأهله ولمن عرفه لك والمكافأة وهضم النفس وترك الحقد والحسد وحب المال وتجنب العداوة والبغضاء وترك التذلل للأغنياء وترك الشح والبخل وتجنب الغل والكذب والغدر والغش والإيذاء وتجنب الظلم والجفاء والجور والطيش وترك العجلة والبغي وتجنب الحدة وجحد الحق وإنكاره وترك إثارة الفتن وتجنب ضيق الصدر وترك سوء الظن وتجنب قلة الرحمة وقلة الحياء وتجنب الحرص الحمق وترك حب الرياسة وتجنب كفران النعمة وترك طلب العلو على الناس وترك الطمع وتجنب الجهل وترك المكر والخيانة والمخادعة وغير ذلك .فان الأخلاق المحمودة والمذمومة غير محصورة فيما ذكرناه 'واعلم' أن التحلي بالصفات المحمودة والتخلي عن الصفات المذمومة هو المسمى بحسن الخلق وهو الذي عناه الرسول صلي لله عليه وسلم بقوله البر حسن الخلق رواه البخاري ومعناه الفعل المرضي الذي هو جامع لخيري الدنيا والآخرة'ثم أخذ' في تعريف الخلق وتقيمه وذكر ان أمهات محاسن الأخلاق أربعة وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدل وبين فروعها وثمراتها وقال بعد أن أنهى الكلام فيها وفيما يتعلق بها ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأخلاق المحمودة ألا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة

والسلام وأكملهم مشرع دين الإسلام وهو نبينا ولهذا قال إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق وقد شهد له القرآن بذلك قال الله تعالى مخاطباً له وانك لعلى خلق عظيم والناس متفاوتون في القرب والبعد منه فكل من قرب منه في هذه الأخلاق الحميدة فهو قريب من الله بقدر قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المسام حقيقية وكل من فقدت منه هذه الأوصاف فهو بعيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بمسلم حقيقية فكيف يظن ظان أو يتوهم متوهم فيمن خلقه الله مطبوعاً على كل خلق تستحسنه العقول السليمة أن يكون فيما شرعه نقص تنكره العقول الكاملة ولا تسلمه الآراء الفاضلة فهو رحمة أرسلها العباد ولذا قال عليه الصلاة والسلام إنما أنا رحمة مهداة إلى الخلق وقال تعالى يخاطبه وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين فهو رحمة لمن دخل في دينه ولمن لم يدخل فيه فان قلت هذا ينافي ما في شرع الإسلام من الجهاد والقتال فانه ليس بحسن في وصفه ولا رحمة ظاهرة فيه لأنه تعذيب عباد الله وتخريب بلاده وليس ذلك بحسن قلنا إنما صار حسناً بواسطة دفع الضرر عن الإسلام وقطع إذابة المحاربين لان الله تعالى قضى بإرادته وما سبق في عمله ان تكون أمة الإسلام تكثر الأمم المخالفة لها حتى تكون نسبة كل أمة إليها نسبة الجزء إلى الكل والعقل حاكم من غير تردد بان رعاية الأكثر مقدمة على رعاية الأقل وبان حرمة الواحد ليست كحرمة الجماهة فالنفوس الهالكة بالقتال لقتلها ساقطة من الاعتبار فكأنها بالنسبة إلى النفوس الناجية شر قليل واقع بجنب خير كثير ولا يليق بالصانع الحكيم ترك خير كثير لشر قليل واستمر رضي الله عنه ينسج على هذا المنوال إلى أن قال فماذا يقول القائل في شرع الإسلام الذي أحكامه كلها جارية على ما يستحسنه كل عاقل ويستصوبه كل فاضل كامل ويتعالى ويتنزه مشرعه الذي جمع الله فيه صفات الكمال ان يكون في شرعه نقص كالغدر والكذب والخيانة والخديعة هذا من المحال قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) والعقود هي العهود الموثقة فهذا أمر منه تعالى لعباده بالوفاء فيما يعقدون وقال تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين في الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) 'قال' البيضاوي البر كل فعل مرضي والآية كما ترى جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها دالة عليها تصريحاً أو ضمناً فإنها بكثرتها وتشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة وتهذيب النفس ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظراً إلى إيمانه واعتقاده وبالقوى اعتباراً لمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق تعالى واليه اشار عليه الصلاة والسلام بقوله من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان وقال تعالى (أن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون) أي لا يخافون سيئة الغدر ولا يبالون بما فيه من العار والنار وقال تعالى (وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) وقال تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلية) أي لا تكافئ السفهاء بمثل قولهم أو فعلهم بل احلم عليهم وقال تعالى (وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم سواء أن الله لا يحب الخائنين) أمر الله نبيه إذا عاهد قوماً من العدو وظهرت منهم علامة نقض العهد أن يطرح لهم العهد ويخبرهم إخباراً بيناً واضحاً انه نقض العهد الذي بينه وبينهم ولا يعاجلهم بالحرب وهم على توهم بقاء العهد حتى يعلمهم ويأخذوا حذرهم ويستعدوا ومن لم يفعل هذا يكون خائناً في العهد والله لا يحب الخائنين في العهود وقال تعالى

(براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة اشهر) كان عليه السلام قد عاهد الكفار والمشركين إلى آجال معدودة فمنهم من وفى فأمره إلى الله أن يتم له عهده ومنهم من نقض أو قارب النقض فجعل له أربعة اشهر يسير فيها آمنا حيث شاء وبعدها لا يكون له عهد وقال تعالى (إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم أن الله يحب المتقين) فقوله ان الله يحب المتقين تعليل وتنبيه على أن إتمام العهد من باب التقوى وقال تعالى (إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) الآية وقال (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) وقال (وأوفوا بالعهد أن العهد كان مسئولاً) ولم يزل على هذا الأسلوب يسرد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الفقهاء وحكم الحكمت يؤسس المباني ويوضح المعاني إلى أن ختم الرسالة بما جلبت عليه الأمة العربية من مكارم الأخلاق وذكر ما لها في المدح الوفاء والصدق وذم الغدر والكذب ثم قال وباقي الأمم وان كانت تفي بالعهد وتستقبح الغدر والكذب فالأمة العربية اكثر واشد من جميع الأمم في ذلك فانهم في جاهليتهم كانت لهم نفوس زكية وأخلاق مرضية وأفعال كريمة وهمم عظيمة وعقول راجحة وآراء ناجحة وشرف صميم وأنفة من كل خلق ذميم طبعوا على خصال الفضل والمروءة قبل أن تكون بينهم النبوة قال مؤلف الدر والعقيان الإمام الحافظ التونسي روى عن شبيب بن أبي شيبة قال كنا في مجلس اجتمع فيه كثير من الأشراف فورد علينا ابن المقفع وكان من أشراف الفرس وحكمائها وعلمائها وعقلائها فقال لنا من افضل الأمم فنظر بعضنا إلى بعض وقلنا لعله يميل إلى اصله فقلنا فارس فقال ليسوا هناك ملكوا كثيراً من الأرض وحووا عظيماً من الملك ولبثوا في ذلك دهراً فما استنموا بعقولهم شيئاً فقلنا الروم فقال أصحاب صنعة فقلنا الصين فقال أصحاب طرفة فقلنا الهند قال أصحاب فلسفة فقلنا السودان قال شر خلق الله فقلنا الخزر قال نعم سائمة فقلنا فمن قال العرب فضحكنا فقال ما أردت موافقتكم ولكن إذا فاتني حظي من النسب فلا يفوتني حظي من المعرفة والأدب وذكر المؤرخون الأقدمين ان يزجر بن سابور ذي الأكتاف لما ولد له ابنه بهرام جور اخبره منجموه عن مولده وسعادته وجده ومصير الملك إليه بعد ومحنة وانه ينشأ بين أمة نائية ذات همم عالية وحلوم زاكية ونفوس أبية يزدجر في خصائص الأمم ومزاياها فرأى أن العرب أولى الأمم بتلك الأخلاق التي وصفها له المنجمون ووقع اختياره عليهم فكتب إلى النعمان الأكبر ابن امرئ القيس فاستحضره مع جماعة وافرة من رؤساء العرب وساداتها فواصلهم وبرهم وسلم إليهم ابنه بهرام جور بكفالته فاسترضعوا له نسوة إلى أن كبر وكان من أمر ما يطول ذكره نقله مظفر الأندلسي في كتابه السلوانات وإذا كان طبعهم ما ذكر في زمن الجاهلية فكيف بعدها هذب طبعهم الوحي والآيات القرآنية ولذا تراهم في الجاهلية والإسلام اكثر مدحهم بالصدق والوفاء واشد ذمهم بالغدر والكذب ولهم أسجاع وأشعار تخرج عن حد الإحصاء 'فمنهم' انه قيل لبعضهم ما قيمة الصدق قال طول العمر في الدنيا قيل له فما قيمة الكذب قال موت عاجل وقيل لبعضهم ما افضل المرؤة قال رغبة الرجل في الوفاء بوعده وعهده وقال بعضهم من وفا بالعهد فاز بالحمد ومن عرف بالصديق قبل كذبه ومن عرف بالكذب لم يقبل صدقه وقال بعضهم أربعة من علامات اللؤم استعمال الغدر وإفشاء السر وإساءة الجوار وتجنب الأخيار وقال بعضهم من النفاش غش الصديق ونقض العهد والمواثيق وقال بعضهم علامة الإيمان حسن الخلق وحفظ العهود والمواثيق وعلامة النفاق نقض العهد وإخلاف الوعد وقال بعضهم لا سيف مثل الحق ولا عون مثل الصدق وقال بعضهم

فعل المرء يعرب هن اصله وقوله يعرب عن عقله وقال بعضهم صونوا المواعيد من الإخلاف والإيمان من حنث الأوغاد والأجلاف وقال معاوية يوماً لخالد السنوسي انك تحب علي بن أبي طالب حباً مفرطاً احبه والله لحلمه إذا غضب وعدله إذا حكم ووفائه إذا وعد وقال بعضهم لولده يا ولدي لا خير في قول الا بفعل ولا في مال الا بجود ولا في صدقة الا بوفاء ولا حياة الا بصحة وأمن وقال بعضهم من كذب ذهب جماله ومن ساء خلقه كثر همه وقال بعضهم اعظم الناس قدراً رجل واحد وهو من لا يبالي بالدنيا في يد من كانت وأجود الناس رجل واحد وهو من جاد عن قلة وأسوأ حالاً رجل واحد وهو الذي يثق بأحد لسوء ظنه ولا يثق به أحد لسوء فعله وقال بعضهم لازم الصدق جداً وهزلاً ولا ترض العبيد باسخاط المولى وقال بعضهم وجاهة العاقل في النفوس ومخالفة الفعل للقول تنكس الرؤوس وقال بعضهم وعد كريم نقد وتعجيل ووعد اللئيم وتعليل وقال بعضهم شر الناس من لا يعتقد أداء الأمانة ولا يجتنب الغدر والخيانة وقال بعضهم سعادة الإنسان في سلامة الصدر وصدق اللسان وقال بعضهم الفاضل بعجل بالوعد قولاً ويعقبه بالإنجاز فعلاً 'ثم قال' بعد أن اكثر من النقل في هذا المعنى وللعرب في المدح بالوفاء والذم بالغدر أشعار كثيرة منها قول امرئ القيس في المدح وتعرف فيه من أبيه شمائلاً ◈ ومن خاله ومن يزيد ومن حجر

سماحة ذا وبر ذا ووفاء ذا ◈ ونائل ذاك ذا صجاء وذا سكر

'وقول' ابن الزبعرى يمدح قوماً الخالطين فقيرهم بغيتهم ◈ حتى يكون فقيرهم كالكاف

والقائلين بكل وعد صادق ◈ والظاغين لرحلة الإيلاف

'وقول الحسن' السبط رضى الله عنه ولا أقول نعم يوماً فاتبعها ◈ خلفا ولو ذهبت بالمال والولد

وقول الآخر علت مكانته فقر مكانه ◈ فتأكد التنزيه والتفضيل

يكفيكم ما قد بدا من صدقه ◈ والصدق بالعز المكين كفيل

وقول ابن الخطيب وأحكمت عقد السلم لم تأل بعده ◈ وفاء فصح العقد واستوثق الربط

لقر لك الأملاك بالشيم العلا ◈ إذا بذل المعروف أو نصب القسط

وقول أبي القاسم ولا أنسى العهود ولو جفاني ◈ عليها أقاربي طراً وناسي

ولا ادري لنفسي من كمال ◈ سوى أني لعهدك غير ناسي

وقول الآخر ان الوفاء على الكريم فريضة ◈ واللؤم مقرون بذي الإخلاف

وترى الكريم لمن يعاشر منصفاً ◈ وترى اللئيم مجانب الإنصاف

وقول الحطيئة وقول إذا عقدوا عقداً لجارهم ◈ شدوا العتاج وشدوا فوقه الكربا

أولئك الأنف والأذناب غيرهم ◈ ومن يسامي بأنف الناقة الذنبا

وقول الآخر اعلم بان صداقة الأبرار ◈ أن تجعل الإعلان كالأسرار

أن اللسان هو الضمير فوعده ◈ ووعيده دين على الأحرار

وقول الآخر إذا قلت في شيء نعم فأتمه ◈ فان نعم دين على الحر واجب

وألا تقل لا تسترح وترح بها ◈ لئلا يقول الناس انك كاذب

وقول الآخر أناشدكم والحر أوفى بعهده ◈ ولن يعدم الإحسان والخير جازياً

خيالاً على المزار يلم بي ◈ فيذكرني من لم اكن عنه سالياً
وقول ابن الحباب ففضلك مشهور ووعدك ثابت ◈ وذكرك منشور وفعلك مرتضى
فكيف يحل المبطلون بإفكهم ◈ معاقد صدق أحكمتها يد القضا
وقول الآخر لا تقولن إذا ما لم ترد ◈ ان تتم الوعد في شيء نعم
فإذا قلتم نعم فاصبر لها ◈ بوفاء العهد أن الخلف ذم
وقول حسان بن ثابت هجوت محمداً فاجبني عنه ◈ وعند الله في ذاك الجزاء
هجوت محمداً براً تقيا ◈ رسول الله شيمته الوفاءُ
وقول لبيد وما حملت ناقة فوق رحلها ◈ ابر وأوفى ذمة من محمد
هذا أخر الرسالة ولولا خوف الإطالة والخروج عما اقتضته المناسبة لما نقلناه منها لأثبتناها كلها'ولما'طالت المدة وازداد الأمر شدة قال مستغيثاً بحضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ماذا على سادتنا أهل الوفا ◈ لو أرسلوا طيف الزيارة في خفا
يترصد الرقباء حتى يغفلوا ◈ ويكون مانع وصلنا ليلاً غفا
فإذا تمكنت الزيارة خفية ◈ يأتي مواعد وصلنا متلطفا
وتكون قبل لحلوله افرشته ◈ خدي وطاءً للنعال وللحفا
ويكون بيت نزوله قلبي الذي ◈ وحياتهم من حب غيرهم عفا
ضيف له نزل لدي كرامة ◈ كبد شواها البعد في جمر الجفا
يا سعد أن كنت البشير بوصله ◈ فلقد أتيت على المسرة والوفا
لو ان نفسي لي إليك بذلتها ◈ واراه بذل مقصر ما انصفا
وتكون يا سعد المساعد للذي ◈ من هجر من يهواه صار على شفا
لم يبق يوم البين والهجر الذي ◈ خلقا لتعذيب الأحبة مسعفا
الا صبابته وجسماً قد غدا ◈ ملقى كشن بالفلا لن يخصفا
زافرت قلبي جمر نار احجبت ◈ منها دموع العين فاضت ذرفا
هل من منام للديغ بمرةٍ ◈ فضلاً عن المرات أو هل من غفا
بمحاجر من حاجر اقذاء قد ◈ طردت ضيوف الطيف جاءت طوفا
مهما تالق برق سلع والحمى ◈ كادت تفيض النفس منه تاسفا
واراه سيفاً صارماً وسط الحشا ◈ فعل الأفاعي أو شهاباً ما انطفى
يحكي زفيري رعده ورياحه ◈ وبوبله حاكى دموعي الوكفا
وإذا جرى ذكر العقيق وأهله ◈ أجرى العقيق تأسفاً وتلهفا
يا أهل طيبة ما لكم لم ترحموا ◈ صباً غدا لنوالكم متكففا
لا تجمعوا بين الصدود وبعدكم ◈ حسبي الصدود عقوبة فلقد كفى
لم ادر شيئاً قبل معرفة الهوى ◈ حبي لكم ما كان قط تكلفا
ما بالهم يا صاح لم يتذكروا ◈ صباً كئيباً في المحبة مدنفا
ما قيل ذاك أسيرنا وقتيلنا ◈ بين العوادي والأعادي مثقفا
قلبي الأسير لديكم الجسم في ◈ اسر العداة معذباً ومكتفا
حاشاكم لجميل ظني فيكم ◈ ان تشتموا في العدو المرجفا

ولطالما لام العذول بحبكم ◈ وأطال عتبي ناصحاً ومعنفا
ولكم جنى كيما يصرف وجهتي ◈ عن وجه ودكم ولم يك مصرفا
ويود لو أني سلوت هواكم ◈ فيكون لي خلاً وفياً منصفا
قلب شجي كما علمتم انه ◈ لا ينثني عن حبكم متخوفا
يبغي الوصال ولو تمزق تالفا ◈ ويلذ بالتعذيب أن يك متلفا
يسري ولو ان الظلام عداته ◈ ويسير لو كان النهار المرهفا

'ولما'انتخب لويس نـابليون لرئاسـة الجمهوريـة وثبتت قدمـه فيها وجـه عنايته إلى الأمير بالتوسعة عليه والخروج للتنزه خارج البلدة فكان المير يخـرج كـل يـوم خميس في العربيـة محفوفـة بالعسـاكر الخياليـة وبقيـة جماعتـه يخرجـون مشـاة إلى الأمـاكن البهجـة اللطيفـة المنظـر وعين لأمـواتهم مـدفناً في طـرف البسـتان داخـل السـراية ودفن فيـه نحـو العشـرين نفسـا بين الـذكور وإنـاث فيهم للأمـير ابنـان وبنت وأم ولـد مولودة وأخرى سودانية وجعلوا على تلك المقبرة حاجزاً من حديـد وقـد زرتها سنة ثلاث وثمانين ومائتين ولم تزل محفوظة إلى الآن . ذكر

أخبـار لـويس الـبرنس لـويس نـابليون ومـا أجـراه من تسـريح الأمـير واستيلائه على عرش المملكة وتسميته إمبراطور فرنسا'

ولما تمكن البرنس لويس نابليون من زمام الأحكام وأحس من نفسه القوة والترقي إلى الملك انف من المساهمة واخذ يجدع أنوف الأحزاب وأهل العصبيات وباشر الأمور بنفسه فاستمال قلوب العامة والعسكر واستجلبهم إليه بلين الجانب وحسن السياسة وكان من جملة ما دبره في قضية الأمير ثم أبرزه للعيان تفريق جماعته ليسهل عليه الوصول إلى الوفاء العهد الذ جعله الملك فيليب ورؤساء الجمهورية في زوايا الإهمال فكتب إليه ان الإنسان إذا وقع في وحل يتعين عليه خلاصه منه ان يرفع رجلاً بعد أخرى وقد أرنا ان نطلق سراح من لهم أقارب في وطن الجزائر من جماعتك الذين هم معك في امبواز فان رجوعهم إلى وطنهم أولى لهم واريح لك من القيام بشؤونهم فأجابه الأمير إلى ذلك ولما جاء الأمر بسفرهم اخبرهم الأمير بذلك فصعب عليهم فراقه وبعد سفرهم بمدة أتى أمر في سفر اخوة الأمير واتباعهم فاخذوا إلى مدينة الجزائر ومنها إلى عنابه في تخوم بلاد الجزائر من جهة تونس ولما سافر اخوة من فرنسا وبقي فيها قال : الا ان قلبي يوم بنتم وسرتموا ◈ غدا حائماً خلف الظغون يسير
يقاسي مرار الموت من ألم الجوى ◈ فما لي الا انه وزفير

رحلتم ولو تدروا رحمتم فبينكم ◈ لخطبي يوم للبلاء عسير
وكنت ليوم البين أعددت عدة ◈ وفي الظن ما أعددته لكبير
فحان الذي أعددته لفراقكم ◈ وولت جيوش الصبر وهي غرور
فلو أنكم يوم الفراق أعرتم ◈ قلوبكم لي أنني لصبور

'وبعد' أيام كتب البرنس يعتذر إلى الأمير عن فصل اخوته عنه وقال إنما فعلت ذلك لاختبر أحوال الأمة الفرنساوية من جهتكم فان سكتوا ولم يتعرضوا بعد أيام قليلة أطلق سراحكم للمشرق ولما تبين لنا الآن رضاء بين البرنس والأمير بواسطة القبطان بواسني الموكل بأمور الأمير .
ذكر

زيارة البرنس نابليون الثالث للأمير عبد القادر في قصر امبواز

ولما سخت الفرصة للبرنس في إنجاز وعده اعتزام على الخروج من باريس يتفقد أحوال الولايات فلما مر بمدينة تور بعث إلى القبطان بواسني يخبره بمروره على امبواز ويأمره ان يتلقاه في موقف السكة الحديدية التي لقلة ويهيئوا له عجلات يتوجه فيها إلى القصر ليجتمع بالأمير فلما كان اليوم المعين يوم الثلاثاء ثالث المحرم سنة تسع وستين ومائتين والسادس عشر من 'أكتوبر' تشرين الأول سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة خرج البرنس من تور وفي معينه المارشال سنتارنو وزير الحرب والجنرال روغو والكرونيا فلوري ولما وصل لمحطة الحديدية نزل وسلم على الجمهور الذي ينتظره ومكث قليلاً ثم ركب متوجهاً إلى القصر ولما قرب منه نزل الأمير عند باب القصر فلما رآه البرنس نزل عن العجلة فتلقاه الأمير وسلم عليه ثم مشى البرنس ويده في يد الأمير إلى ان دخلا القصر ولما استقر بهما المجلس في المحل المعد للاستقبال اقبل البرنس على الأمير وسأله عن حاله وضيق صدره وحبسه بهذا المحل أربع سنوات ثم قال أنكم قد جلبتم دقة نظري واستلزمتم محبتي بما اشتهرتم به من الخصال الحميدة والبسالة

والشجاعة وجميع ما أبرزتموه من أنواع المدافعـة عن وطنكم ولا انظـر إليكم بنظـر أسـير بـل بضـيف محـترم فأجابـه الأمـير أنـني كنت اسـمع بمحاسن أخلاقكم وعلو جنابكم المعلومين عنـد الجميـع فتعشـقكم غيابـا وتولد في قلبي لكم محبة عظيمة وبهذا اليـوم قـد ازداد حـبي وتعظيمي لما أظهرتموه من اللطف والإحسان وانني مدة إقامتي بهـذا القصـر قـد رأيت من أهالي فرنسا الحرمة التي لا أنساها أبداً وكنت أعامل بمعاملـة ضيف لا بمعاملة أسير فقال البرنس انه كان في خلدي من مدة أنني لو أجد سبيلاً إلى خلاصك من يد من لم يكترثوا بوفاء العهد لـك مـا تـأخرت عن ذلك ثم ان الباري تعـالى وجـه الشـعب الفرنسـاوي إلي فاختـاروني رئيساً لحكومتهم ولأول قبضتي على زمام الأحكام صـممت مـا كـان في الخيال إلى العيان والآن صار وقته ثم اخرج ورقة من جيبه وناولها للأمير وقبـل هـذه ورقـة تسـريحك تعلن بوفـاء عهـد فرنسـا فأخـذها الأمـير مستبشراً بما سمعه منه ودعا له وأنـني عليـه ونص مـا في الورقـة عبـد القادر أنني أتيت لأعلن لك بحريتك وانك ستحمل بمن معك إلى عاصـمة سلطان تركيا وذلك بعد الفراغ من الترتيبات المقتضية لسفرك وسـتعين لك الحكومة الفرنساوية مرتباً يليق بمقامك واعلم أن سجنك قد كـدرني كدراً حقيقياً مدة طويلة وكنت احسب أن الحكومة السـابقة قـد قصـرت جداً حيث أنها لم تتمم ارتباطاتها معك وعندي ان عدم الثقة بأمة عظيمة من جهة نقض عهدها يحط قدرها وشانها وأخبرك بما اعتقـده فيـك وهـو انك لا تحرك ساكناً في الجزائر لعلمي ان ديانتك تـوجب عليـك الخضـوع والتسليم لأحكام القضاء والقدر فان استيلاء فرنسا على الجزائر ما وقع إلا بإرادة الله تعالى . واعلم ان دولة فرنسا بل الأمـة كلهـا لا تتخلى عن ذلك الاستيلاء وآخرها يموت قبل أن يسـلم فيـه وإذا كنت عـدوا لفرنسـا فلا يمنعني ذلك من أن اشكر أخلاقك الحميدة وشـجاعتك وصـبرك على الشدائد ولذلك افتخر بإطلاقك واثقاً ثقة تامة بقولك حـرر في السـادس

عشر من 'أكتوبر' تشرين الأول سنة اثنتين وخمسين وثمانمائــة ثم قــال البرنس للأمير انني بعد عشـرة أيـام أراك في بـاريس لتحضـر الاحتفـال المقرر أجراؤه ووجودكم بذلك الاحتفـال يكـون باعثـاً للافتخـار ثم هـيئت سفرة الغدا وكان الأكل جزائرياً وبعد الفراغ من الغدا قـام الـبرنس إلى المتنزه المطل على البلـد ونواحيهـا وعنـد جورجـه منـه قـدم لـه الأمـير والدته فقبل الـبرنس يـدها وسـألها الـدعاء ثم قـدم لـه أولاده وخليفتيـه والاتباع فحيوه تحية إعظام وإجلال واظهروا له السرور والحبور بما انعم على سيدهم وعليهم فقابلهم بالقبول والبشاشة واستمر ماشـياً والأمـير معه حتى وصلا إلى الموضع الـذي اسـتقبله فيـه عنـد بـاب القصـر قـال بعض المؤرخين ولهذا القصر آثار تاريخية وهو انه كان مقراً لكثـيرين من ملوك فرنسا وأول من اتخذه مقراً لويس الحادي عشر الذي اصـدر منـه أمر سن مشيل وشارل الثامن ولد وتوفي فيه وقلود دي فـرانس زوجـة فرانسوا الأول ولدت اكثر أولادها فيـه وازداد لـه لـويس نـابليون الثـالث شرفاً عظيماً حيث أعطى الحرية فيه للأمير عبد القادر . ذكر

توجـه الأمـير إلى بـاريس ولطـائف أخبـاره ومـا هبت بـه نسـيم رحلتـه المعطرة بنفحات آثاره

ولما مضت تسعة أيام من الموعد جاء الأمر بتوجه الأمير إلى باريس وشاع الخبر في فرنسا فهرع الناس إلى باريس من كل فج ليحضروا احتفال دخول الأمير إليها وفي اليوم الحادي عشر الذي جعل موعداً للسفر وهو الرابع عشر من المحرم سنة تسع وستين والسابع والعشرين من أكتوبر سنة اثنتين وخمسين توجه الأمير وبمعيته قره محمد السيد علال شقيق خليفته السيد قدور بن علال والقبطان بواسني الموكل باموره من امبواز وتبعد نحو أربع ساعات عن باريس بالسكة الحديدية وكان يوم وصوله يوماً مشهوداً بالاحتفال الذي أجرته دولة فرنسا لدخوله إلى عاصمتها قال بعض المؤرخين وصار للأمير احتفال عظيم يستحقه مقامه السامي واستقبلته الوزراء ورجال الحكومة وغصت أزقة باريس على اتساعها بجماهير الناس ولما شاهدوه استولى عليهم الطرب قال مسيو شارل اينار الفرنساوي في بعض كتاباته على تصرفات الجنرال لاموريسير مع الأمير وتقلبات الأحوال كيف جعلت الجنرال المذكور يمشي في طرقات باريس بدون ان يلتفت إليه أحد وان المغلوب يعني الأمير يدخلها الانتصار والأهالي جميعها تزدحم لمشاهدته واتفق ان صاحب ملعب باريس الكبير

كان عازماً على تشخيص يجريه تلك الليلة يحضره البرنس وسائر الوزراء ورجال الدولة فبعث وزير الحرب نائبه الكرونيل هنري إلى الأمير يخبره بذلك فاعتذر بالتعب من حركات سكة الحديد ولما اخبره بحضور البرنس إلى الملعب أجابه إلى ذلك وسار به الكرونيل إلى المحل المعد له فتدافع الناس إلى رؤيته واشتد أزدحامهم حتى سدوا عليه الطريق قال بعضهم ولما دخل الأمير إلى الملعب وجه كل من كان حاضراً فيه نظره إليه ولما بلغه حضور البرنس إلى غرفتيه في الملعب بعث إليه يستأذنه في الاجتماع به فأذن له ولما خرج متوجهاً إليه ذلك الجمع الوافر رافعين البرنيطات تحية له وتلقاه البرنس عند باب الغرفة ثم أجلسه إلى جانبه واخذ يسأله عن أحواله عائلته عموماً وعن والدته خصوصاً فكان الأمير يجيبه عن ذلك مع كمال التشكر وقال له ان الوالدة كانت في خامس عشر أكتوبر تمشي متكئة على العصا وفي السادس عشر منه صارت تمشي مستقلة من وما حصل لها من النشاط والقوة بعدها ولما انتهت الفرجة اقبل البرنس على الأمير وودعه واخبره انه سيتوجه في غد تلك الليلة إلى الصيد وبعد يومين يرجع ويجتمع به في قصر سانكلو وفي غياب البرنس جال الأمير في أنحاء باريس وساحاتها ورد زيارات الوزراء ورجال الدولة وفي اليوم الثالث رجع البرنس ودعا الأمير إلى القصر قال بالمار في تاريخه وكانت الدولة عينته لصحبة الأمير مدة إقامته في باريس بينما كنت جالساً في محل الاستقبال إذ خرج الأمير من حجرته وفي يده ورقة وقال بلغني ان الجرائد فرنسا ذكرت ان البرنس لما حضر إلى امبواز اشترط علي شروطاً وعلق تسريحي على قبولها وانه استحلفني على الوفاء بها واني قد قبلت تلك الشروط وحلفت له على الوجه الذي انر به مع ان هذا لم يقع بيني بين جلالته أصلاً غيراني لما كنت في امبواز قبل سفري هذا عزمت على ان اجدد عهدي الذي أعطيته للجنرال لاموريس وافعل ذلك باختياري من غير ان يأمرني ان اطلع عليها وقال ان عثرت فيها على شيء ينافي المقصود أبدله بما يوافقه ولما اطلعت عليها وجدتها مستوفية لما يريد ثم ترجمتها بالقلم الفرنساوي وخص عنايتها الحمد لله وحده أطال الله بقاء سيد وأعظمهم لويس نابليون الثالث واسعد أيامه وسدد أحكامه أنا المتكلم بين يديكم في هذا المجلس الموقر عبد القادر بن محيي الدين جئت إلى حضرتكم العلية لأجل تأدية شكري لكم وثنائي الجميل على إحسانكم إلي وامتنانكم علي على قدر طاقتي وإلا فلا اقدر أن أقابل صنعكم الجميل بشكر يوافيه ويكايفه ولو عشت الدهر كله ومما يدل على كمالكم وصدق حدسكم وصفاء طويتكم أنكم لما علمتم أنني لست ممن يقبض العهد ويحنث في يمينه وثقتم بي وأطلقتم سراحي ووفيتم لي بعهد حله من عقده ونقضه من أبرمه وغدر فيه من أوثقه واحكمه وفعلتم ذلك من غير أن توقفوا أمري على شيء وبناءً على ذلك فها أنا اقسم بين أيديكم في هذا المجلس الحافل بالله تعالى وصفاته اني لا افعل شيئاً يخالف ثقتكم بي ولا انقض سابق عهدي الذي أعطيته ولا ارجع إلى قطر الجزائر ولا أشوش على الفرنسيس فيها بفعل ولا قول فأني لما أقامني الله قمت ودافعت عن ديني ووطني على قدر ما أمكنني ولما أقعدني قعدت خاضعاً لأحكامه وتركت الملك وجئتكم وديني وشرفي يأمراني بوفاء العهد وصدق الوعد وهل يتصور عاقل فضلاً عن فاضل بعد ان نلت إحسانكم الذي لا ينسى وأنا عاجز عن مقابلته بالشكر والثناء ان أخونكم أو افعل شيئاً ينافي معروفكم كيف والمعروف رباط مغلق بأعناق أهل المرؤة هذا مع كوني قد شاهدت عظم فرنسا وقوة عساكرها وكثرة غنائها واتساع مملكتها فمن ذا الذي يخطر في باله من العقلاء ان يقاومها ويقاتلها هذا ليس بممكن لا لله الواحد القهار الذي قدمها وملكها الآفاق والأقطار وبعد هذا فاني أؤمل من كرمكم ان تجعلوني في عدد من تحبهم

وتنظر إليهم بعين الرأفة سواءٌ كنت بعيداً أو قريباً منكم فان الإنسان حيث قلبه لا حيث جسمه حرر في أواسط محرم سنة تسع وستين ومائتين وأواخر أكتوبر سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة'ثم' توجه الأمير في الوقت المعين إلى قصر سانكلو في خدمه وجماعة من الضباط الذين عينوا لخدمته وحراسته فوصل إليه قبل أن يحضر البرنس نابليون فاستقبله الجنرال دوماس وادخله إلى المحل الكبير فرأى فيه ساعة كبيرة تعرف بها الأوقات في سائر البلدان الشهيرة في الدنيا فسال الجنرال عن حلول الوقت العصر في مكة المشرفة انه قريب ولما حل الوقت اخبره فقام وصلى العصر وهذه أول صلاة إسلامية صليت فيه ثم اقبل البرنس محاطاً بوزرائه مع أهل بيته فدخل الأمير عليه في مجلسه فاستقبله البرنس ومن معه بالاحترام والبشاشة واخذ يلاطفه ويعرفه واحداً بعد آخر ثم اقبل الأمير على البرنس وتكلم معه بكلام أوضح فيه ملخص ما كتبه في الورقة المتقدم ذكرها وقال في آخر كلامه أن هؤلاء الوزراء الذين أراهم حولي قد وعدوا وعوداً لم ينجزوها وأنت تفضلت بما لم تعد به فشكراً لكرمك وطيب محتدك ثم ناوله الورقة وقال هذا صك كتبته باختياري على نفسي بخطي فانظره فان كان كافياً فذلك والا غيرته على الوجه الذي يوافق مرادكم فامذه البرنس ثم قال اعلم يا عبد القادر اني أحببتك لثلاث خصال أولاً دافعت عن دينك ووطنك ثانياً لما عجزت استسلمت للقدر وقد أحسنت بتسليمك لدولة عظيمة وان توف بعهدها فأنا قد وفيت به وأزلت عنها ذلك العار الذي ارتكبته ثالثاً انه لما كان محجوزاً عليك صبرت وتحملت واشكر الله حيث كان محجوزاً عليك وأنت بين عائلتك وحشمك واما أنا فكان محجوزاً علي في حجرة وحدي لا أرى الشمس الا ساعة من النهار ولذلك اثق بك كل الثقة فلا احتاج إلى هذا الصك الذي قدمته إلي باختيارك ومن المعلوم أني ما طلبت منك عهداً ولا يميناً ولا شرطت عليك شرطاً مت وحيث انك تبرعت بذلك من تلقاء نفسك فها أنا قد قبلته وسررت به ولا شك ان صنيعك هذا يبرهن للامة الفرنساوية باني ما أخطأت في حسن اعتقادي فيك وقوة ثقتي بك ولما انفض المجلس اطلع الأمير على دوائر القصر ثم مشوا به إلى الاصطبل فرأى فيه فرساً عربياً من جياد الخيل فجعل الأمير يكرر النظر فيه كالمستحسن له فقال له أعددت هذا الفرس لك لتركبه غدا لأني قد أمرت بعرض الجنود خارج باريس إكراماً لك واحتفالا بقدومك وفي غد تخرج معي إلى المعرض وتشاهد حركات الجنود فرسانا ومشاة فأجابه الأمير إلى ذلك مع إظهار التشكر ومن الغد قدم الفرس بسرج جزائري إلى الأمير فركبه وسار مع البرنس إلى الميدان فاهتزت باريس باهلها لذلك واجتمع الناس في ساحة الميدان لمشاهدة الأمير وهو راكب على الفرس العربي بهيئة جزائرية وشاهده الأمير من الجنود الفرنسوية وحركاتها العسكرية ما عجب منه واستحسن ولما حان وقت الظهر استأذن البرنس في أداء الصلاة في ذلك الموضع خشية فوات فأذن له ونزل الأمير وأدى صلاته بمرأى ذلك الجمع ثم ركب فرسه ولم يزل ملازماً لبرنس إلى ان رجع إلى محل ضيافته ثم أن البرنس أدب له مأدبة حافلة في قصر فرسالية حضرها سائر الوزراء فمن دونهم من أعيان الدولة قال بالمار في تاريخه ومنذ دخل الأمير إلى باريس صار ينتقل من مأدبة يدعى إليها ومنارة تعرض عليه فيجيب لها وصناعة غريبة يطلع عليها وكان يخاطب الناس على أحوالهم ومشاريعهم فقواد العسكر يذاكرهم في أمور الحرب وما يتعلق من الوقائع المشهورة والعلماء يباحثهم في المسائل العلمية والوزراء ومن شاكلها في الأمور السياسة وهكذا حتى بهر العقول وملأت محبته وهيبته الصدور وكان من الزائرين من يقصده لأداء التشكر على الجميل صنعه معه في أيام ملكة لا سيما الذين كانوا أسارى عنده وأباح لهم إحسانه وقد طلب بعضهم ان يكون في عدد خدمه واتباعه

أينما كان نظراً لما شاهده من كماله وناله من افضاله والحاصل ان ما رآه أهل باريس من محاسن الأمير ومكارمه وما رآه هو منهم من حسن المعاملة والمجاملة لا يصنعه لسان ولا يأتي عليه فلم ومر يوماً في بعض أسواق باريس والناس مصطفون عن اليمين والشمال يحيونه بتحيات التبجيل والتعظيم فقال له بعض الأعيان هؤلاء الناس الفرنسيس الذين كانوا بالأمس من اشد الأعداء لك تراهم يجلون مقامك ويتمنون طول حياتك ويتأسفون على ما تحملته من الصبر في بلادهم على الظلم الذي نالك من حكومتهم السابقة فانشرح لذلك صدر الأمير وحمد الله تعالى وشكر صنيع البرنس نابليون وفي أثناء إقامته توجه إلى رئيس أساقفة باريس وشكر له قيام الراهبات بخدمته وخدمة من معه في امبواز أربع سنين فارتاح الرئيس بحديث الأمير وقال أن هذا نراه من الواجبات الدينية والوظائف الإنسانية تم توجه إلى قبر نابليون الأول وعند الانصراف قال ان هذا الرئيس وان كان شخصه قد زال فان ذكره لا يزال ينتقل جيلا بعد جيل ثم تزجه إلى المارستان وعند دخوله إليه رآه رجل مسن من المرضى فتكلف القيام له فلما رآه الأمير على تك الحال تقدم إليه شفقة عليه فاخذ الرجل يده وصافحه ثم شكره ودعا له وكان هذا الرجل من الجند الذين حاربوا الأمير ووقعوا في أسره وغذوا بإحسانه وبره ثم توجه إلى معمل المدفع وأنواع السلاح ومن الغد توجه إلى المطبعة الكبرى وكان البرنس بعث الصك الذي دفعه الأمير إليه إلى رئيسها ليطبعه فلما جاء الأمير أراد الرئيس أن يظهر مهارته في شيًء يعد غريباً بين يدي الأمير فرسم الصك في مطبعة خط اليد فانطبع وارتسم على هيئته الأصلية وكتب على بمطبعة حرير ابيض ما صورته الحمد لله وحده الشريف المعظم والأمير المفخم الحاج عبد القادر أطال الله أيامه وسر حياته شرف بزيارته المباركة دار الطباعة الأميرية الفرنساوية في سنة 1852 المطابقة 1269 فتعجب الأمير لذلك ثم اطلع على جميع أعمال المطبعة وأشغالها وعند الانصراف منها سأله بعض الأعيان عما رآه فقال بالأمس رأيت صناعة المدافع التي تهدم بها الحصون والقلاع وفي هذا اليوم رأيت الحروف التي تغلب بها أسرة الملوك وتخرب دولهم وهم لا يشعرون وبعد انتهاء المدة المعينة لإقامته في باريس استأذن في الرجوع إلى امبواز ليتهيأ للسفر إلى بروسه فأذن له البرنس ثم دعاه إلى الحضور عنده وعند الدخول عليه تلقاه ببشاشة وطلاقة وجه واحسن السؤال عن أحواله في باريس وعما رآه فيها من احتفال أهلها به وإكرامها إياه تم قال له أن دولة فرنسا ستعين لك مرتباً من الدراهم شهرياً يكفي لنفقاتك ويغنيك عن التناول من خزينة غيرها وقد كنت أمرت أن يهيأ لك سيف يليق بمقامك والآن تبين انه لا يتم المل فيه قبل سفرك إلى تركيا بناء عليه سيصلك في بروسه لى يد السفير في الأستانة واعلم أنني اقدم لك هذا السيف وأنا على يقين بأنك لا نجرده على فرنسا فأجابه الأمير أنني الآن ممن يستعمل القلم لا ممن يستعمل السيف فتبسم البرنس وقال حيث انك سلمت سيفك إلى قائد جيش فرنسا أحببت أن تخرج من بلادها بسيف عوضاً عن سيفك قال بالمار وهذه الهدية كانت عنواناً على ما في صدر المودة للأمير فلذلك تلقاها الأمير بالقبول ونصل هذا السيف قديم وقد رسم عليه من الإمبراطور نابليون الثالث إلى الأمير عبد القادر بن محيي الدين في شهر دسمبر سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة وألف ثم ان الأمير ودع البرنس وسافر إلى امبواز وفي أثناء إقامته في باريس كان الأديب الشاعر احمد أفندي فارس الشدياق مقيماً فيها فامتدح الأمير بقوله : ما دام شخصك غائباً عن

ناظري ◈ ليس السرور بخاطر في خاطري .

يا من على قرب المزار وبعده ◈ حبي له والشوق ماوءُ ضمائري .

ان كنت لي يوماً فديتك وافياً ◈ ما ضرني ان كان غيرك غادري

فإذا رضبت فكل سخط هين ◈ وإذا وصلت فلم ابال بهاجري
وإذا بقربك كنت يوماً نافعي ◈ لم اخش شيئاً بعد ذلك ضائري
يا فاتني بدلاله وثماله ◈ وكماله وجماله ذا الزهر
سلبت مهجتي فارددهما ◈ لا جيد مدح شمائل لك باهر
وليعلم العذال اني صادق ◈ في وصف حسن علاك وصفة شاعر
يا محرقي شوقاً بفاتر جفنه ◈ أرأيت قبلي محرقاً بالفاتر
يا بدر تم راع قلبي حبه ◈ يا شمس حسن قد تملك سائري
يا ظبي انس شاق عيني شكله ◈ لكن له طبع الغزال النافر
هلا رثيت لحالتي ورفقت بي ◈ ووعدتني عدة ولو في الظاهر
كلم الحشا مني وعيدك قسوة ◈ قبل الفراق بان تكون معاشري
لم كنت تدري ما لقيت من النوى ◈ لرحمتني وودت انك زائري

مذ غبت عنك ارتدعن طرفي الكر _ من بعد ما هدئ ارتداد الكافر

واهتاج وجدي واستثيرت لوعتي ◈ وبدا بحبك ما تكن سرائري
وأني وحق هواك مطلبي ◈ وسنا محياك الصبيح الناضر
من يوم لحت لناظري ما راقني ◈ شيء ولم يملا جمالاً ناظري
ما كان حسن سواك يوماً شائقى ◈ كلا ولا لغيرك ساحري
أهوى لأجلك من حكاك بشكله ◈ لا شكله إذ ذاك دون النادر
كيف اصطباري اليوم والأجل انقضى ◈ وأبيت إرضائي بطيف زائر
وبمهجتي أني أراه ساعة ◈ قبل الممات معانقي ومسامري
هبه اتى فلقد يراني ساهراً ◈ والطيف ليس براقد مع ساهر
أنسيت عهدي حيث ملت مع الهوى ◈ ولقد عهدتك ما ذكرتك ذاكري
اما أنا فكما علمت على النوى ◈ والقرب صب فيك غير مغايري
شيئان لست أطيق صبراً عنهما ◈ ذكري لقاك ومدح عبد القادر
هو ذلك الشهم الذي شهدت له ◈ كل البرية بالفعال الفاخر
ومناقب محمودة وشمائل ◈ مرضية ومحامد ومآثر
هو ذلك المولى الممدح سعيه ◈ عند الإله وعند كل المفاخر
هو ذلك الفرد الذي أفعاله ◈ امدوحة البادي وفخر الحاضر
وهو المهيب لدى الملوك نزاهة ◈ والنازح الصب الكريم الطاهر
من معشر العرب العريق نجادهم ◈ أهل المكارم كابراً عن كابر

العاملين بمحكم التنزيل وال _ تحريم والتحليل حزب الحاشر

الناحرين إذا غشوا إذا دعوا ◈ يا للبراز فنحرهم للناحر
الموثرين على خصاصتهم وقد ◈ نظروا إلى الدنيا كشيء غابر

ولرب قوم يحبسون خلاقهم ◈ فيها وغابر لهوها كالغابر
ولديهم رد التحية منة ◈ كبرى بها أحياء عظم ناخر
يحيي الليالي بالدعاء تهجداً ◈ فيميت في الأعداء أي جماهر
ويروع أفئدة الرجال لقاوءه ◈ حتى يخوروا عن ندآء الناصر
في قلب كل محنك من رعبه ◈ ما عنه يحجم كل ليث زائر
وبكل حرف من بليغ كلامه ◈ حرف يفلهم كحرف الباتر
الفضل شيمته وسيمته النقى ◈ لله واسترباح اجر الصابر
يولى الندا قبل السؤال وبشره ◈ للزائرين منوه ببشائر
يغنيهم عن ان يمنوا عنده ◈ بضرورة واختهم واوصر
جهد الزمان غلاوة فكبا ولم ◈ يبرح وفيه لديه سورة آجر
ولقد يكون النسر يوماً واقعاً ◈ ويعود بعد إلى مطير الطائر
فالله ينصر من يغار لدينه ◈ والله يخذل كل عات فاجر
والله عز يداول الأيام ما ◈ بين العباد لسابق ولقاصر
سكن الأمير وطار في الدنيا اسمه ◈ وروي المعالي عنه كل معاصر
فالعجم بين موقر ومبجل ◈ والعرب بين مفاخر ومكاثر
يا ناصر الدين العزيز وحزبه ◈ يا خير صبار واعظم شاكر
يا خير ناه عن تعاطي منكر ◈ وبخطه المعروف افضل آمر
لا تخش من بأس فربك قاهر ◈ بدعائك الميمون جيش الجائر
لك حيث كنت عناية صمدية ◈ ترعى حماك ونصر رب قادر
كن كيف شئت فان أجرك ثابت ◈ في اللوح وهو اجل ذخر الذاخر
فإذا مدنت فأنت اعظم حاذر ◈ وإذا ظعنت فأنت اكرم ساهر

'وبعد' فالمرجو من كرم سيدي المكرم الأمير المعظم ان يسمح لي بالمثول بين يديه ساعة من الزمان قبل سفرة بالسلامة من هذا المكان فاني كثير الشوق إلى تقبيل راحته والى التبرك بيمين حضرته ولولا خرفي من الملام لوافيت بهذه الأبيات وقدمتها بيدي لذلك المقام لكن خشيت من إساءة الأدب والجراءة على القدوم قبل الطلب واني لاوركم العالي منتظر وداع لجنابكم بالعز المستمر في أواخر نوفمبر سنة تسع وستين ومائتين وألف فقابله الأمير بغاية من الإكرام والاحترام وسر بقصيدته وزيارته واجزال جائرته وكنت دائماً اسمع من الأمير حينما ترد عليه القصائد من الشعراء يتمثل بقول القائل : إذا جهلت مكان الشعر من شرف ◈ فأي مفخرة أبقيت للعرب

وبعد وصول الأمير إلى امبواز أخذ يتهيأ للسفر وفي تلك الأيام انعقد مجلس نواب الأمة الفرنسوية للمذكرة في ادالة الجمهورية بالاميراطورية وبعد الاتفاق على ذلك صدرت الأوامر إلى ايلات فرنسا بالانتخاب ولما بلغ الأمر إلى امبواز بعث حاكمها إلى الأمير يقول حيث انك أقمت في هذه البلدة أربع سنين فلك حق الاشتراك مع أهلها في الانتخاب فأجابه الأمير إلى ذلك وكتب هو ومن معه انتخابها للبرنس نابليون وجعلت أوراقهم في درج مخصوص وبعثها الحاكم مع أوراق أهل البلد ولما تم الانتخاب حكم المجلس للويس الثالث بالإمبراطورية ونفذ الأمر بذلك واصبح إمبراطور فرنسا وانتشر الخبر من صفر والثاني من ديسمبر توجه الأمير إلى باريس ليؤدي مراسيم التهاني فاكرم الإمبراطور وفادته واعظم تهنئته وخصه بمجلس حضرة

الوزراء ورجال الدولة في قصر التيلري ولأول دخوله عليه تلقاه وصافحه وقال له ارأيت أيها الأمير كيف كان صوتك ميموناً علي فأجابه الأمير ان صوتي قد أعرب عما في ضميري من إرادة الخير لك وأني احمد الله تعالى الذي عجل لك بالجزاء عني بما تريد قبل خروجي من فرنسا فسر الإمبراطور وتهلل وجهه لهذا الجواب وبعد أن تحدثاً ملياً في أمر السفر وما يتعلق به ودع كل منهما الآخر وانقلب الأمير راجعاً إلى امبواز وبعد أيام كتب إلى دوران دو ليس وزير الخارجية فأجابه بما نصه الأمير الأمجد قد اتصل بيدي كتابكم الكريم واعلم انني لو بذلت جميع ما في وسعي في حصول مطالبك لا أرى أني لمقامكم العظيم حقه وعلى كل حال فاني الآن أخبركم ان الأشياء التي أشرتم بها قد أجاب إليها الإمبراطور وأمر بتنفيذها فاعددنا لك سائر ما يلزم لسفرك من امبواز إلى مرسيليا ومنها إلى بروسه والقومندان بواسني ومن معه في خدمتكم من طبيب وترجمان وغيرهم قد أجاز وزير الحرب ان يكونوا بمعيتكم ويستمروا في خدمتكم إلى بروسه وأقاربكم الذين حضروا من طنجة إلى مرسيليا ليتوجهوا معكم وهم السيد مصطفى أبو طالب والسيد الطيب بن المختار ومن معهم قد بعثت إلى حاكم مرسيليا ان يقوم بشؤونهم إلى أن يجتمعوا بكم وما أشرتم به من إسعاف ام بولاد فانه حاز القبول وأمر الإمبراطور ان يترتب لها في كل سنة ستمائة فرنك والمكاتيب التي بعثتها إلى خادمكم الحاج الحبيب بن المهر المقيم الآن في تونس قد وجهناها إليه وأوعزت إلى قنصل فرنسا هناك ان يسعفه بما يحتاج إليه ويحمله إلى محل إقامتكم مجاناً من غير نوال وما ذكرتموه عن الفسيان ميلي الذي خدمكم في هذه المدة كونه نصح في الخدمة وصدق فيها قد بلغته إلى وزير الحرب واكتسب الفسيان بذلك رضاه ولا بد ان يعامله بما تحبون له واعلم ان السفير في إسلامبول قد اخبرنا ان حضرة السلطان أمر لكم بمنزل يليق بكم في بروسة فترون هناك ما ويسر من معكم وبالجملة فان مطالبكم كلها حازت القبول وكنت أتمنى أن أراكم عند السفر واجري الوداع مشافهة ولكن كثرة أشغالي حالت دون ذلك وحيث توفرت عندي أسباب المودة لكم واجب علي ان أخبركم باني احبكم وان مودتي لكم تستمر دائماً على ما هي عليه الآن فلا تبرحون من بالي وستسير روحي معكم براً وبحراً حرر في باريس في الثامن والعشرين من صفر سنة تسع وستين ومائتين .

وفي أول ربيع الأول سافر الأمير بأهله ومن معه من امبواز إلى الأستانة وما من بلد يمر عليها الا تلقاه أهلها بالمبرة والإجلال ولما قارب مدينة ليون الشهيرة تلقاه الجنرال مونتوبان بالكاد وكان حاضراً يوم تسليم الأمير برتبة ضابط فابدي للقائه الاحتفال الكامل واصطفت الجنود خارج البلدة وفي اليوم الثاني جمع الجنرال العساكر وكانت نحو العشرين ألف ما بين خياله ومشاة في سهل خارج البلد وخرج هو الأمير وكنت بمعيته مع بعض جماعته وعند وصول الأمير والجنرال لي مصاف العسكر سلمت عليه ثم باشرت في عمل الإيقاع حربي بإطلاق البواريد والمدافع وكانت تكر على بعضها وتفر وتقبل وتدبر واستقام ذلك من بعد الزوال إلى قرب الغروب ثم دخلوا البلد وكانت مزينة بالمصابيح والأعلام بزينة كاملة وذلك اليوم مع ليلته كان من المواسم المعدودة وفي اليوم الثالث توجه منها في إعزاز وإعظام إلى ان دخل مرسيلية وقد أمعن أهلها في احسن استقباله فأقام فيها إلى ان تهيأ لركوب البحر وسافر في الباخرة الحربية التي أعدتها الدولة الفرنساوية لسفره وجعلت مسيرها لإرادته ولما وصل إلى جزيرة صقلية نزل بسسيليه فتلقاه حاكمها واجل مقامه مخرج معه في جماعته إلى المدينة وجال في أرجائها ثم سار على عربة الخيل وكنت فيمن كان إلى جبل النار وهو أحد البراكين المشهورة وكان سيرنا ثلاثة أيام تارة على العربات وتارة على الخيل إلى ان وصلناه ثم صعدنا إلى أعلاه فرأينا

النار ترمي بصخور موقدة أمثال البخت إلى اسفل ثم تصير ماءً جارياً يلتهب ناراً وهذا من اعجب ما يرى ويسمع من آثار القدرة الباهرة ثم جعلنا ننظر إلى نواحي الجزيرة وسهولها الممتدة المغطاة بشجر الليمون بأنواعها ومحارثها الواسعة وجبالها الشامخة المغطاة بشجر الزيتون ومناظرها الزاهية الباذخة فتذكرنا من سكنها وعمرها من المسلمين كأنهم ما برزوا في رباما ولا تحلوا بسناها وهذه الجزيرة واسعة كثيرة المدن والقرى والحصون وأول من غزاها من المسلمين معاوية بن خديج والي أفريقية في خلافة معاوية بن سفيان ولم يفتحها ثم تتابع الغزو إليها في أيام بني الأغلب من أول امارتهم إلى آخرها واستولوا على أكثرها ولم يزل الفتح فيها والغزو إليها إلى أن انقضت مدة بني الأغلب سنة وست وتسعين كما تقدم في أخبارها ثم تجدد الغزو إليها والفتح في أيام الفاطميين إلى أن فتحها عاملهم احمد بن الحسين سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة واستمرت في أيدي المسلمين إلى ان استردها الإفرنج واستولوا عليها وذلك لما ضعف أمر الخلافة وركد ريحها تفرقت كلمة أمراء الجزيرة واستقل كل واحد منهم في إمارته فوجد الإفرنج سبيلاً الاجلاب عليها واخذوا ينتزعون تلك الإمارات من يد المتغلبين عليها واحدة بعد أخرى إلى أن بقي بأيدي المسلمين منها مدينة قصر يانه ومدينة جرجت وهما من الأمصار العظيمة فنازلها الإفرنج سنة أربع وثمانين وأربعمائة واتصل تضييقهم على من بهما من المسلمين شهوراً عديدة فلما اشتد عليهم الأمر ولم يجدوا من ينجدهم من مسلمي وراء البحر أذعنوا للتسليم فأخذهما الإفرنج منهم وصارت الجزيرة كلها بأيديهم ووقع بأهلها مثل ما وقع بأهل الأندلس وهي الآن من مملك ايتاليا ولله الأمر من قبل ومن بعد وقد وصفها وقتئذ العلامة سيدي الطيب بن المختار وذكر ما لحق بها وبمن سكنها من المسلمين من أنواع النوائب وصنوف المصائب ثم تخلص إلى مدح الأمير . فقال :

هذي صقلية لاحت معالها ◈ تجر تيهاً فضول الريط من أمم
دار اقر لها بالفضل ذو نظر ◈ والفضل ما شهدت فيه ذوو الهمم
كانت منار هدى كانت محط ردى ◈ كانت سماء شموس الفضل والكرم
هذي منازلهم تبكي مآثرهم ◈ بكاء طرف قريح بات لم ينم
هذي المساجد قد دكت قواعدها ◈ هذي المآذن بالناقوس في سقم
هذي المحاريب قد عاد الصليب بها ◈ هذي منابرها قفرى من الحكم
هذي الكراسي على علم ومعرفة ◈ دموعها بين منهل ومنسجم
إذا رأت مسلماً قد فرحت ◈ واستبشرت ثم باست موضع القدم
فما هي الناس بالناس الأولى عرفت ◈ والود يمتاز بالسيما من السلم
فانظر لارجائها تلق العجاب بها ◈ قد أعلنت بسرور غير مكتتم
وازدان موقعها وافتر مبسمها ◈ والزهر منها غدا زاه على الاكم
وكيف لا وحسام الدين حل بها ◈ فخر الأكابر من عرب ومن عجم
صدر الأفاضل في دنيا وآخره ◈ كهف الأئمة في حرب وفي سلم
عبد القادر ما اسنى سناه وما ◈ أعلى علاه حوى العليا من الهمم
رقي مراقي لم تصعد مصاعدها ◈ أسد الحروب وان ناموا فلم ينم
اصل المروءة مبداها ومنشؤها ◈ فرع النبوة لم يخضع ولم يضم
عز الإمارة مولاها ورونقها ◈ بحر السماحة كم أسدى من النعم
لم تخف شمس الضحى في الجو طالعة ◈ أو تجهل النار ان لاحت على علم

فاهنأ بفضل عظيم غير منقطع ◈ ودم بلطف خفي غير مزدحم
أولادك ربك عزا غير منقطع ◈ وعز غيرك لم يثنت ولم يدم
ذكرتنا يوسفاً إذ بان أمركم ◈ لا غرو فالفضل منه غير منعدم
كأنما قطر باريس حللت به ◈ مصر وقد حلها الصديق في حرم
فجر ذيل قد سموت به ◈ وقر عيناً وثق بالله واعتصم
ثم احمدنه على الآلاء معترفاً ◈ بما أنالك من عز ومن عظم
بشرى لنا يا أهيل الود أن لنا ◈ بيتاً من المجد مطوياً على كرم
هذي السعادة قد لاحت بدايتها ◈ فالله يختمها في حسن مختتم

^ ذكر

وصول الأمير إلى القسطنطينية وبعد ان أخذ الأمير راحته في مرسى تلك الجزيرة سار عنها واتصل سيره إلى الأستانة العلية فدخلها يوم الجمعة الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة تسع وستين وثامن يناير سنة ثلاث وخمسين واحتل بعاصمة الدولة العلية العثمانية ودار الخلافة الإسلامية . كعبة أسست على الفضل لكن ◈ كل حين لها يحج الوفود .

حيث المنازل في مطالع السرور باديةٌ والمتنزهات بإشراق سعودها متلالية ولأول وصولنا نزل الأمير إلى البر واستمر سائراً إلى ضريح أبي أيوب خالد بم زيد الأنصاري رضي الله عنه عند القسطنطينية وقد كان قبره مخفياً إلى ان أظهره الله على ساكن الجنان السلطان الغازي محمد خان الفاتح للقسطنطينية مظهر إشارة ما رواه الإمام احمد في مسنده والحاكم في صحيحه عن بشر الغنوي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لتفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش وهذه الإشارة من معجزاته صلى الله عليه وعلم واعلم نبوته ومنقبة عظيمة لذلك السلطان الأعظم قدس الله روحه ونور مرقده وضريحه كما اظهر قبر الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر محيي الدين بن العربي على يد السلطان الغازي سليم ياوور خان في دمشق الشام واشهر فيها قبر صلاح الدين ابن القرشي على يد مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني أيد الله ملكه وأبده وبعد فراغ الأمير من زيارة أبي أيوب الأنصاري رضى الله عنه توجه إلى جامع أيا صوفيا وفي اليوم الثاني زار الصدر الأعظم المرحوم مصطفى رشيد باشا فانسه وعرض عليه النزول لبلد بجميع العائلة فاعتذر إليه بمرض والدته وبعض عائلته ثم توجه لزيارة المرحوم شيخ الإسلام العالم العلامة عارف حكمت بك وسائر الوكلاء والشريف عبد المطلب ثم توجه إلى سفارة فرنسا فاجتمع بالماركيز دولافاليت سفيرها وفي اليوم الثالث دعي إلى المابين فتشرف بمشاهدة حضرة السلطان الغازي عبد المجيد خان فرحب به واحسن السؤال عن أحواله وشكره على ما كبده في الدفاع عن الدين والوطن وحمده على صبره على ما قاساه أيام إقامته عند الفرنسيس ومدح الإمبراطور نابليون الثالث على وفائه بالعهد والقيام بشأنه وكنت يومئذٍ في معية الوالد فرأيت من تنازل حضرة السلطان وتعطفه ولين جانبه ولطفه ما يشهد له باستكماله ما كمل من الخصال الحميدة ثم تنازل إلى السؤال عني فقال له هذا ولدي الأكبر وعرفه برفيقه في الجهاد وفي فرنسا ألا وهو حضرة السيد قدور بن علال وبخادمه قره محمد وعند الانصراف ذكر أمر السكنى في بروسة فقال له اختار ما يختاره لنا مولانا أمير

المؤمنين فأجابه بأنك مختار في السكنى في أي بلد شئت من ممالكي العثمانية فشكر الأمير فضله وحسن توجهاته وخرجنا من تلك الحضرة السنية في ارتياح وانشراح تخفق على رؤوسنا ألوية وتضئ علينا من سماء المكارم السلطانية كواكب المجد ثم أن الأمير قدم لأعتابه السنية قوله : الحمد لله تعظيماً وإجلالاً ◈ ما اقبل اليسر العسر إقبالا

وما أتت نفحات الخير ناسخة ◈ من المكاره أنواعاً وأشكالاً
واشكر الله إذ لم ينصرم اجلي ◈ حتى وصلت بأهل الدين إيصالا
وامتد عمري إلى أن نأت من سندي ◈ خليفة الله افياء وإظلالا
فالله أكرمني حقاً وأسعدني ◈ وحط عني أوزاراً وأثقالاً
قد طال ما طحت نفسي وما ظفرت ◈ لكن للوصل أوقاتاً وآجالا
اسكن فؤادي وقر الآن في جسدي ◈ فقد وصلت بحزب الله احبالا
هذا المرام الذي قد كنت تأمله ◈ فطب مآلاً بلقياه وطب حالا
وغش شيئاً فأنت اليوم آمن من ◈ حمام مكة إحراماً وإحلالا
فأنت تحت لواء المجد مغتبط ◈ في حضرة جمعت قطباً وإبدالا
وته دلالاً وهز العطف من طرب ◈ وغن وارقص وجر الذيل مختالا
أمنت من كل مكروه ومظلمة ◈ فبح بما شئت تفصيلاً وإجمالا
هذا مقام التهاني قد حللت به ◈ فارتع ولا تخش بعد اليوم انكالا
ابشر بقرب أمير المؤمنين ومن ◈ قد اكمل الله الدين تكمالا
عبد المجيد حوى مجداً أو عز علا ◈ وجل قدراً كما قد عم أنوالاً
كهف الخلافة كافيها وكافلها ◈ من لا عهدنا له في القرن آمال
يا رب فاشدد على الأعداء وطأته ◈ واحم حماه وزده منك إجلالا
واظهرن حزبه في كل متجه ◈ وسددن منه أقوالاً وأفعالاً
وابسط يديه على الغبراء قاطبة ◈ وذللن كل من في الأرض إذلالا
يشير إلى أهل الجزائر المسلمون بأرض العرب شاخصة ◈ أبصارهم نحوه يرجون إقبالا
كم ساهر يرتجي نوماً بسطوته ◈ وحائر يرتجي للحزن تسهالا
فرع الخلائف وابن الاكرمين ومن ◈ شادوا عرى الدين أركاناً وأطلالا
كم أزمة فرجوا كم غمة كشفوا ◈ كم فككوا عن رقاب الخلق أغلالا
هم رحمة لبني الإيمان قاطبة ◈ هم الوقاية اسواءً وأقوالا
أنصار دين النبي من بعد غيبته ◈ في نصره بذلوا نفسا وأموالا

يشير إلى فتح لقسطنطينية

قد خصهم ربهم في خير منقبة ◈ ما خص صحباً بها قبلاً ولا آلا
كم حاول الصحب والآل الكرم لها ◈ والله يختص من قد شاء افضالا
ما زال في كل عصر منهم خلف ◈ يحمي الشريعة مقوالاً ومفعالا
حتى انا دهرنا في خير منتخب ◈ من آل عثمان املاكاً واقيالا

قد كنت مضمر ثم اكسبني ◈ رفعاً وقد عمني جوداً وافضالا
وبالإضافة بعد قطع عرفني ◈ وحط عني تصغيراً وإعلالا
هذا والحق علاه أزاح وكم ◈ أزال عني بمحض الفضل أثقالا
لا زال تخدمه نفسي وامدحه ◈ مستغرق الدهر أبكاراً وآصالا
اهدي مديحي ما حييت له ◈ أفادني انعماً جلت وإقبالا
جزته عني اله العرش افضل ما ◈ جزى به محسناً يوماً ومفضالا

خادم الغزاة والمجاهدين عبد القادر بن محيي الدين في غزة ربيع الآخر سنة 1269'ثم' احتفل الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وسفير فرنسا لضيافة الأمير فابدوا وأعادوا واستقصوا وأجادوا وكان شيخ الإسلام عارف حكمت بك رحمة الله له علينا فضل عظيم لأنه طلب نابليون الثالث من المغفور له السلطان الغازي عبد المجيد كفالة عن الأمير جعل للمذكرة في أمر الكفالة فقال شيخ الإسلام إذا لم تكن لمولانا السلطان حسنة مع كثرة حسناته الا هذه لكفي بان يكفل هذا الرجل المجاهد وينقذه من الأسر فحينئذ أجاب المغفور له بالكفالة ولعمري ان الله عز وجل قد حقق ما اجراه على لسان المرحوم عارف حكمت بك من قوله في مدح نفسه مفتخراً : الم

تعلم بان سماء فكري ◈ تلوح بأفقه شمس المعارف
تفرس والدي في المزايا ◈ ويوم ولدت لقبني بعارف

وكنت ناظر التياترو ميخائيل أفندي نعوم يدعو الأمير إليه بقوله : كريم السجايا المجد

من سما ◈ ذرى الرتب العليا بفضل جهاد
خفيراً لجاه العرب خوف ادثاره ◈ بسطوة ماض صقيل وجلاد
سلمت مدى مستوفر الثنا ◈ وفي نعمة تبقى بغير نفاد
فأنا من القوم الأولي ساقهم إلى ◈ لقائك داعي حمية وبلاد
أجابه سؤال أن تزور مشرفاً ◈ لنزاهة طرف وانشراح فؤاد

وكـان النـاس يزدحمـون على مشـاهدة الأمـير أثنـاء إقامتـه ورؤيتـه في الطرقات التي يمر ورحاب منازل الوزراء والعظماء التي يقصدها . ذكر

وصول الأمير إلى بروسة وبعد أيام أقام عشرة أيام يزور ويزار ودع الصدر الأعظم فمن دونه من الوزراء والمأمورين ثم ودع سفير فرنسا وتوجه إلى بروسه فدخلها يوم الاثنين السابع من ربيع الثاني وتلقانا خارج البلد خليل باشا صهر السلطان مع سائر الوجوه والأعيان بغاية التبجيل والاحترام حتى نسينا بما شاهدناه منهم ما كان سبق لنا في فرنسا والأستانة من الاعتبار وكان نزولنا في الدار التي أعدت لنا بالأمر السلطاني بالمجلة المعروفة بمجلة المحكمة فالقينا بتلك المدينة عصا التسيار وتبوأنا منها خير دار وحمدنا الله تعالى على هذه النعمة التي لا يحيط بوصفها فكر ولا نستطيع ان نقابلها ما حيينا بشكر اللهم لا أحصي ثناء عليك وأنت كما أثنيت على نفسك ولما نظر الأمير إلى موقع المدينة واحوازها قال لقد صدق الذي اخبرنا أنها تشبه مدينة تلمسان ثم أخذ يشير إلى وجه الشبه بين المواضع والجهات وانشد : أما

الخيام فأنها كخيامهم ◈ وارى نساء الحي غير نسائها

ولما استقر بنا الحال اخذنا نتجول في أنحائها ونتنزه في أرجائها فحصل لنا بذلك سرور وارتياح وناهيك ببلدة أزهت بمبان عالية ومتنزهات ومعاهد عامرة بالأنس واللذات لا نرى الاكدار أسباباً ولا للسرور حجاباً وحجاباً ولأول وصول الأمير إلى بروسة عرض عليها واليها باذن السلطنة العظمى تعيين مرتب شهري يقوم بشؤونه فسر الأمير بذلك ودعا للدولة العلية وشكرها على اهتمامها بأمره الشكر الجزيل ثم قال له أن الإمبراطور نابليون عين لي من النقود ما يكفي من النفقة واما مولانا السلطان المعظم فقد تفضل علينا بما هو اعظم من الدنيا بما فيها وهو تنازل عظمته وإنعامه علي بالكفالة عند الدولة الفرنسوية وهذه السبب الأقوى في حياتنا الجديدة ولولاها ما خرجنا من قبضة الأسر وهذا الإنعام لا يوازيه شيء ولا يقابله شكر فنحن عبيد إحساناالذات السلطانية خلد الله سطوتها وأيد كلنتها وعلى كل حال فنحن مفتقرون إلى مكارم مولانا ومراحمه ما دمنا وان حصل احتياج لذلك ارفعه إلى الأعتاب فوقع هذا الجواب عند الوالي موقع الاستحسان ورفعه إلى الأعتاب العالية وكان رضي الله عنه يصلي الصلوات الخمس في الجامع القريب من الدار المعروف بجامع العرب ويقرأ فيه الدروس فقرأنا عليه ألفية ابن مالك بشرح المكودي والسنوسية بشرح المصنف والايساغوجي للقاري ويقرأ لنا في الدار الابريز في مناقب سيدي عبد العزيز الدباغ وفي تلك الأيام اشهر الحرب المعروف بحرب القرم بين الدولة العلية والروسية فقال مستغيثاً ومادحاً مولانا السلطان عبد المجيد خان :

يا رب يا رب يا رب الأنام ومن ◈ إليه مفزعنا سراً وإعلانا
يا ذا الجلال وذا الإكرام مالكنا ◈ يا حي يا مولياً فضلاً وإحسانا
يا رب أيد بروح القدس ملجأنا ◈ عبد المجيد ولا تبقيه حيرانا
ابن الخلائف وابن الاكرمين ومن ◈ توارثوا الملك سلطاناً فسلطانا
احي الجهاد لنا من بعد ما درست ◈ وضاعف المال أنواعاً وألواناً
فانصره نصراً عزيزاً لا نظير له ◈ حتى يزيد العدى هماً وأحزاناً
واحفظ علاه وأرسل يا كريم له ◈ من الملائك حفاظاً وأعوانا
وانصر به الشرع يا رؤف به ◈ عن دينك لا تعدمه برهانا
واجمع الهي قلوب المسلمين على ◈ وداده وأعله واعظم له شانا
به الصواب اصب واجعل له فرجا ◈ بطانة الجير أقطاباً واركانا
واهدم وزلزل وفرق جمع شائنه ◈ واجعل فؤادهم بالرعب ملئانا
وانصر وأيد وبيت جيش نصرته ◈ أنصار دينك حقاً آل عثمانا
الباذلون بيوم الحرب أنفسهم ◈ لله كم بذلوا نفساً وأبدانا
والضاربون ببيض الهند مرهفة ◈ تخالها في ظلام الحرب نيرانا
والطاعنون بسمر الخط عالية ◈ إذا العدو رآها شرعت بانا
والمصطلون بنار الحرب شاعلة ◈ مطلوبهم منك يا ذا الفضل رضوانا
والراكبون عتاق الخيل ضامرة ◈ تخالها في مجال الحرب عقبانا
جيش إذا صاح صياح الحروب لهم ◈ طاروا إلى الموت فرساناً ورجلانا
هم الرجال ثباتاً يوم حربهم ◈ فصابر من عداهم صبره خانا
هم الليوث ليوث الغاب غامضة ◈ والليث لا يلتقي ان كان غضبانا
هم الأولى دأبهم شق الصفوف لدى ◈ حملاتهم صار جيش الكفر دهشانا
الدافعون عن الإسلام كل أذى ◈ بأنفس قد غلت قدراً وأثمانا

كم غمة كشفوا كم كربة رفعوا ◈ وكم أزاحوا عن الإسلام عدوانا
يا رب زدهم بتأييد إذا زحفوا ◈ واقطع بسيفهم ظلماً وكفرانا
الق السكينة ربي في قلوبهم ◈ وزدهم يا اله العرش إيمانا
وجهت وجهي أنني ما دعوت به ◈ بأهل بدر حماة الدين أركانا
من الإله لهم قال افعلوا وذروا ◈ ما شئتم لكم أوجبت غفرانا
اعني الذي صرح الحفاظ ذكرهم ◈ باسمهم تاركا من خلفهم بانا
بقطبهم احمد المختار من مضر ◈ وسيد الخلق أملاكاً وإنسانا
كذا خليفته الصديق ملجأنا ◈ واعظم الناس إيماناً وإيقانا
وبالمكنى أبي حفص الذي انفتحت ◈ به المغالق حتى صعبا هانا
وبالخليفة ذي النورين ثالثهم ◈ اعني بذلك عثمان بن عفانا
وبالإمام أخي المختار ذاك علي ◈ من في الوغى بالعدا تلقاه فرحانا
وبابن عثمان عبد الله سيدنا ◈ وابن البكير اياس ساد أعلانا
وحاطب وبلال ثم حمزة ذا ◈ عم النبي كريم ساد قحطانا
بسعدهم وأبي طلحة وسهلهم ◈ كذا سعيد ظهير ساد عدنانا
بصنوه وعبيد الله ثم أبي ◈ حذيفة وحبيب زاد رضوانا
بابن الربيع الهي وابن رافعهم ◈ رفاعة ثم زيد سيداً كانا
وبالزبير أبي زيد كذاك أبو ◈ لبابة الخير من قد عز أخدانا
وبابن عوف وعمرو عقبة وكذا ◈ عبيدة من لدين الله قد صانا
وعامر وخنيس ثم عاصمهم ◈ ثم ان صانتهم من زان إذعانا
عويمر ثم عتبان وحق لهم ◈ سيادة ومعاذ طاب ازدانا
ومعوذ وأخيه ثم مسطحهم ◈ كذاك مالكهم مقدم ما شانا
قدامة وهلال لا نظير لهمٍ ◈ مرارة وابي فضلهم بانا اني توسلت يا رب بهم
◈ أرجوك فضلاً وإحساناً وغفرانا ثم صلاة على المختار سيدنا ◈ ما صارت
الشيب يوم الحرب شباناخادم الغزاة والمجاهدين عبد القادر بن محيي الدين في غزة ذي الحجة سنة 1269'ولما' شاع في الآفاق خبر خروج الأمير من فرنسا ووصوله إلى بروسة أخذ المهاجرون من أهل الجزائر يقيدونه من مواضع إقامتهم في تونس ومصر والحجاز والشام ويتسابقون إلى أعتابه راغبين في السكنى برحابه فقابلهم بالقبول والإكرام كما ان علماء الأنحاء صاروا يتوارون على حضرته ويشدون الرحال إلى زيارته ومن جملة من قصد زيارته العلامة الشيخ يوسف بدر الدين المغربي نزيل دمشق فاكرم الأمير نزله وبالغ في احترامه لعلمه ورفعة مقامه وبعد ان أقام أياماً توجه إلى الأستانة وكتب إلى الأمير ما نصه . المقام العالي بالله ذي المجاهدة والتمكين مولانا السيد عبد القادر بن محيي الدين الله له خير معين آمين نحمده سبحانه وتعالى وهو أهل الحمد ونشكره راضين بقناة فله الأمر من قبل ومن بعد ونصلي على النور الساطع بالآيات الباهرات . القائل إنما الأعمال بالنيات . وعلى آله الكرام وصحابته السادة الأعلام . ما اشتاق خل لخله وأهدى سلام يهدي السلام محب لم يزل أبداً ◈ يثني عليك ثناء ليس ينحصر ويسأل الله ان يبقيك تكرمه ◈
للناس حتى بك المكسور ينجبر ما أشرقت في المعالي شمس ذاتك يا - بحر الندا وبدا من لفظك الدرر بسم الله الرحمن الرحيم تيمنا بذكره القديم ينهي السلام محب متمسكاً من الولاء بوثيق العرى مستمسكاً بعطر الثناء الذي لا يزال الكون منه

معنبراً متشوقاً للقاء الذي بالمهج يسام وبالنفوس يشترى متشوقاً إلى ما يرد من الأنبياء التي تسر خبراً وتحمد أثراً ويسأل الله أن يخلد حضرة وكفت بوابل جودها وكفت المهم بنتائج سعودها مع إهداء دعاء ذكت لطيب المسرات نفحاته وزهت في رياض البشر لمحاته واسنى تحيات يشرق على الأكوان سناءً نورها ويتعطر الملوان من شذا نورها طيبها مكتسب من طيب المهدى إليه ولطفها مستفاد من لطفه كالبحر يمطره السحاب وما له فضل عليه واذكر اثنية تملي عنا رسائل الأشواق وتنبئكم كما قاسيناه من تباريح الفراق : فكل جسمي عيون ذقت لوعتها ◈ تجري بماءٍ كماء المزن منهمر لا استريح نهاري مذ نأيت ولا ◈ آنست طيب الكرى من لوعة السهرفهي تظهر الوجد الكامن في الضمير ولا ينبئك مثل خبير تتشرف بمجلس سيدي ومولاي شقيق روحي وآسى بلطف طبه جروحي انيس وحدتي وسبب رفعتي الناصر لدين الله نفسه لإعلاء كلمة الله . كأنه في لظى الهيجاء حيدرة ◈ له مواقف حاكت يوم صفينوعلامة إخلاصه ما بهر العقول من كيفية خلاصه فالله يثنيه على نيته ويحفظه في ذاته وذريته بحرمة سيد برينه السيد الهمام بهجة العلماء الأعلام مظهر آثار علوم الحقيقة المنورة ومحيي آثار رسوم الشريعة المطهرة مؤيد دلائل السنة بادلته القاطعة وموضح سبل الهداية بأنوار علومه الساطعة كشاف أسرار المعارف الربانية أو كنز دقائق اللطائف الصمدانيه من تفيات الفصاحة والبلاغة ظل أقلامه ووقفت جيوش المشكلات خاضعة تحت أعلامه الفرد الرحلة الأجل ومن عليه في هذا العصر المعول دمت لولاك في الزمان لقلنا ◈ ليس الدهر من ذويه السوادامركز إحاطة العلوم ونقطة دائرة المنطوق والمفهوم المتقدم بالفضائل على الناس تقدم النص على القياس اعز بني الدنيا واشرف من سما ◈ إلى رتبته العليا بدون ترددولا بدع ان تاهت به الأيام وباهت بمدحه الأقلام فهو الصدر الذي ينشرح بمحاضرته كل صدر والبحر الذي إذا أملى فوائد فوائده فحدث عن البحر وبدر الكمالات التي ظهرت فلا تخفى إلا على اكمه لا يعرف البدر . سلطان العارفين برهان الواصلين صفوة المقربين وارث مقام الأنبياء والمرسلين الجامع لجميع المحاسن والإنصاف الذي أحاطت به الكمالات فهي لغيره لا تضاف السيد والإمام والسند المقدام صاحب العز والتمكين المشار إليه علاه متع الله بوجوده الأنام ونفع به الخاص والعام ولا زالت منح فوائده الجمة نوراً لأبصار العارفين ومنح فوائده كافية بل شافية لغلل الخائفين بمحمد وآله ومن نسج على منواله ما غردت ساجعات الورق صادحة ◈ فأظهرت من شجون القلب ما كمنا

ويعد حصول ما حصل من التقصير وإبداء عذر التأخير فان هبت نسمات اللطف والقبول من تلقائكم بالسؤال عن الأحوال كما هو المأمول فان المحب المخلص والداعي المتخصص مقيم على قدم العبودية وحفظ العهود في البكرة والعشيةاعد من صلواتي حسن عهدكم ان الصلاة كتاب كان موقوتا .وأما الأشواق فأنها لا تحصى ولا يبلغ مداها الاستقصا ولا تفي بها الأرقام ولو ان ما في الأرض من شجرة أقلام ولو أخذ الداعي يصف شوقه لحضرتكم الشريفة وذاتكم اللطيفة لم يجد لذلك سبيلاً ووقف دون إدراك غايته وتفصيلاً وماذا يصف من شوقه إليكم شوق الصادي إلى الزلال والمهجور إلى الوصال . وما فؤادي مشتاقاً بمفرده ◈ بل كل عضو إلى رؤياك مشتاق

ولو بعثت أشواقي لركبت إليكم أعناق ولطرقت بابكم الذي هو سوق الفلاح لكم الأمور بأوقاتها مرهونة وهي مكنونة في غيبها حتى يظهرها المولى مصونة وأيضاً فالعوائق جمة والحوادث لا تراقب في سيرها الا ولا ذمة ونبتهل للكريم الخلاق بحرمه من ركب البراق واخترق السبع الطياق أن يطوي شقة الفراق ويسهل أسباب

التلاق فيكون الخطاب من الشفاه إلى الأسماع بدلاً من التراسل بالرقاع انه بعباده خبير بصير وهو على جمعهم إذا يشاء قدير والله يعلم ان بعد الدار عن القلوب لا يحول وصدق محبة الفقير لا يزول ان قلت غبت فقلبي لا يصدقني ◈ إذ أنت فيه مكان السر لم تغب

أو قلت ما غبت قال الطرف ذا كذب ◈ فقد تحيرت بين الصدق والكذب

وكتبت هذا الكتاب ليتشرف بلثم أتأمل الجناب متمثلاً بقول القائل من الأماثل كتبت

كتابي يلثم اليد خدمة ◈ لعل كتابي ان يقوم مقامي

ويسجد بالباب الكريم تحية ◈ ويقرأ مني ألف ألف سلام

والمرجو من المولى الهمام لا زال في حرمة الملك السلام ان ينساني من دعائه العبي وخبره السار الشافي ملبي لطفاً بهذا الداعي بجميل المساعي فان الخبر بعض اللقاء وقد يحصل للظمآن من كفوف القراطيس الاستقاء . بالله لا تقطعوا عنا رسائلكم ◈ فان فيها شفاء السمع والبصر

وآنسونا بها ان عز قربكم ◈ فالأنس بالسمع مثل الأنس بالنظر

ولئن كان في الطلب إساءة الأدب فمكاتبة العبد إلى سيده مطلوبة وفي الشرع والعرف مرغوبة والسلام على كافة الأشبال الكرام اقر الله بهم العين على الدوام .

سروري إذا من الزمان بعودة ◈ لبروسة التي خصت باسني المشاهد

أمتع طرفي في محاسن روضها ◈ ومسك ختامي نظرة في المجاهد

هذا وان سألتم عن كافة الأحوال قدم على ارغد عيش وانعم بال كافة أحبابكم لرؤيتكم متشوقون ولروائح أخباركم متشوقون بلغهم تغيير اللباس وحصل لهم بذلك غاية الاستئناس وسر بقدومكم كافة أهل الإسلام من أهل الحجاز ومصر والعراق والشام فاشكر الله على ما أولاك لا سيما نغمة الانفكاك وبلغوا سلامنا للسيدة الوالدة حفظها الله من كل واردة كائدة وقد بلغني انه ازداد عندكم مولود فان شاء الله هو مبارك مسعود ولو عرفت مسماة لهنئناكم وأرخناه وقد كتبت شرح حال قدومكم الذي سارت به الركبان لكافة أحبائك المقيمين في الشام على العهود في جواب الكتاب الوارد لبروسه من الشريف ابن المشرقي المعهود ودوموا سيدي في أمان الله وحسن رعايته'وكاتبه مرة أخرى واردع كتابه قوله' الله اكبر هذا التعب

يبريني ◈ من سيد بنواه كان يبريني

ومن عنائي به ناديت يا أسفي ◈ فالشوق ينحلني والوصل يبريني

شوقي له جل ما باللفظ احصره ◈ ولو جمعت ألوفاً من دواويني

جاد الزمان بوصل عاجلنا ◈ جرى على اصله في الغدر بالبين

حديثه وحديث عنه يطربني ◈ بذاك أنسى وذا عنه يسليني

وكلما رمت ان ألقاه مجتهداً ◈ تترى موانع خير عنه تلويني

صبراً على حكم مولى لا شريك له ◈ ما شاء فان وما ليس يثنيني

لكنني أتسلى بالرجا فعسى ◈ يقضي بوصل به نفسي تهنيني

وها أنا صابر بين القضاء فلا ◈ ادري ألقاه بداءً أو يلاقيني

انا بالمعنى فلا ارتاح من ولهي ◈ به نهاراً ولا زار الكرى عيني

ان قلت غبت فقلبي لا يصدقني ◈ إذ أنت تاوى به والكاف والنون

أو قلت ما غبت الطرف ذا كذب ◈ فقد تحيرت من حكم بضدين

نعم بدت في خيال الفكر صورته ◈ وان يكن شخصه ناءٍ عن العين

فوجهه قلبي والقلب مسكنه ◈ والورد ذكراه بل صلى له ديني
روحي فداه وصف ما قد حوته يدي ◈ والله بالفضل عن هذا سيجزيني
ان المودة في الأرواح منشئها ◈ فالروح واحدة حلت بجسمين
ودي له خالص والله اعلم بي ◈ فليسأ لن قلبه عنه ويفتيني
احبه واری فرضا محبته ◈ هذا اعتقادي فمن ذا عنه يتنيني
وبغض أعدائه فرض بما اجترحوا ◈ فالله يكفيه من كل ويكفيني
والله لن يصلوا أدنى مراتبه ◈ وهل يضاهي الحصا مسكا بداريني
يا سيداً خصه الولي بمنقبة ◈ سماؤها ذروة العليا على الدين
والكل في غفلة عنها وقد ذهلوا ◈ إذ كلهم اعرضوا عن وحي جبرين
فاسقط الإثم عنهم حيث حث على ◈ فرض الجهاد بتدبير وتخمين
فالله يجزيه في إحيائه علناً ◈ فرضاً أكيداً باجر غير ممنون
فقام لله في إعلاء كلمته ◈ لا للمباهلة بل في نصرة الدين
فكم وكم جندل الاعدا بسطوته ◈ يذيقهم كاس مر الموت في الحين
كله في لطى الهيجاء حيدرة ◈ له مواقف تحكى حرب صفين
سل أن جهلت وان ينكر ذو حسد ◈ مكابراً فهو من جند الشيطان
فالشمس لا يبصر المكفوف بهجتها ◈ قطعاً وينظرها ذو العين فالعين
فقل له قف فان الحشر موعدنا ◈ سيظهر الله ما يخفى بلا دين
هذا هو الفخر لا شاي ولا وتر ◈ وقطع شرع وجمع بين أختين
دليل إخلاصهما ما في الخلاص بدا ◈ بحكمة الله من بين إلى بين
عدوه السيف أهداه له علنا ◈ مع كونه جاهداً في مضمون
فاشكر إلهك إذ اسداك ما انبهرت ◈ منه العقول بسر الكاف والنون
وقر عين وطب نفساً فسوف ترى ◈ ما يصنع الله بالبهم الملاعين
واشهد الله أني عبد رؤيتكم ◈ اسقي عداك كؤوس الموت والبين
أني لأرجوه في إنجاز مسئلتي ◈ ونية الخير عند الله تنجيني
مع ان لي فكرة جاد الإله بها ◈ مع قوة العجز للخيرات تهديني
وطال ما كنت في فاس أروم لقى ◈ لكن قضاء الهي عنه يثنيني
ان قدر الله ذا مني فسوف ترى ◈ ما الله يرضى له في نصرة الدين
ان الشهادة عندي والإله لهي ◈ أحلى من العيش في الدنيا على ديني
فلست احسن من صحب بها ظفروا ◈ في جنة الخلد بالوالدان والعين والله
اسأل مع حسن الختام بها ◈ دفنا بطيبة فضلاً بعد تكفيني وسيدي عارف الدنيا
يبشركم ◈ براحة في الدنا والفوز في الدين وكل ما تشتهي يأتي إليك فلا
◈ تهتم الا بذكر أو بتبيين والخير نوري أفندي قال ابلغه ◈ عني السلام
فأنت الآن تكفيني فأنني في اشتغال زائد وعنى ◈ عسى بحرمته المولى
يهنيني وشوق زائد يدعو لحضرتكم ◈ بما يسرك من خير بدارين والسيد العلم
القدسي يبلغكم ◈ تحية منه لا تحصى بتبيين وكل من فيك قد صحت محبته
◈ فبالسلام عليك الآن يوصيني واقرأ سلامي على الأشبال قاطبة ◈ الله
يحفظهم للنفع في الدين محمد صاحب الساطور وهو قرى ◈ من كان جاري
ونفح الطيب يهديني وكم بحلوى صنيع الغرب أتحفني ◈ ان اشتهيت فاكل

الحلو يرضيني فنعم ذا الجار يرعى الحق فيه ولا ◈ كاهل شام أضاعوه مجانين
فالله بالبذل يجزيه الرضاء وان ◈ بالعود فوراً وبالنوعين يجزيني سلم على
المصطفى نجل التهامي كذا ◈ نجل مبارك قدور ضيا عيني وكل من في الورى
حققت نسبته ◈ إليك بالحب من عال ومن دون واسأل الله قبل الموت يجمعنا
◈ على لطائف ترضيه وترضيني وعن قليل فذا الخروبي قال يجي ◈ نسعى
به صحبة يا قرة العين فالله يحجبنا من كل صارفة ◈ عن اللقاء بسر الكاف
والنون'وقد أشار' بقوله هذا هو الفخر إلى آخر البيت إلى المولى عبد الرحمن
سلطان مراكش حيث انه اشتهر بحب الشاي وآلت الطرب واتهم بأنه جمع بين
أختين من المولدات وبقوله عدوه السيف علنا إلى السيف الذي أهداه له نابليون
الثالث إمبراطور فرنسا وبقوله وسيدي عارف الدنيا إلى حضرة عارف حكمت بك
شيخ الإسلام قدس الله روحه 'ولما كان' الأمير في باريس رأى الإمبراطور نابليون
يمدح الخيل العربية ويقدمها على غيرها وحين استقر في بروسة بعث إلى سوريا
رجلاً من اتباعه من أهل الخبرة بمحاسن الخيل يبتاع له من الخيل العربية ما يقع
عليه اختياره فاشترى له ثلاثة أفراس من احسن ما شوهد منها أحدها كميت أغر
محجل والثاني أشقر أغر محجل والثالث احمر ثم بعثهم إلى الإمبراطور سنة سبعين
ومائتين لنظر القائد عبد القادر بوكليخه أحد اتباعه المقربين فسر بها الإمبراطور
ووقعت لديه موقع القبول .

^ ذكر

ما أجراه في ختان أولاده وذكر حادثة الزلازل

وما آل إليه الأمر بعد'كان الأمير كثيراً ما يجامل أهل بروسة بحسن مجالسته
ويعاملهم بلطف مؤانسته ويفيض عليهم سجال إحسانه وامتنانه وفي إقامته بينهم
أجرى ختان أولاده واحتفل له أياما والتمس من أعيان البلد ان يقيدوا له أولاد الفقراء
المحتاجين للختان فقيدوا نحو الخمسمائة فأمر بختانهم جميعاً على نفقته قال
شرشل في تاريخه وعندما كان ختان أولاد الأمير تعجب أهل بروسة لان من عادة
أعيانهم يحتفلون للختان وسائر الأفراح بضرب الموسيقى والطبول والزمور والأمير
احتفل بكثرة الصداقات والمبرات فترى جماهير الفقراء والمحتاجين حول داره
يتناولون أنواع الأطعمة والألبسة والدراهم وكانوا على كثرتهم يرفعون أصواتهم
بالدعاء له وهو يقول اربعوا على أنفسكم واشكروا الله تعالى انتهى باختصار'وبينما'
الأمير وأهل البلد في لرغد عيش وراحة مدة إذ نزلت بهم طامة الزلزال واستولى
الهدم والحريق على البيوت والمساجد والتكايا والأسواق فخرج الأمير بأهله ومن معه
من المهاجرين إلى مزرعة جلتك قرب البلد وقد كان اشتراها للزراعة وهي محتوية
على أشجار متنوعة وأكثرها شجر التوت وكان يشتغل فيه دود القز وابتنى فيها قصراً
عظيماً احضر له مهندساً من الأستانة فعمره على هيئة قصورها وجلب لها أشجار
الفواكه المتنوعة ولما تفاقم الأمر وتتابعت الهزات مع تتابع الساعات ليلاً ونهارا
وخرج الأهالي إلى البساتين والحدائق ومنهم من ابعد المفر خيم الأمير بتلك الزراعة
وكان خليل باشا والي بروسة توجه إلى الأستانة وخلفه عليها عالي باشا فكتب إليه
الأمير متشوقاً لما كان بينهما من شدة المواصلة الا فاقر الخليل خليل باشا ◈
سلاماً طيباً عبقاً نفيسا

له قل يا شقيق الروح مني ◈ على م هجرت بلدتنا بروسا
بكم كانت تفاخر كل مصر ◈ وتطلع من شمائلكم شموسا
فعادت بعدكم شمطا عجوزا ◈ وكانت تجتلي بكم عروسا
وعهدي سوحها بالوفد ملأى ◈ فأضحت بعدكم خلوا دروسا
وكنت لنا غيثاً هتوتاً ◈ وكهفاً مانعاً خلواً وبوسا
وكان لنا الزمان ابكم ضحوكا ◈ فصار لنا بفقدكم عبوسا
بمن اعتاض عنك فدتك نفسي ◈ وكنت بقربكم فرحاً انيسا

ثم بلغ الأمير ان علماء باريس تذاكروا في علماء الإسلام المشاهير وانتهى بهم الحديث إلى ذكر الأمير ومؤلفاته بأيديهم ومواعظه التي ما ان يلقيها على من يجتمع به منهم وأجوبته على أسئلتهم التي كانوا يبعثونها فوقع اتفاقهم على ان يثبتزا اسمه في ديوان العلماء من كل أمة وملة من أهل القرون الماضية فاثبتوا وكتبوا إليه يخبرونه بذلك فكتب إليهم رسالة ضمنها غلوماً جمة ذكر في خطبتها ما نصه الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين ورضى الله تعالى عن العلماء العاملين أما بعد فانه بلغني ان علماء باريس كتبوا اسمي في ديوان العلماء ونظموني في سلك العظماء فحمدت الله على سترة علي حتى نظر عباده بالكمال الي وقد أشار علي بعض المحبين منهم أن اكتب إليهم بعض الرسائل فكتب هذه العجالة وسميتها ذكرى العاقل وتنبيه الغافل ورتبتها على مقدمة وثلاثة أبواب وفي كل باب فصل تنبيه وخاتمة اما المقدمة ففي الحث على النظر وترك النقيد وذمه واما الباب الأول ففى فضل العالم والعلماء وفيه فصل في التعريف العقل الذي به أدرك العلوم وتكملة في القوى الأربع التي إذا اعتدلت في الإنسان كان إنساناً كاملاً وتنبيه فضل إدراك العقل على إدراك الحواس وفضل مدركاته على مدركاتها وخاتمة في انقسام العلم إلى محمود ومذموم واما الباب الثاني ففي فضل العلم الشرعي وفيه فصل في اثناة النبوة التي هي منبع العلوم الشرعية وفيه تنبيه في معرفة النبي ومت يتعلق بالنبوة وخاتمة من المكذبين الأنبياء واما الباب الثالث ففي فضل الكتابة وبيان عدد كتابات الأمم وفيه فصل في الكلام على كتابة الأمم وواضعيها وما يتجرُ إلى ذلك وتنبيه في بيان حروف الكتابة العربية وخاتمة في احتياج الناس إلى التصنيف وما يتعلق به ثم شرع في تفضيل ذلك على ترتيب بما يحتار عند سماعه كل العالم نحرير لبيب . 'وقد مر' انه لما انتشر خبر خروج الأمير من فرنسا وإقامته في بروسة قصدته المهاجرون من مواضع إقامتهم .فمنهم من كان يزوره ويرجع ومنهم من ينقل إليه بأهله ليقيم عنده وكان يتلقى الجميع بالبشاشة ويكرم نزلهم فمن اتى بنية الإقامة عين له ما يتعيش به على حسب عائلته ومن اتى بنية الزيارة فقط أعطاه ما يبلغه محل إقامته ومن جملة من قصده بنية الإقامة القائد الحاج عبد القادر بوكليخة الذي أرسل معه الخيل إلى إمبراطور نابليون ولم يزل عند الأمير قائماً بسائر شؤنه في بروسة إلى ان توفي بها سنة إحدى وسبعين ومائتين ومنهم العلامة السيد الحاج محمد الخروبي القلعي وكان كاتباً للأمير في ابتداء إمارته ثم جعله خليفة في ايالة صطيف ووقع في الأسر ولم يزل مع الأمير فيها وفي دمشق إلى أن توفي سنة تسع وسبعين والأمير إذ ذاك في الحجاز ومنهم العالم الفاضل السيد قدور بن الرويلة وكان ممن اسر في الحروب الأخيرة واطلق الفرنسيس سراحه إلى المشرق ولما بلغه وصول الأمير إلى بروسة جاء إليه وأقام عنده في إعزاز وإكرام إلى توفي في بيروت يوم وصوله مع الأمير قاصداً دمشق ودفن في مقبرة السنطية في ربيع الثاني سنة اثنين وسبعين ث ان الأمير لما رأى رفاقه قد اشمأزت نفوسهم

من الإقامة في بروسة لتولي الزلازل فيها طمحت نفسه إلى سكنى غيرها ووقع اختياره على دمشق وفي أول ذي الحجة سنة إحدى وسبعين سافر إلى الأستانة ثم إلى باريس وفي الثامن عشر منه وصل إلى مرسيلية على حين انتهاء الوباء بالفتك في أهلها فأصيبت به إصابة خفيفة وكتب إلي منها يخبرني بوصوله وبما عرض له وديله بقوله : أحباب قلبي كم بيني وبينكم ◈ من أبحر وصفها قد صين عن حد

تحار فيها القطا والعي يدركها ◈ حتى الجهات بها تخفى عن القصد
ما كنت ادري ان الدهر يبعدكم ◈ عني ويتركني من بعدكم وحدي
قد خانني الصبر ما أجدى بمنفعة ◈ سوى المدامع قد سالت على خدي
والطيف مثل لي اوصافكم فبدا ◈ بشرى ومذ قمت غير الحزن ما عندي
هل الغزال الذي أهواه يسعفني ◈ بالوصل يوما كما قد كان في العهد
هل النفور الذي أهواه يسعدني ◈ بالقرب من بعد ما أبدى من الصد
ياذا النفور الذي في القلب مرتعه ◈ ارتع به لا ترع فالصب في بعد
اني وان كنت مني نافراً فلقد ◈ أرضى بطيف خيال منك لا يجدي

'ثم' توجه من مرسيلية إلى باريس فتلقاه الإمبراطور ورجال دولته بالإجلال والإكرام ووقع مجيئه إلى باريس بعد أن وصل إلى بلاد الشام موقعاً حسناً عند كافة شعب فرنسا ولأول وصوله جاء خبر فتح سوابستبول وانتصار جنود الدول المتحابة الثلاث على الروس فعظم السرور ثم انقلب راجعاً إلى الأستانة ورفع أمر انتقاله من بروسة إلى دمشق إلى الباب العالي فوافق وصدرت أوامر الدولة العلية إلى محمود نديم باشا والي دمشق ان يستعد لملاقاته وإعداد محل لائق لسكناه وكتب أيام إقامته في الأستانة إلى ابنة عمه والدتي قوله : أقول لمحبوب تخلف من بعدي ◈ عليلا بأوجاع الفراق وبالبعد

اما أنت حقا لو رأيت صبابتي ◈ لهان عليك الأمر من شدة الوجد
وقلت أرى المسكين عذبه النوى ◈ وانحله حقا إلى منتهى القصد
وسناءك ما قد نلت من شدة الجوى ◈ وقلت فما للشوق ارماك بالجلد
فاني وحق الله دائم لوعة ◈ ونار الجوى بين الجوانح في وقد
غريق اسير السقم مكاوم الحشا ◈ حريق بنار الهجر ولوجد والصد
غريق حريق هل سمعتم بمثل ذا ◈ ففي القلب نار والمياه على الخلد
حنيني انيني زفرتي ومضرتي ◈ دموعي خضوعي قدا بانوا لما عندي
ومن عجب صبري لكل كريهة ◈ وحملي الأثقال تجل عن العد
ولست أهاب البيض كلا ولا القا ◈ بيوم تصير الهام البيض كالغمد
ولا هالني زحف الصفوف وصوتها ◈ بيوم يشيب الطفل فيه من المرد
وارجاؤه اضحت ظلاما وبرقه ◈ سيوف وأصوات المدافع كالرعد
وقد هالني بل قد افاض مدامعي ◈ وأضنى فؤادي بل تعدى عن الحد
فراق الذي اهواه كهلاً ويافعاً ◈ وقلبي خلي من سعاد ومن هند
فحلت محلاً لم يكن حل قبلها ◈ وهيهات ان يحلل به الغير أو يجدي
وقد عرفنني الشوق من قبل والهوى ◈ كذا والبكا يا صاح بالقصر والمد
وقد كلفتني الليل أرعى نجومه ◈ إذا نامه المرتاع بالبعد والصد
فلو حملت رضوى من الشوق بعض ما ◈ حملت لذاب الصخر من شدة الوجد

الا هل لهذا البين من آخر فقد ◈ *تطاول حتى خلت هذا إلى اللحد*
ألا هل يجود الدهر بعد فراقفنا ◈ *فيجمعنا والدهر يجري إلى الضد*
واشكوك ما قد نلت من ألم وما ◈ *تحمله ضعفي وعالجه جهدي*
لكي تعلمي أم البنين بأنه ◈ *فراقك نار واقترابك من خلد*

^ ذكر

انتقال الأمير إلى دمشق وما صادفه من الاحتفال فيها وفي طريقه إليها

وبعد ان اتم الأمير مآ ربه في الأستانة اتى إلى بروسة وفي خامس ربيع الآخر سنة اثنين وسبعين ومائتين خرج بمن معه وكانوا مائتي نفس فركب بهم الباخرة فرنساوية إلى بيروت فهرعت أهاليها لاستقباله واحتفل واليها وامق باشا به احتفالاً عظيماً وطار خبره في أنحاء سورية فاجتمع الأمراء آل رسلان حكام الدروز ومشايخ من تلك الطائفة لملاقاته في خبل لبنان ولما بلغهم خبر خروجه من بيروت رتبوا جموعهم على الطريق التي يمر فيها ولما قرب منهم اقبلوا عليه يهرولون واكبوا على يديه ثم أخذت تلك الجموع في إطلاق البنادق وساروا عن يمينه وشماله وبين يديه يرتجزون وينشدون المدائح على حسب عاداتهم وكان الكلونيل شرشل الإنكليزي اعد للأمير ضيافة حافلة في تلك الليلة فنزل عليه ضيفاً كريماً وبات عنده في محله في الحبل وطلب منه وطلب منه أمراء الدروز ان يقيم عندهم أياماً فاعتذر إليهم وشكر صنيعهم وعند الوداع قام الأمير أمين ارسلان حاكم الدروز وقال أيها الأمير الجليل ان حسن صنيعك جمل الوجود وهتف به الوالد والمولود وكانت نفوسنا ترتاح عند سماع أخبارك وذكر وقائعك وحروبك والآن الحمد قد ابتهجت نفوسنا برؤيتك وعظم سرورنا بمشاهدتك فأجابه الأمير بما ملاء صدور جمعهم حبرة وقلوبهم مسرة ثم ودعهم وودع الكلونيل وشكر صنيعه وسار في طريقه إلى دمشق ووصل الخبر إلى واليها محمود نديم باشا فخرج هو وعزت باشا رئيس العسكرية وغيرها من ذوي المناصب والمأمورين وأشراف البلد وعلمائها وأعيانها

إلى قرية دمخر وهناك استقبله الجميع بالإجلال والاحترام واتصلت الجموع من أهل البلد وقراها من ذلك الموضع إلى الصالحية وسار الأمير في ذلك الموكب العظيم بين تلك الجموع التي يقف الناظر دونها إلى ان نزل عند ضريح العارف بالله تعالى الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر سيدي محيي الدين بن العربي رضي الله عنه وبعد ان زاره وتبرك به توجه إلى المحل المعد لنزوله بدار عزت باشا الرئيس واصل الدار لبيت القاضي محيي الدين ابن الزكي ولما قدم الشيخ الأكبر من بلاد الروم إلى الشام نزل على بني الركي وتزوج منهم وساكنهم في هذا البيت وتوفي فيه سنة ثمان وثلاثين وستمائة ودفن في مقبرتهم في سفح قاسيون وبالجملة فقد دخل الأمير إلى دمشق في يوم أخذ زينته من حسنه ولم يبق أحد الا والمهابة مل عينه وقد ذكر بعضهم انه لم يدخل دمشق أمير عربي منذ مئتين من السنين مثل ذلك الدخول وكانت الدولة العلية أصدرت أمرها إلى والي الشام أن يتخير للأمير داراً لإقامته لائقة بمقامه فلما وصل الأمير تخذ الولي ينظر في الدور الشهيرة حتى وقع اختياره واختيار الأمير معاً على داري القباقيبي محل إقامة الحكومة مهما داران متلاصقان بينهما باب من داخلهما وبعد انتقال الحكومة منها وإتمام لوازمها سكنها الأمير بعائلته في ولايتي بيروت ودمشق جارية من الولايتين بأمر الدولة العلية ثم كتب إلى الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا يخبره بوصوله ويشكر فضل الدولة على ما حصل له من الإكرام والاحترام فأجابه بما نصه بعد حمد الله والصلاة على نبيه وعلى آله وأصحابه والسلام السيادة السنية حضرة الأمير المجاهد عبد القادر فقد أخذنا بأيدي الإعزاز والتكريم كتابكم الكريم بوصولكم إلى دمشق الشام بخير وسلامة وتوفيق وحزنا منه على الفرح التام حيث اشتمل على اعز مقاصدنا من بقاء محبتكم وتوجهاتكم الخيرية جزاكم الله عنا خيراً فاخراً والسلام عليكم من مخلصكم أولاً وآخراً في اثنتي عشر

شوال سنة اثنين وسبعين ولما فرغ الأمير من لـوازم السـكنى القى في دمشق عصا الترحال واتخذها دار إقامة في الحال والاستقبال وحمد الله تعالى الذي انعم عليه وجعل مآل أمـره إلى دمشـق الفيحـاء فإنهـا بلـدة خيم فيها الإسلام من أول وهلة واستوعب من مواردها العذبة علة ونهله ونا رأى أهل دمشق مـا عليـه الأمـير من العلم ومكـارم الأخلاق والكـرم والفضل والإحسان ومعـالي الهمم سـارعوا إليـه فكـان يبشـرهم بنجـاح مقاصدها بإشارته قبل صريح عباراتـه واسـتخلص الأشـراف وأهـل العلم لولائه وربطهم بإحسانه وتوالي نعمائه فمـا تـوالت لهم في الـتردد عليـه قدم ولا مطل لهم في مدحه والثناء الجميل عليه فلم . ذكر

توجه الأمير إلى زيارة بيت المقدس وبعد ان رتب شؤونه وأتمها تحركت نفسه إلى زيارة بيت المقدس فخرج إليها سنة ثلاث وسبعين ومائتين وكنت بمعيته وجعل طريقه على صفد بلدة نبي الله سيدنا يعقوب عليه السلام فزار آثاره فيها ووقف على جب سيدنا يوسف عليه السلام ومر على حطين حيث كانت الوقعة الكبرى بين صلاح الدين والصليبين ثم توجه إلى يافا إجابة لطلب مفتيها العالم العامل التقي الكامل السيد حسن الدجاني الحسيني فتلقاه أعيان البلدة خارجها ونزل في داره فحل لديه حلول صديق غائب ووقع عنده وقوع صائب فأفاض الأمير علبه وعلى أقاربه سواكب إنعامه واراهم عجائب افضاله وإكرامه وممن لازمه إذ رأى انعطافه عليه ومدح فأجاد وبلغ من الإجادة ما أمل وأراد العلامة السيد حسن أفندي أخو المفتي المذكور فقال : عهدنا بغرب مطلع البدر مشرقا ◈ وأنا نراه الآن قد لاح مشرقا

وللغرب اصل الفضل إذ هو مطلع ◈ وان يك بدر التم في الشرق اشرقا
رعى الله بدراً قد سرى يحمد السرى ◈ إلى الحرم القدسي وهام تشوقا
فلله من يوم به وصل الهنا ◈ وجاد بشير الأنس بالوصل واللقا
وأشرقت الدنيا بطلعته التي ◈ بدت شمس حسن نورها قد تألقا
بروحي افدي من علقت بحبه ◈ وأضحى لديه اللب بالرهن موثقا
سما في سما العليا كمالا وبهجة ◈ ولطفاً وظرفاً فوق عرش البها ارتقى
لطلعته تعزى المحامد مثل ما ◈ لحضرة محيي الدين حمدي تحققا
ومرآه عيد للتهاني بقدم ◈ لمولاي عبد القادر السامي مرتقا
أمام محاريب الأفاضل جامع ◈ لكل كمال في الأنام تفرقا
همام نجاد وافر لفضل كامل ◈ بسيط الندا قد أفاق فهماً ومنطقا
وما هو إلا سيد وابن سيد ◈ له المحتد العالي من الدر منتقا
مليك إذا ما ام ساحة جوده ◈ أسير العنا في الحال من واعتقا

حوى البأس والمعروف والمجد والذكا ◈ وحاز المعالي والمكارم والتقى
ولا عيب فيه غيران عطاءه ◈ إبان لعجز الشكر لما تدفقا
سل الصارم الهندي عنه فانه ◈ يحدث عن فضل به الضد صدقا
وليس لماضي عزمه من مضارع ◈ لعليائه الأمر انتهى وتعلقا
زهت جلق مذ رامها منزلاً له ◈ فرد بروج البدر في العد حلقا
وأضحت دمشق مذ اناخ بسرحها ◈ كجنة خلد نشرها قد تعقبا
وكم ما سمعنا عن مآثر فضله ◈ فهمنا على حب السماع تخلقا
وحاشاه ان أحصي بمدحي نعوته ◈ وهل يحصى ودق في البرية أغدقا
وما الشعر من دأبي ولا أنا أهله ◈ وان اكُ أحياناً به متسقا
ولكن أياديه التي عم فضلها ◈ وحبي لآل المصطفى العروة الوثقى
دعاني إلى هذا القريض وانني ◈ مقر . بتقصير به اطلب العنقا
امولاي محيي الدين والسيد الذي ◈ على فضله الإجماع قام واطبقا
هنيئاً هنيئاً بالقدوم الذي به ◈ لقد اقبل الإقبال واستدير الشقا
ووافى ألوفا يافا بكم وتشرفت ◈ وفاقت على الأمصار فخراً ورونقا
فبشرك يا بدر العلا بزيارة ◈ بها فتح لقريب لما كان مغلقا
ولا زلت في أوج السيادة راقياً ◈ ودام لك الإسعاد والعز والبقا
وهاك عروساً في مديحك قد حلا ◈ بحلي ثناكم جيدها وتمنطقا
على خجل وافت توءم رحابكم ◈ فمن عليها بالقبول تصدقا
وصلي وسلم يا الهي تكرماً ◈ على المصطفى خير الخليفة مطلقا
وآل كرام ثم أصحاب هديه ◈ مدى الدهر من كنجم السهى رقا
وأضحى اليمين بالقدوم مؤرخاً ◈ إلى المسجد الأقصى سرى يطلب التقى .

1273'وصادف' الأمير في يافا قيام أهلها ومن يليهم بمولد نبي الله روبيل عليه السلام عند مشهده الكريم على مسافة من البلد فأقام عند المفتي أيام ثم خروجاً معاً في ذلك الجمع الغفير إلى حضور الولد برسم الزيارة والتبرك وأقاما يومين ثم ودع المفتي هناك وتوجه إلى زيارة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام وفي معيته السيد حسن الدجاني فتشرف بمقام ذلك النبي الجليل وأقام في أعتابه ثلاثة أيام ثم توجه إلى القدس الشريف لزيارة المسجد الأقصى الذي تنجلي بمشاهدته سائر الهموم وتزول بها عن القلوب الغموم وينشرح فيه الصدر وتصفو به مرآة الفكر .ولما قرب من تلك البلدة المعظمة خرج أعيانها لاستقباله ونزل في دار ناظر أوقاف سيدي أبي مدين الغوث قدس الله سره وأقام هناك أياماً يتعاطى كؤوس العبادة رئقه وتوالت على أهل البلد الشريف هباته ومبراته وزار القمامة وبيت لحم وقبر سيدنا موسى عليه السلام ثم توجه إلى بحيرة لوط لزيارة مسجد الياقين ومنها إلى نابلس واستوعب من بلاد فلسطين كافة الأماكن المباركة والعالم المقدسة ثم توجه إلى الغور فزار قبر سيدنا معاذ بن جبل وقبر سيدنا أبي عبيدة بن الجراح ومن معها من الصحابة الكرام رضي الله عنهم . من هناك رجع إلى دمشق على طريق حوران فزار قبر الإمام النوري وحمد الله تعالى على هذه النعم المتوالية عليه وشكره شكر من عرف المنة فعظمت لديه وكان قبل سفره إلى بيت المقدس حضر إلى أعتابه الأديب المسيحي سليمان أفندي الصوله وقدم إلى حضرته ما نصه . الحمد لله الذي جعل مكارم الشيم داعية الفصاحة في العرب والعجم حمداً يستحقه بعلو شانه

وسبوغ إحسانه وبعد فلما اجمع البشر من البدو والحضر على مدح آية الحرب والمحراب والقلم والقرضاب السيد الشريف المستغني لشهرته عن التعريف الأشهر من علم وتسريل بالنار والأوضح من الشمس في أربعة النهار صاحب الوقائع المشهورة والمآثر المخبورة والزيا الهاشمية والمكارم الحاتمية مولانا وسيدنا الأمير عبد القادر ذو السيف الباتر والفضل الباهر والحلم السافر والحزم الوافر رب المفاخر والوقار والسماح المرار المغربي التجار والمشرقي الأنوار القاطن الآن بالكنانة قمر حفه الجمال وزانه أحببت أن أتشرف بمدحه السامي كما تشرف كعب بمدح جده التهامي فنظمت ما هو بالنسبة لمقامه الرفيع لا يعد الا من يقط المتاع ولكن بمدحه البديع اصبح يهدر على عواتق السماع ولعمري لا يفتخر السيف بقرابه والمرء بجلبابه انما يفخر القشر بلبابه والدان بشرابه . ولله در القائل . ماذا يضر

السيف كون قرابه ◈ رثا أو البازي حقارة عشه

وهذا ما جادت به القريحة الجامدة . وتألقت به الفكرة الخامدة . قبل تحريك ركابه المنيع . لزيارة الحرم الأقصي الشريف . وتالله لقد قصرت بمدح الهمام الفاضل . وأين الثريا من يد المتناول . فأرجو المعذرة من ذوي البصائر . والحمد لله في الأول والآخر . شقت دجي فرعها عن فرقها السحري ◈ فسبحت ايكة الوادي على الشجر

وأقبلت تتجلى في غلائها ◈ كالغصن لو يتحلى الغصن بالدرر
يزفها بلبل الخلخال مبتهجاً ◈ زف المبشر بالإقبال والظفر
نقول قد رتقت بالوصل ما فتقت ◈ أيدي الزمان وشقت شقة الكدر
فقمت الثم موطاها ولو سحت ◈ بلثم اخمصها قبلت بالبصر
أقول والشمس شمس الراح باسمة ◈ بالكأس أن التي امتدت يد القمر
وقلت للراح لما افتر مبسمها ◈ هذا هو الحب الدري فاتزري
روحي الفداء لها انثى مكرمة ◈ نصال ناظرها أمضى من الذكر
لقل بدراً على غصن يقلمها ◈ بحر من النور في زق من الحبر
رود علقت بها درم مرافقها ◈ يكاد أوسطها يخفى عن النظر
كان ما بين عينيها واخمصها ◈ مد الصراط فلم نأمن من الخطر
بيضاء صبح محياها يشوقنا ◈ للاصطباح براح المبسم العطر
ما اطلعت مثلها الجوزاء نيرة ◈ ولا حوى مثلها الا كليل من بشر
تظلل الورد في نسرين وجنتها ◈ بآسة اللاز ورد الرطب في الشعر
ترنو بعين مهاة كحلها حور ◈ واعين العين لا تخلو من الحور
تزهو بجد تروق العين طلعته ◈ كأنه جيد خشف خائف ذعر
يخشي الكمي بعيداً قوس حاجبها ◈ فرا لخيفته قوس بلا وتر
ويتقى جفنها المكسور وتحرابا ◈ لا يحمل الشهم سيفاً غير منكسر
علقتها هونة الأخلاق طوع يدي ◈ طوع العناق وطوع اللهو والسمر
فما ظفرت بتكدير لرقتها ◈ لكن ظفرت بصفو غير منكدر
تركت بالصرف عني الهم منصرفا ◈ فاقبل الانس يسعى سعي معتذر
وبت ما بين خلخال واسورة ◈ أحاول الوصل بين الخوف والحذر
أقول هل رحمة لقضي بتكملة ◈ لانس مفتقر للوصل منتظر

لولا غرامك ما احيي الدجى طعماً ◈ بزورة منك يؤتاها على قدر
ولا تناوم للأطياف يخدعها ◈ برقدة الزور لما خط في السمر
فوسدني وثيرا من ترائبها ◈ هو الجين إذا كان الجين طري
وكان ما كان مما لست اذكره ◈ فظن خيراً ولا تسأل عن الخير

حـتى إذا انقبض الـديجور وانبسـط ال _ شـحرور وانتفض العصـفور في الشجر

وبادر الصبح مجالاً بجيعلة ◈ تنبه النرجس المكحول للسفر
مدت صحيفة كافور تودعني ◈ بها فخر عقيق الدمع كالاكر
فقلت العين لما آن مرتحلي ◈ بانت سعاد ولاح الفجر فانفجري
فصير القادر الأجفان في لجج ◈ حكت ندى عبده السمح الابى مضر
الثابت العزم والأبطال في قلق ◈ والبيض تقذف للجيشين بالشرر
الملهب الاملد الخطار من مهج ◈ حراء مملوءة بالحقد والأشر
المنهل السيف يوم الكر نهلته ◈ من قمة الرأس أو من قلة البصر
التارك البطل القمقام منعقراً ◈ بعثير كاديم الليل معتكر
افديه من أسد للحق منتصر ◈ فحر لمفتخر . غوث لمصطبر
سيف يذب عن الدين الحنيفي ولم ◈ يخش الملام فما في الدين من خفر
يغشى الوغى باسماً والخيل عابسة ◈ بصارم كقضاء الله منحدر
هتك السوابغ من عاداته خدم ◈ من نمل جوهره الآساد في حذر
وذابل ركب الموت الزؤام به ◈ سن المنون فلم يترك ولم يذر
يفيض بالفتك أبكار القلوب على ◈ كبد السوابغ فضاً غير مستتر
وصافن من جياد الخيل مبتدر ◈ يقول للبرق سر مهلاً على اثري
كأنه تخت ملك فوقه ملك ◈ لا يأخذ النفس إلا أخذ مقتدر
يرمي العداة بما تذري حوافره ◈ من الثرى فترى نبلاً من الحجر
هناك لا الخودة البيضاء تمنعه ◈ عن المرام ولا حمالة الدثر
تراه هو فريد من مهابته ◈ بجفل من ليوث الغاب منتشر
لا يتقى البارود منحدراً ◈ يفرى أديم الدجى في مهمه قفر
ولا يهاب بريق البيض يتبعها ◈ رعد العدا ودم الابطال كالمطر
الية بالهجان الشد قمية إذ ◈ تفري السباسب نحو الركن والحجر
والصافنات عليها القوم يعتنقوا ◈ نقع الدجى لا أولي طيش ولا خور
ما أولد المجد من بكر العلا أسداً ◈ سواه للدين من بدو ومن حضر
سيف سنين به سن القديم لمن ◈ يرجو الجهاد حديثا طيب الخبر
قد صير الغرب شرقاً مشرقاً أبداً ◈ بنور شمس افتخار غير مندثر
لاقى الخطوب بصدر العزم فانفرجت ◈ وقيد الحزم بالتقوى فلم يجر
حتى غدا الوحش كالأطيار في طرب ◈ والجن كالإنس مما جال في الضجر

لم يتبع دعوة الباغي لمظلمة ◈ ولم يبع نصرة المظلوم بالبدر
ولم يدع برؤوس القوم من طمع ◈ الا جلاه جلاء السيف من وضر
بادهم طبعت فيهم سنابكه ◈ ميم الممات على الصادات في الطرر
كان نسر الدياجي فوق غرته ◈ من الاسارى قصيص الريش لم يطر
صيد قوم فاضل حكم ◈ وعالم عامل بالنص والخبر
فصل الخطاب له حتما وحجته ◈ لله بالغة في لجة الاثر
له على الفقه في التأليف خير يد ◈ وبالتفاسير فضل غير منحصر
علم الخليل الذي باهى بأبحره ◈ يرى لدى علم هذا البحر كالقدر

بحر من الجود لو ضمت سواحله ال _ بحر المحيط لضمت اصفر الاكر

يجود وهو يحيينا بمنطقه ◈ فلا نفرق بين النطق والدرر
يا كعبة الجود من لباك فاز بما ◈ يرضى الإله وأضحى خير معتمر

إليك جارية عذراء جارية في ساحة الحسن ترجو نقد معتبر

ترجو القبول فلا شيء يعادله ◈ عندي وليس لها الاه من وطر
فان سمحت به فالجود عادتكم ◈ وان ضننت فمن حظي وأنت بري
دامت لطلعتك الأعوام باسمة ◈ ودمت في كل آن تاج كل سري
وجادك الحرم الأقصى بنيل منى ◈ ما قبل المزن وجه الروض بالمطر
ونشقتك نسيمات القبول شذا ◈ ريحانه الليل أو نسرينة السحر

'ولما رجع الأمير من سفره إلى دمشق قدم له قوله'

من مجيري من العيون السكارى ◈ ونصيري على القدود الخدارى
ومقيلي من البعاد بقيل ◈ يصرف الروع عن قلوب الحيارى
يا حداة المطي ان فؤادي ◈ ضالع في ظعونكم يتوارى
مائل ضاع في الرحال ولكن ◈ ما ارى ما يعيده فتمارى
فارفقوا بالفؤاد يا مالكيه ◈ انما الرفق واجب بالاسارى
وارحموا من غدا وحيداً فريداً ◈ فازاحاً نائحاً مضاما مضارى
آه من لي بوصل ريمة خدر ◈ ريقها يترك القراح عقارا
صيرت مقلة الغزالة خالاً ◈ واخا طوقها الهلال سوارا
يا غواني حذار ان دموعي ◈ اوسعت كل عاشق إنذارا
من اصب بينكم متفان ◈ يرسل الدمع خلفكم تيارا
من مديد البعاد وافر سقم ◈ غيركم كتمل الملاخة مارا
اكبت ضعفاً بالجغون انتصاراً ◈ اكثر الله في الجنون انكسارا

يا بدور الحمى ارفقوا بأسير ◈ *يطلق الغيث دمعه استعبارا*
وانجدوا يآل نجد ميت هواكم ◈ *مسنى الضر بعدكم من غيارى*
واصطباري اضمحل من جل نار ◈ *صورت في خدودكم جلنارا*
ومنامي الذي عتبت عليه ◈ *شام سهم الجفون ثار فطارا*
يا لقيس من قوس حاجب ليلى ◈ *ملكت سهمها علي فجارا*
بدل النوم بالسهاد واهدى ◈ *من وريدي لقوسها أوتارا*
طال ليلي كفرع ومالي ◈ *عن هواها البسيط قط اقتصارا*
كلما ابتعت للتصبر درعاً ◈ *أشهرت من لحاظها بتارا*
جار فينا وعاد عنا سقيماً ◈ *بعد ما صير القلوب فجارا*
قل لمن يجهل المحبة من لا ◈ *يعرف المسك يحسب المسك قارا*
نحن قوم نرى المحبة ديناً ◈ *والملاهي عن الأحبة عارا*
كل من فاز بالمحبة منا ◈ *حبة منه ترجح القنطارا*
كيف أسلو المهاة لحظاً وجيداً ◈ *والتفاتاً وغنة ونفارا*
أرقتني وفارقتني نعيني ◈ *ترسل الدمع بعدها مدارا*

دمع عيني إذا أجرى خلت عبد ال _ قادر السمح أو رد الإبحارا

الطويل النجاد سمح الأيادي ◈ *خير من ساد عنصراً ونجارا*
باسم الثغر والزمان عبوس ◈ *والضواري من الخطوب ذعارى*
فاقد الند ند روح المعالي ◈ *فاضل الجد امنع الخلق جارا*
عقد ضل به الفضائل فازت ◈ *بانتظام وكان فيها انتثارا*
نير الفكر لو ألم بليلٍ ◈ *صير الليل بالضياء نهارا*
اكرم الصيد حل اكرم ارضٍ ◈ *أطلقت من سماحه بحارا*
ازدهرت من علومه وأضاءتٍ ◈ *هكذا الشهب تبدع الأنوارا*
يا له من سحاب سماح ◈ *بضباب الملال لم يتوارى*
أمطرتني يداه دراً ثقيلاً ◈ *صغته في مديحه إشهارا*
فله الفضل لا آمن عليه ◈ *بحور من كفه تتجارى*
عالم عامل خبير خطير ◈ *في ميادين فضله لا يجارى*

تحسب السيف واليرع بكيف _ ه خيولا إلى العلا تتبارى

تحسب الطرس في يديه عيونا ◈ *والمداد الذي عليه احورارا*
نطقه حكمة وفصل خطاب ◈ *ومناجاته تفيد افتخارا*
عطر الشعر ذكره فملأنا ◈ *بغوالي مديحه الاقطارا*
وسمعنا حديثه فغدونا ◈ *بقديم من السلاف سكارى*
ماجد صير العفاف مقرا ◈ *ومن الخير قد تخير دارا*

ساد أهل الزمان خلقاً وخلقاً ◈ منهما الكون غدا معطارا
فاتك فاتح مغليق رمزٍ ◈ من علوم تحير الأفكارا

ذاته النقطة التي ارتكز المج _ د عليها وثبت الانوارا

آيه الحسن والكمال عليها ◈ أرسل الله لطفه زخارا
لم يزل ضائري الزمان إلى أن ◈ شام في الشام سيفه فتوارى
شام في سيفه اخضرار زعاف ◈ فاتقى ان يضل فيه اخضرارا
قل لمن فيه قد تباله جهلاً ◈ وانك لا تشرق البدور سرارا
ذا الذي اشبع الوحوش لحوماً ◈ غضة من عداه والأطيار
احرق العتي بالجهاد واورى ◈ بقارب العدا من الفتك نارا
شم محياه فهو آية حسن ◈ أبدعت من بهائه انوارا
ودع الحاسد الذي يتعاطى ◈ عن ثناه البديع أو يتوارى
لا تضر الشموس عين حسود ◈ أنكرتها تمرضا وخوارا

أيها السيد الذكي الذي كا _ د ذكاه يصير الماء نارا

والنبيه النبيل والحكم الف _ د الذي جل عن مقاتل دارا

يا مريش الجناح مني بأرض ◈ لم ينلني سواك منها قرارا
ان بعد المزار ابعد نومي ◈ عن عيوني وارمد الأبصار
فاجز البين لا عدمتك عني ◈ انه ظل كافراً فجارا
لا تدع غير سيل قربك يهمي ◈ فوق هامى مؤبداً مدارا

قد حبي جدك الإله باسرى اللي _ ل سبحان من حباك نهارا

لا سباك الآله حلية حزم ◈ لا يشق الهجاء منها شعارا
وبقيت الدوام تزجي البلايا ◈ عن أرقاك قادراً منوارا
قاتلت عبدك العيون فنادى ◈ من مجبري من العيون السكارى

^ ذكر

قضية مدرسة الأشرفية المعروفة بدار الحديث النووية

كان رجلاً من الأروام القاطنين في دمشق اسمه يانكو قد استولى على الدار التابعة لمدرسة دار الحديث الأشرفية ثم مد يده إلى الزاوية الغربية من المسجد واقتطعها

منه لوضع دنان الخمر فقام عليه العلامة الشيخ يوسف بدر الدين المغربي المتقدم ذكره ورفع أمره إلى الحكومة المحلية فلم تسمع دعواه فتوجه إلى الأستانة وتعاطى الأسباب لإنقاذه هذه البقعة المباركة وبعد الجهد التام أحرز فرماناً سلطانياً في ذلك ولما قدمه إلى والي دمشق طرحه في زوايا الإهمال وبقي الأمر إلى أن جاء الأمير إلى الأستانة من فرنسا فاجتمع به الشيخ يوسف وشكا إليه أمره وجاء معه إلى بروسة ثم توجه إلى الأستانة بقصد الهجرة إلى المدينة المنورة وحصلت بينه وبين الأمير مكاتبات ومن جملة ما كتبه له في شأن المدرسة المذكورة قوله جناب السيد الهمام والبطل السميذع الهمام شقيق الروح واسي الجروح من محبتنا فيه كما يعلم الله ورسوله خالصة وهي مع البعد متزايدة غير متناقصة مولانا السيد الشريف الأمير سيدي عبد القادر بن محيي الدين لطف الله بنا وبه وكافة المسلمين في كل سكون وحركة آمين وبعد فأهدي أوفر تسليمات زكية وأسنى تحيات متوالية إلى الحضرة العلية والطلعة السنية تؤم المغنى وتعم المعنى هذا والمعروض بعد أداء الدعاء لنفرض انه وصلني من الجناب كتابان قرت بكل منهما العينان حيث استفدنا منهما صحة مزاجكم وراحة بالكم فنسأل الله لكم دوام ذلك وإبلاغكم فوق ما هنالك وان يسلك بنا وبكم احسن المسالك وما تفضلتم به على سبيل البشارة ثم توقفت في تطبيق معناها على قضيتنا باتحاد البشير والمبشر ثم خطر بالبال المعلول لنه من باب تنزيل الخلف الاعتباري منزلة الذاتي كما هو مبين في الأصول ويمكن أن يكون من باب السراية على أعداء الزمان ثم أهم ما سرني عزوك مسألة عمورية إلى نص القاموس . إذا قالت حذامى فصدقوها . ولا عطر بعد عروس فأني قبل تنبيهك كنت مرتبكاً في أي النقلين هو الصواب حتى أتى جواب الجناب اكثر الله فوائدكم وأدام وأرسلت لكم سابقاً جواباً مشتملاً على قصيدة بائية من بحر الطويل حمل عليه صدق المحبة وأخبرتكم فيه أني الآن ولله الحمد في سعة عظيمة وأحوالي بفضل الله عز وجل من قبل الصحة والدنيا مستقيمة قاصدين سكنى المدينة حتى ينزل بنا على ملة الإسلام إن شاء الله الحمام ويا سيدي قد نصحتم وأجدتم وهذا من صدق محبتكم المحققة التي لا تحتاج إلى استشهاد يقول القائل ليس يصح في أذهان شيء الحج فها أنا ابسط عذري وهو اني قاسيت بالشام من المصائب العظام ما لا يصدر على مثلي لو كان بين عبدة الاصنامك وذلك مشهور لدى الخاص والعام فأولاً دار الحديث مدرسة أسست على تقوى وكان بها النعل المنيفة التي مستها قدمه الشريفة صلى اله عليه وسلم وكانت محط رجال العلماء العاملين أساطير الإسلام وأئمة الدين فأولهم الحافظ بن الصلاح ثم الإمام أبو شامة ثم القطب الكبير الإمام النووي الشهير ثم الحافظ المزي ثم مجتهد الدنيا في عصره السكي الكانس لها بلحيته وقال في شأنها وفي دار الحديث الخ إلى الحافظ بن حجر شارح البخاري بفتح الباري وإضرابهم ومن البين ان التبرك بآثار الصالحين من سنن النبيين والمرسلين وفعله صلى اله عليه وسلم ليلة مسراه باشار سيدنا جبريل حيث صلى في مكان سيدنا موسى وسيدنا عليهما الصلاة والسلام مع تفاوتهم في درجات الكمال بشهادة تلك الرسل تنبيها لامته على انه سنة قديمة ليغتنموا ثواب هذه المنقبة الفخيمة فمدرسة هذا شانها خبرها مشهور متوافر امتلأت يه بطون الدفاتر قصدها الأكابر من سائر الأقطار لاغتنام بركة ما فيها من الآثار يليق ان يكون بجوار ما خمارة لاجتماع الفسقة فضلاً عن كونها في قاعة درسها ودار وقفها سبحا بك هذا بهتان عظيم ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم وعجب من هذا أن أهل هذا الكتابين الذين تحت الذمة في ظاهر الحال مع نقضهم للعهود الدينية والشروط العمرية هل سمعنا أو رأينا انه خربت لهم كنيسة كانت معدة لعبادتهم جعلوها خمارة أو تجاسر يعض سفائهم وشرب بها خمراً

مع استحلالهم لذلك وأزيد من هذا ما شهدته بعد توجهي في العام الماضي من عندك من تزوير الحجج الباطلة بعد كتب الحجة لنا الدار للوقف بشهادة الجم الغفير من أهل الإسلام وختم عليها رؤساء المجلس والعلماء والقاضي وادعوا ان النصاني حماية وهو رعية ووضع جزية عشر سنين الآن فما بالهم لا يرجعون الوقف إلى اصله فقوم هكتوا حرمة شريعتهم وكسروا ناموس دولتهم فعلى أي حال يكون المقام بينهم ثانياً مالي بينهم معاش ولا مرتب وكلهم له ذلك وهو مع ذلك في الزيادة يرغب وكسبهم بقراءة القرآن والتهاليل ودخول المحاكم للتوكيل وإصلاح بين رجلين على أي وجه كان الأكل من الطرفين وما اعتدنا ولله الحمد شيئاً من ذلك وقد عودنا الحق سبحانه وتعالى الرزق من حيث لا تحتسب وضاقت علي بين أظهرهم الأحوال مع اني ببلدتهم ذو عيال فمعاشي بمزاولة الأسفار ومع ذلك يقول بعض سفهائهم الشيخ لا ثبات له ولا قرار راكباً في شامنا متن عين عمياء خابطاً خبط عشواء بدون بصيرة ولا استبصار وما درى الغبي أني في نفسي مهموم بشأني وشان عيالي ومن يقدم علي من الأحبة فأي فكرة تنقدح الإدراك البديهي فضلاً عن النظري من العلوم مع انه لم يكن في البلد عالم مستعد ولا طالب له ذهن متقد ولا يشتغلون بمهمات العلوم إنما يشتغلون بصغار كتب بعض الفنون بدون إتقان وتحقيق فلا قوة الا بالله ونسأله سبحانه اللطف فيما جرت به المقادير فخرجت معنقد ان الهجرة واجبة للمناكر الشائعة والمصائب المتعاقبة على الحال الذي رايته جنابك فصارت الدنيا في وجهي كالخاتم مع سعتها وسدت الأبواب دوني الا باب من هو الأنبياء ختام فتوسلت به الله فتخلصت ولله الحمد ببركته من كل شدة بحول الإله وعلمت ان ذلك تأديب لي منه سبحانه بتركي التشريف بجواره صلى اله عليه وسلم ونشر شريعته في بلدته على قدر عجزي حسب الإمكان مع الاستراحة التاوة فلما صممت العزم على ذلك تيسرت أموري كلها عامة ثم أن الحق تعالى ساق الأمير إلى سكنى دمشق فرأى الأمر كما بلغه فحركته الحمية الإسلامية والغيرة العلوية فاحضر الرومي عنده واشتراها منه ثم أوقفها بموجب حجة شرعية على الشيخ يوسف وعلي عقبه وإذا انقطع نسلهم يرجع ريعها للمدرسة وذلك في الثاني من جمادى الأولى سنة اثنين وسبعين ومائتين وألف وأمر بترميم المسجد والمدرسة على نفقته وجعل الله تعالى إنفاذها وتطهيرها من نجاسة الخمر على يده وهذه من اعظم المبرات ونوافل الخيرات وبعد أن أتم ترميمها وإصلاحها كتب للشيخ يوسف واخبره فحضر من المدينة المنورة وسكن في الدار واستلم المدرسة وفي أول يوم من رجب سنة أربع وسبعين ومائتين افتتح الأمير فيها التدريس بصحيح البخاري رواية بحضور الشيخ المذكور وكان يجلس لاقرائه بعد صلاة الظهر إلى ان يصلي العصر وكان درسه منوراً مفيداً يحضره العلماء والأذكياء من الطلبة ووافق ختامه في آخر يوم من رمضان وحضر ختمه جماعة من العلماء وأجاز كل من كان حاضراً في ختامه من طلبة العلم وفيهم الشيخ يوسف بدر الدين المغربي فقام في ذلك المجلس وانشد بين يدي الأمير قوله : باب القبول لهذا

الختم قد فتحا ◈ فلاح من يمنه بدر السعود ضحى

وهب من روضة الرضوان عارفة ◈ أضحى بها القلب مسروراً ومنشرحاً

اما ترى السعد قد لاحت بشائره ◈ وطائر اليمن في ادواحه صدحا

وهذه اوجه الإقبال مسفرة ◈ والوقت بالبشر والآمال قد سمحا

فهل الهك ما ترجوه من أمل ◈ واضرع إليه فوجه القرب قد وضحا

وابسط يديك إلى مولاك مبتهلا ◈ فان من ام باب الله قد نجحا

ان البخاري معلوم الإجابة في ◈ ما أمه المرء في إقرائه ونحا

فما توسل يجزون به ورجا ◈ الا وأبدل من أحزانه فرحا
ولا تلاه لكشف الضر ذو حرج ◈ الا تباعد عنه الضر وانفسحا
ولا لقرب مكروب لخالقه ◈ بسره مخلصا الا اغتدا فرحا
ولا تنفس من أنفاسه ارج ◈ الا اتى فرج باللطف منفتحا
فالهج به ورواة فيه قد وصلوا ◈ به حديث رسول الله متضحا
هم الأئمة تجلى كل داجية ◈ بنورهم وهم الأقطاب والصلحا
وهم الو القرب في دنيا وآخرة ◈ والسادة القادون الهادون والنصحا
أهل الحديث حماة الدين تابعهم ◈ في متجر الحق والتحقيق قد ربحا
فازوا بدعوة خير الخلق ما وجدوا ◈ الا ونور الهدى من وجههم لمحا
رووا الحديث رسول الله عن زمر ◈ غصنا كريا عليه الصدق متضحا
وقد نفوا كل شك عن شريعته ◈ فأرغموا انف من للشك قد جمحا
جزاهم الله عن نبيهم ◈ ودينه وحباهم اجر من نصحا
وقد تسامى ابن إسماعيل في شرف ◈ بهم فنال العلا والفخر والمدحا
لدى إلينا صحيحاً من حديثهم ◈ بجامع فاق ترتيباً ومصطلحا
أتاه مولاه اجر المحسنين فقد ◈ أهدى المحدث عقداً ما له طمحا
قد اعتنى كل ذي دين وذي رشد ◈ به فخار به التقديم والمنحا
ورددوا سره في كل آونة ◈ يرجون من يمنه لقريب ما نزحا
وحاز قصب سباق في دراسته ◈ وفهمه عارف بالفضل قد رجحا
في مسجد الأشراف السلطان ما وسما ◈ دار الحديث بدرس ابهر الفصحا
ضبطاً وبحثاً مع الإتقان مقتفياً ◈ آثار من حلها من سادة صلحا
مثل الإمام التواري والمضاهي له ◈ ممن على منهج الإرشاد قد سجا
فالله ينفعا فضلاً بجاههم ◈ ويكشف الكرب عن ذا الجمع والترحا
مولى به ملة الإسلام باسمة ◈ والدين عال وحال الناس قد صلحا
فسيبه أنعش المحتاج واكفه ◈ وسينه لضلال الكافرين محا
وصيته البس الإسلام عزته ◈ وعلمه المعاني الدين قد شرحا
نور النبوة يبدو في أسرته ◈ وسرها من حلى أخلاقها وضحا
قد اكسب الدين رفعاً والعلوم حلى ◈ فالكفر اصبح والعصيان منطرحا
وعمر العمر بالطاعات مجتهداً ◈ في اشهر الخير للخيرات مقترحا
آدم الهي لعز الدين عبدك من ◈ للقادر انضاف وامنحه العلا منحا
هو الإمام محيي الدين من ظهرت ◈ منه الكمالات فثي الدنيا كشمس ضحى
من قام لله في أمر الجهاد ومن ◈ غدا به صدر دين الله منشرحا
في عصرنا ما سمعنا من سواه حبي ◈ مثل الذي نال أو طرفاً كهو لمحا
أضحى له وزراً في كل نائبة ◈ تعرو وحصناً حصيناً كلما سنحا
وجاء للدرس والاملا جهاذبة ◈ للبحث ان عن أو للفهم ان جنحا
قد لازموه ونالوا من معارفه ◈ ما يخرس اللسن أو ما يبهر الفصحا
فلينهاء الحاضرة نيل مقصدهم ◈ من الفوائد ان الباب قد فتحا

ويسال القوم ما شاؤا لأنفسهم ◈ من فضله الجم ان الله قد منحا
والعلم افضا ما ازدان اللبيب به ◈ وخير ما اعتيق التحرير واصطبحا
واسعد الناس من كانت بضاعته ◈ علم الحديث الذي قد صح واتضحا
واسند العلم أخذاً عن أئمته ◈ فنال من عليه الإسناد ما اقترحا
وللبخاري رجال يستغاث بهم ◈ في المحل ان حل أو في الخطب ان فدحا
بجاههم اسأل الرحمن مغفرة ◈ ورحمة تذهب الأحزان والترحا
ونكبة لعدو الدين عاجلة ◈ تدير بالهلك والتدمير كل رحا
بك انتصرنا وأنت الله ناصرنا ◈ فالنصر منك لمن يدعوك ما برحا
انزل بهم يا شديد البطش قارعة ◈ تكسوهم الذل والتبديد والبرحا
وامدد بنصرك والتأييد عبدك من ◈ أضفته لمجيد القدر ممتدحا
وانظم به شمل هذا الدين واكس به ◈ جماعة المسلمين الأمن والفرحا
واجعل بطاعته يا رب عصمتهم ◈ وألف الكل واهد كل من نزحا
وزده حلما وتوفيقا وعافية ◈ واجعله افضل من أمسى ومن صبحا
وارفع عماد الهدى والدين واحم به ◈ شرع النبي وخذ من زاغ أو جمحا
واحفظ بطانته أركان دولته ◈ ممن أعان على خير ومن نصحا
ولا تدع اذوي التثليث ◈ وطهر الأرض ممن عاث أو مرحا
بخاتم الرسل لمختار سيدنا ◈ محمد من به باب الهدى انفتحا
ما خاب من جعل المختار واسطة ◈ ووصلة للباري يرجوه واقترحا
فانه باب فضل الله ما برحت ◈ سحائب الجود منه تمطر المنحا
ما نال ذو مطلب دنيا وآخرة ◈ الا استعار من المختار ما منحا
صلى عليه اله العرش ما طلعت ◈ شمس وما سار عيسى بالحجيج ضحى
والآل والصحب ما انجب الظلام ما ◈ ورق على غصن أيك ناح أو صدحا
أو قال يوسف بدر الدين مبتهلاً ◈ باب القبول لهذا الختم قد فتحا

'وقال أيضاً يمدح الأمير بهذه الأبيات'

بك المسرات قد نالت أمانيها ◈ يا نعمة مالها شيء يعانيها
أن كان عيدا لها تهنى بمرمه ◈ فالعيد كونك يا أقصى أمانيها
يا نجل فاطمة الزهراء من فضلت ◈ طرا نساء الدنا من ذا يضاهيها
اني اهنيك بالعيد المبارك بل ◈ بكون مثلك في الدنيا اهنيها
نعم اهنى دمشق الشام إذ ظفرت ◈ بمثلك الآن تغدو في ضواحيها
لما بدا وجهك الأبهى بساحتها ◈ ترادف الخير فيها مع تواحيها
لا سيما سيدي ما كان مدخراً ◈ من فك دار حديث من خناقيها
بك استنارت واحيي الله مربعها ◈ لما تلوت البخاري وسط ناديها
تلاوة ما سمعنا من تلاه بها ◈ من عهد يحيى النواوي في مغانيها
فاشكر آلهك إذ اولاك منه يدا ◈ ليست لغيرك جل الله معطيها

وابشر بخير فان الله ذو كرم ◈ *يخفي مقادير أشياء ويبدها*
في علمه غيب أسرار إذا بلغت ◈ *آجالها فلذا المخلوق يغشيها*
والله ينصركم نصراً كنصرته ◈ *أصحاب بدر الأولى ثم المضاهيها*
لا زالت يا نجل محيي الدين مرتقياً ◈ *أوج الكمالات باديها وخافيها*
ودام أشرافكم في افقها ولكم ◈ *باليمين أرخت عد في مغانيها*
1274 واجعل دعاً بظهر الغيب جائرتي ◈ *ولا تسل لي الدنا إذ لست ابغيها*

فأجابه الأمير بقوله

أتت مهنئة فليهن مهديها ◈ *جلت تراكيبها دقت معانيها*
تدل بالحسن والادلال حق لها ◈ *فما حوت مثلها بوماً مغانيها*
ودب في الجسم من أنفاسها طرب ◈ *دبيب حبي لهذا الخبر منشيها*
ليهننا بك عيد أنت شاهده ◈ *عيد النفوس إذا نالت أمانيها*
يا يوسف ردلي من قربكم نظراً ◈ *كرده بقميص أنت مهديها*
لينشرح صدرك المملوء من حكم ◈ *وطيب النفس شهيهيا ومنيها*
فأنت بين اخلاء لهم أرب ◈ *تبقى وان مات قاصيها ودانيها*
ولتعطنا من زكاة العلم واجبة ◈ *أنت المشيد دار بانيها*
أبقاك رب العلا لشر حكمته ◈ *رغماً لأنف معاديها وشانيها*

فأجابه العلامة المذكور بقوله

تطيب نفسي يا أقصى أمانيها ◈ *بحكمة منك يا مولاي تشفيها*
من حبها ما عن خيرات افقدها ◈ *من المعاصي التي للنار تهديها*

واحتفل الأمير أيضاً لتدريس كتاب الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي وكتاب الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز سيدي احمد المبارك بمدرسة الجقمقية وكتاب الشفا للقاضي عياض والعقائد النفسية وصحيح مسلم في المشهد الحسيني والمشهد السفرجلاني من جامع سيدي يحي واكثر اجتهاده في ذلك حال اعتكافه فيه فانه أقام سنين يعتكف في الجامع المذكور شهر رمضان من أوله إلى آخره وبعد رجوعه من رحلة الحجاز جعل التدريس في منزل الضيوف من داره وسنذكر ذلك في محله ان شاء الله تعالى . ^ ذكر

ما أحدثه الأمير في دمشـق من الأبنيـة ومـا اشـتراه من الأملاك داخلهـا وخارجها

تقدم ان مولانا السلطان الغازي عبد المجيد خان انعم على الأمير في بروسه بدار على وجه التمليك ولما جاء إلى دمشق انعم عليه بألف كيس بدلا عن الدار المذكورة فاشترى في دمشق دارين واسعتين بينهما دار صغيرة ومدخل الجميع واحد في زقاق النقيب من خطة العمارة فهدم أحدهن وأعفى آثارها وابتنى في موضعها داراً جميلة وفق مراده ولما تم بناوءها وتم إصلاح الدارين الملاصقين لها انتقل من الدار التي استأجرتها الدولة العلية له إليهن وكان العالم الفاضل حسن أفندي الدجاني اليافي إذ ذاك عند الأمير فقال مهنئا ومؤرخا بناء الدار الجديدة بقوله : يا حسن ما انشاه عين

الاكرمين ◈ من دار مجد نزهة للناضرين

هو عبد مولى قادر بل سيد ◈ في عصره والحق في ذا مستبين

دار زهت وبها المحاسن كملت ◈ وغدت مطافا كعبة للقاصدين

وبدا لسان الحال منها قائلاً ◈ أهلا وسهلا فادخلوها آمنين

لا زال مولاها بدار سعادة ◈ يهنا ويهنا بالصفاء مع البنين

وحماه ربي من مكائد حاس ◈ ومن الوقاية دام في حصن حصين

ما السعد قال مهنئاً ومؤرخاً ◈ نال الهنا فنعم دار المتقين

وقال مؤرخاً له أيضاً

ان هذا بيت مجد قد حلا ◈ وعن الهموم غماً قد جلا

ياله مقعد صدق قد سما ◈ وعلى الحسن البديع اشتملا

شاد عبد المولى قادر ◈ وهو مولى سيد في ذا الملا

من به قد اشرق كما ◈ نار فيه الغرب حقا أولا

منزل قد خيم السعد به ◈ ولمن فيه السرور اقبلا

ان يكن جدده الآن فكم ◈ سابقاً بالفضل شاد منزلا

دام بانيه يعيش رغد ◈ وملاذا للعفاة مؤملا

ما له الإقبال قال أرخوا ◈ ساد هذا سيد مأوى العلا

'وأرخها العـالم الأديب أمين أفنـدي الجنـدي رئيس ديـوان القلم العـربي بدائرة العسكرية بقوله'

دار الأمير الشهم عبد القادر ◈ كهف الدخيل وملجأ للحائر

دار بها دار السرور ومنزل ◈ بالعز منزله لبدر سافر

مولى جليل القدر أوحد عصره ◈ حاز المعالي كابراً عن الأكابر

شمس أضاء الكون نور سنائها ◈ صبح جلا ظلمات ليل كافر
ليث الوغى يلقى الكتيبة وحده ◈ فيبيدها ضرباً بسيف باتر
في نصرة الدين المبين حروبه ◈ تذكارها سمر لكل مسامر
قد حاز كل فضيلة بأقلها ◈ يسمو الفتى أقرانه بمفاخر
عين الكمال وجوده ونظيره ◈ في الكون مفقود بحكم النادر
بحر العلوم فليس يدرك غوره ◈ كنز التقى علم الهدى للسائر
من آل بيت المصطفى ولجده ◈ باز الرجال اجل نجل طاهر
عرفت ملوك الأرض رفعة قدره ◈ بل كل بادٍ في الأنام وحاضر
بمشاهد شهدت بقوة عزمه ◈ ومواقف وقفت بكل محاور
قد طار بين الناس طائر صيته ◈ يرويه فينا حامد عن شاكر
لما تواطن جلقا غبطت به ◈ وغدت لأهل الكون كعبة زائر
زادت به أرجاؤها شرفا كما ◈ قرت بطلعته عيون الناظر
وافاض للعافين من إحسانه ◈ وزدا يديه اجل بحر زاخر
احيي المساجد والمدارس بالتقى ◈ والعلم ثم ببذل مال وافر
واختار في خط العمارة منزلا ◈ لجنابه ولمنتم وموازر
وبنى به غرفاً زهت وأماكناً ◈ بالظرف أضحت بهجة للمخاطر
من تحتها الأنهار تجري دائماً ◈ حول الرياض وكل غصن ناضر
والطير ساجعة على أفنانها ◈ سجعاً يكاد يفوق نظم الشاعر
لثني على عليا الأمير فتنثني ◈ تهتز من طرب كحال الذكر
مولاي يا إنسان عين زمانه ◈ واجل ناه في الأنام وآمر
خذها إليك خريدة رعبوبة ◈ بكراً تزف بعقد در فاخر
عربية عربا رشيقة منطق ◈ تسبي العقول بغنج طرف ساحر
تهدى إلى كفوءٍ كريم ناقد ◈ ترجو القبول وتنتمي بمعاذر
جاءت تهنيكم بأبهى منزل ◈ كملت محاسنه بلطف ظاهر
لا زلت مرفوع المقام معظما ◈ دنيا وأخرى عند رب غافر
ما فاه باليمن الأمين مؤرخاً ◈ دار الأمير الشهم عبد القادر

'وأرسل' مع هذه القصيدة كتاباً نصه بسم الله الرحمن الرحيم احمد الله تعالى على آلائه وأسأله جزيل نعمائه . واصلي واسلم على سيد الأنام وآله وأصحابه الكرام ما اخلص عبد في السر والنجوى . وأسس عبد بنيانه على التقوى . وبعد فالثم يدي حضرة مولاي العالم العامل والجهبذ النحرير الكامل مجمع بحري السيف والقلم . ومطلع نيرى الحكم والحكم . الكريم الماجد والأمير المجاهد . الحائز فضيلتي الحسب والنسب . والفائز في الدارين باسنى ما طلب . المشار إليه في جميع الآفاق . والقامع بهمته العلية عصبة الكفر والنفاق بمدد سميه وجده باز الرجال . وبلغه الدرجة القصوى من مراتب الكمال . وشملنا بأنظاره العلية . وتوجهاته السنية آمين واعرض لحضرته الشريفة . وسدته المنيفة . ان انتماء العبد إلى حضرة الولي أمر غني عن الإثبات بالدليل . لدخوله في عموم قضية من القلب إلى القلب سبيلز ثم أني قد تجاسرت بتقديم هذا القصيد إلى رحابه الكريمة . معتذراً عن القصور هو لهذا الحقير شيمة . أرجو النظر إليها بعين القبول . وإسبال ذيل العفو عن عثرات

الجهول . كما اني التمس لأجل حصول الافتخار والشرف . وإحياء سنة الموالي ممن سلف . تنقيطها بشيء من الحلي المباح . أو تقليدها بقطعة من السلاح . والحمد لله في البدء والختام . وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام .فأجابه الأمير بقوله وأرسل معه خاتماً نفيساً أحلى المديح مديح خل فاخر ◈ أقواله تزري بدر باهر

عما اجن من الوداد جنابه ◈ ألفاظه تترى كشهد قاطر
تكسو الملاحة والطلاوة وجهها ◈ فالود من أرجائها كالناظر
يا صاح خاتمة الأفاضل كلهم ◈ من كل شهم كاتب أو شاعر
عندي لكم بين الضلوع مودة ◈ محفوظة ومصونة للغابر
كن كيف شئت فأنت أنت امينها ◈ ما بين بادي عربها والحاضر
ما الدر إلا ما أتانا منكم ◈ أنا مخلص للود أول شاكر

فكتب إليه أمين أفندي مجيباً ومتشكراً فضلك يا مولاي لا يحصر ◈ وفي سواك الكدح لا ينشر

يا كوكب الوقت ومن باسه ◈ حدث عنه السيف والأسمر
يا شبل باز الله عالي الذرى ◈ ومن هو السلطان والقسور
يا مركز النظرة من جده ◈ أنت إلى أسراره مظهر
تعنو لك الآساد من هيبة ◈ فان رأت شخصك لا تزأر
أعطيت ما لم يعطه سيد ◈ في عصرنا ما ثم من ينكر
ما قيس في الرأي وما حاتم ◈ في الجود ما سبحان ما عنتر
صيرتهم دونك حتى ولو ◈ جئت إمام الكل لم يذكر
عن مثلك الدهر عقيم ولم ◈ يتحف به كسرى ولا قيصر

اني لهم ذاك وهل صور ال _ عقل بان ينقسم الجوهر

لا غرو فالباري له حكمة ◈ في آل بيت المصطفى تظهر
هم اشرف الناس بلا مرية ◈ لهم يد المحراب والمنبر
وهم نجوم الكون أقماره ◈ وأنت أنت النير الأكبر
أنت لنا شمس فلا غيبت ◈ أنت لنا سيف به نقهر
أنت لنا ركن إذا أقبلت ◈ حوادث الكون له تنفر
أهديت لي دراً نظيماً به ◈ مادمت حياً في الملا افخر
وجوهراً حلى بناني فقد ◈ حيرتني أيهما اشكر
فلا يرح الدهر في نعمة ◈ ما كر صبح وجرى جعفر

'وجاء مرة لوداع الأمير فوجده نائماً فكتب قوله'

جاء الأمين مودعاً ◈ ولبعض فضلك شاكرا
لكن عذر النوم قد ◈ أضحى جمالك ساترا

أرجوك ان لا تنسني ◈ إذ لم لك ذاكرا

'ثم اشترى' على التوالي سبع دور أخرى جعل أحدهن منزلاً لأضيافه ومن يقصده من أصحاب الحوائج وعدة دور في محلة العمارية البرانية جعل بعضها جنينة مقابلة للدور وبين الدور والجنينة نهر بردا واشترى مزرعة دير بحل بأرض الغوطة وهو بستان نضر وعمر به حوشاً واشترى أرضاً أخرى في قرية اشرفية صحنايا ثم اشترى حوش البويضة وباعه واشترى قرية قرحتا ومزرعة بلاس وعمر فيها حوشاً واشتر الطاحونة المشهورة بالإحدى عشرية وخان الصعب في العمارة وأرضا بوادي قرية دمر ابتنى فيها قصراً لمصيفه ولما أتم بناءه دعا إليه العلماء والأعيان وصنع لهم وليمة وبعد الأكل قرأوا شيئاً من صحيح البخاري لأجل التبرك وكان من جملة من دعى العالم الشيخ عبد الغني الرافعي الطرابلسي فانشأ بالحضرة يقول : يهنيك يا فرد الزمان

◈ دار المسرة والتهان

دار السيادة والسعا ◈ دة والعبادة والقران

دار بها دار الصفا ◈ وسرى السرور بكل آن

دار تصافحا الاكف ◈ كأنها الركن اليمان

أبياتها بيت ألقى ◈ وديارها دار الأمان

هي جنة الدنيا التي ◈ قد اذكرت دار الجنان

حيث التفت وجدت رو _ ضا ناضراً أو غصن بان

أو جدولا أو منهلاً ◈ عذب الموارد والمجان

فتبارك الله العظيم ◈ وما يشاء الله كان

عوذت رونق حسنها ◈ بالذكر والسبع المتان

وأعيذ بانيها برب ◈ الناس من انس وجان

مولاي عبد القادر ال _ شهم السري فرد الزمان

علامة الدنيا الذي ◈ ما ان في الكون ثان

رب المكارم والتقى ◈ بدر الكرام بلا امتنان

رب البلاغة والبرا _ عة واليراعة والبيان

نمهل الخليقة ماجد ◈ سمح المحيا والبنان

مر المشاهد واللقا ◈ عذب الموارد واللسان

ما ضن قط بما له ◈ أوجاهه يوماً لجان

وعلى المدا لم يستعن ◈ في حادث الا أعان

مولى اجل من ارتدى ◈ حلل الثنا والطيلسان

مولى حماه كعبة ◈ يسعى لها قاص ودان

مولى عن الاغيار بال ◈ أسرار والعرفان فان
لا تنكروا في بابها ◈ يوماً موافقة الحسان
من آل بيت حبهم ◈ فرض على طول الزمان
آثارهم مشهورة ◈ وبفضلهم شهد العيان

ما بين علياهم وبي _ ن الفرقدان الفرق دان

وكفاك اكبر شاهد ◈ السيد السند المصان

الفاتح الأمصار بال _ أبطال والحرب العوان

والقاهر الأعداء بال _ ريح المنقف واليمان

لو شمته يوم الوغى ◈ والقرن قد قلب المجان

والطوب يرشق والرصا _ ص إلى مدى يتجاريان

والهام والجطى في ◈ نقط وشكل كاتبان

والموت يختطف النفو _ س من الصدور بلا توان

والحرب تسعر نارها ◈ والجو اظلم بالدخان
لرأيت ليثاً ضارياً ◈ ثبت القوى ثبت الجنان

ينقض في الهيجاء فو _ ق اقب مطلوق العنان

ويخوض بحر الحرب كال _ معطى من الموت الأمان

خطاره وجواده ◈ نحو العدا فرسا رهان
لله ذلك كله ◈ لا للمغانم والغان
اشهى إليه من الدمى ◈ والذ من عزف القيان
وقع الصوارم في الوغى ◈ يوم الكريهة والطعان

والكتب تدرس والكتي _ بة باليمين أو اليمان

ولكم شاهد قامها ◈ لله محفوظاً مصان

شيخاً وكهلاً في الوا _ قف والصبا في العنفوان

لم يلق وقع أذى فلا ◈ نامت إذا عين الجبان
واليكها عربية ◈ حوت المعاني والبيان
رقت بحسن صفاتكم ◈ معنى فما بنت الدنان
فاقبل يفضلك رقها ◈ وافتح لها باب الندان
وادذر محباً عجزه ◈ في مدح علياك استبان
ما استطاع ذاك ولو له ◈ في كل جارحة لسان

لا زلت في أوج الفضا _ ئل والعلا بدر الزمان

ما امتد الإحسان في ◈ أبواب جودكم يدان

أو ما بني الآمال ال _ قوا في جواركم الجران

أو أنشدت دار الصفا ◈ بيتاً حلى الأوزان زان

يسمو به التاريخ في ال _ حسن على عقد الجمان

ان الديار بأهلها ◈ وبربه شرف المكان
1281وانشد أيضاً دار إليها اليعد دان ◈ وحكى سناها الفرقدان
دار بدمر فالها ◈ بالخير دم مر الزمان

قد شادها مولاي عب _ د القادر الشهم المصان

كيف العفاة وملجاء ال _ قصاد من قاص ودان

ولقد اتى تاريخها ◈ دار الفضاءل والأمان

1281 وأهدى للأمير ماء زهر وأرسل معه قوله

ولما رمت ان اهدي إليكم ◈ قليلا من جنى بعض الجنان
تقاطر زهرها عرقاً حياءً ◈ ولاح البردقان ببردقان

وأرسل مرة أخرى ومعها قوله

وقائلة لما رأتني مهدياً ◈ إلى البحر بحر مستقطر الزهر
سمعنا بمن يهدي إلى الروض ورده ◈ ولم نر يهدي المياه إلى البحر

وقـد حضـر الأديب عبـد المجيـد تفنـدي الخـاني إلى القصـر في جماعـة لزيارة الأمير فقال :

أوقاتنا بسعودكم أعياد ◈ وسرورنا بشهودكم يزداد
يا سادة ملكوا العباد بفضلهم ◈ وغدا الزمان لأمرهم ينقاد
قد خصكم رب الورى بمناقب ◈ حارت بوصف جمالها الأمجاد
علم وحلم محكم ومكارم ◈ وسيادة وولاية وجهاد
ماذا أقول بنظم جوهر مدحكم ◈ ما بفعل الإنشاء والإنشاد
لو انفق المداح كل علومهم ◈ في حصر قدس صفاتكم ما كادوا
لله يوم ورودنا لمقامكم ◈ إذ حفنا الإقبال والإمداد
في قصر دمر الأفراح قد ◈ نلنا الحظوظ وعمنا الإسعاد
قصر بأنواع الجمال مرونق ◈ حاز النزاهة مالها انفاد
لا زلتم شمس المعارف والعلا ◈ يهدي الخلائق منكم الإرشاد
ومقامكم حرم المراد وكعبة ◈ تأوي إلى إمداده القصاد
وبفضلكم تحي الأنام وعزكم ◈ تسمو به الأنجال والأحفاد
ما لاح كوكب سعدكم بكماله ◈ أو فاح في روض الهنا الأوراد
أو قال عبدك ارخوا عزاً له ◈ لا زال قصراً بالسرور يراد

1287وللأديب الفاضل العالم الكامل أمين أفندي الجندي مفتي دمشق وكان مدعوا بالقصر المذكور حين رأى نوفرة بستانه النازلة من نهر يزيد إلى نهر بردة . ونوفرة
يرقى إلى الجو ماؤها ◈ فتطحنه الأرياح طحن دقيق
يعود إلى حوض به كان اصلها ◈ كطالب عليا وهو غير عريق
'ولنجل الأمير' أخينا محيي الدين باشا في وصفها انظر إلى فوارة في حسنها ◈ قد شابهت خوداً تمايل قدها
رقصت وقد لبست بياضاً ناصعاً ◈ من عظم ما وثبت تناثر عقدها
وطلب الأمير من الأديب الشاعر محمد أفندي الهلالي وصفها فأجابه ارتجالا . انظر
لنوفرة نحو السماء سعت ◈ بعزم ماء بديع الصنع للرائي
فالجو يعطي مطير الماء بركتها ◈ منه بمقدار ما أعطيته من ماء

'وللأمير في وصف هذا القصر وموقعه'

عج بي فديتك في اباطح دمر ◈ ذات الرياض الزاهرات النضر
ذات المياه الجاريات على الصفا ◈ فكأنها من ماء نهر الكوثر
ذات الجداول كالأراقم جريها ◈ سبحانه من خالق ومصور
ذات النسيم الطيب العطر الذي ◈ يغنيك عن زبد ومسك اذفر
والطير في ادواحها مترنم ◈ برخيم صوت فاق نغمة مزمر
مغنى به النساك يزهو حالها ◈ ما بين أذكار وبين تفكر
مت شئت ان تلقى بها من ناسك ◈ أو فاتك في فتكه متطور

أين الرصافة والسدير وشعب بو _ وان إذا أنصفتها من دمر

'ثم' أمر الشيخ عبد الرزاق أفندي البيطار والشيخ محمد أفندي المبـارك بتشطيرها فقال الأديب الشيخ عبد الرزاق .

عج بي فديتك في اباطح دمر ◈ وانظر لواديها البهيج الأخضر
وأدر لحاظك في حلا ربوتها ◈ ذات الرياض الزاهرات النضر
ذات المياه الجاريات على الصفا ◈ يحكي لنا أمثال عقد الجوهر
فيها الشفاء لشارب من سقمه ◈ فكأنها من ماء نهر الكوثر
ذات الجداول كالأراقم جريها ◈ وخريرها يزري بنغمة مزمر
وانظر لقدرة بارئً ذي الحكمة ◈ سبحانه من خالق ومصور
ذات النسيم الطيب العطر الذي ◈ قد ضمخت اردانه بالعنبر
وأريج الأزهار بدت برياضها ◈ يغتيك عن زبد ومسك اذفز
والطير في ادواحها مترنم ◈ يشدو على قد الغصون السمهري
يدعو الأنام لحسن طيب سماعه ◈ برخيم صوت فاق نغمة مزمر
مغنى به النساك يزهو حالها ◈ لهم الهنا فازوا بحظ أوفر
أوقاتهم معمورة بعبادة ◈ ما بين أذكار وبين تفكر
ما شئت ان تلقى بها من ناسك ◈ خوف الجحيم وهول يوم المحشر
أو ذائق شهد الوجود بذاته ◈ أو فاتك في فتكه متطور

أين الرصافة والسدير وشعب بو _ وان وغوطة سمرقند الأشهر

اين الرياض الزهرارات بحسن ال _ وان إذا انصفتها من دمر

قد زانها قصر الأمير الفرد عب _ د القادر الشهم الذي فاق السرى

قطب الهدى مردى العدا بحر الندا ◈ يا دهر إن رمت الفخار به افخر
لو انصف المداح واقتصروا على ◈ آلائه والى السوي لم تنظر

قسماً بطلعه بدره السامي الذرى ◈ وبجوده المزرى بفيض الأبحر
ان عد قبله أو ماجد ◈ ما كان ألا دون هذا الحيدري
ما دامت الدنيا وانشد منشد ◈ عج بي فديتك في اباطح دمر

وقال الأديب محمد أفندي المبارك في تشطيرها

عج بي فديتك في ابالح دمر ◈ تزهو بها طربا بأبهى منظر
ونديرصرف الأنس في ربواتها ◈ ذات الرياض الزاهرات النضر
ذات المياه الجاريات على الصفا ◈ كفرائد من لؤلؤ أو جوهر
أحلى من الضرب المصفى طعمه ◈ فكأنها من ماء نهر الكوثر
ذات الجداول كالأراقم جريها ◈ وترابها في الوصف مثل العنبر
هي جنة مولاي أبدع صنعها ◈ سبحانه من خالق ومصور
ذات النسيم الطيب العطر الذي ◈ ينفي جوى المضني بلطف الخبر
وبحسن نشر عبيره وأريجه ◈ يغتيك عن زبد ومسك اذفر
والطير في ادواحها مترنم ◈ شوقا إلى الوطن البهي النير
كم هيج الأشجان من أهل الهوى ◈ برخيم صوت فاق نغمة مزمر
مغنى به النساك يزهو حالها ◈ فتفوز فيه بكل حظ وافر
أوقاتها أبداً تراها تنقضي ◈ ما بين أذكار وبين تفكر
ما شئت ان تلقى بها من ناسك ◈ باك على تقصيره متحسر
أو سالك نهج السعادة والهدى ◈ أو فانك في فتكه متطور

ابن الرصافة والسدير وشعب بو _ وان من المغنى الزهي الأنوار

بل ما بها من حسن أفنان والوا _ ن إذا أنصفتها من دمر

ماوى تفرد بالمحاسن كيف لا ◈ وبه انجلا سر الولي الأكبر

بدر العلا والمجد عبد القادر ال _ حسني ذي الوجه الجميل الأنضر

مولى به روض المعارف أزهرت ◈ فتضرعت طيباً بعرف عبهري
منه وطلعته التي في حسنها ◈ أنفقت كنز تجلدي وتصبري
من لي بان أحظى بها متمتعاً ◈ طول المدى منها ببدر مسفر
أبقاه ربي للوجود وصانه ◈ من سوء كل مروع ومكدر
ما ناح قمري وغنى بلبل ◈ واسر قلبي بالقبول مبشري

^ ذكر

حوادث جبل لبنان هذا الجبل شهير لا يحتاج إلى تعريف يسـكنه طوائـف من المسلمين والنصارى والـدروز أكـثرهم النصـارى واقلهم المسـلمون وكان النصارى والـدروز مـوءتلفين إلى أن وقعت العـداوة بين الفـريقين بعهد إبراهيم باشا المصري حين تغلب على سورية وذلـك انـه طلب من الدروز جنداً يستعمله في أموره فأبوا وتعصـبوا واشـتهروا الحـرب عليـه فجـرت بينــه وبينهم حــروب عديـدة في وادي الـتيم وجبـل حـوران ثم اسـتعان عليهم بالنصـارى وألقى بهم إلى قتـالهم ودان الـدروز بطاعـة إبراهيم باشا فاخذ منهم جميع أسـلحتهم وقـوى بهـا النصـارى نكايـة لهم ولما خرج إبراهيم باشا من سورية ورجع الأمر إلى الدولـة العليـة اظهـر الدروز ما كـان كامنـا في ضـمائرهم ووقـع بينهم وبين النصـارى الخلاف والشقاق وما زال يزداد ويتضـاعف إلى أن جـرت بين الفـريقين حـروب عظيمــة ووقــائع جسـيمة في سـنة خمس وخمسـين ومـائتين وأربعين وثمانمائة وبعد قبض الدولة على المير بشـير الثـاني وتعـيين عمـر باشـا مجرى خلفاً لـه على الجبـل في سـنة ثمـان وخمسـين ومـايتين واثنـتين وأربعين وثمانمائة قويت شوكة الدروز وتغلبوا على عمر باشـا واسـتبدوا بأمور الجبل دونه الدولـة العليـة بـالقبض على المشـهورين من أمـرائهم فقبض عمر باشا عليهم واعتقلهم في بيروت وفي مقدرتهم الأمير احمـد ارسـلان ثم تجـددت الفتنـة بينهم وبين النصـارى سـنة خمس وسـبعين ومـائتين وتسـع وخمسـين وثمانمائـة وشـبت الحـرب بينهم فقـام والي بيروت خورشيد باشا وتلافى أمـرهم واصـلح ظـاهر فسـادهم وفي سـنة ست وسبعين ومتئـتين وسـتين وثمانمائـة عـدا جماعـة من الـدروز على رئيس دير عميق وهو من القسيسين القـائمين برهبنـة الـروم الكاثوليـك فقتلوه فاهتاج لذلك غضب النصارى وشـكوا أمـرهم إلى الحكومـة والى القناصل ثم عـدا النصـارى على درزي في خـان الشـياح فقتلـوه وثـارت الفتنة بين الطرفين واعتدى الدروز على نصراني في قرية عيناب واشتد

ضرامها وسدت الطـرق وعم الخـوف سـائر الجهـات وتنـاذر الـدروز من لبنان وحـوران ووادي الـتيم واحـواز دمشـق وتجمهـروا وجمـع النصـارى جيوشهم ووقع المصاف واضطرمت نار الحرب واتصـلت أيامهـا فانتصـر الدروز على قلة عددهم وأثخنوهم قتلاً وجراحاً واحرقـوا قـراهم وانتهبـوا أموالهم وكان الأمير عنـدما بلغـه خـبر اسـتعداد الـدروز لقتـال النصـارى وتجهرهم كتب إليهم يحذرهم سوء عاقبة أمرهم من جهـة الدولـة العليـة ويرشدهم إلى ترك ما عولوا عليه فأفضت الحال إلى ما إليه الأمــر آل . ذكر

حادثة دمشق ثم سرى سم هذه الفتنة إلى دمشق فتحركت احن المسلمين فيها على النصارى جيرانهم وتذكروا ما نالهم من حنا بك البحري وطائفته من الاعتداء أيام المصريين وصاروا يتحدثون في الأندية والمجتمع بما وقع في جبل لبنان وكثر اللغط والقال والقيل فخاف النصارى على أنفسهم ورفعوا أمرهم إلى المرحوم أحمد باشا وكان والياً ومشيراً للمعسكر الخامس وطلبوا منه ما يؤمن خوفهم فبعث فرقة من العسكر إلى محلتهم للمحافظة عليهم في تلك الأيام أخذ صبيان المسلمين يصورون الصليب في الطرقات ويرسمونه على الأوراق ويلقونها في المحلات القذرة ولما بلغ الأمير ذلك علم ان العاقبة وخيمة وإذا وقع قي دمشق نظير ما وقع في لبنان يجعله الإفرنج لا محالة ذريعة لخراب البلاد فتوجهه إلى الوالي وتكلم معه في ذلك فأجابه ان ما بلغك محض إرجاف من النصارى وكان هذا من الباشا على ما يعتقده من إذعان أهل البلد وما يتلقاه من أعيانهم ثم تفاقم الأمر في جبل لبنان وتغلبت طائفة الدروز على النصارى واحرقوا زحلة ودير القمر وغيرهما من القرى الشهيرة فازداد بهذا مرض قلوب سفهاء دمشق فبعثوا إلى الدروز يغرونهم على نصارى بلدتهم ويعدونهم بمساعدتهم ويرغبونهم في أموالهم فوعدوهم بالإجابة بعد فراغهم من أمر الجبل فاتصل هذا الخبر بالأمير فوجم له ثم أستأذن الوالي في طلب مشايخ الدروز إلى بعض القرى خارج البلد والاجتماع بهم ليعظهم ويحذرهم سوء عاقبة ما عزموا عليه فأذن له وخرج إليهم وتكلم معهم بما اثر فيهم وجعلهم يذعنون لنصائحه وواعدوه بأنهم لا يحركون ساكنا ولا يثيرون فتنة ولما كان أمر الله لا يرد وقضاؤه لا يصد قوست بواعث الفتنة ولم ينجح فيهم نهي الحكومة السنية ولا أثرت فيهم شدة انتقامها ممن يفعله وقي يوم الاثنين الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة ست وسبعين ومائتين والعاشر من يوليه سنة ستين وثمانمائة أخذ شرطي صبياً يلعب بصورة الصليب إلى الحكومة فأمرت بتعزيره وإهانته في الأسواق فساقه الشرطي ومر به في سوق باب البريد فرآه أخوه فغلب عن إحساسه ورمى بنفسه من دكانه على أخيه وقام جيرانه لقيامه وأخذوا الصبي من يد الشرطي وماج الناس وكثر الصريخ واللغط في اتجاه البلد وجعل السفهاء ينادون في الأزقة والطرقات هلموا إلى الجهاد وأخذ الناس يتقاطرون إلى محلة النصارى وينسلون إلى جهاتها من كل ناحية بلا تأمل في العاقبة ولا روية ومدوا أيديهم إلى أهلها بالقتل وإلى أموالهم

بالنهب وإلى ديارهم بإضرام النار فيها .ولما اتصل الخبر بالأمير قال هذا ما كنا نحاذره ونحذر الناس منه قد وقع إنا لله وإنا إليه راجعون ثم ركب إلى محلة النصارى فوجدها في هرج ومرج ورأى ألسنة اللهيب ممتدة من المنازل والغوغاء بين ناهب وقاتل فجعل ينهى وينصح فلم تسمع له نصيحة وتمادى الذعار على ما هم فيهم ولما يئس من رجوعهم عن غيهم أخذ ينقذ من النصارى من يصل إليه ويتمكن من إنقاذه ثم رجع ببعض قناصل الدول وجم غفير من الأعيان وغيرهم وصار يبعث المغاربة شرذمة بعد أخرى إلى المحلة وأطرافها ليأتوا بكل من عثروا عليه من غير استثناءٍ وكان الأمير أخبر الباشا أن المغاربة ليس عندهم سلاح كاف للمحافظة فوعده بأن يعطيهم ما يحتاجون إليه عند اللزوم فلما كان اليوم الثاني من الواقعة بعث إليه فيما وعده به فأرسل في الحال عدداً وافراً من البنادق والفشك واستقصى المغاربة بأمر الأمير في جمع النصارى من الكنائس والأقبية وداخل البيوت الملتهبة بالنار وفي اليوم الثالث اجتمع السفهاءُ من البلد والصالحية عند باب الحديد بالعمارة قاصدين الهجوم علينا فتوجه الأمير إليهم وألقى الله في قلوبهم عند رؤيته ورجعوا على أعقابهم ثم ذهبوا أفواجاً أفواجا إلى بيوت بعض الأعيان الذين اقتدوا بالأمير في جمع النصارى عندهم بقصد الهجوم عليهم وأخذ النصارى منهم قهرا فبعثوا إلى الأمير يستغيثون به فأرسل إليهم فرقاً من المغاربة لحمايتهم من الذعار ولما غصت دور الأمير بالنصارى مع تعددها واتساعها أخذ يرسلهم إلى القلعة بإذن الحكومة فاجتمع عنده وفي القلعة نحو الخمسة عشر ألف نفس وكان الأمير يقوم بنفقات الجميع ولما طال الأمر وضاقت نفوسهم طلبوا من الأمير أن يرسلهم إلى بيروت فأجابهم إلى ذلك وصار يبعثهم فوجاً بعد آخر بمحافظة المغاربة واستمرت الفتنة قائمة ونارها موقدة أربعة عشر يوماً كل ذلك والأمير مشتغل بأخذ الرسائل ليتوصل إلى إطفائها باذلا جهده في حسم أسبابها ولم يدخل إلى بيته في أيامها .بل كان يجلس على سجادة في دهليزه لا يهجع من الليل إلا قليلاً والباعث له على حمل تلك المشاق تأييد الدولة العلية والدفاع عن حوزتها إذ لو لم يقف في وجوه الغوغاء لاستأصلوا النصارى واستلحموهم وتفاقم الأمر أكثر مما وقع وبذلك يحصل للدولة من الارتباك ما لا يخفى ولعناية الله تعالى بصاحب الخلافة العظمى ورعايته لسلطنته لم يقع أدنى خلل يتشبث به الأعداء لالحاق الضرر بالدولة العلية ولم يزل الأمير يعاني المشاق إلى أن حضر صاحب الدولة فؤاد باشا وزير الخارجية إلى دمشق ولأول وصوله اجري فيها حكومة عرفية خارجة عن القوانين المعتادة فقبض على ألوف من أهلها حتى امتلأت بهم السجون وأمر برد المسلوبات وعين لذلك مجالس مخصوصة في محلات البلدة وأنحائها فجمعوا أغلبها وأجرى ما أمر بإجرائه من إمعان النظر وتحقيق الدعوة ثم فعل ما رآه صوابا واقتضته السياسة فقتل من ثبت عليه القتل أو قامت عليه البينة بأنه أثار الفتنة أو وافق عليها ونفى جماعة من الأعيان والعلماء لتقصيرهم عن تدارك الأمر وكف أيدي الغوغاء واثخص عامة الزنار ومن جرى نجراهم إلى الأستانة ثم عقد مجلساً عسكرياً للنظر في أمر أحمد باشا وجماعة من رؤساء الجند فحكم عليهم بالقتل ونفذ أمر فيهم وما أوقع أحمد باشا شهيدا الا اغتراره بأقوال من كان يستبعد أن يقع في دمشق ما وقع في الجبل لدعوى وجود البواعث المقضية لذلك بين أهاليه وعدمها في دمشق وعلى كل حال فلا راد لقضاء الله ولا معقب لحكمه وقد اجرى فؤاد باشا أموراً قسرية وأحكاماً قهرية توصل بها إلى تدويخ البلاد وإصلاح ما فسد منها وتمكن من الأخذ بمقادها إلى الطاعة والخضوع وبعد ان تم ما اقتضيه الحال في دمشق توجه إلى بيروت وقبض على أمراء الدروز ومشايخهم واعتقلهم ثم أرسلهم إلى الأستانة ولأول وقوع هذه الحادثة أرسلت دولة فرنسا عشرة آلاف جندي إلى

بيروت تحت قيادة الجنرال بوفور وخيمت في الحرش وأرسلت بقية الدول مراكب حربية ومعتمدين ليراقبوا ما بجريه وزير الخارجية من الأعمال وفي أثناء وجود العساكر الفرنساوية في بيروت حصل اختلاف بين فؤاد باشا والجنرال رسولاً مخصوصاً للأمير يخبره بأنه اعتمد على ضرب دمشق من الصالحية فليخرج بأهله ومتعلقاته منها فاغتنم الأمير لذلك وبعث الجنرال بان يوافيه بالبقاع وعين له قرية قب الياس محلاً للاجتماع وركب معلناً توجهه إلى الأشرفية إحدى قراه ومنها سار ليلاً إلى البقاع واجتمع بالجنرال وأظهر له سوء عاقبة ما اعتمد عليه فأصر الجنرال على ذلك فهدده الأمير وعظم له الأمر حتى عدل عن ذلك ورجع كل منهما لمحله وحفظ الله دمشق وأسرها الأمير في نفسه وجعلها خالصة لوجه الله تعالى ثم أن الدولة العلية استحسنت باتفاق الدول المتحابة علي وضع نظامات وقوانين لأهل جبل لبنان وان يكون المتصرف الحاكم عليهم مسيحياً غريباً عنهم ويخابر الباب العالي رأساً فتوجهت يومئذ المتصرفية على داود باشا الأرمني واستتبت الراحة وعم الأمن في سورية والهدوء والسكون في سائر أنحائها وارتحلت جنود فرنسا من بيروت ولحقت ببلادها وأقلعت المراكب الحربية إلى مرافيها ثم أن فؤاد باشا لما استبانت له شجاعة المغاربة وما جبلوا عليه من قوة الجأش وشدة الإقدام فاوض الأمير في أن يعين منهم كتيبة ليكونوا في خدمة الدولة العلية فأجابه إلى ذلك واختار منهم أربعمائة فارس وجعل السيد محمد بن فريحة أحد أقربائه رئيساً عليهم ولم يزل فؤاد باشا يقرر الأحكام ويرتب الشؤون إلى أن تمكن من مراده ثم أخذ السلاح من أهل دمشق ووضع عليهم الضرائب لتعويض ما أتلفه سفهاؤهم من أمتعة النصارى وما دمره من ديارهم وخصص يوماً لتمرين العساكر بإطلاق البنادق والمدافع خارج دمشق في سهل القدم ودعا إليه وكلاء الدول الورسيين لأجل هذه الحادثة وكان من جملة المدعوين حضرة الأمير وعند أجراء فنون الحرب من قبل العساكر خرج جميع المدعوين من خيامهم التي أركزت لجلوسهم بذلك المحل إلا الأمير فانه بقي جالساً بمحله فأقبل عليه فؤاد باشا ودعاه أن يناظر التمرين الجاري فأجابه اني شاهدت ذلك فعلاً وعملاً وكنت أتلقى الرصاص والكال بصدري فلا لذة لي الآن برؤيته تمثيلاً ولما اتصل بحضرة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين ما اتفق في هذه الواقعة الهائلة وما أجراه الأمير في سبيل طاعة عظمته وأداء واجب خدمته اظهر رضاه العالي بفعله وانعم عليه بالنيشان المجيدي العالي الشان من الرتبة الأولى عنواناً على حسن توجهاته وجميل التفاته . وصورة الفرمان . قد أحاط علمي الشريف السلطاني بحال الحمية الدينية الثابتة في اصل فطرة الأمير عبد القادر الجزائري زيد فضله وخلوصه الأكيد الوطيد لطرف دولتي العلية وقد اضطره كل منهما لاستعمال الهمة والغيرة الكلية الفائدة في الخدمة المرغوبة وهي تخليص عدد كثير من تبعة دولتي العلية الواقعين بأيدي الأشقياء الظالمين عند وقع الفتنة والعناد مؤخراً في الشام من بعض ذوي التوحش الجاهلين بالوظائف العلية الإسلامية والأحكام الجليلة الشرعية وحيث ان حركته الحسنة قد استوجبت لدى سلطنتي زيادة المحظوظية ووقعت موقع الاستحسان ولأجل حسن توجهاتي السلطانية الحاصلة في حقه والمكتفاة العلنية على خدمته الخيرية الواقعة أحسنت إليه بنيشاني المجيدي الهمايوني من الرتبة الأولى وأصدرت له فرماني السلطاني المعلوم المؤذن بالمكارم الملوكانية في أول صفر الخير سنة سبع وسبعين ومائتين وألف . ثم حضر مكتوب من الصدر الأعظم عالي باشا وصورته لما طرق مسامع الحضرة السلطانية خبر الفتنة التي وقعت من أراذل الناس في الشام الشريف وذلك بهجومهم على الأهالي النصارى الطائعين الذين نفوسهم وأعراضهم وأموالهم بمقتضى الشريعة الغراء الإسلامية هي نظير

نفوسنا وأعراضنا وأموالنا وتجاسرهم على جراء حركات كلية قبيحة مخالفة للشرع كسفك الدماء وهتك الأعراض ونهب الأموال فالتأثر العظيم الذي طرأ على القلب الشريف الملوكي من أجراء ذلك كام من الدرجة القصوى ولذلك اقتضى الأمر إرسال حضرة دولنلو ناظر الخارجية بالرخصة الكاملة والقوة الكافية ابتغاء أجراء التأديبات القانونية والشرعية وعمل ترضية للملة ولأهل الإنسانية فلما وطئها نكل بهم بعون الله تعالى أي تنكيل واراهم جزائهم الذي استحقوه وبما انه قد تحقق وشاع ان ذاتكم المتحلية بالفضيلة في أثناء اشتغال الفتنة توفقتم والحمد لله لتخليص ألوف من التبعة السلطانية المظلومين من أيدي القتلة الخاسرين وكنت غيرتكم التي تكرمتم بها دليلا ليس له مثيل على حميتكم الدينية وخلوصكم لطرف السلطنة السنية فاستحقيتم لدى حضرة الملوكية على وجه الجد والحقيقة فرط المحظوظية والتحسين ولذلك جعلت علاوة علنية لهذا التحسين وبرهانا جليا على التوجهات السنية بحق حضرتكم فجادت عليكم بإحسان الوسام المجيدي الهمايوني من الرتبة الأولى وقد أرسل لطرفكم الشريف وصحبته الفرمان المنيف ومن ثم بمقتضى مودتي القديمة لطرف سيادتكم قد غدوت بغاية الممنونية لوجودي واسطة لتبليغ المكافاة السنية وعلاوة على ممنونيتي فانني اختم بالتهنئة الخالصة والتامينات الاحترامية أفندم في السابع من صفر سنة سبع وسبعين ومائتين وألف فسر الأمير بهذا الإنعام السلطاني غاية السرور ثم رفع إلى الأعتاب عريضة العبودية وصورتها . أحمدك الله اللهم حمد معترف بالتقصير عن سكر ما ارليت من النعم . واصلي واسلم على نبيك سيدنا محمد افضل العرب والعجم . وعلى آله وأصحابه الذين شيدوا منار الإسلام . ودعائم الدين بالعدل والإحسان . ثم ارفع يدي الضراعة والابتهال . إلى ربنا القدير المتعال . ان يديم النصر والتاييد لحضرة مولانا الخليفة الأعظم . والملك الأعدل الافخم . سلطان سلاطين الأمم . ظل الله الممدود في العالم ناشر لواء العدل على البرية . حافظ حكام الشريعة بالهمة العلية القوية . أمير المؤمنين أيد الله تعالى دولته العلية إلى يوم الدين . ثن توجه إليه سبحانه بقلبي وتضرعي ان يوافق كافة وكلائها ووزراءه وعماله في جميع الأقطار إلى تحصيل مرضاته بالتزام صفتي الصدق والاستقامة في السر والإجهار وبعد فان العبد لم يزل قائماً بوظائف الدعوات الخيرية للدولة العلية في كل بكرة وعشية متحدثاً بنعم الله الظاهرة والباطنة شاكراً آلاء أمير المؤمنين المترادفة في كل دقيقة وثانية مقراً بالعجز والايفآء بعض ما وجب عليه وعلى كل موحد في هذا الباب . سائلا من ذي الجلال العصمة عن الزيغ ولا تياب . ثم لما وقعت حادثة الشام وانتهكت محارم الله بلا احتشام وتعين على كل فرد من العباد بذل المجهود في دفع ذلك الفساد قمت باداء ما قدرت عليه من هذه الفريضة العينية والنية الصحيحة في ذلك تحصيل رضاء الله تعالى ثم طاعة الدولة العلية . ولما صدرت الإرادة السنية بسسفر صاحب الارآء الصائبة الألمعية حضرة الوزير فؤاد باشا ناظر الخارجية قدم إلى دمشق وهي تفور كالمرجل وترجاؤها من تميز نار الفساد تكاد ان تتنزلزل فرتب العساكر المظفرة في المواقع اللازمة علة مقتضى الحال وبادر بتمهيد قواعد الحكمة بلا إمهال وفي اقرب وقت واقل مدة ساعدته القدرة الإلهية والتوجه السلطاني أمده فابرز ثمرة تدابيره من القوة إلى الفعل واذهب من المديمة بنور الهدى ظلام عدل أمير المؤمنين لكل باد وحاضر حتى أعلنت بذلك خطباء الإسلام على المنابر ورضي به كافة الملل والنحل من القاصي والدان وطهر ذيل الشريعة المحمدية من لون أهل البغي والعدوان فجزاه الله عن أمير المؤمنين والمسلمين خيراً هذا وان سيدنا ومولانا أيده الله ما برحت نعمة تتجدد على تجدد الإناء والأذهان ولم يكتف بذلك دام علاه حتى

طوقني بعلامة الافتخار وهي نعمة شكرها ليس في حيز الإمكان ورفع مملوكه بما لست له أهلاً من العنايات والتلطيف مع انه يكفيني فجر النسبة بالعبودية إلى مقامه الشريف . ولم ار اعظم من نعمة ◈ منحت ولم تك لي في حساب

سأشكرها شكر وقت السرو _ ر واذكرها ذكر وقت الشباب

ايا سابقا بالذي لم يجل ◈ بفكري ثوابا ونعم الثواب

كذا فلتكن نعم الا كرمي _ ن تفاجي بلا منة أو طلاب

وبناءٍ على ذلك فاني ابتهل إلى الله تعالى بكل دعاءٍ مسـجاب ان يجعـل كافة آراء دولته العلية مقارنة للسداد والصاب ويديم بقـاء ذاتـه الكريمـة الملوكية بالتأييد مشمولاً بكمال الصحة والعافية إلى امد مديد بجاه سـيد الوجود عليه الصلاة والسلام والحمد لله دعاء المتقين في البدء والختـام في اوائل ربيع الأول سنة 1277 . ^

الشعراء ما ورد على حضرته من مكاتيب الدول ونياشينها وما قدمه'

'الشعراء إلى أعتابه من قصائد الدح والتهنئة'

ولأول وقوع هذه الحادثة العمياء طار خبرها في اقطـار الـدنيا وشـاع مـا أجراه الأمير من السعي في إطفاء نارها وتسكين تيارها فاخذت مكاتيب التشكر من سائر الدول ونياشينها العالية الأولية ترد على حضرته اقتـداء بالدولة العلية وهـذه نصـوص المكـاتيب المـذكورة . 'نص مـا كتبـه وزيـر خارجية فرنسا'

أيها الأمير السامي ان خبر الحوادث الشـامية قـد طـرق مسـامع الدولـة الفرنساوية وإجابة لطاعة مولاي الإمبراطور وإرادته بـادرت الآن بـإعلان اعتباره السامي والتشكر الـوافر من طـرف جلالتـه على السـعي الـذي تكرمتم به على الامالي المسيحيين والراهبات والمبعـوثين الفرنسـاويين وجمهور القناصل بتلك الواقعة المحزنة والمزنـة العظيمـة في ذلـك هي

مشـاهدة أمتكم العليـة الـتي جعلتم وقايـة لحيـاة ألـوف من المسـاكين وجعلت محلكم ملاذا لهم في وقت كان الأشقياء الخارجون عن الطاعـة يرتكبون القبائح المخالفة لأوامر الباري تعالى ولما تقتضيه الإنسانية أمـا الإمبراطور نظـراً لمعرفتـه بعلي همتكم وكـرم أخلاقكم فانـه لم يتعجب مما أظهرتموه من الإقدام في ذلك الوقت الضنك وهو الآن يشـعر بـداع ذاتي يدعوه إلى ان يخبركم عن فرحه الشديد الذي اثر فيـه تـأثيراً قويـاً بإجراء ما أجريتمـوه وأنـا أرجـوكم قبـول التهـاني الشخصـية مـني الـتي أضيفت أيها الأمير السـامي تاكيـدات سـمو اعتبـاري لحضـرتكم في 31 أغسـطس سـنة 1860 ثم حضـر رئيس المـترجمين في دائـرة الـوزراء الفرنساوية مبعوثـاً من لـدن الإمـبراطور إلى حضـرة الأمـير وقـدم إليـه نيشان التيجون دونور المرصع من الرتبة الأولى وبلغه اعتبار الإمـبراطور وسائر الفرنسـاوية لمقامـه العظيم . 'صـورة المرسـوم الممضـي بخـط ملك برسيا صحبة النشان'

نحن فليوم بنعمة الله تعـالى ملـك بروسـيا إلى آخـر الألقـاب قـد منحنـا الأمـير عبـد القـادر بن محـيي الـدين نيشـان صـليب النسـر الأحمـر من الطبقة الأولى وقد أعطينا إرادتنا هذه لأجل تملكه الحقيقي لهذا الوسـام حاوية توقيعنا وإمضاءنا مع الختم الملوكي من بالسبيرج في الثاني عشر من أكتـوبر سـنة إحـدى وسـتين وثمانمائـة . 'وهـذه صـورة المرسـوم الممضي بخط يد قيصر الروس صحية النيشان'

نحن الاسكندر الثاني إمبراطور وافطر كراطور جميع الروسيين إلى آخر الألقاب إلى الأمـير عبـد القـادر اقتضـت رغبتنـا ان نشـهر التفاتنـا إليكم بشهامتكم وعملكم بما اقتضته الإنسانية واجتهادكم في إنقـاذ ألـوف من المسـيحيين من أهـالي دمشـق الـذين وجـدوا في خطـر عظيم اقتضـى الحـال إننـا سـمينا من اعظم فرسـان رتبتنـا الإمبراطوريـة الملوكانيـة المشهورة بالنسر الأبيض وهذه علانتها واصلة إليكم ونحن لم نزل باقين

على المحبـــة لنحـــوكم بالاعتبـــار الإمبراطوريـــة الملـــوكي حـــرر في بطرسبورج في يناير سنة ستين وثمانمائة . 'وهذا نص تحرير ملك ايتاليا'

ان عظيم تصرفكم في أمر المسيحيين في الحـوادث الشـامية قـد أثبت أمام أوربا أنكم ممن حاز المرايا الحربية العظيمـة خصوصـاً في الحادثـة الدمشقية التي أنقذتم فيها النفوس الكثـيرة فكـان ذلـك حليـة لنفسـكم الكريمة المصطفاة ثم انه يوجد بيني وبينك أيهـا العزيـز مواصـلة أفـراح بـذكرها وهي محبـة الحريـة الـتي تجعـل تابعهـا محـافظين على العدالـة الحقيقية وإذا كنت في أيامك السـابقة لم يمكنـك الحصـول على النجـاح التـام على حسـب مرغوبـك فهـذا لا يمـون مانعـاً لاكتسـابك بـالنظر لشجاعتك القوية الاحترام والاعتبار من جـانب أهـل الحـرب المعاصـرين لك والذين يقاتلون في صالح استقلالية الشـعوب ونظـراً لشـهادتي بهـذا الاحترام المخصوص لشخصك الكريم فأنـا مرسـل إليـك الآن الشـريطة الكبرى نيشان موريس والعاذر وهو اقـدم نياشـين الخيوليـة والفروسـية وهو يسلم لك على يد اثنين من ضـباطي وهمـا الكـاواليردى كاسـتيلونيو والكونت دي كاسـتيلونيه القـادمين إلى حضـرتك لأجـل هـذا الأمـر واني أوصي بهما شديد اعتنائك وأرجو ان تصادفك السعادة فيما بين يديك أيها الأمير السعيد نظـير النـدا الـذي يقطـر من السـماء ليعطي الإقبـال إلى الأرض والمأمول قبول هذا الدعاء مني لأجلـك في المسـتقبل كمـا واني أرجو ان تعتقد تمام محبتي حرر في مدينـة تـورين بتـاريخ سـبتمبر سـنة ستين وثمانمائة .محبك فيكتور عمانوئيل نص ما كتبه ملك اليونان

نحن اوتون بنعمة الله ملك اليونان قد أعطينا الأمير عبد القادر النيشـــان الكبير رتبة اولى من صـنف نيشـاننا الملـوكي المـدعو بنيشـان المخلص المؤرخ يوليه سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائـة وألـف وأرسـلناه إليـه ليحملـه ويستعمله بمقتضى امرنا وبناءً على ذلك أصدرنا له هذا المرسوم ممضياً

من وزيـر بلاطنـا الملـوكي والتعليقـات الخارجيـة حـرر في أثينـا بتـاريخ سبتمبر سنة ستين وثمانمائة . نص تحرير قنصل دولة إنكلترا في دمشق

إلى عظمة السيد عبد القادر المعـروض لسـعادتكم أنـني قـد أمـرت من الحكومـة الإنكليزيـة الفخيمـة أن أبين لكم حاسـيتها الفائقـة نظـرا لمـا أظهرتمـــوه من حقـــوق الإنســانية بتخليص حيــاة جماعـــة كبـــيرة من المسيحيين الذين أولا ذلك لهلكوا بين أيـدي أهـل القسـاوة في المذبحـة الأخيرة بدمشق وبسلوك عظمتكم عرفت الحكومـة الإنكليزيـة مقـامكم الرفيع للغاية ثم اعرض ان هذا الشـرف الـذي صـيرني واسـطة لتقـديم حاسيات دولة إنكلترا الفخيمة إلى حضرتكم اعتبره شرفاً عظيماً لا مزيد عليه وقـد كنت شـاهدت اجتهـاد عظمتكم في تخليص عـدة أنـاس كـانوا مضـطهدين حـتى أنـني حصـلت بـذلك على حاسـيات التعجب والآن لي الشرف بان أكون مبلغاً لكم ما سطرته وداعيا لعظمتكم حرر في الرابع والعشرين من أغسطس سنة ستين وثمانمائة من قونصلاتو دولة إنكلترا في دمشق وبعد هـذا بعثت الملكـة بندقيـة هديـة مكتوبـاً على ظهـر من حضرة جلالة ملكة المملكة المتحدة بريتانيا العظمى إلى صاحب السـمو الأمير عبد القـادر تـذكاراً للمسـاعدة الخيريـة المبذولـة للمسـيحيين في دمشق سنة ستين وثمانمائة . نص جمعية الفرانماسونية بفرنسا

إلى الأجل عبد القادر في دمشق اعلم أيها الأمير أن العالم المتمدن قد كلل هامتكم الشريفة المقدسة باكليل الشرف والافتخار ونحن نقدم إليكم فرحنا بكونكم تسميتم من المحكوم لهم بحسن السيرة من أي فرقة كانوا أو دين الذين اظهروا أنفسهم بكمال الإنسانية وأنت قد أظهرت نفسك إنساناً قبل الكل ولم تسمع إلا إلى الهامات ربانية في قلبك أمرتك بمقاومة نار مشتعلة من الهيجان البربري والتعصب الجاهلي نعم انك النائب الوحيد للامة القوية العربية التي أوروبا مديونة بقسم عظيم من تمدنها وعلومها التي استنارت بها ولقد اثبت بأعمالك وبكريم شيمك ان هذا الجنس لم ينحط اعتباره السابق وهو وان كان الآن في سنة من النوم فسيستيقظ للأعمال العظيمة باستدعاء نفس قوية نظير نفسك وانظر فرانسا التي كانت خصيمتك فأنها الآن عرفت كيف تعتبرك وتبتهل بك وما ذلك الا لكونك أعطيت للتمدن حقه أيها الأمير لك المجد والشكر تكراراً فالإله الذي نسجد له جميعاً والذي عرشه في داخل

قلوبنا وقلوب كافة الكرماء يتمم عمله بكم في الخير افلا ينظر إلى العناية الإلهية بعد تقلبات عديدة كيف أتت بكم إلى تلك البلاد لأجل تبديد ظلمات الجهل وإطفاء نار التعصب الجاهلي وإنقاذ تعيسي الحظ من يد الجهلة واعلم أيها الأجل أننا واثقون بان تقبلوا منا هذه الرسالة وان كانت لا قيمة لها حرر في باريس في الثاني من أكتوبر سنة ستين وثمانمائة واثبات هذا القدر من المكاتيب الواردة على حضرة كفاية ولو تتبعنا تحرير جميعها لأفضى إلى ما يوجب السآمة والملل وممن مدح على ما جراه في هذه النازلة من الشعراء العالم الناظم الناثر الشيخ إبراهيم الأحدب نائب المحكمة الشرعية في بيروت فقال : قلب بنار الأسى والوجد حيران ◈ لجيرة من حما جيرون قد بانوا

بانوا فبانت مسراتي بهم أسفاً ◈ فلا انثنى بعدهم في روضة بان
عرب بإحسانهم قد أعربوا كلفي ◈ غداة تطربني بالوصل الحان
بذلت روحي لأدنو من منازلهم ◈ ان المعالي لها الأرواح أثمان
وقد الفت بهم خلع العذار ولم ◈ يقبل عذارى فأمسى وهو شيبان
يا حبذا عهد نعمان الأراك بهم ◈ أيام انعم لي بالقرب نعمان
ريم أروم التسلي عن هواء ومل ◈ يسلو عن الماء بالنيران ظمآن
لا سالمت بعده آرام ذي سلم ◈ ولا غزتني بالإحداق غزلان
بلؤلؤ الثغر منه كنت ذا فرح ◈ فالآن دمعي بالياقوت مرجان
هل تنطفي نار أحشائي بزورته ◈ وتستكن من الأشواق أشجان
كما بهمة عبد القادر انطفأت ◈ في الشام من حادث الأيام نيران
شمس من الغرب وافتنا فكان لها ◈ في الشرق نور به الآفاق تزدان
سر من الله قد احيا الأنام به ◈ ان كان يبدو لسر الله إعلان
حلت أياديه جيد الكون من عطل ◈ وما تعقده في الدين ايمان
آثاره شامة في الشام قد نفحت ◈ طيبا به ارتاح نسرين وريحان
ذو طلعة فوق نجم المشتري شرفا ◈ وهمة دونها في الأفق كيوان
إلى النبي غدا يبدي لنا نسباً ◈ في وجهه شاهد منه وبرهان
يا مرتجي الغيث يمم فيض أنمله ◈ فتلك للمرتجى جدواه خلجان
يدينه للمرتجى لطف الجناب كما ◈ يعلو به فوق هام النجم سلطان
وفي العلوم التي ساد الأنام بها ◈ لها أياديه بالتحرير إتقان
يا من على البدر أربى نور طلعته ◈ والنجم فيما حوت علياء حيران
من بعد بعدك شمس الغرب قد غربت ◈ وعطلت منه اوطار وأوطان
والشرق اشرق فيه من سناك لنا ◈ بدر منير به للحق تبيان
هل تنكر الشام فضلا قد خصصت به ◈ غداة كل كسيف البال ولهان
إذ يوقظ الشر قوم ساء جهلهم ◈ أعمالهم عن منار الحق طغيان
بذمة المصطفى المختار قد غدروا ◈ وان ذلك للإحسان كفران
شككت في أمنهم ناس بما فعلوا ◈ إذ ليس يفعل هذا الفعل إنسان
علمت عقبى الذي أبداه جهلهم ◈ وان ذلك في الدارين خسران
فقمت تمنع ما أبدوه مجتهداً ◈ ما فوق ذلك يا مولاي إمكان
ورحت تظهر في حجب الدما شيماً ◈ ما حازها قبل قحطان وعدنان

كما حميت العذارى بالظبا كرماً ◈ مطهر النفس ما استغواك شيطان
إذ قد نهى المصطفى عن خفر ذمته ◈ وان يكون الوالي الأمر عصيان
ماذا عليك وقد راعيت سنته ◈ ان راح ينكر نشر الورد جعلان
هذا هو الشرف المحض الذي اشهرت ◈ له مآثر قد امسى لها شان
على السماع بما قد شاع عنك غدت ◈ مشوقة قبل رؤيا العين آذن
امسى لي الشعر سهلاً حين قام به ◈ يبدي مآثرك الحسناء إحسان
فاستجلها غادة رقت محاسنها ◈ جمالها عن سوى علياك منصان
على ابن سهل معاني لفظها صعبت ◈ كما ابن هاني بما أبدته منهان
مع انني في زمان لا يقام به ◈ للشعر سعر وان زانته أوزان
لكن جدك قد سن القبول له ◈ أيام احسن فيما قال حسان
وأنت خير امرئ يقفو مآثره ◈ لا زالت بدراً به العلياء تزدان
وقال أيضاً : ماذا تقول بوصفك الشعراء ◈ وعلاك ترفع اصله الزهراء
والله قد أثنى عليكم بالذي ◈ قد شرف الثقلين منه ثناء
آل الرسول بكم يبين لنا الهدى ◈ ويزول عن عين اليقين غشاء
نسل كمثل الصبح لاح لناظر ◈ ما للصباح عن العيون خفاء
نفحت مآثرك الزكية في الورى ◈ وتأرجحت بثنائك الأرجاء
وخلائق المختار فيك تجمعت ◈ فتشابه الأبناء والآباء
فنظرت بالنور المبين إلى مدى ◈ ما أدركت لثرائه الزرقاء
وعداك قد شهدوا بفضلك في الورى ◈ والفضل ما شهدت به الأعداء
وبلغت بالهمم العلية غاية ◈ عن درك وصفك تعجز البلغاء
يدنيك للراجي التواضع مع علا ◈ عين السهى لمناله خوصاء
الله اكبر هذه الشيم التي ◈ تقفو معالي فضلها الخلفاء
اسفي على ما حل بالشام التي ◈ هي في البلاد الجنة الخضراء
بلد له الشرف الرفيع وحسنه ◈ قد أفصحت بمديحه الفصحاء
أني التفت ترى اغن مهفهفاً ◈ تجلو سناه روضة غناء
أو غادة يبدو لنا من فرعها ◈ وجبينها الإصباح والامساك
يا ويح قوم أيقظوا الشر الذي ◈ قد ام عم الشرق منه بلاء
حذرتهم عقبى الفساد فما ارعووا ◈ فكأنكما تحذيرهم إغراء
فسللت من غمد العزيمة صارماً ◈ يمضيه في فل الخطوب مضاء
ووضعت أوزار الوغى بحمية ◈ بحمى سطاها لاذت الوزراء
وفللت حد الخطب منك بهمة ◈ تصبو لنعت علوها الخطباء
ومهابة وشهامة وحماسة ◈ كل له فوق النجوم لواء
ما أدرك الجهلاء رشدك فيهم ◈ عين الجهول عن الهدى عمياء
ما عذر من لم يشكر المولى الذي ◈ صينت بحد حسامه العذراء
شمس من الغرب استنار بها الورى ◈ والشرق منه عمه الأضواء
آيات موسى أظهرت آياته ◈ منها استبان لنا اليد البيضاء

حسن الطوية مخلص في فعله ◈ إن شاء بعض العالمين رياء
متمسك في الدين في أفعاله ◈ لم يهو بالإرشاد منه هواء
ياابن الذي بسناه شرف آدم ◈ وموت به شرف الورى حواء
اعرفت سحب الغيث فهي من الحيا ◈ تهمي إذا ما انهل منك نداء
اني قد استشعرت طوق نداك لي ◈ فسجعت فيك كأنني الورقاء
وشعرت بالسر الذي أوتيته ◈ فبلغت ما لم تبلغ الشعراء
ولقد وقفت على علاك قصائدي ◈ وقفاً تسجل حكمه العلياء
واليك قد وجهت قبلاً غادة ◈ نطقت بحق ليس فيه مراءُ
والان قد أرسلت شافعة لها ◈ إذ كان عندك تنجح الشفعاء
حررتها فتت إليك رقيقةً ◈ لير في لناظمها لديك ولاء
لم يبق في العلياء مطمح ناظر ◈ الا وجاز علاه منك سناء
فلذاك ندعو ان تدوم مخلداً ◈ ووظيفة العبد الضعيف دعاء

وقال عند حضور نيشان نابليون إمبراطور فرانسا بسهم رأيك يامن عز سلطانا ◈ أصبت من غرض العلياء نيشانا

وحزت بالحزم فخراً عز نائله ◈ أثار في مهج الأعداء نيرايا
قدر أثم ومجد قد علا شرفاً ◈ يستوقف النجم في معناه حيرانا
عداك ما أنكروا فضلاً سموت به ◈ وما استحلوا لما أبديت كفرانا
بل كلهم قد غدا يثني عليك بما ◈ تأرجحت منه يا مولانا ارجانا
في الشام همة عبد القادر اشتهرت ◈ تبدي لسر الذي اوتيه إعلانا
ما حيلة الشرق الا نشر سودده ◈ فليفخر الغرب علياه به الآنا
بفضله معجزات المصطفى نشرت ◈ إذ جاءنا بالهدى للحق برهانا
يا بحر علم مزاج الدهر صح به ◈ غداة كل يعاني منه بحرانا
حتام تعلو وهام النجم تحت ثرى ◈ نعليك مع انه قد جل أركانا
إذا فما الرتب العليا وان عظمت ◈ تزيد قدرك يا مولاي إمكانا
لم يخط سهمك مرماة لذلك قد ◈ أولتك دولة نابليون نيشانا
رأت مساعيك الحسناء قد نجحت ◈ فأسرعت بالذي أولاك شكرانا
لو كافؤك على فعل الجميل بهم ◈ دعوك فيهم بحكم المجد سلطانا
لكن قصائدك نشر العرف تبذله ◈ كالغيث عم الورى ان فاض هتانا
يا ليت مثلك يوم الدار كان بهم ◈ غداة أردوا بسيف البغي عثمانا
أو كنت في يوم صفين تؤمهم ◈ إذا لعز دم بالبغي قد هانا
أو كنت في قوم نوح داعياً لهم ◈ كفاهم الله بالإيمان طوفانا
أو شام فرعون نورا من سناك بدا ◈ لم يبن صرحاً له مأمور هامانا
يا ابن النبي بكم ابدي الغلو وان ◈ منعته في سواكم أي من كانا
ما قدر قولي في مدح غلوت به ◈ وفيكم انزل الرحمن قرآنا
آل الرسول بكم تهدى الأنام كما ◈ بحبكم نرتجي فوزاً وغفراناً
أحسنت في مدحكم أرجو النجاة به ◈ فقابلوا بالولا إحسان حسانا

ومنهم العالم الفاضل السيد أمين الجندي فقال إليك انتهى الجد الرفيع الموءثل ◈ وعنك أحاديث المكارم تنقل

تفردت في الآفاق بالسؤدد الذي ◈ على فضله بين الأنام المعول
سموت سمو البدر في برج عزه ◈ ونورك للأكوان مولاي يشمل
الست ابن السلطان الرجال ومن له ◈ على كل قطب في الوجود التفضل
أما أنت من ال النبي كدره ◈ تجل فلا يجري عليها التمثل
أما أنت كشاف الكروب عن الورى ◈ ومنجدهم ان حل خطب ومعضل
حماك غدا للناس آية كعبة ◈ فما عنه للعافين يوماً تنقل
ومورِدك السامي صفا عن كدورة ◈ فمنه ذوو الآمال بالبشر تنهل
ظهرت بأوصاف الكمال وإنما ◈ لديك انطوى ما بعضه اللب يذهل
ومن ظن يستوفى المديح أو الثنا ◈ عليك إذا عند التأمل يخجل
ولا عجباً فالله جل جلاله ◈ عليم يرى حيث الرسالة يجعل
ملكت زمام المجد فانقاد مسرعاً ◈ إليك وقوم حاولوه فحولوا
ملات قلوب الناس لطفاً وهيبة ◈ وكل إذا في بابه جاء يجمل
جمعت الندى للحلم والبأس للتقى ◈ فأنت لمن وافاك ركن ومنهل
تهاب ليوث الغاب في آجامها ◈ سطاك ويرجو البرمنك المؤمل
وقفت على سر الحقيقة فانجلت ◈ لديك عروس الأنس بالعز تحجل
وأبرزت من كنز العلوم دقائقاً ◈ يعز إليها عن سواك التوصل
حفظت بلاداً كنت فيها مملكا ◈ بعزمك دهراً فيه ذو الحزم يحلل
وحاربت قوماً أهل باس وشدة ◈ لهم بين شجعان الخليقة منزل
وكنت عليهم ظاهراً في مواقف ◈ بها تقف الأفكار عجزاً وتخيل
اقر بذا خصم هشمت ذراعه ◈ وهذا هو الفضل الذي ليس يجهل
وفي الشام لما ان بغى الناس واعتدى ◈ على بعضهم بعض بما ليس تقبل
نهضت لإخماد الفساد بهمة ◈ تزيل الرؤس والأسود تجندل
حقنت دماء حرم الشرع سفكها ◈ وصنت من الأعراض ما لا يحلل
بذلت من الأموال وفراً بمثله ◈ يضن سخي الطع والمتمول
صنيعك هذا ليس يقدر قدره ◈ ولا أحد حقا له يتوصل
قصدت به مرضاة ربك مخلصاً ◈ وما خاب عبد في رضا الله يعمل
ملوك الورى طراً حبنك علائماً ◈ على شرف في حوزه أنت أول
وصيتك عم الخافقين فلا يرى ◈ نكير له في الكون أو منأول
كفى أهل هذا العصر عزا ورفعة ◈ وجودك فيهم ما لذلك معدل
وحق لي التشريف إذ كنت سيدي ◈ ومن أين لي لولا رضاك التوصل
وجدك في سلمان قال مقالة ◈ فقل أنت مني بالقبول مجمل
لارفل في قومي بثوبي كرامة ◈ وعز في بالمذلة يرفل
اقل عثراتي واتخذني لمدحكم ◈ هزارا عليه المدح في الغير ينقل
فما كان من ألفى الدراري يصوغها ◈ عقوداً ولا كل الأقاويل تقبل
واني وان قصرت فالعذر وضح ◈ وما زلت عفواً منك مولاي اسأل

فلا زلت ملحوظاً بعين رعاية ◈ من الله ما سار الحجيج يهلل
وما بسط الداعي الا كف لربه ◈ وما قام في جنح الدجا متوسل
وما أشرقت شمس وما هبت الصبا ◈ وما خص بالتسليم في الناس مرسل
ومنهم الشاعر الأديب سليمان أفندي صوله فقال شقيقة الروح ما أجرى الدموع دماً
◈ الا فراقك دن الآل والندما
ولا اطار منامي عن مواطنه ◈ غير الصدود الذي سرت به الخصما
وساق بينك لي روعاً نفى ورعاً ◈ كنت الصؤل به طفلا ويحتلما
سقمان لم ادر تعذيبي بليهما ◈ سقم اصطباري أم أجفانك السقما
حكمت لي بالهوى والجور عادته ◈ أ أشتكي جواره ام جور من حكما
الله بي فلقد أصبحت في وجل ◈ لو حل أيسره بالزهر ما ابتسما
هيهات لا صبر بعد الهجر يسعفني ◈ وبعد شهد اللما صبر المشوق لما
أن كنت سالية عهدي فقد شمتت ◈ بنا الوشات وأما أن وصلت فما
اما أنا فكما تدرين مكتئب ◈ لم اسل منك رضابا قد حلا وفما
رضيت بالشوق قوماً والغرام ردا ◈ والحب دينا وسلطان الهوى حكما
ان كان بينك ضيقاً فاللقا فرج ◈ إذا تولاه عبد القادر اقتحما
حلمي الشام وقد دارت دوائرها ◈ وقامت العرب فيها تقتل العجما
وكاشف الضر عنها بعدما عثرت ◈ اي العثار وحاكت أسدها الغنما

الألمعي لأبي العبقري أبو ال _ اشبال نخبة باقي السادة العظما

السيد السند الفرد الذي أقسمت ◈ به العدا وعلاه الفرد ما انقسما
وجاءه من ملوك الأرض كل ثنا ◈ يزري شذاه سحيق المسك منتسما
وانجم من نياشين مكرمة ◈ يشف عنها شعاع الماس مبتسما
تسمو الملوك بها قدراً فتحملها ◈ يوم المفاخر حتى تدرك العظما
يا من تخوف دهراً عاث أرذله ◈ حماه تجد مما تخاف حمى
هو الذي فلت صوارمه ◈ عزائم الدهر لما جار واحتدما
فذا الزمان وحيد العصر خيره ◈ ثبت الجنان طويل الباعِ ان هجما
المشبع أقوم أطياراً إذا التمسوا ◈ والمشبع الطير أقواماً إذا انتقما
در الغمامة الا ان صيبه ◈ يوم السماية در يفخر الديما
لو لم يكن أوحد الاوحاد ما اجتمعت ◈ على مدائحه البادون والقدما
الله يا ابن التعالي بي قد نهبت ◈ حوادث الدهر مني ما جمعت وما

وقل صبري وما صبري وقد بلغ السيل الربي وتناهي الأمر بي عظما

كانت جوائز شعري عندكم ذهباً ◈ فامنن علي بها يا سيدي كلما
فاردد بجاهك كيد الحاسدين على ◈ نحورهم وعلى مدحك النعما

ومنهم الأديب نقولا أفندي النقاش البيروتي قال دع عنك تشبيباً بوصف محاجر ◈
ودع التغزل في ظبا وجآذر

واطرب بوصف مناقب ومكارم ◈ والهج بذكر محامد ومفاخر
شرف الفتى يهوي جميل مناقب ◈ من ان يبيت أسير طرف ساحر
واقصد حما الفيحاء واجثوا خاشعاً ◈ في باب كعبة بيت فضل ذاخر
وقل السلام على ربوع غيثها ◈ فضل الشهم عبد القادر
مولى به كملت صفات سميه ◈ فانار فضلاً كل نجم زاهر
مولى له الآساد ترجف خيفة ◈ وتراه يرجف خوف رب قادر
هذا الإمام لكل مفضال وكم ◈ عزت بوطئته رؤس منابر
مولاي أنت إلى البرية كوكب ◈ تهدي الأنام بنور فضل باهر
يا كوكباً بالغرب اشرق لامعاً ◈ وسرى الأفق ديارنا كالزائر
نعم الزيارة سيدي نلنا بها ◈ من وجود كفك بحر خير وافر
وسماء فكرتك السخية أمطرت ◈ غيثاً من العلم الشريف الطاهر
يا سعد عبد تابع إرشادكم ◈ يهدي بنبراس العلوم الزاهر
يا صاح ان رمت السعادة فاتبع ◈ آثاره تحظى بحسن مآثر
واسلك سبيل العدل لا تعدل إلى ◈ طرف الضلال سبيل عبد فاجر

وعن اكتساب المجد لا تغفل ولا _ تشغلك عن مولاك ذات أساور

واسلك بطوع الله لا تهوى إلى ◈ طغيان إبليس اللعين الكافر
نعم الفتى من ليس يجهل بادلاً ◈ وعداً جليلاً بالدنيء الحاضر
ما مجد ذي الدنيا وزينة فخرها ◈ غير التلاهي بالضمير القاصر
والواثق المغرور في اوغادها ◈ مثل الحريص على الخيال الغابر
وموءمل منها دوام سعادة ◈ وثبات موعدها الخون الغادر
كمحاول بين البرية ان يرى ◈ نداً إلى مولاي عبد القادر
هذا أبو المعالي والنهى ◈ الطاهر ابن الطاهر ابن الطاهر
ملك حوى النسب الصحيح مسلسلاً ◈ وعلا لتعالي كابراً عن كابراً
ذو همة عربية وطهارة ◈ حسنية ومهابة كالناصر
حاز الفضيلة والرصافة والحجى ◈ وجمال خلق عن كمال سافر
وإذا تولى الحرب يوم كريهة ◈ رد الخميس بعزم زند قادر
يلقى العداة بكل أشهب ضامر ◈ ينساب فوق جماجم ومغافر
فكأنهم خلقوا لوطأة نعله ◈ أو تربهم من ترب وقع الحافر
تشكو رقابهم إلى صمصامه ◈ شكوى الجريح إلى العقاب الكاسر
والنسر صام إذا دنا من جيشه ◈ يكفيه من قتلى العدو الخاسر
تجثو لسطوته الصفوف مهابة ◈ وإذا هم وقفوا فوقفة صاغر
سل عنه آل الشام يوم مصابهم ◈ لما حماهم بالحسام الباتر

يوم به مطر السحاب مصائباً ◈ ظلما وشمس العدل تحت ستائر
والبيض تلمع والأسنة تشرع ◈ ما بين ذياك العجاج الثائر
والقوم بين مهرول ومجندل ◈ ومذافر ومخاوف ومخاطر
ومواقع ومدامع ومعامع ◈ أو هاجد أو شارد أو نافر
أو نادب أو هارب أو غارب ◈ أو صائح أو نائح أو حاسر
والنار تبتلع الديار بأهلها ◈ حتى غدت لجسومهم كمقابر
وحسام مولانا يصونهم ◈ من كل فتاك ظلوم غادر
تلقاه يخترق المعامع منقذاً ◈ غنما غدت في فم ذئب كاسر
حتى إذا ما فاه داع باسمه ◈ فرت جيوش الظلم مثل الطائر
داوى بحكمته الجراح وقد غدا ◈ لعظيم ذاك الكسر اعظم جابر
حقن الدماء وصان عرضاً عالياً ◈ طوعاً لدين بالصيانة آمر
ابدي بهمته العجاب وإنما ◈ عجب العجائب فعله بجزائر
سل أمة الإفرنج عنه في الوغى ◈ أن لم تفه أفواه ضرب الباتر
قصدته من أقصى البلاد كبارها ◈ لتفي بمنعاها فروض الزائر
ما عد مأجورا فتى ما زاره ◈ هب طاف بالقدس الشريف الطاهر
يأتون سدته الشريفة خشعاً ◈ والقلب يخفق فرحة كالطائر
فيريهم الوجه المكلل بالبها ◈ لطفاً ويشملهم بحسن مآثر
فيرون شهماً بالمحامد رافلاً ◈ يختال بالمجد الرفيع الزاهر
يسري ويومئ بالأنامل نحوه ◈ فوق المعالي تحت عقد خناصر
وملائك الرحمن حول جنابه ◈ لتقيه من عين الحسود الغادر
فبعيدهم يتسابقون لحمده ◈ ولمدحه بلسان افصح شاكر
يصفونه وسنا الصواب دليلهم ◈ ما بين أفران وبين عشائر
انى لهم تعداد كل صفاته ◈ وعداهم إدراك بعض الظاهر
وبحصرها قد أعجزت كل الورى ◈ من حاسب أو ناظم أو ناثر
مولاي هب طال الكلام بمدحكم ◈ فبوصفكم مازال اقصر قاصر
وانا الذي في وصف غيرك قاصر ◈ لكن بمدحك صرت أول شاعر
هذى صفات منك تهديني إلى ◈ مدح وترشد للفصاحة خاطري
رصعتها درراً أتت كقلادة ◈ ترصيع نقاش خبير ماهر
وأتيت اهديها الزمان وأهله ◈ فغدت لهم كجميل وطوق فاخر
يتسابقون لحفظ نظم بديعها ◈ يتنافسون بكل بيت عامر
وسناء مدحك ضاء في أبياتها ◈ يجلو عن الأبصار كل ستائر
يملى فتكتب والعيون قريرة ◈ هذا سنا مولاي عبد القادر

ومنهم الأديب اسكندر اغا ابا كاريوس البيروتي

فانه ألف كتاباً سماه نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان وقدمه إلى حضرة ونص ما كتبه بعد ديباجه وترتيب أبواب الكتاب وقد قسمته خدمة إلى أعتاب فخر الموالي . وبهجة الأيام والليالي . وحيد دهره . وفريد عصره . عمدة الأمراء . وتاج الكبراء . من شاعت فضائله في الآفاق وامتلأت بمدائحه وذكر أوصافه الحسنية بطون الصحف والأوراق . ذو الباس الشديد . والرأي السديد . الذي شمله الله بالنعمة . وخصة بالفراسة والحكمة ومكارم الأخلاق وعلو الهمة ورفعه على أقرانه بالشرف والسيادة . وجعل أيامه السعيدة قرة عين السعادة . المفخم . والهمام المكرم . والشجاع المقدم . والليث الغشمشم . معدن اللطف والكرم صاحب البند والعلم . الجامع بين شرفي النسب والقلم . مولانا عبد القادر بن محيي الدين الحسني أبقاه الله مدى الدوام . وحرسه من نوائب الليالي والأيام . ما غنى الهزار وناح الحمام . بجاه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وبناء على ما شوهد من حسن خصاله . وجودة أخلاقه وكثرة افضاله قلت مادحاً مناقبه الفريدة . وأوصافه الحميدة بهذه القصيدة

لباب مولاي عبد القادر ابتدرت ◈ أبيات مدح أصابت اصدق الكلم
هذا الذي باهى الزمان به ◈ والظاهر الأصل والإباء والشيم
انعم به من أمير ماجد فطن ◈ قد خصه الله بالإحسان والكرم
هذا الذي صارت فضائله ◈ في الأرض اشهر من نار على علم
مولى له في سماء المجد منزلة ◈ رفيعة الشأن لم تدرك ولم ترم
فريد عصر تسامى عن مماثله ◈ في الحزم والعزم والآراء والهمم

حلو الشمائل ممدوح الخصال وكشاف المعاضل ماضي السيف والقلم

ترى المعارف في أعتابه اجتمعت ◈ وكل فن من الآداب والحكم
الجاعل العلم مثل الروض مزدهراً ◈ لما جرت فوقه أيديه كالديم
والجاعل الخير نوراً للعيون فما ◈ تخشى الضلال بداجي ليلها العتم
لجوده في البرايا كل مكرمة ◈ وللثناء عليه كل مزدحم
تثني عليه دمشق الشام ما انتشرت ◈ في سفح قيسون ليلاً نفحة الخزم
زهت بهمته العلياء واكتسبت ◈ فخراً على كل مدن العرب والعجم
أقام ذكراً إلى يوم النشور بها ◈ تكاد تقرؤه الأموات في الرحم
احي النفوس باذن الله حين كفى ◈ شر العتاة ولم يسمح بسفك دم
اتى به الله كهف المستجير فمن ◈ يحمي نجا كحمام حل في حرم
ياءيها السيد الموهوب جانبه ◈ والمرتجى غوثه في الاعصر الدهم
هاك الكتاب الذي لو كان يمكنه ◈ سعى على الرأس طوعاً لا على القدم
يرجو لديك قبولاً طلب مورده ◈ فذاك يحسبه من اعظم النعم
لازلت في درجات العز مرتقياً ◈ في صفو عيش رغيد غير منصرم
واسلم دم ما سرى نجم وما طلعت ◈ شمس وما غرد الشحرور بالنغم

وأهدى إليه الأديب رزق الله أفندي حسون ديوانه المسمى بالنفثات وكتب له في ذلك

امولاي عبد القادر السيد الذي ◈ وقانا لوجه الله شانئْك ابتر
كتابي وقد اهديته تحفة إلى ◈ علاك ليحظي في الورى حين يشهر
واضحى جميل الشعر فيه الثنا على ◈ مكارمك الغراٍ مدى الدهر تشكر
هدية عبد يرتجيك قبولها ◈ لسنة جود عن سليمان تذكر
وان كانت النذر القليل فانها ◈ لجملة مالي والمقل ليعذر

وكتب في آخر هذا الديوان قصيده ذكر فيها رحلته إلى القوقاس وختمها بمدح

وممن نوة بذكر في هـذا الخصـوص الجمعيـة المعروفـة بجمعيـه' 'عمـل الخير وإعانة المصابين في البر والبحر'

وهـذا نص مـا بعثت بـه إليـه : ان جمعيـة المصـابين المؤلفـة من أعيـان الأمصار ووجوه المدن الشـهيرة في فرانسـا قـد اتفقت كلمتهـا على ان يكون الأمير عبد القادر رئيس شرف لها وإنما فعلت هذا لتؤكد له عظيم اعتبارها لجنابه الشريف وجزيل تشكراتها الفائقـة لمـا أبـداه من أعمـال الخير الجسيمة في سورية سنة سـتين وثمانمائـة وبنـاء على ذلـك بعثت إليه هذا الرقيم كالشاهد على عقدها لما اتفقت عليـه وذلـك في بـاريس آخـر يونيـو 'حزيـران' سـنة إحـدى وسـتين وكـانت الجمعيـة الامريكانيـة الشهيرة بالشرقية القائمة بتأليف تاريخ العالم سبقت هذه الجمعيــة إلى مثل ما فعلته وارسلت إلى الأمير نسخة من تقريرها وصـورته بنـاء على تقريــر الجمعيــة الاميركانيــة الشــرقية وعلى قــرار المجلس قــد أعلنت بتعيين الأمير عبد القادر بن محيي الدين عضو شرف لها تتشرف بــذكره وبعثت إليه بهذه النسخة المطابقة للأصل إعلانـا بمـا قررتـه في بـاريس في الثاني عشر من اوليو 'تموز' سنة سـنين وثمانمائـة والـف . ذكـر مـا نشرته بعض الجرائد الأوربية من أخبار الحادثة الشامية

ذكرت جريدة مندابلوسنمري الفرنساوية في رابع أغسطس 'آب' سنة ستين وثمانمائة تحت عنوان عبد القادر أمير معسكر سابقاً ما نصه ان حوادث سورية

المحزنة قد أظهرت للوجود اسماً كان محجوباً بغياهب الغربة وهو ذاك الاسم الذي طالما كررته السنة الأمة الفرنساوية بالرجفة والاضطراب هو ذلك الاسم المرسوم بأحرف دموية من شاطئ نهر شلف إلى رمال الصحراء في الجزائر وقد أيدت له قناصل الدول ونصارى دمشق الشكران الجميل في سورية وبذلك انكشف عن مزاياه الحجاب الذي كان ساتراً لها وغدونا جميعاً نتبارك باسم عبد القادر وهو الذي اقتحم الأخطار لأجل أولئك المساكين من أيدي سافكي الدماء ثم جمعهم في قصره وأفاض عليهم من سجال كرمه وبره وقام فرسان المغاربة الأمناء بمساعدته احسن قيام فبذلوا وسعهم في إنقاذ المسيحيين وحمايتهم من اعتداء سفهاء الشام والدروز هو ذلك الرجل الذي كان يلوح على وجهه من إمارات الثبات وعلامات الحزم والفطنة ما يدل على شرفه واتصال نسبه بالرسول هو ذلك الرجل الذي أقام في منفاه سنين ولم يتغير عما كان عليه من المحافظة على الأوامر الشرعية وأداء الحقوق الثابتة للإنسانية هو ذلك الرجل الذي كان عدواً لدولة فرنسا وأقام مدة سبع عشرة سنة ينادي بالجهاد فيها ثم ان ما نسبه إليه أعداؤه من الأفعال الغير اللائقة كقتل الأسرى والحدث في اليمين إلى غير ذلك مما نسبوه إليه ويأباه طبعه الكريم قد كذبه تحريره الشهير الذي بعثه إلى لويس فيليب ملك فرانسا الدال على كرم أخلاقه ولطف جانبه وكانت وقتئذ نيران الحرب مضطرمة بشدة لا مزيد عليها ومن جملة ما ذكره في ذلك المكتوب قوله أني أريد منك أيها الملك ان توافقني على إجراء الفدية في أسرانا وأسراكم فلم يجبه الملك ثم أعاد طلبه هذا ثانياً وثالثاً فلم يجبه ثم بعد سنين في آخر أمره شاع في فرانسا ان جنوداً فرنسوية وقعت أسرى في يد العرب وانهم قتلوا اشر قتلة وان ذلك كان بأمر الأمير وهذه الحادثة كانت في دائرة الأمير في بلاد مراكش وهو غائب عنها في الجهة الشرقية من بلاد الجزائر ولما بلغه خبر هذه القضية واتصل به ما نسب إليه من الأمر بالقتل كتب إلى حكام الجزائر يقول من العجب أنكم تنتسبون إلينا ما وقع بالأسرى مع أنكم تعلمون علم اليقين ومشاهدة العين باني بعيد عن الدائرة بمسافة مائة وثلاثين ساعة للراكب المجد في السير فظهر من هذا ان الأمير لم يأمر بالقتل الاساري وان تأخره عن قصاص الذين قتلوهم في غيبته بغير اذنه إنما كان لعجز سلطته إذ ذاك وعدم طاعة العرب لكلمته وغاية الأمر فان مزايا الأمير وأخلاقه الكريمة كانت دليلاً على شرف نفسه وتقدمه في الجزائر كما هو الآن في سورية وبرهاناً قوياً على طهارة قلبه وأرادته الخير إلى سائر عباد الله وعند انتهاء أمره وطي بساط ملكه كتب إلى الجنرال لا موريس قائد الجيوش الفرنساوية يقول انني حاربتكم مدة طويلة والآن يمكنني ان الحق ببلاد الصحراء واستمر فيما كنت عليه من قتالكم وشن الغارة على البلاد التي تغلبتم عليها الا انني تخليت عن ذلك فان كان يمكنكم ان تحملوني بأهلي ومن معي إلى الإسكندرية أو إلى عكا فانا اسلم لكم سيفي فأجابه الجنرال إلى ذلك وأعطاه فيه ميثاقاً وعهداً باسم فرانسا وموافقة ابن الملك حاكم الجزائر وقتئذ الدوك دومال ثم اتفق له نظير ما حصل لنابوليون الأول فانه لما انكسر في الحرب وسلم ذاته الإنكليز عدلوا به عن مدنهم وأمصارهم ونفوه إلى جزيرة القديسة هيلانة وفيها مات والأمير عبد القادر بعد ان استند إلى عهد ابن الملك وسلم نفسه إليه أخذه أسيراً إلى طولون ولكن الباري تعالى أتاح له لاورثة نابوليون الأول فبادر عند جلوسه على عرش إمبراطورية فرانسا إلى تسريحة وتخلية سبيله وفاء بعهد فرانسا وحفظاً على شرفها وعلى كل حال فنحن نبذل الجهد في أداء الشكر للأمير على ما أظهره من العناية في الحق المسيحيين ولحضرة الإمبراطور نابليون الثالث لمحافظته على شرف فرانسا .وذكرت جريدة أخرى ما نصه انه يوجد في ذات عبد القادر شخصان

أحدهما أمير الجزائر والعدو المخيف للفرنسيس من ثلاثين وثمانمائة إلى سنة سبع وأربعين والثاني الأمير الموجود الآن في سورية المخلص لألوف من النفوس في حادثة دمشق المهولة سنة ستين فالأمير هو الرجل الوحيد الذي ظهر في مكانين بعيدين بصورتين مختلفتين وأمسى الفرنسويون مديونين له بدين هم مجبورون على أدائه له الأمير عبد القادر هو ذلك الرجل الباسل الذي أبدى أموراً وأعمالاً لم يكن أحد يتصورها ولذلك كانت جديرة بان تدون في اجمل تواريخ العالم وآخر ما تقول أن عدونا القديم في الجزائر قد جعله الله الآن سبباً لإنقاذ المسيحيين في الشام .'وذكرت غيرها' ما صورته الأمير عبد القادر هو رجل مشهور في العالم دافع عن وطنه وحريته ثم حكم عليه القدر الإلهي فسلم لأعدائه فنقلوه إلى بلادهم على خلاف الشرط الذي اشترطه عليهم وجعلته حكومتهم أسيراً أيساً مدة سنين غير ان شهماً من سلالة ملوكهم المشهورين كان يضاهيه في النباهة وأعطاه حين رآه برهاناً وثيقاً وعهداً متيناً على ان يلخصه ثم وفى بعهده وخلصه من تقلبات الأيام وذلك عند انقلاب الحكومة وارتقائه على كرسيها فبسلطة ذلك البرنس الذي صار إمبراطوراً أرجعت الأمير إلى حريته التي طالما دافع عنها ثم اصبح ناصراً للإسلام وأطفأ عن أهله نار فتنة عظيمة وذلك بواسطة دوران دولاب سعده وأضحى في مركز قوي في العالم وركناً بين عظمائه وصار يخاطب من الملوك الألقاب الموضوعة لأعظم المشاهير وكيف لا وقد دافع عن الذمار والذمة وحافظ على مقام الوفاء بكرامة كما عمل في بداية أمره في وطنه وبالجملة أن سيرته الحميدة لا شبيه لها في التاريخ .'وفي هذا' القدر من كلام الجرائد كفاية وقد كان بين الأمير والشيخ شمويل الداغستاني مواصلة ومراسلة ولما بلغه خبر الحادثة كتب إليه يصوب فعله وهو ذا ذاك محجور عليه عند دولة روسيا ونص كتابه إلى من اشتهر بين الخواص والعوام . وامتاز بالمحاسن الكثيرة عن جملة من الأنام . الذي أطفأ نار الفتنة قبل الهيجان .وأستأصل شجية العدوان . رأسها كأنه رأس شيطان . المحب المخلص السيد عبد القادر المنصف السلام عليكم وبعد فقد قرع سمعي ما تمجه السماع . وتنفر عنه الطباع . من انه وقع هناك بين المسلمين والمعامدين ما لا ينبغي وقوعه من أهل الإسلام وربما كان يفضي إلى امتداد العناد بين العباد في تلك البلاد ولذلك عند سماعه اقشعر منه جلدي وعبست طلاقه وجهي وقلت ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس وقد تعجبت كيف عمي من أراد الخوض في تلك الفتنة العظيمة من الولاة عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة وهو حديث حسن ثم لما سمعت انك خفضت جناح الرحمة والشفقة لهم وضربت على يد من تعدى حدود الله تعالى واخذت قصب السبق في مضمار الثناء واسحقت لذلك رضيت عنك والله تعالى يرضيك يوم لا ينفع مال ولا بنون لأنك أحييت ما قال الرسول العظيم الذي أرسله الله رحمة للعالمين ووضعت من يتجرأ على سنته بالمخالفة نعوذ بالله من تجاوز حدود الله ولكوني ممتلاءً بالرضى عنك كتبت هذه الرسالة إليك إعلاماً بذلك والسلام .حرر سنة سبع وسبعين ومائتين وألف شمويل الغريبفأجابه الأمير بقوله الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين انه من الفقير إلى مولاه الغني عبد القادر بن محيى الدين الحسني إلى الأخ في الله تعالى والمحب من اجله الإمام شمويل كان الله لنا ولكم في المقام والرحيل وسلام الله عليكم ورحمته وبعد فانه وصلني الأعز كتابكم وسرني الألذ خطابكم والذي بلغكم عنا ورضيتم به منا من حماية أهل الذمة والعهد والذب عن أنفسهم وأعراضهم بقدر الطاقة والجهد هو كما في

كريم علمكم مقتضى أوامر الشريعة السنية والمرؤة الإنسانية فان شريعتنا متممة لمكارم الأخلاق فهي مشتملة على جميع المحامد الموجبة لائتلاف اشتمال الاصواق على الأعناق والبغي في كل الملل مذموم ومرتعه وخيم ومرتكبه ملوم ولكن .
يقضى على المرء في أيام محنته ◈ حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

فأنا لله وأنا إليه راجعون على فقد أهل الدين وقلة الناصر للحق والمعين حتى صار يظن من لاعلم له ان اصل دين الإسلام الغلظة والقسوة والبلادة والجفوة فصبر جميل والله المستعان ومنذ زمان بلغنا وصولكم عند ملك روسيا وانه فعل معكم ما هو أهله من الإحسان واعز لكم من الإكرام ارفع منزل ومكان وسمعنا أنكم طلبتم منه تسريحكم إلى الحرمين الشريفين فنسأل الله ان يجيب مطلوبكم وينيلكم مرغوبكم وإمبراطور روسيا من اعظم ملوك الأرض شأنا وأحرصهم على تخليد المفاخر في بطون الدفاتر فنرجو لكم من حضرته الفخيمة حصول الأرب بلا نصب ولا تعب كما فعل معنا الإمبراطور نابليون الثالث فانه فعل معنا من سني الأفعال ما لم يخطر لأحد في بال والمرجو في الحقيقة هو الله المعبود لا معبود سواه .حرر في أول جمادى الأولى سنة سبع وسبعين ومائتين وألف وفي سنة اثنين وثمانين فكتب إلى الأمير ما نصه .إلى ذي النسب الطاهر واللب الباهر السيد عبد القادر عليكم السلام الاسنى ولكم الدعوات الحسنى أما بعد فقد بلغنا مكتوبكم الشريف فرضيت عنكم والله تعالى يرضى عنكم حيث انكم ذكرتموني بخير ثم ان ما بلغكم من طلبي من الإمبراطور الفخيم ان يأذن لي في زيارة الحرمين الشريفين والسكنى في الحجاز أو القدس الشريف هو كما بلغكم واني مترقب دائماً حصول اربي هذا من جانبه السامي ومشتاق إلى المواطن المباركة طول عمري وخصوصاً لآن حيث اني بلغت من العمر سبعين سنة وضعفت قوى نفسي وأنا خائف من حلول اجلي قبل حصول أملي مع انه ليس لي مقصود آخر من الدنيا اعلا واهم من ذلك ثم الموت على الإيمان في الحرمين مهبط الوحي

والغفران واني أوصيكم بالدعاء لنا والسلام كتبه في بلدة كالوكه أخـوكم في الله تعالى الشيخ الهرم الداعي لكم كثيراً محمد شمويل وقد أجــاب الله دعاءه حيث انتقال إلى الحجاز وتـوفي في المدينــة المنــورة ثم في سنة ثلاث وتسعين بعث ولده إلى الأمير ما نصه .'بعد' حمد الله والصلاة على رسوله وآله إلى اكرم الكرماء والشرف والشرفاء والحائز لشـرفي الحسـب والنسـب سـلالة سـيد المراسـلين المختص بمزيـد العنايـة من الملك العين الغازي السـيد عبـد القـادر بن محـيي الـدين السـلام عليكم والرحمة من لله والرضوان بحرمة سيد الأنس والجان آمين أما بعد فلما طال انقطاع مخابراتنا وعدم اطلاعنا على أحوال ذاتكم العلية وأخبـاركم الشريفة البهية أرسلنا هذا مستخبرين عن أحوالكم الكريمة عسـى اللـه ان يحفظكم مما يوجب الحزن مدى الدهور والأعوام بحرمة سـيد الأنـام وكنا قبل هذا أرسلنا مكتوباً في مقابلة مكتوبكم السـامي الـذي تشـرفنا به في السنة الماضية فلعل الله ان يجمعنـا عن قـريب هـذا واننـا نتوقـع المحاربـة بين الدولـة العليـة والرمسـية بـالنظر إلى القـرائن الظـاهرة فنسأل الله ان يرزق النصر لأهل الإسلام لإحياء شريعة سـيد الأنـام وان وقعت هذه المحاربة فعسى اللـه ان يرزقنـا فيهـا اللقـاء بـالملاء الأعلى ويجعلنا من أهـل الجهـاد والسـلام من الفقـير الغـازي محمـد بن محمـد شمويل .^ ذكر

توجه الأمير إلى حمص وحماه لم يزل الأمير منذ قدم إلى دمشق متعطشا إلى زيارة السيدين الجليلين سيف الله خالد بن الوليد وخامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما وكثيراً ما كان أهل حمص وحماه يدعونه إلى ذلك وهو يعدهم ويصف لهم ما هو عليه من التشوق إلى زيارة تلك المشاهد المباركة والتبرك بها إلى ان تهيأت الأسباب ولما بلغ أهل حمص خبره استقبله خارجها الخواص والعوام واحتفلوا لقدومه ولأول وصوله فاتحه العالم الفاضل السيد خليل أفندي الانامي بقصيدة امتدحه بها وهي بقوله . حمد ربي بدت بأفق المناء ◈ شمس انس جلت دياجي العناء

وغدا الروض ذا افترار يف _ تر إذا ما بكت عيون السماء

فكان القرنفل الأحمر الغض ◈ إذا فتقته أيدي النداء
جنت من ياقوتة فوق غصن ◈ ينثني من زبرجد مصفاء
ليت شعري وليتني كنت ادري ◈ ما بذا الروض قد بدا للرائي
اعيون أم نرجس ووجوده ◈ أم بدور أم نجوم جوزاء
وغصون تمايلت أم قدود ◈ ووجينات أم شقائق الرماء
لا تلمني إذا خلعت عذاري ◈ يا عذولي فذاك عين اهتداء
كيف لا اخلع الأعنة جهراً ◈ طرباً بين السادة الندماء

ومدام السرور في كوءوس البش _ ر سقيناها من اكف الظباء

لو ترى النهر يصفق من اي _ ناسه ما عذلتني بغناء

أو نرى الكون راقصاً من سرور ◈ كنت اولى بخلع ثوب الحياء
انني مذ رأيت اكناف حمص ◈ تتجلى بأيكها المفياء
وثغوراً لها تبسم بشراً ◈ وهي تيهاً تجر ذيل الهناء
وهزار بها يغني حبوراً ◈ في رياض لها برصد الصباء

سلها عن تجاهل لا جه _ فشمس الضحى بدت عن خفاء

ناشدتها علام تيهك قالت ◈ حق لي حق لي ورب السماء

أنت يا منشدي أناشدك اتل _ ه فنادي مصرحاً بالنداء

مرحباً مرحباً وهلاً وسهلاً ◈ بالإمام الهمام ذي العلياء

هو بحر العلوم درة عقد ال _ مجد فخر الوجود كنز العطاء

جهبذ قد زكا زكاءً وابدى ◈ من سنا هديه ضياء ذكاء

قد سما نسبة لبيب رسول الل _ ه محى بعين سين وراء

هو مغني اللبيب في قطر لفظ ◈ يمنح الدر للمربد الشائي

من مراقي فلاحه نور أيضا _ ح بدا كالمنار في الظلماء

قد كسا منطق البديع بياناً ◈ ليس ينحوه افقه البلغاء

فإذا عنعن الحديث يقول ار _ ويه عن جدي سيد الانبياء

ياله سيداً واكرم به مو _ لى له طأطأت روءوس العلاء

يا هماماً بدا لمقدمك الزا _ هي هلال الصفا بنور الهناء

عش سعيداً أنت المجاهد في الل _ ه ولا زلت اسعد السعداء

ليس ينسى العدا منك ماذا ◈ قوا وينسون طعم كأس الرداء
طالما أذقتهم كأس حتف ◈ من يد البيض والقنا السمراء
يا رعى الله راحليكم فكم ◈ أدارت لتمزيقهم رحى الهيجاء

جئت مستمطرا سحابك أرجو _ ك دعاء في الغيب يا مولاتي

فالسماء قبلة الدعاء ولكن ◈ أنت أفديك قبلة للسماء
جل من أوجب المحبة فيكم ◈ آل طه وخصكم بالثناء

حبكم سرى في دمي فعسى اح _ شر مع من احب يوم الجزاء

يا هلاهلاً نراه في الأرض يبدو ◈ وحواليه انجم الاهتداء
هاك بكراً من خدر فكر تبدت ◈ تتجلى وبرقعت بالحياء
قد تغنت بالمدح علياك لكن ◈ ترتجي العفو عن قصور الشناء
خاب فكر اللبيب ثم وحارت ◈ في مزاياك السن البلغاء
فاقبل العذر سيدي من عبيد ◈ ما له طاقة للمس السماء
فهي بكر لك زفت تنادي ◈ ان مهري مجرد الإغضاء
وصلاة الصلاة تهدى دواماً ◈ لنبي محى سطور العناء

مع أصحابه الصباح ول _ اطلعوا طالع الهدى والنقاء

ما اشد خالد الأناسي جهراً ◈ حمد ربي بدت بأفق المناء

وبعد ان زار مشهد سيدنا خالد رضي الله عنه توجه إلى دير سمعان فزار ضريح سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ثم سار إلى حماه فدخلها في احتفال عظيم

ونزل عند مفتيها الفاضل شيخ السجادة القادرية بها السيد محمد أفندي الأزهري بالمتنزه المعروف بالطيارة ولما رأى الأمير الناعورة الموجودة فيه انشد قائلاً

وناعورة ناشدتها عن حنينها ◈ حنين الحوار والدموع تسيل
فقالت وأبدت عذرها بمقالها ◈ وللصدق آيات عليه دليل
الست تراني القم الثدي لحظة ◈ وادفع عنه والبلاء طويل
وحالي كحال العشق بات محالفاً ◈ يدور بدار الحب وهو ذليل
يطاطئ حزناً رأسه بتذلل ◈ ويرفع أخرى والعويل عويل

وقد حصل له في حمص وحماة ونواحيهما من حميد الذكر وجميل النشر ما لا تزال الرواة تدرسه والتواريخ تحرسه . وبعد ان أقام في حماه أياما في إكرام واحترام عند أهلها خصوصاً أولاد القطب الغوث الرباني سيدنا عبد القادر الجيلاني ثم توجه إلى بعلبك وهي مدينة قديمة شهيرة فرأى من ابنية هيكلها وآثار الأقدمين فيه ما بهر أفكاره وعند وصوله إليها اتى الخبر بانتقال ساكن الجنان السلطان السلطان الغازي عبد المجيد خان وارتقاء أخيه السلطان عبد العزيز خان على سرير الخلافة فحصل له من الحزن والكدر على هذا المصاب العظيم والرزء الجسيم ما يعجز عن وصفه القلم واللسان وتذكر نعمته عليه وإحسانه إليه وسر بادالته بأخيه ولما اجتمع أهل البلدة واصطفت العساكر السلطانية المخيمة فيها وقتئذ للقيام بشعائر التعزية ثم التهنئة تقدم حاكم البلد وأعيانها إلى الأمير وقدموه للدعاء فدعا بما يناسب الحالين وندب إلى الصبر والرضى وعزى في أمير المؤمنين خليفة الله ثم هنأ الأمير الذي أعطى خلافة الله والعاقل من قبل من الله افضل العطية وصبر له على اعظم الرزية وبعد ان أقام في تلك البلدة أياماً رجع إلى دمشق وفي آخر سنة ثمان وسبعين توفيت إلى رحمة الله تعالى والدته جدتي السيدة الجليلة الشريفة الاثيلة الصالحة الطاهرة السيدة زهرا ابنة السيد محمد بن دوحة الحسنية عن ثمانين سنة فعظم عليه مصابها وبعد رجوعه من دفنها بمقبرة الدحداح جلس في طريق للاستراحة فقال له بعض من كان معه ارفق بنفسك قال له كيف ذلك وأنا فقدت من كان يحبني على وجه الأرض وقدم الأديب سليمان أفندي صوله إلى حضرته مرثية وهي قوله جاورت

بالحدها في الشام يحياها ◈ وأنت ياروحها بشراك في طه
ولا أقول اختفى في الرمس هيكلها ◈ لكن أقول سماء لا شمس موطاها
وهل تغيب الثريا في الثرى ومتى ◈ أقول هذا الثرى للشمس واراها
وكيف تحتجب الأملاك في جدث ◈ وقد يراها على الأفلاك مولاه
يا يوم أم أمير المؤمنين لقد ◈ أجريت وابل أجفاني كجدواها
كانت دموعي من الياقوت جامدة ◈ أذبتها من جوى قلبي فاجراها
ما كنت احسب ان الشام تفقدها ◈ ولا أفوه به حتى فقدناها
وكنت اعجب من سير الجبال إذا ◈ تسير يوماً فمذ سارت رأيناها
يا ويل نفس عليها لا تذوب اسى ◈ ومقلة لا يذيب الدمع جفناها
ان النفوس التي تفنى اسى وجوى ◈ في طاعة الله تسمو ان مدحناها
وحق ما قدمت لله من عمل ◈ لو جاورته الليالي السود أزهاها
لو شاهدت حالنا من بعدها لبكت ◈ عنا وقالت كفى فليبك من تاها
من كان يعلم ان الموت غايته ◈ كيف استراح لها يوماً وآخاها
تبا لغرارة تباً لزائلة ◈ تباً لدار تساقينا رزاياها

تذيقنا المشرب المسموم نحسبه ◈ شهداً وما هو الاسم أفعاها
ومن يحقق بان الموت موعده ◈ يجفو الدنية لا يهفو لمغناها
كما جفت بضعة المختار ما كرهت ◈ آباؤها وأحبت عفو مولاها
وكيف تدهشها الدنيا بزينتها ◈ وجدها ترك الدنيا والقاها
ان التي انتقلت كالشمس واخترقت ◈ كواكب الزهر واختارت لها الله
تلك التي تمنح الأقمار طلعتها ◈ وتودع الطيب طيباً ما ذكرناها
أضحى التراب بديلاً عن غلائلها ◈ وجامدات الحصا اسنى خباياها
واعتاضت الطيب عن طيب الحياة وما ◈ طيب الحياة بأذكى من سجاياها
يا بضعة المصطفى الدنيا وما وسعت ◈ تاهت بليل حداد عم اجزاها
على ضريحك ما ناحت مطوقة ◈ تبكي السماء باسخاها وأنقاها
ولا تعدى السحاب الجون معشبة ◈ من رحمة الله تحواك طواياها
وأنت يا كوكب الدنيا وبهجتها ◈ وخير من شق للرحمن أفواها
صبراً كما صبر الأبرار لا برحت ◈ علاك تخترق الدنيا تبيهاها
تالله ان عيون المجد قد رمدت ◈ لوثت بدم الأكباد أنقاها
على مصاب كمصاب صابنا فكوى ◈ منا القلوب فاشواها واقلاها
ما حيلة المرء والأيام غادرة ◈ هذى عوائدها ساءت سجاياها
هذا الفراق فراق الدهر اجمعه ◈ فراق من بعد طول العمر تلقاها
فراق والدة سمحاء طاهرة ◈ غراء لا ينكر المحراب تقواها
تسعى ملائكة الباري برحمتها ◈ سعي العفاة التي تبغي عطاياها
فاءت بنشأتها الأولى مكرمة ◈ والله يكرم فرعاً اصله طه
وخلفت خلفا احي مآثرها ◈ ولو يشاء بأذن الله أحياها
ليعمل العاملون العز ما عملت ◈ من صالحات لعل الله يرضاها
كفاك مولاي في الإسلام تعزية ◈ ان المنية كاس الحق نقاها
أبوك آدم والهادي ترشفها ◈ وسوف ترتشف الدنيا بقاياها
فثق بربك عادات عرفت بها ◈ واضرع تنال من الخيرات أوفاها
كفاك يا خلف الأعلام واحدها ◈ شر اللئام وأعمى عنك أعتاها
ولا أزال الردى من عمرنا اجلاً ◈ حتى نراك على الأعداء تياها
ولا برحت طويل العمر وافره ◈ تثاب خير ثواب يا فتى طه

ذكر توجه الأمير إلى الحجاز كان أهم شيء عند الأمير بعد خروجه من فرنسا حج بيت الله الحرام وزيارة نبيه الكريم عليه افضل الصلاة وأتم السلام والتبرك بتلك المعاهد الشريفة والشاهد المباركة المنيفة وما كان يمنعه من المبادرة إلى ذلك الا ما

كان من أمر والدته المسنة فانه كان يخدمها بنفسه ويغتنم مشاهدتها ومجالستها والقيام بشؤنها أناء الليل وأطراف النهار ولم يزل على ذلك إلى ان توفيت رحمها الله راضية عنه داعية له ثم انه تفرغ إلى ما كان مهتماً به وبعد استكمال أهبة السفر خرج من دمشق واصحب معه السيد سليم حمزة والشيخ عبد الغني الميداي وقره محمد وعبد القادر بن رابح قاصداً الحجاز في أول رجب سنة تسع وسبعين وركب البحر من بيروت إلى الإسكندرية فاستقبلته أعيان الحكومة وقناصل الدول بغاية الإعظام والإكرام ومنها توجه إلى مصر لزيارة المشهد الحسيني وضريح الإمام الشافعي رضي الله عنهما وغيرهما من مشاهد أهل البيت والأولياء والعلماء المشاهير فاستقبله أعيان الحكومة والعلماء وقناصل الدول وأنزله خديويها سعيد باشا عنده واجزل ضيافته وإكرامه واحتفال طوسون باشا ابن سعيد باشا بمأدبة عظيمة اتخذها لوالده ودعاه إليها نكتب سعيد باشا إلى الأمير يخبره بذلك ويدعوه إلى الحضور معه عند ولده .ونص ما كتبه :
إلى حضرة الأمير والسيد الأفضل المبجل ذي المفاخر والمآثر السيد عبد القادر بسم الله خير الأسماء وحمداً على نعمة لا نحصي ثناء كما اثنى هو على ذاته الأسمى الذي ألف قلوب المؤمنين وداً ورحماً وصلاة وسلاماً علي نبيه الذي لم يسمع في تبليغ ما أمر به لومة لائم وسن لامته إخلاص المودة فيما بينهم بصنع الولائم وعلى اله وأصحابه المنادبين بآدابه وبعد فان ولدنا طوسون باشا حلاه الله بحلية الأدب والأخلاق الكريمة احب استجلاب حسن الرضا منا فصنع لنا وليمة شكرا الله على ما بلغه من العمر العام العاشر وتشكراً لنا على توسيع

ثروته بالإيراد الوافر وحيث ان حضرتكم لكم من مودتنا أوفى نصيب وحضوركم يحصل منه ما يحصل من لقاء المحب للحبيب فان تفضلتم بالإجابة فلنعم المشرف والمجيب ويكون تشريفكم غداً يوم الجمعة التاسع عشر من رجب فصفو الود هو الذي حمل على تحرير هذه النميقة وأوجب حرر في ثامن عشر رجب سنة تسع وسبعين ومائتين والف .ثم لم ينشب سعيد باشا ان توفى وتولى مكانة إسماعيل باشا وقد دعى الأمير كثير من الأعيان والوجوه واحتفلوا لضيافته ودعاة رئيس شركة ترعة السويس مسيو فرديناند دو لسيس وجماعته وامعلوا في إكرامه واحترامه وبعد ان أقام أياماً في تلك النواحي في إعزاز وإجلال توجه إلى القنال وركب منه إلى الإسماعيلية ثم ركب الدواب إلى مرسى السويس وتوجه إلى جدة في الوابور وعند وصوله إلى جدة بعث إليه شريف مكة وأميرها السيد عبد الله باشا يخبره بأنه مستعد لاستقباله في الاحتفال والابهة خارج مكة المشرفة فأجابه الأمير انه لا يقبل ذلك وإنما يريد ان يدخلها دخول عبد منكسر إلى بيت مولاه فدخلها وعلامة القبول لائحة واشارات الدنو والزلفى واضحة وتلقاه الشريف عبد الله باشا بعد ان اتم عمرته وأنزله بالمدرسة المجاورة للمسجد الحرام المعظم من الناحية الجنوبية القريبة من التكة المصرية وفي اليوم الثاني جاءه الأشراف والعلماء الأعلام والأفاضل والأعيان للسلام عليه ولأول وصوله كتب الي يخبرني بما اتفق له في رحلته كلها من الشام إلى مكة المكرمة وكتب إلى سائر الأحباب ومن جملتهم صاحب السيادة السيد محمود أفندي حمزة مفتي دمشق فأجابه بما نصه .الحمد لله وحده صلى على من لا نبي بعده من

الفقير صاحب النقصير محمود إلى مولاي وقدوتي العارف السيد عبد القادر اعلا الله في مقام المعرفة درجاته وأمدني دليا وأخرى بامداراته وأعاد علي وعلى المسلمين من صالح دعواته آمين اما بعد حمد لله تعالى بمحامد تليق من عظمته لكماله والتضرع له سبحانه وتعالى ان لا يحرمني بواسطتكم مشاهدة جماله فانني تشرفت بورود كنابكم وتمتعت بلذيذ خطابكم حيث وفى وكنت اشتكي ألم الفراق الصوري متوجعاً من وحشتي وقصوري فسرى به نوع مما بي وخفف بعض اوصابي وكان وصوله لدي قبل وروده إلى الشام بخمسة أيام وذلك انني رأيت نفسي في عالم المنام كأنني أعطيت كتاباً ورد من حضرتكم بخط مغربي وأنا اقرأه وافهم معناه من منطوقه وفحواه فالتهبت وعند الصباح أخبرت نجل مولانا السيد محمد بذلك فقال نعم قد تعبرت الرؤيا بورود كتاب لنا البارحة بعد العشاء من اتباع مولانا يخبرون به عن وصوله وتم هنالك ثم بعد مرور خمسة أيام حضر السيد محمد وأفاد ان تعتبر الرؤيا الآن صح وهذا هو المكتوب فلما فككته وتشرفت بتلاوته ومبانيه ووقفت فكري في ألفاظه ومعانيه قلت الآن صحت الرؤيا وحصلت الأمنية العليا وتمليت من عباراته وفهمت على قدر طاقتي ما تيسر من إشاراته وحمدت الباري سبحانه وتعالى أن كنت في خاطركم ملحوظاً بعين توجهاتكم إذ ذلك بفضل الله ذخري وأرجوه سبحانه التوفيق لعمل بمقتضاه وسلوكاً على نهج قضاه ورضاه . ببذل نفوس في الهوى شاد سادتي .... وضيعت بالتقصير نيل مرامي

لقد وهبوا منهم نفوساً زكية ◈ فنالوا مقام القرب أي مقام

واقعدني امساك نفسي حقيرة ◈ *وساعده أمر عظيم مرام*
فمن لي بنفس ياخليلي كريمة ◈ *فابذلها نقداً لوصل كرام*

فآه ثم آه لو حصل انتشـط من ربـاط ولكن الواثـق احكم والأمـر اعظم والقلم جف والوسائط ترغب والقاهر اغلب والعذر مـردود تأبـاه العهـود والسبب موجود والعجب انه مفقود إذا ساقني أشقاني أو أدناني نـاداني وإذا قصدت فقد وجدت كل ذلك حق واعتقد انـه صـدق . مفـاوز حـارت في تيهها عقـول الفحـول ودانت لهـا مذعنـة بـالعجز عن إدراكهـا أعنـاق المعقـول والمنقـول فـأرجو من إحسـانكم ملاحظـتي دائمـاً والـدعاء لي بالهداية وحصول العناية والوصول إلى الغاية فهـو تعـالى جـواد كـريم ذو الفضل العميم أدام الله تعالى نفعكم للعموم والخصوص من المسـلمين وكان الأمير لما وصل إلى جدة كتب إلى رئيس شـركة السـويس ونائبـه وغيرهما يخبرهم بوصوله إليه فكتب إليـه نـائب الـرئيس وهـو المباشـر للأعمال في القنال ما نصـه : إلى حضـرة فخـر الاماجـد الكـرام وقـدوة ذوي الفضل الفخام الأمير السيد عبد القادر بن محيى الدين حفظه اللــه تعالى مدى الدوام غب بث أشواق وفية لمشاهدة طلعتكم البهية اعرض انني بينما كنت مترقباً لاستماع أخبـاركم السـارة إذ في ابـرك وقت ورد علي طرسكم الكريم حاوياً بشائر سلامة اقنومكم الفخيم ووصولكم إلى جدة فحمدت الله على ذلك وشكرت افضال سيادتكم على مـا أبـديتموه لنحوي من اللطف العظيم بتحريركم الي ذلك الرقيم لا يخفى انني دائماً أترنم بحسن أخلاقكم وكمال اوصـافكم بحيث أنكم لم تـبرحوا من بـالي ولم يفتر لساني عن ذكركم والآن وأصلكم طي هذا الكتاب مكتــوب من جنـاب مسـيو دولسـيبس ومن اطلاعكم عليـه يتضـح لـديكم ان حضـرته مقدم لسيادتكم الأرض المدعوة ببير بو بلح وفيها قصر للسـكنى وجنينـة ومـزارع متسـعة وهـذه الأرض هي المكـان الـذي تلاقى فيـه نـبي اللـه يعقوب مع ابنه نبي الله يوسف عليهما السلام وهـو مبـارك لمـا فيـه من

التذكرة الفضيلة ومسيو دوليسبس لحسـن اعتقـاده في سـيادتكم يحكم بان بحضوركم تحضر البركات والخيرات العميمة فلـذاك أراد ان يهـديكم الأرض المذكورة لتكون مسكناً مباركـاً لكم ولـذريتكم ويكـون هـو قريبـاً منكم وسيادتكم ما رأيتم الأرض المشار إليها لما مررتم في البرزخ فهي كائنــة في الترعــة الحلــوة من النيــل المبــارك بــالقرب من الموضــع المعـروف بالتمسـاح فـإذا حسـن موقعهـا عنـدكم فاثنـاء لسـيادتكم بهـا والبشرى لنا بجواركم ثم واصلكم صورة ذاتكم وجرنال فرنساوي مصور به أيضاً مروركم في البرزخ وسعادة والي مصر الجديد قد اظهـر الميـل الكلي إلى نحو ترعة السويس اكثر من سـلفه سـعيد باشـا ونخـبركم ان الإمبراطور نابليون لما بلغه أنكم مررتم في البرزخ سر بذلك كثيراً والله تعالى يحفظكم حرر في شوال سنة تسع وسبعين ومائتين وألف . ذكر

السؤال الذي وجهه الأمير لعلمـاء مصـر ثم أرسـل إلى علمـاء مصـر مـا نصه : الحمد لله المالكية قالوا ثبت بالتواتر ان سـتة اذرع أو نحوهـا من الحجر من البيت والشافعية قالوا ثبت ظناً لا تـواتراً ووجـود التـواتر عنـد إحــدى الطــائفتين دون الأخــرى مســتبعد في مثــل هــذا وأيضــاً نقــل القسطلاني عن ابن رشيد ان الشاذر وان لم يرد له ذكر في خبر صـحيح ولا سقيم ولا بذكره أحـد من قـدماء المالكيـة وأول من ذكـره منهم ابن شاش وتبعه وتبعه ابن الحاجب قال وهـو مـأخوذ من الشـافعية بلا شـك فهــل هــذا مســلم من ابن رشــيد ام لا والســلام عليكم ورحمــة اللــه وبركاته .'فأجاب عنه العالم العلامة الشيخ حسـن العـدوي بقولـه 'بسـم الله الرحمن الرحيم الحمـد للـه الـذي جعـل بيتـه الحـرام مثابـة للنـاس وأمناً . فحن إليه منهم في عالم الأشباح من لب في عالم الأرواح فضـلاً ومنا والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبـدك ونبيـك ورسـولك صـفوة مخلوقاتـك حسـناً ومعـنى . وعلى آلـه وأصـحابه الـذين أحـرزوا قصـبات السبق في مضـمار تلبيـة الإجابـة فصـاروا نجـوم الهـدى كفاحـاً وضـمناء

وعلى أنصـاره الـذين بـذلت أطفـالهم مهجهم في محبتـه وإظهـار دينـه القويم علماً لاظناء فانتدبوا بالسيوف أبا جهل وهو في صف الكفر حـتى نظموه في سلك الرميم ومـا ضـنت كبـارهم بـذلك ولا سـيما من اقتفى أثرهم في ذلك الجهاد الأصغر مع الأكبر فرن مجد عزه في الخافقين رنا .

وبعد فيقول أسير الشهوات وكثير الهفوات حسن العدوي الحمزاوي انـه لمـا كـان من اعظم المنن الربانيـة والمـواهب الرحمانيـة الوقـوف على أصـول السـنة المحمديـة . انبعث خـاطر ذي الهمـة السـامية العليـة . والنفس الحيدرية الزكية . سيد علماء زمانه . وبدر بدور أقرانه . إنســان عين العرفان . ورافع لواء معالم الشـريعة في السـر والإعلان . الأسـتاذ المعظم . وأمير الأمراء المفخم . السـيد عبـد القـادر ابن السـيد محـيى الدين المغربي الواسطي الراشدي منشاء المجاهد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله طالباً منا الجواب عن مسألتين شرعيتين على سؤال ورد منـه إلينـا مرسـل من مكـة المشـرفة يخاطبـه الشـريف . وخطـة المـنيف فتشـرفت وسـررت حين اطلاعي عليـه ووفـق الـرحمن لسـرعة تحريـر المقصود لـه ليكـون عـدة بين يديـه وقبـل تـبيض الجـواب على السـؤال تصادف الاجتماع مع بعض الأفاضل الأعلام .

وكان عنده اشعار بحضـور السـؤال فبـادرني هـل حـررت المقصـود من الجواب فقلت نعم غـير انـه للان مارسـم وكـان ذلـك بحضـرة ذا المجـد الاثيل . والقدر الجليـل . جرثـوم الحسـب والنسـب الأصـيل . بـدر بـدور العصابة الصديقية . وشـمس نقبـاء السـلالة الهاشـمية . فخـر الأشـراف السيد علي أفندي البكري فحمله حسن ظنه فينا حين وقف على حقيقـة السؤال الوارد من حضرة السيد المشار إليـه آنفـاً على ان اجعـل لـذلك الجواب رسالة مستقلة كما هو الأليق مع ذاك الجناب الفخيم ورجــاء ان يكون بها النفع للمسلمين فانشرح لذلك صدري وقلت سمعاً وطاعــة ولا

سـيما إجابـة لسـيدين فلعـل وعسـى ببركتهمـا تكـون وصـلة عنـد سـيد الكونيين ورتبتها على ثلاثة أبواب وخاتمته جاعلاً لكـل مـذهب من الثلاث مالك والشافعي وابن حنيفة النعمان فصلاً يخصه في كل باب من البابين الأولين . وسميتها كنز المطالب في فضل البيت وفي الحجر والشذروان ومـا في زيـارة القـبر الشـريف في المـآرب . البـاب الأول فيمـا يتعلـق بالحجر الحرام وبيان حده وهل هو من الـبيت أو خارجـه وهـل كونـه من البيت ثبت تواتراً أو ظما . بالباب الثاني في ما يتعلق بالشذروان هل هو من البيت أو خارجه وهل ورد في السنة ما يدل عليه وهل ما نقله الإمام القسـطلاني في شـرحه على البخـاري عن ابن رشـيد تصـغير رشـد من المالكية ان الشـذروان لم يـرد لـه ذكـر في خـبر صـحيح ولا سـقيم ولم يذكره أحد من قدماء المالكية غـير ابن شـلش وتبعـه ابن الحـاجب قـال وهو مأخوذ من الشافعية مسـلم عن ابن رشـد موافـة لمـذهب مالـك أو المـذهب على خلافـه وهـذا مضـمون السـؤال الـوارد إلينـا من الأسـتاذ ولفظه الشـريف بخطـه المـنيف الحمـد للـه إلى آخـر السـؤال المتقـدم بحروفه ثم قال ثم استطردت باباً ثالثاً في بيان أول من بنى الـبيت وكم مرة بني وذكـر بعض الآثـار الدالـة على فضـله ومـا يتعلـق باركـان الحج وواجباتـه وسـننه في المـذاهب الثلاث المتقـدم ذكرهـا تتميمـاً للفائـدة وخاتمة تتعلـق بفضـل الحـرام المـدني وزيـارة سـيد العـالمين وصـاحبيه المطلوبـة على وجـه الكمـال والأدب وأسـأل اللـه العظيم متوسـلاً إليـه بوجاهة وجه نبيـه الكـريم ان يتفضـل عليهـا بـالقبول وان تكـون لجـواب السؤال هي المـأمول ولنشـرع الآن فيمـا قصـدنا على الـترتيب السـابق فأقول وبالله التوفيق لا قوم طريق . الفصل الأول من الباب الأول

في تحقيق جواب ما ذكر على مذهب مالك اعلم ان الذي عليه التحقيـق والمعول في مذهبـه ان الحجـر كلـه من الـبيت وان تحديـده من الإمـام خليل بسـتة اذرع يقتضـي صـحة الطـواف عنـد غايتهـا ولـو كـان خارجـه

ومعتمد المذهب خلافه ونص العلامة الأمير في مجموعة وخـروج جمعيـة أي الطائف عن الحجر واقتصار الأصـل على سـتة اذرع ضـعيف اه ونص الشـيخ عبـد البـاقي على قـول العلامـة خليـل وخـروج كـل البـدن عن الشذروان وستة اذرع من البيت تبع المصـنف في التحديـد بالسـتة اذرع الإمام اللخمي ولكن الظـاهر من قـول مالـك في المدونـة ولا يعتـد بمـا طافه داخل الحجر انـه لابـد لـه من الخـروج عن جميـع الحجـر لان ذلـك شامل للستة اذرع وما زاد عليها قال وهو الذي يظهـر من كلام أصـحابنا ولطوافه عليه الصلاة والسلام من ورائه وقال خـذوا عـني مناسـككم اه قال المحقق البناني في حاشيته عليه فعلم ان ما درج عليه الإمام خليل في مختصـره تبعـاً للإمـام النحمي طريقـة مرجوحـة والـراجح وجـوب الطواف من وراء الحجر اه وقال صاحب الطـراز سـئل مالـك عن ممـر الطائف في الحجر فقـال ليس ذلـك بطـواف فـان الطـواف إنمـا شـرع بجميع البيت إجماعا فإذا سلك في طوافه الحجر أو على جـداره أو على شاذروان البيت لم يعتد بذلك وهو قـول الجمهـور لأنـه لم يطـف بجميـع الكعبة قال وقد صين ذلك بالحواجز لاستكمال الطواف اه ولعـل إشـارة الأستاذ السيد عبد القـادر إلى زيـارة أو نحوهـا بعـد تحديـد الإمـام خليـل باستة اذرع جري منه على المعتمد فللـه دره ماكلـه في دقـة فهمـه مـع أدبه في شان الأئمة أقول ولكونه من البيت قيس عليه في صحة النفـل فيه دون الفرض قال لامام خليل وصـح فيهـا وفي الحجـر أي النفـل لأي جهة ومعتمد المذهب رجوع التعميم للبيت لا للحجر فلذا قال الإمام عبـد الباقي ناقلاً عن الخطاب قال الـذي ادين اللـه بـه واعتقـده انـه لا يجـوز لأحد ان يستدبر القبلة أي الكعبة ويستقبل الشـام ويجعلـه عن يمينـه أو عن يساره وطريقة الإمام اللخمي الصحة لمن استقبل من الحجر القدر الذي تواتر انه من البيت وهو الستة اذرع واحتج بذلك بعض الشـراح رداً على الحطاب القائل بعدم الصحة وقـال بصـحة من صـلى النفـل داخـل

الحجر ولو استدبر القبلة وشرق أو غرب قال وهو مـردود لمـا نقلـه ابن عرفة عن اللخمي أن صريح كلامه انه صـلى خـارج الحجـر مسـتقبلاً لـه وكلام الحطاب في الصلاة داخله على ان ما قاله الإمام اللخمي ضـعيف ولا يجوز ولا يصح النفل مستقبلاً للحجر مستدبراً للبيت فأولى من صـلى فيـه قـال ولا يحسـن الـرد على الحطـاب بكلام اللخمي لمـا علمت من اختلاف الموضوع بين المقيس والمقيس عليه على ان مـا قالـه اللخمي ضعيف والقول بعدم الصـحة هـو المعتمـد اه وقـال الإمـام البنـاني على قـول خليـل وفي الحجـر لاي جهـة قـال الإمـام الرماصـي متعقبـاً لكلام الحطاب قد يقال لا وجه لعدم ظهور الصحة لنص المالكيـة كـابن عرفـة وغـيره على ان حكم الصـلاة فيـه كـالبيت وقـدم نصـوا على الجـواز في البيت ولو لبابه مفتوحاً وهو في هذه الحالة غير مستقبل شيئاً وكذا يقال في الحجـر على مـا يقتضـيه التشـبيه اه قلت وفيـه نظـر لان مـا نقلـه الحطاب صريح في ترجيح منع الصلاة إلى الحجـر خارجـه كمـا دل عليـه كلام عيـاض والقـرافي وصـرح ابن جماعـة بأنـه مـذهب المالكيـة خلافـاً للخمي ود فمنع الصلاة فيه أولى من الصلاة خارجه واللـه اعلم اه وقـال العلامة الدسـوقي في حاشـيته على عبـد البـاقي صـرح الحطـاب بعـدم صلاة من صلى في الحجر لغير الكعبة مستدبراً لها فقال له الشيخ سالم السبنهوري كيف هذا مع ان اللخمي صرح بان من كان ارجـا من الحجـر يجوز له ان يستقبل في صلاته ستة اذرع من الحجر المقطوع بكونها من ظاهرة ولو كان مستدبراً للكعبـة وح فيقـاس عليـه من كـان في الحجـر فيجوز له اسـتدبار القبلـة والصـلاة فيـه إلى ان قـال لكن يقـول أن كلام اللخمي ضعيف فما قيس عليه كذلك وح فالحق ما قاله الحطـاب اه إلى هنا انتهى تحرير المقـام في كـون الحجـر من الـبيت وامـا قـول الأسـتاذ السيد في أول سؤاله المالكية قالوا ثبت بالتواتر ان ستة اذرع أو نحوهـا من الحجر من البيت والشافعية يثبتون ذلك ظناً مستعبداً لوجـود التـواتر

عند إحدى الطائفتين دون الأخرى لان التواتر يفيد القطع فلا يكون ظنيـاً فهو مبنى على طريقة مرجوحة في مذهب الإمـام اللخمي والـراجح انـه ظنى لكونه لم يـرو الا عن السـيدة عائشـة ولم يثبت في الصـحين ولا في باقي السـنن المشـهورة نقلـه عن غيرهـا فهـو ح حـديث آحـاد ونص الإمام المحقق البناني على قول الشيخ عبـد البـاقي حكايـة عن اللخمي استقبل من الحجر القدر الذي تواتر انه من البيت الخ قوله تواتر انه من البيت فيه نظـر بـل كلام ابن رشـد الـذي في الحطـاب صـريح في عـدم تواتره ولذا قال الشيوخ لا نعلم انه رماه من البيت عن رسول الله صلى عليه وسلم غير السيدة عائشة رضي الله عنها مـع البحث عنـه اه وقـال العلامة الدسوقي علي عبد الباقي قد يقـال ان قـول اللخمي سـابقاً من استقبل القدر الذي تواتر الخ يقتضي القطع لكونه قبلة لان التـواتر يفيـد القطع وبعد ذلك فالحق ان كون السنة اذرع من البيت انمـا ثبت بالآحـاد لا بالتواتر اه فتخصيص السيدة عائشـة في الموطـا والصـحيحين وبـاقي السـنن المشـهورة برهـان قـاطع على عـدم التـواتر ونص الموطـاء عن مالك عن هشام بن عـروة عن ابيـه عن عائشـة ام المؤمـنين مـا ابـالي اصليت في الحجر ام في البيت وحـديث البخـاري ومسـلم عنهـا سـألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الجدر بالفتح لغة في الجـدار أي الحجـر من البيت هو قال نعم قال الحافظ العسقلاني ظاهره ان الحجر كله من الـبيت قـال وبـه كـان يفـتي ابن عبـاس كمـا رواه عبـد الـرزاق وروايـة الترمذي والنسائي وابي داود وابن عوان بطرق كلهم عن عائشـة قـالت كنت احب ان اصـلي في الـبيت فاخـذ صـلى اللـه عليـه وسـلم بيـدي وأدخلني الحجر وقال صلي فيه فإنما هو قطعـة من الـبيت ولكن قومـك اقتصـروه حين بنـوا الـبيت فـأخرجوه من الـبيت إلى ان قـال الحافـظ والاحاديث المطلقة متواترة على سبب واحد وهو ان قريشا قصـروا عن بناء إبراهيم وان ابن الزبير أعاده على بنـاء إبـراهيم وان الحجـاج أعـاده

على بناء قريش قال ولم تـأت روايـة قـط صـريحة ان جمـع الحجـر من إبراهيم في البيت اه وفي الإمام الزرقاني على الموطـاء اتفـق العلمـاء على وجوب الطواف من وراء الحجر كما حكاه ابن عبد البر ونقل غــيره انــه لا يعــرف في الأحــاديث المرفوعــة ولاعن أحــد من الصــحابة فمن بعــدهم انــه طــاف من داخــل الحجــر كــان عملاً مســتمراً قــال العلامــة المذكور وهذا لا يقتضي ان جميع الحجر من البيت فلعله احتياطاً والعمل لا يقطع بالوجوب لاحتمال الندب اه إذا علمت ما تحرر وبالنصوص تقــرر لك ان ثبوت كونه من البيت ظني لا تواتراً وح فما بنــاه الأســتاذ في أول سؤاله من كونه ثبت عنــد المالكيــة تــواتراً جــري على طريقــة مرجوحــة للإمام اللخمي وح فلا خلاف بين مالك والشافعي فلا تناقض ولا اســتبعاد حينئذ والله تعالى اعلم . 'الفصل الثاني'

'في تحقيق ما ذكر على مذهب سبدنا وولي نعمتنا الإمام الشافعي'

فنصوص المذهب قاطعة بان الحجر جميعه من البيت وكذلك الشاذروان وعبارة المنهاج للإمام النووي ولو مشى على الشاذروان أو مس الجــدار في موازاته أو دخل من إحدى فتحتي الحجر وخرج من الأخرى لم تصــح طوفته قال المحقق ابن حجر في تحفته عليه وهــو أي الشــاذروان بعض جدار البيت نقصه ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما من عرض الأســاس لما وصل ارض المطاف لمصلحة البناء ثم سنم بالرخام لان اكثر العامــة كان يطوف عليه ومن ثم صنف المحب الطبري في وجوب ذلك التسليم صوناً لطــواف العامــة وهــو من الجهــة الغربيــة واليمانيــة وكــذا من جهــة الباب قال كما حررته في الحاشية قال واســتثناء ماعــدا الــركن اليمــاني منه لأنه على القواعد يرد بان كونه كذلك لا يمنع النقص من عرضه عنــد ارتفاع البناء وهذا هو المراد بالشاذروان في الجميــع فهــو عــام في كلهــا حتى عند الحجر الأسود وعند اليمــاني وقولــه أو مس الجــدار في مــوزق أي الشاذروان أي مسامتته له أو دخل شيء من بدنه قال وكذا ملبوســه

على حد التأويلين والراجح عدم الضرر وقوله أو دخل من إحـدى فتحـتي الحجر بكسر أوله ما بين الركنين الشاميين على جدار البيت اصـين بيتـه وبين كل من الركنين فتحة كان زريبة لغنم إسماعيل وروى انه دفن فيـه ويسمى حطيمـا لكن الأشـهر ان الحطيم مـا بين الحجـر الأسـود ومقـام إبراهيم وقوله وخرج من الأخرى أي فلو وضع انملتـه على طـرف جـدار الحجر القصير كما يفعله كثير من العامة لم تصح طوفته أي بعضها الذي قارنه ذلك المس أو الدخول لأنه ح طـائف في الـبيت لابـه المـذكور في الآيــة امــا في الأولى فلآن هــوآء الشــاذروان من الــبيت كمــا علم من التعريف واما في الحجر فهو وان لم يكن فيه من الـبيت الاسـتة اذرع أو سبعة لكن الغالب على الحج التعبد وهو صلى الله عليه وسـلم والخلفـاء الراشـدون ومن بعـدهم لم يطوفـوا الا خارجـه فـوجب اتبـاعهم فيـه اه بلفظه قلت وليحرر الجمع بين قوله نقصه ابن الزبـير مـع مـا سـبق لـك عن الحافظ العسقلاني في الفتح ان الأحاديث متواترة على سبب واحــد وهو ان قريشاً قصروا عن بناء إبـراهيم وان ابن الزبـير أعـاده على بنـاء إبراهيم وان الحجاج إعادة على بناء قريش اه فصريح الأحـاديث على ان النقص منها وقع في بناء قريش لأبناء ابن الزبير ولعل الجمـع بـان الـذي نقصته قريش فقط هو الحجر ويشهد له حديث البخاري ومسلم المتقدم عن السيدة عائشة سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الجدر بــالفتح لغة في الجدار كما تقدم أي الحجر كما صرح به شراح البخـاري والإمـام الزرقـاني على الموطـاء حيث فسـروه بـذلك فقـط فيحمـل إعـادة ابن الزبير له على قواعد إبراهيم على الحجر خاصة واما الشـاذروان فأبقـاه على ما كان عليه من قريش فيكـون معـنى نقصـه ابن الزبـير أي أبقـاه على نقصه غاية الأمر انه سنمه بالرخام خوفاً من الطواف العامــة عليـه وهـذا صـريح قـول ابن حجـر في تحفتـه وفي حاشـيته عليهـا في قولـه السابق نقصه بن الزبير رضي الله تعالى عنهما من عرض الأسـاس لمـا

وصل ارض المطاف لمصلحة البناء ثم سنم بالرخام إلى آخر ما تقدم له ونه في حاشيته ان قريشاً لما ثبت البيت على هيئته التي هو عليها اليوم نقصوا عرض الجدار لما ارتفع على وجه الأرض لأنهم لم يجدوا من الأموال الطيبة ما يغني بالنفقة وتركوا من جانب هذين الركنين بعضاً واخرجوهما عن قواعد إبراهيم عليه السلام وجعلوا على ذلك البعض وما زاد عليه جداراً قصيراً وهو المسمى بالحجر فهما ليسا موضوعين على قواعد الأركان التي وضعتها كما في اليمانيين وان كانا موضوعين على أساس البيت بوقوع البناء الذي حصل التركيب به على الأساس الذي أسسه إذ الركن عبارة عن ملتقى طرفي جدارين وكل منهما موضوع على اس سيدنا إبراهيم كما هو جلي وإنما لم يراعوا ذلك لان الاستلام بالأركان المخصوصة لا لنفس البيت ولما وضع من الأركان على أساسه ومن ثم لما بناه ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما من جهة الحجر على القواعد استلمت الأركان فنقص الجدار عن عرضه لا سيما بعد ارتفاعه ولا يخرج كون اليمانيين موضوعين على قواعد إبراهيم صلى الله عليه وسلم اهو عبارة شيخ الإسلام في منهجه وشرعه عليه وثالثها جعل البيت عن يساره ماراً تلقاء وجهه فيجب كونه خارجاً بكل بدنه عنه حتى شاذروانه وحجره الانباع مع خبر مسلم خذوا عنى مناسككم قال فان خالف شيئاً من ذلك كان استقبال البيت أو استديره أو اجعله عن يمينه أو عن يساره ورجع القهقرى نحو الركن اليماني لم يصح طوافه والحجر بكسر الحاء ويسمى حطيماً المحوط بين الركنين الشاميين بجدار قصير بينه وبين كل من الركنين فتحة قال المحشى البجبيرمي قوله بكل بدنه فلو مس البيت بيده مثلاً أو ادخل جزأ منه في هواء الشاذروان أو هواء غيره من أجزاء البيت لم يصح بعض طوفته وليس الثوب كالبدن على المعتمد خلافاً للشوبري وقوله شاذروانه بفتح الذال المعجمة وهو الخارج عن عرض جدار البيت مرتفعاً عن وجه الأرض قدر ثلثي ذراع

تركته قريش عند بنائهم له لضيق النفقـة أي لقلـة الـدراهم الجلال الـتي يصرفونها في البناء والله اعلم اه فصريح هـذا من شـيخ الإسـلام قـاطع بان نقص الشاذروان كان حاصلاً في بناء قريش كما نقصت الحجـر غـير ان الذي أعاده ابن الزبير هو الحجر فقط ويقوي هذا الجمع قـول الإمـام الزرقاني على الموطاء فلما قتل ابن الزبير شاور الحجاج عبد الملك بن مروان في نقض بناء ابن الزبير فتكتب إليه أما ما زاد في طولها فـاقره واما ما زاده في الحجر فرده إلى بنائه وسد باب الذي فتحه ففعـل كمـا في مسلم عن عطاء اسأل الله الكريم ان يتفضل علينا بالعطايا الربانية بجاه خير البرية صلى الله عليه وعلى اله وأصحابه وأزواجـه وذريتـه وآل بيتـه وسـلم وشـرف وعظم كلمـا ذكـرك الـذاكرون وغفـل عن ذكـره الغافلون . الفصل الثالث

في مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان رحمة الله

فالحجر عنده باتفاق المذهب من البيت ويجب ان يكـون الطـواف وراءه وح فقد توافق فيـه المـذاهب الثلاث وإنمـا الخلاف في نهايتـه هـل سـتة اذرع أو سبع أو ست وشبر ومع ذلك يجب ان يكـون الطـواف من ورائـه باتفاق الجميع لحديث مسلم خذوا عنى مناسككم ولم يطـف صـلى اللـه عليه وسلم والخلفاء الراشـدون الا من خلفـه وعبـارة الـدر قـالوا ويمـر بجميع بدنه على جميع الحجر جاعلاً قبل شروعه ردائه تحت إبطه ملقيـاً طرفه على كتفه الأيسر استسنانا ورآه الحطيم وجوباً لان منه ستة اذرع من البيت فلـو طـاف من الفرجـة لم يجـز كاسـتقباله احتياطـاً وبـه قـبر إسماعيل وهاجر وعبارة المحقق ابن عابدين عليه قوله قالوا الخ .

قال في البحر ولما كان الابتداء من الحجر واجباً كان الابتداء في طـواف من الجهة التي فيها الركن اليماني قريباً من الحجر الأسود متعيناً ليكـون ماراً بجميع بدنه على الحجر الأسود وكثيراً من الأعوام شاهدناهم يبتدؤن

الطواف وبعض الحجر خارج عن طـوافهم فاحـذروه اه . فـان قلت هـذا الكيفية عن اللباب وانها مستحبة لا متعينا وبه صرح في فتح القدير أيضاً وفي الشرنبلالي بعد ما مر عن البحر هذا إذا لم يكن في قيامه مسـامتاً للحجر بان وقف جهة الملتزم ومال ببعض جسده ليقبـل الحجـر امـا من قام مسامتاً بجسده الحجر فقد دخل في ذلك شيء من الـركن اليمـاني لان الحجر ركن وركنه لا يبلغ عرض جسد المسـامات لـه وبـه لا يحصـل الابتداء من الحجر اه . قلت لكن لا يحصل به المرور بجميـع البـدن على الحجر لكن قد علمت انه غير لازم عندنا وأمل الشارح اشـار إلى ضـعفه بلفظ قالوا وقوله وراء الحطيم قال المحشي العلامـة المـذكور ويسـمى حظيرة إسماعيل وهو البقعـة الـتي تحت المـيزاب عليهـا حـاجز كنصـف دائرة بينها وبين الـبيت فرجـة سـمي بـالحطيم لأنـه حطم من الـبيت أي كسر وبالحجر لأنه حجر منه وقوله لان منه سـتة اذرع من الـبيت لفظـة من خبران مقدماً وستة اسمها مـؤخراً ومن الـبيت صـفة سـتة والتقـدير بان ستة كائنة من الـبيت ثابتـة منـه أو من حـال سـتة مقـدم عليـه ومن البيت خبره وهـو جـائز كقولـه لميـة موحشـاً صـلل قلت والثـاني اظهـر فافهم قال في الفتح وليس الحجـر كلـه من الـبيت بـل سـتة اذرع منهم فقط لحديث عائشة رضي الله تعالى عنهـا عن رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسلم قال ستة اذرع من الحجر من البيت وما زاد ليس من الـبيت رواه مسلم قوله لم يجز بفتح اوله وضم ثانيه من الجواز بمعنى الحـل لا الصحة أو بضم اوله وسكون ثانيه أي على وجه الكمال قـال القـاري في شرح النقابة ولو طاف من الفرجة لا يجزؤه في تحقيق كمالـه ولابـد من إعادة الطواف كله لتحققه وان أعاد من الحطيم وحده اجزأه بـان يأخـذ عن يمينه خارج الحجر حتى ينتهي إلى آخره ثم يدخل الحجر من الفرجة ويخرج من الجانب الآخر أو لا يدخل الحجر وهو افضل بـان يرجـع ويبتـدأ من أول الحجر هكذا يفعل سبع مـرات ويقضـي صـفته من رمـل وغـيره

ولو لم يعد صح طوافه ووجب عليـه دم اه قولـه كاسـتقباله أي فانـه إذا استقبله المصلي لم تصح صلاته لان فريضة استقبال الكعبة ثبتت بالنص القطعي وكون الحطيم من الكعبـة ثبتت بالآحـاد فصـار كأنـه من الكعبـة من وجه دون وجه فكان الاحتيـاط في وجـوب الطـواف وراءه في عـدم صحة استقباله والتشبيه ممكن تصحيحه على الوجهين اللـذين ذكرناهمـا قي قولـه لم يجـر مـع قطـع النظـر عن الفهـوم فـافهم قولـه وب قـبر إسماعيل وهاجر عزاه في البحـر إلى غايـة البيـان وذكـر بعضـهم أن ابن الجـوزي أورد أن قـبر إسـماعيل فيمـا بين المـيزاب إلى مـا بين الحجـر الغربي اه إذا علمت هذا تبين لك في المـذاهب الثلاثـة انـه يجب خـروج جميع البدن عن جميع الحجر ولو على القـول بأنـه سـتة اذرع فقـط لمـا علمت انه عليـه الصـلاة والسـلام والخلفـاء الراشـدون فمن بعـدهم إلى وقنا هذا لم يطف أحداً منهم داخل حجر ذو أمر تعبدي وقال عليه الصلاة والسـلام خـذوا عـني مناسـككم وان كونـه من الـبيت ثبت بالآحـاد عنـد المذاهب الثلاث لا تواتراً والله اعلم . الباب الثاني

فيما يتعلق بالشذروان

هل هو من البيت أو خارجه وهل ورد في السنة مـا يـدل عليـه وهـل مـا نقله الإمام القصطلاني في شرحه على البخـاري عن ابن رشـيد تصـغير رشد من المالكية ان الشذروان وان لم يرد له ذكـر في خـبر صـحيح ولا سـقيم ولم يـذكره أحـد من قـدماء المالكيـة غـير ابن شـلس وتبعـه ابن الحاجب قـال وهـو مـأخوذ من الشـافعية مسـلم عن ابن رشـيد موافقـاً لمذهب مالك أو المذهب على خلافه وهذا مضمون السؤال الثاني الوارد إلينا من الأستاذ وفيه فصول ثلاث . الفصل الأول

في تحقيـق ذلـك على مـذهب مالـك فـأقول وباللـه التوفيـق ان جمهـور المذهب على ان الشذروان من البيت فمن طاف ببعض شـيء منـه من

داخله بان ادخل يده في هويه بطل طوافه وهذا هو الذي عليـه الاعتمـاد والمعول في المذاهب وخلافه لا يلتفت إليـه فلـذا اقتصـر عليـه العلامـة خليل في متنه وخاتمـة المحققين الأمـير في مجموعـة ولم يـذكروا فيـه خلافاً بل اقتصر جميـع الشـراح مـع المنـون قـديماً وحـديثاً على وجـوب خروج جميع البدن عن الشذروان ونص العلامة خليل وخـروج كـل البـدن عن الشذروان ونص العلامة الخرشي عليه قال والمعـنى انـه يجب على الطائف بـالبيت ان يجعـل بدنـه في طوافـه خارجـاً عن الشـذروان وهـو البنـاء المحـدوب في أسـاس الـبيت وذلـك شـرط في صـحة طوافـه والمعتمد عند المؤلف ان الشذروان من البيت معتمد على ما قاله سـند وابن شلس ومن تبعهما كابن الحاجب والقرافي وابن جزى وابن جماعـه التونسي وابن عبد السلام وابن هارون في شرح المداولة وابن رشد في اللبـاب وابن معلا والتـادلي وابن فرحـون ونقلـه ابن عرفـه ولم يتعقبـه وتبعه الابي وهو المعتمد عند الشافعية قال وأنكر كونه من البيت جماعة من متـأخري المالكيـة والشـافعية فمن بـالغ في إنكـاره من المالكيـة الخطيب أبو عبد الله بن رشيد مصـغر رشـد اه ونص المجمـوع وخـروج جميعه أي الطائف عن جميع الحجر والشذروان فيعتدل المقبـل اه ونص العلامة الدسوقي على الشرح الكبير على قول العلامة الدردير لو طـاف ويده على الشذروان لم يصح أي لدخول بعض يده في هـوي الـبيت ومـا ذكره من ان الشذروان من الـبيت هـو الـذي عليـه الإكثـار من المالكيـة والشافعية وذهب بعضهم إلى انه ليس من البيت قال الحطاب وبالجملة فقد كثر الاضطراب في الشاذروان وصـرح جماعـة من الأئمـة المقتـدى بهم بأنه من البيت فيجب على الشخص الاحتراز منه في طوافه وانه إذا طاف وبعض بدنه في هويه ان يعيد مادام بمكة فان لم يذكر ذلـك حـتى بعد من مكة فينبغي انه لا يلزمه الرجوع مراعاة لمن يقول انه ليس من البيت اه إذا علمت هذا ظهر لك ان ما نقله الإمام القسـطلاني عنـه انـه

لم يقل به أحد من قدماء المالكية غير مسلم لابن رشيد لما علمت مما نقله الإمام الخرشي عن الأئمة الأعيان وقول الحطاب وصرح جماعة من الأئمة المقتدى بهم بأنه من البيت فكيف ينظر لقول ابن رشيد انه لم يذكره أحد من قدماء المالكية مع هؤلاء الأئمة المتقدم ذكرهم آنفاً ولذا اقتصر عليه الإمام خليل بقوله وخروج كل البدن عن الشاذروان ومثله الإمام الأمير والإمام الدردير ولم يذكرها خلافاً فضلاً عن اعتباره مرجوحا فلو كان لقول ابن رشيد قوة في المذهب لنبهوا على وجود الخلاف في المتون كما هو القواعد المقررة في ذلك فعدم التفاتهم إليه رأساً دليل على عدم اعتباره فح ارتكان الإمام القسطلاني على القول بأنه ليس من البيت تعويلاً على ما لابن رشيد نظراً لما اطلع عليه فقط والا فها هي شروح المذهب ومتونة ناطقة بكونه من البيت وهم حجة في النقل فالواجب علينا اتباع ما نقلوه وأعتموه ولم يعولوا على خلافه والله تعالى يرشدنا جميعاً لاتباع الحق والصواب بجاه سيد الأحباب صلى الله عليه وسلم وشرف وعظم . الفصل الثاني

في تحقيق ذلك على مذهب الإمام الشافعي

قد سبق لك ما يفيدك بالنص الصريح ان الشاذروان من البيت وعبارة المنهاج السابقة للإمام النووي ولو مشى على الشاذروان أو مس الجدار في موازاته أي مسامتته له أو ادخل شياءً من بدنه لم تصح طوفته وعبارة شيخ الإسلام في منهجه فيجب كونه خارجاً بكل بدنه عنه حتى شاذروانه وحجره للاتباع مع خبر مسلم خذوا عنى مناسككم قبل فان خالف شياءً من ذلك لم يصح طوافه قال المحشي البجيرمي قوله بكل بدنه فلو مس البيت بيده مثلاً أو ادخل جزأ منه في هواء الشاذروان أو هواء غيره من أجزاء البيت لم يصح بعض طوفته وليس الثوب كالبدن على المعتمد خلافاً للشوبري وقوله شاذروانه بفتح الذال المعجمة وهو الخارج عن عرض جدار البيت مرتفعاً عن وجه الأرض قدر ثلثي ذراع

تركته قريش عند بنائهم له . لضيق النفقة أي قلـة الـدراهم الحلال الـتي يصفونها في البناء ولله اعلم وصـلى اللـه على سـيدنا محمـد وعلى آلـه وصحبه وسلم . الفصل الأول

في تحقيق كون الشاذروان من البيت أو خارجه عند الإمام أبي حنيفة النعمان وعلى كل هل يجب خروج بدنه عنه ولو على القول بأنه ليس منه قال المحقق ابن عابدين الشاذروان وهو الافريز المسنم الخارج عن عرض جدار البيت قدر ثلثي ذراع قيل انه من البيت حين عمرته قريش كالحطيم وهو ليس منه عندنا لكن ينبغي ان يكون طوافه وراءه خروجاً من الخرف كما في الفتح واللباب وغيرهم اه إذا علمت هذا تبين لك انه في المذاهب الثلاث يجب خروج جميع بدنه عن جميع الحجر والشاذروان عند أبي حنيفة ليس من البيت وإنما وجوب خرج جميع البدن عنه احتياطاً مراعاة لمذهب الغير وان ثبوت كون الحجر من البيت ظني عند المذاهب الثلاث لا تواتر إنما علمت سابقاً انه لم يرو الا عن السيدة عائشة فح توافق في الحجر مالك والشافعي وأبو حنيفة على انه من البيت وثبت ظنا وكذلك الشاذروان عند مالك والشافعي وعند أبي حنيفة ليس منه ومنشأ الخلاف مبني على الخلاف في فهم قوله عليه الصلاة والسلام للسيدة عائشة ان قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم فالذي عليه الجمهور من مذهب مالك والشافعي ان الاقتصار عن قواعد إبراهيم الشامل لما ترك من الحجر ومحي الشاذروان وخصه الإمام الأعظم بالحجر دون الشاذروان وحديث الصحيحين رضي الله عنهما يشهد بظاهرة لأبي حنيفة بالتخصص ونصه عن عائشة رضي الله عنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الجدر أي الحجر أمن البيت هو قال نعم قلت فما له لم يدخلوه في البيت قال ان قومك قصرت بهم النفقة قلت فما شأن بابه مرتفعاً قال فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاؤوا وحديث مسلم عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة اذرع من حجر البيت وما زاد ليس منه ورواية الترمذي والنسائي وأبي داوود بطرق كلهم عن عائشة قالت كنت احب ان اصلي في البيت فاخذ صلى الله عليه وسلم بيدي وأدخلني الحجر وقال صلي فيه فإنما هو قطعة من البيت ولكن قومك اقتصروا حين بنوا البيت وأخرجوه من البيت وفي شرح الإمام الزرقاني على الموطا رواية عن صحيح مسلم قالت قال صلى الله عليه وسلم ان قومك اقتصروا من بنيان البيت ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه فان بدا لقومك من بعدي ان يبنوه فهم لي لأريك ما تركوا منه فاراها قريباً من سبعة اذرع وفي الشرح المذكور انه لا تنافي بين رواية سبعة اذرع ورواية ستة اذرع وخمسة اذرع فان رواية الأقل أريد بها ما عدا الفرجة التي بين الركن والحجر قال هذا الجمع اولى من دعوى الاضطراب والطعن لان شرط الاضطراب ان تتساوى الوجوه بحيث يتعذر الترجيح أو الجمع ولم يتعذر هنا وإطلاق اسم الكل على البعض شائع مجازاً قاله الحافظ في الفتح فهذه الأحاديث ظاهرها تقوي ما للإمام أبي حنيفة ورواية الإطلاق استند إليها مالك والشافعي كما في الصحيحين ونصهما لولا ان قومك حديثو عهد بجاهلية لا مرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما اخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له بابين باباً شرقياً وباباً غربياً فبلغت به أساس إبراهيم قال خاتمة الحفاظ الإمام العسقلاني في الفتح وفي الحديث فوائد منها انه يترك ما هو صواب خوف وقوع مفسدة شد ومنها استئلاف الناس الي

الإيمان ومنها اجتناب ولي الأمر ما يتسارع الناس إلى إنكاره وما يخشى منه تولد الضرر عليه في دين أو دنيا وتآلف قلوبهم لما لا يترك فيه أمر واجب كمساعدتهم على ترك الزكاة وشبه ذلك وتقديم الأهم على الأهم من دفع المفيدة وجلب المصلحة وانهما إذا تعارضتا بدئً بدفع المفسدة ويؤخذ منه أيضاً حديث الرجل مع أهله في الأمور العامة وفيه رد الذرائع ونقل الإمام ابن بطال عن بعض العلماء ان الحامل له عليه الصلاة والسلام على الترك خشية ان ينسبوه إلى الانفرادبالفخر دونهم بدليل رواية الشيخين أخاف أن تنفر القاع وفي رواية أن تنكر قلوبهم ان ادخل الجدر في البيت وان الصق بابه إلى الأرض ورواية مسلم عن الزبير وليس عندي من النفقة ما يقويني على بنائه فأخلت فيه من الحجر قدر خمسة اذرع إذا علمت هذا تبين لك ان الشاذروان مندرج في عموم ما خرجته قريش من البيت عن قواعد إبراهيم عملاً بالأحاديث المطلقة في الاقتصار عن القواعد وخصه الإمام الأعظم بالحجر عملاً بالأحاديث المقيدة ولكل وجهة رضى الله تعالى عنهم وعنا بهم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وازواجه وذريته وآل بيته وسلم وشرف وعظم كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون اه المقصود من الرسالة 'ثم اقبل الأمير' على عبادة الله تعالى عند بيته الحرام في مسجده الحرام وتفرغ لها من كل شيء يتعلق بالدنيا وأهلها واختار الشيخ محمد الفاسي المجاور في مكة المكرمة أستاذاً له فاخذ عليه الطريق وتلقى شؤنها عنها ولازم الرياضة والخلوة والاجتهاد وعكف على ما في تلك الطريقة الميمونة من الوظائف والأوراد إلى ان رقي معارج الأسرار إلى حظائر القدس ذات الأنوار ووقعت له كرامات وخوارق وأحرز بقوة سعده أحوالاً سنية وأنفاساً محمدية وما تم له الارتقاء إلا وهو في غار حراء لأنه انقطع فيه أياماً عديدة إلى ان جآءته البشرى بالرتبة الكبرى ووقع له الفتح النوراني وتفجرت ينابيع الحكم على لسانه وفاضت عيون الحقائق بين ادواح جنانه وانفتح له باب الواردات واستظهر من القرآن العظيم آيات ومن الحديث النبوي أحاديث صحيحة فكتب من خلوته إلى حضرة أستاذه يصف بدايته ونهايته ويثني على الله بما أولاه على يده بقوله . امسعود جاء السعد والخير واليسر ◈ وولت جيوش النحس ليس لها ذكر

ليالي صدور وانقطاع وجفوة ◈ وهجران سادات ولا ذكر الهجر
فأيامها أضحت قتاماً ودجنة ◈ لياليها لا نجم يضيء ولا بدر
فراشي فيها حشوة الهم والضني ◈ فلا التذلي جنب ولا التذلي ظهر
ليالي أنادي والفؤاد متيم ◈ ونار الجوى تشوي لما قد حوى الصدر
أ مولاي طال الهجر وانقطع الصبر ◈ أ مولاي هذا الليل هل بعده فجر
أغث يا مغيث المستغيثين والهاً ◈ ألم به من بعد أحبابه الضر
أسائل كل الخلق هل من مخبر ◈ يحدثني عنكم فينعشني الخبر
إلى ان دعتني همة الشيخ من مدى ◈ بعيد الا فادنو فعندي لك الذخر
فشمرت عن ذيلي الإزار وطار بي ◈ جناح اشتياق ليس يخشى له كسر
وما بعدت عن ذا المحب تهامة ◈ ولم يثنه سهل هناك ولا وعر
إلى ان أنخنا بالبطاح ركابنا ◈ وحطمت به رحلي وتم لها البشر
بطاح بها البيت المعظم قبلة ◈ فلا فخر الا فوقه ذلك الفخر
بطاح بها الصيد الحلال محرم ◈ ومن حلها حاشا يبقى له وزر
أتاني مربي العارفين بنفسه ◈ ولا عجب فالشأن أضحى له أمر

وقال فاني منذ أعداد حجة ◈ لمنتظر لقياك يا أيها البدر
فأنت بني مذ ألست بربكم ◈ وذا الوقت حقا ضمه اللوح والسطر
وجدك قد أعطاك من قدم لنا ◈ ذخيرتكم فينا ويا حبذا الذخر
فقبلت من أقدامه وبساطه ◈ فقال لك البشرى بذا اقضي الأمر
وألقى على صغري باكسير سره ◈ فقيل له هذا هو الذهب التبر
واعني به شيخ الأنام وشيخ من ◈ له عمة ذي عذبة وله الصدر
عياذي ملاذي عمدتي ثم عدتي ◈ وكهفي إذا أبدى نواجذه الدهر
غياثي من أيدي العداة ومنقذي ◈ منيري مجيري عندما غمني العمر
ومحيي رفاتي بعد ان كنت رمة ◈ واكسبني عمراً لعمري هو العمر
محمد الفاسي له من محمد ◈ صفي الإله الحال والشيم والغر
بفرض وتعصب غدا ارثه له ◈ هو البدر بين الأولياء وهم الزهر
شمائله تغنيك ان رمت شاهداً ◈ هي الروض لكن شق أكمامه القطر
تضوع طيباً كل زهر بنشره ◈ فما المسك ما الكافور ما الندما العطر
وما حاتم قل لي وما حلم أحنف ◈ وما زاهد إبراهيم اوهم ما الصبر
صفوح يغض الطرف عن كل زلة ◈ لهيبته ذل الغضنفر والنمر
هشوش بشوش يلقى بالرحب قاصداً ◈ وعن مثل حب المزن تلقاه يفتر
فلا غضب حاشا بان يستفزه ◈ ولا حدة كلا ولا عنده ضر

لنا منه صدر ما تكدره ألد لا _ وجه طليق لا يزايله البشر

ذليل لأهل الفقر لا عن مهانة ◈ عزيز ولا تيه لديه ولا كبر
وما زهرة الدنيا بشيء له ترى ◈ وليس لها يوماً بمجلسه نشر
حريص على هدي الخلائق جاهد ◈ رحيم بهم بر خبير له القدر
كساه رسول الله ثوب خلافة ◈ له الحكم والتصريف والنهي والأمر
وقيل له ان شئت قل قدمي علا ◈ على كل ذي فضل أحاط به العصر
فذلك فضل الله يؤتيه من يشا ◈ وليس على ذي الفضل حصر ولا حجر
وذا وأبيك الفخر لا فحر من غدا ◈ وقد ملك الدنيا وساعده النصر
وهذا كمال كل عن وصف كنهه ◈ فمن يدعي هذا فهذا هو السر
أبو حسن لو قد رآه احبه ◈ وقال له أنت الخليفة يا بحر
وما كل شهم يدعي السبق صادق ◈ إذا سيق للميدان بان له الحسر
وعند تجلي النقع يظهر من علا ◈ على ظهر جرد بل ومن تحته حمر
وما كل من يعلو الجواد بفارس ◈ إذا ثار نقع الحرب والجو مغبر
فيحمي ذماراً يوم لا ذو حفيظة ◈ وكل حماة الحي من خوفهم فروا
ونادى ضعيف الحي من ذا يغيثني ◈ اما من غيور حانني الصبر والدهر
وما كل سيف ذو الفقار بحده ◈ ولا كل كرار علياً إذا كروا
وما كل طير طار في الجو فاتكاً ◈ وما كل صياح إذا صرصر الصقر

وما كل من يسمى بشيخ كمثله ◈ وما كل من يدعى بعمروا إذا عمرو
وذا مثل للمدعين ومن يكن ◈ على قدم صدق طبيباً له خبر
فلا شيخ الا من يخلص هالكاً ◈ غريقاً ينادي قد أحاط بي المكر
ولا تسئلن من ذي المشائخ غير من ◈ له خبرة فاقت وما هو مغتر
تصفح أحوال الرجال مجرباً ◈ وفي كل مصر بل وقطر له أمر
فانعم بمصر ربت الشيخ يافعاً ◈ واكرم بقطر طار منه له ذكر
فمكة ذي خير البلاد فديتها ◈ فما طاولتها الشمس يوماً ولا النسر
بها كعبتان كعبة طاف حولها ◈ حجيج الملا بل ذاك عندهم الظفر
وكعبة حجاج الجداب الذي سما ◈ وجل فلا ركن لديه ولا حجر
وشتان ما بين الحجيجين عندنا ◈ فهذا له ملك وهذا له اجر
عجبت الباغي السير للجانب الذي ◈ تقدس سرا لا يجد له السير
ويلقي إليه نفسه بفنائه ◈ بصدق تساوى عنده السر والجهر
فيلقى مناخ الجود والفضل واسعاً ◈ ويلقى فراتاً طلب نهلا فما القطر
ويلقى رياضاً أزهرت بمعارف ◈ فيا حبذا المرأى ويا حبذا الزهر
ويلقى جناناً فوق فردوسها العلا ◈ وما الجنان الخلد ان عقبت نشر
ويشرب كاساً صرفة من مدامة ◈ فيا حبذا كاس ويا حبذا خمر
فلا غول فيها لا ولا عنها نزفة ◈ وليس بها برد وليس بها حر
ولا هو بعد المزج اصفر فاقع ◈ ولا هو قبل المزج قان ومحمر
معتقة من قبل كسرى مصونة ◈ وما ضمها دن وما نالها عصر
ولا شانها زق ولا سار سائر ◈ بأحمالها كلا ولا نالها تجر
فلو نظر الأملاك ختم إنائها ◈ تخلت عن الأملاك طوعاً ولا قهر
ولو شمت الأعلام في الدرس ريحها ◈ لما طاش عن صوب الصواب لهم فكر
فيا بعدهم عنها ويا بئس ما رضوا ◈ فقصدهم قد وسيرهم وزر
هي العلم كل العلم والمركز الذي ◈ به كل علم كل حين له دور
فلا عالم الا خير بشربها ◈ ولا جاهل الا جهول به غر
ولا غبن في الدنيا ولا من رزيئة ◈ سوى رجل عن نيلها حظه نزر
ولا خسر في الدنيا ولا هو خاسر ◈ سوى واله والكف من كأسها صفر
إذا زمزم الحادي بذكر صفاتها ◈ وصرح ما كنى ونادى نائي الصبر
وقال اسقني خمراً وقل هي الخمر ◈ ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر
وصرح بمن تهوى ودعني من الكنى ◈ فلا خير في اللذات من دونها ستر
ترى ذائقيعا منها هامت عقولهم ◈ ونازلهم بسط وخامرهم سكر
وتاهوا فلم يدروا من التيه من هم ◈ وشمس الضحى من تحت أقدامهم عفر
وقالوا فمن يرجى من الكون غيرنا ◈ فنحن ملوك الأرض لا البيض والحمر
تميد بهم كأس بها قد تولهوا ◈ فليس لهم عرف وليس لهم نكر
حياري فلا يدرون اين توجهوا ◈ فليس لهم ذكر وليس لهم فكر
فيط بهم برق تألق بالجما ◈ ويرقصهم رعد بسلع له زأر

ويسكرهم طيب النسيك إذا سرى ◈ تظن بهم سحراً وليس بهم سحر
وتبكيهم ورق الحمائم في الدجى ◈ إذا ما بكت من ليس يدري له وكر
بحزن وتلحين تجاوبتا بما ◈ تذوب له الأكباد والجلمد الصخر
وتسبيهم غزلان رامة ان بدت ◈ وإحداقهم بيض وقاملتها سمر
وفي شمها حقاً بذلنا نفوسها ◈ فهان علينا كل شيء له قدر
وملنا عن الأوطان والأهل جملة ◈ فلا قاصرات الطرف تثني ولا القصر
ولا عن أصحاب الذوائب من غدت ◈ ملاعبهم مني الترائب والنحر
هجرنا لها الأحقاب والصحب كلهم ◈ فما عاقنا زيد ولا راقنا بكر
ولا ردنا عنها العوادي والعدى ◈ ولا هالنا قفر ولا راعنا بحر
وفيها حلالي الذل من بعد عزة ◈ فيا حبذا هذا ولو بدوءه مر
وذلك من فضل الإله ومنه ◈ علي فما للفضل عدء ولا حصر
وقد انعم الوهاب فضلاً بشربها ◈ فلله حمد دائم وله الشكر
فقاع الملوك الأرض انتم وشانكم ◈ فقسمتكم ضئزى وقسمتنا كثر
خذ الدنيا والأخرى اباغيهما معاً ◈ وهات لنا كأساً فهذا لنا وفر
جزى الله عنا شيخنا خير ما جزى ◈ به هادياً فالأجر منه هو الأجر
امولاي اني عبد نعمائك التي ◈ صار لي كنز وفارقني الفقر
وصرت مليكاً بعد ما كنت سوقة ◈ وساعدني سعد فحصباوءنا در
امولاي اني عبد بابك واقف ◈ لفيضك محتاج لجدواك مضطر
فمر أمر مولى للعبد فانني ◈ انا العبد ذاك العبد لا الخادم الحر
هنيئاً لنا يا معشر الصحب اننا ◈ لنا حصن امن ليس يطرقه ذعر
فنحن بضوء الشمس والغير في دجى ◈ وأعينهم عمي وآذانهم وقر
ولا غرو في هذا وقد قال ربنا ◈ تراهم عيون ينظرون ولا بصر
وغيم السما مهما سما هان أمره ◈ فليس يرى الا لمن ساعد القدر
الا فاعملوا شكراً لمن جاد بالذي ◈ هدانا ومن نعمائه عمنا اليسر
وصلوا على خير الورى خير مرسل ◈ وروح هداة الخلق حقا وهم ذر
عليه صلاة الله ما قال قائل ◈ امسعود جاء السعد والخير واليسر

وبعد ان اتم الحج وادى المناسك في تلك السنة توجه إلى الطائف وأقام بها نحو ثلاثة اشهر ثم رجع إلى مكة المشرفة على ما هو عليه من الاجتهاد في العبادة والانقطاع إليها ومن حين توجهه إلى الطائف انقطعت عنا مكاتيبه وعميت علينا أخباره ولما طال الأمر وتشوش الفكر كتبت إلى حضرة سيادة المولى الشريف السيد عبد الله باشا أمير مكة المكرمة اسأله عنه واطلب الإفادة منه فكتب لي في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمانين ومائتين ما نصه . غب اهداء سلام يفوح شذاه المسكي ممسوح الكعبة الغراء والحرم المكي وتحيات صادرة من مهابط التنزيل محفوفة بمزيد التعظيم والتبجيل إلى جناب قدوة الأكابر جابر كمالات المفاخر الأعز الإكرام السيد محمد ابن السيد عبد القادر سلمه الله تعالى ورحمة الله وبركاته عليه لتوالي وبعد لا يخفاكم ان الواجب لتحريره السؤال عنكم لما يبلغنا من حميد سيركم فوصل والدكم الفاضل السيد عبد القادر وحقق لنا طيب حالكم فحمدنا المولى الكريم على ذلك وشكرناه على ما هنالك ثم انه وصلنا صندوق فيه آلة الشاي

السفري وما هو برفقة المرسل صحبته من طرفكم وحل محل القبول وصار لنا بذلك مزيد الممنونية حيث انه كان سبباً للمكاتبة ووالدكم المشار إليه قد قضى وطره من أداء حج بيت الله الحرام والتملي بهذه المشاعر العظام وما هو متوجه للتشرف بزيارة سيد الأنام عليه افضل الصلاة وأزكى السلام نسأل الله ان يحمله بالسلامة ويمن عليه بالوصول إلى الأوطان بعد بلوغ كل مقصد ومرام ودمتم في حفظ الله وحسن رعايته آمين . والصندوق المذكور كانت زوجة الإمبراطور نابليون الثالث أهدته لسيد ي الوالد وكان الأمير بعض الأحيان يجتمع به أهل محبته وإخوانه في سبيل الله فيباسطهم ويداعبهم . ذكر لي حضرت الأديب الشيخ احمد الخضراوي وكان معهم في الطائف انه جال معه في الحديث يوماً وأفضت به المناسبة إلى ذكر شروط أهل مكة على الخدود قال فمدحتها له وأنشدت فيها قول بعضهم . رأيت لها شرطاً على الخد قد حوى ◈ جمالاً وقد زاد الملاحة بل القرط

فقلت مرادي اللثم قالت بخلوة ◈ فقبلتها ألفاً على ذلك الشرط

فأنكر ذلك واستقبحه وقال . أقول لقوم لا تفيد نصيحتي ◈ لديهم ولو أبديت كل الأدلة

ألا فاتركوا ورد الخدود وشانه ◈ فتخديدكم في الخد اقبح فعلة

أيعمد ذو لب لخد مورد ◈ ويقسمه عمداً إلى شر قسمة

ومادح شرط الخد بالسود صادق ◈ واما نجد البيض فالقبح عمدتي

اما يخشى من ان يكون مخدداً ◈ ويدخل فيمن حاز افظع قولة

فبا للحظ لا الموسي تخدش وجنة ◈ فيا ويلتي منه ويا طول حسرتي

واني لا هوى كل خد مورد ◈ زها قط لم يمسسه موسى بخدشة

فأجبته بأبيات منها قد عمت البلوى بذلك سيدي ◈ ولقد نصحت عبيدكم بجميلة

^ ذكر

سفر الأمير من مكة الطاهرة إلى المدينة المنورة الزاهرة

وفي أول يوم من رجب سنة ثمانين ومائتين توجه إلى جدة ومنها إلى مرسى الرائس ثم إلى بدر ثم بئر عباس فوجد هناك حافظ باشا حاكم المدينة وشيخ الحرم النبوي مخيما بعسكره ينتظر القوافل القاصدة إلى المدينة المنورة من الجهات فاحتفل به للغاية وضرب له خيمة إلى جانب خيمته واتصل خبره بقبيلة حرب الشهيرة وغيرها من قبائل تلك النواحي فجاءه الشيخ فهد في جماعة من الأعيان فاكرم نزلهم وعرضوا ان يكونوا في خدمته إلى المدينة فدعا لهم وشكر توددهم إليه ولما تلاحقت القوافل أو تحل بها الباشا والأمير فدخلوا المدينة المنورة في السادس والعشرين من رجب واستقبله أشرافها وعلماؤها في وادي العقيق وكان الشيخ محمد الدرايزلي المعروف بالشيخ المنتظر تهيا لنزوله عنده فأجابه إلى ذلك وقام في ضيافته أياماً ثم استأجر منه بيته الكائن في طريق الحمام النبوي بالقرب من المسجد وانتقل إليها ثم طلب محلاً لخلوته في الحرم الشريف فهيأ له السيد احمد اسعد أفندي محلاً لصيقاً بجدار المسجد وهو في الأصل بيت سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه وله خوخة في المسجد وهي التي قلل فيها صلى الله عليه وسلم كل خوخة في المسجد تسد الا خوخة أبي بكر فانقطع الأمير في ذلك المحل المبارك مدة شهرين فقويت بها

معارفه وزكت عوارفه وانكشفت له الحقائق القرآنية والأحاديث النبوية ومن طالع مواقفه في الحقائق وقف على ما شرنا إليه واطلع على ما لا مزيد عليه ولأول وصوله إلى المدينة المطهرة مدحه بعض ادبانها بقوله بشرى لطيبة بالهمام الزائر
اكرم به من ليث غاب زائر ◈
وافى حماها وهي في شوق له ◈ *من بعد طول تباعد وتهاجر*
فتمايلت أعطافها لوصوله ◈ *فرحاً ونور كل روض ناضر*
وبوطئه شرفت رحارحها كما ◈ *شرفت بجده في الزمان الغابر*

وتارجت أرجاؤها من طيبه ال _ زكي وعرف شذا العاطر

وغدا لسان الحال ينشد قائلاً ◈ *أهلاً بمن هو ليث غاب كاسر*
فلطالما قد كنت في شوق إلى ◈ *رؤيا جمالك ان يلوح لناظر*
فالان مني العين قد قرت كما ◈ *بإيابه قرت عيون مسافر*
وبقدرة المنان زاد تشرفي ◈ *إذ حل سوحي الشهم عبد القادر*

نجل الفحول ابن البتول خلاصة ال _ أشراف بل سبل الرسول الطهر

حبر كسا خبر الفضائل والتقى ◈ *عطف الخبير بكل فن ماهر*

وروى أحاديث المفاخر والمعا _ لى مسلسلات كابراً عن كابر

بحر من الإحسان يقذف جوهرا ◈ *لعفاته لكن بغير تفاخر*
شهم تقضى منه شرخ شبابه ◈ *في نصرة الدين الحنيفي الزاهر*
وأقام أحقاباً بصهوة سابح ◈ *يرمي الطغاة بصاعقات بواتر*
وجفا عشائره وفارق ربعه ◈ *طلبا لمرضاة المليك الغافر*
نطل المعالي بالعوالي والظبا ◈ *فلذا له خضعت رقاب الكافر*
ولكم بصارمه اباد كتائباً ◈ *ذهبت هبآء مثل أمس الدابر*
ان اضحك البيض الرهاف بكفه ◈ *بكت الرقاب نجيع دمع هامر*
وادا انتضى يوم كريهة عضبه ◈ *سجدت له قمم الظلوم الجائر*
بطل إذا لمس القنا في جحفل ◈ *طارت جناحاة بدون تشاور*
وإذا أحس الجيش رجع زئيره ◈ *بلغت قلوب سراته بحناجر*
والليث ان يسمع صهيل جواده ◈ *يغدو بقلب في جناحي طائر*
وحسامه ان لاح برق فرنده ◈ *بغمام نقع فر قلب الغادر*
يلج الخميس بصافن وبعامل ◈ *فيعود يقسم خمسه لعساكر*
يلقى الكماة الصيد فرداً في الوغا ◈ *فيرد وردهم بدون مصادر*
ويداه ان هزت أنابيب القنا ◈ *قطعت قلوباً في صدور قساور*

الفته عقبان الفلا ونسوره ◈ مذ أبصروه بكل نقع ثائر
انى يسير تسير كيما تبتغى ◈ عاداتهن بشلو علج كاشر
وثعالب الخطي بعد اوامها ◈ وردت حياض طلى العدو الفاجر
مولاي اني في الثناء مقصر ◈ انى لمثلى غوص بحر زاخر
وبحلبة الأدباء يوم رهانهم ◈ لست المجلي بل ولست بشاعر
لكن قصدي من جنابك دعوة ◈ بصلاح حالي جنح ليل عاكر
من لي وفضلك كيف أحصى عده ◈ وصفات ذاتك ما لها من حاصر
أنت المجدد للبرية دينهم ◈ بالكتب والسيف الطرير الباتر
لو جئت في العصر الغوابر في الورى ◈ لم تلق منهم غير شهم ناصر
لكن عصرك قد تأخر وقته ◈ واتى مجيئك في الزمان الآخر
فالصبر افضل ما يكون لذي النهى ◈ وكفى الكتاب مبشراً للصابر
فااشكر إلهك ان حباك يزورة ◈ لختام رسل الله افضل شاكر
والسعد قد وافى حماك مهنئاً ◈ لك بالوصول إلى النبي العاطر
واتى القبول إليك منه مؤرخاً ◈ بشراك لنت اعز حب زائر
1280واستمر الأمير مدمناً على أداء وظيفة أوراده في الخلوة والجلوة لم يلحقه في ذلك فتور وفي الشهر الأخير من أقامته في المدينة المنورة كان يكثر من زيارة أحد وقبور الشهداء والصلاة في المسجد قبا ويجيب من دعاة إلى الضيافة فكان أهل المدينة يتسابقون إلى ذلك وأكثرهم فيه السيد احمد أفندي اسعد وأقاربه ودعى يوماً إلى البستان المعروف بالقائم في قبا أيام الزهر وكانت المأدبة حاملة والمجلس مشمولاً بأنواع الطيب فانشأ الأمير يقول . بخر بعود الطيب لا زلت طيباً ◈
ورش بماء الزهر يا خلي والورد
وما بغيتي هذا ولكن تفاؤلا ◈ بعود إلى عود وورد إلى ورد
ودعي إليه مرة أخرى فحانت منه التفاتة إلى جبل أحد فاطرق ساعة ثم رفع رأسه وأنشأ يقول تذكرت وشك البين قبل حلوله ◈ فجادت عيوني بالدموع على الخد
وفي القلب نيران ناجج حرها ◈ سرت في عظامي ثم سارت إلى جلدي
وما لي نفس تستطيع فراقهم ◈ فياليت قبل البين سارت إلى اللحد
إلى الله اشكو ما الاقي من الجوى ◈ وحملي ثقيل لاتقوم به الابدي
بطيبة طاب العيش ثم تمرمرت ◈ حلاوهفالنحس اربى على السعد
اردد طرفي بين وادي عقيقها ◈ وبين قباها ثم الوى إلى أحد
منازل من اهواه طفلاًويافعاً ◈ وكهلاًالى ان صرت بالشيب في برد

وفي مدة اقامته في الحجاز توفي ملك اليونـان الاسـبق وانعقـد مجلس نواب للامة اليونانية في اثينا للنظر فيمن يولونه عليهم ملكاً فكتبوا اسم الأمير في المنتخبين لـذلك ونـادى كثـير متهم باسـمه وأهـل اسـبانيا قـد انتخبـوه في جملـة من انتخبـوهم للملـك عليهم حين وقـوع الفتنـة بينهم

قبـل ان يتـولى ملكهم المتـوفي اخـيراً فتشـكر الأمـير للامـتين على اعتبارهما لمقامه بما دل على ماتكنه صدورهم من احترامـه واعظامـه . ذكر

رجوع الأمير إلى مكة ثم إلى دمشق الشام ولما حضر الركب الشامي إلى المدينة المنورة توجه فيه عائداً إلى مكة في السابع والعشرين من ذي القعدة واحرم بالحج من ذي الحليفة وبعد الفراغ من اداء مناسك الحج وطواف الوداع توجه إلى جدة في الرابع عشر من ذي الحجة وفي التاسع عشر ركب الوابور المصري إلى السويس ومنها إلى مصر فاجل مقامه خديويها إسماعيل باشا واجزل في ضيافته واكرامه ثم دعته شركة السويس إلى الاسماعيلية فتوجه إليها على طريق الزقازيق ومر على التل الكبير ثم على بو بلح الذي اهدته إليه الشركة المذكورة فرآه واستوعب حدوده ثم توجه إلى الاسماعيلية وأقام اياماً في ضيافة الشركة ثم رجع إلى مصر وتوجه إلى الاسكندرية وبعد خمسة أيام من وصوله إليها توجه إلى بيروت وفي التاسع عشر من المحرم سنة اثنتين وثمانين وصل إلى دمشق واستقبلته في جم غفير من الاهالي والمهاجرين في محطة الهامة وقرت عيوننا برؤيته وامتلأت صدورنا سروراً بمشاهدته وتوالت علينا وعلى كافة المهاجرين الافراح وزالت عنا وعنهم بوجوده الهموم والاتراح وتوارد على بابه أهل البلد على اختلاف طبقاتهم يسلمون عليه ويهنئونه بما اسده الله من النعم إليه فكان يقابلهم بما جبله الله عليه من الانس واللطف والين الجانب ورفع إليه حضرة العالم العلامة الحبر البحر الفهامة شيخنا الشيخ محمد لفندي الطندتائي الازهري قصيدة يهنئه فيها بحج بيت الله الحرام وزيارة نبيه الكريم عليه افضل الصلاة واكمل والسلام وهي قوله ياسيداً فاق الورى ◈ بما حباه ذو الجلال

من همم عالية ◈ تدرك صغراها الجبال
حتى تجاوزت السها ◈ من بين ارباب الكمال
فخضت بحراً دونه ◈ قد احجمت همم عوال
في طلب الأخرى ولم ◈ تنظر لجاه أو المال
فكم هجرت مضجعاً ◈ وكم سهرت من ليال
وكم تركت لذة ◈ مع رغبة وصدق حال
وكم بذلت مهجة ◈ حتى ظفرت بالوصال
ونلت اعلا رتبة ◈ مما يناله الرجال
وقد شفيت غلة ◈ من ذلك الورد الزلال
اعظم بها من نعمة ◈ لم ينلها ذو دلال

وكيف لا وأنت نج _ ل المصطفى من خير آل

مع الذى حويت من ◈ شرف المزايا والخصال
علم وحلم وندا ◈ والمنطق السحر الحلال

ولطف زهد وتقى ◈ بشاشة مع الجمال
شجاعة تواضع ◈ وفاء وعد صدق قال
محاسن جميعها ◈ يفوق عدها الرمال
فمن أراد حصرها ◈ فقد تصدى للمحال
بشراكم قد قبلت ◈ اعمالكم على الكمال
فالحج حقاً سالم ◈ من رفت ومن جدال

والقصد وجه الله وال _ مال اتي من الحلال

والمصطفى جدكم ◈ ولا يرد الجد آل
ياايها الحبر الذي ◈ حويت هاتيك الخصال
ابقاك ربي ملجاء ◈ إلى النساء والرجال
ممتعاً منعماً ◈ بما حباك ذو الجلال

وللاديب سليمان الصوله يهنئه بالقدوم بقوله

حتى الطلا شهدت ان اللما عذب ◈ فكيف اينع فيه اللؤلوء الرطب
وكيف جاوره جمر فاثلجه ◈ وما تعاوره من برده عطب
واحر قلباه من نار يؤججها ◈ برد الرضاب ولم يفتر لها لهب
بي ظمئة وبها ايامي سارية ◈ الا تبل فؤاداً ساءه اللغب
من لي بعانسة في فيك يدخرها ◈ بين المراشف هذا المبسم العذب
بحق معطيك هذا الحسن لاتسبي ◈ منها حشاشة صب كله وصب
يمييته الشوق احياناً وينشره ◈ فكم يموت ويحي وهو مضطرب
قد هزني الضر يا ليلى وعاذلتي ◈ تقول يا ويلها قد هزه الطرب
وعاورتني هموماً خفضت هممي ◈ لا ترفع الذل رأسي حين ينتصب
جودي بوصلك لي والمهر يا املي ◈ العقل والروح لا ورق ولا ذهب

لم يبق لي نشب اما إذا رجع ال _ مولى فعندك مني المال والنشب

حبر بدعوته الاوزار تنقضب ◈ ومن سماحته الامطار تنجذب
تهز نفحة اشعاري مناكبه ◈ كما يهز قناة الفيلق اللجب
لذاك والله خير الناس قاطبة ◈ وجوده فوق ما جادت به السحب
كأن عيني به والحي مبتهج ◈ يزهو بطلعته لا ساءها صخب
يقله فرس من فوقه اسد ◈ في وجهه قمر في كفه يلب

ان صال قطع اوصال الرجال وان _ جال استطال عليها الويل والحرب

يا قاصد البيت لو لم تات حجرته ◈ سعى إليك كما تسعى له العرب
أنت اين ليس بيت الله يعرفكم ◈ يآل يس فيكم جاءت الكتب
لم يبق جودك لي في المال من ارب ◈ فدعوة تتحاماني بها النوب
عودتني الخير في حل وفي سفر ◈ كالغيث ينهله دان ومغترب
أنت الذي تقبل الدنيا بدعوته ◈ تقبل الله ما يولي وما يهب
عسى يبدل اعساري بميسرة ◈ ويصلح الله ايامي فتنقلب
زر حج طف واعتمر وارم الجمار على ◈ قلب الحسود وعد لافاتك الارب
لازلت افضل من حجوا واورع من ◈ لبوا على عرفات المجد واقتربوا

وكتب الأمير إلى ابن عمنا الفاضل الناظم الناثر السيد الطيب ابن المختار يخبره بما اسنى الله له من الفتح المبين والحصول على التمكين . فأجابه بقوله . الحمد لله الذي بحمد تفتح الأمور وهو الفتاح العليم . والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب الخلق العظيم والكرم العميم وعلى آله وصحابته ذوي الشرف الباذخ والفخر الصميم . ياقادماً عمت الدنيا بشائره ◈ أبشر بمقدمك الميمون طائره

قدمت والخلق في نعمى وفي جذل ◈ ابدى بك البشر باديه وحاضره
امارة الدين والعلم الذي رفعت ◈ اعلامه والندى الفياض زاخره

الامارة التي اشرق في سمآء العدل شهابها . واتصلت باسباب المجد اسبابها . واجيلت قداح المفاخر فكان إلى جهة الله انتدابها . واشتملت على العفاف والطهارة اثوابها . المناضل عن مرضاة الله اصيل فخره . المتسم بالمرابط المجاهد على اقتباس سنته وجدة عمره مخدوم الملوك على شدة بأسها ومعظمها على اختلاف اجناسها . ملك تتوج بالمهابة عندما ◈ لم يستجز في الدين لبس التاج

ماضي العزيمة والسيوف كليلة ◈ طلق المحيا والخطوب رواج

سيدنا ووسيلتنا إلى رب العالمين . مولانا عبد القادر ابن شيخ الإسلام وقدوة الأنام مولانا محي الدين . رزقكم الله تاييداً تبدي له الجياد الجرد . والرماح الملد . ارتياحاً واهتزازاً وعزاً يظاء من اكناف البسيطة وارجائها المحيطة سهلاً واعزازاً ويمنا يشمل من بلاد الله اقطاراً نازحة ويعم احوازاً ومجداً يجوب الآفاق جوب المثل السائر عراقاً وحجازا لازالت ترقى وترقى في العلا ابداً ◈ مادام للسبعة الافلاك احكام

وسلام كريم طيب عميم . ختامه مسك ومزاجه تسنيم . على ذلك الجناب الرفيع الظاهر في اقصى المغارب والمشارق في زي بديع . من عبد اقعدته ذنوبه . وابعدته عن حضرتكم عيوبه صب يحث مطاياه بذكركم ◈ فليس ينساكم ان حل أو سارا

لكنه حادثات الدهر تمنعه ◈ وقد اقامت له الأيام اعذارا

وبعد ان كتابكم الصادر من طابه . المشحون بالالفاظ العذبة المستطابه . المشرق شمساً في سمآء الفصاحة والبلاغة المنسبك تبراً في صناعة الصياغة . المبدي لنظاره دلائل الاعجاز . المظهر بلطافته عين الحقيقة في الخيال المجاز . قد وافانا ونحن في غاية الارتقاب . لما يصل إلينا من ذلك الجناب . فعظم موقعه من نفوسنا . وقبلناه اجلالاً ووضعناه فوق رؤسنا . وانشدنا عند ازالة اللثام وفض الختام . لشبه الحال بالحال قول أبي تمام فضضت ختامه فتبلجت لي ◈ غرائبه عن الخبر الجلي

وكان اغض في عيني واندى ◈ على كبدي من الزهر الجني
واحسن موقعاً مني وعندي ◈ من البشرى اتت بعد النعي
وضمن صدره ما لم تضمن ◈ صدور الغانيات من الحلي
فكائن فيه من معنى خطير ◈ وكائن فيه من لفظ بهي
رسالة من تمتع منذ حين ◈ ومتعني من الادب الشهي

ثم تتبعنا غرائبه واسطاره . وحللنا تراكيبه واشطاره . واقمنا بواجبه القيام الحسن . واحتفلنا به احتفال المأمون ببنت الحسن . فتساقط علينا رطباً جنياً . وهمى ودقه عاي الربع من افكارنا وسميا . فجاد واروى . واجاد فيما روى . واحبى من القريحة ميتاً كان حديثاً يروى . ستكشف من سر الكتائب مثل ما ◈ رايناك عن سر البلاغة تكشف

فوالله لقد سرت معانيه في الجسد روحاً . واشرقت في سويداء الفوائد بوحاً . وما عسى ان نقول وما هو الالطافة نسيم . أو سلافة نديم . فلذا سكر كل رقيق ظلع برحيقه وشكر . وآمن برسالة محمدولو انه المتنبي وما كفر فتلقينا منه حقيقة الحال بعد الالتباس واخذنا وجه الخبر من نصه المغني عن القياس . فاستفدنا منه ما حصل لكم من النعم الوافية . والاستمدادات الكافية . زيادة على ما لديكم من الواهب . وتكمله لاعلا المراتب واسنى المطالب . وانكم لازلتم مترددين بين مكة والطائف . وطيبة ذات المحاسن واللطائف . اونة في حرم الله . وونة في حرم رسول الله ربوع

بها تتلو ملائكة العلى ◈ افانين وحي بين دكر وقرآن
وعرس فيها للنبوة موكب ◈ هو البحر طام بين هضب لجان
مطالع آمان مثابة رحمة ◈ معاهد املاك مظاهر اعيان

وانك طالما وردت من تلك الحياض . ومتعت ناظرك في تيك الرياض . لنفحاتها نتنسما . ولسكانها مقبلاَ ومعظما . وأنت سامح بالاحبة وبالمحبوب راض . وجدير كما قالالقاضي أبو الفضل عياض . لمواطن عمرت بالفضل والتنزيل . وتردد فيها جبرين وميكائيل . وعرجت منها الملائكة والروح . وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح . واشتملت ترتبها على جسد سيد البشر . وانتشر فيها من دين الله وسنة رسوله ما انتشر . مدارس آيات . ومساجد وصلوات . مشاهد الفضل والخيرات . ومنبع البراهين والمعجزات . ومناسك الدين . ومشاعرالمسلمين . ومواقف سيدالمرسلين . وملبوا خاتم النبيين . ومنها انفجرت النبوة بدين فاض عبابها . ومواطن مهبط الرسالة وأول ارض مس جلد المصطفى ترابها . جديرة بان تعظم عرصاتها . ونتسم نفحاتها . تقبل ربوعها وجرانها . يحق علينا ركوب البحار ◈ وجوب القفار إليها ابتدارا

فيافوز من فاز في طيبة ◈ بلثم المغاني جدارًا جدارا
والصق خدًا على تربها ◈ واكمل حجاً بها واعتمارا
واهدى السلام لخير الأنام ◈ على حين وافى عليه مزارا

مثلي إذا سارت الركاب . تعلق بالاسباب . وانشد متمثلا . وعلى لنية الصادقة ان شاء الله تعالى معولا ياسائرين إلى المختار من مضر ◈ سرتم جسوماً وسرنا نحن اروحنا

انا اقمنا على عجز وعن قدر ◈ ومن أقام على عجز كمن راحا

والحق ان الحازم من أخذ على كل حال بقول حازم في تصدير اعجاز لامية اللضليل مخرجا لها عن ذلك السبيل وفي طيبة فانزل ولاتغش منزلا ◈ بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وزر روضة قد طالما طاب نشرها ◈ لما نسجتها من جنوب وشمال

واثوابك اخلع محرماً ومصدقاً ◈ ادى الستر الالبسة المتفضل

لدى كعبة قد فاض دمعي لبعدها ◈ على النحر حتى بل دمعي محملي

ومثلكم من يراعي أمر الله حق الرعاية . يجري في معاملاته على ما الاسس من حسن البداية . فقد فقد انقطع والحمد لله رجاء الحاسد وسلم المعاند . وتساوى في ذلل الغالب والشاهد . واقر بفضل الله الجاحد ومليحة شهدت لها ضراتها ◈ والحسن ما شهدت به الأعداء

وكان يجاري الفجناح قاموسا . أو يباري السحرة عصى موسى . فليتطاول المتطاول . ليساجل الساجل . فالكل دون تلك الغاية وقف . وشهد بالعجز عن ادراك ذلك انشأ اعترف . وبان الانفراد بالفضل وظهر . وانتشر الاختصاص بالمجد انتشار الغزالة واشتهر . ومسد الحال في ذلك مسد الخبر فالوصف اغنى وما اغنت شهادتهم ◈ لكنها زادت التبيان تبيانا

فهنيئاً لك العمرين الجامع بين فضيلتي عالم المدينة وعابد الحرمين . ذلك الشرف الصميم . والفخر العميم . والفوز العظيم . وعمل سلفك القديم . فكم مفازة في ارض عبروها . ومدارس ببث قواعد الدين عمروها . انساب طاهرة . علوم فاخرة . واياد غامرة . وسيوف الأعادي قاهرة . ووجوه ناظرة . إلى ربها ناظرة لاينتهي نظري منهم البرتب ◈ في المجد الا ولاحت فوقها رتب

فكم انعشوا من ارماق . وفكوا من وثاق . ودروا على الخلق من ارزاق . بهذا فرت لهم البرية وشهدت وما قلتالا بالذي علمت فما هي والله الاطرقتهم المثلى سلكت . وشمائلهم الفضلى ورثت فملكت . وقد اشار العبد إلى هذا في القديم . وسبق قوله فيه وان كان لجهله بقواعد القريض غير المستقيم . شيم يهز الراسيات سماعها ◈ ويجر في انف الزمان غوال

أوصاف والدك الإمام المرتضى ◈ للدين والدنيا بحسن خلال

لك فيهم الفخر الكبير وان يكن ◈ لك في العلى نسج على منوال

كل الكمال لهم وأنت مقره ◈ والفرع عين الأصل عند مآل

هذا وقد بلغنا عن السنة الوافدين من الحضرة الحجازية . والديار التهامية . انك اجتمعت في سفرك هذا بشيخ عارف أخذت منه فما كدت اصدق فيما سمعت بعد ان علمت من فضل الله الذي لديكم ما علمت . ولقوة اعتقادي فيك وحصول العلم الذي لايقبل التشكيك . فقد جلت في مغارب الأرض ومشارقها . وسبرت الرجال وكشفت عن حقائقها . وجالست بقصد الاستفادة علماءها . وجالست برسم التبرك شيوخ الطريقة وكبراءها . فلا بحر الا ورفعت شراعه . ولابر الا وطئت كما هو في عملك ذراعه . فحصل لي من أنواع الاغتراب ومشاق السفر ما لا أصفه من العناء ثم رجعت وانا بعد ذلك كله فما رأيت من ذهب بظاهره مع الشريعة ووقف بباطنه مع الحقيقة مثلك . ولا من تعرف نعرف من صدور الكراسي والمنابر . والسنة والاقلام وأفواه المحابر معرفتك . فمقامك مقام عارف لا مقام مريد ومثلك من يفيد لا من يستفيد . وان كان فمن عجائب الدهر . ومن باب يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر . وسبيل المزية تكون في المفضول دون الفاضل . وشاهد ذلك كله حديث ما

المسئول باعلم من السائل . أقول هذا والحق ان طريقة التسليم اسلم . ففي صنع الله ما لا ادري وفي علمه ما لا اعلم . والان سيدي لحج مبرور . وعمل مقبول وسعي مشكور فاهنأ أمير الواصلين لامة ◈ أفواههم ما ان بغيرك تنطق

هذا ولا زائد بحمد الله تعالى سوى ما عندنا لكم من الصنائع التي تشام بوارق التشييع من خلالها . وتدل مخائل بدايتها على حسن مآلها . والود الذي يجل موقعه في النفوس . وتضيق على حمل بعضه هذه الطروس فلا تنسني من أهل ودك انني ◈ أخاف الليالي ان تطول فتنساني

وقد اقتضى المقام ختم هذه الرسالة بقول ابن خاتمة . ختم الله لنا ولكم بحسن الخاتمة . ومثل ذلك مما يرتاح له اللبيب . ويستحسته الأديب . وللارض من كاس الكرام نصيب . مع ما في ذلك من وضع النقل في محله بلا مرا . ومطابقة الحديث لاصله كما ترى . قدمت بما سر النفوس اجتلاؤه ◈ فهنئت ما عم الجميع هناؤه

قدوماً بخير وافر وعناية ◈ وعز مشيد بالمعالي بناؤه

ورفعة قدر لايدانى محلها ◈ رفيع وان ضاهى السماء اعتلاؤه

عنيت بأمر المسلمين فكلهم ◈ بما ترتجيه قد توالى دعاؤه

بلغت الذي أملته من صلاحهم ◈ فأدركت مأمولاً عظيماً جزاؤه

فيا واحداً أغنت عن الجمع ذاته ◈ وقام بأعباء الأمور غناؤه

بقيت وصنع الله يدني لك المنى ◈ ويوليك من مصنوعه ما تشاؤه

هذا ما سنحت به الفكرة التي ركضها الدهر فاضناها . واستشفها الحادث الجلل وتقصاها . والمرجو من المخدوم للخادم العفو عما هو من عثرات القلم لازم فالقلب الواعج الشوق مشعول والفكر بترادف الاهوال مشغول والعذر عند خيار الناس امثالكم مقبول والا فلسان الشكر وان طال قصير وتحرير جميل المحامد وان حصل الإطناب فيه يسير والله لو جاز ان تسافر نفس عن انسانها أو ترحل عين عن انسانها لكنت أول من سبق الكتاب بنفسه لتفوز العين بمشاهدة جمالكم المزري ببدر الافق وشمسه وما كان المملوك يختار المخطابة بالقلم عن المشافهة بالفم لكن لا حيلة مع المقدور والله ميسر الأمور ودمتم سيدي في عز وامان وما استجد الجديدان كتبه عن ود صادق وقلب بشدة الأشواق خافق تلميذكم المفتخر بالانتساب اليكم أي افتخار مجلكم الطيب ابن المختار اصلح الله احواله واجري على وفق الشريعة المطهرة اقواله وافعاله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

مانمق المشتاق طرس رسالة ◈ بحديث اشواق وبث غرام

حرر في ربيع الثاني سنة إحدى وثمانين ومائتين والفولما وصل الأمير إلى دمشق وتولت عليه مكاتيب أهل مكة المشرفة والمدينة المنورة يتأسفون على فراقه وبعده عنهم ومن جملتهم شيخ الخطباء في طيبة السيد محمد مدني فأجابه الأمير بقواله .

الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله وعبده وعلى آله وصحبه وجنده وجيران مضجعه الشريف ولحده . اما بعد فأني اهدي لحضرة المحب الأوفى المصافي الأصفى ذي الفضائل الجميلة والفواضل نخبة الكرام الأماثل السيد محمد مدني شيخ الخطباء وتاج الأدباء . أوفى تسلمات وازكى تحيات . وانمى بركات الطف من النسيم . وأعذب على كبد المحب من التسنيم . هذا وانه بلغنا عزيز كتابكم . وانتعشت الروح بلذيذ خطابكم . واستشفينا بوروده . وبرد غليل الشوق بعذب موروده . واتقينا حر النوى بحواشي بروده . فانه اظهر ما لنا عندكم من رعي الذمام واعرب . واتى بالسحر الحلال واعذب كتاب كوشي الروض خطت سطوره ◈ يد ابن هلال عن فم ابن هلال

وانا لهاتيك الحضرة الشريفة وجيرانها . والمعاهد المنيفة وسكانها لفي اعظم أشواق . وفيض اماق . وتمنى عود وتلاق . وماعسى يغني عنا تعليل النفس بالتلاقي

وكادت الروح تبلغ التراقي . بعد المزار ولوعة الأشواق ◈ حكما بفيض مدامع الآماق

امعللي ان التواصل في غد ◈ من ذا الذي لغد فديتك باقي

ولطالما اردنا ترويح النفس بتذكار أيام الوصل . واجتماع الشمل . فيشتد قلقها ويزيد ارقها وقفنا ساعة ثم افترقنا ◈ وما يغني المشوق وقوف ساعه

كان الشمل لم يك ذا اجتماع ◈ إذا ما البين شتت بالجماعه

فالقلب عندكم مقيم . والجسم في العذاب اليم . إذ المراقبة مع المباينة . ليست كالمشاهدة والمعاينة لئن أصبحت مرتحلاً بجسمي ◈ فروحي عندكم أبداً مقيم

ولكن للعيان لطيف معنى ◈ لذا سأل المعاينة الكليم

وانكم بشرتمونا بانكم نائبون عنا في تقبل تلك العتبات . ومعتكفـون عن الدعاء لنا واستجلاب الرحمات . فجزاكم اللـه عنـا افضـل الجـزاء ووفـر حظكم بين الحظوظ والأجزاء . وكافة الأحباب . لازلتم محفوظين بعنايـة الحفيظ الوهاب . ذكر

توجه الأمير إلى الأستانة ثم إلى باريس ورجوعه إلى الشام

ولمـا رجـع الأمـير من الرحلـة الحجازيـة تعلقت همتـه بزيـارة حضـرة السلطان الغازي عبد العزيز خان وفي السابع والعشرين من ذي القعدة سنة مائتين وإحدى وثمانين والثـاني والعشـرين من نيسـان سـنة خمس وستين وثمانمائة توجه إلى بيروت ومنهـا إلى الأسـتانة فـأكرمت الدولـة العلية نزله وأظهرت من الاحتفال به أكملـه ومن الإكـرام اجـر لـه وعنـد وصوله تلقاه مأمور التشريفات في البابور وبعد أداء ما يليق نزل به إلى البرفسار في جماعته بالعربـات المهيئـة لركوبـه إلى المـل الـذي أعدتـه الدولة لنزوله ثم جاء الوكلاء والوزراء والأعيـان وسـفراء الـدول للسـلام عليه وكان احضر معه من الشام ثلاثـة من جيـاد الخيـل العربيـة فحصـل تقديمهم وحازوا القبـول ثم تعطفت الحضـرة السـلطانية فأرسـلت إليـه تـدعوه إلى الحضـور وكـانت المقابلـة على غايـة مـا يكـون من الانس والمجاملة وظهر له من اللطف الملوكاني ما اطلق منه اللسان بالشـكر

لـه على مـا اولاه من الإحسـان ثم أخـذ الأمـير في رد زيـارات الـوزرآء وارباب الدولة وسفرآء الدول وغيرهم من الأعيان وزار الخرقة الشريفة وانعم السـلطان عليـه بالنيشـان العثمـاني من الرتبـة الأولى جـاء إليـه الصـدر الأعظم فـؤاد باشـا ثم انعم السـلطان علي وعلى الاخـوة بـرتب ونياشـين وعينت لـه الدولـة وابـوراً صـغيراً للتـنزه في البوغـاز وعربـات يركبها اين أراد واحتفـل الصـدر الأعظم لضـيافته احتفـالاً ملوكيـاً ودعـاه الشريف عبد المطلب ثم تتابعت الضيافات والمآدب .وفي ليلة الجلوس السلطاني دعاه فؤاد باشـا إلى حضـور الاحتفـال في منزلـه ومن عنايـة السلطان به وحسن التفاته إليه ما تـرك لـه حاجـة رفعهـا إلى اعتايـه الا أمر بقضائها على اكمل الوجوه وفي جملتهـا شـفاعة في اعيـان دمشـق الذين حكمت الدولة عليهم بالنفى في حادثـة دمشـق ونفـوا إلى قـبرص ورودس وصدرت الإرادة السنية يتسريحهم ورجوعهم إلى اوطانهم فقال في ذلك مفـتي اللاذقبـة السـيد عبـد الـرزاق أفنـدي فتـاحي الحسـيني . لازمة

سلت لفتكي من الاحداق هنديا ◈ *خود حكى قدها بالميل خطيا*

دور

رشبقة القد بالاعطاف تسبيني ◈ *تسمو بطلعتها حسناً على العين*
رضابها العذب منه الرشف يحييني ◈ *وقد دعاني بفرط الوجد مسميا*

دور

يا بانة اللطف كم ذا تهجرين الصب ◈ *مني طيب اللقا راعي حقوق الحب*
متى تجودين يا اخت المهى بالقرب ◈ *لمغرم قد غدا بالشوق مضنياً*

دور

مالي إذا ما جفا الاحباب أو بعدوا ◈ سوى الأمير الذي وافى به الرشد
السثيد الشهم عبد القادر السند ◈ مولى غدا مدحه في الكون عطريا

دور

سليل ذي الفضل محيي الدين والحسن ◈ في نسبة منتهاها صاحب السنن
بدر الجزا من وافى على سنن ◈ غدا به عند رب العرش مرضياً

دور

في فتنة الشام كم وفى من الهمم ◈ حتى حكى صنعه ناراً
وقد خبته ملوك الأرض بالنعم ◈ وللفخار نياشيناً زهت زيا

دور

وقد اتم صنيع الخير حيث سرى ◈ لباب سلطاننا الاسمي الرفيع ذرا
يرجوه اطلاق من في النفي فاعتبروا ◈ منه المقام وبالبشرى له حيا

دور

وقد بلغنا جميعاً غاية الامل ◈ بحسن اقدام هذا السيد البطل
من فاق فينا بحسن العلم والعمل ◈ لا زال دهراً من الاسوا محميا

وله في ذلك أيضاً

شرى فقد نلنا المني ◈ والغم زال والعنا

دور

الله عودنا الجميل ◈ من فيض إحسان جزيل
لا بد للخطب الجليل ◈ من منحة فيها الهنا

دور

كم شدة ذاب الفؤاد ◈ منها وجافانا السهاد
قدجقها لطف فعاد ◈ فيها لنا يسر دنا

دور

صبراً اخا العقل السليم ◈ وارضى بتقدير الحكيم
فالله ذو الفضل العظيم ◈ بفضله قد عمنا

دور

بالصبر قد حزنا الفرج ◈ وبه لنا فاح الارج
والغم زال كذا الحرج ◈ مع كل كرب احزنا

دور

قد فاز عبد القادر ◈ رب الكمال الباهر
بجزيل اجر وافر ◈ لما بذا الخير اعتنى

دور

بدر الجزائر ذو العلا ◈ من فاق قدراً في الملا
بحر لوارد حلا ◈ وفي العطا مولى الغنا

دور

ليث الوغى رب الندا ◈ سامي الذرى شمس الهدى
أهل التقى نور بدا ◈ يمحو الدياجي بالسنا

دور

في فتنة الشام الشريف ◈ قد سكن الخطب المخيف
بحزمه الوافي المنيف ◈ خف البلا عن قطرنا

دور

الواسع اضحى باذلاً ◈ وقد رقى منازلاً
وله الملوك عاجلاً ◈ اهدوا نياشين الشا

دور

ثم انتضى العزم الوفي ◈ لرد من منا نفي
فنحا حمى الليث الصفي ◈ بدر الملوك عزنا

دور

سلطانا عبد العزيز ◈ غوث الملا الحرز الحريز
سامي الذرى الغوث المجيز ◈ من بالمراد امدنا

دور

إلى حماه قد ورد ◈ قد فاز منه بالمدد
واجابه فيما قصد ◈ وعفا له عمكن جنا

دور

وحباه نيشان افتخار ◈ واحله اوج الوقار
فسما له ذكر وسار ◈ مع ما من الخير اقتنى

دور

ندعوك رب العالمين ◈ بالمصطفى طه الأمين
ايد أمير المؤمنين ◈ سلطاننا غوث الدنا

دور

واحفظ له اشباله ◈ وامنحهمو اقباله
يسر له آماله ◈ وافتح له يا ربنا

وله أيضاً :

لئن انكر الوغد اللئيم ◈ بدت بدمشق من أمير الجزائر
فتلك لعمري سطرتها يد العلا ◈ على جبهة الدنيا مدى دهر داهر

'وبعد' ان أقام الأمير في الاستانة شهرين توجه في الخامس من صفر والثامن والعشرين من حزيران إلى فرنسا وفي الثاني عشر من صفر والخامس من تموز دخل مرسيليا فاستقبله حاكمها بالاحترام واهتزت البلد باهلها لقدومه فإذا خرج من محل نزوله تبعته زمر الاهالي ينظرون إليه احتفالاً به واحتفاء وكانت جماعات كثيرة تجتمع في ساحة الدار النازل فيها ويصرخون فليعش الأمير عبد القادر وبعد ان أقام اياماً عزم على السفر إلى باريس وعين اليوم الذي يسافر فيه ثم ظهر له في التاخر إلى اليوم الذي يليه فاتفق ان قطار سكة الحديد في اليوم الذي عدل عن السفر فيه صادمه قطار آخر ملاقياً له فمات فيه نحو الخمسة عشر نفساً وجرح كثيرون من تاخره ما دل على عناية الله به ورعايته له وفي ثاني ذلك اليوم توجه إلى مدينة ليون الشهيرة ومنها إلى باريس فاستقبله اعيان الدولة وخرج أهل باريس لرؤيته وحصل في طرقاتها مع اتساعها من شدة الازدحام ما لحق به الضرر للضعفاء ولاولاد وكان نزوله في المتنزه لاذي اعدته الدولة له وبعد أخذ الراحة اجتمع بالامبراطور نابليون الثالث فرأى من انسه ولين جانبه ما يعجز الواصف ان يصفه واستمر جلوسه عنده نحو الساعة ثم اجتمع بوزرآء الدولة وامرآئها وقادة الجيوش فمن دونهمخ من المامورين وكلهم فرحون مبتهجون بمشاهدته معجبون بحسن مجالسته ولذيذ محادقته وكان إذا خرج إلى محل تسابق الناس إلى الطريق التي يسلكها وكلما مر بجماعة يصرخون ليعش الأمير عبد القادر ودعاه سائر امرآء العائلة الامبراطورية النابليونية إلى منازلهم واحتفلوا لضيافته بانواع الزينة وغيرها من دواعي السرور وفي العاشر من ربيع الأول وأول اغسطوس

توجـه إلى لونـدره فاسـتقبله وزيـر الخارجيـة في جماعـة من الأعيـان بالاعزاز والاعظام وكانت الملكة وولي العهد وقتئذ في اطراف الجزيـرة واظهـر أهـل لونـدره السـرور بوفـادة الأمـير إلى بلادهم ولهجت بـه جرائـدهم واطنبت في مدحـه بمـا شـاهده الاهـالي من لطفـه وكمالـه وافتخرت بزيارته بلادهم على غيرهم من مدن اوربا وبعد ان أقـام أربعـة أيام رجع إلى باريس ثم توجـه إلى سـراية فرسـالي فجـال فيهـا وجلس خلال منازلها العظيمة ونظر إلى ما فيها من الصور الحديثة والقديمـة ثم دخل إلى محل فيه صور الحروب التي جرت بينه وبين جنود فرنسا فتتبع بنظره تلك الصور فرأى في جميعها نصرة الجيـوش الفرنسـوية وغلبتهـا فالتفت إلى الجنرال المحافظ على ذلك القصر وقال له لم تثبتـوا صـور الحروب التي انهزمت فيها جيوشكم وكانت الـدبرة فيهـا عليهم فضـحك الجنرال ومن كان حاضراً معه من الأعيان وايدوا كلام الأمير وصوبوه ثم نزل الأمير إلى الجنينة في ساحة السـراية وصـلى الظهـر بمن معـه من رفاقه ثم ودع الجنرال مركب العربة المعدة لـه وتوجـه إلى غابـة بلونيـا وصلى العصر بمـرأى من جمـوع كثـيرة اجتمعت لرؤيتـه . اخـبرني بعض من كان حاضراً معه ان جميع من كان موجوداً في ذلك اليوم بتلك الغابة من الفرنساويين وغيرهم وقفوا صـفوفاً ينظـرون إلى صـلاته ويمدحونـه على اظهار شعائر دينـه ثم قـال والحـق يقـال ان منظـر الأمـير منتصـباً للصـلاة امـام الجميـع خاشـعاً لحضـرة الحـق تعـالى لمن المنـاظر الـتي تتحرك بها القلوب وتصرفتها إلى جانب الحق تعـالى وبعـد ان اتم صـلاته توجه إلى محل نزولـه واتخـذت الحكومـة على محـل صـلاته سـياحاً من حديد احتراماً له وهو موجود لهذا العهد ثم دعاه الإمبراطور إلى معسكر شالون ليحضر معه موسم عيده فأقام عنده يومين في اعزاز واكرام ثم رجـع إلى بـاريس وتوجـه إلى برسـت وحضـر الاحتفـال البحـري وكـانت الدروارع الفرنسـاوية والانكليزيـة راسـية في تلـك البلـدة فجـرى الأمـير

الاستقبال العجيب من الوزراء وقادة البوارج وضباطها وضربوا له المدافع واجروا الحركات الحربية ولم يتركوا شيئاً من أنواع الزينة البحرية الا اجروه ثم رجع إلى باريس وفي الثامن والعشرين من الشهر المذكور ركب سكة الحديد إلى مدينة امبواز التي أقام فيها اسيراً أربع سنين ولما وصل محطتها وجد جميع سكانها ينتظرون وصوله فقابلوه بالفرح والسرور ومشى الأعيان الوجوه لين يديه إلى محل نزوله ثم قام أحد الأعيان وتلا خطبة مدح فيها الأمير وفي اليوم الثاني دعاه حاكم البلد إلى محله واحتفل لضيافته باسم كافة أهل البلد فكانت وليمة شائعة حافلة حضرها جميع وجوه المدينة واعيانها وتليت خطب التشكر للامير والثناء الجميل عليه حيث شرف مدينتهم وراعى ما كانوا عليه أيام اقامته عندهم الخلوص والودة له ثم شيعوه إلى المحطة مظهرين شعائر الاسف عل سفره . وايام اقامته في باريس دعى إلى منازل الوزراء ورجال الدولة والقسيسين وكان اكثرهم يطلبون منه ان يكتب لهم شيئاً يتذكرون به فكان واحد ما يناسب حاله ومقامه فيكتب لهذا بيت شعر في المدح ولهذا في الموعظة وللآخر حكمة من حكم الاقدمين وهكذا فكانوا لذلك من الشاكرين له متعجبين من المناسبات التي يقفون على سرها ويصلون بافهامهم إلى المراد منها وفي اثناء المحادثة كلم الامبراكور في شان الشيخ شمويل الداغستاني بقوله ان الناس لما علموا شدة اعتنائكم بشؤني وحسن التفاتكم الي صاروا يتعلقون بي في مصالحهم الجسمية وهذا الإمام شمويل المحبوس عند ملك الروس قد كتب مراراً لما كنت بالشام وفي مكة المكرمة يريد مني السعي بهمتكم في خلاصه إلى بلاد الإسلام والآن أرسل الي رسولاً مخصوماًلهذا الأمر وقال ان عمره قارب السبعين فهو يجب ان يموت عند المسلمين ولما كنت في الاستانة تذكرات مع سفير روسيا في امره فاجابني بان شمويل طلب منذ أربع سنين من الملك ان يطلقه من

حبسه إلى مكة وان الملك اجابه بان يصبر إلى نهاية الحرب في داغستان والحرب انتهت الآن واحوال داغستان قد انصلحت واستقامت فلا مانع من اطلاقه ولكن لا يكون ذلك الا بعد انتهاء مهاجرة الجراكسة من بلادهم إلى بلاد الدولة العلية وربما يتم ذلك في مدة ستة اشهر اني تكلمت مع الصدر الأعظم ووزير الخارجية في مدة اقامتي في الاستانة في هذا الأمر فقالا إذا اطلق ملك الروس سراح الشيخ شمويل فالدولة العلية تقبله في ممالكها وبناء على هذا فإذا حسن عند حضرتكم فاني اذهب برسم الزيارة إلى قيصر الروس وتقديم الشكر على النيشان الذي ارسله الي ثم اطلب منه تسريح شمويل واني لم اعتن في امره الا لكونه سلك في الطريق الذي سلكته وكل انسان يميل إلى شبيهه ولا سيما انه اسير كما كنت اسيراً مدة طويلة ولولا ان العناية الالهية استعملتكم في خلاصي واطلاق سراحي لما كنت تخلصت .

ولما بلغ الأمير تاسف ملكة انكلترا على عدم حضورها في لوندره حين شرف إليها كتب إلى ولدهم ولي عهدها ما نصه .المعروض منذ زمان اترقب فرصة احضر فيها إلى عاصمتكم الملوكية واجتمع فيها بحضرة الملكة وحضرتكم ولما تهيات الاسباب توجهت نحوكم فلم يقدر الله لنا ما نويناه من الاجتماع وبعد ان اقمنا في لوندره أربعة أيام وقام بضيافتنا فيها وزير الخارجية وغيره من اعيان الدولة رجعنا إلى باؤيس شاكرين لهم وقد أرسلت مكتوبي هذا إلى سموكم لينوب عني بما امكن في تقرير الحال لديكم حرر في رابع اغسطوس سنة خمس وستين وثمانمائة .ولما علم الإمبراطور نابليون ان المرتب المرسوم للامير غير كاف لمصارفه الكثيرة أمر له بزيادة خمسين الف فرنك في السنة من خزينته الخاصة ثم بلغ الأمير ان زوجة الإمبراطور كانت السبب في هذه الزيادة فكتب لها يشكر فعلها وشدة اعتنائها باموره بقوله اما بعد فان وزير الخارجية اخبرني بان حضرة الإمبراطور وفقه الله زاد في مرتبي

خمسين الف فرنك ثم اخبرني الجنرال فلوري بان حضرتك كنت السبب الاقوى في حصول هذا الخير الجسيم لنـا فحملـني ذلـك على ان اشـكر صـنيعك معنـا وسـعيك في مـل الخـير زادك اللـه توفيقـاً إلى مثـل هـذا المبرات التي لا شـك انهـا تخلـد لكم ذكـراً حسـناً في العـالم وفي أيـام اقامته في لوندرا قـدمت إلى حضـرته الجمعيـة المؤسسـة لحمايـة بـني الوطن فيها تحريراً صورته .إلى سمو الأمـير عبـد القـادر امـا بعـد فنحن الواضعون اسمانا في هذا التحرير عمده جمعية حمايـة بـني الـوطن قـد سررنا وابتهجنا عند ما سمعنا برصـلك إلى عاصـمتنا لاننـا نحب شخصـك ونحترمه نظراً لما نعرفه من حسن اخلاقك وصفاء طويتـك لسـائر عبـاد الله ولا يخفى ان مبادي هـذه الجمعيـة الـتي نحن مرتبطـون بهـا تـوجب علينا ان نحب ونحترم أبناء الشرف وتلزمنا بمراعاة مصالحهم وقـد رجح ميلنا لنحوك لانك مملوء بالشـفقة والرحمـة على عبـاده تعـالى وبرهـان ذلك ما ابديتـه مـع ألـوف من مسـيحي دمشـق حين التجـؤا إليـك فانـك آويتهم وبـالغت في الإحسـان إليهم مـع انهم من أبنـاء دينـك فنحن الآن بالنيابة عن نصارى هذه العاصمة نؤدي لك الشـكر والثنـاء الجميـل حيث انـك جـبرت المنكسـرين ثم نخـبرك اننـا قـد تمثلنـا بين يـدي إمـبراطور فرنسا وادينا له مـا يليـق بعظمتـه من الشـكر على إحسـانه إلى سـكان الجزائر ونفرح الآن بكوننا نخاطبك أيها السيد المحترم ونسأل الله تعالى ان يدينك رحمة مساكين زمنـاً طـويلاً وقبيـل سـفره زاره رؤسـاء بلديـة بارس وقدموا لـه ثلاث ماديـات الواحـدة ممـوه بالـذهب والثـاني ممـوه بالفضة والثالث نحاس ففي الجهة الواحدة نصف صـورة الأمـير مكتـوب على دائرتها عبد القادر بن محيي الدين أمـير أفريقيـا الشـمالية محـامي المسيحيين المظلومين ولد في معسكر سـنة 807 ومكتـوب في الجهـة الثانية جيكورتا الثاني قاوم أمة في الأرض ست عشر سـنة سـلم سـيفه في دسمبر سنة 848 اعطاه نابليون الحرية سـنة 852 حـامي مسـيحي

الشام سنة 860 فرانسا التي حاربها تحبه وتفتخر به وبعـد هـذه الكتابـة صـوره يـدان يتصـافحان وجيكورتـا اسـم رجـل من أفريقيـة حـارب الرومانيين ودافعهم عن وطنـه وبعـد ان قضـى الأمـير جميـع مآربـه في باريس ودع الإمبراطور ووزراءه واعيان باؤيس ووجوهها وخرج منهـا في الثاني عشر من ربيع الثاني والثاني من سبتمبر قاصداً دمشق وحصل له في الطريق مزيد الإكرام والاحـترام لا سـيما في مدينـة ليـون الشـهيرة فان حاكمها جمع عساكرها واجرى في ساحتها بين يـدي الأمـير حركـات حربيـة عجيبـة قسـم فيهـا العسـكر إلى بريـة وبحريـة واتفـق ان البريـة انكسـر جـانب منهـا فأمـدها الجـنرال مونتويـان وهـو الأكـبر بكتيبـة من البحرية وكان نهر ليون العظيم حـائلاً بين الطـائفتين فلمـا أمـر العسـكر بالجواز إلى العدوة الثابتة لنجدة الفئـة المنهزمـة وضـع كـل واحـد منهم دفة كانت معه على متن الماء بازاء دفـة الآخـر فصـاروا جسـراً واجـازوا عليه وفي اقرب وقت كانت تلك النجدة حاضرة في الميدان دافعة للفئة الغالبة فعجب الأمير من تلك الكيفية الحربية الغربية في سرعة الحركـة ولما وصل إلى مرسيليا استقبله حاكمها واعيانها استقبالاً بهـر عقـل من شاهده ومنهـا ركب البحـر إلى بـيروت وتوجـه إلى دمشـق على احسـن الأحوال واكملها فدخلها على اكمل الهيئات واجملها .^ ذكر

ما أجاب به الأمير عن أسئلة أرسلها إليه الجنرال دوماس الفرنساوي

وهـذا الجـنرال من اكـبر قـواد الجنـود الفرنسـاوية في الجزائـر الـذين اشتهروا بالإقدام في حروبها العظيمة ووقائعها الجسيمة مع الأمير وكان تعين عنده وكيلاً بام عسكر في المعاهدة الأخيرة وتعلم اللسـان العـربي واطلـع على أشـياء من أحـوال أهـل الـوطن فكتب أسـئلة تتعلـق بـذلك وبعثها إلى الأمير وطلب الجواب عنهـا ونحن نـذكر كـل سـؤال منهـا مـع جوابه فتقول . 'السؤال الأول'

قد رأينا المسلمين يتزوجون من غـير ان ينظـر أحـدهم إلى من يريـد ان يتزوج بها وربما عند الاجتماع يجد كل منهما الآخر منافيـاً لمطلوبـه فيقـع النفور من أحدهما أو منهما معـا وهـذا يـؤدي إلى سـوء المعاشـرة مـدة حياتهما أو إلى الفراق لا محالة . 'الجواب'

ان المسلمين لا يتزوج أحدهم الا بعد النظـر إلى من يريـدها من النسـاء أو يرسـل امـرأة عاقلـة عارفـه بمـا يستحسـنه الخـاطب ويسـتقبحه من صفات النساء وأحوالهن فتنظرهـا ثم تخـبره رأتـه من صـفاتها وأحوالهـا واعلم ان شرع الإسلام لا يمنـع من النظـر بـل يجـوز للرجـل إذا أراد ان يتزوج بامرأة ان ينظر إلى وجهها ويـديها ورجليهـا كمـا يجـوز للمـرأة ان تنظر إلى الرجل الذي تريد ان تتزوج به وقـد ورد في الحـديث الشـريف ان النبي صلى اللـه عليـه وسـلم قـال إذا أراد أحـدكم ان يـتزوج بـامرأة فلينظرها فان بذلك تدوم الألفة والمحبة بينهما ومن كلام العرب في هذا المعنى كل نكاح وقع من غـير رؤيـة فعاقبتـه هم وغم فـالتزوج من غـير رؤيـة غـرر والغـرر يكـون في الجمـال وفي الأخلاق فـالغرر في الجمـال يزول بنظر كل من الرجل والمرأة إلى الآخـر والغـرر في الأخلاق يـزول بسؤال الجيران ومن يخالط كلا منهما ولا يصـدق في الخـبر عن الجمـال والأخلاق الا من كـان عالمـاً بهمـا صـدوقاً في خـبره لا يميـل إلى أحـد الطرفين فيزيد في المدح ولا يحسدهما فيقصر في الوصف دون مـا هـو كائن ومن كلام العرب أربعة لا تقدم عليها حتى تسأل الخبير عنها المرأة لا تخطبها حتى تسأل عن منصبها وخلقها والطريق لا تسلكها حتى تعرف أنها مأمونة أو مخوفة والبلد لا تستوطنها حتى تطلع عن سيرة سـلطانها وأخلاق أهلهـا والسـوق لا تقصـدها حـتى تعلم نافقهـا من كاسـدها ومن كلامهم الندامات ثلاثة ندامة يوم وندامة سنة وندامة العمر فندامة اليـوم بان يخرج الرجـل قبـل الغـذاء وندامـة السـنة نـترك الزراعـة في وقتهـا وندامة العمر بان يتزوج من غير نظر ولا سؤال خبير . 'السؤال الثاني'

ان المسلمين يتزوجون من غير ان يأخذوا من الزوجات مالاً وإنما الزوج يدفع للمرأة الصداق وبذلك يحسبها ملكـه ويجعلهـا بمثابـة الأشـياء الـتي تشترى . 'الجواب'

ان المرأة إذا كان لها مال فان شرع الإسلام يلزمهـا ان تـأتي منـه معهـا بقدر صداقتها الذي دفعه الزوج لها فان لم يكن لها مال فلا يلزمها شيء ولا يـتزوج المـرأة لأجـل مالهـا الا اخسـاء النـاس فـاكثر المسـلمين لا يـتزوجون النسـاء لمـالهن ويقبح على الرجـل الكـريم ان يخطب امـرأة ويسال عن مالها ومن كلام العرب إذا خطب الرجـل المـرأة وسـأل عن مالها فهو سارق لص وقالوا هذا فعـل يشـبه التجـارة وليس من مقاصـد النكاح ولا من مكارم الأخلاق فإذا كان الحامل للرجـل والبـاعث لـه على تزويج المرأة مالها فقط انها شك أنها لا تـدوم الألفـة بينهمـا الآن المـال عرض زائل فإذا زال المال زالت الألفـة وكـذلك إذا منعت المـرأة مالهـا من الزواج ومن كلامهم يلزم ان يكون الرجل فوق المـرأة بثلاثـة أشـياء المال والسن والشرف والا احتقرته ومن كلامهم إياك ان تـتزوج المـرأة التي تنظر لما في يديها بل تزوج من تكون هي تنظر لما في يـديك فـإذا كان المال تابعاً للجمال والشرف دامت الألفة واعلم ان العرب لما كانوا يحبون النسـاء محبـة شـديدة كـانوا لا يسـألون عن مـال المـرأة ولاتجـد المرأة بلغت حد التزويج وهي بلا زوج بخلاف غـيرهم فانـك تجـد المـرأة الـتي لا مـال لهـا في سـن الثلاثين والاربعين وهي من غـير زوج لأنهم لا يحبون النساء لذواتهن بل يحبونهن لـدراهمهن ولـو دفـع الرجـل العـربي للمرأة قناطر الذهب والفضة لا يحسـبها ملكـه ولا يجعلهـا بمثابـة شـيء المشترى كمـا زعمتم وإنمـا يـرى أن الفضـل لـه عليهـا الآن اللـه فضـل الذكر على الأنثى فأول ما خلق الله الـذكر ثم خلـق الأنـثى منـه فالـذكر اصل والمرأة فـرع والأصـل الشـرف من الفـرع وفي العهـد القـديم في سفر التكوين قال الله لحواء تكونين تحت سلطان الرجـل وهـو يتسـلط

عليك فإذا خالف الرجل هذا وصار تحت قهـر المـرأة فقـد خـالف حكمـة الله واستحق الغضب من الله لان الله جعل الرجل متبوعاً لا تابعاً وآمـراً لا ماموراً وناهياً لا منهياً وكانت نساء العرب يعلمن بنـاتهن عنـد الزفـاف كيف يختـبرن أزواجهن فتقـول الأم لابنتهـا يـا بنيـة اختـبري زوجـك قبـل الإقدام والجراءة عليه فانزعي زج رمحه فان سكت فقطعي اللحم على ترسه فان سكت فكسري العظام بسيفه فـان سـكت فـاجعلي البرذعـة على ظهره واركبيه فانه حمارك . السؤال الثالث

من عادة المسلمين انهم يتزوجون أربعة من النسآء ويتخذون ما يقدرون عليه من الجواري فنحن نتعجب من الحرة كيف تعيش مع الجارية وربما تكون هذه العـادة سـبباً في فسـاد العشـرة ونـزاع الورثـة وقـوة الغـيرة ومباغضـة الاولاد بينهم فينقلب الأمـر المطلـوب ويفسـد العيـال والـذي ينبغي للرجل ان لا يحب امرأة اكثر من الأخرى فكيف يعمل إذا فسـدت العشرة وبمـاذا يصـلح فسـادها ومـا الـذي عنـدكم في الشـرع حين تقـع المنازعـة بين النسـآء اعـنى مـا الـذي يفعلـه الرجـل في الصـلح بينهن الجواب

ان الله تعالى خلق النساء لتكثير الأولاد وتفريقهم في أقطار البلاد ومن أراد تكثير الغلة يكثر المزارع ويجعلها اكثر من الحارث والله تعالى ما افترض على الرجل تزويج أربع نسوة وإنما افترض عليه سلامة الدين والكف عن الزنا فمن كانت سلامته في واحدة فهو افضل ومن يسلم دينه بواحدة أذن له في أن يتزوج اكثر من واحدة فالله تعالى لا يأذن لعبادة في فعل ما فيه ضرر فلو كان في فعل ما ذكرته ضرر ما فعله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ففي التوراة في الإصحاح التاسع والعشرين ان يعقوب تزوج ليا وراحيل وفي الإصحاح السادس والعشرين ان يعصوا اتخذ نساء منهن يهوديت وبسمات وفي سفر التكوين في الإصحاح الرابع فاخذ له لامك امراتين اسم احداهما نادى واسم الأخرى صالى والجماع اعظم اللذات الجسمانية رأيت في بعض الكتب ينفق ذو المال ماله في ثلاثة وجوه في الصداقة ان أراد الآخرة وفي مصانعة السلطان ان أراد الدنيا وفي النساء ان أراد لذة العيش ومن كلام العرب ذهبت اللذات الا من ثلاث الخلوة بالنسوان وشم البنين وملاقات الاخوان ومن منافع الجماع انه يبسط ويفرحها ويطرد الغضب ويذهب الأفكار الردئية والظنون السيئة ويسكن عشق العاشق إذا اشتد عليه والإكثار من الجماع في امرأة واحدة لا يكون لذيذاً في الغالب لان ملازمة الشيء الواحد يوقع في الملل والقرف وقد اتفق الأطباء على أن

اشد ما يساعد على تنبيه الشهوة بعد اليأس منها تجديد النساء والجماع عظيم النفع لأصحاب الأبدان القوية ولما كانت الشهوة تغلب على مزاج العرب كانوا اكثر الناس نساءً لأنهم يقدرون على كثرة الجماع وأكثرهم لا تكفيه المرأة الواحدة بل تبقى نفسه مشوشة فيلزمه أن يزيد حتى تستريح نفسه ولا يتشوق للزنا ومن المعلوم أن كثيراً من نساء العرب يشتكون أزواجهن من كثرة الجماع ويدعونهم إلى القاضي للمحاكمة ومن العرب من يكرر الفعل مرات عديدة في ليلة واحدة وربما تقول أن هذا شيء سمعت به لا انك رايته فيتحمل الصدق والكذب فأخبرك عن نفسي فأني اكرر الفعل في الليل والنهار ولا تمضي علي أربعة وعشرون ساعة من غير جماع إلا في القليل النادر من الزمان وذلك لعذر كسفر ونحوه ومن كانت هذه حالته فهو محتاج لكثير النساء فإذا كانت له امرأة واحدة وحاضت أو نفست أو مرضت أو سافرت فلا يقدر على الصبر وإذا لم يجد محلاً حلالاً يدعوه الشيطان إلى الزنا فيهلك ومن المعلوم عند الأطباء انه إذا حصل للرجل ما يوجب إنزال الماء إلى الأوعية كتذكار واحتلام وكان الإنسان قوياً وترك الجماع وقع في الأمراض العسرة البرء فإذا كان عند الرجل اكثر من واحدة لا يحصل له ضرر ولا يزني في الغالب وأما غير العرب فيكفي الرجل منهم امرأة واحدة وربما لا يقوم بحقها ولا يشبعها نكاحاً ومن الأسباب التي أوجبت كثرة النكاح في العرب حلق شعر العانة من الرجل والمرأة فان عدم الحلق ينقص الشهوة ويضعفها ومنها استعمال نساء العرب للروائح الطيبة كالمك والعنبر فان طيب من أقوى الدواعي للواطئ ومنها الختان فإن الغصن إذا قط وزبر قوي واشتد وغلظ وما دام لا يفعل به ذلك لا يزال رقيقاً ضعيفاً كما وهو مشاهد وهذه الأشياء لا يستعملها إلا العرب وقولكم ويتخذون ما يقدرون عليه من الجواري كذلك هو الحال في شرع الإسلام وفي شرائع القديمة وفعله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ففي التوراة في الإصحاح السادس عشر أن سارة امرأة إبراهيم كانت لها أمة مصرية اسمها هاجر فقالت لبعلها هوذا حرمني الرب الولد فادخل على أمتي فدخل بها وفي الإصحاح الثلاثين ان راحيل أعطت أمتها نبها إلى يعقوب وولدت ولدين وكذلك امرايته ليا أعطته زلفا وولدت له ولدين وفي الإصحاح الثاني والعشرين ان سرية ناصور أخي إبراهيم اسمها روما ولدت له طابخ وحاجم وناخس زمعكما وكان نبي الله داود عليه السلام عدة كثيرة من الجواري ولابنه سليمان سبعمائة امرأة وثلاثمائة سرية والعرب يحبون أولاد الجواري ويقولون ليس قوم اكيس من أولاد الجواري لأنهم يجمعون بين عز العرب وعلو همتهم وبين دهاء العجم وكمال عقولهم ومن كلامهم إذا كانت المرأة لا تلد واتخذ زوجها جارية فأنها تلد بسبب الغيرة قولكم ونحن نتعجب من الحرة كيف تعيش مع الجارية فاعلموا ان الجارية لا تصل في المقام والمنزلة إلى مقام الحرة ومنزلتها بل دائماً تكون في قبضتها وتحت أمرها تقبل يدها ورجلها . وتخدمها ولا تخرج عن طاعتها وامرها ونهيها ولا تحدثها نفسها انها تساوي سيدتها ولا يمكن ان يقر بها سيدها الا سراً من الحرة ولذلك تسمى سرية أخذاً من السر وقولكم ينقلب الأمر وتفسد العشرة الخ هو حق ولكن في حق الفقير واما إذا كان الرجل غنياً يجعل لكل امرأة دارها وحدها ويعطيها ما تطلبه من الأمور اللازمة فلا يحصل كبير ضرر وقولكم ينبغي للرجل ان لا يحب امرأة اكثر من الأخرى وهل يقدر على ذلك جوابه ان التسوية بين الزوجات في المحبة ليس بلازم في الشرع لان الحب لا اختيار للإنسان فيه حتى يقدر على فعله وتركه بل هو أمر ضروري لا قدرة له على دفعه ولا على الزيادة فيه ولا النقص منه هو على حسب ما يضعه الله في القلب وللمحبة ا سباب في المحبوب اما جمال أو إحسان والقلوب مجبولة مقهورة على حب الحسن والإحسان ولا يقدر الإنسان ان يبغض الوجه

الحسن ولا من يحسن إليه قال بعض الشعراء . في وجهه شافع يمحو إساءته ◈
من القلوب وجيه ابنما شفعا
مستقبل بالذي سهوى وان كثرت ◈ *منه الذنوب ومعذور بما صنعا*

ولا يقدر الرجل أن يسوي بين زوجاته في الحب أبداً ولا يعاقبه الله على ذلك ولا يلزمه التسوية بينهن في الجماع وإنما يجب التسوية في المبيت فقط يبيت عند هذه ليلة بنهارها وكذلك عند الأخرى وتجب عليه التسوية أيضاً بينهن في للباس والأكل والفرش والكلام والمباسطة وفي كل ما يرضيهن ويطيب قلوبهن وإذا ظلم امرأة بليلتها قضى لها ليلة أخرى وإذا أراد السفر بجعل القرعة بينهن فمن خرجت قرعتها سافر بها وإذا رجعت من السفر لا يحاسبها ضرائرها بأيام السفر وقولكم وما الذي عندكم في الشرع حين تقع المنازعة بين النساء اعني ما الذي يفعله الرجل في الصلح بينهن أقول انه يلزمه ان يبحث عن الظالمة من نسائه ويخوفها فان تابت فذلك وان لم تتب فانه يهجرها ويترك الكلام معها وإذا نام عندها في الفراش يوليه ظهره يفعل معها ذلك ثلاث ليال والى شهر فإذا تابت وطلبت العفو حصل المراد والا فالطلاق والفراق .
'السؤال الرابع'

رأيت الناس يلومون العرب على ضربهم نسائهم وعلى في الخدمة فوق طاقتهن وعلى قلة المبالاة بهن وهم مستريحون لا يخدمون شيئاً .
'الجواب'

لا يضرب النساء الا أو باش الناس والسفهاء الذين لا لهم ولا مروءة وأما أفاضل العرب وأهل الدين منهم فانهم لا يفعلون مع النساء فسد حالهن الا ما يطيب قلوبهن ويرضين من حسن الكلان ولين الخطاب والتلطف حتى أن الرجل يجوز له أن يكذب على زوجته ويعدها إذا رأى يكون سبباً في طيب قلبها ورضاها وإذا فسد الحال المرأة ولم تنفع فيها المداراة فانه يفعل معها ما اذن فيه الشرع من الوعظ والهجر ثم

الضرب الخفيف يغير جلداً ولا يسيل دما وقد نهى الشرع الإسلام عن ضرب النساء وقال رسول الله وسلم صلى الله عليه لا يضرب النساء الا أشرار الرجال وكان صلى الله عليه وسلم عند موته يوصي بالنساء ويقول استوصوا بالنساء خيراً حتى ثقل لسانه وخفي كلامه وقد وجاءت الوصية بالنساء في القرآن في مواضع كثيرة فيلزم الرجل خلقه تحسين خلقه مع النساء واحتمال الأذى منهن قال رسول الله وسلم صلى الله عليه من صبر خلق امرأته أعطاه الله من الأجر ما أعطى أيوب على بلائه وليس حسن الخلق بالمرأة كف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها والحلم عند غضبها واما خدمة النساء وتكليفهن فوق طاقتهن وعدم خدمة الرجال فهذا ما رأيناه وعرفناه هو ان الرجل إذا كان غنياً فزوجته لا تخدم شيئاً وان كان ولا بد فإنها تخدم الخدمة الخفيفة داخل البيت بشرط ان لا يحصل لها بها أدنى ضرر وان كان الرجل فقيراً فهو يخدم الخدمة التي تناسب الرجال كخدمة الفلاحة والمواشي والتجارة والمرأة تخدم الخدمة التي تناسب النساء كالغزل والنسيج والخياطة والطبخ في الحاضرة وسقي الماء والاحتطاب في البادية وإذا كان الرجل صاحب دين ومرؤة فلا يكلف زوجته بخدمة خارجية عن البيت ولو كان فقيراً فهو يسقي الماء ويحتطب على ظهره ولا يمكن زوجته من الخارج من البيت . 'السؤال الخامس'

بنات الأكابر من المسلمين لا همة لهن في زينتهن وتبرجهن بحيث إنهن لا ينظرن إلى غير ذلك ولا يحسن بالمرأة أن تهمل أوقاتها وتفوتها في البطالة فان ذلك ينشأ عنه شرور كثيرة . 'الجواب'

ان المرأة عند المسلمين لا تترك الخدمة كما سبق سواء كانت من بنات الأكابر أو بنات الأصاغر فإذا كان زوجها فقيراً تشتغل بالخدمة دائماً وإذا كان زوجها غنياً تشتغل بالخدمة في أوقات مخصوصة لا في سائر الأوقات وما سمعنا بامرأة معرضة عن الخدمة مقبلة على اللهو

والبطالة إلا إذا كانت صغيرة لا تدرك ولم تصل إلى حد التكليف بشـؤون الخدمة ومن أخبرك بخلاف هذا فقد اخطأ وقد كان والدي من الأشـراف الأغنياء وكان في بيته نحو الستين نفساً بين خادم وخادمة ومع ذلك فـان بناته ونسـاءه لم يـتركن الخدمـة اللائقـة بهن في توقاتهـا المخصوصـة . حكي أن امرأة من العـرب كـان أبوهـا أمـيراً وزوجهـا أمـيراً وهي تغـزل الصوف فقيل لها لم تغزلين وأنت شـريفة غنيـة عن الغـزل فقـالت انـه يطـرد الشـيطان ويقطـع حـديث النفس ومن أقـوال العـرب خـير لعب المرأة بالغزل والإبرة واما اشتغال المرأة بالزينة في أوقـات مخصوصـة فهو مطلوب منها لان التزين من الأسباب التي تدوم بها الألفـة والمحبـة بين الزوجين قال بعض العرب ان المـرأة تنـال محبـة زوجهـا بعـد تمـام حسن خلقها وكمال خلقها بان تكون مداومة على الزينة عارفة بما يزيـد في حسـنها من أنـواع الحلي واختلاف الملابس وبمـا يستحسـنه زوجهـا واتفق حكماء العرب والعجم على أن إثارة الشهوة لا تكون إلا بالموافقة التامة من المرأة التامة من المرأة ولا شك ان تزينها لزوجها مما تتم بـه الموافقة ومن كلام العرب في الأمثال عقل المـرأة في جمالهـا وجمـال الرجل في عقله ويلزم الرجل ان يتزين لزوجته بما هو من زينة الرجـال فـان المـرأة تحب ذلـك ولا تطمح نفسـها إلى غـير زوجهـا إذا رأت رجلاً جميلاً فكما ان الرجل إذا كانت له زوجة وسخة قذرة ورأى امرأة متزينة نظيفة نظيفة الثياب يشـتهيها قلبـه كـذلك المـرأة إذا رأت زوجهـا قـذراً وسخاً ورأت رجلاً آخر نظيفاً جميلاً تشتهيه نفسها . 'السؤال السادس'

ان المسلمين نرى الرجل المسن منهم يخطب البنت الصـغيرة ويأخـذها وعند النصـارى هـذا عيب ووقاحـة وقليـل من يصـبر على هـذه الوقاحـة ويأخذ بنتاً صغيرة وهو كبير هرم . 'الجواب'

هذا غير مسلم بل فيه عيب كبير عند المسلمين وقليل من يفعله منهم نادر والنادر لا حكم له إذ الغالب فيه عدم الألفة والمحبة من البنت الصغيرة للشيخ غير مرجوه بل لا بد أن تكرهه وتنفر من شيبه ومن طبع النساء التفور من الشيب قال امرؤ القيس . ان تسألوني عن النساء فأنني ◈ خبير بأحوال النساء طبيب

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ◈ فليس له في ودهن نصيب

وقال بعض العرب وقد كان شيخاً شائباً رأيت امرأة جميلة فقلت أيتها المرأة إن كان لك زوج بارك الله لك فيه وإلا فاخبرينا فقالت له في شيء لا تحبه قلت ما هو قالت شيب في رأسي وتبسمت ضاحكة من قولي فذهبت عنها فقالت لي ارجع والله ما بلغ سني عشرين سنة وهذا رأسي ولكن الشيب في رأسك فأعلمتك إننا نكره منكم ما تكرهونه منا وقيل لامرأة من العرب ما تقولين في ابن عشرين سنة قالت ريحانة يشم قيل لها فأين ثلاثين قالت قوي متين قيل لها فابن أربعين قالت أبو بنات وبنين قيل لها فأين خمسين قالت يجوز في جملة الخاطبين قيل لها فابن ستين قالت صاحب سعال وانين وعندنا إذا صبغ الرجل شيبه وتزوج المرأة وأوهمها انه شاب فان الشرع يعاقبه ويفسخ النكاح ويبطله وكان رجل خطب امرأة وصبغ شيبه فعرفت المرأة ولامته فقال . قالت أراك خضبت الشيب قلت لها ◈ سترته عنك يا سمعي ويا بصري

فقهقهت ثم قالت من تعجبها ◈ تكاثر الغش حتى صار في الشعر

وكذلك المرأة العجوز إذا تزوجت شاباً صغيراً يتخذها الناس هزوءا وسخرية السؤال السابع

المرأة عند النصارى تحب على ما فيها من الخصال الحميدة التي حصلتها وأفعالها الجميلة وأما عند المسلمين فإنها تحب إلا على حسب جمالها في الكثير وفي القليل على حسب اصلها الجواب

ان المسلمين يحبون المرأة الجميلة إذا كان مع الجمال دين وصيانة وإنما يرغبون في المرأة الجميلة لان الألفة والمحبة لا يحصلان في الغالب الا مع الزوجة الجميلة والطبع لا يكتفي بالمرأة القبيحة المنظر وأما الجمال الذي لا صيانة معه فهو مذموم وقلما توجد الأخلاق الجميلة والآداب الا تابعة للحسن لان الظاهر عنوان الباطن والبدن بما فيه مطابق للنفس وصفاتها فحسن الخلق والخلق لا يفترقان في الغالب ومن أمثال العرب حسن الصورة أول السعادة والنظر إلى الوجه الحسن يورث الفرح ويزيد في نور البصر والنظر إلى الوجه القبيح يورث العبوسة ويضر البصر وللجمال سلطان على النفوس الشريفة

تخضع وتذل له وأما النفـزس اللئيمـة فلا فـرق عنـدها بين جميـل وقـبيح وهي النفوس البهيمية . يحكى أن أحد ملوك الفـاطميين قـال شـعراً من جملته : نحن قوم تذيبنا الأعين النج _ ل على أننا نذيب حديدا

وترانا لدى الكريهة احرا _ را وفي السلم للغواني عبيدا

فاتفق انه غزا الشام وحاصر مدينة بهـا فلمـا اشـرف على أخـذها قـالت لأهلها امرأة منهم كانت مشهورة بالجمال أنا راحلة عنكم فخـرجت إليـه متنقبة وقالت أنت القائل نحن قوم تذيبنا الأعين النجل إلى آخـر البيـتين قال نعم فأزالت النقاب عن وجهها وقالت له لأأجمالاً ترى قال نعم والله فقالت له أن كنت صادقاً في قولك انك عبـد للحسـان فارحـل عن هـذه المدينة فرحل عن هـذه المدينـة فرحـل من يومـه والجمـال الـذي تحبـه العرب هو أن يكـون في المـرأة أربعـة سـود وأربعـة بيض وأربعـة حمـر وأربعة كبار وأربعة صغار وأربعة واسعة وأربعة ضيقة أمـا السـود فشـعر الرأس وشعر الحاجبين وأشفار العينين والحـدقتان وأمـا الـبيض فـاللون وبياض العينين والثغر والظفر وأما الحمر فالوجنتان والشـفتان واللسـان واللثة وأمـا الكبـار فالثـديان والفـرج والركبتـان والعجـيزة وأمـا الصـغار فالإذنان والفم واليدان والرجلان وأما الواسعة فالجبين والعينان وأصـول الثديين والسرة وأما الضيقة فالمنخران والإذنان والخصر والفـرج وكانتـا العرب تحب المرأة الزرقاء العينين ويتتيمون بهـا وقـولكم وعلى حسـب اصلها في القليل فاعلم أن العرب كانوا يرغبون في الجمال والأصل معاً ولما جاء الإسلام رغبوا في المرأة ذات الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تنكح المرأة لجمالها ومالهـا ولحسـبها ولـدينها فعليـك بـذات الدين أي اخترها وقربها من بين سائر النساء وقال لا تنكحوا المـرأة لمـا لها فلعل مالها يطغيها ولا لجمالها فلعـل جمالهـا يرديهـا وأنكحـوا المـرأة لأجل دينها فإذا كانت المرأة جميلة ومتدينة من بنات الأصـل فهي الغايـة عند العرب لأنها إذا كانت أصيلة تربي أولادها مثل تربيتها ولأنها تلد مثــل

أبيها وأخيها قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم تخـيروا لنطفكم فـان العرق نزاع وقال بعض العرب انا لا أتزوج المرأة حـتى انظـر إلى ولـدي منها فقيل له وكيف ذلك فقال انظـر إلى أبيهـا وأخيهـا وعمهـا فأنهـا تلـد مثل أحدهم لا محالة والحاصل أن الخصال المطلوبة في المرأة المطيبة للمعيشة التي لابد من مراعتها ستة الديانة وحسـن الخلـق والجمـال ولا لولادة والبكارة والنسـب فـإذا كـانت دينـة صـانت فرجهـا وصـانت وجـه زوجها من المعرة بين الناس وإذا كـانت حسـنة الأخلاق كـان زوجهـا في راحة بخلاف ما إذا كانت سيئة الأخلاق جاحدة للنعمـة كـان الضـرر منهـا اكثر من النفع وإذا كانت حسنة الوجه كفت نظـر زوجهـا عن النظـر إلى غيرهـا وحقنت فرجـه من الزنـا لان الطبـع لا يكتفي بقبيحـة الوجـه وإذا كانت ولوداً حصل منها اعظم فوائد النكاح وتعرف أنهـا ولـود بـان تكـون شابة صحيحة فأنها تكون ولـوداً في الغـالب وإذا كـانت بكـراً فأنهـا تحب الزوج وتألفه لان الطباع مجبولة على الأنس بأول مألوف لهـا وإذا كـانت بنت اصل ولها حسب كـانت مؤدبـة مهذبـة وتـربي أولادهـا مثـل تربيتهـا

السؤال الثامن

بلغنا عن العرب ان أحدهم لا يحترم زوجته ولا يحسبها إلا كخادمة لـه ولا يشاورها ولا يقربها الا عنـد قضـاء شـهوته ولا يعتـد بكلامهـا ونحن عنـدنا الأمر بخلاف ذلـك فتشـاور المـرأة على كـل شـيء وهي رئيسـة وكيـف بالعرب يؤخرون المرأة عن كل الأمور . الجواب

الأمر على خلاف ما سمعتم فان المرأة لها حرمة عظيمة عند العرب وذلك انهم يحبون النساء كثيراً ومن لازم المحبة الاحترام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اكرم النساء الا كريم ولا هان النساء الا لئيم وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه خيركم خيركم لأمرته وأنا خيركم لنسائي وقيل بعض حكماء العرب يلزم الرجل ان يفعل مع امرأته كل شيء يحببه إليها حتى يكون هو احب الناس إليها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع امرأته على يديه حتى تركب على البعير وكان أمير المؤمنين معاوية يقول النساء يغلبن الكرام من الرجال ويغلبهن اللئام منهم وكان الأحنف التميمي من سادات العرب يغضب لغضبه مائه ألف سيف لا يسئلون عن

سبب غضبه فإذا أراد حرباً تقول العرب غضبت زبرا يعنون امرأته لأنه كان يمشي على رأيها وكان الخليفة هرون الرشيد يقول أريد القرب من زوجتي أم جعفر وأهابها وأهاب الجلوس على فراشها تعظيما لها وكان ابنه المأمون كذلك يروى عنه في هذا المعنى ما هو اعظم منه مع سلطان أهل الأرض في ذلك يقول . عجباً يهاب الليث

حد سناني ◈ وأهاب سحر فواتر الأجفان

ما لي تطاوعني البرية ◈ وأطيعهن وهن في عصيان

وكان نساء النبي صلى الله عليه وسلم يراجعنه في الكلام ويصبر إكراماً لهن وأنا عبد الله كانت لبنة عمي تغضب علي وتواجهني بما يكره واصبر لها وفي حقها قلت من قصيدة

وخضع ذلة فتزيد تيهاً ◈ وفي هجري أراها في اشتداد

فما تنفك عني ذات عز ◈ وما انك في ذل أنادي

ومن عجب تهاب الأسد بطشي ◈ ويمنعني غزال عن مرادي

وقولكم وزوجها لا يشاورها اعلم ان العرب يحبون النساء محبة عظيمة ويطلقون لهن التصرف في البيت بحيث تكون المرأة في بيتها مثل الحاكم الذي أطلق له التصرف في الرعية ولا يخاف تعقباً في حكمه ولابد للرجل ان يشاور زوجته في أمور بيته ويسلم لها شؤنها لتهتم بها وتدبرها ومن عادة العرب يجتمع العيال الكثير في البيت الواحد إلى عشرين نفساً واكثر وتحكم في جميع العيال امرأة واحدة وتدبر لهم أمورهم وكان في عيال والدي رحمة الله اكثر من ستين نفساً ووالدتي هي التي تحكم فيهم وتنظر في أمورهم من أكل وكسوة وغير ذلك ووالدي لا يدخل في شيء من ذلك وإنما يمثل أمرها واما الأمور التي هي خارجة عن البيت وهي الوظائف الرجال فالعرب يكرهون مشاورة المرأة فيها لان الغالب على النساء الجبن والبخل وهما من احسن صفاتهن ومن اقبح صفات الرجال إذ المدح والمزايا لا ينالها الرجل الا بالشجاعة والسخاء والنساء لا يشرن بشيء فيه إتلاف النفس والمال قال بعضهم

لا يبلغ المجد الا سيد فطن ◈ لما يشق على الأيام فعال

لولا المشقة ساد الناس كلهم ◈ الجود يفقر والإقدام قتال

السؤال التاسع

الذي يظهر أن غيرة المسلمين زائدة حتى أن نسائهم لا يخرجن الا متلحفات ولا يظهرن لأصدقاء أزواجهن ولا لأقاربهن كابن العم وابن الخال مثلاً ونحن عندنا النساء يخرجن باديات الوجوه وبحضورهن مع الأحباب والأقارب يتام البسط ويحصل السرور وبذلك يعشن مع أزوجهن في دعة وهناء فكيف الأمر عندكم وما الأفضل عادتنا أم عادتكم .

الجواب

ان غيرة المسلمين ليست بزائدة وإنما هي في الميزان الوسط والغيرة إذا كانت كذلك فهي محمودة وهي ان لا يتغافل الرجل عن المبادئ الأمور التي يخاف عاقبتها ولا يبالغ في إساءة الظن بزوجته ويراقب حركاتها وسكناتها أو يتجسس عليها فان

هذا ليس من مكارم الأخلاق ومن كلام العرب قولهم لا تبالغ في الغيرة على زوجتك فيرميها الناس بالزنا من اجلك والغيرة الممدوحة لا تكون الا في أشراف الناس وأعلاهم همة الآن الله تعالى جعل الغيرة في الإنسان سبباً لحفظ الأنساب قال الحكماء كل أمة كانت الغيرة في رجالها كانت الصيانة في نسائها والغيرة في القلب مثل القوة في البدن تدفع المرض وتقاومه فإذا ذهبت القوة كان الهلاك وإذا ذهبت الغيرة كان الفساد رأى بعض العرب امرأته أكلت بعض تفاحة ورمت بباقيها إلى خادمها فضربها واكثر الحيوانات غيرة حمار الوحش فانه إذا رأى الولد ذكراً قطع آلته وأنثيه وقولكم نساء المسلمين لا يخرجن الا متلحفات اعلم ان المرأة يجوز لها في الشرع ان تخرج لقضاء حوائجها بادية الوجه واليدين ولو كانت شابة جميلة ويجوز للرجل أن يرى من المرأة الأجنبية الوجه واليدين إلا إذا قصد برؤيتها الشهوة واللذة فيحرم عليه ولما كثر الفساد وقلت المرؤة وكثرت الفاحشة صار أشراف الناس وأهل الديانة يأمرون نساءهم بتغطية وجوههن دائماً وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى امرأة ملتحفة مغطية وجهها يأمرها بكشف وجهها له فان رآها جميلة قال لها غط وجهك وان رآها قبيحة قال لها اكشفي وجهك وقولكم ولا يظهرن لأصدقاء أزواجهن ولا لأقاربهم ولا لأقاربهن اعلم أن العرب كانوا في الجاهلية يتحدث الرجال منهم مع النساء ويجتمعون معهن حضر أزواجهن أو اغابوا وليس عندهم في ذلك عيب ولا عار إلى أن جاء الإسلام فمنع ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تتبع النظرة فان مبدأ الزنا معاودة النظر وقال عيسى بن مريم إياكم والنظر فانه يزرع في القلب الشهوة وأول العشق النظر وأول الحريق الشرر وقال حكيم لصياد رآه يتكلم مع امرأة يا صياد الوحوش أحذر ان تصيدك هذه المرأة وقال بعض الحكماء النظر إلى المرأة سهم والكلام معها سم ومعلوم أن النساء لحم يشتهيه كل رجل وإذا دعا الرجل المرأة إلى نفسه فالغالب عليها الإجابة لا سيما إذا كان الرجل شاباً جميلاً صاحب مال فحصنهن الله بالحجاب وقطع الكلام معهن وأمر بمباعدة أجسادهن عن أجساد الرجال وفي المثل ثلاثة لا تؤمن على ثلاثة شباب على امرأة وامرأة على سر وفقير على مال وقال بعض الشعراء لا تامنن على النساء ولو أخا

◈ ما في الرجال على النساء أمين

وقولكم النساء عندنا يخرجن باديات الوجوه ويحضرن المحافل مع أزواجهن اعلم ان محبة العرب للنساء شيء عظيم وما أظن ان جنسياً في الدنيا يحب النساء كمحبة العرب لهن فلا يمكن أن يرى الرجل المرأة الجميلة ويبقى قلبه مستريحاً أبداً فإذا كان يخاف الله وصاحب المرؤة فانه يبقى مع نفسه في قتال دائم ويحصل له تعب عظيم وإذا كان لا يخاف الله ولا مرؤة له فانه يبقى مشغول الفكر في معاودة النظر إليها والتحدث معها والقرب منها وكيف الحيلة في الوصول إلى قضاء وطره منها وربما لا تمكنه معاودة النظر إليها مرة أخرى لأسباب تمنعه من ذلك فيبقى حيراناً وتضيع مصالحه كلها وعندنا في الشرع إذا

لبست المرأة الثياب الجميلـة ومـرت على الرجـال لينظـروا إليهـا فأنهـا زانية آثمة لأنها تشوش أفكار الرجال بسب نظرهم إليها وذلك يؤدي إلى حصول المعصية من الرجال وكذلك المرأة إذا حضرت مجـالس الرجـال ربما يكون زوجهـا قـبيح المنظـر أو شـيخاً وتـرى شـاباً جميلاً فـان قلبهـا يتعلق به وكذلك إذا حضرت مواضع الرقص والغناء من الرجال فان ذلك يفسدها ويحرك شهوتها ومن المعلوم عند كل أحد أن الحصان إذا صـهل أصغت له الحجرة ورمت الماء من فرجها وإذا هدر الفحل قـامت الناقـة وبركت بقربه وإذا غنى الرجـل أصـغت لـه المـرأة وتمنت أن تكـون هي الـتي تغـنى بهـا قـال بعض الحكمـاء ليس بشـيء اضـر على النسـاء من الخروج وليس شيء خيراً لهن من البيوت والغالب أن المرأة إذا خرجت إلى مجامع الرجال والنساء ومحافل الزهو لا ترجـع سـالمة القلب واقـل مفسدة في ذلك أن ترى المـرأة غيرهـا لابسـة حليـاً وثيابـاً احسـن ممـا عندها فتسخط على زوجها وتكره عيشتها عنـده فلهـذا كـان المسـلمون أهل الدين والمرؤة يجنبون نسـاءهم سـماع الغنـاء من الرجـال وحضـور اللعب والرقص من الرجال والنظر إلى الرجال الأجانب وسماع حكايتهم ومجالســة النســاء اللــواتي يعلمن ذلــك لا ســيما العجــائز وقــال بعض الحكماء الوجه الذي يغني عن الغيرة هو ان لا تخرج المــرأة إلى مجـامع الرجال ولا يدخلون عليهـا ويحكى عن امـرأة من الصـالحات قـالت كنت جالسة مع زوجي في طاق على الزقاق فمر رجل شاب جميـل الصـورة فكنت انظــر إليــه وإلى زوجي فصــار زوجي في عيــني مثــل القــرد أو الخنزير أو الكلب ثم تبت إلى الله تعالى من الجلوس في طاق من ذلك اليوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة الزهراء رضـي الله عنها أي شيء خير للمرأة فقالت هو أن لا يراهـا الرجـال ولا تـراهم فقبل ما بين عينيها استحساناً لكلامها ولكن انتم معشر الإفرنج لمـا كنتم من حين ينشأ الرجل منكم إلى ان يشيب يجتمع مـع النسـاء ويجالسـهن

ليلاً ونهاراً في الـبيوت والأسـواق ومواضـع اللعب وفي الطـرق والنسـاء كذلك ضعفت محبة الرجال للنساء والنسـاء للرجـال وقلت الشـهوة لان الشهوة إنما تثور بقوة الإحساس بالنظر واللمس والإحساس إنما يقــوى بالأمر الغريب الجديد فأما الذي دام النظر إليه مـدة فانـه يضـعف الحي عن تمام إدراكه فلا تثور به الشهوة فانتم مع الاجتمـاع الـدائم في راحـة من العشق . السؤال العاشر

كيف بالعرب يزوجون بناتهم صغاراً وربما يكون ذلك قبل البلوغ والمــراد من التزويج الذرية والصغيرة التي لم تبلغ لا تحصل منها ذرية فهـل ذلـك جائز في شرعكم أم لا وربما تلـد امـرأة وهي بنت اثنـتي عشـر عامـاً أو ثلاثة عشر فلا تقدر على ترقيـة الولـد وتربيتـه وعنـدنا البنـات لا يـزوجن صغاراً بل كباراً حتى لا تفسد صحتهن ولا شبابهن وليكون أولادهن صحاح الأجسام وقد رأينا المسلمين يتزوجون كثيراً ولا نـرى لهم كـثرة أولاد ولا رعيــة بخلاف غــيرهم فــانهم يــتزوجون قليلاً ومــع ذلــك تكــثر أولادهم وبكثرتهم تكثر الرعية الجواب

اعلم أن العرب لا يزوجون بنـاتهم صـغاراً إلا لفائـدة وهي إمـا أن تكـون للزوج أو لولي البنت فأما فائدة الزوج فان البنت إذا كانت ابنة أكابر أمـا بالشرف أو بالمال فان الرجال يرغبون في نكاحها ويتسابقون إليها فكل واحد يخاف أن يسـبقه إليهـا غـيره فيبـادرون إلى إحرازهـا ومن مقاصـد النكاح وفوائده عند العرب التعزز بعشيرة المـرأة فـان ذلـك ممـا يحتـاج إليه في دفع طـوارئ الشـرور وطلب السـلامة ولهـذا يقولـون ذل من لا ناصر لـه ومن وجـد من يـدفع عنـه المضـار سـلم حالـه وفـرغ قلبـه من الهموم فان الذل مشوش للقلب والعز بـالكثرة دافـع لـذلك وأمـا فائـدة ولي البنت فان الرجل قـد يـزوج ابنتـه صـغيرة لأحـد أمـرين أحـدهما أن يكون له أولاد غير البنت فيخاف إذا تزوجهـا غـريب أن يضـر بـأولاده من جهة أن البنت تشاركهم في مـال أبيهم والمشـاركة في الـدار والبسـتان

ونحو ذلك يصير في الغالب منها ضرر بين الشريكين ورأي المرأة في يد زوجها فلهذا يبادر الرجل ويزوج ابنتـه من ابن أخيـه أو ابن عمـه أو ممن يظن فيه انه يرفق بأولاده ولا يضرهم . الثاني أن بعض الناس يخاف من الطعن في ابنته وتهمتها بالقبيح فيزوجها ويستريح وتزويج الصغيرة جـائز في شرعنا إذا لم تكن يتيمة أما إذا كانت يتيمة فإنها لا تتزوج صـغيرة إلا إذا أخيف عليها من الفساد وتزويج الصغيرة جـائز في الشـرائع القديمـة ففي التوراة إذا بلغت البنت اثنتي عشر سنة فلم يزوجهـا أبوهـا فـأثمت البنت أثماً فأثم ذلـك عليـه لأنـه هـو السـبب في تـأخير تزويجهـا وفوائـد التزويج ليست محصورة في طلب الذرية فقط بل له فوائـد كثـيرة منهـا التعزز بعشيرة المرأة كما تقدم ومنها ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة وفي ذلك كلـه إراحـة للقلب وتقويـة لـه على الأعمـال الـتي تشـق على النفس ومنهـا التحصـن عن الشـيطان ودفـع مهلكـات الشـهوة وغض البصـر وحفـظ الفـرج ومنهـا رياضـة النفس ومجاهـدتها برعاية الزوجة والقيام بحقوقها والصبر على أخلاقها ومنهـا تفريـغ القلب من تدبير المنزل والتكفل بشغل المطبخ وتهيئة أسباب المعيشة ولـوازم البيت وبنات العرب يسرع إليهن البلوغ فكثير منهن تبلغ في تسع سـنين ويأتيها الحيض قـال الإمـام الشـافعي رضـي اللـه عنـه رأيت امـرأة ابنـة إحدى وعشرين سنة وهي جدة وكذا الرجال يسرع إليهم البلوغ كان عبد الله بن عمرو بن العاص بين ولادته وولادة أبيه إحدى عشر سنة ولنسـاء العـرب خصوصـيات فتحمـل المـرأة العربيـة وهي بنت خمسـين سـنة وتحمل المرأة القرشية في سـن السـتين ولا يوجـد هـذا في غـير نسـاء العرب ومن قريش الشيخ عبد القـادر الجيلاني قـدس اللـه سـره ولدتـه أمه فاطمة وهي في سن الستين ومنهم موسى بن عبد الله الكامل ابن الحسـن المثـنى ولدتـه أمـه هنـد وعمرهـا سـتون سـنة وهم كثـيرون لا يحصون وقولكم ربما تلد البنت في اثني عشر عاماً فـاعملوا ان البنت لا

تتزوج صغيرة في الغالب إلا إذا كان أبوهـا أو زوجهـا صـاحب مـال كثـير وإذا ولـدت صـغيرة لا تتعب في تربيــة الولــد وتكــون لأولادهــا مربيــات ومرضعات وقولكم وعندنا البنات لا يتزوجن صغاراً إلى آخــر كلامكم هــو كمــا قلتم ولكن المــرأة إذا تــأخر تزويجهــا إلى عشــرين ســنة أو نيــف وعشرين يحصل منها الزنا غالباً لا سـيما إذا كـانت تخـرج وتـرى الرجـال وتجالسهم وكذلك الرجل إذا تأخر ترويجه لان الإنسان سواء كان رجلاً أو امرأة إذا اجتمعت شهوته ولم يجد لوضعها محلاً حلالاً بالتزويج يطلب لها محلاً حراماً بالزنـا ولا يقـدر على الصـبر إلا القليـل من الرجـال والنسـاء وعادة العرب إذا تزوج الرجل المرأة على أنها بكـر ثم وجـدها غـير بكـر يطلقها في الحال وإذا استحي من أهلها يبقيها ولا قلب له فيها ولا محبـة منه إليها وقولكم وقد رأينا المسلمين يتزوجون كثيراً ولا نـرى لهم كـثرة أولاد ولا رعية اعلم أن قلة الرعية ليست لقلة ولادة نسائهم وإنمــا ذلــك من عــدم اســتعمال الأســباب الــتي يكــون بهــا بقــاء أولادهم ومن عــدم معـرفتهم بحسـن تربيـة الأولاد ومـداراتهم حـتى تطـول أعمـارهم وهـذا بإرادة الله تعالى . السؤال الحادي عشر

ان الطلاق عند المسلمين كثير وعنـدنا لا يكـون أبـداً ونحن نلـومهم على ذلك لما فيه من الضـرر على النسـاء وعلى الأولاد أيضـاً لكـونهم يقعـون في يد من لا يرحمهم كوالدتهم . الجواب

الغالب خفاء بعض العيوب الزوجين من الرجل والمرأة أما في الخلقة أو الطبيعة فإذا ازدوج الرجل والمرأة وتعاشرا أو اطلعا على مـا كـان خفيـا مغيبا ربما يظهر بعض العيوب لأحـد الـزوجين فجعـل اللـه الطلاق راحـة للذي يحب الفراق منهما وجعل الله الطلاق بيد الرجل لشرفة واذن الله للمــرأة ان تطلب الطلاق من زوجهــا إذا حصــل لهــا من جهتــه ضــرر والطلاق مبــاح في الأديــان القديمــة في التــوراة في الإصــحاح الحــادي والعشرين في سفر الخـروج أن اسـتقبح سـيدها زوجتـه فليطلقهـا وفي

سفر الأحبار في الإصحاح الثاني والعشـرين أن طلقت بنت الكـاهن ولم يكن لها أولاد ورجعت إلى بيت والدها تأكل من القدس فعلم من هذا أن الطلاق ليس خاصاً بالمسلمين وفي الطلاق منـافع وأضـرار أمـا المنـافع فكما ذكرنا وأما الأضرار فكما ذكرتكم وهو مباح إذا لم يحصل منه إيـذاء للمرأة بالباطل وعلى كل حال فانه لا يخلو من الأذى ولذلك قال رسـول الله صلى اللـه عليـه وسـلم تزوجـوا ولا تطلقـوا فـان الطلاق يهـتز منـه العرش وقال تزوجوا ولا تطلقوا فان الله لا يحب الـذواقين ولا الـذوقات لان المقصود من النكاح النسل ودوام العشـرة وحصـول الألفـة والطلاق يهـدم جميـع ذلـك ومن منـافع الطلاق من جهـة الرجـل ربمـا لا توافقـه المــرأة لعيب في خلقهـا أو طبيعتهـا فـإذا لم يطلقهـا يبقى معـذباً بهـا مشغولاً ظاهراً وباطناً بسببها يقول العـرب في المثـل إذا لم يكن وفـاق ففراق ويقولون دواء ما لا تشـتهيه النفس الفـراق والعيش لا يطيب بين اثنين من غير إنفاق ويقولون قلـع الضـرس المسـوس يـريح ومن طلـق امرأة السوء يستريح فـالطلاق راحـة للرجـل ان كـانت امرأتـه خبيثـة أو معيبة وراحة المرأة أن كان زوجها خبيثاً أو معيباً والرجل إذا طلق امرأته وكان بينهما أولاد فـان الشـرع أوجب على الـزوج ان ينفـق عليهـا وعلى أولادها منه حتى يبلغ الولد ان كان ذكراً وحـتى تـتزوج البنت ويـدخل بهـا زوجها فلا ضرر على الأولاد إذا طلقت أمهم وكـان أبـوهم متبعـاً للشـرع السؤال الثاني عشر

ان المسـلمين لا يورثـون البنت مثـل الـذكر وكيـف ذلـك والبكـل أولاده الجواب

ان الله تعالى هو الذي قسم الميراث ونزل القران العظيم فجعل للـذكر قسمتين وللأنثى قسمة واحدة وبذلك فضل الله الذكور على الإناث كمـا فضـلهم بـالقوة عليهن والصـبر على المشـقات وفضـلهم أيضـاً بعظـائم الأمور كالسـلطنة ومباشـرة القتـال وتوليـه الأعمـال والمناصـب الدينيـة

والدنيوية والرجـل يحـارب ويـدافع عن بلاده وعشـيرته فهـو محتـاج إلى زيادة القسمة ليستعين بهـا على ذلـك ولان الرجـل إذا كـان في قسـمته زيادة ينفـق على النسـاء من أقاربـه إذا احتجن إلى ذلـك بخلاف المـرأة فإنها لا تنفع إلا نفسها في الغالب وأما في غير الميراث فانــه يجب على الرجل ان يسوي بين أولاده في العطية قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم وجاءه رجل قال له اشهد على أني أعطيت لولدي فلان كذا كذا فقال له رسول الله صلى الله عليـه وسـلم أعطيت أولادك كلهم مثلـه قـال لا فقـال إننـا لا نشـهد الجـور . السـؤال الثالث عشر

ان نسائنا يدخلن المدارس ويتعلمن الكتابـة ويحصـلن المعـارف والآداب بخلاف نساء العرب وان العربية إذا تلافت مع غيرها تكون غير عارفة ولا كيسة والمومسات من العرب ما أوقعهن في الفساد الا عـدم معـرفتهن وان نساء العرب هن اعرف النساء بآداب المحبة . الجواب

اعلم ان الكتابة مثـل السـيف من وظـائف الرجـال لا من لـوازم النسـاء فالكتابــة إنمــا يحتــاج إليهــا الرجــال يجمعــون العلــوم ويقيــدون الحكم ويضبطون الخراج ويحفظون تواريخ الأمم وأخبارهم فالكتابة قيد للعلــوم وما يحتاج فيه إلى النقل والرواية فان عقل الإنسان الواحد لا يقـدر على استنباط العلوم الكثـيرة ولا على حفظهـا فصـار إذ اسـتنبط مقـداراً من العلوم قيده وكذلك إذا استفاد شيئاً من غيره واما النساء فلا يؤلفن كتاباً ولا يسـتنبط صـناعة ولا فائـدة فيحتجن إلى تقييـدها بالكتابـة لينتفـع بهـا الناس ولا يتولى النساء قبض خراج ولا صف ولاشيء من الوظائف التي تحتاج إلى الكتابـة فلا فائـدة في تعليم النسـاء بـل فيهـا ضـرر كبـير لان الكتابـة عين العيـون بهـا يبصـر الشـاهد الغـائب وفي الكتابـة تعبـير عن الضمير بما ينطق به اللسان فان الإنسان يقدر على كتابة ما لا يقــدر أن يخـاطب بـه ويبلـغ المقصـود حيث لا يمكن الكلام مشـافهه فقـد تكـون

المرأة لا لقدر على لقاء من تهواه ولا تقدر على أن تتكلم معــه بحضــرة الغير وكذلك الرجل قد لا يجـد سـبيلاً إلى لقـاء من يهواهـا والكلام معهـا بحضرة غيره فإذا كانت المرأة عارفة بالكتابة سهل طريــق الزنـا بينهمـا بسب الكتابة فلهذا نهى شرع الإسلام عن تعليم النساء الكتابة وهو حــق لا ينكره عاقل فتعليم الكتابة واجب على الرجال مكروه في حق النسـاء قال بعض حكمـاء العـرب ليس للنسـاء الكتابـة والخطابـة بـل همـا ومـا ماثلهما للرجـل .وأمـا النسـاء فلهن على الرجـال ان لا يـبيتوهن إلا على جنابة وقولكم ان العربية إذا تلاقت مع غيرها تكون غير عارفة ولا كيســة فاعلموا ان العربيات إنما يتعلمن الأدب الذي يليق بـأزواجهن وتصـلح بـه العشرة بين الفـريقين وتجلب قلـوب الأزواج إليهن فكـان نسـاء العـرب يعلمن بناتهن الأدب مع الأزواج قالت امـرأة لابنتهـا يـا بنيـة لـو اسـتغنت امرأة عن زوجها لغناهـا لكـانت أغـنى النسـاء عن الرجـال ولكن النسـاء خلقن للرجال كما أن الرجال خلقوا للنساء كوني لزوجك أرضـاً يكن لـك سماء وكوني له وطاء يكن لك غطاء واصحبيه بالقناعة وعاشريه بالسمع والطاعة ولا تغفلي عن موضوع نظره ولا موقع انفـه فلا تقـع عينـه على قبيح منك ولا يتسم منـك الا ريحـاً طيبــة ولا تغفلي عن وقت طعامــه ولا عن موضــع منامــه فــان الحــرارة الجــوع تلهيــه وتنغص النــوم ينغصــه واحفظي مالــه وتفقــدي خدامــه وعيالــه ولا تفــرحي إذا كـان حزينـاً ولا تحزني إذا كان فرحاً وعلى قدر تعظيمك له يكون إكرامه لك وقدمي مــا يحبه على الذي تحبينه أنت وقالت امرأة أخرى لابنتها يا بنيــة ان الوصــية لو تركت لزيادة أدب لتركت لك الوصية تذكرة للغافل ومعونة للعاقل يــا بنية لا تعصي زوجك أمراً ولا تفشي له سراً وكوني اكـثر النـاس لزوجـك إعظاماً يكن اكثر الناس لك إكراماً وكوني اكـثر النـاس لـه موافقــة يكن لك احسن الناس مرافقة ولا تصلين إلى الرضا زوجـك حـتى تقـدمي مـا يحبه هو على الذي تحبين أنت ومن قول العـرب يلـزم ان تكـون المـرأة

فوق الرجل في ثلاثة أشياء والا احتقرها الأدب والجمال والصـبر وقـالت امرأة لابنتها لا تقربي من الرجل دائماً فيملك ولا تبعدي عنه فينسـاك ان دنا منك فاقربي منه نأى عنك فابعدي عنـه واحفظي سـمعه وبصـره فلا يسمع من كلامك الا حسناً ولا ينظر منك الا جميلاً ولا تتكلمي عند غضـبه وكوني دائماً في قعر بيتك ملازمة لشغلك ولا تكـثري الكلام مـع جيرانـك ولا تـدخلي عليهم إلا لحاجـة واحفظي زوجـك في غيبتـه وحضـوره في نفسه وماله ولا تخرجي من الـبيت الا بإذنـه ولا تطلـبي معرفـة أصـحابه وكوني قصـيرة اللسـان عن سـب الأولاد والخـدام ومراجعـة الـزوج في الكلام وقـالت امـرأة لابنتهـا لازمي الانقبـاض إذا غـاب زوجـك والعـبي وانبسطي إذا حضـر ولا تتكـبري عليـه بالجمـال ولا تحتقريـه لقبح وجهـه واطلبي ما يفرح زوجك في جميع الأقـوال والأفعـال ولا تجعلي همـك إلا في إصلاح شـأنك وتـدبير بيتـك فهـذه الآداب وأمثالهـا هي الـتي تتعلمهـا نساء العرب واما الأدب مع الرجال الأجانب فان نساء العـرب لا يعرفنـه وذلك لأنهن لا يجتمعن بالرجـال الأجـانب في الملاعب ومواضـع الـرقص والغناء كمـا يفعـل نسـاء الإفـرنج ولايفعـل ذلـك الا الزانيـات قـال بعض حكماء لعرب شر خصال الرجال خير خصال النساء الكبر والجبن والبخل فان المرأة إذا كانت متكـبرة أنفت ان تكلم كـل أحـد من الرجـال بكلام لين وإذا غلب عليها الجبن خافت من كل شيء فلم تخرج من بيتهـا وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال زوجها وقولكم المومسات من العرب ما أوقعهن في الفساد الا عدم معرفتهن اعلم ان الزنا إنما يقـع من النسـاء التي ينتسبن إلى العرب ولسن عربيات اصـليات فـان نسـاء العـرب في الجاهلية كن لا يعرفن الزنا رأساً وإنما يزني عند العرب الإمـاء حـتى انـه لمـا نـزل قولـه تعـالى في القـرآن جـاءك المؤمنـات يبايعنـك على ان لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين قـالت امـرأة من الحاضـرات أو تزني الحرة يا رسول الله فقـد اسـتبعدت وقـوع الزنـا من الحـرة وكـان

العرب في الجاهلية لهم عفـة عن الزنـا رجـالاً ونسـاءً فلا تخـون المـرأة زوجها ولا يخون الرجل زوجته فكيف بهم في الإسلام الذي جـاء بتحـريم الزنا وشدة العقاب لمرتكبه وقولكم أن نساء العرب هن اعـرف النسـاء بآداب المحبة سالت أم البنين زوجة عبد الملك بن مـروان ليلى الاخيليـة عن عشق العرب فقالت لها يرى الرجل المرأة وتراه فيعشقها وتعشـقه فـإذا سـاعدهما الـوقت وتلاقيـا لا يشـتغلان إلا بـذكر مـا لقيـا من الحب لبعضهما بعضاً ويشكو كل منهما الشوق إلى صاحبه ويتناشـدان الأشـعار فقالت لها أم البـنين ولا يكـون بينهمـا زنـا فقـالت لهـا النكـاح شـأن من يطلب الولد لا شأن المحبين وإذا وقع الجماع فسد الحب وبالجملة فـــان نساء العرب في هذا المعـنى لهم حكايـات عجيبـة تـدل على أن محبتهن قلبية روحانية لا جسـيمة كمـا زعمتم ولـولا خـوف التطويـل لـذكرنا لكم جملة منها . السؤال الرابع عشر

نساء المسلمين لا يدخلن المساجد للصلاة وأما نساء النصـارى فيـدخلن الكنائس ويتعبدن مع الرجال الجواب

إن شـرع الإسـلام مـا نهى النسـاء عن دخـول المسـاجد ولا منعهن عن الصلاة فيها وكانت النساء في زمان رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم يصلين معه في المسجد الشريف وكان يقول لأصحابه رضـي اللـه عنهم لا تمنعوا إماء الله من مساجد الله فيجوز للنساء الخـروج إلى المسـاجد والصلاة فيها ليلاً ونهـاراً لكن بشـروط منهـا أن لا تكـون المـرأة متطيبـة بطيب له رائحة يشمها الرجال ومنها أن لا تكون متزينة بشيء من أنواع الزينة ومنها ان لا يكـون لهـا خلاخـل تسـمع صـوتها الرجـال ومنهـا ان لا تكون مختلطة بالرجال بل تكون منفردة عنهم ومنها ان لا تكشف وجهها إذا كانت شابة جميلة يعشقها من رآها من الرجال وبهذه الشروط كانت النساء يخرجن إلى المسجد ويصـلين مـع رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم فـإذا أنعـدم شـرط واحـد من هـذه الشـروط حـرم على المـرأة

الخروج إلى المسجد وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه شديد الغيرة وكانت زوجته تخرج إلى الجامع في الليل والنهار لأجل الصلاة ولم يقــدر على منعهـا ظـاهراً لنهي رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم عن منـع النساء من الخروج إلى المساجد كما قلنا فعمل الحيلة في منعهـا وذلـك انه تعرضن لها في طريق الجامع في ليلة مظلمة وقبض يده على ثـديها ولم تعرفه فكانت بعد ذلك لا تخرج فيقول لها لما لا تخرجين إلى الجامع لتصلي فيه فتقول لا اخرج فقد فسد الزمان ظنـا منهـا ان الـذي تعـرض لها وقبض على ثديها رجل أجنبي . السؤال الخامس العاشر

يقال أن المسلمين يمنعـون نسـاءهم من الـدخول إلى المسـاجد إذا كن صغيرات وجميلات ولا يمنعونهن من السفر إلى الحج . الجواب

قــد ذكرنــا لكم انــه لا يجــوز منــع النســاء عن الــدخول إلى المســاجد بالشروط التي قدمنا ذكرها وأما تسريحهن إلى الحج فلا تسـافر المـرأة إلى الحج إلا إذا كان معها زوجها أو رجل محرم لها وهو الذي يحرم عليه أن يتزوج بها شرعاً كابنها وأبيهـا وعمهـا وأخيهـا وخالهـا وابن أختهـا وابن أخيها وأما إذا لم يكن معها زوجها ولا محـرم فلا تحج ولا يلزمهـا حج ولـو كان عندها مال كثير السؤال السادس عشر

بلغنــا أن بعض النــاس يقولــون أن النســاء لا يــدخلن الجنــة فلا بــد ان توضحوا لنا هذا الإشكال الجواب

ان هذا القول كذب بحت وافتراء صرف فالنساء يدخلن الجنـة ويكن مـع أزواجهن في منازلهم إذا كان زوجها من أهل الجنة وأمـا إن كـان زوجهـا من أهل النار وهي من أهل السعادة فان الله تعـالى يزوجهـا برجـل من أهل الجنة وإذا تزوجت المرأة في الدنيا برجلين أو ثلاثة فان كـل الأزواج كلهم من أهل الجنة فان الله يخيرها فالزوج الذي تختاره تكون معه وان

كـان بعضـهم في الجنـة والبعض الآخـر في النـار فإنهـا تكـون للـذي في الجنة . السؤال السابع عشر

بلغنا أن المسلمة إذا ماتت لا يخرج الناس في جنازاتها مثل الرجل فهـل هذا صحة أم هو محض كذب ؟ الجواب

هذا كذب من قائله بل لا فرق في الخروج مع الجنازة بين جنازة الرجـل وجنازة المرأة وإنما الممنوع خروج النساء مع الجنازة ساء كـانت جنـازة رجل أو امرأة لان النساء لا يحفرن قبراً ولا يحملن تابوتاً ولا يغسلن ميتاً فلا فائدة في خروجهن بل فيه تشويش قلوب الرجال بالنظر إليهن والى محاسنهن والقبور موعظة يتذكر الإنسان فيه كيف يفارق الأحباب وكيف يصير إلى التراب وحضور النساء يشغل عن هذا . السؤال الثامن عشر

ان كثيراً من المسلمين لا يأنفون من تـزويج المـرأة المومسـة إذا تـابت ولا ينقص ذلك من قـدرة بخلاف النصـارى فـان الـذي يـتزوج بالمومسـة منهم يبتذل بين الناس ولا يبقى له اعتبار عندهم . الجواب

انه يتزوج بالمرأة المومسة عندنا إلا أخس الناس وأرذلهم والشــرع نهى عن تزويجها قال الله تعالى الخبيثات للخبثين أي الزانيات للـزانين وقـال رسول الله صلى الله عليـه وسـلم إيـاكم وخضـراء الـدمن قـال المـرأة الحسناء في المنبت السوء التي تنبت على المزابل ومواضع القـذر فـان ظاهرة زين وباطنه شين ومن كلام حكماء العرب لا تـتزوجوا العـاهر ولا المختلعـة ولا المباريـة ولا الناشـز ولا الانانـة ولا المنانـة ولا الحنانـة ولا البراقة ولا الشـداقة امـا العـاهر فهي الزانيـة وامـا المختلعـة فهي الـتي تطلب الطلاق من زوجهـا كـل سـاعة المباريـة فهي الـتي تفتخـر على زوجها بمالها ونسبها وأما الناشز التي تعلـو على زوجهـا في الكلام وأمـا الانانة فهي التي تكـثر الأنين والتشـكي تعصـب رأسـها كـل سـاعة وأمـا المنانة فهي التي تمن على زوجها فتقول لـه فعلت لأجلـك كـذا وتـركت

كذا وأما الحنانة فهي الـتي تحن إلى زوج آخـر وأمـا الحداقـة فهي الـتي ترمي بحدقتها إلى كل شيء وتشتهيه وتكلف زوجها شراءه وأما البراقـة فهي الـتي تكـون طـول النهـار في تصـقيل وجههـا ليكـون لـه بريـق ولا تشتغل بمصالح بيتها واما الشداقة فهي الـتي تكـثر الكلام والتصـنع فيـه وإذا كانت المرأة متولدة من زنا فالشرع يمنع من التزوج بهـا . السـؤال التاسع عشر .

هل العرب يطلقون المرأة التي لا يربحون عليها بغير سبب آخر أم ذلـك كذب الجواب .

ان هـذا كـان في العـرب وقت الجاهليـة ويقولـون اقصـاص أو نـواص أو بعض الذراري يعنون بـذلك ان الـربح واليمن والخسـران والنحس يكـون على قصة المرأة وناصية الفرس والمولود ولما جاء الإسلام أبطلـه قـال رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم لا طـيرة ولا عـدوى فقـال رجـل يـا رسول الله فما بال الإبل تكـون كأنهـا الغـزلان فـإذا دخلهـا بعـير اجـرب جربت فقال لـه رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم ومن اعـدى الأول ولكن بقيت هذه العادة الجاهلية عند بعض الجهلة من المسـلمين الـذين دينهم ضعيف وأما أهـل الـدين الصـحيح القـوي فـانهم يعتقـدون أن اللـه تعالى يفعل ما يريد بالعبد من ربح وخسران ومن خـير أو شـر لا مـدخل للمرأة ولا للفرس ولا للولد ولا للدار ولا لشيء من المخلوقـات فيـه فلا ينفع ولا يضر الا الله تعالى . السؤال الموفي للعشرين

المرأة عند النصارى يسرها مـا يسـر الجنس ويحزنهـا مـا يحـزن الجنس وكلامهـا مـع زوجهـا يقويـه على الحـرب وعلى فعـل الخـير مـع جنسـه والدفاع عن بلاده وأما المسلمة فقد بلغنا أنها لا تلتفت إلى ذلك ولا يؤثر فيها الجواب

إن هذا الذي ذكرتموه في نساء النصارى هو موجود في نساء العرب اكثر بما لا يتقارب حتى ان العربيات إذا وقع لرجالهن هزيمة أو حصل فيهم قتل لا تترك الواحدة منهن زوجها يقبلها ولا يجامعها حتى بثأره من عدوه وكان نساء العرب لا يبكين المقتول إلا بعد أن يؤخذ بثأره تحريضاً للرجال على الحرب وكان الحارث بن عوف من أشراف العرب وكانت له اليد الطولى في عقد الصلح بين عبس وذبيان أولاً وآخراً والسبب في ذلك انه قال يوماً لخارجة بن سنان أترانى اخطب إلى أحد فيردني قال نعم قال ومن ذلك قال اوس بن الحارثة بن لام الطائي فقال الحارث لغلامه اركب فركبنا حتى لقينا اوساً في بلاده ووجدناه في فناء منزله فلما رآني الحارث بن عوف قال مرحباً بك يا حارث قال وبك قال وما حاجتك قال جئتك خاطباً قال لست هناك فانصرف ولم يكلمه ودخل اوس إلى امرأته مغضباً وكانت من عبس فقالت من الرجل الذي وقف عليك قال سيد العرب الحارث بن عوف قالت فما لك لم تستنزله قال انه استحمق قالت وكيف قال جاءني خاطباً قالت افتريد ان تزوج بناتك قال نعم قالت فإذا لم تروج سيد العرب فمن قال قد كان ذلك قالت فتدارك ما كان منك قال بماذا قالت بان تلحقه فترده قال وكيف وقد فرط مني ما فرط إليه قالت تقول انك لقيتني وانا مغضب بأمر لم يكن لي تقدم فيه قولاً فانصرف ولك عندي ما تحب فانه سيفعل فركب اوس بن حارثه في أثره قال خارجه فو الله انا لنسير إذ حانت مني التفاتة فرأيته فأقبلت على الحارث وما يكلمني غماً فقلت له هذا اوس بن حارثة فقال وما نصنع به امض فلما رآنا لا نلتفت صاح يا حارث أربع علي فوقف له فكلمه بذلك الكلام فرجع مسروراً فبلغني أن اوساً لما دخل منزله قال لزوجته ادعي لي فلانه لأكبر بناته فاتنة فقال يا بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب وقد جاءني خاطباً وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين قالت لا تفعل قال لم قالت لأني امرأة في وجهي ردة وفي خلقي بعض العهدة ولست بابنة عمه فيرعى رحمي وليس بجار لك في البلد فيستحي منك ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فتكون علي وصمة فقال قومي بارك الله فيك ثم دعا الوسطى فأجابته بمثل ذلك أو بقريب منه ثم دعا الصغيرة فقال لها كما قال لأختيها فقالت أنت وذاك فقال أني عرضت ذلك على أختيك فأبتاه فقالت لكني الجميلة وجهاً الصناع يداً الحسيبة أباً فان طلقني فلا اخلف الله عليه قال بارك الله عليك ثم خرج إلينا فقال قد زوجتك بهية بنت اوس قال قد قبلت ثم أمر أمها أن تهياها وتصلح من شأنها ثم أمر ببيت فضرب له وأنزله إياه فلما أدخلت إليه لبث هنية ثم خرج الي فقلت أفرغت من شانك قال لا والله لما مددت يدي إليها قالت مه اعند أبي واخوتي هذا لا يكون قال فأمر بالرحلة فارتحلنا بها فسرنا ما شاء الله ثم قال لي تقدم فتقدمت فعدل بها عن الطريق فما لبث أن لحقني فقلت أفرغت قال لا والله قالت لي كما يفعل بالأمة الجلبية والسبية الاخيذة لا والله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل ما يعمل لمثلي قلت والله لأرى هيئة عقل وأرجو أن تكون المرأة النجيبة ثم سرنا إلى أن دخلنا بلادنا فاحضر الإبل والغنم ثم دخل إليها وخرج فقلت أفرغت قال والله قلت ولم ذلك قال دخلت عليها أريدها وقلت قد أحضرنا من المال ما ترين قالت والله لقد ذكرت لي من الشرف مالا أراه فيك قلت كيف قالت أتتفرغ لنكاح نساء والعرب يقتل بعضها بعضاً يعني بني عبس وذبيان قلت فتقولين ماذا فقالت اخرج إلي هؤلاء القوم فاصلح بينهم ثم ارجع إلي واني لست فائتتك قلت والله أني لأرى عقلاً وهمة وقد قالت قولاً لا يرد فاخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا بينهم بالصلح فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى من الفريقين ثم يؤخذ الفضل ممن هو عليه فحملنا عنهم الديات وكانت ثلاثة آلاف بعير وعاش الحارث إلى أن أدرك النبي صلى

الله عليه وسلم ووفد عليه واسلم وبعث معه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأنصار في جواره يدعو قومه إلى الإسلام ومن شعر الحارث قوله فان اكبر

فاني في لداتي ◈ وعاقبة الأصاغر ان يشببوا

وما كثرت فائدتي بعذر ◈ كفاني في الفوائد ما يطيب

انتهت الأسئلة والأجوبة وقد قصدنا بذكرها إزالة الاشكالات التي لم تـزل أفكار الإفرنج المتحاملـة على دين الإسـلام تخـوض وتوجـه الاعتراضـات على المسلمين في تعاطيها وتفوق سهام الطعن عليهم للعمل بها ولقــد أوضح الأمير في أجوبته الصبح لذي عينين واظهر الحق لأهله من العقلاء هذا مع المناسبة للمقصود من التاريخ والمرغوب فيه^ ذكر

توجه الأمير إلى مصر لحضور محفل فتح خليج السويس

وفي رجب سنة ست وثمانين وماتين وتشرين الثاني سنة تسع وستين وثمانمائة دعى الأمير إلى حضور فتح خليج السويس كما دعى إلى ذلك أعيان العالم فتوجه إلى بيروت ومنها إلى الإسكندرية فاجتمع هناك بإمبراطورة فرانسا فاعظمت لقاءه وأجلت حضوره ثم توجه إلى بورت سعيد في الباخرة الحربية التي أعدتها الإمبراطورة لركوبه فاستقبله الأميرال الفرنساوي بالإعظام والاحترام ثم جرى الاحتفال بكمال الأبهة والزينة وجلس الأمير مع إمبراطور النمسا وإمبراطورة فرانسا وابني إمبراطور ألمانيا وملك ايتاليا وغيرهم من الأمراء واعيان العالم المشاهير تحت المظلة التي أعدت لجلوسهم ثم ان الأمير سار في الخليج في باخرته إلى السويس ثم عاد إلى بورت سعيد واجتمع بالإمبراطورة وشكر فعلها ثم ودعها واجتمع إليه رؤساء االكومبانية يقدمهم الرئيس الأول مسيو فردينان دولسيس وفاوضوه قي أمر ارض بوباح التي كانوا اهدوها له فاخبرهم بان إسماعيل باشا خديوي مصر غير موافق لهم على هذه المنحة وأطلعهم على ما كتبه إليه في ذلك فصمموا على تنفيذ أمرهم بأي وجه كان فأبان لهم انه لا يريد وقوع الشحناء بينهم وبين إسماعيل باشا بسببه ثم تبين ان إسماعيل باشا إنما قصد بمنعه هذا وإنكاره ان يستأثر بهذه الأرض دون غيره فلما اطلع الأمير على الحقيقية سمح فيها للكومبانية وسقط في يد المانع المنكر ونص كتاب إسماعيل باشا إلى الأمير في هذه القضيةجناب الأمير المحترم والملاذ المكرم الأمير عبد القادربعد إهداء السلام التام وكمال الاحترام اللائق بالمقام نبدي لجنابكم انه قد بلغنا تشريف حضرتكم وتوجهكم إلى ترعة السويس بقصد الاستيلاء على قطعة الأرض التي كنتم موعودين بها من طرف الكومبانية على ما قيل وبما انه لما كنتم مشرفين هذا الطرف وحصلت المقابلة مع جنابكم وأخبرتمونا بان الكومبانية ستعطيكم قطعة ارض وأنكم انتم ترغبون في التوطن هناك وفي ذلك لوقت جاوبنا حضرتكم مشافهة بان الكومبانية لا يمكنها تمليك شيء من تلك الأرض حيث انها إلى الآن لم تثبت لها حيازتها وأشرنا واومينا لجنابكم بألطف إشارة وأليق عبارة اننا لا نوافق على توطنكم هناك لما في ذلك من مختلفة الأفكار وبما ان عقب

اخبارنا لجنابكم بما ذكرناه كنا تحدثنا أيضاً مع جناب قنصل جنرال دولة فرنسا وبعدها جنابه اخبرنا رسمياً مشافهة ان ذات حشمة الإمبراطور لا يأذن في اقامتكم هنا مادام ذلك مخالفاً لرغبتنا وضداً لأفكار الأهالي والحكومة كما والحالة هذه أيضاً مضمون الحكم المحترم الإمبراطوري الصادر في حق مادة هذه الترعة لم يصرح بالترخيص للكومبانية انها تملك أرضاً من هناك لأحد ما ومن حيث ان توطن جنابكم بهذا الطرف لا تساعدنا عليه أفكار الأهالي والحكومة معاً كما ان حكم الإمبراطور المفخم لا يساعدكم على استملاك ارض هذا الطرف فمع غاية التأسف صرت مجبراً على أخطار جنابكم عن ذلك ونؤمل عدم المؤاخذة ودمتم ثم أرسل إليه آخر ونصهحضرة المحترم الأمير المبجل المكرم بعد السلام وكمال الاحترام اللائق بالمقام قد وصلنا عزيز مكتوبكم الذي أرسلتموه على يد حضرة الباشا باش معاوننا وبه عرفتم عن حضور حضرتكم لأجل استلام الأرض التي أعطتها الكومبانية لجنابكم إلى غاية ما ذكر فيه صار معلوماً والحال انه قبل وصول مكتوبكم هذا لما بلغنا تشريف حضرتكم إلى الإسكندرية والتعجيل بالتوجه إلى جهة القنال ثاني يوم تشريفكم لنجاز المقصود بوقته حررنا لحضرتكم مكاتبة واضحة عن الحقيقة وبها عرفنا جنابكم ان الكومبانية لم يكن لها اذن ولا صلاحية في ان تعطي أراضي ولا أملاكا في تلك الجهة لأحد كما هو مصرح عن ذلك بالحكم الصادر من ذات فخامة الإمبراطور المعظم المتعلق بمادة الأراضي الكائنة في تلك الجهة ولا يجوز لها في تمليك شيء منها لأحد ثم أفهمنا حضرتكم ان مقتضيات الأحوال لا تساعد على قبول توطن حضرتكم في هذه الجهات كما ان فخامة الإمبراطور ما أجاز توطنكم هنا مع عدم رضانا وقبولنا ومن تاريخ مكتوبكم يعلم ان وصول تحريرنا كان بعد تحريره ولابد انه علم لديكم منه ما يكفي عن الإطالة في الشرح والإطناب في الاعتذار بهذا الخصوص نظراً للضرورة ودمتم وقد ذكرناهما بنصهما ليعلم الواقف عليهما ما كان عليه هذا الإنسان من الشدة والبذخ وما ارتكبه فيهما من الصلف والعسف ومع هذا لما نكب وأبعد عن أوطانه وأعوانه كتب إلى الأمير يطلب منه ان يستأذن له من الدولة العلية في سكنى الأستانة عسى ان يتعطف عليه مولانا أمير المؤمنين الخليفة الأعظم ويدينه ويعفو عنه ويجتنبه ونص ما كتبه وهو في نابلي من بلاد اتاليا منفياً جناب فخر السلالة الهاشمية وفرع الشجرة النبوية حضرة السيد الأمجد سيدي الأمير عبد القادر الحمني دامت معاليه الا وهو السيد المعول عليه في المهمات والمستضاء بنبراس رأيه في دياجي الملمات أبقاه الله تعالى متسنما غوارب المجد متنسماً بنسائم المدح والحمد سعده مقتبل ومجده غير منتقل وما قيل ونقل في مدائح الكرام فهو بالقياس إلى قدره الجليل وان كثير يقل ولازال الخائف والضعيف مأمنا ولكل مشروف وشريف حصناً حصيناً وموئلا وعاش في عز وفي بهجة ◈ وصفو عيش سعده مقبل كتبت له أبقاه الله وحرسه وثبت قدمه في مقام المحبة وأسسه وأكد حبه في القلوب وغرسه وأرغم حاسدة ونحسه وحط قدره وبخسه وأبقاك الله مورياً زند الأمل وارداً صفو العيش نهلاً وعل لابساً من الثناء الجميل أبهى حلل لا يسأم مادحكم ولا يمل والناس كلهم لسان واحد ◈ يتلو الثناء عليك والدنيا فم

هذا وقد بعثت هذا الكتاب لينوب عني في الخطاب مضمون ما احتوى عليه وخلاصة ما انطوى عليه هو اني وعائلتي من مدة سنة ونصف في ضنك ونصب ننتظر من الله تعالى عز وجل الفرح والفرج ثم أرجو ان لا

تقطعوا عنا المراسلات والدعاء مع بذل الهمة لنا ولعائلتنا المسلمة في إنقاذنا من هذه البلاد وبرجوعنا إلى الأستانة العلية لنحظى بالإقامة بين أبناء جنسنا ونتمتع بالرفاهية في ظل سلطاننا أدامه الله تعالى وأبقاه ووفقنا جميعاً لما يرضاه آمين بجاه طه ويس والسلام التام في المبدأ والختام حرر في شهر صفر سنة ثمان وتسعين ومائتين وألففكتب إليه الأمير في موضوع هذه القضية فراجعه بما صورته . إلى مقام سيادة الأمير عبد القادر المعظم نحمد الله الذي به يستكشف الكرب ويضمحل بالاتجاه إليه كل خطب وبالصلاة والسلام على اشرف خليقته وافضل بريته تنجلي عن القلوب الهموم وتنفرج الغموم فعليه صلاة الله وسلامة الدائمان وعلى آله وصحبه ما توالى الملوان اما بعد فقد تشرفت بخطابكم السامي ولازلت أتشكر توجهاتكم الملية ومساعيكم السنية ثم قال . وها انا متوكل على الله ثم عليك في نجاز هذا الأمر ومفوض أمري إلى الله ثم إليك حرر في جمادي الأولى سنة ثمان وتسعينوكان شاهين باشا كنج بعث بعض الطلبة المجاورين في الأزهر إلى حضرة الأمير في هذا الخصوص وتكررت بينهما المراسلات والمكاتبات فيما جرى بينه وبين الأمير من المذاكرات فكتب إليه في بعضها ما نصه :والحاصل ان المهمة المطلوبة هي من حضرة السيد الأمير وحده فان افندينا مستند على حضرته دون خلافه والقصد والرجاء من حضرته هو إرسال عريضة من طرفه عن عجل إلى الأعتاب السلطانية لتكون مساعدة لعريضتنا التي قدمناها إليها والسلام ختام . . . ثم تب إلى الأمير قوله نبتهل إلى الله تعالى بالأدعية الصالحة الناطق بها كل لسان وجارحة متمسكين في المحبة بوثيق العرى مواظبين على الثناء الذي لا يزل منه الكون معتبراً للحضرة التي سمت بالفضائل ربوعها وزكا عناصرها فطابت أصولها وفروعها لا زالت كعبة للآمال فتقصد من كل فج عميق وحمى لسائر العفاة فيأتونها من كل مكان سحيق وإبدالها

السعد والمجد فتسعى الوفود إليها كسعي العرب إلى ربى نجد هذا ومما نعرضه على المسامع الكريمة ونهز به أريحية تلك الشمائل المستقيمة هو ان الداعي قد تشرف بورود أمركم الكريم السامي ولا يمكن ان اعبر عما حصل لي من الفرح والسرور وقد شكرت مولاي في الثانية والأولى وها أنا قد ذكرت تفصيل ما يلزم في مكتوب محسوبكم الشيخ فلان المقيم الآن عندكم ودمتم في عز سالمين آمنين بحرمة النبي الأمين حرر في صفر سنة ثمان وتسعين . واني اقدم بكل احترام مزيد سلامي إلى كل من سعادة الأنجال حفظهم الله وحرسهم . ذكر

بعض الرسائل والأجوبة منذ خرج الأمير من بلاد فرنسا إلى بلاد الإسلام كان يكتب الملوك فمن دونهم من الوزراء والأمراء لداعي تهنئة أو غرض لازم أو تشكر على إحسان حصل فتاتيه الأجوبة على حسب ما يكتبه وكذا كان الشان مع العلماء الامائل . والأدباء الأفاضل ولما كان استيعاب ذلك متعذراً . اقتصرنا على بعض منهُ ولا يخفى ان البلاغة هي الدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى وكما ان للعرب في ذلك اليد الطولى فان لغيرهم منه نصيباً ومن اطلع على رسائلهم وكتاباتهم وجدها على السنن العربي عارية عن الفساد والتكلف فيكتبون المراد على حسب الواقع لاول وهلة فوافقوا العرب في ذلك غير ان العرب لتوسعهم في لغاتهم وتجردهم في الفصاحة حازوا قصب السبق في مضمار الكتابة فتجدهم ينوعون الخطاب ويتفننون في أساليبه بما يسحر الألباب وكلا الفريقين ينزلون الألفاظ على قدر الكاتب والمكتوب إليه فلا يخاطبون الوضيع من الناس برفيع الكلام ولا رفيعهم بوضيعه إلى غير ذلك ومن المعلوم أن الأمير من مشاهير العالم وأعيانه والناس على اختلاف مللهم ونحلهم لهم به تعلق ومواصلة فلا يخلو يوم من كتاب واردٍ وجواب صادر فمن رسائله التلغرافية إلى الباب العالي في تهنئة عيدية .اسعد الله أيامكم بهذا العيد المبارك سعادة تستمر استمرار الزمان وتعم جميع الرعايا في ظل الأمن والامان .ومنها في عيد الجلوس .هنأ الله مولانا وايده بعيد الوارد عليه وتعادة كيف شاء إليه مقروناً بالعز والنصر والهناء وطول العمر .ومنها في تهنئة بمنصب الصدارة العظمى .هنأ الله بالمنصب العالي وقرنه باليمين والبركة اقتران الأيام بالليالي .ومن اجوبة الباب العالي التلغرافية عن التهاني بالعيد وبتوجيه الصدارة لمن وجهت إليه إلى حضرة الأمير عبد القادر بالشام .قد اخذت بكمال الممنونية تلغرافكم المتضمن التهنئة بالعيد السعيد ومقابلة لهذا جعلت التشكر وارداً بلسان المودة المخصوصة .ومنها في سبتمبر سنة سبع وثمانين .ان مزايا تلغرافكم في التبريك بتوجيه مسند الصدارة لعهدة داعيكم اوجبت محظوظيتي .ومنها في اكتوبر سنة ثمان وثمانين .قد تشرفت بتلغرافكم الحاوي التبريك بمأموريتي الجديدة فحصل لنا غاية المحظوظية والسرور نرجو أدعيتكم الخيرية .ومنها في افريل سنة تسع وثمانين .قد أخذت تلغرافكم العالي وعليه فانني اقدم الثناء والتشكر لهممكم الجليلة القائمة بايفاء رسم التهنئة .ومنها في دسمبر سنة اثنتين وتسعين .أخذت تلغرافكم العالي

فاستلزم كمال الممنونية وتشكراً لمعاليكم اكرر الدعاء بالزيارة في عمركم ودوام عافيتكم .وفي ذكر هذا القدر من أجوبة الباب العالي كفاية وعليه يقاس باقيها .ومما كتبه الأمير إلى حضرة شاه العجم في رسالة بعث بها إليه عندما أرسل إليه النيشان العالي من الرتبة الأولى وكان الساه وقتئذٍ زار المشهد الحسيني المعظم في كربلا ثم المشهد العلوي المغخم في الكوفة وآب إلى ملكة طهران . قد وافاني من حضرتكم السنية النيشان الأعلى من الرتبة الأولى ولولدي من الثالثة صحبكم وكيلكم المحترم في دمشق فجلت حنادس الهموم كما جلت نوازعه فوارس المفاخر في محفل مشهود في يوم معلوم جمعتم فيه لنا أنواع المبرة والكرامة وجعلتموه على رفعة مقامنا عندكم علامة فلا عقدن على علاكم من الثناء الجميل واجعلن دعائي الصالح لكم ورداً بكرة وأصيلاً إلى ان قال وقد حدثنا وكيلكم المشار إليه عما شاهدع من أحوال المحفل الأكبر الذي حشر الناس إليه حشراً وطابت إليه الآمال عرفاً ونشراً وشاع امره وذاع أمره وملاء خبر محاسنه وبدائعه الأسماع بأنبائه المسامع وتعطرت بذكره الأندية والمجامع فليهنكم الاياب والزيارة التي هي اعظم غنية واربح تجارة .ومن أجوبة وزير الشاه المذكور عن تلغراف وصله من الأمير . قد اطلعت على تلغرافكم العالي وقدمته لحضرة الشاه وشاهد منه ما اوجب ممنونيته أرجو ان لا تنسوني من صالح دعائكم . ولما آل أمر مصر إلى توفيق باشا في لوليو سنة تسع وثمانمائة وسبعين بعث إليه الأمير تلغرافاً يهنئه بذلك فأجابه اني اقدم تشكراتي عما تكرمتم به من التهنئه بمناسبة ارتقائي للسلطة الخديوية . ومن رسائل الأمير إلى لويس نابليون الثالث امبراطور فرنسا بعثها إليه من دمشق . منها ولو أعطيت نفسي مناها مسواغتها هواها لاوردت على حضراتكم في دور كل يوم جديد وافر الشكر وجددت لكم مع كل خاطر جميل وحسبي من ذلك ان اخباراً تواترت وانقالا تظاهرت باطياق سكان اليابسة على ذكر مزاياها الباهرة وبدائعكم الزاهرة ونشر نتائج عدلكم وافر فضلكم حتى لقد صار للناس فيما اجر يتموه معنا من الخوارق محافل تعقد ومشاهد تشهد ولم يزل ذلك مستمراص إلى الآن وبهذا الحال التي طاب مسمعها ولذ موقعها استفزنا فرط الارتياح وصدق الانشراح إلى بعث هذه الرسالة نهنيكم بالتوفيق الذي قسمه الله لكم في شأننا والتيسير الذي اظهره الله على يدكم لتسريحنا والاحسان إلينا وقد جرت عادة الأمير مع الإمبراطور المذكور من بعد خروجه إلى بلاد الإسلام ان يهنئه بدخول كل سنة كما يهنئه بعيد جلوسه على تخت الامبراطورية في امثال اليوم الذي تهيأ له فيه ذلك ولكثرة الرسائل ووفرة الاجابة في هذا الخصوص اقتصرنا نها على بعض اجوبة الإمبراطور حيث ان مؤدى الجميع واحد فمن اجوبته عن تهنئة سنة خمس وخمسين وثمانمائة . قد وصلني تلغرافكم مسفراً عن صادق المودة وموضحاً شدة ارتياحكم لتهنئتي بالسنة الجديدة فحصل لي بذلك سرور عظيم وبمثل هذه التهنئة اهنئكم واؤكد اني احبكم وارجو لك الخير وعن التهنئة بعيد الجلوس اطلعت على تلغرافكم وضجت الالسن فرحاً بعباراته وصادف منا غاية الارتياح والقبول وعن سنة ستين قرأت رسالتكم واهتززت سروراً بها لكونها جاءت نائبة بما امكن عن شخصكم الكريم لدينا وعن سنة إحدى وستين حين اطلاعي على رسالتكم في التبريك بالسنة الجديدة انشرح صدري وانبسط فكري وانبعث شكري وعن سنة اثنين وستين سرني تلغرافكم جداً صحتي جيدة دائماً اتذكر واتفكر في محاسنكم ومزاياكم وعن سنة ثلاث وستين تهنئتكم صار لها قلبي موقع عظيم جداً كما يقع في قلوب الاحباب بمثلها وعن سنة أربع وستين وردت علينا التهنئة من حضرتكم فتلقيناها بالقبول والسرور ودكذا في كل سنة وعيد جلوس إلى ان عرض للامبراطور ما عرض في حرب المانيا من الاسر ثم الموت بعد خلاصه منه في بلاد

الانكليز ولما شاع خبر موته بعث الأمير إلى زوجته اوجيني يعزيها فاجابته بما ملخص ترجمته : ان القادر كل شيء قد منحني تعزية وصبراً جميلاً في اثناء المصائب التي اصابتني والنوائب التي نابتني ونحن وان كان كثير من الناس تركنا فانه يوجد في العالم من يفتكر في شاننلمثلكم ثم ان اظهار ميلكم إلينا قد اثر فينا تاثيراً حسناً قلبياً فالله الذي ضربنا بايدي الشر اسأل منه القوة على الخضوع لارادته واني اتشكر من معروفكم باسم الإمبراطور واسم ابني فكن أيها الأمير واثقاً بمودتنا في كل الأحوال واستمر الأمير معها على ما كان عليه في أيام زوجها من المواصلة والمراسلة ومن اجوبتها عما يصلها منه من التهاني في الاعياد ودخول السنين ما كتبه في رابع فبراير سنة ثمان وسبعين ان أنواع التهاني التي ترد على وعلى ولدي من لدنكم تجعلني واياه في غاية السرور لأنها تبرهن لنا على انكم وان كانت الأحوال قد تغيرت علينا فان حسن عهدكم وجميل ذكركم الإمبراطور لم يطرأ عليه ضعف ولا نسيان وهذا مما ينبئنى ويدل على صفآء طويتكم وثبات قلبكم مع كثرة العوارض التي من شانها تعيير الأحوال بحيث انه لم يمسه ادنى انحطاط بل قاومها وانتصر عليها فاشكركم على ذلك وعلى جميع ما اشتمل عليه تحريركم . ومنها ان تجديد التهنئة لي ولولدي بحلول كل سنة لا محالة انه يجدد لنا سروراً لا مزيد عليه لان ذلك يؤكد لنا ان الحوادث وان كانت قد غيرت احوالنا وشان حظوظنا فانها لم تؤثر في مودتكم ولا انستكم إحسان الإمبراطور وهذا يدل على عظم نفس وثبات قلب ومن شانكم المعروف عنكم انكم دائماً تنتصرون على تقلبات الزمان وصروفه مع سلامة الطوية وصفائها فلذلك اشكركم واظهر عظيم اعتباري واحترامي لقدركم دائماً ومنها في رابع افريل سنة تسع وسبعين وثمانمائة ان البواعث الشريفة التي تحرك القلوب العظيمة لمعالي الإنسانية فبقدر ما تكون عزيزة تكون ثابتة وهذه لاالبواعث التي حركتكم للسؤال عنا ولتقديم الدعوات لنا ولولدنا قد وقعت منا موقعاً حسناً جداً ولذلك اقدم لاجلها بلساني ولسان ولدي أنواع التشكرات القلبية وولدي قد سافر مع الجنود الانكليزية إلى الرجاء الصالح ودون وصول تحريركم إليه صعوبات شتى وبناء على ذلك ابقيته عندي لاسلمه إليه عند رجوعه . ومن اجوبة ولدها البرنس امبريال المذكور ان التهاني الواردة علي وعلى والدتي من حضرتكم قد اثرت فينا تاثيراً حسناً لكونها اظهرت لنا ما انتم عليه من حفظ الوداد لوالدي والوفآء بحسن العهد واكدت لنا صدق ميلكم الحبي الذي نعتبره امراً عظيماً صادراً من رجل عظيم ظهر في العالم متصفاً بالبسالة في الحروب مستقيماً في سلوكه عادلاً في شؤنه اميناً في حاسياته ومن الأمور المؤكدة ان الباري تعالى جعل قلوب الرجال العظام مرايا تظهر فيها صور الكمال الإنساني فلذلك لا تضعف عرى المودة بينهم ولا تنقسم ثم اني اشكركم على عدم انحرافكم عن طريق تعلقكم السابق وانعطافكم لنحو والدي وارجو الباري سبحانه ان يحفظ وجودكم ثم ان هذا البرنس سافر مع عسكر الانكليز فقتل في بعض حروبهم مع الزولوس ولما اتصل خبره بالامير كتب إلى والدته بعزيها فيه فاجابتهم ان التاسف الذي اظهرتموه لفقد ولدي العزيز الذي قتل واسلحته في يده مقاوماً لاعدآء كثيرة قد وقع موقعاً عظيماً وتوجب علي ادآء التشكرات العظيمة لاشتراككم معي في هذه المصيبة التي اصابتني وفي احزاني العمومية راجية من الحق تعالى ان يحفظ وجودكم ولما اديلت الدولة الامبراطورية بالحكومة الجمهورية انتهز رجالها الفرصة في احكام عرى المواصلة مع الأمير خشية ان تذهب بذهاب الامبراطورية فبعث وزير خارجيتها إلى قنصلها بدمشق رسالة تلغرافية ونصها من الواجب على الأمير عبد القادر انه لا يشك في ميل الحكومة نحوه بل هي تعامله بالمجاملة وتامكارمة على ما كان عليه الأمر سابقاً وارجوكم ان تبلغوه ان المراتب

يتصل عطاؤه في اوقاته واستمرت المواصلة جارية بينهم وبين الأمير على هذا يكاتبهم ويكاتبونه في المواسم وغيرها وفي سنة سبع وسبعين وثمانمائة كتب المارشال مكماهون دوك ده ماجنتا رئيس الجمهورية إلى الأمير جواباً عن مكتوب منه إليه .أيها الأمير المعظم قد اخذت تحاريركم في اوقات مختلفة باعظم السرور ولا اقدر ان اتاخر عن افادتكم عما حصل لي من الاتياح لما شمبت عليه من أنواع التهاني ولما ابدتيموه من الميل لفرنسا هذا وان الصفات الحسنة التي ميزتكم عن جميع الناس نحن نعتبرها ونتوه بقدرها ولذلك لا احتياج إلى اقامة دليل على شدة ميلي لنحوكم وبناءً عليه فثقوا بمجبتي وخلوصي القلبي لنحوكم وفي سنة ثمان وسبعين كتب ما نصه . ان مبادرتكم لنقديم التهنئة بدخول السنة الجديدة والدعاء بنجاحي فيما اسعى فيه من الخير لعباد الله تعالى قد سرني واثر في تاثيراً حسناً جداً ولهذا لا أريد ان اتاخر عن اظهار مسرتي لكم بذلك وانني لسعيد بتمكني من هذه الفرصة التي اوضحت لكم فيها ما حصل لي من الانشراح ثم اني اتمنى لكم من قلبي ان الحق تعالى يصون حياتكم ويمنحكم الحظ الحسن والسعادة ولما تولى جول كريفه رئاسة الجمهورية خلفاً للمارشال مكماهون كتب إليه الأمير يهنئه فأجابه أيها الأمير المعظم ان حسن اعتقاد أبناء وطني دعاني لرئاسة الجمهورية الفرانساوية ولكونكم بادرتم بتقديم التهاني وانواع التبريك لشخصي بهذا المنصب الوطني لا أريد ان اتأخر عن تقديم التشكرات لكم على ذلك واعلم ان خلوص مودتكم قد اثر في كثيراً واوجب علي ان اوكد لكم صدق مودتي واعتباري لمقامكم السامي ولذلك أقول انني مستعد دائماً للسعي فيما يعود بالخبر العظيم على شخصكم الشريف وارجو من الله تعالى ان يحرسكم ويفيض نعمه عليكم وفي سنة اثنين وثمانين كتب إليه الأمير يهنئه بالعيد الاهلي في جوليو فأجابه أيها الأمير الكريم قد قابلنا التهاني التي قدمتموها لنا بالعيد الاهلي بمسرة عظيمة واهتمامكم بهذه الأمور يدل على خلوصكم للمشيخة الفرنساوية ولذلك نجعل لعبارات التبريك التي تقدمونها لنا اهمية ثم اننا نكرر لكم تاكيد اعتبارنا وصدق محبتنا وندعو لكم بدوام الصحة والسعادة وفي سنة ثمانين وثمانمائة عرض لملك ايتاليا فكتور عمانوئيل مرض شاع خبره ثم بعد مدة شاع انه عوفي منه فكتب إليه الأمير يستفسر عن احواله ويهنئه بالشفاء فأجابه ان ما انا عليه من شعائر الوداد والخلوص لكم يشهد لي به ضميركم الشريف وما لنا عندكم من المودة يشهد به تحريركم المحبوب ثم ايدتموه باظهار الاشقاق من مرضنا فاستوجب هذا ممنونية فائقة وتشكرات اكيدة قلبية كما استوجب ذلك تهنئتكم لي على الفوز بالحصة التامة فالباري تعالى يحفظ عالي وجودكم ويوفر سعودكم ولم تزل المواصلة جارية بينهما إلى ان توفي الملك المذكور ولما تولى مكانه ابنه ولي عهده الملك هميرت كتب إليه الأمير يعزيه ويهنئه بما نص ما تمس الحاجة إليه ولا يخفى ان الاقدار الالهية من شأنها انها تختلف بين مكروه ومحبوب ولتصرف بين مسلوب وموهوب وكثيراً ما اخذت بيد ثم ردته باخرى واحزنت بكرة ثم احدثت بالعشي سروراً وبشرى هذا وان حكم الله تعالى بموت عظيم ايتالبا وملكها والدكم وافضاءامر الملكا اليكم فد جمع بين ما يوجب الاسف والتعزية وما يوجب المسرة والتهنئة ولاشك ان الله تعالى اسى بكم حادث الكلم وسد بشخصكم العظيم عظيم الثلم ورد النفوس بعد انزعاجها إلى محالها والآمال إلى محط رحالها فلذلك ترى النفوس إلى التهنئة اميل منها إلى التعزية إذ الموت لا بد منه وسم لا محيد لكل مخلوق حي عنه فالله يصلح بكم البلاد ويوفقكم إلى سبيل الرشد والسداد ثم لا يخفى ان عيون العائلة الملوكية ترمقكم في هذه الحال لتسلك على سبيلكم وتأخذ بصبركم فيها وتحملكم فينبغي لكم استعمال الوسائط اللازمة في تهوين ما نزل بها

حتى لتفرغوا إلى القيام باعباء ما اسداء اليكم الباري من الملك العظيم ثم ارجو قبول ما اشتملت عليه هذه النميقة الودادية من التعزية والتهنئة . وكان الغراندوق بن قسطنطين شقيق الاسكندر الثاني امبراطور روسيا جاء إلى الأرض المقدسة ودخل دمشق واجتمع بالامير وعند سفره كان الأمير منحرف الصحة فلم يتفق لهما اجتماع لاداء سنة الوداع وبعد وصوله إلى بطرسبرج عاصمة ملكهم بعث تلغرافا للامير يخبره بوصوله فأجابه الأمير تلغرافياً سرني جداص وصولكم بالسلامة لمقركم . صحتي جيدة دائماً اذكر ما انتم عليه من الأخلاق الحسنة ان تحسن عندكم قدموا اسنى تحياتي إلى حضرة الإمبراطور واقبلوا تهنئتي بالسنة الجديدة وهي سنة اثنين وسبعين وثمانمائة . وفي فبراير منها جاء الجواب من الغراندوق ونصه الأمير أيها الأمير الماجد المعظم قد سررت كثيراً بتلاوة الرسالة التلغرافية التي اتحفتموني بها وجاءت شاهدة على دوام ذكري عندكم وكانت من احسن الوسائل لدي لتجديد انبساط قلبي بذكر اجتماعنا في دمشق وما كان من سياحتي في المشرق التي لا يتطرق إليها عندي نسيان وما كان لبعد المشقة ولا لطول الدة ان ينساني ما رأيت في ذلك القصر الكريم من اكرم النزل وحسن اللقاء ومن جملة ما بدا لي منكم ومن جميع أهل دمشق ثم ان من محاسن نميقتكم هذه اتحافي بحصولكم على كمال العافية والصحة فان لسلامتكم شأناً عظيماً لدي لما اعلمه من انبعاث الفضل والفضائل من افعالكم وآرائكم فاحياكم الله إلى امد بعيد وامدكم بفضله المديد وقد اجبت سؤلكم بعرضي عنكم لدى السدة القيصرية تحية الاحترام والاخلاص فارتاح جنابه الرفيع إلى ذلك بمسرة ثم تكرم بالثناء عليكم واذن لي ان ابلغكم السلام من لدن حضرته وان اعرفكم بأنه يحبكم وانه لا تزال تترنح اعطافه لشدة مسرته بحسن صفاتكم وحميد سيرتكم ولذلك تهني نفسي وافرح بالفرصة التي اتيحت لي لتبليغكم هذ التعطف من لدن مقامه القيصري وحيث اني اود ان ابث اليكم واظهر لديكم ما عندي من المودة فقد أرسلت اليكم داخل هذا الرقيم رسم صورتي لتكون تذكاراً لي عندكم فاقبارها واحفظوها علامة على بليغ ودادي وصدق ولائي ومني سلام مستمر على سموكم ولن ازال بملىء عواطفي اتمنى لكم كل خير وغبطة وكان الوزير السياسي غورتشاكوف الروسي جاء سائحاً إلى هذه البلاد ولما رجع إلى وطنه بعث إلى الأمير مكتوباًملخصه اعد نفسي سعيداً حيث اني رأيت شخصكم الممجد وسمعت خطابكم اللذيذ ولم يزل فكري يجول في رياض محاسنكم الفاخرة ويستنشق نسيم كريم اخلاقكم ولا ابرح على هذا مدة حياتي وانحراف مزاجكم الشريف هو الذي منعنا من وداعكم عند السفر واوجب لنا الاسف الشديد ةالان نحمد الله على اعتدال مزاجكم وكمال صحتكم وقد اتصل بالامبراطور ما انتم عليه من الميل إلى جانبه الرفيع وغدا بذلك ممنوناً متشكراً ارجو عدم ابراحي من الفكر الكريم . ومن اجوبته قوله أيها الأمير الاكرم ان مسيو مكايف قد سلم الي التحرير الذي كلفتموه بحمله الي من لدنكم واني اجل ما تحسن عندكم اظهاره من المودة ولا يخفي ان تمسكي العظيم بكم واحترامي لمقامكم نظراً لما اتصفتم به من الأخلاق الكريمة الخالصة الشرعية يقابل عظيم تلك المودة وشهادتكم له باظهار شعائر المحبة والخلوص لحضرتكم قد سرتني كثيراً وفي الحقيقة ان ما اجراه من ذلك هو مراد لعظمة الإمبراطور والذي اعلمه بوجه التأكيد ان خلفه يحذو حذوه وبذلك يكون قد قام بما لقتضيه ارادة ملكنا المعظم من الميل ولانعطاف لنحوكم كما انه يكون بذلك قد تمكن من استحلاب تعطفكم لنحوه أيها الأمير الفائق الاحترام تاكيد مودتي القلبية لسموكم واعتباري الفائق لمقامكم .ومن اجوبة سفير الدولة الانكليزية في الاستانة العلية السير هنري إلى مفخر الاماجد الكرام ذوي القدر والاحترام الأمير عبد القادر .غب اهدآء واجبات

الاكرام بمزيد الاحترام نبدي انه وصلني عزيز كتابكم واطلعت على ما فيه حرفياً وعلمنا انكم بذلتم غاية الهمة والغيرة في وقت الفتنة العظيمة في حق تبعة الدولة الانكليزية وهذا يدل على مودتكم لنا وهو أمر لا بد ان يكون في حقك عظيماً معتبراً ثم ان اقتضى لكم غرض من الاغراض في طرفنا اخبرونا به فانه يحصل علة وفق مرغوبكم وكان بين الأمير وبين الحكومة التونسية مراسلات ودادية ومواصلات حبية ولما انجز الوزير خير الدين باشا تاليف اقوم المسالك بعث إلى الأمير تسخة منه واصحبها بمكتوب فأجابه بما ملخصه وقد ورد علينا من حضرتكم كتاب سني يشتمل على خطاب لذيذ شهي فاستدعى شكري وحمدي واستخلص في صفآء المودة ما عندي عرفتمونا فيه من خبر سلامتكم مت نرجو له الدوام وندعو له بالحفظ من حوادث الأيام هذا وقد اطلعنا على اقوم المسالك فراينا فيه ما بهر العقول وادى الأفكار إلى الذهول من قضايا المعقول والمنقول فاتفقت القلوب على تفضياه واختلفت الالسنة في تمثيل اما نحن فقد تركنا التشبيه وقلنا ما له في فنه مثيل ولا شبيه قد ارانا من الرجال بقايا وفي خبايا كتاب تنفس الدهر به تنفس الروض في الاسحار وتبسم ثغور النور والازهار كتاب يزرى بتاج الأعيان وكانه مرآة انعكست فيه الرسوم اخبار الملوك وافاضل الزمان فاتخذته مرتع ناظري ومنتعش خاطري ولا يخفى انه لا بد لكل عصر من رجال يقومون باعبائه ويهيمون في اودية انبائه وبالجملة فقد ابنتم في هذا التاليف من كلامكم العالي المنيف ما يجب على كل عاقل ان يتخذه سميراً ويجعله على كل كلام اميراً فلقد ابتدرت أيها الوزير الخطير إلى احراز المعالي وسبقت وحزت قصب السبق في مضمارها وفزت فلله درك ودر ما به وما قربت من فنون المعارف وبعدت ثم انك حميت ذمار الشرع المحمدي وعضدته وقطعت عنه ضرر الملحدين وخضدته وذلك بما قررتموه من ان الشريعة المطهرة لائقة بكل زمان صالحة للحكم بها في كل اوان وذكرتم ان بعض من خالف الحكم المحمدي فتاخر نسيت جنايته إليه وما احتشم ولا تبصر ولم يعلم ذلك المخذول انه انما اتى من قبل مخالفته واصيب في عين بصيرته من جهة اساءته .

والشمس ان تخفى على ذي مقلة ◈ نصف النهار فذاك تحقيق العمى

نسأل الله العافية . ولما تكرم صاحب تونس بالنيشان من الرتبة الأولى عززه وزيره الاكبر مصطفى الشهير بخزينه دار بمكتوبي منه إلى الأمير فأجابه برسالة منها ان ما بيننا من الود متين عرى الحقائق فلا يحوله عن مركز ثبوته عائق قد لرتبطت في الله معاقدة واسست على المحبة لاجله قواعده ولقد اوليتم فاخلصكم وعرفتم حقوق الاخوة فايدتموها وباعبائها قمتم ثم تكرمتم بما يدل على ذلك دلالة الروض على الزهر والشاطىء على النهر وهو النيشان العالي الشان الذي تفضلت به الحضرة الصادقية ايدها الله على ولدي الاكبر السيد محمد ولكونه من الرتبة الأولى صار شكركم عندي من كل شكرا احق واولى نسأله تعالى ان يبقى تلك الذات السنية سامية الركاب عالية القباب بمنه تعالى وكرمه ومن رسالة اخرى إلى الوزير المذكور قد رفعتم للعدل راية وبلغتم من الكمال الغاية حتى احبكم البعيد والقريب ودان بودكم المتوطن والغريب ولم تزل السن المهاجرين بطرفكم تلهج بما لكم من الخصال الحميدة والمزايا العديدة وفي هذه الأيام وردت علينا رسائلهم تترى طالبين ان نحدث لكم من امرهم ذكراً فجعلنا هذه النميقة تذكرة حسنة لتعاملوهم بمقتضى معاليكم المعاملة الحسنة على نحو من احسانكم وألفوه من افضالكم وامتنانكم ولا يخفى ان ذلك من اسنى الاعمال الصالحة وابهى الناجحة وانتم ابقاكم الله بكل فضيلة احق والى كل منقبة فاخرة أسبق فكتب إليه في الجواب . قد بلغنا كتابكم الكريم مبشراً بنعمة عافيتكم التي هي مبتهج الامل ومبتهج الرغبة ونستوهب الله

تعالى على ذلك من الشكر ما يكافىء مزيد نعمائه ويوافي عظيم آلائه وما سنح لخاطركم الشريف من توكيد الوصية على من لهم تعلق بجانبكم من الهاجرين القاطنين بالمملكة التونسية فانهم لا يزالون بحمده تعالى في ظل نعم مولانا وسيدنا دام عزه وعلاه في امنه ورعايته مانوسين محروسين ثم المرجو ان تبقى صلة المودة بالمكاتبة موصولة لتزداد النفوس مسرة والعيون قرة . وفي سنة ثمان وثمانين جاء الوزير خير الدين باشا إلى الاستانة في امور تتعلق بحكومته خبره بالامير كتب إليه رسالة منها . ولما بلغ خبر مروركم إلى دار السعادة قلنا لعل الاقدار الالهية تجذبكم إلى هذه المواطن المباركة الطاهرة اتفوزوا بمشاهدة المشاهد النبوية الزاهرة وتتنسموا عرف انفاسها الزكية العاطرة ولتتمع بمشاهدتكم نواظرنا وتنشرح بطيب مذاكرتكم خواطرنا ونترقى في معرفتكم من العلم إلى العيان ومن مخاطبة القلم إلى مشافهة السان وح تتمكن النفوس من صقالها والعقول من حل عقالها والالسن من فصل مقالها فان ساعد القدر في حصول هذه الامنية وحظينا بمشاهدة ذاتكم البهية فيا حبذا والا فلله الأمر من قبل ومن بعد وله الحكم في القرب والبعد . فجاء الجواب الا انه غير مطابق من كل جهة الخطاب وهو قد اتصل بنا عزيز كتابكم المتضمن التعريف وارتياح نفسكم الشريفة التي من قرارة كل فضيلة وبكل مكرمة كفيلة فحمدنا الله تعالى على ذلك باللسان والجنان وعلى ما انعم به أيضاً علينا وارانا اياه في وجهتنا هذه المنتضمة في سلك مراحم الخلافة العثمانية ومرضاتها في تسهيل المصلحة العمومية الإسلامية وتمهيد اسبابها وتثبيت دعائمها التي خلدت الإسلام فخراً وادامت له من مكارمها ذخراً ونستودع الله شكراً يوافي ما انعمت به السلطنة خلد الله عزها من الأمور المرضية الشخصية التي كانت فوق الظن ونرجو دوام المودة إذ هي بين الاحبة مسئولة ولديهم مقبولة وما برحت منح الله تفاتح جنابكم وترتاح بكل مكرمة مثابكم بمنه تعالى وكرمه . وفي سنة أربع وتسعين بعث إليه الأمير هدية سنية من التحف الدمشقية وذلك أيام وزارته الكبرى كتاب فأجاب بما نصه المقام الذي لمعت في الخافقين كمالاته وسطعت فيهما آياته الإمام العارف انيس المعالي والمعارف جناب الأمير السيد عبد القادر الحسني لا زال العلاء سميرة وعين المجد به قريره اما بعد السلام الاتم ومزيد الثناء على ذلك المقام الافخم فقد تشرفت بعزيز كتابكم الوارد وكرعت في اصفى الموارد مشتملاً من الحسن بطراز متوشحا من الود بالحقيقة لا المجاز وقد وقع مني ما اتحفتموني به موقعاً عظيماً حتى انه لم يبق لزيادة الاستحسان موضع ولا من طرف الاعجاب مهيع رأيناها من اعظم النح وان رآها جنابكم لجلالته اقل من ان تمنح ولا سيما انها من بلدة مباركة ومن جناب سليل الاكارم فكيف ان تدع لأحد معه مشاركة فاكدت تذكاري مع شقة البين وان كان نصب العين نساله تعالى ان يجعلها وسيلة يستعان بها قضاء الاوطار المحمودة باعثة على نهج الطرقث التي هي بالتوفيق مدعمة وبالهدى معضودة واني وان اجهدت نفسي في شكر مودتكم وعائد صلتكم فما اوفي حقها اعارتني السماء مداداً وارجو من مكارمكم العديدة وشمائلكم الوحيدة وحسن الالتفات للمتسم بودكم بصالح الدعاء حتى ارى الاجابة تخرج من خلاله وارتوي من زلاله فان تعطشي لذلك مديد وشوقي إليه عتيد وكتب الأمير إلى رستم باشا أمير الأمراء يوصيه باولاد مقرات حين التجئوا إلى المملكة التونسية فأجابه بقبول وصيته والسعي في مراده وبغيته فكتب إليه الأمير ما نصه .اما بعد فقد ورد علينا كتابكم الاعز وخطابكم الالذ الا وجز مشتملاً على الفاظ فائقة وعان ومخبراً بما انتجته العناية السنية الصادقة بالفئة الملتجئة المقرانية من عميم احسانها وفيض امتنانها وانها انزلتهم فيما تخيروه من اوطانها ورغبوا فيه من اعطائها فنسأل الله ان يديم

رفعتها ويؤيد سطوتها ويبقيها للآبدين ملاذاً وللعائدين وعاذاً هذا ونحن نعلم ان ما ابرزته مراحمها وجاءت به مكارمها ما وقع واعاذكم من كل فتنة وضير وادام توقيفه اياكم لمثل هذه الاعمال السنية والمزايا البهية انه جواد كريم بر رحيم ولا نحتاج مع وفور فضلكم إلى تجديد الوصية بكافة المهاجرين وتكرار التذكرة بملاحظة الاولين منهم والآخرين والله تعالى يبقيكم ومن كل سوءٍ يقيكم فأجابه جناب الفذ العريق في الرياسة والسيادة الحقيق بارتداء ملابس الفخر والسعادة التي اربى عزيز جابه على سائر اقرانه واترابه وشكرت مساعيه الحسنة واتفقت على كمال وصفه الآراء والالسنة حضرة الأمير الجليل الابر سيدي عبد القادر ين محيي الدين لا زال وجه الأيام بسناء سعادته ساطعاً وضياء نورها بسيادته لامعاً اما بعد سلام يتمسك بذيل عرفه النسيم رورحمة يشملها سلام قولاً من رب رحيم فان كتاب جنابكم الاعلى وخطاب سيادتكم الاغلى ورد علي فكان اعظم وارد واكرم وافد وانشرح صدري عند تناوله وقبلته قبول ومبتهج اكراماً لمراسله وشكرت الله تعالى على تعطفكم علينا وحسن التفات سيادتكم إلينا واعظم ما سرنا به عافية حضرتكم الشريفة واخبارها السارة اللطيفة فالله تعالى يسمعنا عنكم دائماً ما يتعاظم به السرور وتزدهي به الخواطر وتنثلج الصدور والمرغوب من الجناب العالي الزاهر المتلالي ان تمدوني بصالح دعاكم والله سبحانه وتعالى يديم شموس سعادتكم مشرقة واغصان سيادتكم مورقة بمنه وطوله . ولما تولى حسين أمير الأمراء التونسي رئاسة مجلس الشورى سنة أربع وتسعين كتب إلى الأمير يخبره بذلك ويذكر اعتناءه بامور المهاجرين في تلك المملكة فأجابه الأمير لم تزل تلهج بكمالكم ونفوسهم تبتهج بحميد خصالكم فاجبناكم على السماع وتمنينا ان يحصل بيننا وبينكم اجتماع ثم لما ورد تحريركم علينا ثبتت في قلوبنا بالوسائل المؤكدة على ما يقتضيه حديث الارواح جنود مجندة ثم انا نقدم لحضرتكم أنواع التهاني بالمقام الذي ترقيتم إليه والمنصب الذي دار فلك فحركم عليه وفي الحقيقة التهنئة للمنصب حيث انه بجمالكم تجمل وبكمالكم تكمل لكن جرينا على الظاهر المعروف وسلكنا في ذلكالسبيل المألوف ونساله تعالى ان يديم ترقيكم ويوفقكم لما يرقيكم آمين .وفي سنة خمس وتسعين كتب إلى الأمير في عناية باحد أصحابه ما نصه .ادام الله تعالى عز الكهف الهمام مجمع الكمالات المتفرقة في الأنام ذي المآثر المسطرة على جبين الدهر والحائز في مضمار الشرفين غاية المجد والفخر سيدنا وملاذا الوحيد سيدي عبد القادر لا زالت الافئدة لتظافر على وده والاندية تارج بشذا مجده اما بعد اهداء تحية يرنح قبولها الاريحية فان توفر حظ العبد من مودة السيادة يسع مقترحي وهو ان حامل الكتاب فلان عن له ان يزور مواطن الشام وربما يبلغ في سياحته بغداد دار السلام فأمل من عبدكم وشيعي ودكم ان يصحبه بمكتوب إلى اعتابكم السامية ليتشرف برؤيتكم وعليه فالمرجو ان توصوا به سائر العرب الذين يكون وداده ولا زال حماكم المحمى مراح المعاني ومطمح نظر القاصي والداني آمين وكتب إليه أيضاً في عناية اخرى ما نصه .تستقبل هاته الصحيفة محراب جامع اشتات الكمال والشيم الشريفة جناب رئيس المهتدين وقاهر المعتدين مولاي عبد القادر ابن المولى محيي الدين حرس الله كماله وانجح بسديد رأيه آماله اما بعد تحية ترنح قبول عذبات الاريحية فالداعي إلى تسطيره بعد التشرف صور هذه الكلمات في مزايا افكاركم ان المحترم الانجب محبنا فلان حامل هذا المكتوب لسيادتكم العلية بالله قد أقام عندنا نائباً عن قنصل ايتاليا بثغر حلق الواد المحروسة تونس مدة سنتين والان امرته دولته بالانتقال لقنصلية دمشق الشام المحروسة فلعلم السنيور المشار إليه بنشيغي بالمودة إلى جنابكم رغب بان اصحبه بتجويز لسنى حضرتكم حتى يتشرف بمعرفة ذاتكم الشريفة

فوافقه العبد على رغبته وهو في نفس الأمر من اظرف واكيس بنى الجنس حتى انه لم يفارق بلادنا الا وكل من عرفه يتمنى عوده إليها وارجو انكم حفظكم الله تجدون من نعرفه بجنابكم غوق ما وصفناه به من محاسن حماكم مناخ الاكياس وملاذ سراة الناس ودمتم في امن الله والسلام من شيعي ودكم وعبد كمالكم حسين .ولم تولى أمير الأمراء محمد المعروف بالبكوش وزارة الخارجية بتونس كتب إليه الأمير يهنئه بها فأجابه بما نصه .الجناب السامي فحارة الواضح افتخاره المشرق مناره الحميد في المكارم ايراده واصداره نخبة الأعيان أهل المعرفة والشان سيدي الأمير عبد القادر الحسني لا زال بكل فضيلة سني اما بعد ادآء ما يجب لعزيز جنابكم من التعظيم والتكريم فقد بلغني كتاب سيادتكم متضمناً الافارة عن نعمة عافيتكم لا زالت ضافية الاذيال بادية الاجلال ومعرفا بمسرة جنابكم بولايتنا وزارة الأمور الخارجية فتشكرنا مكارم اخلاقكم الجليلة التي هي محل الشكر وقرارة الفخر ونسأل الله عوضاً على مرضاة سيدنا ادام الله عزه وعلاه كما اننا نسأله تعالى ان يديم حفظ ذلك الجناب على ممر الاحقاب بمنه تعالى وكرمه آمين . ومنه إليه بتاريخ سابع رجب سنة خمس وتسعين ما نصه : الجناب الذي ضربت عليه العلياءُ قبابها ورفعت له المسرة نقابها وامتدت به شجرة المجد اغصانا وكانت الالسنة على الثناء عليه اعواناً معجز الاقلام عن تعداد محاسنه والالسن عن عد إحسانه المفرد العلم وحيد الشمائل والشيم الأمير السيد عبد القادر لا زالت الاسماع لمآثره واعية واجياد الزمان بفضائله حالية والكمال من رياض معاليه يرتاد والانس بوجوده على الدوام يزداد اما بعد اهداء تحية يطير بها الشوق إلى ذلك الناد وليس له إلا ايد الحب الحاد . فقد بلغ السرور بكتابكم العزيز المنتهى حتى كدت اصير به مغرماً ولها جاء مبشراً بما عمتكم من النعيم الكافي والفضل الوافي ومقرراً لما عليه جلالتكم لنا من الود الفائق والاعتناء الرائق فحمدنا الله على ذلك وشكرنا فضلكم لما هنالك والمطلوب من حضرتكم اللطيفة الشمائل النتجيحة الوسائل حسن الالتفات للعبد بصالح ادعيتكم التي هي للاجابة اسرع من هطل سحابة والله يمد سيادتكم من خزائن فضله ما انتم من أهله آمين .ولما تولى مصطفى بن إسماعيل النونسي الوزارة الكبرى كتب إليه الأمير يهنئه . فأجابه بقوله :المقام الذي ما زال الهدى يؤيده والجود الالهي يسدده من حاكاه البدر في هالاته وعجزت الاقلام عن تعداد كمالاته جناب الهمام النحرير والاكسير الرباني سبدي عبدالقادر بن محي الدين الحسيني لازال للاعين قره وفي جبين الزمان غره اما بعد اتم السلام إلى ذلك المقام والثنآء يملىء اللسان على خصائلكم الحسان فقد اتصلت يدي باعز كتاب جنابكم وتيمنت باعز خطابكم وعملت ماعليه احتوى من التهنئة بولايتي الوزارة الكبرى والمسؤل من ربنا سبحانه ان يتفضل علي بالاعانة في القيام باعبائها واستنتاج نتائجها حتى يكون السعي سديداً والرأى بفضله رشيداً وقد تضمن كتابكم الكريم انه كان عرض لجنابكم مرض اوجب تاخير كتاب التهنئة فنحمده تعالى على شفائكم ونضرع إليه في دوام عافيتكم وارجو من جنابكم ان اكون ممن يشمله دعاكم ولا ينساه علاكم ما برح لمجد بجنابكم مصونا واليمن بوجودكم مقروناً .'وكتب الأمير' في سنة إحدى وتسعين إلى أمير مكة وشريفها الشريف عبد الله باشا يعزيه في بعض اقاربه فأجابه برسالة نصها . غب اهداء جزيل سلام اطيب من عرف النسيم واعذب من رحيق مختوم ختامه مسك ومزاجه من تنسيم وازكى تحيات تتبسم بالمحبة ثغور سطورها وترقم بصدق الاخلاص احرف منشورها إلى حضرة فريد الذات والصفات حميد الخصال والسمات قدوة الافاضل والاكابر وعمدة ذوي المعالي والمفاخر الاجل الاكمل السيد علدالقادر الحسيني وبعد فاتا لم نزل نتطلب ورود الاخبار المسرة عنكم بما يطمئن به الخاطر

عليكم وفي اشرف الساعات ورد علينا مكتوبكم الشريف المشتمل على الخطاب اللطيف المتضمن التعزية فيما جرى به القضاء المبرم والقدر المحتم بوفاة من تغمده الله بالرحمة والرضوان واسكنه فسيح الجنان ولقد احسنتم فيما بلغتم من حسن العزاء ولازلتم موفقين لتسلية المحبين المخلصين فالله تعالى يجعلنا ممن يتلقى قضاه برضاه وافدتم انه بلغكم ما حصل لنا من التاثر فله مزيد الحمد قد تفضل المولى سبحانه باللطف فيما قدر ودمتم سالمين في حفظ الملك المعين ولما توفي الشريف عبد الله المذكور وتولى مكانه شقيقه الشريف حسين باشا كتب إليه الأمير يعزيه ويهنئه فأجابه بما نصه غب اهداء اصفى تحيات وافرة واوفى تسليمات عاطرة يفوح نشرها العبيق من سوح الكعبة الغراء والبيت العتيق إلى جناب صاحب الأخلاق الحميدة ومحاسن الاوصاف الرشيدة قدوة الافاضل وعمدة ذوي الفضائل الاجل الاكرم السيد عبد القادرالحسيني زيد فضله ويعد فبينما محم في البخث عن صحة ذاتكم والسؤال عن كمال صفاتكم إذ ورد اليتا كتابكم المسفر صبح مضمونه عن صدق اخلاص وموضح عن اكيد مودة ليس لزائدها انتقاص متضمناً التهنئة بما من الله سبحانه به غلينا من اكرام السلطنة السنية بتوجيه الامارة إلى عهدتنا فلله مزيد الحمد على ما انعم وله كمال الشكر على ما تكرم ونسأله سبحانه وتعالى النوفيق والاسعاد والهديه إلى سبيل الرشاد انه سبحانه جدير بالسؤال وقدير على تبليغ الآمال وقد سرنا منكم وشكرنا صنيع همتكم لاسيما ما تضمنه من الادعية الخيرية المرجوة القبول لصدورها عن المحبة الصادقة القلبية ودمتم سالمين على الدوام والسلام .ومن رسائل الفاضل السيد عبد الرزاق مفتي الاذقية إلى الأمير قولهالحضرة التي نستجلب رضاها ونستجلي ضياها حضرة المكارم التي لاح سناها وعطر الآفاق طيب رياها والدوحة التي تستظل الأنام بظليل حماها والروضة الغناء التي تفتحت ازاهر رباها وجرت جداول فيضها ونداها لا زال شامخا في رتب للمعالي بناها ولا برح الكون مبتهجاً بحلاها آمين يعرض الداعي الذي لا يزال في مركز انتسابه ولا يتحول عن خصوصيته في ابتعاده واقترانه انه قد لقدم قبلا من الداعي عريضة لم يرد عنها جواب يشفي جوى حشاشة غدت للبعاد مريضة مع ان الداعي على ما كان عليه لا يحضر بمحفل في افاضل الناس ولا يجلس مع مذاكر ومساجل الا ويملأ الاسماع من جريان هاتيك المعاني المروقة في اواني المباني ويبرز من كواكب تلك المناقب ما يملأ ضوؤه ما بين المشارق والمغارب ويملي من مصابيح خلائقك الساطعة الانوار ما هو ازكى من عبير العنبر المعطار فله في كل ديوان لسان شاكر لاحسانك وفي كل لسان ديوان ذاكر لامتنانك يتلو من آيات عرفانك وبينات مجدك وفضلك ما يقرط بدوره المسامع وتاخذ فرانده من القلوب المجامع فما من ناد الا وعطره بنفحات شذى اخلاقات النديه ولا من واد الا وانعمة برشحات ندى راحتك النديه ادام الله عماد المجد قائماً بوجودك دليل هذا الدهر مشرقاً ببدر سعودك آمين .ومن رسائله أيضاً قوله .إلى مقام مكارم الأخلاق والشيم والمآثر العالية القيم مقام المعارف الربانية ومورد الحقائق العرفانية مقام حل لرموز ومفتاح الكنوز والسر المطلسم المرموز والمنح التي لا يحل انكارها ولا يجوز مقام الوراثة المحمدية والمواهب الصمدية والفيوضات اللدنية والعنايات الربانية مقام علامة الآفاق ومن فضل أهل عصره وفاق كيف لا وهو ابن سيد العالمين على الاطلاق والنور الذي كسا الاكوان حلة الاشراق مقام ناصر الملة والدين وقرة عين الموحدين من قام في تاييد كلمة الإسلام بما عم ذكره وعبق في آفاق البرية نشره بباس يطير شره وادراك تتبلج غرره وذهن يكشف الغوامض ويسبق البارق الوامض وطعن بالصارم الفاتك والسنان الباتك حتى قهر الاكاسرة بأساً وعزماً وحير القياصرة شاناً

وحزماً مع شكيمة ونفاذ عزيمة واياد حكمت الديمة واخلاق مستقيمة وخصال قويمة ومشاهد رواياتها عميمة بانواع الثناء عند ملوك الدنيا موصوفة موسومة ذو الورد الاصفى والمورد الاهنى اقر الله بطول بقائه عيون الأمة وكفاه بفضله كل ملمة ومهمة آمين والذي يعرضه المحسوب بلسان الخجل وهو بمقتضى التصرفات الالهية في اضطراب ووجل انني من محبتكم في مكان فيه لا اشارك يعلمه اله تعالى وتبارك والمحبة هي النسب الاقوى الملحقة بالسابقين ولو مع القصور في التقوى فارجو دوم قبولي وملاحظتي بعين العناية وشمولي فانني ممن لا ينفك عن عهده ولا يخرج من دائرة حبه ووده ومثل عرفنكم لا يقدم لديه الزيف حمى الله شمائلكم من كل سوء وحيف وبلغنا من معاليكم الآمال وافر منكم العين بسادتنا الاشبال بحرمة جدك الأعظم والآل صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ما لمع سراب وآل والسلام عليكم ورحمة الله مبركاته . ومن رسائله العجيبة إلى الأمير رسالة ادمج فيها اسماء السور القرآنية وهي قوله اوشح عريضتي برفع البنان والضراعة لمن انزل البقرة واصطفى آل عمران ببقاء انسان عين الإنسان وتآية الكبرى التي زين الله بها الزمان المولى الذي جاءت به ام المعالي بدراً في سائه وآلت ان لاتلد النساء بعده مثيلاً له في علائه والغوث الذي من حل ياحة نعمائه فاز بمائدة انعام ةآلائه واحتسى من حياض اعراف نعمه انفال طوله وكرمه حتى لزم التوبة بأنه لا يرد بهي شيمة وان يشد ركاب العزم لغير رفيع حرمه وسعد من الطافه بما يؤنس الافئدة المرتاعة وينسى خلال الاكارم من عهد هود إلى قيام الساعة ورأى ان مواهب ما سواه هي ما كان لاخوة يوسف من البضاعة وان انتمى لغير رفيع اضاعه كيف لا ومن سماء علاه سبح رعد الجنان لكل من امه من ذوي تاعثرات ببلوغ الامان واحرقت صواعق بأسه شياطين الطغيان ذو المهجة التي منحت عطف إبراهيم وبأس موسى ابن عمران ولاحت لها رقبة خدر المعارف من حجر العوارف فاقبلت عليها وفود الحقائق كالنحل بكل تليد وطارف وفازت مذ اسرى بها إلى كهف الاسرار باشهى ما هزت مريم بجناه الجزع من اللطائف الا وهو سلالة سيد المرسلين طه سراج الانبياء الذي فرض الحج وبه افلح المؤمنون النور المتقلب في اشرف افلاك الاصلاب واطهر رياض البطون المؤيد بالفرقان الذي اعجز الشعراء عن ان ياتوا بآية من مثله وغدوا بكماً فهم لا ينطقون فاقبل الناس كفواج النمل في دين الله يدخلون حتى دهشت لقصص آثاره افئدة ملوك الأرض وغدا سلطانهم اوهن من بيت العنكبوت وامتد ملكه حتى بلغ الروم والهند والصين وثيت أي ثبوت صلى الله عليه وعلى آله وصحبه المستكملين النعوت وامد الله بروحانية المحمدية درة صدفة آله المولى عبد القادر بن محيي الدين من احيي بحكمة لقمان شريعة قفبلرلا54جده سيد المرسلين ونصر دين الله في قطر تسمي به الأمير المجاهدين احزاب الدين هذا وان يبا بلقيس السامعة طالما تليت عليها آيات تلك الصفات التي من بها فاطر الارضين والسموات وما هي الا كيس في صافات رياضها وكم مشوق صاد لورد حياضها وزمر متوجهة لغافر الذنب بحفظ تلك المآثر والسجايا التي تضيق عنها إذا نقلت بطون الدفاتر مآثر من انتخبته شورى المعالي لذين الله عماداً فوهى زخرف الباطل مذ عضد الحق اسعاداً وتلاشى دخان الجهالة برياح الحق من تلقاء مدين عرفانه وغدت فرق الظلال جاثيةً في احقاف التذلل آبية من الزمان بخذلانه امده الله بروحانية جده سيد المرسلين المؤيد من ربه في القتال في الفتح المبين . آمين آمين لا ارضى بواحدة حتى اضم إليها الف آمينا ◈

ولم يزل الداعي مترقباً فرصة النتساب ودخول حجرات المديح من الباب وهو وان يكن في قصور عن حصر تلك الاوصاف السامية شاناً على قاف فقد قيد نفسه

بوظيفة مدح سيادتكم مدة المحيا ألى الممات بل وتثنى اعظمه برمسها وان ذرتها الذاريات ادام الله طور عزكم الخطير يزهو بزاهر نجمه على القمر المنير مشمولين بالطاف الرحمن في كل واقعة يذوب لها الحديد تذيبون الضد في المجادلة بحشر الامتحان والتشريد ودام وصف مجدكم محفوظاً من الاضاعة بحرمة من خص بالجمعة والجماعة على انك أيها المولى حفظ من المنافقين وتغابنهم قدرك الفخيم ولا برحت نعم اعدائك عنهم في طلاق وتحريم قد فقت بالشيم الحميدة السابقين واللاحقين وفضلت بالهمم المقاربين والمعاصرة فتبارك من خصك بمزايا لا يحصرها القلم وجعلك إذا حقت الحافة في معارج الفضائل كنار على علم فمكارمك الهامية تورى بطوفان نوح والكمالات جسم وأنت لها روح وكم لك من ثناء يطرب الانس والجن نثره وكم من مزمل مدثر برفدك يبت مديحاً زكا نشره فمآثره البهية عطرات عراق الكون وشامه ان مراسلات احسانكم شاملة للقاصدين وسحائب نوالكم عمت العفاة والواردين استمنح هذا الرقيق فك اسره من نازعات الهموم وكف تصره في زمن عبس وجهه المذموم واستجدى عناية بها تكوير الاسا وانفطار ليل كذر جنحه عسعسا على ان بضاعة الادب في غير اعتابكم كيلت بمكيال المطففين فاوجب انشقاق بروج حصنها المتين طارق الجهل المكين وقد حططنا الرحال بالرحاب الاعلى مستمدين كشف غاشية الكدر بفجركم الاجلى لنحل المراد في البلد الأمين وتزيل عنا شمس مكارمكم ليل الاسا بضحاها فيشرح الصدر ويقسم بالتين والزيتون وبمن صور العلق في الارحام والبطون ان نفحة رضاكم ليلة القدر تزيل بعنايتها القيمة زلزلة عاديات الاحزان والاصر وتهزم قارعة تكاثر الاوهام فيطوي عصر الاسر غم عداة همزة طغام نسأله تعالى ان يجعل كيد حاسديهم في تضليل ويديم لعشيرتك قريش ظلك الظليل ويبقى حماكم موئلاً للقاصدين ويذل بسطوتكم من يكذب بالدين ويغدق كوثر نداكم الذي اثرى به الصادرون والواردون ويرفع للملة شلناً تذل له الكافرون والمعاندون فلا يرون نصراً وتبت ايديهم فهم خاسرون وان يكلائكم باسمه لأحد الصمد ويحفظ سيادتكم من شر حاسد إذا حسد ويقيكم شر الوسواس الخناس ويديم بكم للبرية السرور والايناس . يا رعى الله للاحبة عهدا ◈ حيث منت بوصلها العذب سعدى

لا ادرنا كاس الصفا فيه دهراً ◈ ولبسنا من المسرة بردا
عهد انس قد فاح عرف شذاه ◈ في رياض السرور آساً ووردا
هل إلى عودة سبيل لمضنى ◈ كاد يقضي من الصبابة وجدا
جيرة الحي منوا بحسن التلاقي ◈ وامنحوني من التواصل رفدا
وارحموا مغرما حليف سقام ◈ يشتكي لوعة اليكم وسهدا
في هواكم عن كل عذب قراح ◈ طالما استعذب المدامع وردا
اي شجو عاينت بعد نواكم ◈ فيه ضيعت من جناني رشدا
وزماني بسهم خطب رماني ◈ ودعاني بعد السيادة عبدا
ودهاني بنائبات توالت ◈ قدحت بالاسى قلبي زندا
ورحى الكرب حين دارت بجسمي ◈ طحنت بالخطوب عظما وجلدا
ليس لي من يحيرني من عنائي ◈ غير مولى غدا بعلياه فردا
ملجاء القاصدين من بتراه ◈ كحلت اعين من النوائب رمدا
هو عبد القادر من تسامى ◈ رتباً اوجبت لعلياه حمدا
بهجة الكون مستقر المزايا ◈ مظهر اللطف عز شاناً ومجداً

يلتقى الضد في الوغى بصفاح ◈ ويلاقي الورى بوجه تندى
فرع فضل من حيز اصل كريم ◈ قد تسامى ابا كريما وجداً
كيف لا وهو من سلالة طه ◈ درة زينت من المجد عقدا
بعلا باذخ وفخر صميم ◈ وخلال حكت عبيراً وندا
واحاديث في المعالى حسان ◈ تمنح السمع نشأة حين تبدا
للذي للجدى يروح ويغدو ◈ يا بروحي له روحاً ومفدا
عاقدا صفقة العلا كل حين ◈ فائزا ناجحاً مراما وقصدا
ملكي السمات بر وفي ◈ لم يشم ناظر لعلياه ندا
احرز العز في اللمات سيفاً ◈ وحوى الحزم في المهمات عمدا
انقذ الدين في الجزائر دهراً ◈ بعد ان كاد فيه ان يتردا
وغدا الحق ساطعاً بذراه ◈ ثابتا بالرفاء رسماًض وحدا
يا همام ان جاد اخجل غيثاً ◈ وهربر ان جال ارهب اسدا
ان احسن الارآء منك اعادت ◈ نار شر الطغام في الشام بردا
وسما قدرك الرفيع بصنع ◈ قد حبا في الأنام ذكرك خلدا
دمت للدين ملجاء وعمادا ◈ مبهجاً ذكركم عراقا ونجدا
ما بمدح الجناب قال محب ◈ يا رعى الله للاحبة عهدا

ومن رسائل صاحب الفضيلة السيد ابى الهدى الصيادي نقيب اشراف حلب رسالة بعثها إلى الأمير في صفر سنة ست وتسعين وهي قوله .الحمد لله رافع منار أهل البيت المحمدي على دعائم التقوى واشراف الأخلاق ومطلع كواكب سعودهم في سموات المعالي باسنى المواقع واجمل الأشواق والصلاة والسلام على على جدهم باب الله الأعظم ووسياة الخلق على الاطلاق ورضي الله تعالى عن أصحابه نجوم الاقتداء الداخلين بقيود شريعته إلى حضرة الاطلاق ورحمة الله وبركاته على سادتنا أهل بيته وذريته المفتخرين باتباعه والمبشرين بسر الالحاق اما بعد فهذا رقيم من خويدهم الفقراء محمد أبي الهدى إلى السيد الجليل ذي الشرف النبيل والمجد الاثيل والحسب الاصيل عنقاء مغرب الغرب وصبح مشرق الشرق صاحب الفتوحات الباطنة ورب المنن المحمدية المتواضع لله والتمسك ببسنة جده سيد انبياء الله مولاي وسيدي السيد عبد القادر الحسني متعني الله والمسلمين بدوام بقائه واعزنا الله بتاييده الحفي وحسن ارتقائه أمين مولاي حياكم الله وحياكم ولا اعدمنا مجد علياكم ولا حضرنا قط في مجلس مستحسن الا ذكرناكم دائماً نستأنس بسماع منافبكم الجليلة وبذكر مناهج سيادتكم الجميلة ولا برحنا نترقب جعل الوسيلة والذريعة لاكتساب توجهاتكم الشريفة الرفيعة وإذا بالنعمة المامولة وردت بلا وسائل وقال لسان الحال هكذا عطف الاماجد على المساكين بغتة والرقيب غافل وقد خفق جناح النجاح ولمع باذن الله بارق الفلاح ولاح ظهر من مطوي الودائع الغيبية منشور عنايتكم الباطنة الحسنية وقد قيل . ان حياة الفؤاد ◈ وصال المحب على الغفلة

وتلوته إذ اخذته متعجباً من حسن توجهاتكم علي بلا استحقاق مني معنقداً ان مثلكم يرعي مثلي وزللي لا يلويكم عني . اخلصت فيك سرائري ◈ والمخلصون على خطر

وصبرت لكن صح ان ◈ الصبر عقباء الظفر

فنظركم في الداعي المسكين منعكس من مرأة قلبكم الطاهر وكذا شأن العارفين فارجوكم ان تلاحظوني برقائق رابطنكم في خلواتكم السعيدة وان تمدوني بمددكم العالى حالة جلوتكم في شطحات موافقكم الحميدة جعلكم الله سلماً للوصال ومحجة إلى بلوغ الامآل ولا ريب انتم معادن الكمال والى الشرف جرثومة وآل .

رجال إذا الدنيا دجت اشرقت بهم ◈ وان امحلت يوماً بهم ينزل القطر

وان وطئوا قفراً زهت بربيعها ◈ واخضر واديها كما اعشوشب القفر

ايد الله بثبات قدامكم شوكة الشريعة الطاهرة وجعلكم المولى منهجاً لوصلة الخالصة في المسالك الباطنة والظاهرة والصلاة والسلام على ملجاء الأنام وباب السلام والحمد لله مسك ختام المبدأ والختام وله إليه في عناية باحد اقاربه بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على العلة الغائية ضئضىء الفروع الكونية حبيب الله ورسوله وعلى آله القياء اولياء الله وأصحابه نجوم الارشاد لخلق الله اما بعد فالدعاءُ الوافر والغرام والشوق المتكاثر والهدية القلبية الناشطة من الحيطة السرية تعرض وتهدى إلى المولى السيد الشريف والحسيب النسيب المبارك المنيف عمدة اعيان السادة وقدوه اماجد ارباب الشرف والفضل والسيادة الأمير الحسني الاصيل الطاهر مولانا السيد الجليل عبد القادر اعز الله جحفل الحقيقة بارشاده وايد عنصر الطريقة بقوة استعداده آمين اعرض ان مرسومكم الأول الجوابي ومرسومكم الثاني الخطابي وصلا لهذا العويجز المشوق المعول في صدق الاخلاص وحسن الرابطة المعروفة عليكم وني والله لمكتف بقول من قال فاجاد رابطة الفائدة رابطة الفوائد .

تطير بنا القلوب إلى بلادٍ ◈ فتشهد ما توقع في البلاد

وافئدة الرجال لها عيونٌ ◈ وريش والعجائب في الفؤاد

وان قلبكم الكريم يشهد بما انا عليه لسيادتكم من الشوق العظيم والدعاء الخالص ان شاء الله النقي السليم فارجو ان تمنوا علي وان قصرت بدوام المراسلات اكراماً لقارىء المراسلات وان تتفضلوا علي بالدعوات الخيرية والفحات الهاسمية وان تشملوا ابن العم حاملها السيد محمد أفندي الكيالي بنظركم الاكسيري العالي فهو من مشاهير السادة ولمثله على مثلكم من موائد العطف والحنان عادة اسبغ الله نعمة عليكم وواصل بفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مدد محمدي اليكم آمين والحمد لله رب العالمين .ومن رسائل الشيخ محمد الدرابزلي المعروف بالشيخ المنتظر قوله .الحمد لمن اخرج احرف الكلم من نور الجمع الذاتي الاقدم بالفيض الاقدس الاقوم وفتق من الرتق الاحدي ولجمع العمائي الابهم صور الأعيان المعدومة في العلم بنفسه الرحماني المفدس الاحكم فظهر انتظار صور كلمات الحقائق العلمية وصور تعينات الالهية بحروف الأعيان الثابتة في العدم احمده حمداً يكشف لي به عن حقيقة ذاتي وعن استعدادي وعن أي اسم كنت بحلى له فاتحقق بحققة حقي واعرف نفسي فاعرف ربي وصلى الله على النور الأعظم المسمى بالنون والقلم سيدنا محمد من أوتي جوامع الكلم ومنهو نقطة حروف الوجود واحدى كلمات الرسل هداة الامم صلى الله عليه وعليهم اما بعد فاني اهدي سلاماً ابهى من التسنيم وارق نت النسيم واضوع من عرف المسك الشميم صدر من صميم الفؤاد ممتزجاً باكيد المحبة والوداد معطراً من عطر شذا البيت المعظم الحرام والحجر والملتزم إلى حضرة مولانا الكامل منبع المجد والفضائل الحبر الذي سما فحره واشرق في سماء المعالي بدره الغني بشرف ذاته عن تسميته بالتصريح لما حازه من بدائع الثناء وكمال المديح ادام الله تعالى اجلاله ويسر بفضله وكرمه مقاصده وآماله آمين اما بعد فالباعث لتحريره والداعهي إلى تسطيره اولاً كثرة الأشواق إلى

مشاهدة الذات العلية والطلعة السنية وثانياً ان حامل هذه الاسطر الاخ في الله الشيخ فلان من اعظم مشايخ الطريقة العلية الرفاعية ومن اكثر الهائمين في حب تاج العارفين الشيخ الاكبر سيدي محيي الدين توجه من هنا قاصداً إلى شام ليتشرف بزيارة من هناك من الانبياء العظام والاولياء الكرام وقصده أيضاً ان يتشرف بتقبيل الاعتاب وينيخ نجائب آماله بفسيح الترحاب فالمأمول من همكم العلية ملاحظته بالانظار الاكسرية وشموله بالنفحات وشموله العرفية والفيوضات العدنانية .ومن اجوبة ابن عمنا السيد الطيب ابن المختار جواب اشار فيه إلى ما آل إليه أمر أهل الجزائر من الجهل بفنون العلم والسياسة واسناد الاحكام إلى غيلا أهل الرياسة وهو قوله .سيدي الذي أستند في جميع اموري بعد الله تعالى إليه ومولاي الذي اعتمد بعد الاعتماد على الله عليه رب المحاسن التي صورها على منصة التنويه تجلى والاحاديث التي لا تمل على كثرة ما تملى . لسنا نسميك اجلالاً وتكرمة ◈ وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا

إذا انفردت وما شوركت في صفة ◈ فحسبنا الوصف ايضاحاً وتبييناً

عبدكم الداعي إلى الله سبحانه ان يذلل لخدمتكم وطاعتكم الف اسد الهصور ويبقى العز في عقبكم وعقب عقبكم إلى يومٍ ينفخ في الصور . يسلم مشتاقاً إلى ذلك الحما ◈ سلاماً مطير السائرات يسير

سلاماً على قدر الجلالة والعلا ◈ وانه في جنب العلي ليسير
سلاماً يفي بالمكرمات وفي النهى ◈ وكيف يفي والمكرمات كثير
سلام امرىءٍ يشكو الصبابة والنوى ◈ ويهوى المزار والمزار عسير
يكاد يطير عند نشر كتابكم ◈ وانى يطير والجناح كبير
قيثني عنان العزم جوابكم ◈ وماذا عسى والباع منه قصير
لذا صدرت من طيب يندي طيبها ◈ مدادها مسك والقضايا عبير
ومورِدها المختار من آل هاشم ◈ كما قدر سلم والمقام كبير
وان تك من وصف الفصاحة قد خلت ◈ فبالعذر حال الارتجال يشير
على ان بسط قول بالصدق مقصدي ◈ لاهل البيان والأمير خبير

اما بعد حمد الله الذي بحمده تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد المؤيد بالأيات البينات والعجزات الباهرات فانا كتبنا هذا عن ود صادق وقلب خافق جواباً عما صدر من حضرتكم العلية وسمحت به نفسكم الشريفة الطاهرة الزكية مفيداً ما مولاي عليه من الصحة والعافية والنعم المتوالية الضافية وذلك اسنى مقاصدنا ومبلغ آمالنا ومعدود لدينا من صالح اعمالنا شهد الله علم الله إذ بصلاح حالك يصلح الله احوالنا ونحن بخير ما بقيت لنا وان سأل المولى عن حال عبده فاكثر عباد الله وزراً واثقلهم ظهراً واخسرهم تجراً وخصوصاً لمجالسة الجهال فجرا والحال انه ذهب من العمر اكثره ولم يبق من الجد الا ليسره اشكو بثى وحزني إلى الله وردنا فتعذر الصدر واخطانا وما اخطأ القدر لله فينا علم غيب نحن صائرون اليهه فمن استعاذ من شيءٍ فليستعذ مما نحن فيه كيف وقد اسند الشيء لغير اصله ووسد الأمر لغير أهله وجرت الصفة على غير الموصرف مع فقدان الشرط فجاء الأمر على غير المعروف وقد تصدى من هذا الجنس اقوام لالحاق الفرع وهيهات باصله ووضع الشيء وليت شعري في محله فعهدموا التوفيق وحادوا عن سواء الطريق لتعاطيهم الرواية وما رووا ودعواهم الدراية وما دروا فرأوا اقامة الجمعة في غير الجامع مراموا القياس بقطع النظر عن الأمر الجامع فكان الاخذ عنهم ضلالاً

والاقتداء بهم وبالاً ومعالجة الداء بهم نفخا في غير ضرم والعدول عمن سواهم إليهم غسل بدم والتعزز بهم ذلة على ذلة والاستكثار بهم قلة والجناب الكريم بصير بان كل عز لم يوطن بعلم فالى ذل يصير وهكذا فلا زال ينسج على هذا المنوال ويقرر الأحوال بلسان المقال إلى ان قال . ولربما ساق النحدث بعض ما ◈ ليس النداء إليه بالمحتاج

والا فانني اعلم ان هذا النحو مما يشق على سيدي سماعه وتمجه اسماعه لكن الانين طبع المتالم والكلام صفة المتكلم وما في الإنسان يظهر على فيه والاناء يرشح بما فيه ولا بد من النفث للمصدور والله عليم بذات الصدور .وجمع بعض الادباء ديواناً مما نظمه في مدح الأمير ثم ارسله إليه واصحبه بقوله احمدك يا من منحت عبادك اراضة البيان وذللت لهم ما تصعب من الفصاحة والبلاغة حتى اقبلتا وهما منقادتان بانتن عنان والصلاة والسلام علة البدر التمام النبي العربي المكي المدني شفيع الأمة ومنير الظلمة سيد المرسلين والمبلغ ما انزل إليه من رب العالمين بلسان فصيح ودين صحيح محمد المصطفى صاحب الصدق والوفا صاحب الدين الاشهر والفضل الاظهر والوجه الاقمر والحرم الانور وعلى آله الغر الميامين وصحبه الذين شادوا دعائم الدين السالكين مناهج الحق الصادعين معارج الصدق الراضين لما يرضى به والمتمسكين بحبل جنابه ومن كانت هذه الصفات صفاتهم فهم المؤمنون اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون اسأل الله العظيم بحرمة نبيه الكريم والصحابة النجباء أهل الفضل والوفا ان يمدنا برقائق اسرارهم ويجعلنا من الفائزين بجوارهم والمغترفين من بحارهم والمقتبسين من انوارهم اما بعد فان اكرم الأخلاق واكمل اوصاف أهل المذاق هو التوسم بسيماء الفصحاء والدخول في سلك البلغاء وقد اجمع أهل الرتب ان ذلك هو علم الادب فكثيراً ما يتضح به منهج السالكين إلى معرفة رب العالمين ولهذا المنهج القويم والصراط المستقيم بابان جليلان يظهر منهما لمن سلك نجمان جميلان فلكهما

القلوب والضمائر ومسلكها العقول والخواطر وهما النـثر البتهـر والنظم الزاهر ومن المعلـوم لـدى أهـل الحجى والاتقـان ان ذلـك داثـر في هـذا الزمان ولما اشرقت بوارق اسـرار الحضـرة القدسـية وبـزعت سـواطع انوار الشموس الالهية المتجلية على هذا العالم الضعيف من الا آلاء غرة الملك الشريف المغترف من بحار اسرار قطب الملكوت الأعظم الاصل الظاهر باكرم مظهر والفرع الباذخ من اطيب عنصر اظهر العارف باللـه المتمسك منه باونق عراه ذي الاصل الباهر والبرهان الظـاهر المعـروف من اطيب العناصـر والمسـتبعد بجميـل آلائـه الاصـاغر والاكـابر الشـهم الفاخر والنجم الزاهـر السـيد عبـد القـادر لا زالت سـحائب بـره مـواطر وبوارق اخلاقه زوااهر ملك قمع العدا وجمع البأس والندا فاستنار الظلام بنير بهاه واستضاء الكون بلوامع ضياه وقد رأيت النفس تائقة إلى انشاء مدحـه راغبـة في الاقتبـاس من انـوار صـحبه اردت ان اخـدم مجلسـه السامي بزف قلائد شعري واتبعها بجواهر نثري مرتجياً من مكـارم ذاتـه العفو عن تقصيري في حصر غـرر لآلى وصـفاته وان يمـدني بيـد اليسـر وينقـذني من ربقـة العسـر إذ لا فخـر ينتمي الا إليـه ولا اعتمـاد في هـذا العصـر الا عليـه فهـو الخلاصـة المصـفاة من سـلالة الانبيـاء والحضـرة المعلاة فوق معارج الاصفياء ادام الله ايامه ونكس لشانئه اعلامه فاقول وارجو القبول ثم ذكر ما نظمه في حضرته ولنختم هذا الفصـل بمكتـوب العلامة الحجة الفهامة الإمام محمد القصبي المصري ونصه .حفـظ اللـه وابقى واعان بمنه وارقى مقام السعادة ومعدن الجـود والسـيادة سـلالة الاشـراف ونخبـة آل عبـد منـاف حـامي حمى المسـلمين حجـة العلمـاء العـاملين .سـيدي الأمـير عبـد القـادر بن محـيي الـدين رعى اللـه بمنـه سيادتكم ومتعنا والمسلمين بوجودكم آمين وسلام عليكم تتوالى نفحاتـه ورضوان الله الاعم وتحياته وبعد فاننا بخير ونسأل الله ان تكونـوا كـذلك ولما أراد ولدنا فلان زيارة بيت المقدس وانبيـاء اللـه الكـرام والتشـرف

بالمثول بذلك المقام ارفقته هذا الخطاب رجاء ان اظفر بـدعوة شـريفة من ذلك الجنـاب لعلي ابلـغ وتحفـني بهـا السـعادة في المبـدأ والختـام . وليعلم الناظر فيما نقلناه من الرسائل والاجوبة اننا قد ابقيناها بحروفهـا بحيث لم نتصرف فيها بتبديل ولا تحويل . ذكر

الارجاف بموت الأمير وفي سنة ست وتسعين أشاع المرجفون وفاة الأمير وانتشر هذا الخبر في سائر الممالك وابتدر أهل الجرائد والمعتنون بأخبار العالم إلى نقل ذلك ووردت علينا رسائل الرثاء ورقاع العواء تترى من جميع الجهات وفي الوقت نفسه طارت رسائل التلغراف بتكذيب هذه الاشاعة إلى سائر الآفاق ولما اتصل هذا الخبر بالامير واطلع على ما ذكره أهل الجرائد وغيرهم من بهي كماله وسني خصاله سر بذلك وقال ان الموت لا بد منه عند نهاية الاجل والحمد لله الذي أراني وأسمعني ما يقال في جانبي من الخير بعدي وهذا نادر الوقوع وغريب الاتفاق وأول ما وصلنا من المراثي مرثية الأديب محمد اسحاق أفندي الادهمي الطرابلسي ونصها : هذا المصاب

الذي قد كنت اخشاه ◈ وافى فما حيلتي فيما قضى الله
في ذمة الله احباب فجعت بهم ◈ يا طيب عيش بهم ما كان اهناه
ابلى النوى بعدهم جسمي فقلت له ◈ يابين حسبك ما قد رحت القاه
اسبابنا ضاق رحب للفضاء على ◈ خطب الم بكم جرعت بلوه
يا عين جودي بسحب الدمع وابكي على ◈ من كان نور سنا عينيك مرآءه
روحي فدا قمر رهن التراب غدا ◈ من بعد ما حل من قلبي سويداه
اضنى بعادك يا سمعي ويا بصري ◈ عبد القادر بالاحسان ترعاه
قد كان للعبد بالصبر الجميل وبال ◈ رضاء معتمد واليوم خاناه
ما حيلتي في قضاء الله ما عملي ◈ ما ثم لي حيلة ما ثم الا هو
فمن يؤمل للمعروف بعدك يا ◈ نعم المجير لمن خانته دنياه
قد كنت للدين والدنيا وكنت لنا ◈ حصناً حصيناً إذا خطباً خشيناه
فليرثك اليوم من كنت حيلته ◈ بكل مدح بديع راق معناه
ولتبكك الشام إذ قد كنت شامتها ◈ وليبكك الغرب إذ قد كنت مولاه

ولتبكك العاديات المواريات بمي _ دان الحروب الذي قد كنت تغشاه

تنعى النعاة ابن محيي الدين من حزن ◈ يا خير من شكر الرحمن مسعاه
يا خير من قام في محراب طاعته ◈ مناجياً في دجى الاسحار مولاه
من للرياضات أو من للعفاة ومن ◈ لابن السبيل إذا ما ام مغناه

اني لابكي على تلك المآثر وال _ خلق الحميد وما اولته كفاه

يا صاح دعني من دنيا تنغصها ◈ لم يبق لي املا الا واقصاه
فيما التمسك بالدنيا وسيدها ◈ قد بان عنا وما بانت سجاياه

جرى القضا بابن الدين تاج بني الزهرا فدمعي باسم الله مجراه

افنيت من بعد القادر الحسني ◈ كنز اصطباري فيا قلبي لك الله
العالم العامل الحبر الاصيل ومن ◈ مديح اوصافه قد طاب مخباه
بدر بافق العرفان ندا ◈ أهل الحقيقة ما للترب واراه
له لواء من الذكر الجميل له ال ◈ وصف الذي عطر الاركون رياه
فرع لا شرف خلق الله منتسب ◈ اصل تسامى على النسرين اعلاه
ليث العريكة في يوم الطراد ومن ◈ يقصر الليث عنه حين يلقاه
ان غاب عنا فما غابت مآثره ◈ عنا ولا قد نسينا طيب ذكراه
وفي بيته الكرام الصيد سادتنا ◈ سلرت سريرته العظمى ولقواه

هم الأئمة أبناء الكريم على الله المجاهد في مرضاة مولاه

قطب الحقيقة غوث الواصلين أبو ◈ تلك المواقف حيث الله اعطاه
ظنونه نجحت والعفو ارخها ◈ احسنها اكرم الرحمن مثواه
يا رب برد بعطر العفو تربته ◈ يا رب اوليه فضلاً ما تمناه

وغب وصولها كتبت إلى الأديب المذكور واخبرته بصحة الأمير وانه على احسن الأحوال وشكرته على ما ابداه من دلائل المحبة الصادقة والمودة الثابتة فاجابني بما نصه : سيدي مولاي ومالك رق ولاي ادامه الله وابقاه المعروض لناديكم من بعد لثم ايديكم هو انه وصل كتابكم وتلقيته بالتكريم والتعظيم وسرني به سلامة سيدي الأمير وحمدت الله على ذلك ومن خصوص ما تفضلتم به وصل شكر الله فضلكم وايد عزكم ومن خصوص القصيدة التي كنا ادرجناها بالسلام نحن صنفنا ضدها قصيدة ثانية واردنا نشرها كذلك ولكن حيث الأولى انشدت بحضرة مولانا الشوكتلي وقيل له رجل من اهالي طرابلس صنفها وهو متخجل بسبب ذلك فقال لا ينبغي له ان يتخجل وإنما اتى بما يدل على وفائه ومطلع القصيدة : وافى البشير فحيا الله مسراه ◈ فقم على قدم الاجلال تلقاه

اليوم روض التهاني فاح مجمره ◈ والكون قد عطر الاكوان رياه
الحمد والشكرلله العلي على ◈ هذا السرور الذي قد طاب مجناه
بالله ياراحلاً يغي دمشق ولي ◈ بها ولي له من ربه جاه
عرج على حرم حل الأمير به ◈ فدته انفسنا من قول اعداه

واهداء السلام من الله السلام إلى المولى الأمير عيون الله ترعاهومنها : المنجد المنعم المعطي المنيل حما ◈ من أم ساحته العليا وداناه

سلالة الطيبين الطاهرين بني الزهراء حياهم المولى وحياه

وهي طويلة جداً ولولا الشيخ ظافر والشيخ أبو الهدى أفندي اشارا علينا بعدم ادراجها لمضي الوقت لكنا ادرجنا .وهذا تعريب ما ادرجته الجريدة الفرنسوية المسماة لاليبرتا في عددها تاريخ 12 نوفمبر سنة 79 .توفي الأمير عبد القادر في الشام وهو ذاك الأمير ذو البطش والعظمة والاقتدار الذي حارب الدولة الفرنساوية مدافعاً عن بلاده الجزائر مدة تنوف عن الخمس عشرة سنة وهو فارس الأمة العربية وامامها التقي العالم المهيج ضدنا افكار قبائل أفريقية وغيرتهم الوطنية الذي صادم جيوشنا وثيت امامها وحده وجعلنا بوجوده لا نقتطف ثمرة افتتاحاتنا وغزواتنا فكان تملكنا في تلك البلاد كأنه لم يكن ولم نحصل على السلم ولم نتوطد الراحة ولم نتملك حقيقة تلك الاراضي المخصبةولا تمكنا من تنظيم ادارة البلاد افتتحتها اسلحتنا الا بعد تسليمه لنا والامة العربية التي كانت تحت سلطته ما خضعت لنا خضوعاً تاماً الا بعد ان نظرت تسليم قائدها وسلطانها ولو قيل انه بعد تسليم الأمير لم يخل الأمر من حدوث بعض ثورات طفيفة لقلناهم كان ذلك لكنها لم تعكر كاس الراحة العمومية لان اهم الثروات واعظم الوقائع قد رافقت الأمير إلى حيث توجه والان لابد ان نبين ما ذلك الشريف المخيف الذي كاد ان يقهقر الدولة الفرنساوية في بلاد الجزائر من الاعمال الغريبة والافعال الحميدة الذي افتخر بها تاريخ عصره وزمانه وهو انه عندما توطدت منا الأفكار وتعلقت بنا الآمال بافتتاح مدينة الجزائر والاستيلاء عليها صادمنا ذاك البطل المهيب ولم يكن له وقتئذ من العمر اكثر من خمسة وعشرين سنة وذلك سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وإنما عقله الغريبة وتقواه الشهيرة وبغضه الشديد لتملك الاجانب على بلاده اكسبته بين عموم الأمة العربية صيناً حسناً وذكراً مخلداً وسطوة فائقة ولذلك عندما نادى بالجهاد بعزم ثابت وتقوى تخالها عرب أفريقية انها الهام من الله لا يوحي به الا للمرابطين اجابته كافة عربان وقبائل ولاية وهران ونهضوا مجيبين ولم يتلفظ بكلمة واحدة تشير إلى نكث عهوده نظراً إلى نكث عهوده نظراً لمعاملتنا له ولو شاء ذلك فما من مانع يمنعه لان قبائل العرب في بلاد الجزائر كانت مستعدة للدعوة باسمه ثانيا بعزم وثبات الفرنساوية لعقد نعاهدة اقروا فيها بسلطنة عربية ممتدة فيما بين سلطنة مراكش ومدينة الجزائر وشطوط الشلف وجعل عاصمتها مدينة معسكر وذلك في سنة أربع وثلاثين وثمانمائة لكنه لم يكتف بمملكة هذه ولم يقنع بها لأنه لم يحركها لمحاربة الفرنساوية الا همته الدينية العربية وغيرته الوطنية لانقاذ كامل بلاد الجزائر من المحاولين تفتتاحها وتحريراهاليها من رق العبودية وارجاع رونق وافتخار سلاطين العرب وجعلها سلطنة تتداول اجناد عزها وفخرها إلى آخر الزمان ولذلك لم يمض على تلك المعاهدة عام واحد حتى أفتتح الحرب ثانياً بشدة ونشاط اكثر من المرة الأولى وهاجم الجنرال ديزميشيل وبعد موقعة دموية جرت بينهما على شطوط نهر المقطع انكسرت جيوش الجنرال وتشتت شمل من بقي منهم ودامت الحرب لحد سنة سبع وثلاثين وثمانمائة حتى ايقنت الفرنساوية ان لاسبيل لها على مقاومة الأمير والتخلص من ايدي عدو نظيره لذلك عقدوا معه معاهدة اخرى تسمى بمعاهدة تافنا اقروا بها ثانياً بسلطنته وضم مقاطعات اخرى لملكه فكانت هذه المعاهدة أيضاً كالاولى لم يمض عليها الا أيام قليلة حتى دارت رحا الحرب بشدة تفوق المرتين الاوليين ودامت تسع سنوات متوالية حيث لدوك دورليان والمرشال فاله والمارشال بيجو والدوك دومال حاربوا في كل تلك المدة ذاك العدو المهول ومع كونهم فازوا بانتصارات قوية لم يتمكنوا من هدم قوته العسكرية واخذت جيوشهم تغزو القبائل وتضر بمواشيهم وحاصلاتهم وتضايق عليهم أمر تعيشهم فاثر ذلك جداً في العرب واضنك النعب ومشقات الحرب رجال الأمير وجيوشه وهو لا يكل

ولا يتعب فتركوه جميعاً ولما بقي وحده الجأه الحال إلى التسليم فسلم للجنرال لامورسير بشرط ارساله مع عائلته إلى الاسكندرية أو إلى عكا فلم توف الدولة الفرنساوية بعهودها لأنها عوضاً ان ترسله إلى إحدى المدينتين المذكورتين مع عائلته في قلعة لاماك ثم بو ثم امبواز فبقى مقيماً فيها إلى ان استقر نابليون الثالث على كرسي الامبراطورية ففكر حالاً في أمر ذاك الاسير العظيم الشان وحضر بذاته لمحل اقامته واطلق حريته مكتفياً بوعد منه انه طالما وجد متمكناً مما يريده حراً ومع ذلك فانه لم يشهر سلاحا على الدولة الفرنساوية وقد صيرنا عبرة لمن اعتبر وعملنا كيف الوفاء بالعهود واما نحن فقد نكثنا عهودنا معه وهو لم يحنث بقسمه وعهوده معنا ولقد اتى بدليل يؤكد ذلك وهو انه من حين ما اطلفت له الحرية لآخر نسمة من حياته لم يبد ادنى عمل سيءٍ نداءه كرجل واحد وانتظم تحت قيادته جيوش كثيرة قد سنت لهم حكمته الشهيرة نظامات يسلكونها ومحاربات يقتحمونها واكاليل انتصارات يتتوجونها وهكذا بعد محاربة سنتين لسلطانها ومنقذها ةالآخذ بثارها وعلى قبوله تلك المناداة ونداءه بالجهاد يعود الحال إلى ما كنا عليه لا بل اكثر شدة وصعوبة فكان منتصراً عظيماً في ساحة القتال . وموقراً محترماً بعد ذلك في مدينة باريس . برهة بعد اطلاق سبيله ووجدته فريد عصره واسد زمانه وكل من يقترب إليه كان يعجب ويندهش من منظر ذاك الرأس العربي الجميل المملؤة من تلك الحكم العربية المبنية على علو افكار ادبية تشير إليها بالفاظ مبهجة وحديث ممتلىء من روح الديانة بين الفطنة والسياسة اه .ولتقارب ما ذكرته الجرائد الافرنجية مع كون المؤدى واحد اقتصرنا واكتفينا بما ذكرته هذه الجريدة ولما انتشر في العالم كذب تلك الاشاعة جاءت رسائل التهاني إلى حضرة الأمير من كل جهة وممن بادر بذلك من الافاضل الشيخ إبراهيم الاحدب ونص ما بعث به . زال ما كان على المجد عرض ◈ وعدا جوهره ذاك الغرض

واشتفى جسم الندى مما به ◈ وتعداهالى العادي المرض
ومريد الفضل والجود غدا ◈ ذا انتعاش بعد ما كان دحض
وانبرت سورية تشكر من ◈ بعد شكوى ما عناها أو ومض
ونسيم البشر بالبشرى لنا ◈ من مغاني شامها للمسك فض
وجنى وجنتها ابدى لنا ◈ زاهر الافراح ولاقبال غض
حيث قد نال الشفا سامي الوفا ◈ سيد المجد وللعليا نهض
الإمام المرتضى المولى الذي ◈ في حماه اسد العز ربض
والأمير الشامخ القدر بما ◈ سن من مشروع فضل وفرض
حسني شرع الإحسان في ◈ مذهب الجود بما لا يعترض
وهو للقادر عبد طالما ◈ اقدر العبد على المجد وحض
سيد لا سعد الا من سنا ◈ وجهه رغماً لمن كان امتعض
لاح في الشرق من الغرب بما ◈ اشرق الثاني الذي أمسى حرض
وعلي شيعة الفضل له ◈ لا ترى سنة عادٍ قد رفض
يرتجي القاضي عياض ان يرى ◈ عنه في نعت القضا خير عوض
موجب الشكر له سلبا لمن ◈ جاء بالعكس بلا علم نقض
وقضايا مدحه تركيبها ◈ منتج للمجدي اسمي غرض
راج سعر الشعر فيه للذي ◈ كفه بالبسط للجدوى قبض

ونداه طالما طوقني ◈ بعقود ما لها يوماً فضض
فلساني مبضع في مدحه ◈ قاطع عرق عدو قد نبض
وقريضي بمعانيه سرى ◈ مثلاً يضربه من قد قرض
ويراعي قد جرى في مدحه ◈ وعلى خيل معانيه ركض
حبذا طلعته الغراء في ◈ وجه راجيه بتعريض عرض
واياد برها في البر قد ◈ مد بحراً رغم من كان برض
ولهى غصت بها الدنيا كما ◈ في اللهى ساغ بمعناها الجرض
لا يرى الوعد لهذا نفحة ◈ مع طيب النفح للسائل نض
حجة الشكر له بالغة ◈ ببلاغات مباديها دخض
قد شكا فاشتكت الدنيا أسى ◈ وعناها بعنا الوجد مضض
وشفاها الله والبشرى سرت ◈ بتغاض نظم شكر مفترض
وملا كل الملا نشر الصفا ◈ ووفى الانس بما لا ينفض
فتقدمت له اهدى الهنا ◈ رافعاً صوتاً لشانيه خفض
واجتليت الدر من شكري بما ◈ لمعاني زبدة المدح مخض
وهو يدري ان إبراهيم في ◈ حمده المقبول للود محض
رق شعري فهو فيه درة ◈ وهو صخر هامة الأعداء رض
طالما صوبت منه حجراً ◈ نحو هام كان بالكبر نقض
أيها المولى الذي لان به ◈ مضجع الفضل وقد كن أمض
لا شكيت الدهر سقماً وعداً ◈ للعدا كل عناءٍ ومرض
فاقتبل بز الثنا من عرض من ◈ لك مع طول بتقصير عرض
وبلا منٍ من مدحي ما ◈ هو يوفى حق ما كان افترض
واغفرن ما قد جناه غزلي ◈ بغزال ناعم الملمس بض
من بني الترك بوصل عينه ◈ ضيقها مع سعة للقلب مض
ثغرهُ فيه رحيق برده ◈ دونه في مهجتي اشكو رمض .
لايرى للصب فرضاً حسناً ◈ حسنه عندي جزاء ان قرض
شمت ضوء المشتري من وجهه ◈ لو رأى ريحي له طرف عمض
بسهام الجفن قد حاسبني ◈ فغدا قلبي لمرماها غرض
وبمسنون لهُ اوجب ما ◈ ندب العاني إلى ما قد فرض
عشت انسى بنسيبي فيه ما ◈ التجي عند عناء لي جهض
عالم الكون الذي في عصره ◈ فضله للعار عنا قد رحض
مدن العلم لهُ قد فتحت ◈ والسوى لم يدن من ملك الربض
غض طرفاً عند مرآه إذا ◈ ما تجلى واطرح من فيه عض
دام من لائه قطر الندى ◈ للصدى ينفع ما برق ومض

ثم اتبع هذه القصيدة بقوله عريضة هذا الداعي لدى حضرة السيد السند والمولىالذي اروى امل راجيه بالعز لما اعلمه الثمد تقوم بمشروع التهاني على نيل الشفاء والصحة وزوال تلك المحنة بما عاد علينا باعظم منحة بماعاد علينا باعظم منحة حيث شفي جسم المجد بذهاب ما كان عرض وسلم جوهره مما الم به من ذلك العرض

وانتعشت روح الفضل بما كان انتعاشاً لارواح المعالي وابتهاجاً لوجوه الأيام إذا نفحت بفض الطيب من شامات الليالي حتى سرى ذلك إلى النسيم فصح وهو مريض واعتدل مزاجه فقوى لتعليل من واقعه الحب في الطويل العريض فسرى في رياض الشام يفيض لضائم البشرى وينفح من رسائل التهاني بما ملأ وجوده الكائنات بشراً فعرع بذلك خليل العرف إبراهيم وفاض عليه ما لا ينكره من طيب ذاك الشميم فاخذ يرتل سور الشكر بالتجويد وانطلق يعيد ما يبديه وهو سار على تقدم التجريد ولم يقتصره على المد المتصل من ثنائه باللسان بل جعل لذلك باظهاره اعظم ديوان واهمل الاخفاء والادغام من تلاوة تلك الآيات وترك القلقلة لمن لا يميز بالقلب بين الحسنات والسئات ولم يسكم إلى المد العرض للسكون بعد اللازم المثقل بوفاء أجر غير ممنون وان لم يستعمل المد المخفف الذي زلت به النعل فتطرب بغنه المنع لسائله بفضول القول بلا فضل ورغب عن الاحتجاج في كلامه بالاماله واتبع النقل في حديثه بالمد الطبيعي لرجائه بلا ملاله فهو أيها الأمير الجليل من القراء العظام لآيات شكرك البينات بما يوجب على السامع عند تلاوتها وان لم يتكرر المجلس سجدات فلا يفوق عليه في ذلك أبو عمرو ولا ابن عامر كما لا يشعر بعصمته في الشرك باخلاص حمدك عاصم وهو شاعر فاحمد الله تعالى على ما انعم علينا من عود السراء بعد ما الم بنا من معاناة الضراء والشكر له على عافية غير عافية وصحة كافية لنحو آمالنا ولامراض الفضائل شافية حيث عوفي بذلك المجد والكرم وعدائك إلى اعدائك السقم فلا انحرف لك أيها السيد الكريم مزاج ولا نجح في مرض شانيك الابترعلاج ولا اشتكت جميع دهرك من مس عرض ولا كان لسهم النوائب إلى جهتك اقل غرض فقد رغب الاسد ان تدوم حماه ولا يكون لها إليك سبيل والف النسيم علته حتى لا يكون لك في الكون وصف عليل كما اصبح المرض طبعاً لجفون الحسان كيلا يعتل بما يمسك لامسك الفضل والاحسان ولعمري انك في سورية انسان عين حدقتها وطيب نفح صباها إذا نفحت وجنة شامتها بمسك فكيف لا تغل بما يمسك من العلل وتنتعش بما يكون لعطف الصحة من البدل واني بصفة كوني شاعر اياديك الجليلة لا انفك انتجع حمدك والدعاء لك من وجوه جميلة واهنى الشرف العريق بشفائك وانشىء ما يخلق الأيام بما انا خليق به من جديد ثنائك فلذلك نسجت حلة هذه الابيات تعزي بك على ابدع طرز برزت به كل شاعر يذهب ما يلحمه سدى ومن عزيز وشفعتها من رياض المعاني بهذا المنثور الرائق وان شققت به على ما في الوجنات من الشقائق فاقبل ذلك أيها المولى بالاقبال حسب عوائدك التي لا تخلف ودام قيد إبراهيم في سجل معروفك الذي لا يقبل التنكير من بطيبه تعرف والله تعالى يطيل لك العمر بنعيم عيش دائم ويديم حياتك باطيب صحة حتى تدوم صحة الندا والمكارم ويبقى كعبك سامياً على كل هام ويؤيد حمدك منتجعاً لحاجات الأنام ويخلد عزك ملجاء عند كل حادث فيسمو بحمايته أبناء سام وحام ويافث اللهم آمين .وقال الفاضل الشيخ عبد الرزاق أفندي البيطار .نحمدك يا منعم على احسانك ونشكرك على جزيل امتنانك حمداً وافياً بوافر آلائك وشكراً ًمكافياً لمتكاثر نعائك يا راحم المتضرعين ما ارأفك ويامنان على المنقطعين ما اعطفك ويا ذا الرحمة والجود ما احملك ويا دافع النقمة بلطفك ما احكمك واعظمك قد غمرتنا بجميل المعروف واغرقتنا قي بحر لطفك الموصوف واسبلت علينا سترك الجميل وادمت لنا حصنك الجليل من انقذتنا به من اودية الغواية إلى فسيح الرشاد والهدية وعرفتنا به المطلوب وهديتنا بهدايته إلى صراط المرغوب وكشف به لنا عيوباً كنا نعقدها طاعة ودللتنا به على نهج السنة والجماعة الا مجد الا وحد والعلم المفرد بحر الاكارم وحبر العوالم خطيب منبر المعارف وامام محراب العوارف المرتضع در ثدى المعالى في

حجر الفضائل والمرتفع في ذرى العوالي إلى عرش الفواصل العاكف في حرم الشهود والواقف على اعلا نقطة كرة السعود من عجنت شريف طينته بماء الوحي والنبوة وغرست بنعت ذاته المنيفة في ساحة المجد والفتوة . من جوهر منه النبي

محمد ◈ زين العلا فخرت به الابآء

ورث المكارم والشمائل والندى ◈ فعليه نت نور الآله بهاء

يد السملحة لكل طالب وباب الدخول لكل راغب الرافع بفضائله اعلام الرايات الدينية والقامع بدلائله معاندي الشريعة الاحمدية أمير الأمراء وقطب مدار الفضلاء الحسيب النسيب والشريف الماجد الاريب حضرة سيدي الملاذ الأعظم والاستاذ الاسنى الافحم السيد عبد القادر الحسني ادام الله بقاء وجوده الهني وخلد طلوع شموسه في سماء الاقبال والبس جسم الدنيا به خلعه الجمال وجمل الوجود بوجوده وانار ظلمة الكون بطلعة سعوده واعلا لواء جوده المنشور وحفظه إلى يوم البعث والنشور ولا زالت مخدرات النعيم بخيامه مقصوره وبانبائه سائرة وسادت الامم بانعامه مشمولة وباعدائه ساخرة ولا برحت الاكابر تخضع لعظمة شانه وتنقاد تحت سلطان واضح برهانه ما طلع النيران وتعاقب الملون فالمنة لك يا مولانا حيث عافيته من المرض وازلت عن جنابه بعنايتك العرض وانلتنا به المنى والبستنا بصحة حلل الهنا واعدت لنا أيام السرور وجددت علينا ليالي الفرح والحبور فوجب على العموم تقديم التهاني لكي يحظوبيلوغ الاماني فاقول متظفلا وللقبول مناملاً يهنيك سيدي بعافية شرحت الخواطر وسكبت على الأنام هامل غيث فضلها الغامر والبستك جلباب العافية والفرح واماطت عنك لباس البأس والترح ونقلت لشانيك العلل والقتهم في مخاوف الكمد والوجل وقد صح لك قول من قال واجاد . المجد عوفي مذ عوفيت

والكرم ◈ وزال عنك إلى اعدائك الالم

صحت بصحتك الآمال وابتهجت ◈ بها المكارم وانهلت بها الديم

وما اخصك من برءٍ تهنئة ◈ إذا سلمت فكل الناس قد سلموا

فلقد امرضت بمرضك الوجود وشغلت بعرضك الآمال عن نيل المقصود فوحق من رفع مقامك ونشر في الخافقين ذكرك واحترامك وطوى القلوب على صادق حبك وانار بك منار خدمك وحزبك انه لمن حين انحراف مزاجك واحتجابك لعارض علاجك قد توجهت قلوبنا في محاريب الطلب للابتهال واجسامنا رفعت اكف الضراعة والسؤال وعيوننا صرفت دنانيرها ودراهمها رجاء القبول ومن لاذ بنا واطفالنا يؤمنون بقلب كسير ودمع مهمول فنحمد الله الذي قد تفضل وتمنن وتكرم على هؤلاء العبيد وتحنن وبارك عليهم الرد الجميل وردهم بك إلى احترام والتبجيل فحيث ختم الله بالخير فلا ضرر ولا ضير وعند الله مقامات فوق الامل لا تنال بفعل ولا عمل ولا عتب على العبيد بتقديم عريضة التهاني وان كان معدوداً من الاداني لان البحر يقبل كل وارد وهو للجميع مراع ومساعد على ان المضاف يشرف المضاف إليه والخادم يعظم بمن يعول في خدمته عليه ولذلك قلت متشكراً الله لسيدي ادام الله علاه .

بشرى لنا حيث رد الله سيدنا ◈ منا علينا وبالالطاف اتحفنا

شكراً جميلاً على إحسانه وثنا ◈ واف بنعمائه اللائي حففن بنا

عافيت يارب قطب الكون من عرض ◈ فالحمد لله حمداً يقنضي المننا

ان الوجود به قد صح من علل ◈ والناي قد أصبحت تبدى الهنا علنا

ابقى الاله دوماً شمس طلعته ◈ ولا ارانا بفضل المصطفى المحنا

هذا الذي نور الدنيا ببهجته ◈ هذا ابن نور الهدى المختار احمدنا

فحراً دمشق لك العليا به ابداً ◈ هذا الذي فضله افق العلا سكنا
ان رمت تدري صفات المصطفى العربي ◈ بادر إلى ذاته ان الصفات هنا
والله لو انصف السادات انفسهم ◈ للازموه وفاتوا الاهل والوطنا
ذا سيد ماجد حبر وبحر ندا ◈ من أمه نال ما يرجو وكل منل
فداه روحي واولادي وملك يدي ◈ وكيف لا ومن الاشراك انقذنا
لا زال محفوف لطف دائماً ابداً ◈ ما لاح بدر على ام القرى ومنى

وقـال الأديب الشـيخ عبـد المجيـد الخـاني 'مضـمناً ثلاث ابيـات من نظم الأمير'

عطف الحبيب علي بعد الياس ◈ والعطف شأن قوامه المياس
فعرفت من الم النوى قدر اللقا ◈ خير اللقا ما كان بعد الياس
وسحرت من الحاظه وسكرت من ◈ الفاظه وصحوت بالايناس
والوصل يجمل موقعاً كالورد ان ◈ كان المتيم صبره كالآس
واشد ما يجد المحب من الاسى ◈ سهل إذا كان الحبيب الآسي
والقلب احسن ما يكون إذا جثا ◈ لغرام ريم لم يكن بالتاس
والناس اما ذائق طعم الهوى ◈ اوعالم أو عادم الاحساس
فالاول الأولى بكل سعادة ◈ مثل الاميرالفرد بين الناس
الروح في احيائه والصدر في ◈ احيائه والقلب يوم الباس
رب السمات الباسمات وحسبه ◈ شرف النبوة طيب الاغراس
علم وسلطان وحلم في تقى ◈ وولاية واقامة القسطاس
ومواقف شهدت بفضل معارف ◈ ضاءت على الاكوان كالنبراس
نعم الأمير لقد تمنطق بالهدى ◈ وغدا له العرفان خير لباس
غوث لدى محرابه غيث على ◈ احبابه ليث على الافراس
ملك إذا اوليته ملك إذا ◈ عاليته طود الوقار الراس
يقظ اللحاظ إذا تكون فضيلة ◈ فكانها خلقت بغير نعاس
ولع باخلاق النبوة كلها ◈ لاحلم احنف أو ذكاءُ اياس
بحر المكارم لا يقول لماله ◈ ما في وقوفك ساعة من باس
خاض المنايا غير هياب لها ◈ وبنى رفيع المجد فوق أساس
يحنو على بيض الظبا فكانها ◈ آرام رامة أو ظباءُ كناس
ذو صارم ماء الحياء ◈ وذبابة قبس من الاقباس
خذر الملوك الصيد سطوة باسه ◈ واتى الزمان له ذليل الراس

كم غادر البطل القطوب لدى الخطو _ ب بجده حلسامن الاحلاس

ولكم محى جيش الفرنج به كما ◈ تمحو المياه كتابة القرطاس
واسئل فرنسا قي الجزائر عندكم ◈ الفى كتائبها إلى الارماس

والدار للاقفار والانقال لل _ انفال والاطفال للنخاس

جمعت سجايا الناس فيه فقال من ◈ باب التحدث عادة الاكياس
الحمد لله الذي قد خصني ◈ بصفات كل الناس لا النسناس
الجود والعلم النقيس وانني ◈ لانا الصبور لدى اشتداد الباس
وتحدثي شكراً لنعمة خالقي ◈ فهو الذي بي جامع للناس
خطب المعارف وهو كفوء جمالها ◈ واستخدم الأيام للاعراس

ومقامه كم عفرت فيه الملو _ ك جباهها ذلاً بغير شماس

في حسن سيرته التي بنيت على ◈ تقوى سريرته اتم جناس
سارت مسير الشمس في الدنيا سيا ◈ دته على رغم الحسودالقاسي
كم الجأ العقلاء حصر صفاته ◈ ان يضربوا الاحماس في الاسداس
ولكم تمنوا ان يفوا بمديحه ◈ ان التمني صنعة الافلاس
حتى رأوا عدد النجوم صفاته ◈ وهل النجوم تعد في القرطاس
افدي شريف وجوده فلقد شكا ◈ من سقمه بالنفس والانفاس
عم البرية من بشائر برئه ◈ فرح زيادته بغير قياس
والى الرحاب عقيله في جيدها ◈ عقد تنظم من كبار الماس
تهدى التهاني للسيادة بالشفا ◈ والمدح بالانواع والاجناس
شفعت ثلاث وسائط نظمه ◈ لقبولها بزيادة استئناس
ولقول يوم البشر في تاريخه ◈ ملك شفاه رحمة للناس

وفي آخر جمادى الثانية سنة تسع وتسعين خـرج الأمـير من دمشـق إلى طبريا ونواحيها للتـنزه وتبـديل الهـواء لامـراض لازمتـه وكـان في معيتـه بعض اولاده وجماعة من الاقارب والعلماء ومر في طريقه بعين الحابيــة الشهيرة في كتب الاقدمين قرب قريـة نـوى في ارض حـوران فاغتسـل فيها على قصد التبرك والتداوي ومنهاتوجه إلى طبريا وبعد ان أقام فيهـا ثلاثاً دعاه المهاجرون الجزائريـون إلى قـراهم في ارض الشـقا فاجـابهم إلى ذلك ومن هناك توجه إلى الناصرة وأقام فيها يوماً عند مفتيها الشيخ

الفهومي ثم انقلب راجعاً على طريق صـفد ثم ديشـوم ثم القـنيطرة ثم دمشق وحصل له في هذه الحركة ارتياح وانشراح وبعد ان أخـذ الراحـة في داره خـرج إلى قصـره بـدمر على نهـر يزيـد وانفـرد فيـه للعبـادة ومطالعـة كتب الحقـائق الالهيـة وتعليـق مسـائلها وحـل مشـاكلها وكـان النـاس يزورونـه ويـترددون إليـه في حـوائجهم على عـادتهم فيبش بهم ويهش لهم كما هو دأبه وعادته مع عباد الله تعالى منذ النشأة .^ ذكر

ما أجاب علبه من أسئلة العلماء الأعلام فمن ذلك سؤال العلامـة الشـيخ سليم العطار ونصه

الحمد لوليه والصلاة والسلام على نبيه وعلى آله وصحبه امـا بعـد فـاني لما قرأت كتاب الابريز بعد العشاء بحضور جماعـة من الافاضـل ووصـلنا إلى ما وقع في اواخه من سؤال الشيخ عن قول الإمـام الغـزالي قـدس الله روحه ليس في الامكان ابدع مما كان وجدت ابن المبارك انتقد هذه العبارة وخدش الاجوبة التي اجاب بها العلماء عما رد على ظاهر العبارة فخطر لي ان اسأل عنها حضرة الأمير الجليل المعظم سيدي السيد عبد القادر الحسني منعني الله والمسلمين بحياته حيث انـه في هـذا العصـر الإمام المقدم في العلوم سيما ما افاض الله عليه من علوم القـوم ومـا ذاقه من مشربهم فارسلت سألته وهو في محله بقربـه دمـر فكتب هـذا الجواب الحري ان يكتب بالذهب حيث انه رفع الاشـكال واوضـح المقـام فجزاه الله خير الجزاء وحفظه من كل سوءٍ وحماه آمين . 'وقال حفظه الله'

الحمد لله الجواب والله ملهم الصـواب قـال تعـالى حاكيـاً قـول موسـى عليه السلام ومصدقاً له ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى فقـول حجة الإسلام رضي الله عنـه ليس في الامكـان إلى اخـر مقالتـه اشـارةً إلى معنى المشيرة إلى سـر القـدر المتحكم في المخلوقـات الـذي هـو

العلـة الـتي لا يقـال فيهـا لم في الاختلاف العـام في الـذوات والصـفات والنعوت والاستعدادات اخبر الله تعالى انه أعطى كل شـيء من العـالم المخلوق في مرتبة وجوده الخـارجي خلقـه أي اسـتعداده الكلي الـذاتي الغير مجعول ولا مخارق الذي هو عليه في مرتبة ثبوته وعدمه فـان كـل شيء ممكن له اسـتعداد خـاص لا يشـبه اسـتعداد غـيره وبالاسـتعدادات كانت الحجة البالغة لله تعالى على من أشقاه وابتلاه أو أفقره ونحو هـذا فان استعداد طالب لذلك ولو اعطاه غيره على سبيل الفرض لرده ومـا قبله لاستعداده لضده فان الاستعدادت طالبة لايجاد ما هي مسـتعدة لـه سواء كان ملاثماً في الخارج أو غير ملائم ولا يطلب أي استعداد كـان الا ما هو كمال في حقه وبالنسبة إليه فانه تـرتيب حكيم عليـه والحكيم هـو الذي يضع كل شيء موضعه اللائق به بحيث لا يكـون ولا اصـلح ولا ايـدع ولا اكمل منه ولو فرضنا ان عينـاً من اعيـان العـالم طلب اسـتعداده من الحـق تعـالى شـيئاً اعلا ممـا هـو عليـه وأحكم وأصـلح ولم يعطـه ذلـك وادخره عنه وهو ممكن فلا يخلو اما ان يكون الحق تعالى منعه ذلك بخلاً تعالى الحق عن البخل فان البخل يناقض الجواد النـابت لـه نعـالى عقلاً زشرعاً واما ان يكون منعه ذلك عجزاً وقد فرضـناه ممكنـاً وهـو ينـاقض الاقتدار الثـابت لـه تعـالى عقلاً وشـرعاً على كـل ممكن فثبت ان الحـق تعالى جواد قادر أعطى كل شيء من العالم خلقه واستعداده وما تقصـه شيئاً مما طلبه اسعداده ومـا بقي في الامكـان شـيء يكـون ممكنـاً في حق غين العالم اعلا واحكم وابدع مماهوعليه وادخره عنـه وحينئـذٍ صـح قول حجة الإسلام ليس في الامكان الخ فحجة الإسلام بصدد الكلام على العالم الموجـود وان الـذي رتبـه هـذا الـترتيب الـذي هـو عليـه حكيم فلا يمكن ان يكون في الامكان احكم واصلح وابـدع من هـذا الـترتيب الـذي هو عليه فانهنرنيب الحكيم فلا يمكن ان يكون في الامكـان احكم وابـدع من هذا الترتيب المشـاهد في اوضـاع العـالم وصـفاته واحوالـه وادخـره

الحق تعـالى مـع طلب الاسـتعدادات ان يخلـق لهـا مـا هي مسـتعدة لـه ومنعها اياه والمنع في حق الحق محال فـان منـع المسـتعد شـر والشـر ليس إليـه تعـالى وإنمـا يكـون المنـع من جهـة القابـل حيث انـه عـدم الاستعداد للقبول فالامكان المنفي انما هو كون العالم واشخاصـه قابلـة ان تكون على ترتيب وصفات تعلا وابدع مما هي عليه وهـذا محـال فـان الاستعدادات حاكمة فلا يقبل مستعد غير ما هو مستعد له يدل على ذلك قوله لو ان الله عـز وجـل خلـق الخلائـق كلهم على عقـل اعقلهم وعلم اعلمهم وخلــق لهم من العلم مــا تحتملــه نفوســهم وافــاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفه ثم زاد مثـل جميعهم علمـا وحكمـة وعقلاً ثم كشف لهم عن عواقب الأمور واطلعهم على اسـرار الملكـوت وعـرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حـتى اطلعـوا على الخـير والشـر والنفـع والضـر ثم امـرهم ان يـدبروا الملـك والملكـوت بمـا اعطـوا من العلـوم والحكم لما اقتضى تدبيرهم جميعاً مـع التعـاون والتظـاهر ان يـراد فيمـا دبر الله الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا ان ينقص منه جناح بعوضـة الخ فلا ايجـاب ولا غـيره ممـا تـوهم في كلام حجـة الإسـلام من اعتقـادات الفلاسـفة والمعتزلـة ولكنـه رضـي اللـه عنـه مـزج كلام أهـل الحقائق بكلام أهل النظر .'وجـه اخـر' اعلم ان الآثـار الكونيـة دلت على المعاني الالهية والحقائق الربانية والمعاني الالهيـة دلت على وجـود ذات الاله المعبود فما في العالم حقيقة كونية كليـة أو جزئيـة الا ولهـا حقيقـة آلهيه كلية أو جزئية تقابلها هي مستندها ومحتدها والحقيقـة الكونيـة هي تعينها ومظهرهـا فالنسـخة الكونيـة مقابلـة لنسـخة الآلهيـة ولا يلـزم من تقابـل النسـختين واسـتناد احـدهما إلى الاخـرة المسـاواة في الحقيقـة والنسبة ومن علم هذا علم صحة قول حجة الإسلام الغـزالي رضـى للـه عنه ليس في الامكان ابدع ولا اكمل من هذا العـالم إذ لـو كـان وادخـره لكان بخلاً يناقض الجود وعجزاً ينـاقض القـدرة مـع مـا تقـدم وتـاخر من

كلامه في باب التوكل من كتابه احياء العلوم يريدرضى لله عنه انه لما كان العالم مظاهر اسمائه تعالى الكلية والجزئية لأنها الطالبة لايجاد العالم واظهاره من العدم الامكاني مع طلب الحقائق الامكانية للايجاد والظهور من التعين الخارجي مع عوارض التعين الخارجي ولوازمه من الأحوال والنعوت التي لا تنحصر ولا تدخل تحت ضابط ولا قياس وقد اجاب الحق تعالى طلب الجميع فلم تبق حقيقة كلية الهية تطلب العالم الا وقد ظهرت بحقيقة كلية كونية وجزئياتها واشخاصها لا تتناهى فلم يبق شيء في الامكان من حيث الاجناس والانواع الا وقد كان فانه لو بقي في الامكان شيء بعد هذا العالم جنساً أو نوعاً وادخره تعالى لكان هذا الادخار بحلاً عن الممكنات باستعدادها للايجاد وعن الاسماء الالهية الطالبة لظهورها بظهور الممكنات التي هي آثارها وان لم يكن بخلاً تعين ان يكون عجزاً فان عدم اسعاف الطالب بمطلوبه لا يكون بخلً أو عجزاً وكلاهما محال على الجواد المطلق القادر على كل شيء فهو الذي أعطى كل شيء خلقه واستعداده كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي وبالقدر الذي ينبغي فعطاء الحق تعالى تابع للطلب الاستعدادي الكلي من الاسماء ومن الأعيان الثابتة التي هي صور الاسماء وللطلب الحالي الاضطراري لا القولي الا ان وافق الاستعدادي أو الحالي فلا يجب شيء على الحق ولا يتصور في حقه تعالى منع مستعد لشيء مما هو طالبه باستعداده الكلي فان من اسمائه تعالى المعطي ولا يكونن مسمى بهذا الاسم في حال دون حال ولا في وقت دون وقت وما سمي بالماتع الا من حيث عدم قبول الطالب بلسانه ما هو غير مستعد لقبوله فما انكر قوله حجة الإسلام واستعظمها واستغربها منه الا من كان متكلماً قحاً محجوباً عن الرقائق والدقائق ما شم رائحة من علم القضاء والقدر ولا عرف كيفية نشأة العالم ولا اسباب صدوره فتوهم ان هذه المقالة تعجيزاً للقدرة وتناهيا للمقدورات وايجاباً على الحق تعالى هذا

الجواب من حمل كلام حجة الإسلام على نفي الامكـان عن ايجـاد عـالم آخر أو عوالم ونفى فعل الابـداع ومشـيا على قواعـد المعتزلـة وهيهـات هيهـات وإنمـا مـراد حجـة الإسـلام التنبيـه على ان سـبب هـذا الاختلاف الواقع في العالم بين اجناسـه وانواعـه وبين أشـخاص أنـواع الواحـد هـو القضـاء الازلي وسـبب القضـاء الازلي هـو الحكمـة من اسـمائه تعـالى الحكيم فهي المخصصـة للاسـتعدادات والحكمـة متقدمـة بالمرتبـة على العلم الازلي فمــا ظهــر فيث هــذه النســخة الشــهادية الا مــا طلبتــه الاستعدادات الازلية الغير المجعولة فكا ما ظهـر في العـالم فهـو العـدل الحق ولا يظلم ربك أحداً . 'جواب آخر'

قال تعـالى ربنـا الـذي أعطى كـل شـيء خلقـه ثم هـدى المطلـوب من الواقف على هذا الموقف ان يعطيه مـا يسـتحقه من التأمـل والإنصـاف فإنها مسـألة تكـررت في البحث عنهـا أظـافر كثـيرين ليعلم ان الأشـياء الممكنـة معلومـة للحـق تعـالى حالـة عـدمها بعلم محيـط إجمـالي في تفصيل لا يتناهى والشيئية المذكورة في هذه الآية هي الشيئية الوجوديـة أعطى كل شيء أي موجود خلقه طبيعته واسـتعداده كمـا هي في قولـه وقد خلفتك من قبل ولم تك شيئاً أي موجوداً لا الشيئية الثبوتية كمـا هي في قولـه انمـا قولنـا لشـيء الآيـة وهي الشـيئية المعلومـة المجـرد عن الوجود العيني ولحقائق الممكنات استعدادات كـذلك معلومـة لـه تعـالى ثابتة معدومة وكما ان عدم الممكنات السابق على وجودها غير مراد ولا مجعـول فكـذلك اسـتعداداتها وطبائعهـا الكليـة غـير داخلـة تحت الإرادة والجعل لأنها اقتضآات أسمائية إلهية التي هي حقائق أول وهــذه حقــائق ثوان والممكن من حيث هو ممكن بالنظر إلى حقيقة الإمكان لا يقتضــي شيئاً لذاته فلا بد من مرجح إذ وقوع أحد المتساويين بلا مرجح لما يلفزم من التساوي وعدم التساوي والمرجح إلا بالعلم والإرادة المتقدمين على الـترجيح بـالنظر إلى كـون عملـه تعـالى قـديماً محيطـاً لا يقبـل التغـير

لاستحالة فالممكن المعلومة حالـة عدمـه لا يقبـل التغيـير لمـا يلـزم من انقلاب العلم جهلاً إذ المحـال كـانت معنويـة أو عينيـة تعطي الحـال بهـا أحكاما ليست له بمجرد النظر إلى ذاته فلوم من هذا انه تعالى لا يعطي حقيقة وذاتاً من ذوات الممكنات حالة إيجـاده من الأحـوال والصـفات الا ما علمه منه حالة عدمه لطلبه لذلك باستعداده وطبعه الذي هو مقتضى حقيقته إذ انقلاب الحقائق محال وصح حجة الإسلام الغزالي رضـى اللـه عنه ليس في الإمكان أصلاً أحسن ولا أتم ولا اكمل مما كان أي مما هــو عليـه كـل ممكن في الحـال ويكـون عليـه في المسـتقبل من الأحـوال والصفات دنيا وأخـرى يعـني انـه ليس في الممكن الجـائر أن يكـون في حق إفراد كل حقيقة وذات نسبت إلى الوجود في العـالم أعلاه وأسـفله احين واتم واكمـل ممـا كـان أي ممـا أعطيت أشـخاص كـل حقيقـة من الأحوال والصـفات والأوضـاع لأنـه تعـالى فعـل بهـا وأعطاهـا مـا تطلبـه باستعدادها وتستحقه بطبعها الذي علمه منها حالة عدمها فكما انه تعالى اخبر انه لا يعطيها في النهايـة إلا وصـفها لقولـه سـيجزيهم وصـفهم انـه حكيم عليم ولا يظلم ربك أحداً لأنه علمهم على تلـك الصـفات والأحـوال في الـدنيا فكـذلك في البدايـة لم يعطهم من الأحـوال والصـفات الا مـا علمهم عليه قبـل وجـودهم وهي اسـتعداداتهم لأنـه علمهم مـتى وجـدوا يكونوا على تلـك الأحـوال والصـفات والهيئـات والأوضـاع لأنهـا مقتضـى استعداداتهم التي هي حقـائقهم أو لـوزام حقـائقهم ومن الـبين ان العلم ظل المعلوم وحكاية له فهـو تـابع ولا احسـن ولا اكمـل ولا أتم ولا احكم من عطاء كل مستعد ما هو مستعد له فانـه لا يطلب غـيره بـل لا يقبلـه فانه لا يصلحه ويمشي به على حقيقته الا ذلك الا ترى مثلاً إلى اسـتعداد الشمعة للانطفاء بالنفخ واستعداد قبضة الحشيش اليابس للاتقاد به ولـو أراد النافخ إذا كان غير عالم بالاستعداد ولا حكيم فيعطي كـل شـيء مـا يستحقه ايقاد الشمعة بالنفخ ما قبلت ذلك لأنه خارج عن استعدادها كما

انه إذا أراد اطفاء قبضـة الحشـيش بـالنفخ مـا قبلت ذلـك كـذلك الفعـل والفاعـل واحـد ولكن الاسـتعدادات مختلفـة والطبـائع متباينـة فـالتجلي الالهي واحد وحقائق الممكنات تقبله بحسب اسـتعداداتها وقوابلهـا فمن الاسـتعدادات مـا يعم جميـع أشـخاص الحقيقـة الواحـدة كالتغـذي مثلاً الحيوان والنبات وقد ينفرد كل نوع من أنواع الجنس الواحـد باسـتعداده طبية كاستعداد أنواع الحيوان المصوت كل نوع إلى صوت يخالف الآخــر ومــا ذاك الا لاختلاف الاســتعدادات وقــد لا تنحصــر الاســتعدادات في أشـخاص النـوع الواحـد ولا في أنـواع الحقيقـة والجنس الواحـد والحـق تعــالى واســع عليم بالاســتعدادات على اختلافهــا حكيم يضــع الأشــياء مواضعها التي تستحقها جواد يعطي كل مستعد ما يطلبه باستعداده وهو معـنى أعطى كـل شـيء خلقـه أي طبيعتـه واسـتعداده ثم هـدى أي بين ويسر وساق كل شيء بعد ايجـاده إلى مـا هـو مسـتعد لـه قبـل ايجـاده فليس له تعالى الا اعطاء الوجود للاحوال والصفات لكل مسـتعد حسـب استعداده وطلبه لذلك بلسان حاله الذي هو الاضطرار وهو تعـالى يقـول أمن يجيب المضطر إذا دعاه فكلام حجة الإسلام رضي الله عنه انما هــو في بيان انه تعالى ما ظلم احداًمن خلقه ولا عدل به عما علمه منه حالة عدمه ولا نقصه خردلة ممـا طلبـه باسـتعداده وخلقـه وطبيعتـه ان خـبراً فخير وان شراً فشر وان نقصاً فنقص وان كمالاً فكمال وبهـذا كـانت لـه الحجة البالغة على مخلوقاته في بيـان ان الأحـوال والصـفات والأوضـاع المجعولــة لا يمكن ان تكــون اعلا ممــا هي عليــه ولا لأنهــا مقتضــى استعدادات الحقائق والذوات من غير تعرض لشيءٍ آخر وراه ذلك اصـلاً ولو قيل لحجـة الإسـلام هـل في الامكـان العقلي ان يخلـق اللـه تعـالى حقائق احسن واتم واكمل مما خلق اعني قدر لقــال هــو ممكن عقلاً إذا أراد واما كشفاً فهو محال لان العالم نخلوق على الصورة الالهيـة وحجـة الإسلام انما يتكلم مع الجمهـور أصـحاب العقـول فهـو يقـرب الأمـر إلى

عقولهم ولو قيـل لـه وهـل في الامكـان ان يعطي تعـالى تلـك الحقـائق صفاتاً واحوالاً اعلا وادون مما تقضيه استعداداتها التي علمهـا عليـه قبـل نسبة الوجود إليها لقـال لا يمكن لان القـدرة انمـا تتعلـق بـامكن ووقـوع خلاف العلم الالهي مستحيل يؤيد حمل كلامـه رضـى اللـه عنـه على مـا ذكرناه لا غير قول الذي بنى عليه المقالة عندما تكلم فيما يثمـر التوكـل ما نصـه باختصـار بعض الكلمـات هـو ان تصـدق يقينـاً ان اللـه لـو خلـق الخلائـــق كلهم على عقـــل اعقلهم وعلم اعلمهم وافـــاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفه ثم كشـف لهم عن عـواقب الأمـور واطلعهم على اسرار الملكوت وامرهم ان يدبروا الملك والملكوت بما اعطوا من العلم والحكمة لما اقتضى تدبير جميعهم ان يزاد فيما دبر الله به الخلـق في الدنيا والآخرة جنـاح بعوضـه ولا ان ينقص منـه جنـاح بعوضـة ولا ان يرفـع عيب أو نقص أو مـرض أو ضـر عمن بلى بـه ولا ان يـزال غـنى أو صـحة أو كمـال أو نفـع عمـا انعم بـه عليـه بـل كـل مـا خلـق اللـه من السموات والأرض وكل ما قسم الله بين عبـاده من رزق واجـل وسـرور وحزن وعجز وقدرة وايمان وكفر وطاعة ومعصية عدل لاجور فيه وحـــق لا ظلم فيه بل هو على الـترتيب الـواجب الحـق على مـا ينبغي وبالقـدر الذي ينبغي وليس في الامكان اصلاً احسن منه ولا اتم ولا اكمل ولو كان وادخره مع القدرة لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً ايناقض العدل ولـــو لم يكن قادراً لكان عاجزاً والعجز يناقض الالوهية يعنى رضى اللـه عنـه انـه تعالى لو اعطائهم ما اعطاهم وكشف لهم عن عمله بالاشياء في العــدم فعرفوا استعداداتها وطبائعها التي تقضـيها لـرأوا حقـائق الأشـياء طالبـة لصفاتها واحوالهم واوضاعهم التي تعرض لهـا بعـد الايجـاد العيـني طلبـاً طبيعياً لزومياً ورأوا تلك الصفات والأحوال على اختلاف ازمنتها وامكنتهـا مترتبـة ترتيبـاً اقتضـائياً بحيث تكـون الحالـة الأولى جاذبـة للـتي بعـدها مستلزمة لها كحلق السلسلة يجذب بعضها بعضاً جذباً طبيعياً فلـو عكس

هـؤلاء الـذين امـرهم الله تعـالى ان يـدبروا الخلـق بمـا افـاض عليهم واعطاهم من العلم والحكمة خردلة ما انتظم العالم بل لا يمكنهم زيـادة خردلة ولا نقصانها لأنه قلب للحقائق وهو محال وتغيير لمعلوم العلم ازلاً وهو محال أيضاً إذ العلم لا بد له من معلوم ومتى ما ظهر طبق به العلم القديم لا ازيـد ولا أنقص بزمانـه ومكانـه لا يتقـدم ولا يتـأخر فهـو تعـالى يخلق ما يشاء ويختار ولا يشـاء ويختـار الا مـا علم من كـل معلـوم حـال عدمه وهو ما عليه كل ممكن حالة وجوده من جميع احواله وصفائه التي لا نهاية في الدار الدائمة فلا يصح ان الحق تعالى يعجز عن شيء بل هو القـادر المطلـق ولكن يقـال الحـق لا يفعـل الا مـا أراد واختـار ولا يريـد ويختار الا ما علم والمعلوم لا يتغير فلـو كـان في الامكـان خلاف الواقـع بحسب ما عليه كل ممكن من الأحـوال والصـفات مـع طلب الممكن أي ممكن كـان من الممكنـات باسـتعداده ولسـان حالـه الاحسـن والاكمـل بالنسبة إلى ما أعطى من الصفات والأحوال على سـبيل فـرض المحـال إذ لايطلب شيء غير مـا هـو مسـتعد لـه البتـة لكـان بخلاً ينـاقض الجـود وظلماً يناقض العدل والبخل والظلم حال فاللازم وهو منـع السـتحق مـا هو مستحق له طالب له باستعداده محال والظلم وضع الأشياء في غــير مواضعها التي تستحقها باستعداداتها والعلم والحكمة ولـو لم يكن قـادراً على ما يريد لكان عاجزاً والعجز محال فهو تعالى عالم قادر مريد مختار ولعلمه وارادته واختياره لا يعطي شيئاً من الممكنـات الا اسـتعداده لأنـه مقتضى الإرادة المترتبة على العلم المترتب على المعلوم فتبين من هذا ان لا اغتزال ولا فلاسفة ولا جبر ولا ايجـاب في قـول حجـة الإسـلام في هذه بل هو كلام صفوة الصفوة من أهل السنة والجماعة . والحاصـل ان حجة الإسلام رضي الله عنه رمز بهذه المقالـة إلى سـر القـدر المتحكم في الخلائق وهو الذي تنتهي إليه الاسـباب والعلـل وهـو لا سـبب لـه ولا علة فلا يقال فيه لم ولا كيف قـال رضـي اللـه عنـه بعـد مـا قـدمناه من

كلامـه وهـذا الآن بحـر ذاخـر عظيم عميـق واسـع الاطـراف مضـطرب الامواج غرق فيه طوائف من القاصرين ولم يعلمـوا ان ذلـك غـامض ولا يعقله الا العالمون وراء هذا البحر سـر القـدر الـذي تحـير فيـه الاكـثرون ومنع من افشاء سره المكاشفون إلى آخر المقالة فاعتـاض هـذا الرمـز على الافهام من الخاص والعام وتباينت فيـه الآراء من لـدن عصـر حجـة الإســلام اللى هلم جــراً حيث كــان هــذا الرمــز موزعــاً بين طريقـــة المكاشفين وطريقة المتكلمين فهم بين معتقد مجيب ومنقد غير مصيب اما العارفون بالله فقد عرفـوا صـحة معناهـا واصـل مبناهـا غـير انـه مـا استقام لهم تطـبيق اللفـظ على المعـنى المـراد الاسـتقامة الخاليـة عن التكلف السالمة من الاعتراض واما غـير العـارفين من مجيب ومعـترض فهم يتخبطمن بين الكلام السنة والاعتزال والكـل في ناحيـة عن مـرمى حجة الإسلام واكثر من بسـط الكلام في هـذه المقالـة من الـذين وقتنـا على كلامهم الشيخ احمد بن المبارك في كتـاب الابريـز وقـال انـه فعـل ذلك نصيحة للمسلمين والله ينفعه بقصـده وهـو من القـادحين في هـذه المقالة والحق ضالة المؤمن ياخـذها عنـد من وجـدها عنـده ومن عـرف الحق بالرجال تاه في مهامه الضلال . 'سؤال آخر منه لحضرته'

سيدنا الهمام ادام الله بـه النفـع على الـدوام ذكـرت لحضـرتكم مسـئلة الرؤيـا وانهـا اشـكلت على هـذا الحقـير من جهـة التفرقـة بين الرؤيـا الصالحة والحلم لان الوارد ان الصالحة من الله وان الحلم من الشيطان ولم يظهر لداعي هذه النسبة لان العالم في النـوم لا تفتـوت بينهم فـان كان بالنسبة إلى صلاح الرى وعدمـه فكثـير من أهـل الصـلاح يـرون في منامهم أشياء ظاهرة الحلم وان كان لغير ذلـك ارجـو من السـيادة بيـان الأمر كذلك ذكرت لسيادتكم ان انكـار الرؤيـا الـذي حكـاه في المواقـف عن جمهور المتكلمين بقولها انها خيالات هل يكفرون بـذلك ام لا فـارجو كشف القناع عن هذه المسئلة بما يظهـر بـه للـداعي حـل مشـكل هـذا

الأمـر من كلام أهـل البـاطن والظـاهر وممـا تفضـل اللـه بـه عليكم من الوارادات الآلهية واجراه على لسانكم من ينابيع الحكمة الصمدانية وربنا يجعلكم منهلاً لكل وارد والسلام عليكم ورحمة الله . 'والجواب'

الحمد لله وحده والعلم عنده سامحوني في التأخير فاني ما وجدت وقتاً الا هذا ليعلم ان إدراك أمر الرؤيا صعب على العقل من حيث ذته وآلاتـه التي يقتنص بها العلوم لا من حيث استعداده وقبولـه فهـو يـدرك مـا هـو اعظم من أمر الرؤيا كالتجليات الالهيـه مـع غموضـها ولطفهـا ولا يـدرك أمر الرؤيا الا من علم الخيال المطلـق والخيـال المقيـد وعلم ذلـك ركن من أركـان العلم باللـه تعـالى فنقـول على جهـة الإيمـاء والاختصـار ان الخيال المقيد مرتبة من مراتب الشعور تلطف الكثيف المقيـد وتكشـف اللطيف المقيد والرؤيا المنامية شعبة منه والحـق تعـالى جعـل في عين الإنسان وفي سائر قواه نورين نور يـدرك بـه المحسوسـات وقـد يـدرك بعض المتخيلات يقظـة كمـا الأنبيـاء وبعض الأوليـاء وهـو من المسـائل الثلاث التي يجتمع فيها النبي والولي مناماً وغيبـة وفنـاء لغـيرهم . ونـور يدرك به المتخيلات اما في النوم أو حالة غيبية عن المحسوسـات أو في حالة الفناء أو في اليقظة كما للأنبياء والأوليـاء وكـل الادراكين في العين ولا يقدر الإنسان ان يفرق بينهما الا إذا كان من الكمال وقد جعل الحــق تعـالى برزخـا بين عـالم المعـاني المجـردة عن المـواد وبين الأجسـام المادية وهو المسمى بالخيال المطلق وبالبرزخ وهو حضرة ذاتية معقولة إذا تنزلت المعاني المجردة عن المواد إليه تصورت بالصور الماديـة كمـا تصور العلم باللبن والقيد بالثبات وفي هذه الحضرة الخاليـة لكـل شـيء من الأجسام والمعاني المادية صورة روحانية خيالية لا تقبـل التجـزي ولا الحزق ولا الالتئام مثل الصور التي في أذهاننا فإذا نام الإنسـان أو غـاب عن المحسوسات بسبب شيء مما قد منـاه واراد الحـق ان يريـه شـيئاً من أمر الملك الموكل بالمرآى بافاضة ذلك وكشفه للروح الإنسـاني في

حضرة الخيال المقيد اما بواسطة الشيطان وهو إلقاء ما قيه تحزين واما بواسطة النفس وهي الرؤيا التي فيها حديث النفس واما بواسطة الملك وهي البشرى المنسوبة إلى الله تعالى وقد وردت التفرقة بين هذه الثلاث فيما رواه الترمذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب واصدقهم رؤيا اصدقهم حديثاً ورؤيا لبمسلم جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة والرؤيا ثلاث فالرؤيا الصالحة بشرى من الله ورؤيا من تحزين الشيطان ورؤيا مما يحدث المرء به نفسه فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقم ولينتفل عن يساره ثلاثا ولا يحدث به الناس الحديث فبين صلى الله عليه وسلم ان التي من الله هي الرؤيا التي فيها بشرى كان يعمل الرائي عمل بر فيه اما يحثه على الزيادة منه وملازمته أو يكون عمل سوء فيرى ما يحذره منه ويخوفه سوء عاقبة ذلك الفعل وبالجملة ان يرى كل ما ينتفع به في معاده ومعاشه والتي هي من الشيطان هي ان يرى مل يورثه هماً وحزناً وقد يكون ذلك أو لا يكون ولهذا لا تضره إذا لم يحدث بها أحداً وهنا ستر تركناه وبين صلى الله عليه وسلم دواء هذا التخزين والتريض الشيطاني وهو ان يقوم وينقل عن يساره ثلاثاً ويستعيذ بالله من شؤها فانها لا تضره كما ورد في عدة أحاديث وهذا كما يوسوس الشيطان للإنسان في يقظته ويلقي الله أشياء توجب له غماً وحزناً وقد لا تكون ابداً لان الشيطان عدو للإنسان يريد إدخال الضرر عليه يقظة ونوماً ونسبة هذا القسم إلى الشيطان لكونه بواسطته والا فالكل من الله تعالى كما انقسمت الخواطر إلى رباني وملكي وشيطاني ونفساني والكل من اللع كما قال فالهما فجورها وتقوها لأجل لواسطة والادب مع الحق تعالى في نسبة الخيرات إليه ونسبة الشرور إلى الوسائط من المخلوقات وقولكم العالم لا تفاوت في النوم بينهم بل بينهم تفاوت عظيم كما هو في اليقظة فان النوم أخو الموت قال تعالى الله (يتوفى

الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) وورد في الحديث يمــوت المرء على ما عاش عليه فليس نوم من غالب أوقات يقظته حضوره مع الله ومراقبته للشارع في حركاتــه وســكناته وكلامــه وصـحبته كنـوم من غالب أوقات يقظته غفلة عن الله تعـالى ولهـوا وهـذياناً وانتقـالا بـالخلق عن الخالق فان الأول إذا نام نام على ما كان عليه في غالب يقظتــه فلا تكون رؤياه غالباً الا من الله تعالى لأنــه امــا معصــوم كـالنبي كـالولي أو معتنى به كخواص صلحاء المؤمنين إذ ليس الشيطان سلطان على عبـاد الله المخلصين في يقظتهم فكذلك في نـومهم وان كـانت رؤيـاه حـديث نفس مما كان غليه في يقظته فهي ملحقـة بمـا هي من اللـه فـان كـان في يقظته مع الله أو مع أحكامه فان حصـل لهـذا تحـزين من الشـيطان في رؤياه فهو نادر والنادر لا اعتداء بـه ولا اعتبـار لـه ويكـون ذلـك ابتلاء يعود عليه بالخبر كما إذا وسوس له في يقظته فانه من الذين إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون أو يكون ذلك ليس تحزينـاً في نفس الأمر ولكن الخطأ في التعبير والثاني إذا نام نام على مــا كــان عليــه في يقظتــه ولا تكــون رؤيــاه غالبــاً الا من تلاعب الشـيطان أو من حديث النفس مما كان عليه في يقظتـه فـإذا حصـلت لـه رؤيـا من اللـه تعالى نادراً فاما ان يكون ممن سبقت له الغاية الإلهيـة وقـد انتهت مـدة قطيهة وتلاعب الشـيطان بـه وامـا ان يكـون لتلـك الرؤيـا أهـل الشـرك والسجون وساق ما ورد في قصة يوسف عليه والسلام مع العزيز يشــير إلى ان أهل الشرك والفسق قد تصدق رؤياهم نادراً قـال بعض سـادات القوم رضوان الله عليهم لا تصدق رؤيا المشرك وما في معناه من أهــل الفسق الا إذا تعلق بها حق لموء من فليست رؤيا مطلق المسلم كرؤيــا المسلم وقد ورد في روايات الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح فالمسلم المطلـق محمـول على المسـلم المقيـد ولا بـد وقـد تقـدم في الحـديث اصدقهم رؤيا اصدقهم حديثاً وامــا مــا حكى عن الجمهــور المتكلمين من

ان النوم يضاد الإدراك وان الرؤيا خيالات باطلة فهذا القول مستبعد جداً صدوره من مؤمن بكتاب الله وسنة رسوله كيف مع شهادة الكتاب والسنة بصحة الرؤيا ولو كشف الله تعالى لهذا القائل عن الخيال المطلق والخيال المقيد لعلم ان إدراك الخيال اصح من إدراك الحس لان الحس له غلطات كما قيل والخيال لا غلط في إدراكه وإنما الغلط في التعبير ةان صح هذا القول عن أحد من العقلاء فمراده ان ما يتخيله النائم إدراكاً بالبصر رؤية وكون مت يتخياه إدراكاً بالسمه باطل فلا ينافي هذا خقيقة بمعنى كونه امارة لبعض الأشياء لذلك الشيء نفسه أو يضاهيه ويحاكيه وإلا فإنكار الرؤيا إنكار للضروريات الطبيعية فان كل إنسان من مؤمن وكافر ومطيع وعاص بجدها من نفسه وتصلكم كلمات مختصرة في الخيال فطالعوها ان شئتم ثم ردوها علي . 'وهذا جواب لسؤال وارد منه أيضاً'

الحمد لله الذي اطلعت عليه من كلام الأئمة منه ما يفيد ان كون أول السنة القمرية المحرم وآخرها ذو الحجة انما كان باتفاق الصحابة في خلافة عمر ومنه ما يفيد ان ذلك كان قديماً سابقاً اما ما يفيد بظاهره ان ذلك قديماً فقوله تعالى (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشراً) في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض الآية قال الشيخ إسماعيل في تفسيره ان الله تعالى اجرى الشمس والقمر في السماوات يوم خلق السموات والأرض فمبلغ عدد الشهور اثنا عشراً اولها المحرم وآخرها ذو الحجة اه فهذا الكلام صريح في ان كون أول الشهور عند الله في كتابه أي اللوح المحفوظ كما في آية ان عدة الشهور وروى سعيد بن مصور في سننه بسنده إلى ابن عباس انه قال في قوله تعالى (والفجر الفجر شهر محرم) وهو فجر السنة أخرجه البيهقي في الشعب وإسناده صحيح ومثل هذا لا يقوله ابن عباس بالرأي قال ابن حجر في اماليه بهذا يحصل الجواب عن الحكمة في تاخير التاريخ من الهجرة وإنما كانت في

ربيـع الأول اه وقـال شـارح اللمـع بين العـام والسـنة فـرق في الوضـع العربي فالعام من أول المحرم إلى آخر ذي الحجة والسنة من كـل يـوم إلى مثله من القابل اه وقال أبو البقاء السنة في عرف الشـرع من كـل يوم إلى مثله من القابل بالشـهور الهلاليـة والعـام من أول المحـرم إلى ذي الحجة اه وقال ابن أبي خيثمة لما اختلف الصحابة في الشـهر الـذي يجعلونه أول السنة قام عثمان فقال المحرم هـو أول السـنة وهـو شـهر حـرام وهـو أول الشـهور في العـدة اه فهـذا صـريح في ان كـون أول الشهور في العدة من قديم الزمان قبل الإسلام وإنما الصحابة أرادوا ان يجعلوا أول السنة شهراً غـير الـذي جعلـه من كـان قبلهم وفي الصـحيح السنة اثنا عشر شـهراً منهـا أربعـة حـرم ثلاث متواليـات ذو العقـدة وذو الحجة والمحرم ورجب فقد تختلف السلف كما في القسطلاني في عده صلى الله عليه وسلم هذه الاشهر الحرم هل هو من سـنة واحـدة أو من سنتين فعن أهل المدينة انها من سنتين ذو العقـدة وذو الحجـة من سـنة والمحرم ورجب من سنة وعن أهل الكوفـة انهـا من سـنة واحـدة اولهـا المحـرم ثم رجب ثم ذو العقـدة ثم ذو الحجـة فلـو لم يكن للسـنة أول عنده عليه السـلام مـا ظهـرت ثمـرة اختلافهم لأنـه إذا لم يكن للشـهور ترتيب تكون الشهور كدائرة لا يعرف طرفها فليس لها أول ولا آخر وهذا من ابعد ما يكون وقال القسطلاني في قوله عليه السلام ان الزمان قـد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض أي عاد الزمان إلى اصـل الحساب والواضع الذي اختاره الله ووضعه يوم خلـق السـموات والأرض اه فاستدار الزمان ورجوعه إلى اصله لا يكون الا بترتيب أجزائه ورجـوع الأول أولاً والآخر آخراً فيكون للشهور أول وآخر واما ما يفيد ان الصحابة هم الذين جعلوا أول شهور العـام العـربي المحـرم فنقـل الـدماميني ان الصحابة اختلفوا باي شهر يبتدؤن التاريخ فقـال بعضـهم برمضـان وقـال آخرون بالمحرم اه ونقل القسطلاني عن الحاكم ابن البيع ان عمـر قـال

أرخوا بالمحرم لأنه منصرف الناس من حجهم فاتفقوا عليه اه ويبعد كـل البعد عقلاً ان يكون الرسول عليه السلام ومن أرسـل قبلـه إلى العـرب ومن مضى من ملوك العرب الذين ملكوا المغرب إلى منتهى المعمـورة والمشرق إلى الصين لم يجعلوا لشهورهم أولاً ولا آخراً ولا عرفوا ابتـداء علمهم ولا نهايته مع انهم سـموا العـام عامـاً لعـوم الشـمس فيـه جميـع الفلـك وقطعهـا الأبـراج فيعلمـون هـذه المناسـبة ويجهلـون أول العـام والجمع بين القولين ولله اعلم ان كون أول الشـهور في العـدة المحـرم معروف من قديم الزمان ولكن الصحابة أرادوا ان يجعلـوا مبتـدأ للسـنة باختيارهم ويخالفوا من قبلهم كما خالفوهم في التاريخ فان العرب كانت تؤرخ بعام الفيل وبحرب الفجـار وببنـاء الكعبـة ونحـو ذلـك واللـه اعلم .

وسأله حضرة العلامة السيد محمد أفندي حمزة مفتي دمشق الشام

ونص سؤاله الحمد لله وحده قد ورد في أيام الـدجال يـوم كسـنة ويـوم كشهر ويوم كجمعة وكذلك اليوم الذي مقداره خمسـون ألـف سـنة هـل المراد في كل منهما طول المدد حقيقة ام لشدة الهـول في كـل منهمـا عبر عنه كذلك المعقول والمنقول في ذلك وما هو حي عن ميت أو ميت عن الميت معلوم فلنضرب عنه صحفاً . فأجابه بقوله

الحمد لله اما أيام الـدجال فطواهـا لشـدتها وكـثرة الغيـوم حـتى يلتبس الليل والنهار لأنه عليه السلام سئل عن الصلاة فقال اقدروا لها وأوقـات الصلاة أسباب بوجوبها ولا تجب صلاة الا بوقتها فاليوم الذي كسـنة تجب فيه خمس صلوات فقط واما اليـوم الـذي مقـداره خمسـون الـف سـنة فاعلم ان امور الاخرة مبينة على اظهار القدرة عكس الدنيا فانهـا مبنيـة على الحكمة فطوله لشـدته ويكـون هـذا الطـول في حـق بعض النـاس كقدر صلاة ركعتي الفجر والقدرة تظهر الطويل قصيراً والقصـير طـويلاً وتظهر ما لا يتناهى متناهياً فانها تجمع الاقدار وكل من قال ان قدرة الله

لا تتعلق بالمستحيل عقلاً فهو جاهل بالله تعالى . 'جواب لسؤل وارد منه أيضاً'

الحمد لله وحده روى البخاري انه صلى الله عليه وسلم ما خير بين امرين الا اختار يسرهما ما لم يكن اثماً كان ابعد منه ورواه الترمذي ماثماً بدون زيادة فان كان اثماً الخ واعلم ام التخيير له صلى الله عليه وسلم اعم من ان يكون من الله تعالى ومن الكفار والمنافقين وان الله تعالى قد يخير بين حكمين في حقه صلى الله عليه وسلم أو في حق الأمة فان كان التخيير من الله تعالى له صلى الله عليه وسلم فيكون الكلام قد تم عند قوله ايسرهما فانه تعالى لا يخير رسوله بين ما يكون اثماً وبين غيره فانه تعالى لا يامر بالفحشاء وللعصمة الثابتة لهصلى الله عليه وسلم ويكون قوله ما لم يكن اثماً بمثابة الاستثناء المنقطع وان كان التخيير من غيره تعالى فيحتاج إلى زيادة ما لم يكن اثماً الخ أي ان كان من غيره تعالى فهو مقيد ما لم يكن اثماً وان كان التخيير بين ما يكون اثماً حقيقة أو يؤل إلى الاثم كان ابعد الناس منهصلى الله عليه وسلم . واجاب عن سؤل ورد إليه بقوله

اما قولك ارجو ان تتكرموا علي بكل ما تعلمونه بخصوص الصابئة فما اصلهم وما شريعتهم وما داعيهم لهذا المعقد وهل هم أهل كتاب وما كتابهم الخ فاعلم اولاً ان التقسيم الضابط للملل والنحل هو ان نقول من الناس من لايقول بمعقول ولا محسوس وهم السوفسطائية القائلون العالم كله خيال باطل لا حقيقة له لا ظاهراً ولا باطناً ومنهم من يقول بالمعقول وهم الطبيعيون وعلى هذا المذاهب اكثر أهل اوربا اليوم ومنهم من يقول بالمحسوس والمعقول ولا يقول بحدود واحكام وهم الفلاسفة الدهرية القائلون لا اله العالم انما هي ارحام تدفع وارض تبلغ وما يهلكنا الا الدهر ومنهم من يقول بالمحسوس والمعقول والحدود والاحكام ولا يقول بشرائع الانبياء ولا بالنبوة وهم الصابئة المسؤول عنهم وسنبين مذاهبهم ومنهم من يقول بهذه كلها وبشريعة واسلام ولا يقول بشريعة محمد عليه السلام وهم اليهود والنصارى والمجوس ومنهم من يقول بهذه كلها وهم المسلمون وهؤلاء الفرق انقسموا إلى من له كتاب محقق كالتوراة والانجيل والقرآن والى من له شبهة كتاب مثل المجوس والمانوية فان الصحف التي نزلت على إبراهيم الخليل عليه السلام قد رفعت لاحداث احدثوها المجوس ولهذا يجوز عقد العهد والزمام معهم ولا تجوز مناكحتهم ولا اكل ذبائحهم ومنهم من ليس له كتاب ولا شبهة كتاب .وهم ما عدا من

ذكر من أهل الملل والنحل فاما الصابئة المذكورون في القرآن الكريم فهم طائفة كانوا في زمن الخليل عليه السلام فكانت الفرق راجعة إلى اصلين ح احدهما الصابئة الثانية الحنفاء اتباع ملة الخليل عليه السلام فالصابئة كانت تقول انا نحتاج في معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته واوامره واحكامه إلى متوسط والمتوسط يجب ان يكون روحانيا لاجسمانيا وذلك لطهارة الارواح ونزاهتها وقربها من رب الارباب والجسماني بشر مثلنا ياكل كما ناكل ويشرب كما نشرب يماثلنا في الصورة الحقيقة والحنفاء وهم أصحاب ملة اراهيم عليه السلام يقولون نحتاج في معرفة الله وطاعته إلى متوسط من جنس البشر تكون درجته في الطهارة والعصمة والتاييد والحكمة فوق الروحانيات يماثلنا من حيث البشرية ويبايننا من حيث العصمة الروحانية يتلقى بطرف الروحانية ويلقى إلى نوع الإنسان يطرف البشرية فمدار مذهب الصابئة على التعصب للروحانيين كما ان مدار مذهب الحنفاء هو التعصب للبشر الجسمانيين والصابئة تدعي ان مذهبها هو الاكتساب والحنفاء تدعي ان مذهبها هو الفطرة فدعوه الصابئة إلى اكتساب ودعوه الحنفاء إلى الفطرة والصبائة فرقتان أصحاب الروحانيات وأصحاب الهياكل وهي السيارات السبع اما أصحاب الروحانيات فمذهبهم ان للعالم صانعاً حكيماً مقدسا عن سمات الحدوث والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله وإنما يتقرب بالمتوسطات المقربين إليه وهم الروحانين المطهرون المقدسون جوهراً وفعلاً وحالاً فهم المقدسون عن المواد الجسمانية المنزهون عن الحركات المكانية والتغييرات الزمانية وإنما ارشدنا إلى هذا معلمنا الأول عاديمون وهو شيش عليه السلام وهرمس وهو ادريس عليه السلام فنحن نتقرب إليهم ونتوكل عليهم وهم اربابنا وآلهتنا ووسئلنا وشفعاؤنا عند رب الارباب واله الالهة فالواجب علينا ان نطهر نفوسنا عن دنس الشهوات الطبيعية ونهذب اخلاقنا عن علائق القوى الشهوانية والغضبية حتى تحصل مناسبة ما بيننا وبين الروحانيات فنسال حوائجنا منهم ونعرض احوالنا عليهم فيشفعون لنا إلى خالقنا وخالقهم وهذا التهذيب لا يحصل الا باكتسابنا ورياضتنا وفطام انفسنا عن دنيات الشهوات باستمداد من جهة الروحانيات والاستمداد هو التضرع بالدعوات واقامة الصلوات وبذل الزكوات والصيام عن المطعومات والمشروبات وتقريب القرابين والذالح وتنجير البخورات وتعزيم العزائم فيحصل لنفوسنا استعداد واستمداد من غير واسطة بل يكون حكمنا وحكم من يدعى الوحي على وتيرة واحدة قالوا والانبياء امثالنا في النوع واشكالنا في الصورة بشر مثلنا فمن اين لنا طاعتهم وبايس مزية لهم نتابعهم واما الطائفة الأخرى من الصابئة .فهم أصحاب الهياكل والاشخاص قالوا لا بد للإنسان من متوسط ولا بد للمتوسط من ان يرى فيتوجه إليه ويقرب إليه ويستفاد منه ففزعوا إلى الهياكل التي هي السيارات السبع فتعرفوا اولاً بيوتهم ومنازلهم وثانياً مطالعهم ومغرربها وثالثاً اتصالاتها على اشكال الموافقة والمخالفة مرتبة على طبائعها ورابعاً تقسيم الأيام والليالي والساعات عليها وخامساً تقدير الصور والاشخاص والاقاليم والامصار عليها فعملوا الخواتم والعزائم والدعوات وعينوا يوم السبت لزحل مثلاً وراعوا فيه ساعته الأولى وتختموا بخاتمة المعمول على صورته ولبسوا اللباس الخاص به وكان يقضي حوائجهم ويحصل في الاكثر مرامهم وكذلك الحاجة التى تختص بالمشتري في يومه وساعته وكذلك سائر الحاجات إلى الكواكب وكانوا يسمونها ارباباً آلهة والله تعالى هو رب يتقربون إلى الهياكل وهي السيارات السبع تقرباً إلى الروحانيات ويتقربون إلى الروحانيات تقرباً إلى الله تعالى لاعتقادهم ان الهياكل وهي السيارات ابدال الروحينات ونسبتها إلى الروحانيات نسبة اجسادنا إلى ارواحنا فهم الاحياء الناطقون بحياة الروحانيات وهي تتصرف في ابدانها تدبيرا

وتصريفاً وتحريكا كما نتصرف نحن في ابداننا ولا شك ان من تقرب إلى شخص فقد تقرب إلى روحه ثم استخروا من عجائب الحيل المترتبة على عمل الكواكب العجائب والغرائب وهذه الطلمسات والسحر والتعزيم ونحوها كلها من علومهم واما الطائفة الثالثة من الصابئة فقالوا إذا كان لا بد للإنسان من متوسط يتوسل به وشفيع يتشفع إليه والروحانيات وان كانت هي الوسائل والوسائط لا كنا إذا لم نراها بالابصار ولم نخاطبها بالالسن لم يتحقق التقرب إليها الا بهياكلها .والهياكل قد ترى في وقت ولا ترى في وقت لان لها طلوعاً وافولاً وظهوراً بالليل وخفاء بالنهار فلم يصف لنا التقرب بها والتوجه إليها فلا بد لنا من صور واشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب اعيننا تعتكف عليها ونتوسل بها إلى الهياكل فنتقرب بها إلى الروحانيات ونتقرب بالروحانيات إلى الباري تعالى فنعبدهم وهم يقربونا إلى الله زلفى فاتخذوا اصناماً اشخاصاً على امثال الهياكل السبعة كل شخص غي مقابلة هيكل وراعوا في ذلك جوهر الهيكل اعني جوهره الخاص به من الحديد وغيره وصوروه بصورته على الهيئة التي تصدر افعاله عنه وراعوا في ذلك الوقت والساعة والدرجة والدقيقة فتقربوا إليه في يومه وساعته وتبخروا بالبخور الخاص به وتختموا بختامه ولبسوا لباسه وتضرعوا بدعائه وعزموا بعزائمه وسألوا حاجتهم واولائك هم الذين اخبر القرآن عنهم بانهم عبدة الكواكب والاوثان فأصحاب الهياكل وهي السيارات السبع هم عبدة الكواكب لأنهم قالوا بانها آلهة وأصحاب الاشخاص وهم عبدة الاوثان لأنهم سموها آلهة في مقابلة الآلهة السماوية والطائفة الأولى هم عبدة الارواح والملائكة وقد ناظر الخليل عليه السلام هاتين الفرقين كما القرآن بذلك فابتدا بمحاجة أصحاب الاشخاص فقال أتعبدون ما تختشون والله خقلكم وما تعملون وقال لعمه آزر التخذ اصناما آلهة اني اراك في ضلال مبين وقال يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً وهذه الحجة هي التي قال الله تعالى فيها وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ثم عند إلى أصحاب الهياكل السبعة بعد ان اطلعه الله تعالى على ملكوت السموات والأرض كما اخبر تعالى قوله (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) فاطلعه الله تعالى على ملكوت الكونيين والعالم تشريف لها على الرهبانية وهياكلها وترجيحاً لمذهب الحنفاء على مذهب الصابئة وتقريراً ان الكمال في الرجال فاقبل على ابطال مذهب أصحاب الهياكل السيارة السماوية فلما جن عليه الليل رأى كوكباً فقال هذا ربي على وجه الالزام والا فما كان الخليل عليه السلام مشتركاً ثم استدال بالافول والزوال والغير والانتقال بأنه لا يصلح ان يكون رباً الآهاً فان الاله لا يتغير فلو اعتقدتموه واسطة ووسيلة فالافول والزوال غير عز الكمال إلى آخر القصة وهي مذكورة في القرآن ومن الصابئة جماعة يقال عنهم الحرنانية قالوا الصانع المعبود واحد كثير فاما وحدته ففي الذات والاصل والازل واما كثرته فلانه يتكثر بالاشخاص في رأي العين وهي الدراري السبعة والاشخاص الارضية الخيرة العالمة الفاضلة فانه يظهر بها ويتشخص باشخاصها ولا تبطل وحدته في ذاته وهو ابداع الفلك وجميع ما فيه من الاجرام والكواكب وجعلها مدبرات هذا العالم وهم الآباء والعناصر امهات فتحصل الموالد بينهما ثم من المواليد فد يتفق شخص مركب في صفوها دون كدرها ويحصل مزاج كامل الاستعداد فيتشخص الاله به في العالم ثم ان الطبيعة الكل يحدث على راس كل ستة وثلاثين الف سنة واربعمائة وخمس وعشرين زوجين من كل نوع من اجناس الحيوانات ذكراً وانثى من الإنسان وغيره .فيبقى ذلك النوع تلك المدة ثم إذا اتقضى الدور انقطعت الادوار ونسلها فيبتدىء دور آخر ويحدث قرن آخر من الإنسان والحيوان وهكذا ابد الابدين ودهر اخبر القرآن الكريم عنهم انهم قالوا ما يهلكنا الا الدهر ومن هذه المقالة نشأ التناسخ

والحلول فان التناسخ هو ان تتكرر الاكوان والادوار ما لا نهاية له ويحدث في كل دور مثل ما حدث في الأول والثواب والعقاب عند هذه الطائفة في هذه الطائفة في هذه الدار لا في الدار الأخرى ومن هذا المذهب أخذ الدروز بعض مذهبهم واما ذكر الصابئة في القرآن الشريف فانه تعالى أراد بذلك ان الصابئة ومن ذكر معهم من الطوائف انهم مع جهلهم السابق وعقائدهم الفاسدة واقلويلهم الكاسدة إذا آمنوا بالله صدقوا بوجود الله تعالى ووحدانيته ونزاهة عن الشريك والمعين وصدقوا باليوم الآخر وهو يوم القامة وصدقوا محمداً عليه السلام فيما جاء به من الوحي والشرائع وتركوا ما كانوا من الاعتقادات في الله تعالى وعملوا صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون يوم القيامة ولا يوء اخذهم بما سلف منهم من الجهالة في الاعتقادات وفي الاقوال والافعال ثم من منهم الذين هادوا فاعلم ان اليهود هم امة موسى عليه السلام وإنما سموا يهود لقول موسى عليه السلام انا هدنا إليك أي رجعنا إليك وكتاب هذه الأمة اليهودية هو التوراة الشريعة وهو أول كتاب نزل من السماء لان ما نزل على إبراهيم وغيرره من الانبياء عليهم السلام ما كان يسمى كتاباً بل صحفاً وانزل على موسى عليه السلام أيضاً الالواح كانها مختصر ما في التوراة منقسم على الاقسام والعملية قال تعالي في القرآن الكريم (وكتبنا له اي لموسى في الالواح من كل شيء موعظةً وتفصيلاً) واليهود تدعي ان الشريعة لا تكون الا واحدة وهي ابتدئت بموسى عليه السلام وتمت به فلم تكن قبله سريعة الا حدوداً عقلية واحكاماً سطحية ولم يجيزوا النسخ في الشرائع فلم تكن بعد موسى عليه السلام ومسائلهم تدور على جواز النسخ ومنعه وعلى التشبيه ونفيه والقول بالقدر والجبر وتجويز الرجعة واحالتها ولمنع اليهود النسخ في الشريعة لم ينقادوا لعيسى عليه السلام وادعوا عليه انه كان مأموراً بمتابعة موسى عليه السلام وموافقته التوراة فغير وبدل وعدوا عليه تلك التغيرات منها تغيير السبت إلى الاحد ونها تغيير اكل لحم الخنزير وكان حراماً في التوراة ومنها ترك الختان والغسل من الجنابة وغير ذلك واختلفت اليهود على نيف وسبعين فرقة اشهرها العنانية نسبوا إلى عنان بن داوود رئيس الجالوت يخالفون سائر اليهود في السبت والاعياد ويقتصرون على الطير والظبي والسمك ويصدقون عيسى عليه السلام في مواعظة واشارته ويقولون انه لم يخالف التوراة بل قررها ودعا إليها وهو من الانبياء بني اسرائيل المقيدين بالتوراة ومن المستجيبين لموسى عليه السلام الا انهم لا يقولون بنبونه ورسالته ومن هؤلاء من يقول ان عيسى عليه السلام لم يدغ انه نبي مرسل وانه صاحب ناسخة لشريعة موسى عليه السلام بل هو من اولياء الله تعالى المخلصين العارفين باحكام التوراة والانجيل ليس كتاباً منزلاً عليه وحياً من الله تعالى بل هو جمع احواله من مبتدئه إلى كماله وإنما جمعه أربعة من أصحابه الحواريين فكيف يكون منزلاً واليهود ظلموه حيث كذبوه اولا دعوه وقتلوا ولم يعرفوا منزلته وقد ورد في التوراة ذكر المسيح في المواضع كثيرة وذلك هو المسيح عيسى ولكن لم ترد له النبوة ولا شريعة الناسخة . الفرقة الثانية من الفرق المشهورة العيسوية نسبوا إلى أبي عيسى اسحاق ابن يعقوب الاصفاني وقيل اسمه عويد الوهيم أي عايذ الله زعم ان الله تعالى كلمه . وكلفه ان يخلص بني اسرائيل من ايدي الامم العاصين والملوك الظالمين وحرم الذبائح كلها ونهى عن اكل كل ذي روح على الاطلاق طيراً كان أو بهيمة واوجب عشر صلوات كل يوم وخالف اليهود في كثير من احكام الشريعة المذكورة في التوراة وكان يوجب تصديق المسيح عليه السلام . الفرقة الثالثة من الفرق المشهورة البوزعانية نسبوا إلى بوزعان كان يحث على الزهد وتكثير الصلوات وينهي عن اللحوم والا نبذة وكان يزعم ان التوراة ظاهراً وباطناً وتنزيلاً ويأويلاً خالف

عامة اليهود ةخالفهم في التشبيه ومال إلى القدر واثبت الفعل للعبد حقيقة ورتب الثواب والعقاب عليه . الفرقة الرابعة من الفرق المشهورة الموشكانية نسبوا إلى مشكا كان يوجب الخروج عن مخالفيه واثبت نبؤة محمد عليه السلام إلى العرب وسائر الناس غير اليهود لأنه أهل ملة وكتاب زعم ان الله خاطب الانبياء بواسطة ملك اختاره وقدمه على جميع الخلائق وكل ما في التوراة من وصف الله تعالى فهو وصف ذلك الملك وخبر عنه ولا يجوز ان يوصف الله بوصف وما ورد في التوراة ان الله كلم موسى انما هو ذلك الملك فلا يكلم الله بشراً والشجرة المذكورة في التوراةهو ذلك الملك وحمل جميع ما ورد في التوراة مما نسب إلى الله على ذلك الملك وقيل صاحب هذه المقالة هو بليامين اليهودي هو قرار هذا المذهب وقال الآيات المتشابهاتفي التوراة كلها منزلة وان الله لايوصف باوصاف المخلوقات . الفرقة الخامسة من الفرق المشهورة السامرة وهم قوم يسكنون بيت المقدس ونابلس وقرى من اعمال مصر يتنظفون في الطهارة اكثر من سائر اليهود واثبتوا نبوة موسى وهارون ويوشع وانكروا نبوة من بعدهم من الانبياء الا نبياً واحداً وقالوا التوراة ما بشرت الا بنبي واحد يأتي من بعد موسى عليه السلام يصدق التوراة ويحكم بحكمها واقترقت السامرة إلى دوستانية ومعناها الفرقة الكاذبة والى كوستانيدو معناها الجماعة الصادقة وهم يقرون بالآخرة واثبتوا الثواب والعقاب في الدنيا وقبلتهم جبل يقال له عزيم بين بيت المقدس ونابلس وهو الطور الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام فحوله داوود إلى ابليا وبنى البيت ثمت وخالف الأمر والسامرة لتوجه إلى تلك القبلة دون سائر اليهود وزعموا ان التوراة كانت بلسانهم فنقلت إلى السريانية والعبرانية واما قولك من هم الذين اشركوا فاعلم ان الشرك هو اثبات شريك لله تعالى في الوهيته وفي خلقه لمخلوقانه وفي افعاله يقال اشرك بالله كفر به فهو مشرك أنواع شرك استقلال وهو اثبات الهين مستقلين كشرك المجوس وشرك التبعيض وهو تركيب الاله من آلهه كشرك من يدعى انه نصراني وليس بنصراني حقيقة فان النصارى الحقيقين موحدون وشرك التقرب وهو عبادة غير الله ليقرب إلى الله كشرك متقدم الجاهلية من العرب وشرك التقليد وهو عبادة غير الله تعالى تبعاً للغير كشرك متآخري الجاهلية من العرب قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون وشرك الاسباب وهو اسناد التأثير إلى الاسباب العادية كسرك الفلاسفة والطبيعين ومن تبعهم على ذلك وشرك الاغراض وهو العمل لغير وجه الله تعالى بل لنيل غرض من الاغراض ونتكلم على شرك الاستقلال دون غيره فاننا لو تكلمنا عليه تفصيلاً وعلى غيره من أنواع الشرك ماوسعننا مجلدات فاعلم ان شرك الاستقلال هو اثبات الهين مستفلين كشرك المجوس والمانويةوسائر الفرق المجوسية واختصت الاثننية بالمجوس لكونهم اثبتوا الهين اثنين قديمين يقتسمان الخير والشر والنفع والضر والصلاح والفساد ويسمون أحدهم النور والثاني الظلمة وبالفارسية يزدان واهرمن ومسائل المجوس كلها تدور على قاعدتين احداهما بيان سبب امتزاج النور بالظلمة والثانية بيان سبب خلاص النور من الظلمة وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معاداً وهم فرق اشهرها الكيومرتيه أصحاب كيومرت اثبتوا اصلين يزدان واهرمن وقالوا يزدان قديم واهرمن محدث مخلوق قالوا ان يزدان فكر في نفسه انه لو كان له منازع كيف يكون وهذه لفكرة ردية غير مناسبة بطبيعة النور فبحدة الظلام من هذه الفكرة وكان اهرمن مطبوعاًعلى الشر والفتنة والفشاد والضر فخرج على النور وخالفه طبيعة وقولاً وجرت محاربة بين عسكر النور وعسكر الظلمة ثم ان الملائكة توسطوا في الصلح على ان يكون العالم السفلي خالصاًلاهرمن سبعة الاف سنة ثم يخلي العالم ويسلمه إلى النور والذين كانوا في

الدنيا قبل الصلح اهلكهم وابادهم وزعموا ان النور خير الناس وهم ارواح بلا اجساد بين ان يرفعهم عن مواضع اهرمن وبين ان يلبسهم اجساداً فيحاربون اهرمن فاختاروا لبس الاجساد ومحاربة اهرمن على ان تكون النصرة لهم من عند النور وعند الظفر باهرمن واهلاك جنوده تكون القيامة فذلك سبب الامتزاج وهذا سبب الخلاص ومن فرق المجوس الذروانيه قالوا ان النور ابدع اشخاصاً من نور نورانية ربانية والعظيم منها اسمه ذروان شك في شيء فحدث اهرمن الشيطان من ذلك الشك ولهم اقوال وخرافات تمجها العقول السليمة اضربنا عن ذكرها ومن فرق المجوس الزرادشتة أصحاب زرادشت قالوا النور والظلمة اصلان متضادان وكذلك يزدان واهرمن وهما مبدأ وجود العالم وحصلت النراكيب من امتزاجهما وحصلت التراكيب من امتزاجهما وحدثت الصور من التراكيب المختلفة والباري تعالى خالق النور والظلمة وهو أحد لاشريك له ولا يجوز ان ينسب إليه ايجاد الظلمة لكن الخير والشر والصلاح والفساد انما حصلت من امتزاج النور والظلمة ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم وهما يتقاومان ويتغالبانالبان يغلب النور الظلمة والخير الشر ثم ينخلص الخير إلى عالمه والشر ينحط إلى عالمه وذلك هو سبب الخلاص ومنهم صنف يقال له السيسانيه رئيسهم رجل كان زمزمياً في الاصل يعبد النيران ثم ترك ذلك ورفض عبادة النيران ووضع لهم كتاباً وامرهم بارسال الشعور وحرم الامهات والبنات ولاخوات وحرم الخمر وامر باستقبال الشمس عند السجود على ركبة واحدة وحرم الميتة وذبح الحيوان حتى يهرم وهم اعداء المجوس الزمازمة ومن فرق المجوس المشهورة الثنوية وهم أصحاب الاثنيان الازليين يزعمون ان النور والظلمة ازليان قديمان بخلاف المجوس فانهم قالوا بحدوث الظلام وذكروا سبب حدوثه وهؤلاء قالوا بتساويهما في القدم واختلافهما في الجوهر والطبع والفعل والخير والاجناس والابدان والمكان والارواح ومن فرق المجوس المانوية أصحاب مائن اتخذ ديناً بين المجوسية والنصرانية كان يزعم ان العالم مصنوع مركب من اصلين قديمين احدهما نور واللآخر ظلمة وانهما ازليان لم يزالا وانكر وجود شيء لامن اصل قديم وزعم ان النور والظلمة لم يزالا قوتين حساستين سميعتين بصيرتين وهما مع ذلك متضادان في النفس والجوهر والعقل متحاذيان تحاذي الظل والشخص فجوهر النور حسن فاضل كريم صاف نقي طيب الريح حسن النظر ونفسه خيرة كريمة حكيمة نافعة سالمة وفعله الخير والصلاح والنفع والسرور والترتيب والنظام وجوهر الظلمة قبيح ناقص لئيم كدر خبيث منتن الريح قبيح المنظر ونفسها شريرة سفيهة جاهلة ضارة وفعلها الشر والفساد والضر والاختلاف والى هذه الطائفة اشار المتنبي بقوله وكم

لظلام الليل عندي من يد ◈ تخبر ان المانوية تكذب

لان الظلام كان سبباً في وصاله بمن يهوى واحتجابه عن الرقباء واي نفع وخير اعظم من هذا ومن فرق المجوس المزدكية أصحاب مزدك قولهم كقول اكثر لمانوية الاان مزدك كان يقول ان النور يفعل بالقصد والاختيار والظلمة تفعل على الخيط والاتفاق والنور عالم حساس والظلام جاهل اعمى وان المزاج كان على الاتفاق والخيط لامن القصد والاختيار وكان مزدك ينهى عن المخالفة والمباغضة والقتال ولما كان

اكثر ذلك انما يقع سبب النساء والأموال احل النساء والأموال واباح الأموال وجعل الناس كلهم شركة في النساء والأموال كاشتراكهم في الماء والنار والنار والكلا إلى غير هذا من الهذيان فلا نطيل به ومن فرق المجوس الديصانية أصحاب ديصان كان يقول النور عالم قادر حساس دراك منه تكون الحركة واالحياة والظلام ميت جاهل عاجز موات لا فعل ولا تمييز والشر يقع منه طبعاً وخرقاً زان النور جنس واحد وكذلك الظلام جنس واحد وان سمعه وبصره وسائر حواسه وادراكاته شيء واحد فسمعه هو بصره وجميع حواسه وإنما قيل سميع بصير لاختلاف التراكيب لا لأنها في انفسها شيئان مختلفان وزعموا ان اللون هو الطعم وهو الرائحة إلى غير هذا من اباطيلهم فلا نطيل بها ومن فوق المجوس المرقونية اثبتوا اصلين متضادي النور والظلمة واثبتوا اصلاً ثالثاً هو المعدل الجامع وهو سبب المزاح بين النور والظلمة وقالوا الجامع دون النور في الرتبة وفوق الظلمة وحصل من الامتزاج هذا العالم ومنهم من يقول ان الامتزاج انما حصل بين الظلمة والمعدل إذ هو قريب منها فبعث النور إلى العالم الممتزج روحاً مسيحية وهو روح الله وابنه يحثنا على العدل السليم الواقع في شبكة الظلام الرجيم حتى يخلصه من حبائل الشياطين فمن اتبعه ولم يلابس النساء ولم يقرب الزهومات افلت ونجا ومن خالفه خسر وهلك وإنما اثبتنا المعدل لان النور الذي هو الل تعالى لا يجوز عليه مخالفة الشيطان وايضاً فان الضدين متنافران طبعاً ويتمانعان ذاتاً ةنفساً فكيف يجوز امتزاجهما فلا بد من معدل تكون منزلته دون النور وفوق الظلمة فيقع المزاج معه وكانوا يقولون المعدل هو الإنسان الحساس الدارك إذ هو ليس بنور محض ولا ظلام محض وكانوا يرون المناكحة وكل ما فيه منفعة بدنية وروحية ويحترمون عن ذبح الحيوان لما فيه من الايلام ومن فرق المجوس الكينوية والصيامية وهم أصحاب التناسخ زعموا ان الاصول ثلاثة النار الأرض والماء وإنما

حدثت الموجودات من هذه الاصول دون الاصلين اللذين اثبتتهمـا الثنويـة قالوا النار بطبعها خيرة نورانية والماء ضدها في الطبع فما كان من خير في هذا العالم فمن النار وما كان من شر فمن المـاء والأرض متوسـطة وهم يتعصبون للنار نت حيث انها علوية نورانية لطيفة لا وجود الا بها ولا بقاء الا بامدادها والماء يخالفها في الطبع فيخالفها في الفعــل - والأرض متوسـطة بينهمـا فـتركب العـالم من هـذه الاصـول والصـامية من هـذه الفرقة امسكوا عن الطيبات الرزق وتجردوا لعبادة الله تعـالى وتوجهـوا في عبادتهم إلى النيران تعظيماً لها وامسكوا عن الـذبائح والنكـاح أيضـاً وقالوا بتناسخ الارواح في الاجساد والانتقال من شخص إلى شخص ومـا يلقي من الراحة والتعب فمرتب على ما اسفله قبل وهـو في بـدن آخـر جزاء على ذلك والإنسان ابداً في أمر أحد امرين امـا في فعـل وامـا في جزاء ومـا هـو فيـه فامـا مكافـاة على عمـل قدمـه وامـا على ان ينتظـر المكافاة عليه والجنة والنار في هذه الابدان انمـا يعظمـون النـار لمعـان منها انها جوهر سريف علوي ومنها انها ما احرقت الخليـل عليـه السـلام ومنها ظنهم ان التعظيم لها ينجيهم في المعاد من العذاب وبالجملـة هي قبلة لهم ووسيلة واما قولك ان منطوق الآيـة الشـريفة في سـورة الحج ان المشــركين ليســوا هم النصــارى الخ فــاعلم ان النصــارى هم اتبــاع المسيح عليه السلام وامته ممن كـان تابعـاً للمسـيح قبـل ظهـور محمـد عليه السلام فهـو من افضـل الخلـق واعلاهم درجـة وبعـد ظهـور محمـد عليه السلام من آمن به فله اجران ويحشر مع الناجين الآمنين ومن كفر بما جاء به محمد من النصارى وغيرهم فيسـمى كـافراً لا مشـركاً الا من قال من النصارى في المسيح عليه السلام وانه ابن الله ومن اليهـود في عزيز انه ابن الله فهو مشرك والنصارى الحقيقيـون هم الـذين يعتقـدون ان المسيح عليه السلام روح الله وكلمته القاها إلى مريم العذراء البتول عليها السلام وانه رسول الله إلى بني اسرائيل بشرع ناسخ لبعض شرع

موسى عليه السـلام والانجيـل المـنزل عليـه كلام اللـه تعـالى حقيقـة لا مجـازاً وفـرق النصـارى واعتقـاداتهم المختلفـة أنت اعلم بهـا فلا نطيـل الكلام بذكر مذاهبهم وفرقهم وبالجملة فالنصارى اجهل الناس بالمعقول والالهيات والكفر اما كفر انكار وهو انـه يكفـر بقلبـه ولسـانه وامـا كفـر جحود وهو ان يعرف الحق بقلبه ولا يقر بلسانه واما كفرعناد وهو يعرف بقلبه ويقر بلسانه ولا يعتقد بقلبه والجميـع سـواء في انـه من لقي اللـه تعالى بواحد منهم لا يغفر له فقد بان لـك ان أهـل الكتـاب لا يقـال فيهم مشركون وإنما يقال لهم كفار فان الكافر اسم لمن لا ايمان لـه بمحمـد وبما جاء به من الشرائع والاحكام ومن اخفى الكفر واظهر الايمـان فهـو المنافق وان طرأ عليه الكفر بعد الايمـان فهـو المرتـد وان كـان متـديناً ببعض الاديـان والكتب المنسـوخة فهـو الكتـابي وان قـال بقـدم الزمـان والدهر ونسب الحوادث له فهو الـدهري وان كـان لا يثبت البـاري تعـالى فهو المعطل وان كان يجعل مـع اللـه الهـاً آخـر فهـو المشـرك وشـريعة محمد عليه السلام نسخت الشرائع المتقدمة كلهـا فلا يقبـل اللـه تعـالى ديناً اليوم من أحد ولو عبد الله تعالى بعبادة الثقلين الانس والجن الا من عبد اتباعاً بمحمد عليه السلام .^ ذكر

مرضه ووفاته وما يتعلق بهما نشأ الأمير في صحة كاملة وعافية شاملة لم يتغير عليه في أيام شبوبيته وكهولته شيء من قوته ولا من احواله ثم عرضت له امراض حال شيخوخته فتلقاها بقوة القلب وحسن الصبر ولكثرة الادوية وتعاقبها مع اختلاف مواردها حدثت له امراض اخرى من اشدها ما اخبرني به اثناء اقامته في قصر دمر ان من جملة امراضه ورم في خصيتيه يمنعه من الاسراع في المشي وانه عازم على عرض ذلك على طبيب خبير بفن الجراحة فاحضرت له جماعة منالاطباء فاخرجوا ما فيها من الماء ثم عرض لي سفر مع والدتي إلى بيروت لقضاء فصل الشتاء فيها وفي آخر المدة بعث يامرني بالرجوع فوجدته متغير الأحوال متلاشي القوى واشد ما كان عليه وقتئذٍ حصر اليول فاحضرت له طبيباً من بيروت عالماً بفن الجراحة مشهوراً فعالجه وحصلت له يعض الراحة ثم رجع الأمر إلى ما كان عليه ولما اشتد الالم احضرت جماعة من اطباء دمشق يتناوبون معالجته صباحاً ومساءً ومن تعطفه علي وتوجهه بالرأفة والحنان الي انه كان في هذه الأحوال الشديدة لا يتناول دواءً من من يدي ولا يقبل علاجاً الا بحضوري وان قيل له في استعمال شيء أو تركه يستشيرني فيه وإذا كنت غائباً يؤخر الجواب عنه إلى ان احضر ةهكذا في شأنه كله

حتى انه عرض عليه تغيير قميصه لا يجيب إلى ذلك الا باطلاعي وهذا من فضل الله علي ومنته ومع ما كان يقلسيه من شدة الالم وبعانيه في معالجته لم يظهر ضجراً ولا رأيته تاوه قط ولا ترك الصلاة في وقت من الاوقات وفي آخر مرضه كنت ايممه وكان قليل الكلام الا فيما يخص مرضه واستمر الاطباء يترددون عليه ويعالجونه خمسة وعشرين يوماً إلى ان دعاه مولاه إلى سعة رحمته ونقله إلى فسيح جنته في الساعة السابعة من ليلة يوم السبت التاسع عشر من رجب سنة ثلاثمائة الف والرابع والعشرين من ايار سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة فلم يشعر الناس الا والصباح قد قام والعويل عم الخاص والعام فيما لها من لسلة سوداء شقت فيها الجيوب وكادت تنفطر من شدة هولها الاكباد والقلوب ويا له من مصاب اصطكت له الاسماع وارتجت به الاضلاع وفي الحال شاع خبره ونقلته الاسلاك التلغرافية إلى سائر الاقطار ولما تعالى النهار حملناه إلى دارنا في البلد فاهتزت دمشق بعموم اهلها كدراً وتقاطر الناس إلينا زمراً زمراً وبعد تجهيزه والصلاة عليه في جامع بني امية حملت جنازته إلى الصالحية يحفها سائر علماء البلد واشرافها وحكامها وخرج اهلها على اختلاف مللهم ونحلهم فلم يتخلف كبير ولا صغير عن تشيعها وصفوف العساكر السلطانية من حولها ودفن عند الشيخ الاكبر سيدي محيي الدين بن العربي داخل القبة دفن والاحشاء محترقة والاجفان بماء عيونها غرفة والمكارم تبدي شجوها لفقده والمحاسن تعثر في اسحال حدادها من بعده وفنون العلم تلطم خدودها وافانين المعارف تشق برودها . والسالكون سطت عليهم حيرة ◈ وغوى لهم نهج وضل سبيل

والعارفون تنكرت احوالهم ◈ فحجاب عين قلوبهم مسدول

فما اعظم مفقوداً وما اكرمه موجوداً اتعب في حياته المادحين واطال بموته بكاء الباكين وبكاه الفضل والكرم وندبه السيف والقلم وركب على الاعناق بعد العتاق وعلى الاجياد بعد الاجياد وعد مثابة في الإسلام ملمة وفقد منه في العالم من كان يدعى لكل ملمة فانا لله وانا إليه راجعون تسليماً لقضاء الله واذعاناً لما حكم به وامضاه وقد كتب على مشاهدة الضريح تاريخ الشيخ عبد المجيد الخاني وهوز لله

افق مشرق دارتي ◈ قمرين هلا من ديار المغرب

الشيخ مجيي الدين ختم الاوليا ◈ قمر الفتوحات الفريد المشرب

والفرد عبد القادر الحسني الأمير ◈ قمر المواقف ذا الولي ابن النبي

من نال مع أعلى رفيق ارخوا ◈ اذكى مقامات الشهود الاقرب

وفي ثـاني يـوم الوفـاة اجتمـع الاخـوة والقرابـة للمـذاكرة فيمن يجمـع امـرهم ويلم شـهثهم ولاول وهلـة اتفقت كلمتهم علي ووجهـوا الرئاسـة الي واعطوني صـفقتهم واظهـروا لي طـاعتهم ثم اجتمعـوا مـرة اخـرى ووضعوا ايديهم على المصحف الكريم وحلفـوا بـه رافعين اصـواتهم انهم لا يخالفون كلمتي ولا يتجـاوزون حـوزتي وكتبـوا في ذلـك صـكاً شـرعياً امضــاه كــل واحــد منهم بخطــه ثم ختمــه بختمــه ونص الصــك

المذكور .الحمد لله الذي بيده التوفيق إلى اقوم طريق والصلاة والسلام على من اختاره الله تعالى من خـير فريـق وآلـه وأصـحابه اولى الصـدق والتصديق اما بعد فالذي وقع عليه اتفاقا واجتمعت عليه كلمتنا بطواعيـة واختيار منا ونحن بالاحوال المعتبرة شرعاً اننـا عمـوم العائلـة نقـول بـل قلنا ونطقنا بقول واحد ونطق متحد حسب ارادة مولانا المرحـوم سـيدنا الأمير عبد القـادر قـدس اللـه سـره المتكـررة شـفاهاً والمدونـة بخطـه الشريف ان سيدنا واخانا الكبير سـعادة الأمـير محمـد باشـا هـو حاكمنـا والمتصرف فينا ولنا بما يراه صـالحاً لنـا ولاولادنـا وجميـع من يتعلـق بنـا وسائر لوازمنا يتوصل به إلى قضـاء حوائجنـا هـو منـوط بـه وراجـع إليـه بحيث لا نظر لنا في ذلك ولا مداخلة بنوع ما والذي يـراه حسـناً لنـا فهـو الحسن والذي يراه قبيحاً لنا فهو القبيح لدينا واقمناه في ذلك كله مقـام سيدنا ومولانا قدس الله روحه العزيز وكل من شذ منا وسولت له نفسه الخروج عما وقع عليـه الاتفـاق واجتمعت عليـه الكلمـة فنحن بـرآء منـه ظاهراً وباطناً وقولاً وفعلاً وبالجملة فنحن جميعاً يكون حالنا مع السـعادة سيدنا المذكور كحالنا مع سيدنا ومولانـا المرحـوم رضـي اللـه عنـه ومن بـدل أو غــير أو سـعي في التبـديل والتغيـير فنحن ملزمـون بـرده إلى السواد الأعظم والى ما اجتمعت عليه كلمتنا وسطرناه في هـذه الورقـة واشهدنا به على انفسنا وعلاوة على ذلك اننا نساله تعالى ان ينتقم منــه لمخالفتـه لنـا في نفسـه وأولاده ومالـه وعيالـه وعلى هـذا وقـع الاتفـاق وحصل الاشهاد وبالله تعالى التوفيق وهو حسبنا الوكيـل لا رب غـيره ولا خيره الا خـيره حـرر وقـرر في يـوم الاحـد الواحـد والعشـرين من شـهر رجب سـنة ثلاثمائـة والـف .إبـراهيم بن عبـد القـادر الحسـني الهاشـمي محيي الدين بن عبد القادر الحسني محيي الدين ابن مصطفى الحســني احمد بن محيي الدين الحسني مجمد مرتضى الحسني محمد بن الحسن أبو طالب الحسني عبد العزيز الحسن أبو طالب الحسني عبد القـادر بن

ناصر عبد الباقي بن محمد سعيد الحسني علي بن القادر الحسني احمد بن الأمير عبد القادر الحسني عبد الله بن عبد القادر عمر بن عبد القادر عبد الرزاق بن عبد القادر عبـد المالـك بن عبـد القـادر علي ابن فريحـة احمد بن فريحة .فقبلت منهم ما اتفقوا عليـه وجعلت انظـر فيمـا يصـلح بهم في مستقبلهم مرفعت امرنا إلى الوالي احمد حمـدي باشـا فـاظهر من لطفه وانسه ما ملأ القلوب مسره والصدور حبرهز وانهى في امرنـا إلى الاعتاب السلطانية وبينما انا انتظر الفرج الفرج والخروج مما وقعنـا فيه من الحرج إذ انقض بعض اولءك الاخوة علي وفوقوا سهام العـداوة الي واظهروا الخروج عن تبعيتهم للدولة العلية وعـداوا عنهـا إلى الدولـة الفخمية الفرنساوية واصحبنا على غير ما امسينا عليه اعتباطاً لا لعلة بل خالف تعرف .

ولما تعين لنا من إحسان الدولة العلية ما تعين وجاءت البشـرى بـه بعث الوالي إلينا وبشرنا بذلك وامرنـا باجتمـاع الكلمـة والرجـوع إلى مـا وقـع عليه الاتفاق اولاً وبصحة التمسك باذيال الخلافة الإسلامية العظمى نظراً لوجوب طاعتها والاذعان لها شرعاً ولتعطفها علينا واحسانها بما احسنت إلينا فما التفتوا إلى ذلك بل اصروا على ما هم عليـه من الخلـوص لتلـك الدولة ولما عملت صدقهم في التمسك بهـا والانتسـاب إليهـا عينت لهم مرتباً كافياً وتميز الفريقان وعلم كل أناس مشربهم وبلغوا ممـا قصـدوه مأربهم وكان الوالي اخر قسمة ما رتبتـه الدولـة العليـة للعائلـة منتظـراً بذلك فيئة الجماعة والعدول عما هم عليه ولما يئس منهم عين لي ولمن تبعنى من الاخوة والقرابة واعيان المهاجرين ذلك المرتب وبالجملة فقـد اوردتنا الدولة العلية موارد كرمهـا وافاضـت علينـا سـجال انعامهـا ولمـا انتشر خبر البشرى باتعام الدولة العلية علينا انتدب اعيـان ملـل دمشـق لكتاية عـرض محضـر يشـتمل على اداء الشـكر وصـالح الـدعاء لحضـرة سيدنا ومولانا انير الؤمنيم وقدموه الوالي وهو رفعه للمقام فحاز القبول

ثم ابتدر المهاجرون الجزائريون إلى المثول بين يدي الوالي وقـدموا لـه شعائر العبودية مع عرض محضر التشكر والدعاء على نحو ما كتب أهـل دمشق فاكرم وفادنهم واحسن مواجهتهم ولما استكشـف امرنـا ووقـف على حقيقة صدقنا شملنا بانظاره واغنانـا في نجـاح مقاصـدنا عن غـيره فتحمـده اللـه برحمتـه والحقـه باهـل جنتـه وادام أيـام مولانـا السـلطان الأعظم والخاقان الافحم أمير المؤمـنين السـلطان الغـازي عبـد الحميـد خان إلى آخر الالهران أمين . ذكر

رسائل التعاوي والمراثي لما وقع الأمير في قبضة المرض . وعـرض لـه من شدائده ما عرض . شلع امره . وبلغ الملوك واعيان العالم خبره .

فلما انتقل إلى سعة عفـو اللـه نعيتـه بالاسـلاك التلغرافيـة للـذين كـانوا يـترقبون مـا يبلغهم عنـه فـوردت علي منهم اجويـة التاسـف والتعزيـة بالتلغراف وهي وان كانت متقتربة اللفظ والمعنى اقتضى المقام اثباتهـا بحروفها . 'فنص جواب الصدر الأعظم سعيد باشا'

اخذت تلغرافكم بخصوص وفاة والـدكم فـاوجب لـدى الحكومـة السـنية غايـة الاسـف فنعـزيكم ونبلغكم ان تعطفـات الجليلـة سـتدوم في حـق عـائلتكم كمـا كـانت . 'ونص جـواب وكيـل فراشـة أمـير المؤمـنين في الحجرة النبوية'

'السـيد احمـد اسـعد أفنـدي'خـبر وفـاة السـيد والـدكم مـوجب للاسـف العظيم اعزي العائلة واتوسل إلى الله تعـالى ان يلهمكم الصـبر . 'ونص جواب الأستاذ الشيخ محمد ظافر المدني'

المصاب جليل والصبر احمد نعزي كافة العائلة ونرجو لكم بلوغ المامول . 'ونص جواب الأستاذ شيخ السجادة القادرية ونقيب الاشراف ببغداد'

'السيد سلمان أفندي'صبر جميل والله المستعان على ما جرى به بوفـاة السيد الوالـد الامجـد المـبرور فانهـا مصـيبة اربت على جميـع المصـائب

وحلت منـازل الاشـراف بجمـوع النـوائب فجـرت الـدموع من العيـون كـالعيون انـا للـه وانـا إليـه راجعـون احسـن اللـه عـزكم ورحم والـدكم ورزقكم الصـبر وعظم لكم لاجـر واقـر بكم عيـون المجـد وجعلكم كمـا نؤمل فيكم خير خلف لخير سلف . 'ونص جواب الأستاذ شـيخ السـجادة ارفاعية ونقيب الاشراف بحلب'

'اليس أبي الهـدى أفنـدي الصـيادي'اخـذت تلغـرافكم المعلن بارتتحـال والدكم الاكرم إلى دار النعيم فطالعته بغاية الحزن واني ابتهـل إلى اللـه تعالى يحسن لذاتكم الهاشمية ولجميع العائلة العالية الصبر والثبات على هذا المصاب . 'ونص جواب رئيس الجمهورية الفرنساوية'

ان الاخبار الاخـيرة الـتي بلغتنـا عن صـحة الأمـير والـدكم جعلتنـا ننتظـر النهايـة المكـدرة الـتي آلت إليهـا واخبرتمونـا انتم الآن بتلغـرافكم فنحن مشتركون معكم في الكدر الملم بكم وفي حزن سائر العائلة فينبغي ان تصدفوا بما نحن عليه من الميل اليكم والاهتمام بكم كما اننا نعتمد على اخلاصكم . 'ونص جواب وزير خارجية فرنسا'

عملت مع الاسف الكثـير وفـاء والـدكم الشـهير وفرنسـا تشـترك معكم الحزن العمومي الذي احاط بالمسلمين والمسيحيين معاً اشـكركم على التعريف بالواقع واعتـبر علامـات التعلـق الـتي اظهرتموهـا كـدين باسـم فرنسا . 'ونص جواب سفير فرنسا في الاستانة العلية'

انني اشترك معكم كل الاشتراك بالكـدر الـذي الم بكم وبـالاحزان الـتي حافت بعائلة الأمير عبـد القـادر الـذي طالمـا سـلك مـع فرنسـا بطريـق الشرف واعد نفسي سعيداً بكوني اهـديكم السـلام كـوارث واقـدم لكم الشكر على ما اظهرتموه من علامات المودة لحكومـة الجمهوريـة الـتي ساعرب عن ذلك واما صداقتي الشخصية فمحفوظة لكم . 'ونص جواب وزير خارجية انكلترا'

وصلني تحريركم المخبر بوفاة الأمير والـدكم فاؤكـد لحضـرتكم ان هـذا الخـبر قـد كـدرني جـداً وجعلـني اشـترك معكم ومـع عـائلتكم في هـذه الخسارة ولي الشرف في هـذا الاشـتراك . 'ونص جـواب وزيـر خارجيـة هولاندة'

ورد علي تحريركم الذي تفضـلتم فيـه بالافـادة عن وفـاة والـدكم الأمـير الشهير فلذلك بادرت باشتراكي معكم في الحـزن على مصـاب والـدكم العزيز واطلب لكم طول العمر والنجاح وارجـو قبـول احـترامي لكم .ثم تواردت علينا مكاتب التعزية والراثي من سائر الاقطار اثبتنا منها هنا مـا وقع عليه اختيارنا اقتصاراً واختصاراً . فمنها مكتوب الـوزير الشـهير خـير الدين باشا الصدر الاسـبق . ونصـه المقـام العلي النسـب . المرجـو من هلاله ان يكون بدراً كاولاً فس سماء المجد والحسب . السيد باشـا اكـبر انجال الأمير . سيدي عبد القادر الشهير افـاض اللـه تعـالى عليـه الصـبر الجميل .اما بعـد السـلام فقـد احزاننـا النبـأ العظيم الـذي لا محيص عن تلقيه بالقبول والتسليم من ارتحال المرحوم السـيد والـدكم فيـا لـه من خطب كدر النفوس والله تعـالى المسـؤل ان يجـزل ثـواب آلـه ومحبيـه على فقده ويجعل عقـد بنيـه على احسـن انتظـام من بعـده ودمتم كمـا رمتم والسلام .ومنها مكتوب المشير جميل باشا ابن نامق باشا ونصـه . حقاً أقول انه قد دهمني تأثير عظيم . لما طرق سمعي خبر وقوع الأمـر السماوي الذي اجرى حكمـه المحتـوم . في بيتكم العـالي وقـد حـل في قلبي فملكه . وربط لساني فمنعه . وتاكدوا سعادتكم انني لست بمبـالغ بهذا القول ومن ثم كان سكوتي حتى الآن عن ايفاء سنة التعزيـة خلافـاً للروابط القلبية هو أمر غير اختياري وهو من جهة مطابق لقـول ورد في الحكم لا وسيلة لزوال الغم عن القلوب . غير التزام الصمت عنـد شـدة الكروب وحيث كانت درجة اشـتياق عـاجزكم القلـبي إلى سـراج مجلس الوحدة كما هو معلوم لدى سعادتكم فاتمنى ان تتفضلوا وتحكموا بـانني

صادق الجنان وبـذلك اكـون أول قـائم بالتعزيـة الـتي اقصـى آمـالي بهـا الحصول على تسلية من قبلكم بسـنتها وان تـتيقنوا ان هـذه الآمـال هي التي كانت شاغلة من جهة اخرى أيضاً للبـال فهـذه لعمـرك هي بـواعث السكوت فانظروا سعادتكم كيف تأثيري وما فعل بفكري ووجداني ولقـد علمت الآن بوجوب تلقي حكم الله تعالى هذا بالقبول والرضـاء فـانتبهت وتيقظت من غفلة تلك الدهشة المظلمة وقمت متفقدا مهام مــأموريتي مبادراً لاجراء مقتضيات الاخلاص غير ناظر إلى كون الاتيان بـذلك البحث يزيد في غمى وكدرى واني اختم قولي بالدعآء بوقايــة آل بيتكم الكــريم من كافة الاكدار وهم محفوفون بالعافية والسرور مـا دامت تلـك الـروح المقدسة الراجعة إلى ربها آمنة مطمئنة راضية مرضـية متلـذذة بـالنعيم المقيم متنعمــة بتجلي الجمــال من المــولى العظيم والارادة لحضــرتكم افندم .

ومنها مكتوب السيد اسعد أفندي وكيل فراشة أمير المؤمنين ونصه .

بعد ازكى التسليم واسنى التكريم قد ورد لمحبكم ما كدر خاكره من وفاة علامة الاقران ونادره الاوان من كان كالبحر لا تكدره المسائل ولا يزحزحه عن مرتبة الفضل قول قائل والله يعلم ما عندي من الاسف ولا ينفع الا التسليم لقضائه والرضا ببلائه والصبر على هذا المصاب الذي ملاء الفؤاد ارتياعاً وتطير له القلوب انصداعاً وهذه سبيل درج عليها الأول والاخر وقضية استوى فيها الضعيف والقادر وغير جاف جناب سيادتكم ان جوار الله خير من جواره وان الدار الاخرة خير من داره ثم بعد ثاني يوم وفاة المرحوم وصل التلغراف لولي النعم بوفاته وعند العرض عليه كنت حاضراً وقرأ ولي النعم الخبر بانتقاله فحصل له غاية الاسف وبدأ بالدعاء له وقرأ الفاتحة واهداها إلى روحه الشريفة وبدأت اصف مناقبه الشريفة وهو يتحسر على فقده وكذلك وصفت له سيادتكم والانجال الكرام فربنا يجعلكم خلفاً باقياً فاتحين موضعه ولا يغلق لكم باباً هذا ما لزم مع تبليغ سلامنا على اخوانكم الكرام فرداً فرداً وبلغوهم مني العزاء 'ومنها' مكتوب ابن عمنا العلامة السيد الطيب بن المختار بعثه من محل اقامته في القطر الجزائري ونصه . هذا هو الرزء لا الرزء الذي غبرا ◈
فليتني كنت قبل اليوم تحت ثرا

هذا يغم جميع الخلق قاطبةً ◈ سيان من غاب منهم عنه أو حضا
انساني فقد أمير المجد فقد اخي ◈ محمد ومصابي جل بل كبرا

لم نبق لي رغبة في العيش بعدك يا _ فخر الملوك وختمالسادة الكبرا

يا عين ابكي دماً يا قلب مت كمداً ◈ يالهف نفسي عليه سيد الامرا
فلو رأيت بنات العم سافحة ◈ دمع العويل على صفح الخدود جرى
اما انا فعدؤ الدين يرحمني ◈ فسل خلي الحجى عن حالي كيف جرى
يحق لي قتل نفسي لو وجدت له ◈ وجهاً وبرحم ربي مسلما عذرا
فلا كمثلي في الأيام من أحد ◈ من اجل ذاك فقدت السمع والبصرا

جل الخطب وعظم المصاب . واستحكم الأمر وتعددت الاسباب . فخرس اللسان وفارق مقره الجنان . وشل الذراع . وتبدلت الطباع . فالحال غير الحال وانا غير انا اشكر بثي وحزني إلى الله . وحقيق على العبد ان يفزع إلى مولاه . ربنا افرغ علينا صبراً ولا تحرمنا مثوبة واجراً اما بعد فيا سيدي ومولاي المقصور عليه بعد والده رجائي ومناي الأمير الاسعد . والامام الامجد . سيد محمد . ويا ثاني الاميرين واصغر الشقيقين . وقرب المحبين . واحب الاقربين . سيدي ومولاي محيي الدين . ويا بنت عمي وعمتي ونجل شقيقتي . المشهورة بالحنانة والمعروفة بالديانة والصيانة التي ما قصرت عن بلوغ درجة الرجال الكاملين . ولا وقفت دون غاية امهات المؤمنين . في معرفة الصواب وحسن السمت سيدتنا ومولاتنا الست ويا بقية الاولاد عموماً من غير استثنا موالينا ذوي الالقاب الرفيعة والكنى اني والله لا اجد وجهاً لتعزينكم ولا مساغاً لتسليتكم إذ لم يصب أحد بمصابنا فنكون به نتعزى مع اشتراك المعزى إذ ذاك في المصيبة والمعزى فلا ادري اعزي نفسي ام اعزيكم اسليها ام اسليكم وان كان ففي من بمن فانا لله وانا إليه راجعون كلمة يعتمد عليها أهل المصبية العارفون نعم بكل اعتبار وعلى كل حال وان تعذر سبيل التعزية وضاق المجال نعزي خلافة نولانا الأمير الكبير ونائبة في مراعاة الحقوق وحسن التدبير الأمير الاوحد سيدي ومولاي محمد اسعد الله ايامه واعلى مقامه ونشر في اسماء السيادة الاميرية بنوده واعلامه سيدي بسيد الوجود في ايجاد كل موجود النبي العربي القائل من عظمت عليه مصيبته فليتذكر مصيبته بي فحبذا من تلقى قوله بالقبول واطاعة وقال لامره سمعاً وطاعة اعزية وانا هنا اعزى وان كنت لا ارى بمن يتعزى ولا بمن اتعزى لعدم المثل واستحالة وجود الشكل ثم ارجع واقول : انا معزوك لا انا على ثقة ◈ من الحياة ولكن سنة الدين

فلا المعزى بباق بعد ميته ◈ ولا المعزى وان عاشا إلى حين

وينبغي ان يختم الكلام بما يناسب ان ينتظم في هذا النظام لنسبة المقام بالمقام بيتين توامين عزى بهما بعض العرب المتقدمين والحكماء الاولين سيدنا عبد الله بن عباس وقد جلس للناس برسم التعزية وانفراد لهم بعلية وهما . اصبر نكن بك صابرين فانما ◈ صبر الرعية بعد صبر الراس

خير من العباس صبرك بعده ◈ والله خير منك للعباس

وكان هذا العربي هو آخر الناس في تعزية ابن العباس فرجع إليه بهما فكره وقال والله ما عزاني أحد غيره فعذراً سيدي فالحال لا يخفى عليك وما انا فيه غني أنت فيه عن شرحه وكان اعتقادي انه ليس في الامكان وجود مصيبة تنسيني مصيبة اخي وشقيقي وانيسي ورفيقي

حتى فاجأني خبر سيدي ومولاي شهد الله علم الله لو وجـدت ان افديـه بنفسي لفعلت والى الآن فنرجو من اللـه ان يرزقـك عنايتـه وان يروثـك مقامه وان تكون لنا كما كـان لنـا ويـديم عـزك وعلاك ويحـرس سـناءك وسناك والسلام . 'ومنها مكتوب الفاضل الشيخ مصطفى الإمام'

ونصه إلى الحضور سيدي وفخري وابن سيدي وسندي ومولاي وذخري صاحب الشان السامي الشامخ والشرف الرفيع الباذخ الذي له الراسيات الشوامخ ونزلت بمدائحهم الآيات البينات الرواسخ التي لا يرد على بنيانها ناسخ مشيد مباني اركان المكارم والمعالي المقدم في نتائج الفضائل وغيره والتالي الإمام الذي اقتدى به العلماء الامصار واهتدى بعلومه الحيران من الاولياء والانضار واقتبس من مشكاة نوره خواص اولى الالباب والابصار احيا الله به معالم العلوم الدارسات فملكها والملك لمحي الاموات كان رضى الله عنه بعيد مسافة العزم رابض الجاش شديد الحزم كما قيل لو شاهدته عيون النجوم جرت في التربيع سعداً أو صافحته راحة الغمام امطرت كرماً ومجداً احاديث المكارم عنه تروى فتشفى بها المرءة على شدة ضماتها وتروى . والناس كلهم لسان واحد ◈ يتلو الثناء عليه والدنيا فم

له قسس سره في كل شرف فخر ملي وفي كل فضل ومجد قدم علي عرف عبير عطر عرفانه عطر المعمور وشرف شذا مسك شمائله في الافاق مشهور بصوت صيت صداه طار باجنحة المدح والحمد في سائر الاقطار فكم سعى حاج لكعبة عرفانه من اولى البصائر وكم سعد في حرم حمايته من القى السمع وهو شهيد حاضر الضمائر حيثما اضاه بطلوع طلعته نور الصباح فتفجرت عيون الحقائق وفتح الفتاح فنادي معلم علوم عرفانه حي على الفلاح فقامت اكابر العرفاء خلفه صفوفاً صنوفاً صنوفاً وظلت اعاظم العلماء والفضلاء بيدته عطوفا وبينما هم في اطيب وقت واكمل حالة يتمتعون حسنه واحسانه وجماله نادى منادي العظمة والجلالة السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة هذا هازم اللذات الفانيات ومفرق الجماعات والباقيات الصالحات فلفد فرق جمعنا وافزعنا فراقه مع انه امن من الفزعات ولقد تكدر ذلك الصفا وعظم به والله المصاب وقلنا على الدنيا العفا .

عظيم مصاب مقعد ومقيم ◈ له كدر بين الضلوع مقيم
ونازح خطب حارب ابصبر والكرى ◈ فاصبح كل وهو عنه هزيم
وحكم اذل الفضل عند اعتزازه ◈ واوهى لركن الدين فهو سقيم
الا انما عين المعالى غضيضة ◈ وان فؤاد المكرمات كليم
اقامت على قبر الرضا عاطر الثرى ◈ سحاب ورضوان فليس تريم

وحينما فاقت من سكرتها بعدما خنقت بعبرتها تذكرت بعدما تفكرت ووجدت فشهدت وانشدت . ما بال ايدي النائبات تخون ◈ وتديم رصف المجد وهو رصين
يا دهر لا عتبى عليك ولا رضى ◈ كل المصائب بعد ذاك تهون
تعد الورى البؤسى فتسرع صدقها ◈ وإذا وعدت بما يسر تمين
لو كان يجدي النوح ميتاً قبله ◈ نفعاً لناحت اعصر وقرون
يا واعظاً بسكونه حركاتنا ◈ ولأنت بالوعظ المفيد قمين

امسى ضجيع الرمس الا انه ◈ في قلب كل موحد مدفون
حفتك رحمة ذى الجلال وعفوه ◈ وسقى ثرى جدث حواك هتون
وسرت محاسن ما صنعت حواملاً ◈ حسن الثنآء يحثها التامين

ولما احسن قلب المشتاق بعظيم المصاب وحرقة الفراق بعد ما اصحا موجداً فصاح مفصحاً ومنشداً . لم اقض من يوم الفراق شؤني ◈ فقضيت ان لم اجر ماء شؤني

أاجود بالنفس النفيسة فيهم ◈ واشح في شجني بدمع عيوني
ما للفؤاد يطيعني شغفاً بهم ◈ وعن التبصر عنهم يعصيني
وادرت طرف العين نحو ديارهم ◈ فقضت علي بأنه وحنيني
وتنكرت بعد التعرف واغتدت ◈ طمثال شك لاح بعد يقين
فالعين تنكرها لفرط عفائها ◈ والقلب يعرفها محل العين
وسالتها عن جيرة كانوا بها ◈ زمناً ثووا في ربعها المسكون
فاستعجمت واجاب عنها حالها ◈ ولرب حال للجواب مبين
غربت بدور منازلي من افقها ◈ وغدت وراء الترب ذات كمون
وتقوضت مني قباب فصائلي ◈ لما انتهى للحي محيي الدين
مولاي عبد القادر الحبر الذي ◈ احيا العلوم وفات فخر الدين
نسل التهامى المصطفى ماحى الردى ◈ مردي العداة بسيفه المسنون

رب المعارف والعوارف تلك لل _ باغي العلوم وتلك للمسكين

بحر تدفق بالعلوم إذا طمت ◈ امواجه اغرقن كل سفين
ادب كمثل الروض رف نباته ◈ غب الحيا من وقع كل هتون
اسفى على من فض عقد نظامه ◈ فنثرت من عيني در جفوني
عبثت به ايدي المنون فقطعت ◈ اسلاك ذاك اللوءلوء المكنون
حتى ثوى في الترب تحت صفائح ◈ فعملت حقاً انه من طين
بكرت على جدث له وسمية ◈ ذات ارتجاس بالحيا ودجون
تزجى ركائبها حداة جنائب ◈ بسياط برق مع رعود لجون
فسى اصول مكارم تحت الثرى ◈ بسقت لنا زمناً فروع غصون

قال تعالى لنبيه الصادق المامون لك ميت وانهم ميتون فانا لله وانا إليه راجعون تسليماً لمن له الخلق والامر فقد والله اشتد كربنا حتى اطار قلبنا وضاعف المنا وصبراً على هذا المصاب الذي اعقب القلب حزناً مدى الاحقاب وانتم أهل بيت يتلقى أمر الله بالتسليم يلقى الخطوب الصارعة بقلب سليم ولولا ان التعزية سنة مشروعة وطريقة متبوعة

لما اوردنا هـذه المقالـة ولا ابتـدانا كم بهـذه الحالـة فللـه الخلـق والامـر وليس علينا الا الصبر والاجر ونساله تعـالى ان يجعلكم خلفـاء بعـده في كل فضلية ومقام بجاه جدكم اكرم الرسل العظام ونسالكم ان لاتنسونا من مكاتباتكم فانا نرجو منكم ما كنا نرجوه من حضـرة سـيدنا وسـيدكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت انه حميد مجيد هذا وارجو من شيم المكارم ان يكون كتابي هذا بالخصـوص اليكم وغب مـا تتلونـه يكون منكم كرمـاً وجـوداً لجميـع أبنـاء سـيدنا وولي نعمتنـا تقرونـه على كـافتهم تفـون عـنى ببلـوغ تعزيـثي هـذه إليهم بـاجمعهم وان يكن من المعلوم ان اللائق تخصيص كل منكم بكتـاب ولكن قسـماً بـرب الاربـاب اني كتبته والقلب في غاية الحزن والاكتآب ودموع العيون تجري بانصاب وقسماً به تعالى من حينمـا سـمعت هـذا الخـبر اصـاب عيـني شـيء مـا عهدته والى حد تاريخه أهو رمد أو غيره ماعرفتـه فاسـأله تعـالى ان يتم بـالخير ويصـرف عن عيـوني هـذا الضـير ودمتم . منهـا مكتـوب العـالم الفاضل الشيخ إبراهيم الاحدب

ونصه احمد من لايحمد على المكروه سواه ولا يلجاء عند المصـيبة بغـير حمـاه واصـلى واسـلم على من عظمت بمصـابة الرزيـة وعمت بفقـده الارزآء عموم البرية وعاى آله الذين اشتدت بهم النوائب وصـحبه الأولى اصـابت بهم الإسـلام سـهام المصـائب امـا بعـد فقـد راع الخطيب مـؤاد المعـالي وقـرع الكـرب هـام العـوالي واطلـق العـبرات وفجـاء الانفس بالحسرات بفقد الأمير الجليـل والسـيد لـذي وجـه عرفـع جميـل حـامي حمى الإسـلام وسـيد من سـما من أبنـاء سـام غـوث الطريـد وخلف القصيد ومنتجـع الأمـال ومحـط رحـال الاقبـال ومفـزع من راعـه زمانه وعدا عليه سلطانه ونابه نوائب الدهر وانصرف عن حاجاتـه غمـرو المولى الذي اعتز جنابـه واطـردت كـالريح اسـابه وطـوقت كـل انسـان اياديه وغدت نحو كل طالب غوادبه وطـافت صـلاته بعوائـد لطـائفهوتكر

من الفقر من تعرف بطيب عوارفه سيدي المعروف وغوث كل ملهـوف وحصن الدين الحصين ونقاب عصابة المسلمين من فقـد بفقـده الصـلاح والورع وقرع كل هام مصابه وصدع فلقد اجرى عـبرات الشـؤن واوجب نزع دماء القلوب من العيون وزلزلت الأرض بمـا صـدم واسـودت الـدنيا بما من الظلام هجم وارتاعت الأمة يما ناب من الاهوال والقى عليها من الهموم فشفت القلوب فضلاً عن شق الجيوب فكم قلب مملوك للاسى وعين جارية ونفس تسيل بنار في الاحشا وارية ولسان اعتقل من فـرط العويل وسمع اصم بوقع هـذا الخطب الجليـل وهيهـات ان تقـوم جـوارح انسان بواجب ندبه المشروع ومحمـول رزئـه الـذي هـو على كاهـل كـل شريف موضوع فانا لله واليه راجعون هذا قضـآء مـا كـان النـبي الأعظم مثله ولا يكون قـد عظم بـه الأمـر ولا بقى من هولـه حصـن صـبر ولـولا التأسي بمعاليكم من بعده لذاب كل فؤاد من الاسـى على فقـده فـانكم تحيون رسوم المكارم وتنيرون من شهب انواركم المعـالم وتعيـدون مـا انـدرس بالمصـائب وانطمس بصـدقه النـوائب فيـتروح الفقيـد بـارواح انسكم ويستضيء بانوار شمسـكم جـادت الغـوادي ذلـك الـترب الطيب وانهـل عليـه من سـحب الرحمـة والرضـوان كـل صـيب وحفظكم اللـه بالطافه الخفية ولا غمرت قناتكم من عـوادي الـدهر رزيـة وألقى عليكم الصـبر وضـاعف لكم بهـذا المصـاب عظيم الأجـر وجعلكم في أمن من الاسواء وحصن حصين من طوارق الأرزاء آمين . 'ومنهـا مكتـوب الأديب السيد أفندي بيهم'

ونصه بعد تقبيل اذيالكم نعرض انه لقد دهمنا الخبر الذي لم يبق بنا اثـراً بعد عين ونعى لنا البين فقد ركن الملة والدين وعماد المسلمين وحـامي حمـاهم ملجـاء الفقـراء وكهـف اللاءذين سـيادة الوالـد الـذي سـرى إلى رحمة ربه ورضونه فكان يوم المحشـر ومصـيبة الجميـع بسـيادته الهـول الأكبر فقدت منا الحواس وهد ركن اصطبارنا وقوانا وشقت منا القلــوب

واسودت الدنيا في وجوهنا وهطلت الماء من أعيننا فابيضت من الاحزان وكيف لا نبكي من كان للدين قواماً وللملة حامياً ولاهل الفضل والصلاح اماماً وكيف لا نحزن على غياب شمس الوجود والفضائل والكرم وحسن الشمائل عين الكمال وتاج الأيام وسيد الخاص والعام وركن وفجرالاسلام لي قلم يستطيع على وصف ما نابنا من الاسف الشديد والكدر الذي ما عليه من مزيد أي لسان وبيان يقتدر على استيفاء ما خصه الله به من الكمالات واولاه من المكرمات انا عنه لقاصرون فوا مصيبتاه وواسفاه على هذا الخطب الجسيم والمصاب العظيم انا لله وانا إليه راجعون هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون وهذا شأن هذه الدار المانية افرغ الله عليكم وعلى المسلمين الصبر الجميل واولادكم به الاجر الجزيل والله يجعله من المقربين ويسكنه في غرف الصادقين انه كان من عباده الصالحين وجزؤهم عند ربهم مغفرة واجر عظيم وحفظ وجود سعادتكم خير خلف لخير سلف واطال للمسلمين بقاكم وبعين عنايته رعاكم آمين . 'ومنها مكتوب الأديب الفاضل عباس أفندي الإيراني'

ونصه أيها الأميران الجليلان نيرا فلك النسب الشامخ المنيع وقمرا الحسب الباذخ الرفيع ادام الله مجد كما وبارك جدكما لقد كل لساني وعجزت قريحتي وجناني عن بيان ما اصاب سلالة العترة الطاهرة خصوصاًوالملة الباهرة عموماً لعمرك انها مصيبة تزعزعت منها اركان هذا الشعب المجيد وارتعدت منها فرائض الذين شغف قلوبهم حب ذلك المولى الجليل الفريد وتشتت شمل أهل التوحيد وتقطعت اكباد أهل التغريد والتجريد عندما سمعت مصيبة اضرمت نار الجوى في عذع الافئدة والاحشاء وقد عواطف البلا وهاجمت قواصف القضاء على شان استاصلت الشجرة التي اصلها ثابت في الأرض وفرعها في السماء فناحت لها ورقاء والبقاء على افنان سدرة المنتهى ويندبها المخلصون

بالافق الاعلى فآه آه عنـا حـل وصـب وهـوى ألا ألا تلـك الرزيـة الكـبرى والمصيبة العظمى قد ارتفـع الضـجيج وعم الصـريخ والعويـل واحـترقت القلوب وضجت النفوس واضطرم الفؤاد وذابت الاكباد لما سـمع صـوت منادٍ ينعي السادات فـآه آه من هـذه النازلـة الـتي منهـا سـالت السـيول وفاضــت الــدموع عن اعين أهــل الوفــاء قــد تزلــزلت ارض الســكون وانفطرت سماء الفنون وانكشفت شمس العلوم وكفهرت غيوم الهموم وانهمرت مياه الغموم وانطمست نجوم الشـرق فـتزعرعت بـه الاركـان ووهن العظم من أهل الفرقان فآه آه من هـذه البليـة الـتي انهـدم منهـا امتن بنيان من الإسـلام يـا لبـني رسـول اللـه وحيانكمـا ان القلـوب قـد تأججت فيها الجمرات وتدفقت من الاجفان سيول العبرات والافئـدة من هـذه النازلـة العميـاء لفي حسـرات ليت شـعري آهـذه رجعـة الـرجعى والواقعـة العظمى والطامـة الكـبرى ام تم سـليل آل الرسـول ومنعنـاه ذرية قرة عين البتول فآه آه قـد احـاط ظلام الاحـزان على شـان نـاحت القبائل وحنت وأنت قلوب الافاضل بما انهدم من ركن الفضائل وانطوى سجل المجد ومنشور الشرق الباهر الذي اتى بخصائص الاوائل فوا اسفا وواحزنا على هذه الفقيد المجيد والركن الشـديد والطـود العظيم والعلم المبين وحياتكما يـا ابـني رسـول اللـه لم تكن سـلوة لمحـبيكم في هـذا الفزع الاكبر الا انكما أيها الفرعان الاعليـان ترثـان فضـائل ذلـك الاصـل البارع الفريد وتثمران بما يفوح منـه روائح نـوافج خصـائل ذلـك الشـهيد السـعيد ونسـتعرض مـا اقتطفت يـد ريب المنـون من اياديـنا في عـذا الكرب الشديد ونشال الله ان يؤيدكم بتوفيقاتـه الصـمدانية على اقتفـاء اثره وآثره لانكم ورثة مجده وافنان دوحـة جـده وكـواكب افـق سـعده .

'ومنها مكتوب الأديب الشيخ طاهر السمعوني الجزائري وكان وقتئـذ في بيروت'

ونصه السيد الذي هو لمجد الاسلاف وارث والسند الذي يتعلم منه الصبر عند اشد الحوادث شريف الأمراء وامير الاشراف مولانا وسيدنا والاوصاف غب لادعاء ببقاء ظلك الوارق الذي يستظل به القاصي والداني ودوام عزك وحصولك على اقصى الاماني يعرض الداعي لم يزل اليكم منسوباً وفي عداد الصادقين في خدمتكم محسوباً انه بلغه النبأ العظيم الذي اصم الاسماع واصمى القلوب وحكى حزن الناس وصبرهم فيه حزن يعقوب وصبر ايوب فضاقت عليه الأرض وهو يسير في رحبها وود ان لو كان في قلبها وهذا أمر يشركه فيه ألوف الالوف ممن شملهم إحسان ذلك القطب الذي سار فضله واحسانه مسير الشمس وصار إليهم احب من المال والاهل والنفس فلم يجد عير حزن القلب ودمع العين والتسليم لمن اختاره لينيله في جواره أعلى الحسنيين وقد سلاه ان ذاك القطب قد خلف يك من يقوم مقامه ويحيي مآثره وينتشر إعلامه . تاسي بخير الحالق يا مفرد العلا ◈ ومن فضله لا يسطاع له حد

فان يك مولانا وسيدنا قضى ◈ فانك ماء الورد ان ذهب الورد

ومن مكاتيب المسيحيين ما كتبه 'حضرة البطرك الانطاكي الإسكندري'

لقد انسدل على آفاق هذه الأقطار المصرية الواسعة وشاح الحداد الذي التحقت به دمشق لا بل قد انبسط ذلك الثوب الأسود على جيال وبطاح الجزائر ومصر والشام وفرنسا أيضاً لـدى سـماعها ألسـنة الـبرق تنـادي بحلـول الخطب الجسـم ونظـرهن وجـوه الجرائـد على اختلاف أجناسـها ولغاتها موشاة بشارات الحداد فقد من كان للجزائر ابنـا وأمـيراً خطـيراً ولمصر كعبة احترام ووقار وللشـام بركـة ونعمـة ولفرانسـا حليفـاً أميناً عاقدته منذ أعـوام طـوال أبـدى الوقـار والمسـالمة امـا الإسـلامية فقـد خسرت به إماماً فاضلاً طاهر الذيل ومثالاً حبياً للبسـيطة الدينيـة والأمـة العربية أستاذاً كبيراً طلبا تيمنت ببركة انفلسع واما الأمة المسيحية فقـد فقدت بشخصه الكريم ملاذا قوياً ودرعاً منيعاً تكسرت إلى شفاره تــوف السيوف كانت على حياتهم قاضية تذكر له سـنة السـتين وقلوبهـا تفيض بالمنة والشكر الجميل وألسنتها تتندى بالثناء الرطب أما نحن أيها الأمـير الخطير فندع تأبين الأمير الخطير فندع تأبين الأمـير الفقيـد رهينـة أقلام الجرائد إذ لا طاقة لنا على استيفاء تعداد فضائله وكمالاته ونقتصـر على إبلاغ سـعاتكم مـا ألم من الأسـف العظيم على هـذا الخسـارة المـرة وبواسطة سعادتكم ننقل إلى أعضاء العائلة الحسينية الشـريفة الحسـب

والمجيدة النسب شعائر مشاركتنا لها في التأثر الشديد من حلول هذا المصاب العظيم الذي اذوبارومة مشاركتنا لها في التأثر الشديد من حلول هذا المصاب العظيم الذي أذوى أرومة مجدها الاثيل ونقص رهص شرفها المجيد الحسيب ولقد كانت الآمل قد خابت لو لم تتعلق حبال الرجاء ببقاء من ورث عن الأمير الفقيد محبة القوم واعتبارهم وثقة الأمة وإخلاصها اعني به شخص سعادتكم الكريم الذي جمع شتات الفضل والكرم والنباهة والأنس فكان محط الآمال وألقيت إليه مقاليد الزعامة على العائلة الكريمة فكان أبهى خلف لأبهى ساف نسأل الله الذي كسر القلوب بوفاة الأمير المأسوف عليه ان يجبرها بدوام بقاء وحفظ وسعادة وإقبال من شخصت عيون الآمال إليه ويصون لفيف العائلة الكريمة النبعتين خلفاء العزاء والفاء الهناء وهو تعالى خير مسئول .

ومنها مكتوب الوجيه خليل أفندي الخوري 'مدير البولتيك والمطبوعات في سوريا'

ونصه لقد شقت المرائر لا الجيوب وانكسرت الخواطر والقلوب للمصيبة العظمى والمهمة الكبرى التي جرحت أكباد العباد ورفعت لواء الحداد في كل ناد لفقد الهمام الأشهر والأمير الابر السيد السند الذي ذاعت محامده بين المال والأمم وعجزت عن بيان أوصافه وألطافه السنة القلم والدكم الجليل المرحوم الذي فجعنا به القدر المحتومإنها رزيئة يعظم فيها الأسف وتعم الأحزان ومصيبة تضيق بها الصدور في كل مكان فبماذا آتيكما من التعازي والخطب اعظم وماذا أقول لكما واللسان ابكم لكن ما اشتهر عنكما من الفضل والرشاد والحزم والسداد يسلي البال ويعلق الآمال بأنكما لا تلقيان بذاتيكما الكريمتين إلى مهاوى الحزن والكدر فلا فاءدة منهما سوى فرط الحرقة والضرر والتسليم لأحكام المولى هو في كل حال بكما أولى واي سلوة

لسعادتكما اعظم من اليقين بان فقيدنا الخطير انما انتقل إلى فسيحات الجنان تغمده الله بالرحمة والرضوان وجعل عوضنا بطولكما وحفظ وجودكما فخراً وذخراً للجميع انه المجيب السميع والتمس عدم اخراجي من دائرة الخاطر الشريف مدى الزمن وفي كل حال لكم الأمر والمنن .

ومنها مكتوب الوجيه نقولا أفندي النقاش قال فيه

اما المعروض فالمقام يقتضي ان تفاض فيه العبرات وتصعد الزفرات وتفتت الاكباد وتلبس السواد ويندب الفضل ويرثى الشرف ويبكي الكرم ويغمد السيف ويكده القلم ويعم الاسف ويلم اللهف على مأمن النفوس ووافى اليار وغوث المستجير وغيث الفقير ومعدن المكارم والعوارف ومخزن الفوائد والمعارف كل ذلك حزناً وأسى على ذلك السيد السند الكبير الخطير الهمام المقدام الشهير المرحوم المبرور والدكم سيدي الأمير عند القادر إذ توفاه الله والناس راجية طول بقاء فكبر الخطب وجل المصاب وكان الخلق فالكآبة عليه سواء لشمول الخسار في كل الديار وعموم البلاء في أي الانحاء وما أحد يجد من نفسه تجلداً ولاصبراً ولايرى لعين لم يفض ماؤها عذراً فكيف القدم لسادتي الأمراء الفخام في هذا المقام . أبالتأبين والرثاء فهو يزيد قي لظى الحزن والاسى ام بالتأسية والتعزية فهو اجل من ان يؤديها مثلى لمثلكم وعليه فلا يجدر بي الا مولاة الدعاء إلى عزة الرحمن ان يتغمد هذا الفقيد المجيد بعزيز العفو والرضوان ويقيكم كل مكروه وحدثان ويلهمكم جميل الصبر وحسن العزاء معوضاً للامة بطول بقاكم ودوام علاكم .ومنها مكتوب الشاعر الأديب سليمان أفندي صوله ونصه دموعي لا يكفكفها العزاء ◈ تفيض وكل ديمتها دماءُ

على ملك عليه الأرض ناحت ◈ وسرت حين حل بها السماءُ

سبحان من هذا المصاب على مراده والصلاة والسلام على خير عباده الذين اعتصموا بسره المكنون وإذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا إليه راجعون اللهم انا نسألك بقلب منكسر وبدمع منحدر ونتوسل إليك بانبيائك المرسلين وملائكتك المقربين ان تسكب سحائب الرحمة والغفران على حضرة ساكن الجنان وليك الشاكر الصابر الأمير عبد القادر وتروح روحه كل حين بارواح عليين وتلاحظ اشباله الاماجد وامهم السيدة الطاهرة بعين عنايتك القادرة وتحفظهم من سائر الاسواء وتفرغ عليهم احسن العزاء انك اكرم الاكرمين وارحم الراحمين اللهم بلوتنا ونحن غرباء وامتحننا ونحن ضعفاء فاسبغ علينا الصبر الجميل وامدد علينا ظلك الظليل ببركة ذلك الفيل وانصر انصاره البهاليل الذين سلوا الحسام على اللئام وانقذوا عبادك في حادثة الشام هب اللهم لهم اجراً غير ممنون والطف بهم يوم لا ينفع مال ولا بنون . آمين

آمين لا ارضى بواحدة ◈ حتى اضيف إليها الف آمينا

غب تقبيل اذيالكم الطاهرة والسؤال عن صحتكم اعرض بهذا اليوم العبوس المعتم بالنحوس بلغني الخبر المشؤم المصحوب بالهموم والغموم فآه لاثم آه اقبلت على

طائفة الشنوام تعزيتي بالملك الهمام ذارفة والوانها كاسفة تقول انتقل لرحمة الواحد الازل اميرنا الأمير الطاهر السيد عبد القادر فيا لها من ساعة مريعة واخبارها فظيعة تخددت بها الخدود وتشققت القلوب قبل الجيوب وقامت بها متاحة مصر على ابن يعقوب سيدي كيف اعزيك وعمن اسليك افل القمر الباهر وغاض البحر الزاخر وماد طود الاطواد وغيظ الحساد العالم العامل الكامل فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . يابهجة العيش ما للعيش بعدك من ◈ طعم إليه لذيذ العيش ينتسب

بيد ان من التجأ إلى الله كفاه وخفف عناه فقد اصيب الناس بخير المرسلين وخاتمك النبيين والتجأت لرب العالمين فجبر الله تلك الصداعة وسكن تلك الدمعة وكان الله الخلف عليهم من بعده ومعرفتي الاكيدة بالمعيتك الفريدة تبشرني باتجائك إليه واتكالك عليه وبانه تبارك وتعالى سيكفيك ويغنيك خير خلف . لخير سلف فحقق يامولاي ظنى بصبرك الجميل وفضلك الجزيل واقبل تعزبتي المختصرة فقد خنقتنى والله العبرة واولادي ينوحون حولي نواح المقلات ويخمشون الجباه والوجنات ويقولون من خلف مثلك ما مات . فصرت اراه باقياً وهو ميت ◈ وكنت اراه حاضراً وهو غائب

ومثلك يا مولاي لا يحتاج إلى وصية ولكن عملاً بقوله تعالى فذكر ان نفعت الذكرى واقبلنى عبداً لك كما كنت عبداً اميناً لسيدي ابيك المرحوم والرجا ان تنوب عنى وعن عبيدكم اولادي وابنتي وعائلتي بتقديم التعازي لحضرة السيدة الطاهرة والدتكم ذات العصمة ولحضرة اسيادي اخوانكم المحترمين ومن ياوذ بالمقام الشريف وتشرفوني بخدمتكم الجليلة عوضنا الله سلامتكم الغالية وجمل عزاءكم واهلك اعداءكم أمين . ورثاه قدس الله سره جماعة من ادباء العصر وشعرائه فمنهم السيد محمد بن المبارك الجزائري

فانه رثاه برسالة فائقة سماها لوعة الضمائر ودمعة النواظر في رثاء الأمير عبد القادر . ونصها .بسم الله الرحمن الرحيمسبحان من تفرد بالقاء . وكتب على ما سواه الفناء . وانزل على امام أهل العرفان . قوله تعالى كل من عليها فان صلى الله عليه وسلم . وعلى من فوض امره إليه وسلم وبعد فلما قضى القادر وحكم . بوفاة عبده السيد العلم . مولانا الأمير . والقطب الشهير . واسطة عقد السيادة . سيدنا عبد القادر ابن سيدنا محيي الدين عزيت بفقده شعائر الإسلام والدين .

ولبس المجـد ثيـاب الحـداد وصـالت الخطـوب باسـنة حـداد . وخلعت الاكـوان ملابس الانس . حزنـا على من بكتـه الجن والانس . وكفهـرت وجوده الوجود . لا فول بدر الكمال ونجم السعود والشمس يومئذ كليلـة الطرف كاسفة المحيا . والعالم في ذهول كانما احتسـت صـرف المحيـا وكان يوماً اطول من ظل القناه . واحـر من دمـع المقلاه . فلم ار يومـاً كان اشبه ساعة بيوم من اليوم الذي فيه ودعا

مصيف افاض الحزن فيه جداولاً ◈ من الدمع حتى خلته عاد مربعا

ووالله لا تقضى العيون الذي له ◈ عليها ولو صارت من الدمع ادمعا

وعندما قضى نحبه . وفارق آله وصحبه . عز العزاء . وضاق رحب الفضاء . واصم الصائح بنعيه الاسماع . وزهد في الحياة الآمال والاطماع . الا في سبيل الله مهجة ماجد ◈ يشاركنا في ندبه المجد والفخر

كريم افاد الدهر منه خلائفاً ◈ فايامه منه محجلة غر

يروع جيوش الحادثات يراعه ◈ ويفنيس الاعادي قبل اسيافه الذعر

فآه ثم آه لفقد الحليم الاواه لقد انقض ركن الشرق والغرب فجل الخطب وعظم الكرب فيا لها من مصيبة بسهامها للقلوب مصيبة قد اطارت النفوس شعاعاً وارعدت الفرائص ارتياعاً . فيا وحشة الدنيا وكانت أنيسة ◈ ووحده من فيها لفرقة واحد

لان هي اهدت للاقارب لوعة ◈ لقد عفرت تربا خدود الاباعد

فما جابت الدنيا بسهل ولا الضحى ◈ بطلق ولا ماء الحياة ببارد

وليس أحد الا تفجع لفقده وتكر عليه صفو ورده الا جاهل بمقامه المحمود أو حاسد وكل ذي نعمة محسود حيث كان رحمة لكل امة وهل يسمح الزمان بمثله بعد امه . هيهات لا يأتي الزمان بمثله ◈ ان الزمان بمثله لبخيل

فوا اسفاه على بدر هوى من رفيع الذرى وقد كانت تهتدى بسناه كل الورى وواحسرتاه على فقد من هو بغية الآمال . ثمال اليتامى عصمة للارامل . لعمرك ما الرزية فقد مال ◈ ولا فرس توت ولا بعير

ولكن الرزاية فقد حرٍ ◈ يموت لموته خلق كثير

فاعظم به من مصاب به ترادفتا لاحزان والاوصلب . جدير ان نسكب فيه العبرات وتذهب النفس حسرات وكيف لايندب على هذا الكريم الندب وهو بهجة العالم وبضعة سيد ولد آدم . فتى كان كالتوريد في جنة العلا ◈ وكالعقد حسنا في نحور المراتب

فلا انطبقت عين العلى بعد فقده ◈ ولا ابتسم الهندي في كف ضارب

وقد شيعه خلق لا يحصى عديدهم ولا ينادى وليدهم تشهد الطل من فرط الدهشة حيارى وترى الناس سكارى وما هم بسكارى يموج بعضهم يومئذ في بعض كانهم فوجؤا بهول يوم العرض ولهم زجل بذكر الله ترتج منه الأرض فمنهم من اوشك ان تخنقه العبرة تالياً آية ان في ذلك لعبرة ومنهم من توالت زفراته وتواصلت تلهفاته

وحسراته ومنهم من كاد يتميز من الغيظ ويذوب نت حر جوى اشد من نار القيظ ومنهم من تفطر قلبه وغاب رشده وذهل لبه ومنهم من تجرع كاس الصبر بذلك اعظم حسنة متمثلاً بآية لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة وهم يناجونه يا ابا الأمراء يا كافل الايتام وكافي الفقراء لقد فجعنا بك الدهر وسطا علينا بصورام القهر فصبر جميل وحسبنا الله ونعم الوكيل وهجيرهم في معاناة هاتيك الشجعون انا لله وانا إليه راجعون وكلهم يتمنون فداء بالنفوس والآدباء لو كان يقبل منهم الفداء . يا

بهجة العيش ما للعيش بعدك من ◈ طعم إليه لذيذ العيش يتنسب

فاليوم انفسنا للدهر آمنة ◈ إذ ليس بعدك خطب منه ترتقب

فاذهب عليه سلام الله من ملك ◈ ما بعد مفقده رغب ولا رهب

بالملائكة الاخيار وارواح المقربين الابرار وهي ترفرف على الرؤس وتتبختر ولا تبخر عروس وقد لاح عليها من انوار الجلالة ما كشف عن عين المشاهد عين الاغيار وجلاله يكاد سناها يتخطف الابصار ويدهش الباب ارباب الاستبصار تتبادر حملها الخلائق لتلقي عن ظهرها اعباء الذنوب وقد شقت من شدة الاسف عليه جيوب القلوب ولا جرم انها لو وضعت عن اعناق الأنام لتولت حملها الارواح العلوية والملائكة الكرام فهي التابوت المشتمل على السكينة والسر الممجد وفيه بقية مما ترك آل محمد وتلك آية ملكه في الدار الآخرة دون مين فهنيئاً له بخاتمة الحسنى وسعادة الدارين . يا دهر بع رتب المعالي بعده ◈ بيع الكساد ربحت ام لم تربح

قدم وأخر من تشأء من الورى ◈ مات الذي قد كنت منه تستحي

ودفن مع استاذه الشيخ الاكبر ففاز برحمة ورضوان من الله اكبر في روضة ذات روح وريحان يشهد الجنان انها من رياض الجنان ولا غرو ان دعاه إلى حسن جواره رجب الاصب لاشارة الحديث الشريف المرء مع من احب وفيه تنبيه على انهما من طينة واحدة فلهذا كان يقتفي آثاره ويتعهد معاهده وما زال يغترف من بحر فتوحانه ويقتبس من مشكاة تجلياته ويتحقق ينصوص فصوص حكمه ويتخلق بحسن اخلاقه وشيمة حتى حكاه في القول والفعل وسار على قدمه حذو النعل بالنعل فشيد اركان الشريعة والطريقة فهو محيي الدين في الحقيقة كان قدس الله سرة العزيز يعرب عن دقائق المعاني بلفظ وجبز وله في فن التصوف المقام الشامخ والباع الطويل والقدم الراسخ وموافقة الكريمة اعدل شاهد بكمال ذوقه في تلك المواقف والمشاهد على انه احرز قصب السبق في سائر الفنون وجمع ما تفرق في غيره من حسن الاوصاف وبديع الشؤون . وليس على الله بمستنكر ◈ ان يجمع العالم في واحد

زان العلم بصالح وجرى صيته في الورى جري المثل وانفرد بحسن السيرة وصفاء الطوية والسريرة حتى اعترفت له اعداؤه بجميل الثناء ولا ريب ان الفضل ما شهدت به الأعداء . فتى دهره شطران فيما ينوبه ◈ ففي بأسه شطر وفي وجوده شطرُ

فلا من بغاة الخير في عينه قذى ◈ ولا من زئير الحرب في اذنهُ وقر

دأبه قضاء حوائج واصلاح ذات البين وجبر الخواطر بما تقر به العين وهمه اقامة الصلاة وحضور الجماعة وذكر الله جل جلاله في كل ساعة تكاد احاديثه تندرج في حديث خير الأنام وكيف لا وكلام الأمير الكلام ولابدع في ذلك عند كل نبيل نبيه فان الفرع يزكو بطيب الاصل والولد سر ابيه وكان في الندا والسماحة رحب الصدر والساحة يرتاح إلى الوافد والوارد ارتياح الظمآن إلى عذب الموارد ويسد جزيل الفضل وجميل القرى فيقول لسان حاله . كل صيد في جوف الفراء وكم استوهب

الذهب فلم يهب ان يهب صلاته تعم القريب والغريب ويصيب المرء منه اوفر نصيب بيد انها كانت لوجه الله وابتغاء رضوانه ودار علاه . لقد علمته غاية الزهد نفسه ◈ فاصبح حتى في الحياة له زهد

لم ار بدراً قبله حازه الثرى ◈ ولم ار بحراً قبله ضمه لحدُ

وكان في الحماسة اسد الله ورسوله يجاهد في الله ويقاتل في سبيله وله وقائع دونها شرط الحدود وخرط القتاد قد سارت باحاديثها الركبان وعثر عليها كل قاص ودان وهل ينسى ما اسفله في الجزائر حفظاً للرعايا وصوناً للحرائر من فتكاته العديدة وسطوته الشديدة . إذا شب ناراً اقعدت كل قائم ◈ وقام لها من خوفه كل قاعد

يقدم على الجيش العرمرم بنفسه فيتشتت شمل انسه ويحل في رمسه ويدهش الالباب بوثباته عند النزال وثباته في كل معركة ومجال فهو الليث الغضنفر وحسامه الموت الاحمر . كان للاعدآء ذلا وبوساً ◈ ولراجى الجود عزا ومالا

كان وبلا للعفاة هتوناً ◈ ولا حزاب العداة وبالا

كان للناس جميعاً كفيلاً ◈ فكأن الخلق كانوا عيالا

وانى لذوى الافهام درك غاية هذا السيد الهمام وهو وحيد دهره وفريد عصره قد منحه الله مكارم الأخلاق فعز وجوده في الأمة على الاطلاق . يكاد يحكيه صواب الغيث منسكباً ◈ لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا

والدهر لو لم يحين والشمس لو نطقت ◈ والليث لو لم يجر والبحر لو عذبا

وهل تبلى ماثره أو تندرس مفاخره وقد قلد اجياد الزمان قلائد منن تفوق عقود الجمان . ينبي المواقف عنه انه سند ◈ ويخبر الروع عنه انه بطل

يعطي فيجزل أو يدعى فينزل أو ◈ يوءتى لمحمل اعباء فيتحمل

اضحى لنا بدلاً منه بنوه به ◈ والشبل من ليثه اما مضى بدل

على انه ما مات من بقي ذكره وظهر في اشباله كماله وسره فهم سادة كرام وقادة عظام تخالهم لدى الوغى اسوداً كاسرة وتحسبهم عند الندى بحوراً ذاخرة إذا حل منهم واحد في قبيلة ◈ يشار إليه انه العلم الفرد

ولا سيما واسطة ذلك العقد وصاحب الحل والعقد سعادة الأمير الأعظم السيد محمد باشا الافخم من آذنت اخلافه الشريفة بأنه خير خليفة وهل ينكر ذلك لا ذو جهل أو حسد أليس هذا الشبل نت ذاك الاسد . بلى وابي ان الأمير محمداً ◈ لقطب الرحى مصباح تلك المشاهد

حمدت الليالي إذ حمت لي جنابه ◈ وليت لهذا الفضل منها بجاهد

جعل الله الجميع خير خلف ووقفهم لاتباع سنة من سلف . اقر بوجودهم عين الوجـود واجـرى بهم عين الكـرم والجـود مـا بـزعت الشـمس ولاح القمر وناح الحمام في السحر على افنان الشجر فقـال من ارقـه الـبين وآلم مؤرخاً وفاة فقيد العالم . سار الأمير الفرد عبد القادر ال _ حسـني اثر محمد والآل

اضحى نزيل الحاتمي اخي الندى ◈ حباهما صوب الحيا المتوالى
فرثاه حسن ثنائه بين الورى ◈ وغدا يؤرخ غاب بدر كمال

'نفثة الوجد والغرام في تعزية آله الكرام'

الصبر اجدر في الخطوب واليق ◈ والحزم اوفق بالنفوس وارفق
والحر يابى يميل مع الهوى ◈ وبغير تقوى الله لا يتعلق
والعيش ظل زائل في صفوه ◈ كدر فلا يغررك منه رونق
ما المرء في الدنيا سوى هدف غدا ◈ بسهام أنواع الرزايا يرشق
يلهو بآمال كبرق خاب ◈ وسراب قاع ماؤه يترقرق
بينا يعلل بالاماني نفسه ◈ إذ بات منه الشمل وهو مفرق
ما فائز بالحسنى سوى عبد له ◈ قلب بمولاه الكريم تعلق
ما زال مشتاقاً إلى راح اللقا ◈ حتى ادير عليه وهو معتق
ذاك الأمير الفرد زمانه ◈ من في العلى آثاره لا تلحق
لبي نداء الحق مرتاحاً إلى ◈ روح وريحان شذاه يعبق
قد حل عند الحاتمي اشارة ◈ لوراثة اضحى بها يتحقق
فهو ابم محيي الدين طلب ثراهما ◈ وسقاه صيب رحمة يتدفق
جمعت شمائله من الاوصاف ما ◈ هو بين ارباب متفرق
وله مواقف كالمثاني ذكرها ◈ ابداً على طول المدى لا يخلق

ولكمة العدل المبين سما به ال _ غرب المبارك واستضاء المشرق

ولطالما قد طاولت بكماله ◈ كل البلاد ومن عليها حلق
مذغاب عن عيني تخلل مهجتي ◈ فرط الاسى والروح كادت تزهق
يا ليتني كنت الفداء له وهل ◈ من بعده تحلو الحياة وتعشق
صبر جميل يا فؤاد فانه ◈ سهم على كل الأنام مفوق
هو في سبيل اللع افنى نفسه ◈ لمشاهد منها المشاهد يصعق
أو ما علمت على اليقين بأنه ◈ في الغيب عند الله حي يرزق
هذا وان عدنا بوحشة فقده ◈ والقلب كاد من الجوى يتمزق
فالسر في اشباله ووجودهم ◈ حصن لنا من كل خطب يطرق
ما مات من ابقى سادة ◈ بثنائهم جيد الزمان مطوق
عقدوا على حسن الاخوة جمعهم ◈ فغدا الحسود بناره يتحرق
برعاية الشهم الهمام محمد ◈ لهم بعين بالعناية يرمق
مولى به ركن الامارة راسخ ◈ وعليه رايات المعالي تخفق
يا معشر الأمراء لا برحت بكم ◈ سحب المكارم والمراحم تغدق

ويمجدكم وجلالكم لا زالت ال _ أحباب تفرح والاعادي تفرق

'الشيخ إبراهيم الاحدب الطرابلسي ونص مرثبته'

صم النداء الخطب للمجد مسمعاً ◈ وراع المعالي والعوالي بما نعى
وهد منار العز نفح سمومه ◈ وما صد عن هام العلى حين صدعا
تداعى له ركن الفخار وقد هوى ◈ به كوكب العلياء هولاً بما دعا
فلا كان يوم السبت يوم مصائبٍ ◈ فقد جاء ظهراً فيه للنجم مطلعا
وقد راع أصحاب العبا وقع حادث ◈ بفقد امام جل في تلكون موقعا
والوى بعبد القادر الدهر عادياً ◈ على قدر ما سآر الكرام وروعا
قضى نجل محيي الدين سيد من سما ◈ فسال عليه القلب مما ففجعا
قضلا من اياديه قلائد أنعم ◈ فكم عقد إحسان بها قد ترصعا
قضى من يرجى للندى والعلى ومن ◈ ترجى الاماني والمعالي به معا
قضى من له الملهوف يفزع لائذاً ◈ إذا لم يجد من حادث الدهر مفزعا
قضى من يرد الخطب بأسه ◈ ويأمن في عليائه من تدرعا
همام قضى نحباً وقد كان في الورى ◈ من الغيث اروى أو من الليث اروعا
عليه ثناء القوم اضحى بندبه ◈ من الصبح اضوى أو من الليث اضوعا
فكل فؤاد قد اصيب بخطبه ◈ فراح عليه بالاسا متفجعا
وضوح روض الفضل بالجدب سنة ◈ وقد كان من جدواه بالحسب مرعا
لقد زلزلت ارض المكارم والندى ◈ وبيت العلى مما الم تزعزعا
ودوحة مجد راعها عاصف الردى ◈ وهبت بها النكبا سموماً وزعرنا
واخرس لسن القوم هول مصابه ◈ وانطق بالحزن الجماد وفجعا
وكما رجب الشهر الاصم بوقعه ◈ له فتق الحزن المبرح مسمعا
اهاج عويل القوم فيه بلالاً ◈ وطوق بالنوح الحمام المرجعا
على مثله شق القلوب من الاسى ◈ يرى فرض عين ان همت فيه مدمعا
من الغرب وفي الشرق يحيي ربوعه ◈ فاشرقه بالغرب ما افاض ادمعا
وفي الشام قد اضحى نزيلاً فزاحمت ◈ به مطلع النيرين والقطب موضعا
مناقبه تعيا المناقب بعدها ◈ وان اظهرت ما كان منها مبرقعا
تاصل نيل العز في باب جاهه ◈ ومنه باقطار البلاد تفرعا
وقد كان للراجي به الانس والهنا ◈ إذا اوحشق الدهر الاريب وضيعا
فاغلق باب الشعر مصرع خطبه ◈ بمدح فلم يفتح لراجيه مصرعا
واسبابه قد قطعتها يد النوى ◈ واعجب للاسباب ان تتقطعا
وكان لشعري من صلات جميله ◈ عوائد فيها كان بالجود مبدعا
فاوجب فرض الندب نظم رثائه ◈ لما كان بالاحسان فضلاً تطوعا
فها انا ارثيه واندب عهده ◈ وارعى اياديه إذا قل من رعا
وكنت اهني النفس صوغ الهنا به ◈ فاصبحت ابدي بالرثاء تفجعا

فوا أسفي قد سار عنا مخلفاً ◈ نوائب نابت كل قلب تمزعا
سرى نعسه فق الرقاب وطالما ◈ عنت لمعاليه العريقة خضعا
فيا ويحهم ساروا بطود فضائل ◈ به كل قلب من جواه تصدعا
يشيعه الفضل الذي شلع صيته ◈ وعز علينا ان يكون مشيعا
يشيعه بالفقه مذهب مالكٍ ◈ فقد كان بالرضوان منه تمتعا
يشيعه سيف صقيل جلا الصدى ◈ به إذ تروى من دم النحر مكرعا
يشيعه الرمح الاصم إذا غدا ◈ بمطعنه من ضل للحق مسمعا
يشيعه متن الجواد الذي سرى ◈ به لم يدع في السبق للقوم مطمعا
يشيعه بيت من الشعر بعده ◈ غدا بنواح في النواحي مخلعا
يشيعه المجد التليد وطارف ◈ على هامة الشعري سناه ترافعا
يشيعه العرف الذي طاب عرفه ◈ بانفاسه المسك الفتيق تضوعا
يشيعه من حادث الدهر ضارع ◈ لفقد علاه كان بالخطب أضرعا
يشيعه بالطبع انات وآله ◈ بآدابه الغر الحسان تطبعا
عفاء على الدنيا بفقد جنابه ◈ فقد كان فيها سيد الكون اجمعا
فقدنا اماماً كان من شهب رأيه ◈ ثواقب لاحت في سما الدين طلعا
فيا راحل اقى علينا مصابه ◈ رزايا لها رضوى وهى وتضعفا
سربت إلى دار القاء من الفنا ◈ فكنت بجنات النعيم ممتعا
يناديك من قد ضاق ذرعاً وطالما ◈ مددت له كفاً من اللوح واسعا
تواضعت للرجى بنفس هيتةٍ ◈ وما كان صنع العرف منك تصنعا
ودست على كعب بنعلك في الندى ◈ فاصبح معنى الجود لفظاً مصنعا
فكيف يوفي ندب فضلك شاعر ◈ إليك برفض المعتدين تشيعا
واني لارجو الفوز بالخلد في غدٍ ◈ بحبك إذ ادعو مجيباً مشفعا
بنى حسن انتم مصابيح دهرنا ◈ ومنكم جميع الخير فينا توزعا
محبتكم فرض وعقد ولائكم ◈ يرى وصلة عند الآله ومرجعا
لذاك نرى ان لا غلو بما به ◈ نصوغ لكم عقد الرثاء مرصعا
فسر في جنان الخلد ريان بالتقى ◈ لديك جنى الإحسان بالعفو اينعا
ويا كوكبي فضل انار سناهما ◈ لفقد سناء البدر بالبين اربعا
بكم قد تاسينا وان عظم الاسا ◈ وجرع كلا خطبكم ما تجرعا
فنحمد في صنع الجميل محمداً ◈ ونحيي بمحيي الدين قلباً مروعا
هما قمرا مجدٍ وفضل وسؤددٍ ◈ وعلم وجودٍ طابه سعى
فلا غمرت ايدي الخطوب قناهما ◈ ولا مدت الندباء للقصر اصبعا
ولا راعت الارزاء انجال سيدٍ ◈ يلبون داعي الخير من قبل مادعا
ويحيون للعليا معالم بعده ◈ وكل إلى المعروف تلقاه مسرعا
وبيت قصيد المجد لا اختل وزنه ◈ ودام لاقمار الفضائل مطلعا
وحسبي ان ادعو باخلاص نيةٍ ◈ لدى سيد من عبده يقبل الدعا

'ومنهم الشيخ طاهر السمعوني الجزائري فانه قال'

هذه مرثية فيمن شهد أهل الغرب والشرق بفضله . وعقم الزمان عن ان ياتي بمثله . الأمير الجليل مولانا عبد القادر الجزائري . وكان له من زلال رضوان مولاه الكريم يوم الجزائري . خطب جسيم عم بالاكدار ◈ ما بعده لسواه من مقدار

لو يعتري صم الجبال لاصبحت ◈ دكاً تنثر مثل نثر غبار
ولو اعترى نوع النبات لما نما ◈ ولصار مثل الترب والاحجار
ولو اعترى الشمس المنيرة اظلمت ◈ وغدا الأنام بغير ضوء نهار
ولو اعترى زهر النجوم تقضضت ◈ ونحا بديع نظامها لنثار
ولو اعترى البحر المحيط تطايرت ◈ اجزاؤه وتحولت لبحار
ولو اعترى الفلك المدار لعطلت ◈ حركاته ولصار غير مدار
خطب تبدلت الدموع به دماً ◈ تجري كغيث هاطل مدرار
وغدت به الاكباد وهي كليمة ◈ حراء حامية كجذرة نار
صعقت جميع الناس فيه كأنهم ◈ في طورسينا إذ تجلى الباري
ويحق ذاك وكيف لا والترب قد ◈ وارى امام السادة الاخيار
مهدي هذا العصر وسطى عقده ◈ بحر الحقائق كاشف الاسرار
الغوث عبد القادر السامي الذرى ◈ شمس الهداية مظهر الانوار
مولى مناقبه تجل وتعتلي ◈ عن عهدها كالقطر في الامطار
واحسرنا للمعتفين فانهم ◈ من بعده في خيبة وخسار
ذهب الذي قد كان يجبر كسرهم ◈ ويثبت يمناهم اجل يسار
يعطيهم الالآف معتذراً لهم ◈ طلق المحيا بادي الاسفار
واحسرنا الائذين فانهم ◈ من بعده في ضيعة وصغار
ذهب الذي يحميهم ويقيهم ◈ ويذود عنهم اعظم الاخطار
ويقل عنهم عضب كل ملمةٍ ◈ فتراهم كالطير في الاوكار
واحسرنا للطالبين فانهم ◈ من بعده صاروا بغير منار
ذهب الذي يجلو الغوامض عنهم ◈ من بعد ما اعيت على الأفكار
ويحل كل دقيقة معتاصة ◈ بادلة يسكتن كل مماري
واحسرنا لليل من ذا بعده ◈ يحييه بالطاعات والاذكار
وينير طرته بابهى غزةٍ ◈ مستغفراً لله في الاسحار
لهفي على الفقراء من ذا بعده ◈ ينجيهم من مخلب الاعسار
ويرد ناب البؤس عنهم تائباً ◈ وينيل ما راموا من الاوطان
لهفي على الايتام ماذا بعده ◈ يلقون من ضيق ومن اقتار
ذهب الذي قد كان خير اب لهم ◈ يوليهم فيض الندى المدرار
لهفي على الادباء من ذا بعده ◈ يلقونه ببدائع الاشعهار
ذهب الذي قد كان يغلى سعرها ◈ ويجيز بيت الشعر بالدينار
صبراً على هذا المصاب وان يكن ◈ زند الاسى والحزن فيه واري
فالله قد وعد الصبور مثوبة ◈ وجزيل انعام بدار قرار
لو كان في الموت الفداء فداه كل ◈ سميذع ندب من الاحرار

لكنه أمر على كل الورى ◈ متحتم في سابق الاقدار
والموت عند ذوي البصائر نعمة ◈ عظمى لارباب التقى الابرار
اروحهم ترقى إلى اعلى العلى ◈ من بعده وتحل اكرم دار
حي الكريم البر روحك بالرضا ◈ واثابها منه بخير جوار
وادام طيب ثرالك فضلاً انه ◈ يسمو بنفحته على الازهار
وانار قبرك مثل قلبك انه ◈ يوفي على الافلاك في الانوار
واقر اعيننا القريحة بالبكا ◈ يبقا بينك الكمل الاخيار
لا سيما المولى الهمام ومن غدا ◈ في حلبة العليا بغير مباري
السيد السند الأمير محمد ◈ كنز الفضائل معدن الاسرار
وانا لهم خير الاماني انهم ◈ محيوا مآثر ذلك المختار

'ومنهم الأديب حسن بيهم البيروتي فقال'

باي جناح سامنا صرفه الدهر ◈ ام الدهر خب من خلائقه الغدر
وعن حسد ما نابنا من خطوبه ◈ وما نابنا الا الخديعة والكر
هو الدهر لم يحسن لمن كان قبلنا ◈ ولا يرتجى خير الندى طبعه الشر
يمد لنا بالنثبات اكفه ◈ اليس لهذا المد عن مسنا جزر
ويبغي ولا يبغي الباء لفيره ◈ ولا بد يوماً ان يذوق الردى الدهر
ويحسدنا في كل شهم سميفع ◈ ولا عجب إذ كان في طبعه كبر
فليس من الحزم بعهده ◈ فما عهده الا الخلابة والخفر
لقد زادنا طعناً فادى قلوبنا ◈ وقابلنا بالكسر فامتنع الجبر
واورتنا ريب المنون مصيبة ◈ لها ارتجلت الافلاك وانقضت الزهر
لها الأرض مادت والجبال تزلزلت ◈ لها صعق الاخيار قد قضى لامر
بها جاء ناعي البرق يرعد قلبنا ◈ فامطرت الآماق ما ضمه الصدر
عشية عين الغرب حجب نورها ◈ دجى الشرق حتى لا يخال له فجر
مصاب به العلياء تبكي اميرها ◈ وكل امرء من ذا المصاب به شطر
اجل مات عبد القادر الحسني من ◈ به سادات السادات وافتخر القخر
هو الجوهر الفرد الذي فيه ضمنت ◈ خلاصة الروح الفخر والشيم العز
امام هذى الله الأنام بهديه ◈ ولي ولكن ما لاسراره حصر
افاض على الارواح نوراً به سرت ◈ إلى العالم القدسي يحملها السر
قضى العمر شغلاً لم يذق طعم راحة ◈ وما شغله الا التفكر والذكر
وقام بامر الله حق قيامه ◈ فعز به عرف وذل به نكر
يراقب وجه الله في كل حالة ◈ وما للهوى نهي عليه ولا أمر
غدا في جوار الله اكرم نازل ◈ وبين ملوك الأرض كان له الصدر
وكان إذا ما قال فالفصل قوله ◈ ومن شعره الشعرى ومن نثره الدر
به ملتقى البحرين للعلم والندى ◈ ففي صدره بحر وفي كفه بحر

وكانت اياديه ولا من بعدها ◈ مناهل جود ليس يسبقها نهر
فمن لضعف الناس يحمى ذمارهم ◈ ومن لهم ذخرا إذا بعده اضطروا
فباليمن يمناه تفيض كرامةً ◈ ويسراه عن سحب اليسارة تفتر
فغيث إذا جدب الم وفيصل ◈ إذا اشتبكت حرب وحم لها جمر
فكم خاضها يروي الاوام بوردها ◈ يكر وللاعمار من كره فر
وان اعمل الصمصام انشد وقعه ◈ لنا الصدر دون العالمين أو القبر
وان شق قلب الحرب يوم كريهة ◈ يرى الموت طوعاً أو يرافقه النصر
شديد المراس زانه حلم قدرة ◈ هو الحر لا يلوي وان مسه الضر
يلاقي عناد الدهر ثبتا جنانه ◈ وان ناب ضيم لا يزاح له ستر
ويلثم ثغر العز من جمرة الوغى ◈ مرابط ثغركم له ابتسم الثغر
سل الغرب عمن كان يحمي زمامه ◈ تنسيك في صحرائه انهر حمر
لقد كان فينا وابن سيد ◈ عميم الايادي لا يخصصها قصر
بقية فجر العرب ما بعده لهم ◈ ملاذ ولا ركن فانى لنا صبر
وعهدي يخشى الموت شدة باسه ◈ فيا موت ما هذا اما هالك الامره
فقدناه والآمال ترجو بقاءه ◈ وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر
وساعة ساروا يحملون سريره ◈ لقد عرفوا من هولها ما هو الحشر
ترى الناس غرقى في بحار دموعهم ◈ على انه هول به اقفر البُر
سكارى وما دارت عليهم سلاف ◈ نشاوى ولكن الاسى لهم خمر
بكاه الندى والعلم الزاهد والتقى ◈ بكته العوالي الزرق والبيض والسمر
بكت قبله الخنساء ضخرا وإنما ◈ على فقده جف الحيا وبكى الصخر
فيا ليت ما عشنا إلى رجب به ◈ راينا عجابا ما اتى مثله شهر
قضاء قضى فيه المصاب بحكمة ◈ وليس لمن لم يقض فيه أسى عذر
وان تمكنع الاقدار موتي فانني ◈ سابكيه حتى ينقضي بالبكا العمر
لعمري ما الدنيا بدار اقامة ◈ ولكنما الدنيا لدار البقا جسر
وتحسبها اوهامنا ذات قيمة ◈ وما هي الا الصفر ليس له قدر
لجاهلها عذب مذاق عذابها ◈ ولكن لدى أهل النهى حلوها مر
فيا فوز من منها تزود بالتقى ◈ وكان كمولانا صنائعه البر
به افتخر الاحيا لكن بموته ◈ تفاخرها الموتى وحق لها الفخر
لئن مت ياmولاي والموت سنة ◈ ففضلك يحيي في الأنام له ذكر
ولولا بنوه ورث المجد بعده ◈ طوى الموت مجداً لا يعود له نشر
هم امل الراجين والسادة الأولى ◈ على امراء الأرض يسمو لهم قدر
ولا سيما الشهم الاميرمحمد ◈ عليه لتخليد العلياخذ الاصر
بساعد محيي الدين يقوى عمادها ◈ هو العضد الاقوى يشد به الازر
حباهم جميعاً طيب العمر ربهم ◈ والهمهم صبراً يلازمه الاجر
وامطر مولانا الأمير مراحماً ◈ وبلت ثراه بالرضا ديمة غزر
إلى دعوة الرحمن لبي مهلاً ◈ وآخر دعواه لك الحمد والشكر

'ومنهم محمود أفندي الشهال الطربلسي فقال'

ما للمحاجر دمعها مستغرب ◈ لقد استحال دماً وذلك اغرب

وشهاب افق الفضل يسرع نحو اط _ باق الثرى جزيلا وفيها يغرب

أو ما اعجبت بالقومي إذ غدت ◈ زهر المدى عن افقها لتغرب
ذهبت بافئدة الكرام فاصبحت ◈ تبغي التصبر وهو برق خلب
ومرائر الاحرار بعد افولها ◈ شقت وضاق بها لعمري المذاهب
المجد قد تخذ الحداد مدراعاً ◈ من حزنه وعليه شد المعصب
وكذلك أبناء المعارف أصبحت ◈ تنعي العوراف في الأنام وتندب
وسحائب الرحمن تمطرنا اسى ◈ ابداً وارمض برقها لا يكذب
اواه غدر الزمان كأنه ◈ بخداعة بين البرية ثعلب
ما اضحك الإنسان قط بمنية ◈ الا وقد ابكاه وهو مجرب
ماذا جرى يا مطلع الإحسان ما ◈ حتى في الترب ذاك الكوكب

يا بين حسبك لا حياة لنا وبال _ علماء اظفار المنية تنشب

موت الافاضل تلمة في الدين قد ◈ صح الحديث بذا وجاء المذهب

افحان يوم الساعة الموعود في _ ها من اله وعده لا يكذب

فكانما يوم القامة قد بدا ◈ في ساعة من هولها يتغجب
يا نفس خلي عنك ما تبدينه ◈ من ذي المسائل فالحقيقة اعجب
تالله ما يوم الحساب اشد من ◈ يوم به فقد الأمير الطيب

السيد المفضال عبد القادر ال _ حسني ذاك اللوذعي الانجب

هو كعبة العرفان في حرم التقى ◈ ومحط ترحال الأنام المخصب
علم الهدى بحر الندى مردي العدا ◈ بمهند بدم الوريد مخصب
العارف الحبر الهمام المرتقي ◈ اعلى مقام في المحبة يرغب
صنو الشريعة والحقيقة امه ◈ واخو الولاية والكمال له اب

لله ما اسناه فوق منابر ال _ عرفان في علم الحقيقة يخطب

علم لداني حياة الله في _ ه منة من غيره لا تطلب

وبحانة القدس العلي لقد صفا ◈ خمر الوصال له وطاب المشرب
امسى التقى والحلم طي ردائه ◈ شهم لغير الحق لم يك يغضب

اسفاً عليه من همام كان لل _ اسلام ركناً بالسلامة يرغب

حزنت عليه المكرمات واصبحت ◈ عين العلاء عليه دوماً تسكب
ق4د كان كهفاً للانام فكم فتى ◈ قد بات في نعمائه ينقلب
يا نفس فاصطبري لفرقته فذا ◈ حكم الاله ولين منه المهرب
بلقائه حور الجنان تباشرت ◈ وغدت ملائكة الرضا تترحب
حياة مولاه بخير تحية ◈ فيها يلذ على الدوام ويطرب
وسقى ضريح علاه من محب الرضا ◈ والعفو والغفران غيث صيب
واطال عمر بنيه اقماز العلى ◈ من في سنائهم يضيء الغيب
فلنا التاسي بعده ببقائهم ◈ فهم ملاذ للفؤاد ومطلب
عرب بهم ربع الفضائل آهل ◈ ابداً وثغر المجد فيهم اشنب
ما فيهم الا همام اروع ◈ سامي المراتب بالعارم مهذب
لا سيما رب العلاء محمد ◈ من شكره بفم العلى مستعذب
وكذلك محيي الدين من ارصافه ◈ حلى الكمال هي الطراز المذهب
هذا واني يالقصور لمذعن ◈ واخو القصور بعجزه لا يعتب
انا لست من فرسان ذا الميدان بل ◈ قصدي بذاك إلى الحما تقرب
إذ ان مدح علاه اعظم قربة ◈ فيها إلى رب الورى ينقرب

وثناه عذب في المداح وال _ ارصاف منه في المسامع اعذب

فريثته باقل ما فيه من ال _ حسنى وعجزي عن قصوري معرب

هيهات يحصى المدح منه محامداً ◈ مهما اطال المادحون واسهبوا
حاشا وكلا ما لذلك غاية ◈ إذ ان فضل علاه لا يستوعب
أو لم يكن من آل بيت نبوة ◈ يزدان فيهم في القيام المواكب
أو ليس من نسل النبي محمد ◈ من في القيامة يرتجيه المذنب
صلى عليه الله ما ابتهجت منى ◈ وزهت بنور سنا النبوة يثرب
أو جاء بدء طيبا برثاه ◈ وختامه مسك شذاه اطيب
'ومنهم محمد اسحاق أفندي الادهمى الطرابلسي قال' قامت عليك قيامة العلماء
◈ يا سيد العلماء والامراء

وبكتك اجفان المكارم والعلى ◈ يوم النوى ممزوجة بدماء

هذا مصاب ما اصيب بمثله ال _ اسلام بعد السادة الخلفاء

من لليتامى والارامل يا ترى ◈ بعد الأمير ومن إلى الفقراء
ومن الذي يولي الجميل تفضلا ◈ ويجود بالصفراء والبيضاء
ومن الذي يرجى لهذا الدين ان ◈ خفنا عليه سطوة الأعداء
من للمساجد والرياضيات التي ◈ ارضيت فيها عالم السراء
تالله من بعد الأمير المرتضى ◈ ما ثم الاكشف الضراء

مات الأمير السيد الحسني عب _ د القادر ابن الكرماء

اسفاعلى قمر بافق سما العلى ◈ قد كان يخلف غرة الظلماء

القانت الاواب من احييت موا _ قفه العربي ذاك الطائي

علامة لآفاقذاك العارف ال _ رباني غوثي بضعة الزهراء

اسفى على من كان يستسقي به ◈ صوب الغماموصيب الانواء
اسفي على تلك الشمائل طالما ◈ شملتني من معروفها بمشائي
قدروعتنا النائبات بخير من ◈ يرجى ليوم كرهة ووفاء
اسد الكتيبة واذي اخباره ◈ في الخافقين سرت مسير ذكاء
كم منة فد طوقت اعناقنا ◈ لابن النبي وكم يد بيضاء
ملك مآثره الشريفة في الورى ◈ كالروض عطر سائرالارجاء
ملك لقد ملك القلوب برحمة ◈ وبرأفة وتواضع لعلاء
هو سدة الشرف الذي ياطالما ◈ كنا لها ناوى لنيل مناه
حكم الآله على الخليقة بالفنا ◈ ما هذه الدنيا بدار بقاء
لله در فتى توشح للقا ◈ من اشرف التقوى اجل رداء
قد قام في محراب طاعة ربه ◈ متبتلا في الليلة الليلاء
فكانه داود في محرابه ◈ يثني على المولى بخير ثناء
قد ايقظ النوام صوت صلاته ◈ وصلاته فاضت على الفقراء
وعلى يديه مصالح الدنيا وما ◈ فيها قضيت بفضل قضاء
كالسيد السند الذي في ذاته ◈ يسمو رثائي دائماً وثنائي
لله عبد القادر ارجو هما ◈ في كل حادثة وكل بلاء

مولاي عبد القادر الحسني وعب _ د القادر الجيلاني بالزوراء

ركن من الإسلام ما ركن النهى ◈ من بعده يوماً إلى الامناء

انسان عين الدهر من قد كانت ال _ دنيا به في غبطة وهناء

ذاك الذي قد كنت معتزاً به ◈ من سائر الدنيا وكان رجائي
اما حديث الجود منه والندى ◈ عن واصل يروي لنا وعطاء
لم انس إذ قد قال لي متحدثاً ◈ في انعم جلت عن الاحصاء
لما لقد وافيت اسأله ولي ◈ شغف بما ابدى لدى الهيجاء
وانا بارض الشام منه بدمر ◈ في بيته السامى على الجوزاء
اني غزوت ثلاثمائة غزوة ◈ فيها وطئت سنام كل سماء
ولطالما قد خضت بحر مواكب ◈ من جيشهم فرجت فيه بلائي
ولقد قتلت من الاعادي ماءتي ◈ الف كما بذا اعدائي
والله يعلم ما لقيت من العدا ◈ في كل معترك ويوم لقاء
الله اكبر كم من وقفة ◈ فزنا بها بالرتبة القعساء
ولقد نصرت الدين لولا انها ◈ غدرت بنا فاس بغير مراء
قطعوا يد الإسلام بثوا حيلة ◈ باؤا باقبح خزية شنعاء
حسدوا على النصر المبين سفاهة ◈ اخوانهم فغدوا مع الأعداء
لم يبلغوا ما أملوه بظنهم ◈ لما غدوا لهم من الحلفاء
والله يجزي كل باغ في غدٍ ◈ عما جنى لا شك شر جزاءٍ
عشرا من الاعوام قد حاربتهم ◈ مع ستة والنصر تحت لوائي
ما غزوة لي فيهم الا وقد ◈ رمت الشهادة فيها من مولائي
هذي جرائدهم وهذي كتبهم ◈ تنبيك عن قتلي بهم وبلائي
ومن العجائب ما بجسمي منهم ◈ جرح ولا من طعنة شلاء
ما للجبان وعيشة قد عاشها ◈ خل الجبان رهين ذاك الداء
خلع الرداء وقال هل من طعنة ◈ فوجدته كالفضة البيضاء

هذا هو الشرف الذي يتنافس ال _ متنافسون به بيوم علاء

وله بانواع العلوم مكانه ◈ قد صيرته اعلم العلماء
يا نكبة ما رحت اذكر وقعها ◈ الا وبت بحالة الخنساء
من لي لو اني من الأمير فدائه ◈ ولو ان اعداه تكون فدائي

هو ثالث القمرين بل هو ثالث ال _ عمرين بل هو بهجة الغبراء

ايه بني الآداب مات عياذكم ◈ وغياثكم من هول كل بلاء
هذا الأمير مضى لرحمة ربه ◈ سبحان ربي ارخم الرحماء
فابكوا والا ان قدرتم فاصبروا ◈ فالصبر خير ذخيرة ورجاء
والصبر اجدر بالحجا ولو انه ◈ يجدي البكاء عليه طال بكائي
فتذكروا من قبله من بينكم ◈ خطب له هان كل بلاء

اما الأمير فقد في جنة ال _ ماوى وجاور اكرم الكرماء

وغدا ينادي نلت ما املته ◈ من خالقي وبلغت كل منائي
وسعادة الدارين حزت فارخوا ◈ طيبا بحسن الظن من مولائي
والله نسأل بالنبي محمد ◈ خير الأنام وسيد الشفعاء
يبقى لنا انجاله ويقيهم ◈ من كل ما يخشى من الاسواء
المعتلين من الفخار مراتباً ◈ ورثت عن الاجداد والآدباء
بيض الوجوه بكل مكرمة لهم ◈ منن ارتنا الف حاتم طائي
آل الشهامة والفتوة والتقى ◈ واولى الحجا والفضل والآراء
امحذري بعد الأمير وفائهم ◈ دعني من التحذير والاغراء

أبناء عبد القادر الحسني ابن مح _ يي الدين ساداتي وأهل ولائي

وعلى محمد باشا وارث سره ال _ سامي تلوح مخايل السعداء

كنز الحقائق مجلبي بدراية ◈ يسمو على الاشباه والنظراء
وكذلك محيي الدين باشا من زكا ◈ خلقا غنيت به عن الصهباء
اسد بيوم الروع الا انه ◈ شمس لقد لاحت بغير خفاء
قسما بعيش ابيهم وبماله ◈ عندي من المعروف والاسداء
انا لم ازل حسان مدح علاهم ◈ وبه فخار مدائحي وثنائي

والله يسقي قبر والدهم من ال _ غفران صوب الديمة الوطفاء

ما ناح مشتاق لفقد احبة ◈ باتوا فبات ينوح كالورقاء

'ومنهم الشاعر الأديب محمد أفندي الهلالي الحموي قال'

سهام قضآءالله ليس لها ردُ ◈ وكاس الردى ما من اذاقته بدُ
بلى كل شيء هالك غير وجه من ◈ له الحكم حتماًلاشريك ولاضد
محال إذا جاء المفدر حيلة ◈ لمستعصممن ان يلم به كد

عنآء حياتي كلها بعد سيد ◈ به فجع الإسلام والعلم والمجد
واظلمت الاوطان حين بجسمه ◈ تنورت الاكفان وابتهج اللحد
سقى وابل الرضوان اعظم مرقدِ ◈ حوى بحر فضل ما لتياره حد
كأن لم يكن برُ كأن لم يكن تقى ◈ كأن لم يكن صدق كأنلم يكن رشد
طوى الكل بعد النشر بعض من الثرى ◈ فلم يبق الاالذكر والشكر والحمد
مضى الجودوالاحسان والعفة انقضت ◈ وصاحبها العرفان والعلم والزهد
مضى ابن بني الزهراء حقاً لجده ◈ فيا حبذا الابنآء والاب والجد
معز اليتامى والارامل كنزهم ◈ إذا الضبع الشهباء ذلت بها الاسد
بروحي بروحي آه لو يفتدى بها ◈ أمير بامر الله جدبه الجد
هنيأ لجنات النعيم بقرب من ◈ ارانا جحيم الحزن من بعده البعد
هنيأ لمحيي الدين قدس سره ◈ بجار حماه للبحار والسعد
مصاب اصاب الدين لو ان بعضه ◈ على أحد لاندك من هوله أحد
قيامه رزؤ لو ترى الناس بالبكا ◈ محاجرهم جرحى واعينهم رمد
لهم زجل بالذكر لله والدعا ◈ وادمعهم سحب واعوالهم رعد
سكارى وما هم بالسكارى وإنما ◈ وفاة ابن محيي الدين حق بها الوعد
سرى نعشه فوق الرقاب وحوله ◈ ملائكة الرحمن انوارهم تبدو
لقد جل عن ان يدفنوه بروضة ◈ هي الروح والريحان والمسك والند
تقي نقي جاور الله في البقا ◈ واقبل بالبشرى على القادر العبد
وقور غيور ناسك متواضع ◈ على انه المقدام والاسد الورد
على انه البسام يوم كريهة ◈ إذا عبست من تحت فرسانها الجرد
فتى من رجال الله كان على العدا ◈ حساماً صقيلاً لا يفل له حد
فتى كان لا يخشى من الخصم سطوة ◈ وليث الشرى حاشا يروعه القرد
فتى في سبيل الله كان مجاهداً ◈ وليس له الا رضا ربه جهد
همام كمي كم ازاح ملمة ◈ بسيف رقاب المعتدين له غمد
هزبر هصور في الجزائر كم له ◈ وقائع لا يقوى على حصرها عد
سراج على سرج الجواد كأنما ◈ من الرعب والارهاب يقدمه جند
نعيناه للمحراب والحرب والندى ◈ فكل علاه الحزن والسهد والوجد
عطاء ولا من وعفو ولا حقد ◈ وجبر ولا كسر وود ولا ضد
حسان مزايا بانتقال حليفها ◈ تعطل جيد المجد وانفصم العقد
لحا الله داراً للزوال نعيمها ◈ واولها مهد وآخرها لحد
غرور حياة وهي غرآء حي ◈ بانيابها سم يمازجه الشهد
فتاة تراها وهي شر عجوزة ◈ كما الدهر لم يصرم حبائلها الشد
تصيد البرايا واحداً بعد واحد ◈ فلم ينج منها لا كريم ولا وغد
مجربة تباً لها من خؤونة ◈ فلا موثق منها يدوم ولا عهد
عروس ولكن المحال حليها ◈ لها المين مرط والخداع لها برد
لعوب كما الصهبا بالباب اهلها ◈ تروح بهم طوراً وطوراً بهم تغدو

فما نصحت الا وغشت وهكذا ◈ قياس قضاياها لنا العكس والطرد
شكونا ونرد الدهر ليس بسامع ◈ وهل تنفع الشكوى إذا حكم النرد
فليس لنا الا التوكل والرضا ◈ بما قد قضاه الواحد الاحد الفرد
فصبراً جميلاً انها لمصيبة ◈ يذوب اسى من حرها الحجر الصلد
ولكم إذا في نار حزن ثوى الحجا ◈ خبت ومع التسليم اخمدها البرد
وآل رسول الله اولى من الورى ◈ بان يتحلوا بالوقار ويعتمدوا
هم الحسنيون الأولى صوب صيتهم ◈ به السن الإحسان ما برحت تشدو
هم الكاظمون الغيظ والصابرون هم ◈ رياحين زهرآء النبي إذا عدوا
وهم عهدتي في شدتي وذخيرتي ◈ بدنياي والاخرى هم القبل والبعد
ولاسيما انجال من قد مضى ومن ◈ رحيق شراب الانس طاب له الورد
مصابيح فضل عظم الله اجرهم ◈ ولا ساءهم من بعد من فقدوا فقد
وابقاهم الرحمن للناس رحمة ◈ سحائبها يروى بها الغور والنجد
نعك كلهم نجب كرام ثوابت ◈ لدى الروع حتى ان اصغرهم طود
واكبرهم من دونه الدهر همة ◈ بغيرة ندب اوحد ما له ند
محمد السامي سمآء مقامه ◈ على تاشمس لا نكر هناك ولا جحد
أمير وجيه الوجه والجاه كوكب ◈ منير به العلياء تم لها السعد
لاحسانه تصبو العفاة وحسنه ◈ تحن له ليلى وتشتاقه هند
بديع معان عن ادآء بيانها ◈ لقد كلت الاقلام والالسن اللد
كفى بشذاه سيره وسريره ◈ فما الشيخ والقيصوم والبان والرند
وما غايتي بالمدح الا تشر في ◈ باروع من بيت القصيد هو القصد
إليه سرت اسرار والده الذي ◈ بعدن مع الابرار طاب به الخلد
وسار إلى المولى بتاريخه وقد ◈ دعاه بجنات البقاء رجب الفرد
عليه من الرب الرحيم السلام ما ◈ بكت مقلة وابتل من دمعها خد
وما ابن هلال راح ينشد قائلاً ◈ سهام قضاء الله ليس لها رد

'ومنهم عمر البربير البيروتي فقال' :

لم اسودت الدنيا ولم يك غاسق ◈ واظلمت الافآق حتى المشارق
خليلي رعاك الله قل لي ما الذي ◈ لقد صار في الدنيا فانك صاق
فهل آن خلي للقيامة وقتها ◈ ونفخ بصور ثم يصعق صاعق
وبعث الورى والحشر ثم وانه ◈ تقوم لرب العالمين الخلائق
ارى الكون مسودًا ارى الشمس لم تبن ◈ ارى البدر لم يسفر وما هو شارق
وان نجوم الافق غير طوالع ◈ فلم يبد مسبوق ولم يبد سابق
واين السما غير الظلام فلا يرى ◈ ولو حد يالتحديق والوثق وامق
ازالت والا بالظلام تحجبت ◈ فما شأنها قل لي فصدري ضائق
ومالي ارى الاطواد ليس بحالها ◈ فكم قد طود وكم دك شاهق

وما لي ارى الاطيار خرسا ولم يكن ◈ عن الصدح والتغريد يسكت ناطق
ومالى اراها لا تطير وانها ◈ وان هي قد قصت جناحاً خوافق
فما الخبر الشافي خليلي به اشفني ◈ فاني بالتحديث منك لواثق
فأنت أبو الاخبار يروي صحيحها ◈ اخو الثقة الثبت الصدوق المصادق
وها لم ازل فيه إلى ان اجابني ◈ وادمعه من مقلتيه دوافق
بصوت خفي قد يدق سماعه ◈ اجابة باك وهو بالدمع شلرق
وقال نعم اودى خليفة مالك ◈ ومالك هذا العصر من لا يسابق
امام ذوي التحقيق قدم فيهم ◈ وتقديمه فيهم عليه توافقوا
وجيه اولى التدقيق وهو اميرهم ◈ له نشرت فيه عليه البيارق
هو الشمس عبد القادر السيد الذي ◈ على فضله أهل العلوم تصادقوا
فكم قد محا جنحاً من الجهل داجيا ◈ فزال ولم يظهر من الجهل غاسق
هو البحر علماً عنه حدث مبالغاً ◈ فأنت على التحديث عنه موافق
هو البحر ينبوع الولاية رائقاً ◈ على سطحه ماء الصلاحة دافق
هو العلم المشهور في كل جانب ◈ فليث تفوق الغرب فيه المشارق
وخير شهود المرء بالفضل في الورى ◈ وعندهم فيه اشتهار يطابق
على فضله كل الافاضل اجمعوا ◈ ومنهم بدون الخلف تم التوافق
وقد اجمعوا ان لا يجاري مسابقاً ◈ كذا ويحوز السبق حين يسابق
وقد رضيت منه سجاياه كلها ◈ وقل الذي ترضيك منه السلائق
وطاب بحسن الخلق سيرة ◈ وصيتاً كما قد طاب منه الخلائق
كجود وحلم ثم حسن تواضع ◈ وفي حسن الأنام يخالق
ورفع الاذى والضر والنفع شأنه ◈ وقد أمنت في الدهر منه البوائق
دعاه إلى اجنات داعي الهنا ضحي ◈ قلبي مجيباً لم تعقه العوائق
وسار يجد السير وهو مشوقها ◈ وياقرب مقصود له سار تائق
وقد ساقه رضوان مولاه نحوها ◈ ويافوز من رضوان مولاه سائق
وسارالى الفردوس بالعفو والرضا ◈ ونال خلوداًوالنبي يرافق
فبشراه بالفوز العظيم وانه ◈ يجاور مولاه وليس يفارق
ولكننا فيه اصبنا مصيبة ◈ نحل كما قد عظمتها الخلائق
بها قصمت منا الظهور وقد وهت ◈ كواهلنا عن حملها وعوائق
قفا نبكه حتى القيامة ادمعاً ◈ تسيل بها الاحداق وهي زواهق
وتبدو بها الارواح صاعدة لها ◈ وتنزل مثل الودق والودق دافق
وحق علينا ان نشق قلوبنا ◈ واكبادنا لاان تشق البنائق
فياليته يفدى وكنا فداءه ◈ وان يكن ممن له الموت لاحق
ولكنما بالموت ربي قد قضى ◈ ومن كان ذا نفس فللموت ذائق
وان كان ذاق الموت والقبر خازه ◈ فما زال حي الدهر ما بان شارق
فقد خلف الصيت الحميد وانه ◈ لاذفر مسك مالىء الكون عابق
ومن عاش ذكراً فهو حي حقيقةً ◈ ومن لم يعش ذكراً فذلك وابق

وخلف فينا كل نجل مكرم ◈ ولاسيما من بالمعارف غارق
سمي اجل المرسلين محمد ◈ عليه صلاة الله ما لاح بارق
أبو العلم رب الفهم نجل مكرم ◈ اخو الحذق يبدو لا يدانيه حاذق
نصدر للتأليف والنفع بعده ◈ تصدر كفء وهو أهل ولائق
وان حاز فضلاً من ابيه فانه ◈ وبشراكم سام عليه وفائق
ولاغرو فابن الليث ليث غضنفر ◈ ولاعجب فابن البواشق باشق
فتنا أيها الولى الذي قل مثله ◈ فكالشمس لامثل ولافرق فارق
لئن كنت مولانا اصبت مصيبة ◈ على هولها منا تشيب المفارق
تذكر بخير الرسل اعلى مصيبة ◈ يقل لديك الخطب إذ أنت ضايق
وصبراً فان الصبر اليق بالفتى ◈ وعن اجره مولاي يقصر النطق

وفيك لنا عمن اصبت اخا الحجا _ به خلف منه استطيب الخلائق

واسال ربي الله حسن عزاكم ◈ واعظامه اجراً به الفضل حائق
ويسكنه الفردوس قرب جواره ◈ وفيه له بالدر تبنى الجواسق
ويسقي قبراً ضمه غيث رحمة ◈ يقلب فيه وهو في ذاك غادق
مدى الدهر ما هبت رياح لوافح ◈ وما امطرت غب البروق البوارق
وما عمر البربير يسال قائلاً ◈ لم اسودت الدنيا ولم يك غاسق

ومنهم خليل أفندي البربير البيروتي قال :

حطب الم بنا اجرى العيون دما ◈ لقد سكا الخلق من اهواله ألما
فليندب المجد في الاكوان مظهره ◈ إذ راع ركن العلى والعز فانهدما
يا للمصيبة من خطب سطا وغدا ◈ فلم نجد أحداً من حزنه سلما
ياللنوائب من هول به كسفت ◈ شمس الهدى فكسا اذاقنا ظلما
رزء تداعت به شم الجبال وقد ◈ الوى به زعزع اضحت به عدما
يا للرزية من رزء بوقعته ◈ اثار في كل قلب بالاسا ضرما
كادت به الأرض من حزن تميد كما ◈ غدت هشيماًبه من هول ما صدما
هل بعد ذا الخطب ما بين الأنام يرى ◈ خطب به كل جفن يرسل الديما
أو هل ترى بعده في الكون مزعجة ◈ تخفي السرور ويبدي الحزن والسقما
كلا لعمري فهذا الخطب صدمته ◈ قد زعزعت كل رأس قد غدا علما
اضحى به رجب يبدي لنل عجباً ◈ عشنا به فرأينا رزءه وهما
شهز اصم به في الكون قد ظهرت ◈ نوائب ارقرت اسماعا صمعا
يد المنون به اغتالت أمير على ◈ فاغتالت المجد والمعروف والكرما

نتيجة الدهر عبد القادر العلم ال _ مولى الذي في البرايا قدره عظما

السيد السند الشهم الذي عظمت ◈ اخلاقه فاغتدى بين الملا علما
روح السيادة تاج المجد بهجته ◈ ثغر المعالي به قد كان مبتسما
انسان عين اولى العلياء سيد من ◈ سيب المكارم منهم سح والسجما
أمير مجد سما هام السهى شرفاً ◈ وكان للعز والعلياء خير حما
أمير حزم حكت ارؤه سهباً ◈ لكل ما رد خطب رائع رجما
غوث الطريد وغيث اللائذين إلى ◈ حماه يمطرهم من جوده نعما
ناديه مصدر أنواع الندى ابداً ◈ ما من يوماً بما يعطي ولا سئما
اربى على كل ذي فخر بنسبته ◈ لسبط خير الرسول بالفخار سما
بمحد سادت السادات وافتخرت ◈ وعقدهم بعلاه كان منتظما
اقواله درر افعاله غرر ◈ وجه المعالي بها قد كان كبتسا
مسدد الرأي ماضي العزم همته ◈ قد ادهشت بعلاه العرب والعجما
مولى يقصر عن ادراك غابته ◈ نجم السماء إذا ما حادث هجما
بكت عليه عيون المجد شاكية ◈ غبشاً الم بها من فقده وعما
بكت عليه عيون الفخر نادبه ◈ نبراسها من سناه قد جلا الظلما
بكت عليه عيون الصحف من أسف ◈ كما بكته عيون العلم والعلما
وكل طالب علم قد بكاه اسى ◈ إذ كان يكسبه من عمله حكما
بكت عليه سماء الفضل إذ فقت ◈ بدراً سناه لجيش الجهل قد هزما
بكت عليه العوالي السمر حين سرى ◈ والبيض ريعت وامسى اسمها عدما
مولى مآثره تسمو مفاخرها ◈ والدهر عن مثله في المجد قد عقما
مولى لقد كان للايتام خير ابٍ ◈ يذود عنهم صروف الدهر والنقما
مولى به خاننا الدهر الخؤون بما ◈ اتاه عمداً ولم يحفظ لنا ذمما
بفقده قد فقدنا كل منقبة ◈ كنا نفاخر في احرازها الا مما
لكن باشباله الغر الكرام لنا ◈ حسن العزآء وان كان الاسى عظما
اكرم بهم خلفاً دلوا على سلف ◈ بالخلق والخلق والعرف الذي انتظما
وانهم خير أبناء لخير ابٍ ◈ تمثال افضاله في الكون قد رسما
لا سيما درة العقد الفريد بهم ◈ أمير من ساد في العليا وكان حي

محمد الذات ممدوح الصفات ومم _ دوح الخلال الذي فاق الورى شيما

وصنوه الشهم محيي الدين سيد من ◈ اضحى بكل كمال راسخاً قدما
داموا موالى هذا العصر يخدمهم ◈ سعد العلى ولحجاج المنى حرما
وجاد ترب ضريح ضم والدهم ◈ من الراحم غيث دام منسجما
ولا يزال من الرحمن يؤنسه ◈ فيه رضاه بيده كلما ختما

'ومنهم الأديب شبيب بك الاسعد قال' :

اتدري بهذا العصر من غاله الردى ◈ ومن مد صرف الحادثات له يداً
ومن كان في عبء الرياسة قائماً ◈ فغادره ريب المنون موسداً
واي اما في الأنام غدا له ◈ بافق سما العليا مقاماً ومقعداً
واي همام في البرية ذكره ◈ يضيء إذا الحادى به في الدجى حدا
واي مقام في الحياة وبعدها ◈ غدا في السما فوق السماك ممجدا
واي محيط قد احط بفضله ◈ جميع البرايا ضمن قبر توسدا
فذلك عبد القادر الشامخ الذرى ◈ أمير الورى من كان بالدهر مفردا
ثبير إذا يممت تلقاه دونه ◈ وهيهات تلقى فبه مرقى إلى العدا
فما قبله فوق البسيطة شاهق ◈ بارض دمشق الشام قد صار ملحدا
هوى فهوى الدين العلي مكانه ◈ وقد ثل عرش العلم والحلم والندى
مضى فمضى من بعده الزهد والتقى ◈ بثوب خليق طالما منه جددا
قضى فقضى حفظ العهود فمن بها ◈ معاهده في الناس لم تلف معهدا
نأى فنأى طيب الكرى ولقد جرى ◈ من الجفن هثان دعاء مسهدا
وراح فراح الخير من بعدما غدا ◈ فواها لدهر خان فيما به اعتدى
وولى فولى الفخر والفضل والحجى ◈ وقد ترك العافين من بعده سدى
وقد عميت عين المعالى من البكا ◈ وناظر ام المجد اصبح ارمدا
ودك ثبير في عظيم مصيبة ◈ لقد هد ركن الرشد فيها مع الهدى
ونادى منادى العز من لي كافل ◈ فانيقد أصبحت بعدك مقعدا
ورب الولا امسى يقول ودمعه ◈ حكنهيجان البحر مذ صار مز بدا
فيا كبدى الحرا عليه تقطعي ◈ فان فؤادي ذاب مما تكبدا
لقد كان هذا الدهر ذو عزة به ◈ ومذ بان اضحى ساحب الوجه اسودا
وحل الندى وابن الندى وأبو الندى ◈ برمس ثوى فيه الندى ابد المدى
وقد غاض بحر الجود والناس أصبحت ◈ حيارى فلا يلفون بعدك موردا
فمن ذا الذي لم يدر ان بني العلى ◈ اصيبوا بخير الخلق فخراً وسؤددا
وان علوم المصطفى ربعهاعفى ◈ وبعدك شمل المجد امسى مبددا
لقد كان ياريح الحمام بجلق ◈ مليكاً به نهج النجاح ممهدا
وكان بها دفاع كل ملمة ◈ ومنجا لمن يبغي النجاة من الردى
وكان لاهل الفضل كهفاً زملجاً ◈ وكان بهم عيناً وكان لهم يدا
فبات وخلى طيب الذكر والثنا ◈ وابقى ايادى فضلها لن يعددا
فحزني له لاينقضي ابداً وما ◈ تقادم قيه العهد الاتجددا
ولوكنت ادري ان موت عميدنا ◈ وسيد هذا الكون في الناس يقتدى
لكنت بطيب العيش اسمح دونه ◈ وكانت لعمر المجد نفسي له الفدا
ومن عجب يا للانام لحادث ◈ رايناه عن ادراك ذا الخلق مبعدا
لقد غربت في الشرق شمس سنية ◈ ومشرقها من جانب الغرب قد بدا
فيا لمصاب فادح جمع الاسى ◈ وشمل الاسى في الناساجمع بددا

إذا رمت صبراً عنه فر واين لي ◈ على مثل هذا الرزء ان أتجلدا
ولما رآه الله في عالم الفنا ◈ حباه بقاء في النعيم مخلدا
ورضوان لاقاه برضوان ربه ◈ واكرم مثواه وبالبشر قد غدا
ونظمه الرحمن في سلك جده ◈ فطوبى لمن في الخلد جاور احمدا
وانزله سبحانه منزلا به ◈ تربالملاء الاعلى ركوعاً وسجدا
رقى فوق كرسي الجلالة في الدنا ◈ وفي جنة الفردوس صرحاً ممددا
فيا علماً في المشرقين هو الذي ◈ غدا بين اعلام البسيطة مفردا
لك النسب وضاح من خير والد ◈ واشرف جد في العوالم اوحدا
تعالى الذي القى ابيك في ◈ مكان له جاورت فيه ليسعدا
هو الاكبر الشيخ الاجل اجل من ◈ به نور علم العالمين توقدا
هو العربي العارف العالم الذي ◈ بمكنون اسرار الآله تفردا
فطبت وطاب الجار منك بطيب من ◈ بطيبة فخر الخلق جدا له غدا
فاكرم به من مفخر لك ينتمي ◈ على العالم العلوي قد بلغ المدى
فيا أيها السيف الذي فلل الردى ◈ سناه وقد كان المفلل للردى
اتغمد في غمد الصعيد واننا ◈ عهدناك قبل الآن سيفاً مجردا
وهل عهدت منك الشهامة ان يرى ◈ مناديك لايلقىمجيباً سوى الصدى
لعمري ما نوديت في معضل عرى ◈ وناب ولم تسرع لتلبية الندى
فاقسم لولا ان تغادر في الورى ◈ بعيدك ياشمس الورى قمري هدى
محمد خير الناس بعدك والرجا ◈ كذالك محي الدين من فيه يقتدى
لكنا جعلنا ندب فقدك سنة ◈ وكنا اتخذنا القرح فرضاً مؤبدا
فانعم بمن خلفت فينا هم الأولى ◈ غدا موضع الآمال فيهم مشيدا
وما قيل من كهف المعالي وكفؤ ها ◈ ومرجعها الا رأيت محمدا
أمير له في الجد اسمى مكانة ◈ وشهما جليلا في البرية اوحدا
عظيم اياديه جسام عظيمة ◈ وغير السجايا الغر لن يتعودا
وليس له مشبه غير صنوه ◈ عميد بني العليا الكريم المسودا
هماالقمران النيران فلم تجد ◈ بغيرهما في الشرق والغرب مهتدى
فيا سادة ما مر في سائر الملا ◈ وليداً لهم الا وعدوه سيدا
بمدحكم حادت بدائع فكرتي ◈ ونظمي حكى درا ثمينا منضدا
اليكم بني جير الأنام قصيدة ◈ إذا انشدت تلقى لبيدا ملبدا
بكم حسنت منكم زكت فيكم ازدهت ◈ بذكركم طالت فخاراً ومحتدا
لكم وجميع الناس اضحت عليمة ◈ به وغدا للعالمين مؤكداً
ولاء ولي وابلي لقد اتى ◈ سواء شبيب بن العلى بن اسعدا
فيا راحلاً لولا الذين تركتهم ◈ بكيتك من دمعي دماء مدى المدى
عليك من الله المهيمن رحمة ◈ يلازمها الغفران والعفو سرمدا
ولازال من ابقيت في افق العلى ◈ لهم منزل ما غاب نجم وما بدا
وهنئت في فصر لشانك ارخوا ◈ باسمى مقام في النعيم تشيدا

ومنهم الأديب أحمد أفندي وهبي الحلبي قال :

قلب تغطى في أليم سقامه ◈ وتضرمت احشاؤه بضرامه
ومحاجر جادت بفيض دموعها ◈ ونعت رفيع القدر يوم حمامه
وجوارح فتك النوى بفؤادها ◈ وارشه ظلماً بحد سهامه
وجوانح ذلبت اسى وتلوعاً ◈ وشكت مصاب الحتف وقت خصامه
ومصائب ونوائب قد حكمت ◈ ريب المنون فجار في احكامه
يا بين ويحك قد غدرت بفاضل ◈ فاق البرية حكمه بكلامه
الشهم عبد القادر المولى الذي ◈ عم العوالم في جدا انعامه
هو صاحب البخر المؤثل والحجا ◈ بين الخليفة والوفا بذمامه
قضت المواهب والمكارم مذقضى ◈ هذا المكرم نحبه في عامه
ما للحماسة بعده من صاحب ◈ يحمي الذمار برمحه وحسامه
وغدا المطهم يسرع الجريان في ◈ ميدان الحزن خانه بمهامه
نعت المعارف فقده وغدا النقى ◈ متفاخراً بصلاته وصيامه
رفعت ايادي المجد فوق رؤسنا ◈ نعشاً يسير النور من قدامه
ابت المعالي غيره لما رأت ◈ رايات عدل في على اعلامه
يا عصبة الفضلآء فابكوا فاضلاً ◈ خلقت مزايا الفضل من اكرامه
يا معشر العلمآء فامنعوا عالماً ◈ رشد الهداية كام من افهامه
يا زمرة الشعرآء فارثوا من غدت ◈ امواله تعتد من اخصامه
فرض على الادبآء نظم رثائه ◈ والشهم من يرثيه في اقلامه
اسفاً على النائي مدى الاعوام ما ◈ يوم تبدل صحبه بظلامه
حيث الجنان فتحت ابوابها ◈ واستبشرت فرحاً على اقدامه
والحور والولدان كل منهم ◈ في زينة ليكون من خدامه
والله قد اعطاه ما يرضى به ◈ كرماً من الخيرات طبق مرامه
صبراً بني الحسنين لم يقض الذي ◈ انجاله ورثوا عظيم مقامه
هم خبرة الاقوام ما بين الملا ◈ في عنصر يزكو بطيب سنامه
نسل النبي المصطفى من خصهم ◈ رب البرية بعده بسلامه
لا سيما المولى الأمير محمد ◈ شهم جليل القدر في اقوامه
السيد المفضال من بذل الندى ◈ هو حاتم الطائي في ايامه
علم المعارف من زها في عصره ◈ بعلومه كالبدر عند تمامه
ورع بذكر الله اصبح مغرماً ◈ بمسيره وقعوده وقفيامه
اني على علم به ناديته ◈ يا من مديحه فخره بنظامه
يا هاشمي الأصل يا من مجده ◈ يهديك نفح الطيب نشر خزامه
فانظر محسوب بساحة فضلكم ◈ عهد القديم مخيماً بخيامه
افضال والكم عليه تقدمت ◈ فكأنه قد عد من أرحامه
ختم القريض بمدحكم وبقوله ◈ ارخ له اوفى بمسك ختامه

'ومنهم الأديب سليم أفندي قصاب حسن الدمشقي قال'

رزء على افآق جلق خيما ◈ فامتد حتى الكون منه اظلما
عظم المصاب فقل صبري عنده ◈ الله اكبر ما اقل واعظما
شمس الحقيقة قد توارى نورها ◈ في انترب والخطب العميم هخيما
شعل الأسى قلب الفخار فأصبحت ◈ عين العلى تجري المسامع عندما
فقد الأمير أمر صاب كأسه ◈ واحر أحشاءٍ به تقضى ظما
أصلى القلوب بنار وجدٍ وهو في ◈ غرفات جنات النعيم تنعما
مولاي عبد القادر الحسني الذي ◈ فاق الملا علماً وحلماً وانتمى
شهم أقام الدين طول حياته ◈ هدياً وما ضل الطريق الا قوما
يمسي بمحراب التواضع عاكفاً ◈ يخشى ويرجو ربه مستعصماً
متحقق متقين متجرد ◈ لله ما عبد الإله توهما
علم على ورع على زهد على ◈ تقوى على جود على فضل نما
افنى بقهر النفس جسماً نائلاً ◈ في طاعة الله البقاء الادوما
من بالواقف بعده يحيي الدين الدجى ◈ مستمناً ذاك التجلي الاعظما
ما زال يقفوا اثر محيي الدين حتى ◈ حاز حسن الجوار ذياك الحما
بشرى له مؤمن هجر الدنا ◈ حتى إذا ناداه لبى محرما
قولوا لمن بالماء يبغي غسله ◈ يكفيه من دمع المعالي ما هما
حنطه في حسن الثناء فانه ◈ من اكرم الاطياب كان الاكرما
يا أيها المولى المولى دفنه ◈ دعه ووكل فيه أملاك السما
ما كان الا بحر فضل ذاخرا ◈ متدفقاً من كل علم قد طما
واكان الا كعبة في شامنا ◈ تسعى له الآمال نيلا واحتما
نبكى على هذا الفقيد وانه ◈ لاقى مشاهد ربه مبتسما
وإذا اطلعت على القلوب فلا ترى ◈ قلب امرئ إلا وذاب تألما
بالروح كنا نفتديه من الردى ◈ لكن أمر الله كان محتما
كل يراقب يومه فإذا انقضت ◈ أوقاته كان المقدر مبرما
ما الناس الا نائمون بأسرهم ◈ والموت يوقظ هؤلاء النوما
نفد القضاء فليس يجمل عنده ◈ الا الرضا والصبر أحلى مغنما
ما مات من ابقى جميل الذكر في ◈ لوح الوجود على الدوام مترجما
من كل ندب للمعارج سابق ◈ بالمجد والإجلال ضاهى الانجما
لاسيما الشهم الأمير محمد ◈ باهى الصفات الغر أسمى من سما
داموا بإقبال ونرجو الله في ◈ حسن الخواتم للورى ان يختما

'وقال بعضهم'

تبأ أتى بتضعضع الإسلام ◈ لبست له الأيام ثوب ظلام
وعرى جميع الأرض منه رجفة ◈ وقواصف قد هد ركن الشام
وأرى البلاد تمور مور سفينة ◈ من فوق أمواج ببحر طام
فكأن يوم النفخ فاجأ معلناً ◈ يدعو الأنام ألا ائذنو لقيام
فغدوا سكارى حائرين كأنهم ◈ مرضي بهم عبثت يد الأيام
فقدوا غياث العالمين وغوثهم ◈ كهف الأرمل كافل الأيتام
رفعوه يحثون التراب فغبرت ◈ غبراء جللت الورى بقتام
فتراهم والنعش فوق رقابهم ◈ حملوا ثبيراً طاشي الأقدام
حملوه والملكوت يرفدهم إلى ◈ اسنى مقام في البسيطة سام
في جنت محيي الدين منبع فيضه ◈ سر الوجود ومعدن الالهان
دفنوا عميد الطالبيين الأولى ◈ في وصفهم تاهت اولو الافهام
كان السنان لهاشم ولسانها ◈ في يوم معترك ويوم خصام
كيف انتحى صرف الزمان لمانع ◈ منه ومن كل الحوداث حامي
هو فرع الاصل في السماء غدت له ◈ ام الثوابت موطىء الاقدام
علم به ارتفعت يد المقدور مذ ◈ ابقى لنا علماً من الاعلام
ذاك الأمير محمد من حاز في ◈ علياه اسمى مرتقى ومقام
وله اياد كالنجوم لوامع ◈ لم تحص بالاعداد والارقام
وإذا ترنمت الحداة بها جلا ◈ ومحا سناها آية الاظلام
وكذلك محيي الدين بدر لم تزل ◈ بسناه تشرق اوجه الأيام
أبني النبي ذي رزءٍ اسى ◈ بمصيبة عظمت على الإسلام
بكيت لها عين النبي محمد ◈ وبنيه من شادوا بنا الاحكام
دمتم ملاذ العالمين ويستقى ◈ غيث الرضى جدت الأمير الشامي

'ومنهم الأديب نعمان أفندي أبو شعر قال'

هذا التابين ورثـاه لصـاحب الشـرف والمجـد الرفيـع انسـان عين الـدهر ونتيجة تاج الفخر مولاي الأمير عبد القادر الحسني الجزائري تغمده اللـه برضوانه واسكنه فسيح جنانه .

70